دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية



ليو تولستوي

الحرب والسلم

الياذة العصور الحديثة

المجلد

٢

نقل هذا الكتاب الى اللغة العربية نخبة من اسرة

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

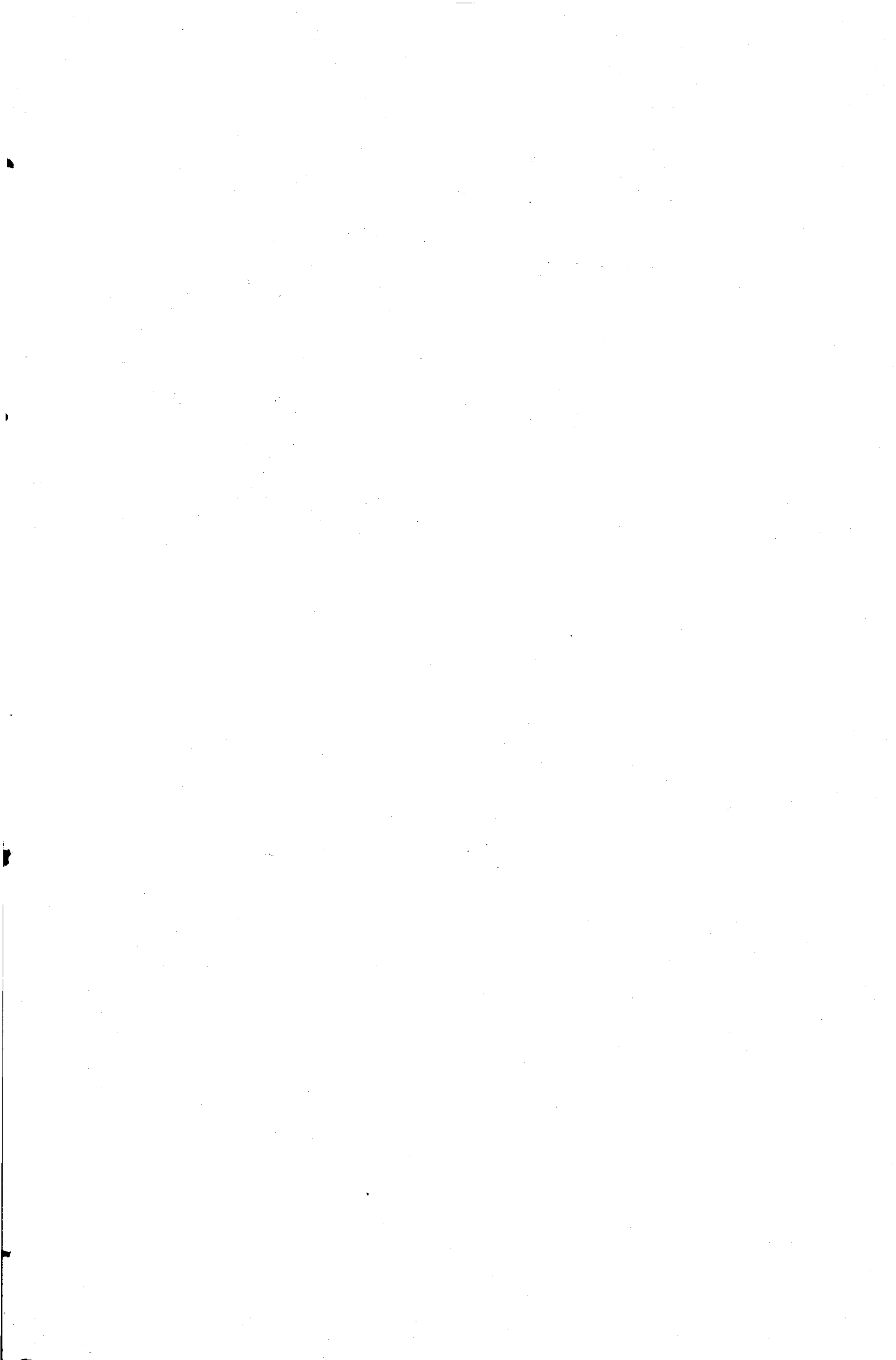
استناداً الى الترجمتين الفرنسية والانكليزية
وروجع النص الاخير على الاصل الروسي

سلسلة عيون الأدب العالمي

٢٠

الكتاب الثاني

الجزء الأوّل



الفصلُ الأوّل

« عودة روستوف »

عاد نيكولا روستوف مأذونا في مطلع عام ١٨٠٦ ، وكان دينيسوف ينوي زيارة ذويه في فورونيج ، فاتفق معه روستوف على ان يترافقا حتى موسكو حيث يستضيفه فترة قبل متابعته رحلته الى فورونيج . كان لقاءهما قبل المرحلة الاخيرة من الطريق ، فاحتفل روستوف بذلك اللقاء بأن شرب مع زميله ثلاث زجاجات ونام خلال بقية الرحلة نوماً عميقاً رغم الجرات العميقة ، منطوياً على نفسه في الزحافة . اما روستوف ، فكان كلما ازداد قرباً من نهاية رحلته ، كلما ازداد الشوق في نفسه لظى وبلغ صبره منتهاه .

كان يفكر في نفسه بنفاذ صبر : « الن نصل اخيراً ؟ اوه ! الا نفتأ نمر في شوارع وبدكاكين ومخابز ومصابيح وعربات ! ان هذا لايحتمل ! » وكان اذ ذاك قد دخل موسكو بعد ان اشر على مأذونيته ومأذونية صديقه عند مدخلها .

هتف ينادي دينيسوف وقد مال غريزياً بجسمه الى الامام وكأنه يستحث سرعة الزحافة :

- دينيسوف ، لقد وصلنا ! ... انه لايزال نائماً ، ياللحيوان !

اردف في شبه هذيان :

.. هذه هي الناحية التي اعتاد « زاخار » الوقوف عليها بزحافته ...
آه ! هاهو ذا زاخار بنفسه ، ومع الحصان « اياه » الذي لايبدله ...وهذه
هي الدكان التي نشتري منها الحلوى ... بسرعة ، الله ، بسرعة اكثر !
سأل سائق الزحافة :
— أين ينبغي ان نتوقف ؟
— امام اكبر المنازل ، في اقصى الشارع ... الا ترى ! ... انه منزلنا...
دينيسوف ، دينيسوف ، لقد وصلنا !
رفع دينيسوف رأسه وسعل ، لكنه لم ينطلق بكلمة .
سأل روستوف تابعه وكان جالساً على حاجز الزحافة :
— دميتري ، ان النور الذي نراه يشع من منزلنا اليس كذلك ؟
— تماماً ، بل انه ينبعث من مكتب ابيك على الضبط .
— انه لم يأووا الى مهاجعهم بعد اذن ! هه ، ماذا ترى ؟...لاتنس بصورة
خاصة سترتي الهنفارية الجديدة التي يجب عليك اخراجها من الحقيبة فوراً .
وراح يحاول عقف شاربه الصغير الذي لما ينبت بعد . اردف :
— اسرع ، ضاعف السرعة !
وصرخ في اذن دينيسوف الذي عاد الى النوم من جديد تاركا رأسه يتأرجح
على صدره :
— الن تستيقظ يافاسيا ؟
وللسائق رغم ان ثلاثة منازل فقط اصبحت تفصله عن داره :
— اسرع ، سأمنحك ثلاثة روبلات ولكن زد سرعة جيادك . رباه !
كان يعتقد ان الجياد لاتتحرك . واخيراً ، مالت الزحافة الى اليمين ودخلت
الممشى المؤدي الى الدار . عرف روستوف حدود الرصيف والمرقاة ، والطنف
ذا الجص المكسر المتساقط . قفز من الزحافة وهي في سيرها وجرى الى الردهة

فوجدها خالية . كان المنزل في جموده وصمته يبدو غير آبه لمقدم القادمين . فكر وهو يتوقف متردداً منقبض الصدر : « آه ! رباه ! أيكون مكروه قد وقع ؟ » لكنه سرعان ماعاد الى جريه ، وارتقى السلم اربعاً فأربع ، ذلك السلم الذي كانت درجاته المنحنية مألوفة لديه . كان باب المدخل يحمل المقبض ذاته الذي عرفه قبل رحيله ، ذلك المقبض الذي كانت قذارته تثير غيظ الكونتيس وغضبها ، والذي كان يتحرك بسهولة ويسر لقدمه . رآى شمعة تضيء الردهة الداخلية وميخائيل العجوز نائماً فوق صندوق فيها . اما بروكوب ، وهو الوصيف المرافق ، ذلك العملاق الذي يستطيع رفع عربة من محورها الخلفي ، فقد كان يضفر خفاً منزلياً . التفت عندما سمع الباب يفتح ، واشرق وجهه الجامد النعس بذعر بهيج . هتف وقد عرف سيدة الصغير :

– ياملائكة النعيم ، انه الكونت الشاب ! هل هذا معقول ؟ آه ياعزيزي !

هرع بروكوب مضطربا من الانفعال الى باب البهو ليذيع النبأ . لكنه تماسك برهة وعاد على اعقابه يسند رأسه الضخم على كتف سيده الشاب .

سأله روستوف بعد ان خلص ذراعه :

– هل هم جميعاً في صحة طيبة ؟

– كل شيء على مايرام بحمد الله ! لقد تناولوا العشاء منذ حين . دعني اراك ياصاحب السعادة !

– صحيح ان كل شيء على مايرام ؟

– حمداً لله ، حمداً لله !

كان روستوف قد نسي في عجالته واندفاعه صديقه دينيسوف . خلع فروته ودخل على اطراف قدميه الى القاعة الكبرى المظلمة . كان كل شيء فيها كما تركه عند رحيله : موائد اللعب ، والنجفة وكل الاشياء المألوفة لديه . ويبدو ان بعضهم قد رآه ، لانه ما كاد يصل الى البهو الصغير حتى انقض احدهم عليه كالاعصار

قادماً من باب جانبي ، فطوقه وراح يغمره بالقبل . وجاء ثان وثالث كأن الارض قد انشقت عنهم ، وعاد العناق والقبل على اشده ، وارتفعت صيحات التعجب والدهشة والفرح وانسفحت دموع الغبطة . ما كان يعرف ايهم ابوه واي المهاجمين ناتاشا او بيتيا . كانوا يصرخون معاً ويتحدثون معاً ويعانقونه معاً . لكنه استطاع التنبؤ بان امه ليست بينهم .

ـ وانا الذي ما كنت انتظر وجودك ... نيكولا ، ياصديقي !

ـ هاهوذا اطفلنا الفتان ! ... هذا الصغير العزيز ! ... كم تبدل ! ... اسرعوا ، الي بالشموع والشاي !

ـ وانا يامهجتي ، وانا !

احيط به من جديد واعتصرته الاذرع ، وتناقلته الصدور ، فمن سونيا الى ناتاشا وبيتيا وآنا ميخائيلو فنا ، وفيرا والكونت العجوز ، فالخدم والصيفات وكل من في الدار .

كان بيتيا يصيح وهو متعلق بساقيه :

ـ وانا ، وانا !

اما ناتاشا ، فقد كانت مطبقة على خرج سترته تلتهمه بالقبل ، ثم تركته فجأة وراحت تدور حول نفسها وتطلق صرخات حادة عالية .

كانت النظرات كلها مفعمة بالحنان والعطف ، والعيون مبللة بالدموع ، والشفاه متعطشة للقبل .

كانت سونيا مضرجة الوجه كالزهرة البرية الحمراء ، متفجرة بالسعادة ، ممسكة بذراعه تبحث عن عينيه لتستجديها نظرة . كانت قد تجاوزت السادسة عشر من عمرها ، وازدادت جمالاً وخصوصاً في تلك اللحظة التي كانت السعادة تضطرم في اعماقها وتشرق من عينيها . كانت تتأمله باسمة كاتمة انفاسها . خصها بنظرة منفعلة والهة ، لكنه ظل يبحث عن شخص آخر . ذلك ان الكونتيس

لم تظهر بعد بين الموجودين . واخيراً ارتفع صوت خطوات قرب الباب. كانت خطوات مسرعة لا يمكن ان تكون لأمه .

مع ذلك ، فقد كانت هي القادمة . بدت في زينة لم يرهاروستوف من قبل فيها . افسح لها الجميع الطريق وجرى «هو» للقائها . ارتمت الكونتيس على صدر ابنها وراحت تنتحب . ما كانت تستطيع رفع رأسها ، بل راحت تضغطه بشدة على الاشرطة المذهبة التي تحلي سترته .

دخل دينيسوف الى البهو دون ان يشعر به احد ، ووقف مباعداً بين ساقيه يتأمل ذلك المشهد وهو يدلك عينيه بيديه .

قال يقدم نفسه جواباً على نظرة الكونت المستفسرة التي جحظت عليه بعد طول تنقل :

– فاسيلي دينيسوف ، صديق لولدك .

فقال الكونت وهو يبسط ذراعيه ويعانق صديق ابنه :

– تماماً ، لقد حدثني نيكولا عنك في رسائله ... اهلا بك بيننا ! ناتاشا ، فيرا ، هذا هو ، هذا دينيسوف .

تحـــولت الانظار المبتهجة المتحمسة السعيدة الى شخص دينيسوف الضخم واحاطت به .

زمجرت ناتاشا ، وقد اخفقت في ضبط شعورها ، وارتمت على عنق دينيسوف دون وعي :

– آه ، ايها العزيز ، دينيسوف العزيز !

ارتبك الحاضرون لطيش الفتاة واحمر وجه دينيسوف ثم ابتسم وامسك بيد الفتاة المتحمسة وقبلها . ثم اقتيد الى الغرفة التي خصصت له ، بينما اجتمع افراد الاسرة في المخدع ملتفين حول نيكولا .

جلست الكونتيس قرب ابنها ممسكة ابداً بيديه توسعها تقبيلا ، واحتشد

الآخرون حولهما يراقبون حركات نيكولا ونظراته ويحصون عليه كلماته ، شاخصين اليه بابصارهم المفعمة بالحب والابتهاج . وتزاحم اخوه الصغير مع اخوانه يتنافسون على اقرب المقاعد الى اخيهم الاكبر ، ويتنازعون شرف تقديم الشاي اليه او المنديل او الغليون .

وكانت سعادة روستوف لاتوصف وهو يرى نفسه موضع هذا العطف وذلك الحب . غير ان اللحظة الاولى التي مرت على لقائهم بلغت من تسامي العاطفة مبلغاً جعلته ينظر الى الدقائق التي بعدها وما رافقها من احاسيس، نظرته الى شيء تافه فقير في مضمونه ، وحفزته الى التطلع الى المزيد .

نام المسافران نوماً عميقاً بعد رحلتهما الشاقة فلم يستيقظا الا بعد العاشرة من صباح الغد .

وفي الغرفة التي تليها غرفتاهما ، تراكمت السيوف وجيوب الذخيرة والحقائب المفتوحة والاحذية الملطخة بالوحول . وجاء خادم بزوجين من الاحذية المنظفة الملمعة فوضعاهما قرب الجدار، وآخر يحمل الصحاف والماء الساخن لازالة اللحية، وثالث يحمل الالبسة النظيفة . اما الغرفة فكانت رائحة الرجل والتبغ تتضوع فيها .

ارتفع صوت فاسيلي دينيسوف ، الاجش صائحاً :

ــ هيلا ! ياجريشكا ، اليّ بغليوني ! وانت ياروستوف ، كفاك نوماً !

فرك روستوف اجفانه التي الصقها النعاس وانتزع رأسه من الوسادة الدافئة وغمغم متسائلا :

ــ استيقظ ؟ هل الوقت متأخر ؟

فأجابه صوت ناتاشا :

ــ بالطبع . لقد اشرفت الساعة على العاشرة .

وارتفع من الغرفة المجاورة حفيف الاثواب المهفهفة ، وتعالت الهمسات والضحكات الفضية المجلجلة ، بينما كان الباب الموارب يكشف عن شيء ازرق

واشرطة وشعور سوداء ووجوه مرحة كانت ناتاشا قد جاءت بصحبة سونيا وبيتيا تترقب نهوض اخيها من نومه .

كررت ناتاشا نداءها وهي واقفة بالباب :

ـ انهض يانيكولا ، انهض !

ـ حالاً !

وفي تلك الاثناء ، وقع نظر بيتيا على السيوف ، فحمل واحداً منها ، وهو يشعر بالحماس البريء الذي يستحوذ على نفوس الفتيان الصغار حيال المظاهر الحربية التي يتمتع بها الابكار ، وفتح الباب على مصراعه مغفلاً التقاليد الـتي لاتسمح لاخواته برؤية الرجال وهم نصف عراة ، وصاح :

ـ أهذا حسامك ؟

قفزت الفتيات الى الوراء مبتعدات ، وذعر دينسوف لهذه المفاجأة وبادر الى اخفاء سيقانه المملوء بالشعر تحت الغطاء وهو يلقي نظرة متطيرة الى رفيقه . ولما مر بيتيا ، اغلق الباب وارتفعت وراءه القهقهات . سمع صوت ناتاشا يقول :

ـ سيخرج نيكولا في معطفه المنزلي !

بينما كرر بيتيا سؤاله غير عالم بما فعل :

ـ أهو حسامك ؟

واستدار الى دينيسوف واردف يسأله باحترام وامتثال متأثراً بمشهد شاربيه الاسودين الكبيرين :

ـ ام هو حسامك انت ؟

لبس روستوف معطفه المنزلي على عجل واحتذى خفاً وخرج . وكانت ناتاشا قد ربطت المهاميز بزوج من الاحذية وراحت تهيء الآخر . اما سونيا فكانت تدور حول نفسها يستخفها الفرح . كانت هي وناتاشا ترتديان ثياباً زرقاء فاتحة اللون جديدة كل الجدة ومتشابهة كل الشبه . وكـانتا باسمتين متوردتي

الحدود ممتلئتين حيوية . نفرت سونيا عند مرآى نيكولا ، بينما قادت ناتاشا اخاها الى المخدع وراحت تثرثر معه . لم يجدا قبل هذه اللحظة فرصة مواتية ليتطارحا الوف الاسئلة الصغيرة التي لا تخص الا سواهما. فلما سنحت، انتهزاها ، وراحت ناتاشا تضحك بعد كل كلمة تتفوه بها او تخرج من فم اخيها . ولم يكن مرد الضحكة الدعابة التي يتبادلانها ، بل كانت بهجة ناتاشا ومرحها هما الدافعان، وما كانت تستطيع الاعراب عنهما الا بالضحك . كانت تقول في كل لحظة :

– آه ! كم هذا جيد ! كم هو بديع!

وهكذا منذ ثمانية عشر شهراً ، شعر روستوف لاول مرة بان ابتسامة الصبا التي بارحت وجهه منذ ذلك الحين ، تعود فتغمر وجوده وتشرق في عينيه تحت تأثير ذلك السيل الجارف من الحنان الذي كانت ناتاشا تغدقه عليه . قالت له :

– اصغ الي ، ها انت قد اضحيت رجلا حقيقياً ! كم انا سعيدة اذ تكون انت اخي !

ولمست شاربه الصغير واردفت :

– آه ! كم وددت لو عرفتكم معشر الرجال ! هل تشبهونا في شيء ! كلا؟

سألها روستوف :

– لمَ نفرت سونيا ؟

– آه ، لكن هذه وحدها قصة طويلة ! وبهذه المناسبة هل ستعود الى مخاطبتها بصيغة المفرد ام بصيغة الجمع ؟

– ساخاطبها كما يدور على لساني .

– بل ارجوك ان تقول لها « انتن » بدلا من « انت » . سافسر لك السبب فيما بعد . بل ساقوله لك على الفور . انت تعرف ان سونيا صديقتي، وان صداقتنا عميقة حتى انني على استعداد لحرق ذراعي من اجلها . خذ ، انظر .

حسرت كم ثوبها المصنوع من « الموصلين » واشارت الى بقعة حمراء على ذراعها

الطويل النحيف ، قرب الكتف وفوق المرفق ، في موضع لا يظهر حتى ولو كانت مرتدية ثياب الحفلات الراقصة . اردفت :

ــ لقد حرقت ذراعي بنفسي لادلل لها على صداقتي المتينة . لقد احميت مسطرة والصقتها هنا .

شعر روستوف وهو في مجلسه في قاعة الدرس القديمة على اريكة ذات ذراعين تغطيها الوسائد الصغيرة ، ونظرات ناتاشا الدافئة الحماسية تغمره ، بانه عاد الى عالمه العائلي ، عالمه الصبوي ، الذي لم يكن يعني بالنسبة اليه شيئاً ، لكنه يزخر بتلك المتع العميقة التي طالما تذوقها . لذلك فإن مغامرة المسطرة الحامية واحراق الذراع بها اشارة للصداقة المتينة ، لم تكن تافهة في نظره . كان يفهم اسبابها الموجبة ولا يدهشه ذلك التصرف . سألها :

ــ وماذا ؟ لا شيء آخر ؟

ــ آه ! ليتك تعرف مدى مانحن عليه من صداقة ! ان مسألة المسطرة ليست جدية ولاشك ... لكننا صديقتان ، صديقتان الى الابد ... وهي ، عندما تحب احدا ، فانما تحبه الى الابد . لكنني لا افهم هذا ، بل انسى كل شيء على الفور .

ــ وماذا بعد ؟

ــ حسنا ، انها تحبنا ــ انت وانا ــ على هذا النحو ...

ثم تضرج وجهها فجأة واردفت :

ــ هل تذكر قبل رحيلك ؟ ... حسناً ، انها تطلب اليك الآن ان تنس كل شيء ... لقد قالت لي ! « ساحبه الى الابد . اما هو ، فليكن حراً ! » ان هذا شيء رائع ! النبل ! نعم انه نبيل اليس كذلك ؟ الا تجده كذلك ؟

كانت تصر وتلح بتلك اللهجة الجدية المنفعلة التي تدل على ان ماقالته الآن هادئة قالته من قبل وهي تبكي .

فكر روستوف فترة وقال :

— انني لااسحب كلمتي . ثم انها شديدة البهاء والجمال حتى ان المرء يجب ان يكون غبياً كل الغباء اذ يرفض ان يكون سعيداً !

هتفت ناتاشا :

— كلا ، كلا . لقد تحدثنا من قبل في هذا . كنا نعرف انك ستقول مثل هذا القول . لكنه لايجب ان يكون كذلك . الا تفهم ، انك اذا اعتبرت نفسك مرتبطاً بوعدك ، فان ذلك سيبدو وكأنها اثارته عامدة . وعندئذ لابد ان تعتقد في فترة ما بانك انما تزوجتها بدافع من الواجب . ولن يكون الامر كذلك .

شعر روستوف بوجاهة هذا المنطق السليم . لقد اذهله جمال سونيا مساء امس ، فلما رآها هذا الصباح ، بدت لعينيه اكثر جمالا رغم قصر الفترة التي استطاع خلالها ان يتملا بجمالها . كانت تلك البنية التي لم تتجاوز السادسة عشرة من عمرها تحبه حباً جماً ، ولم يكن عنده ظل شك في ذلك . ولكن ، لم َلا يحبها هو الآخر بدوره ؟ بل لم َلايتزوجها ايضاً ؟ بيد ان متعاً كثيرة وانشغالات جمة كانت تنتظره في تلك الظروف ! فقال لنفسه : « نعم ، انها على حق . من الخير ان ابقى حراً ».

قال لاخته :

— حسناً ، كما تشائين . سوف نعاود البحث في هذا ... آه ! كم انا سعيد برؤيتك ! ... لكن ، نبئيني ، لعلك لم تخوني بوريس على الاقل ؟

فهتفت ناتاشا ضاحكة :

— هذه لعمري حماقات ! انني لاافكر فيه ولا في احد سواه .

— مستحيل ! في اي شيء تفكرين اذن ؟

فقالت ناتاشا ووجهها يزداد اشراقاً :

ـ انا ؟ هل شاهدت دوبور[1]

ـ كلا .

ـ دوبور الشهير ، الراقص ، الم تره قط ؟ انك اذن لن تفهم . انظر .

ادارت ناتاشا ذراعيها وامسكت بثوبها على طريقة الراقصات وابتعدت راكضة ثم استدارت وقامت بقفزة صغيرة ضربت خلالها قدميها ببعضهما مراراً في الفضاء قبل ان تمس بهما الارض (وتلك طريقة كان يبدأ بها الراقصون رقصهم) وخطت بضع خطوات جريا على رؤوس اصابع القدمين .

قالت مفسرة وقد عجزت عن الاستمرار في وقفتها الفنية :

ـ لقد استطعت الوقوف على رؤوس اصابعي اليس كذلك؟هذا ماسأكونه! لن اتزوج قط ، ساصبح راقصة . ولكن لاتتحدث بهذا الى احد .

انفجر روستوف ضاحكا ضحكة بلغت من صفائها حداً جعل دينيسوف الذي سمعها في غرفته ، يغار منه ، ودفعت ناتاشا الى الاستجابة لها فجارته بضحكة مثلها . كررت بالحاح :

ـ اليس هذا بديعاً ؟

ـ بلى ، انه بديع . لكنك لن تستطيعي بعدئذ الزواج من بوريس .

احمر وجه ناتاشا وقالت :

ـ اكرر القول انني لااريد الزواج بأحد ! ... وساقول له ذلك متى قابلته .

فقال روستوف مستهزئاً :

ـ اصغوا الى هذا القول ! ياله من حديث !

---

(١) اورد المترجم عن الروسية ملاحظة هنا تشير الى وجود تباين بسيط في سرد الوقائع لان الراقص الفرنسي الشهير ديبورت ، منافس فيستريس ، لم يحل في روسيا الا عام ١٨٠٨ حتى حصل على شهرة ونجاح كبيرين طيلة اعوام . بينما يتحدث تولستوي عن هـذا الراقص ويـورد ذكره عام ١٨٠٦ . — اسرة الترجمة —

ــ على كل حال نه ضرب من الغباء ... قل لي هل هو لطيف دينيسوف هذا؟

ــ بل شديد اللطف .

ــ حسناً ... الى اللقاء . اذهب وارتد ملابسك ... اليس دينيسوف هذا شديد الرهبة ؟

ــ رهيب ، فاسكا ؟ ابداً . انه شاب فتان .

ــ هه ،اتسميه فاسكا ؟ ... ذلك مضحك ... اذن ، انه لطيف جداً ؟

ــ كل ما في العالم من لطف .

ــ هيا اذن واسرع . سنتناول الشاي كلنا معاً .

واجتازت ناتاشا الغرفة على رؤوس اصابع القدمين كما تفعل الراقصات مع فارق واحد ، وهو ان الابتسامة التي كانت على شفتيها ، لا يمكن ان ترتسم الا على شفاه الفتيات السعيدات اذا كن في مثل سنها .

ولما دخل روستوف الى البهو ، احمر وجهه وبان الاضطراب عليه عندما وقع بصره على سونيا ، وارتبك في انتقاء النهج الذي سيجري عليه في معاملتها . لقد تعانقا امس في غمار الفرحة الاولى والتحرر من القيود الذي سببته عودته المفاجئة . لكنهما كانا في ذلك الصباح يعرفان انه يتعذر عليهما انتهاج سبيل البارحة . شعر نيكولا بنظرات امه واخواته المستفسرة تنحط عليه . لقد كان الموجودن يتساءلون عن السلوك الذي سيعمد اليه في حضرتها . انحنى على يدها يقبلها وخاطبها بصيغة الجمع . لكن عيونهما كانت تتلاقى فتتخاطب بصيغة المفرد ، وتتبادل اعذب القبل . كانت نظرات سونيا تسأله الصفح لأنها جرؤت على تذكيره بوعده عن طريق ناتاشا وتشكره على استمراره في محبتها . اما عيون نيكولا ، فكانت تشكرها لأنها اعادت اليه حريته وتفهمها انه سيظل يحبها على شكل من الاشكال لأنها كانت من اللاتي لا يمكن للمرء الا ان يحبهن .

انتهزت فيرا فترة صمت الحاضرين وقالت :

ـ ان هذا مضحك . ها ان سونيا ونيكولا يتخاطبان بصيغة الجمع الآن وكأنهما غريبان !

كانت ملاحظتها وجيهة كعادتها ، لكنها ، كعادتها أيضاً ، احدثت أثراً سيئاً في نفوس الحاضرين . ولم يقتصر الاثر السيء على نفس سونيا وناتاشا ونيكولا وحدهم ، بل تعداه الى الكونتيس نفسها التي تضرج وجهها كالفتيات ، خشية ان تحرم تلك العاشقة الصغيرة ، ابنها العزيز نيكولا « صفقة » زواج مغرية !

وفي تلك اللحظة دخل دينيسوف ، فكانت دهشة روستوف لا توصف اذ رأى صديقه معطراً مزيناً في ثوب جديد ، في مثل الرشاقة والاناقة التي كان عليها يوم المعركة ، ورآه بمزيد من الدهشة والذهول ، يتجه الى السيدات وينخرط معهن في حديث شيق رقيق .

* * *

الفصل الثاني

مهمة روستوف العجوز

اذا كانت اسرة روستوف استقبلت ابنها العزيز بوصفه بطلاً مغواراً، فان أقاربه الآخرين استقبلوه على اعتباره شاباً رفيع التربية لطيفاً . ولاقاه اصدقاؤه - واعني موسكو كلها - كما يليق اللقاء بملازم شاب من الفرسان الميامين ، وبراقص مجيد ، وواحد بين احسن من ترجو الامهات الفوز به زوجاً لبناتهن في العاصمة .

كانت نقود الكونت العجوز متوفرة ذلك العام بفضل تجديد عقود رهن املاكه . بذلك استطاع نيكولا أن يعيش حياة بهيجة جميلة . فكان يمتطي كل يوم صهوة جواد خاص مطهم ويرتدي سراويل الفرسان من آخر ابتكار ولم يكن احد يرتدي مثلها في موسكو بعد - وينتعل احذية عالية لم « تتوصل صناعة الاحذيه الى أحسن منها ، دقيقة الرأس بمهازين فضيين صغيرين مثبتين في أعلى الكعبين . كان روستوف يتلذذ بالعودة الى الحياة الاولى التي انتزع منها منذ عامين تقريباً وهو اكثر خشونة ورجولة وأمتن عوداً، كانت مغامراته القديمة : انزعاجه لتخلفه عن فحص التعليم الديني وقروضه الصغيرة من الحوذي جافريل والقبلات التي كان يختلسها من سونيا ، تمثل في خياله الآن على صورة

افعال صبيانية بعيدة جداً متقادمة العهد . لقد اصبح اليوم ضابطاً برتبة ملازم في سلاح الفرسان ، يحمل صليب سان جورج على سترته الفخمة المزينة بأشرطة رتبته الفضية ، ويدوب حصانه استعداداً للاشتراك به في سباقات تضم هواة مشهورين ورجالاً وقورين ذوي قيمة ونفوذ؛ وقد تعرف مؤخراً على سيدة معينة تقطن في « البولفار » راح يتردد على زيارتها في الامسيات ؛ واصبح يقود المـــازوركا في حفلات آل آرخاروف الراقصة ويتحدث عن الحرب مع الماريشال كامنسكي ويتردد على النادي الانجليزي ويتحدث بصيغة المفرد مع زعيم في الاربعين من عمره قدمه دينيسوف اليه .

لم يعد اعجابه بالامبراطور الذي لم يره منذ تلك الحوادث في مثل شدته الاولى . مع ذلك فانه كان عندما يتحدث عنه ، الامر الذي كان كثير الوقوع ،يوحي الى السامعين بانه لايتحدث عن كل مايعرف ، بل ان في عواطفه حياله جانب سري لايمكن للبسطاء من بني البشر اكتشافه ومعرفته . وكان يشاطر آهالي موسكو من اعماق قلبه تعلقهم بالكسندر الاول الذي كان يبلغ درجة العبادة ، حتى انهم اطلقوا عليه اسم « المـــلاك المتأنس » ــ اي المتقمص شكلا ناسوتيـــاً ليراه البشر ــ .

ادت اقامة نيكولا القصيرة في موسكو الى تباعد الشقة بينه وبين سونيا اكثر مما ساهمت في تقريبهما بينهما . لقد كانت سونيا جميلة جداً ، لطيفة جداً ، يشع الحب من عينيها ، لكن روستوف كان ــ على حد زعمه ــ في تلك السن التي يجد الشاب فيها كثيراً مما يعمل حتى ليتعذر عليه اقطاع مثل هذه الامور جانباً من وقته . لقد كان في السن التي يخشى الشاب فيها من الارتباط بالانثى ويجد ان حريته اغلى من كل شيء . كان اذا فكر في سونيا يقنع نفسه بقوله : «إه! انها ليست الوحيدة في العالم ولقد خلقت للتعرف على عدد كبير من مثيلاتها! وعندما يبرّحني الهوى ، لن اعدم الوقت للانشغال في الحب . اما الآن ، فان في رأسي

اهدافاً اخرى» . ثم انه شعر ، منذ ان اصبح في عداد الرجال ، ان الجري وراء الاثواب النسائية ومن فيها ادنى من ان تتقبله كرامته. لقد كان يتردد على الحفلات الراقصة والولائم ، لكنه كان يتظاهر بانه انما يحضرها مرغماً . اما السباقات والنادي ومهازلة مع دينيسوف وزيارات « هناك » ،فان امرها كان جد مختلفاً : لقد كان الفارس المغامر يجد فيها الجو الذي يلائمه .

عزم النادي الانجليزي الذي كان الكونت روستوف العجوز عضواً فيه وفي مجلس ادارته منذ تأسيسه ، على اقامة حفلة عشاء فاخرة على شرف الامير باجراسيون . ولما كان الكونت العجوز لايبارى في مواهبه التنظيمية في مثل هذه الامور وفي ذوقه المرهف وكرمه المشهور ، فقد كلفه مجلس ادارة النادي بمهمة اعداد الوليمة . واستجاب الكونت لذلك التكليف بكليته وصرف في سبيل ذلك كل وقته . لقد كان الكونت من النادرين الذين لايجدون غضاضة في الاتفاق من جيوبهم اذا اقتضى الامر ، دون تذمر ولا تردد . وهكذا فقد كان الكونت روستوف يروح ويجيء بين القاعة الكبرى ومختلف اجزاء قصره وهو في معطفه المنزلي ، يصدر اوامره الى امين الصندوق ورئيس الطهاة ،تيؤو كتيست المشهور حول الوان اللحوم والسمك والهليون والخيار والفريز. فكان رئيس الطهاة وامين الصندوق يصغيان اليه باغتباط وهما متأكدين انهما يستطيعان بفضل الكونت ، ان يقتطعا ربحاً كبيراً من مجموع اثمان تكاليف تلك الوليمة الباذخة ، مما لايتاح لهما مثله لو كلف غيره باداء هذه المهمة . لقد كان الكونت ذواقاً ماهراً فرفعت تلك المزية تكاليف الوليمة الى بضعة الوف من الروبلات .

ــ انتبه جيداً ولا تنس اعراف الديكة في حساء السلحفاة ، مفهوم ؟

ــ وثلاثة انواع من الحساء المهر اليس كذلك ؟

ففكر الكونت برهة واجاب :

ـ نعم ، لا يمكن تقديم اقل من ذلك. لنقل اذن: حساء المايونيز[1] وحساء ...
فقاطعه امين الصندوق :
ـ وماذا عن سمك الـ : ستيرله ، سننتقي الكبار منه ولا شك الدس كذلك؟
ـ نعم ، خذ الكبار ... آه ! ياعزيزي ، كدت انسى : يلزمنا كذلك لون آخر من المقبلات ... آه ! ياربي العظيم !
واحتوى رأسه بين يديه واردف :
ـ زباه ! والزهور ، من سيأتيني بها ؟ ... ميتانكا ، هه ، ميتانكا ! ... اهرع الى بيتي الصيفي وقل لماكسيم البستاني ان ينفذ باسمي الاوامر التالية على الفور : لتحزم في قطع من القماش كل نباتات الحديقة الشتوية وليُحمل الي ّ الى هنا مائتا إصّ على ان تصلني يوم الجمعة .

هرع الوكيل ميتانكا لتنفيذ الامر بينما اصدر الكونت سلسلة اخرى من الاوامر ومضى ينشد الراحة قرب كونتيسته الصغيرة العزيزة . لكنه تذكر فجأة امراً مهما فنكص على اعقابه واستدعى رئيس الطهاة وامين الصندوق وعاد يتحاضر معهما . وفي تلك الاثناء ، ارتفع رنين مهاميز قرب الباب وبدا على عتبته الكونت الشاب نضر الوجه متورد الوجنتين ، يظلل شفته العليا طيف شارب خفيف . ازالت حياة موسكو الموادعة اللطيفة كل آثار العناء والنصب التي كانت مخلفة على وجهه الفتي .

قال العجوز مبتسما ابتسامة لاتخلو من ارتباك :
ـ آه ! ياصديقي ، انني فريسة دوار عنيف . تعال انقذني وأغثني . ينبغي لنا ايجاد المغنين . انني بالطبع متعاقد مع جوقه موسيقية ولكن الا تعتقد ان

---

(١) حساء المايونيز عبارة عن خليط من صفار البيض والزيت والمرق يبهر ويتبل حسب رغبة الانسان بالخل والملح والبهار والخردل ، ويقدم عادة مع الشرائح الباردة. ـ المترجم ـ

وجود البوهيميين سيقابل بالترحيب ؟ انكم معشر العسكريين تحبون هذا اللون من الغناء .

اجاب الابن وهو يبتسم له بدوره :

ـ حقاً ياأبي انك تزعج نفسك الآن وترهقها اكثر مما كان يفعل باجراسيون قبل معركة شوينجرابن .

فقال الكونت متظاهراً بالغضب :

ـ حسناً ، ضع نفسك مكاني وسترى ان الامر ليس من السهولة كما يبدو لك .

والتفت الى رئيس الطهاة الذي كان يرقبهما بوقار وفي عينيه نظرة ماكرة وقال له :

ـ ارأيت الشباب ياتيؤو كتيست ؟ انهم يهزأون بنا معشر الكهول المساكين .

ـ ماذا نستطيع ياصاحب السعادة ان نعمل ! ان الشبان لايريدون الا رؤية قصعتهم مملوءة بالطعام ، لكنهم لايبالون بالكيفية التي جاء بها الطعام الى قصعتهم .

هتف الكونت :

ـ هذا صحيح ، هذا صحيح !

واردف وقد امسك بذراع ابنه بيديه بحركة مرحة :

ـ بما انني ممسك بك الآن ، فلن افلتك بسهولة . سوف يسرني ان تقفز الى الزحافة ذات الجوادين وان تطير بها الى منزل بيزوخوف لتقول له ان الكونت ايليا آندريئيتش ارسلك في طلب بعض ثمار الفريز والاناناس من حدائقه الشتوية . يستحيل لنا ايجادها في مكان آخر . واذا لم تجده ، ارجو ان تبلغ الاميرات ملتمسي . ومن هناك ستذهب الى رازجولية ، ـ والسائق هيبات يعرف الطريق ـ لتطبق على البوهيمي ايليوشا مهما كان الثمن ، وتأتي به الى هنا . الا تعرف اليوشا الذي رقص عند الكونت اورلوف متشحاً بعباءة بيضاء ؟

سأل روستوف ضاحكاً :

ـ وهل يجب ان آتيك بمغنياته ايضاً ؟

ـ هلا أطبقت فمك !

وفي تلك اللحظة ، دخلت آنا ميخائيلو فنا الى البهو بخطوات غير مسموعة ، وهي على عادتها متشاغلة مرهقة بالعمل ومفعمة بالايمان والتعاليم المسيحية . كانت تفاجيء الكونت كل يوم تقريباً في معطفه المنزلي ، مع ذلك ، فقد كان هذا يبدو شديد الخجل منها ويطلب صفحها في كل مرة .

قالت وهي تخفض عينيها من الخفر :

ـ لاأهمية لهذا ياصديقي الطيب . اما بصدد المهمة المتعلقة بآل بيزوخوف فانني انطوع لادائها . لقد وصل بيير مؤخراً ولا شك انه سيضع كل حدائقه الشتوية رهن تصرفنا . ثم انني في حاجة الى مقابلته ، اذ انه ارسل اليّ اخيراً رسالة من بوريس ولدي الذي احمد الله على التحاقه بالاركان العامة .

راق عرض آنا ميخائيلوفنا للكونت ، فامر باعداد العربة الصغيرة لها على الفور وقال لها :

ـ ستقولين لبيزوخوف اننا ننتظره . سوف اسجل اسمه ... هل ترافقه زوجته ؟

بدا على تقاسيم آنا ميخائيلوفنا حزن عميق ورفعت عينيها الى السماء وقالت :

ـ آه ! ياصديقي . انه شديد التعاسة . اذا كان مايزعمونه حقيقياً فان الامر جد مريع . بينما كنا نحن نبتهج لسعادته ! من كان يصدق او يخمن حدوث مثل ذلك ؟ ان بيزوخوف الشاب انسان طيب نبيل ! انني اتألم من كل قلبي لمصابه وسأحاول ان اوفر له مافي طاقتي توفيره من عزاء وسلوان .

سأل الاب والابن بصوت واحد :

ـ ماذا حدث بالله ؟

قالت بلهجة غامضة :

- يقال ان دولوخوف ، ابن ماري ايفانوفنا ، قد اغواها وفتنها. لقد انتشل بيير هذا الفتى من مأزقه ودعاه الى قصره في بيترسبورج، وهذه كانت مكافأته... لم تكد تصل الى هنا حتى هرع ذلك المعتوه في اعقابها .

كانت آنا ميخائيلوفنا ترمي الى التوجع على مصير بيير، لكن لهجتها وابتسامتها كانت توحي بعطف على دولوخوف الذي اطلقت عليه اسم المعتوه. اردفت معقبة :

- ويزعمون ان بيير يكاد يقضي حزناً .

- اطلبي اليه رغم ذلك ان يحضر الى النادي لان حضوره سينسيه آلامه . سنقيم هناك وليمة حافلة سخية .

وبعد ظهر اليوم التالي ، الثالث من آذار ، كان اعضاء النادي الانجليزي وعددهم مائتان وخمسون ، ينتظرون ومدعويهم الخمسون ، مقدم الامير باجراسيون بطل معركة النمسا ، وضيف الشرف في وليمتهم . وكان نبأ هزيمة اوسترليتز قد غمر موسكو كلها في ذهول عميق ، لان الروسيين الفوا الانتصار والفوز من قبل لدرجة جعلت بعضهم يرفضون تصديق ذلك النبأ ، بينما استغرق البعض الآخر في التساؤل عن الحدث الخارق الذي وقع وأدى بوقوعه الى تلك النتيجة الغريبة الخارقة لمألوف العادة . ولما توارد النبأ الاليم في كانون الاول ، بدا كأن كل اعضاء النادي الانجليزي ، وهم النخبة الممتازة من الشخصيات الكبيرة العليمة ببواطن الامور ، قد تواعدوا على الانصراف عن الاجتماع فيه تجنبا للحديث عن الحرب والمعركة الاخيرة . وقد هجر النادي كل الذين درجوا على آثاره البحوث والمناقشات ، امثال الكونت روستوبتشين والامير ايوري فلاديميروفيتش دولجوروكي وفالوييف والكونت ماركوف والامير فيازمسكي، وانصرفوا الى حلقات خاصة واجتماعات عائلية . وهكذا حرم الاعضاء الموسكوفيون امثال الكونت ايليا آندريئيتس روستوف، الذين درجوا على ترديد اقوال الآخرين، من مصادرهم الغنية ، فظلوا فترة طويلة محرومين من الانباء الجديدة الموثوقة

حول مجرى الامور . ولكن لم تمض فترة معينة حتى عادت تلك الشخصيات البارزة الى النادي فكانوا اشبه بالمحلفين الذين خرجوا لتوهم من غرفة المداولة . والقيت الاضواء على الامور وانحلت عقد الالسن . لقد وجدوا اخيراً مبررات لذلك الحدث المريع الذي يستحيل وقوعه كما يستحيل تصديقه ، واعني هزيمة الروسيين . كانت تلك الاسباب التي راحت تكرر وتفسر في كل زوايا موسكو كما يلي : خسة النمساويين وغدرهم ، سوء التموين ، خيانة البولوني برزيبيسزوسكي والفرنسي لانجيرون ، عجز كوتوزوف عن معالجة الامور في حينها وهذا السبب كان يُبحث دائماً بصوت خفيض كما هو الحال في السبب التالي والاخير - وشباب الامبراطور وقلة خبرته مما ادى الى وثوقه باشخاص عديمي القيمة مشؤومين . اما الجيوش الروسية ، فقد اتفق رأي المتحدثين جميعهم على انها تصرفت تصرفاً حميداً يدعو للاعجاب ، لانها بذلت تضحيات سخية قيمة . لقد تصرف الجنود والضباط والجنرالات تصرفاً كله بطولة وتضحية . اما بطل الابطال فكان الامير باجراسيون الذي طبقت شهرته الآفاق بعد معركة شوينجرابن وانسحاب اوسترليتز الذي استطاع فيه ان يعيد فيلقه بنظام محكم وان يصمد طيلة ذلك النهار لعدو يفوقه عدداً وعدداً . والامر الذي جعل الموسكوفيين يعتبرون باجراسيون بطل الساعة اكثر من غيره ، كان جهل الموسكوفيين به وعدم وجود أية علاقة له بينهم . فكانوا اذ يحتفلون به ، يقدمون تمنياتهم وعواطفهم لرمز الجندي الروسي الباسل المحروم من التوصيات ، البعيد عن الزلفى والمكر . وكانت ذكرى معركة ايطاليا تدني اسمه من اسم سوفوروف . ثم الم تكن تلك الحفاوة البالغة التي يظهرونها له هي خير تعبير عن اللوم الموجه الى كوتوزوف والانتقاص من كفاءته ؟

راح شينشين السليط اللسان يقول مجتراً كلمة فولتير المأثورة :

— لو ان باجراسيون لم يكن موجوداً لوجب ايجاده وابتكاره .

اما عن كوتوزوف ، فلم يكن احد يتحدث بكلمة . واذا ورد اسمه على

اللسان ، فانما كان في معرض الذم ووصفه سراً بأنه متغطرس فظ فاسد أو باطلاق اسم « مذبذب البلاط » عليه .

كانت موسكو كلها تكرر قول دولجوروكوف المأثور : « يتدبق المرء لكثرة ما يلصق » ، الذي كان يخفف من وقع الهزيمة باحياء ذكريات الانتصارات السابقة . كذلك كانت تعيد اقوال روستوبتسين : « ان الجندي الفرنسي ينبغي ان يساق الى ساحة المعركة بالكلمات الطنانة ، والجندي الالماني لا يطيع الا الحاءات المنطق ، فيتطلب من قادته شرحاً وتفسيراً يشعران بان الفرار اشد خطراً من الهجوم . اما الجندي الروسي ، فانه على العكس ، يتطلب من قادته ضبطه واعادته الى الهدوء والسكينة » . وكانوا كل يوم يدونون مآثر جديدة في مضمار نشاط الجنود الروسيين وضباطهم : فأحدهم انقذ علماً والآخر قتل خمسة فرنسيين وثالث قام بمفرده بكل ما يلزم من خدمة مضنية لثلاثة مدافع معاً . وكان عدد من الناس الذين لا صلة لهم ببيرج ، يؤكدون انه جرح في يمناه ، فحمل سيفه بيسراه وسار تحت وابل النيران ، يهاجم العدو . اما بولكونسكي ، فلم يكن احد يتحدث عنه . لقد كان خلصاؤه وحدهم يأسفون لموته وهو في شرخ الشباب ، ويشفقون على زوجه التي ستضطر لوضع جنينها تحت سقف حميها سقيم العقل .



الفصل الثالث

« وليمة النادي الانجليزي »

ملأت دندنة الحديث كل حجرات النادي الانجليزي وقاعاته في اليوم الثالث من آذار . كان الاعضاء ومدعووهم ، وبعضهم في ثوب « الفراك » والبعض الآخر في قفاطينهم وشعرهم المستعار ، يروحون ويغدون ، بين جالسين وواقفين ومتجمهرين ومتفرقين ، وكأنهم ثول نحل في فصل الربيع. وعلى كل باب ،وقف الخدم في اثوابهم الحمراء الرسمية وشعرهم المستعار وجواربهم الحريرية واخفافهم الرقيقة ، يرقبون حركات المدعوون ليهرعوا اليهم ملبين طلباتهم عند اول اشارة. وكان المدعوون ، وجلهم من المسنين ذوي النفوذ والسلطة ، ذوو اصابع ضخمة ووجوه مطمئنة ممتلئة صحة ، واصوات ثابتة حازمة وحركات متزنة جليلة ، يجلسون في اماكنهم المقررة لهم وكأنهم ملوك على عروشها ،او يجتمعون في حلقاتهم المألوفة يتبادلون الاراء والحديث .وكان الضيوف الطارئون امثال دينيسوف وروستوف ودولوخوف ، الذي اصبح ضابطاً في فيلق سيمينوفسكي ، وكلهم من الشبان، يشكلون اقلية ضئيلة . كانت وجوه اولئك الشباب ،وبصورة خاصة العسكريين منهم ، تنطق باحترام ماجن مستهزىء وكأنها تقول للمسنين : « نحن لا نغمسك عليكم الاحترام الذي تطلبون ولا المعاملة الحسنة التي تنتظرون ، لكننا نذكركم بان المستقبل لنا ، فلا تنسوا ذلك » .

كان نيسفيتسكي ، وهو عضو مزموق في النادي ، حاضراً ذلك اليوم . وكان بيير ، الذي وافق على التضحية بنظارتيه بناء على اوامر زوجته ويعوض هذا النقص بارساله شعره طويلا وارتدائه ثيابا على احدث طراز ، يذرع الابهاء وعلى وجهه آيات الضجر والشراسة ، كان يحس هنا ، كما يحس في كل مكان آخر ، بجو من الدناءة واللؤم يحيط به . لقد اعتاد على الرفعة والاستكانة التي يجزيها اليه متملقوه الطامحون في ثروته ، الساعون وراء احسانه ، والف اسلوبهم فراح يمنحهم جانباً من شروده واحتقاره . واذا كان العمر يسلكه في عداد الشبان ، فان الثروة كانت تفتح له حلقات الكهول والشخصيات المحترمة ذات الشأن . فكان بذلك يتردد بين جموع الفريقين . وفي تلك الليلة ، تجمهر حول اعلام الشخصيات ، نفر كبير من الناس بينهم مجهولون مغمورون ، جاؤوا كلهم يتسقطون الاخبار ويتزودون بأقوال هؤلاء الاشخاص المرموقين المحترمين . وكان الازدحام على اشده حول الكونت روستوبتشين[1] وفالوييف وناريشكين[2] .

كان روستوبتشين يؤكد ان الروسيين فوجئوا بفلول النمساويين الهاربين تسحقهم حتى اضطروا اخيراً الى شق طريقهم بقوة الحراب بين اولئك الفارين المذعورين ؛ وفالوييف يعلن بصورة سرية ان اوفاروف ارسل مؤخراً من بيترسبورج ليتحسس آراء الموسكو فيين عن اوسترليتز . اما ناريشكين ، فكان يعيد الى الاذهان ذكرى مجلس سوفوروف العسكري العتيد لما أجاب هذا أفراده بنداء

---

(١) روستوبتشين ، سياسي روسي مشهور كان حاكم موسكو عام ١٨١٢ ، وهو الذي احرق موسكو عندما دخلها جيش بونابارت واضطره بذلك الى التراجع . ولد عام ١٧٦٣ وتوفي عام ١٨٢٦ .

(٢) ناريشكين ، سليل اسرة روسية نبيلة عريقة كانت ام بطرس الاكبر من افرادها .

— المترجم —

يشبه صياح الديكة ، كردّ على اقوال واقتراحات « الجنرالات » النمساويين العرجاء . وكان شينشين يصغي الى هذا القول ، فوجد فيه مادة مناسبة لحديثه وفرصة مواتية ليطلق لسانه السليط فقال : يبدو ان كوتوزوف لم يستطع ان يتعلم من سوفوروف حتى تقليد صياح الديكة رغم ما في هذا الفن من سهولة ويسر! غير ان الكهول المحترمين ، حدجوا ذلك الماجن بنظرة قاسية افهمته ان المكان والزمان لا يسمحان بمثل هذه الفكاهات !

كان الكونت ايليا آندريئيتش روستوف يجر حذاءيه اللينين من قاعة الطعام الى البهو وهو بادي الانشغال ، يلقي تحيته المقتضبة السريعة على الشخصيات البارزة كما يلقيها على اتفههم شأناً ، لانه كان يعرف هؤلاء وهؤلاء على السواء . ومن حين الى آخر ، كانت نظراته المنقبة تتوقف على وجه فتاه الجميل ، فيغمز له بعينه بود . وكان روستوف الشاب يتحدث مع دولوخوف في مدخل احدي الغرف ، وهو شديد الكلف بهذا الصديق الجديد . فاقترب الكونت العجوز منهما وضغط على يد دولوخوف وقال له :

– يسرني ان تحضر الى زيارتي ، فأنت صديق ابني ، وبطل مثله ...

ومرّ شيخ بالقرب منهما فحياه الكونت قائلا :

– اه ! فاسيلي ايغناتيتش ، مرحباً ياعزيزي .

غير ان تمنياته وتحياته ضاعت وسط ضجة عامة ارتفعت في تلك اللحظة . ذلك ان احد الخدم دخل مهرولا يعلن مذعوراً : « انه وصل ! »

دوى قرع اجراس ، وهرع اعضاء اللجنة ، وتجمهر المدعوون الذين كانوا حتى تلك اللحظة متفرقين في مختلف الغرف والحجرات ، واندفعوا الى باب البهو وباب القاعة الكبرى يحتشدون وكأنهم حبات قمح جُمعت بمجرفة !

ظهر باجراسيون في الردهة ، تاركاً –حسب تقاليد النادي– سيفه وقبعته لرئيس الخدم . لم يكن يرتدي قبعة من جلد الخروف ويمسك بيده سوطاً ذا شعب

كما شاهده روستوف قبل معركة اوسترليتز ، بل كان مرتدياً ثوباً ضيقاً جديداً تزين الاوسمة الروسية والاجنبية الى جانب «صفيحة» سانجورج الجانب الايسر منه . وكان — كما يبدو — قد اسلم للحلاق شعره وسالفيه ، فتبدلت هيأة وجهه بما لايتفق والغاية المتوخاة من ذلك التبديل . وكان مظهره الذي يجمع بين السذاجة والجلال يتناقض تناقضاً مضحكاً مع قسمات الرجولة البارزة على وجهه . وصدف ان وصل بيكليشوف وفيودار بيتروفيتش اوفاروف في ذات اللحظة التي دخل فيها باجراسيون الى الردهة . فتوقفا يفسحان له مجال تقدمهما بوصفه بطل الحفلة . واخجل هذا التأدب باجراسيون ، فحاول الاعتراض بادىء الامر ، مما ادى الى فترة توقف وترقب ، انتهت بقبوله الدخول قبلهما . دخل الى قاعة الاستقبال بخجل وارتباك ، لايدري ماذا يفعل بذراعيه . لقد كان ولاشك يألف السير تحت وابل من الرصاص في ارض محروثة ، كما حدث له في شوينجرابن ، عندما سار في مقدمة فيلق كورسك الى العدو ، اكثر من السير بين مستقبليه في قاعة الاستقبال الفخمة . اعرب اعضاء المجلس الاداري الذين كانوا ينتظرونه عند الباب الاول ، عن ترحيبهم بقدمه وسرورهم باستقبال ضيف عزيز مثله ، ثم « استولوا » عليه بشكل ما دون ان ينتظروا رده ، واقتادوه الى البهو . اصبح الدخول الى البهو قريب من الاستحالة لكثرة الازدحام ولشدة التفاف المدعوين الذين راحوا يحدقون ، عبر المناكب ، في وجه البطل وكأنهم يتفرجون على دابة غريبة مثيرة . وكان الكونت ايليا اندريئيتش اكثر المستقبلين ابتهاجاً ، تشهد بذلك ضحكته العالية التي كانت تضغى على كل اللفظ . راح يشق الطريق مستعيناً بعبارة : « افسح المكان ياعزيزي ، افسح » ، حتى استطاع اخيراً ادخال الضيف الى البهو ، حيث اجلسه بين بيكليشوف واوفاروف ، على الاريكة القائمة في الوسط . ومن جديد ، حاصر اعضاء النادي المتوافدون ، ضيوفهم المرموقين . وعاد ايليا اندريئيتش يشق طريقه وسط الحشد خارجاً من البهو ليرجع بعد قليل

في صحبة احد اعضاء مجلس الادارة ، حاملا طبقاً فضياً وُضع عليه، قطوعة شعرية نُظمت وطُبعت على شرف الضيف الشهير . قدم الطبق الى باجراسيون الذي راح يجيل حوله نظرات مرتبكة وكأنه ينشد العون والحماية . غير ان كل "العيون التي لاقت عيونه ، كانت تدعوه الى التجلد والاستسلام . ولما شعر انه بات تحت رحمتهم ، اخذ الطبق بكلتا يديه بحركة عنيفة أشفعها بنظرة غضبى وجهها للكونت الذي كان يحتفي به . وتلطف احدهم فأخذ من يديه ذلك «الشيء المزعج المربك» الذي بدا عليه انه عازف عن التخلص منه حتى ولو اضطر الى الابقاء عليه معه على مائدة الطعام ، ولفت انتباهه الى المقطوعة الشعرية . فبدا على باجراسيون كأنه يقول : « حسناً ! ساقرأها » . وحدق في الورقة بعينيه المكدودتين ، محاولاً الاطلاع على ماجاء فيها ، وقد اكتست قسمات وجهه طابعاً من الجد والتركز . غير ان ناظم القصيدة اخذ الورقة من يديه وراح يتلوها بصوت مرتفع ، بينما كان باجراسيون يصغي الى تلاوته مطرق الرأس .

ليخلد الى الابد مجد عصر الكسندر .
الحارس اليقظ لتيتوس[1] على العرش
رئيس رهيب ورجل احسان كبير معاً ،
يشبه ريفي[2] في وطنه ، قيصر في الحروب .

---

(١) تيتوس هو ابن الامبراطور الروماني فيسبازيان الملقب بـ : نقم الجنس البشري . كان اكثر الملوك سعياً وراء تخفيف آلام شعبه باخلاص . وكان ذلك الامبراطور الفيلسوف يهتف قائلا : « لقد اضعت يومي » اذا مضى عليه يوم دون ان يعمل فيه عملا طيباً نافعاً مفيداً . لقد استولى عهد ابيه على مدينة القدس وهدمها اما في عهده ، فقد ثار بركان فيزوف وردم بومبي وهيركولانوم . — المترجم —

(٢) ريفي ، صديق للامير ايني ، ابن فينوس وآنشير . لقد استعار الشاعر هذا الاسم من قريض للشاعر اللاتيني فيرجيل ، الذي وضع ملحمته المشهورة اينيئيد مقلداً بها الالياذة والاوديسة وقد اراد ناظم قصيدة الترحيب بالامير باجراسيون ، النسج على منوال الشعر العربي المداح ، منوها بانه حمامة في السلام واسد في الحرب. — المترجم —

الواقع ان الفضل لك في ان بابوليون السعيد .

لن يتحدى بعد اليوم (ألآسدة)[1] الشمال ...

لم يفرغ من قراءة القصيدة بعد . حينما ارتفع صوت رئيس الخدم مرعداً يقول :

— ان طعام سموه جاهز !

وفتح باب قاعة الطعام على انغام البولونيز :

تجاوبي ياصواعق النصر .

ياأيها الروس البواسل ، استسلموا للمرح[2] .

وحدج الكونت ايليا آندريئيتش ناظم الشعر التاعس وقارئه الذي ظل مستمراً في تلاوته ، وانحنى امام باجراسيون . قدر المجتمعون جميعاً ان الطعام افضل من القصيدة ، فنهضوا متجهين الى غرفة الطعام وباجراسيون في المقدمة . أجلس الجنرال في مقعد الشرف بين اسكندرين: اسكندر بيكليشوف واسكندر ناريشكين ، وهو تيمن وتلميح ضمني لاسم الامبراطور . وجلس المدعوون الثلاثمئة حسب ترتيب درجاتهم الاجتماعية . ومن البديهي ان ارفعهم مكانة كان اقربهم الى مجلس المحتفي به . مع ذلك ، الا يكون الماء اكثر عمقاً في الاماكن الاكثر انخفاضاً ؟

وقبل البدء في الطعام ، قدم ايليا آندريئيتش ابنه الى باجراسيون الذي عرفه ووجه اليه بضع كلمات فارغة مرتبكة ، ككل ماتفوه به ذلك اليوم. مع ذلك، فقد راح الكونت يجيل بين المشاهدين لهذا الحديث نظرات تشع منها الكبرياء ويلمح فيها السرور .

---

(١) جاء في النص كلمة بصيغة الجمع استعارة . ذلك ان «السيد » هو حفيد« آلسه »الملقب بهرقل. وقد اراد الشاعر التشبيه بذلك البطل اليوناني الخرافي باظهار كل جندي روسي«آلسيداً» — المترجم —

(٢) البولونيز نشيد وضعه ديرجافين يخلد احتلال الروس « اسماعيل » ، وشيعه لحن وضعه جوزيف كوزلوفسكي ، وظل يعزف بدلا من النشيد الوطني الروسي زمناً طويلا .

جلس نيكولا روستوف ودينيسوف وصديقهما الجديد دولوخوف بالقرب وسط المائدة وقبالتهم الامير نيسفيتسكي وبيير . وكان الكونت ايليا آندريئيتش — وقد احتل مع اعضاء مجلس الادارة الجانب المقابل لباجراسيون — يقوم بدور المضيف خير قيام حتى ليمكن اعتباره تجسداً بليغاً للضيافة الموسكوفية الشهيرة.

وعلى الرغم من ان جهوده المبذولة لم تذهب هباء ، وان اصناف الاطعمة كانت على احسن ما يمكن من الترف المفرط والعظمة ، فان الكونت العجوز ظل قلقاً حتى نهاية الطعام . كان يغمز بعينيه الى الخازن آمراً ويهمس بتعليماته في آذان الخدم المشرفين على المائدة ، ويترقب بانفعال متجدد ظهور كل لون جديد من الالوان التي انفرد باقتراح طهيها وتقديمها ؛ فكان كل شيء فوق النقد . واطار الخدم صمامات زجاجات الشمبانيا وطافوا بها يملأون الاقداح ، حالما دخل الطهاة باللون الثاني من الطعام ، — وكان سمكة هائلة — الذي جعل وجه ايليا آندريئيتش يتضرج بالحمرة من السرور والارتباك . وقد احدث هذا اللون بعض الاثر في نفوس المدعوين . فلما فرغوا منه ، تبادل الكونت نظرة مع زملائه اعضاء مجلس الادارة وقال لهم بصوت خافت : « ستُشرب انخاب كثيرة ، لذلك يستحسن ان نبدأ بها » . ونهض واقفاً وكأسه في يده . فصمت الجميع واصغوا الى ما سيقول .

هتف الكونت وقد اخضلت عيناه بدموع الحماس :

— نخب صحة جلالة الامبراطور !

وبذات الوقت صدحت الموسيقى من جديد بـ : « تجاوبي ياصواعق النصر » ونهض الآكلون جميعهم هاتفين : « هورّا » ! . وعلا صوت باجراسيون مدويا متجاوباً كما كان في ساحة معركة شوينجرابن . وميزت الاسماع صوت روستوف الشاب الذي كان يجد صعوبة في حبس دموعه وهو يزمجر صائحاً : « نخب صحة الامبراطور ، هورّا » ! . افرغ كأسه دفعة واحدة والقى بها على الارض

فتحطمت ، وحذا الآخرون حذوه وعادت الهتافات تتجدد مدوية . ولما ران السكون ، جمع الخدم الاقداح المحطمه ، وعاد المدعوون الى مقاعدهم يتحادثون والابتسامات التي خلفها حماسهم على شفاههم ترافق حركاتها في مراحل الحديث. ولم يلبث الكونت ان نهض مرة ثانية فألقى نظرة على مذكرة صغيرة موضوعة بجانب صحفته ، وهتف نخب «بطل حملتنا الاخيرة ، بيوتر ايفانوفيتش باجراسيون» ، بينما تبللت اهدابه بالدموع من جديد . وصرخت ثلاثمائة حنجرة بصوت واحد: «هورّا» ! . ولكن بدلا من عزف الموسيقى ، ارتفع صوت المغنين بنشيد وضعه بافل ايفانو فيتش كوتوزوف[1] :

ماذا تفعل العقبات ضد الروس ؟
ان بسالتهم هي عربون النصر .
ليكن لدينا فقط العديد من امثال باجراسيون .
وسنرى الاعداد عند اقدامنا ...

ولم يكد المغنون ينتهون من هذا النشيد حتى اقترحت انخاب وانخاب كان انفعال ايليا آندريئيتش يزداد بتعددها ، وحطمت كؤوس كثيرة وبحت حناجر كثيرة. شرب الآكلون نخب بيكليشوف وناريشكين واوفاروف ودولجوروكوف وآبراكسين وفالوييف ونخب اعضاء مجلس ادارة النادي ومدعويهم واخيراً نخب منظم الحفلة الكونت ايليا آندريئيتش . وكان الكونت في اوج انفعاله حتى انه لم يستطع حبس دموعه عند النخب الاخير فراح يكفكفها ويحجبها بمنديله .

---

(١) تجدر الملاحظة هنا ان واضع النشيد بافل ايفانوفيتش كوتوزوف ، ليس الجنرال الروسي المعروف وغريم نابوليون ميشل او ميخائيل كوتوزوف الذي أتينا على ذكره في الجزء الاول من هذا الكتاب . — المترجم —

الفصل الرابع

تحدي

كان بيير الجالس قبالة دولوخوف ونكولا روستوف ، يلتهم طعامه بشهية على جري عادته ويفرغ القدح تلو القدح . لكن اولئك الذين يعرفونه حق المعرفة كانوا يلمسون فيه تبدلاً كلياً . لبث صامتاً طيلة فترة الطعام ، مقطب الحاجبين ، يجيل حوله نظراته القاصرة ، او على الاصح نظرات جامدة ساهمة ، ويعرك جوانب انفه باصبعه . وكان وجهه عابساً مكفهراً . لقد كان غارقاً في فكرة مسيطرة ، مشغولاً في شكوك اليمة مقلقة ، حتى انه ماكان يصغي الى من حوله ولا يرى وجوه المحيطين به .

ايقظ تلميح ماكر تقدمت به احدى الاميرات ، الشكوك المريعة في نفسه منذ وصوله الى موسكو . ولقد تلقى رسالة مغفلة صباح ذلك اليوم تدعم تلك الشكوك التي تبهظ فؤاده وتنهش صدره . اخبره كاتب تلك الرسالة باسلوب متهكم – جرياً على العادة – بأنه لايرى بوضوح بسبب استغنائه عن نظارتيه . وان علاقة زوجته بدولوخوف ليست الا سراً عند المغفلين . وعلى الرغم من ان بيير كان يحاول الاستخفاف بكل تلك التعليمات المهنية ، الا انه لم يكن يستطيع تفادي الانزعاج البليغ الذي يشعر به كلما وقع بصره على دولوخوف الجالس قبالته .

كان كلما وقعت ابصاره على عيني ذلك الضابط الوقحتين الجميلتين ، يشعر في اعماقه بان عاصفة صاخبة تهب فيها ، فيشيح بطرفه مسرعاً . كان ماضي هيلين كله ، وطرق تصرفها مع دولوخوف كلها ، تحض بيير على التفكير في ان الروايات المتشابهة يمكن ان تكون حقيقة ، او على الاقل ، يمكن ان تكون كذلك لو لم تكن متعلقة بزوجته «هو» . تذكر عودة دولوخوف الى بيترسبورج بعد ان اعيدت له كل اعتباراته بعد الحملة ، ولجوئه اليه دون غيره مذكراً اياه بأعمالهم الماضية ومجونهم ، سائلا منه قبوله ضيفاً عنده ، الامر الذي لم يتردد بيير في تحقيقه بسخاء وكرم . بل انه تساهل معه حتى انه اقرضه بعض المال لنفقاته الخاصة . واستعاد صوت هيلين عندما كانت تحدثه وهي باسمة ، مستنكرة تصرفه وادخاله مثل ذاك الضيف المزعج الى بيتهم ، وصوت دولوخوف يهنئه بلهجة هازئة بجمال زوجته . تذكر انه منذ ذلك الحين وحتى وصولهم الى موسكو ، لم يرهما يفترقان لحظة واحدة.

فكر بيير في سره : « لاشك انه شاب جميل جداً . ثم انني اعرفه . لقد قمت بتدابير في صالحه فآويته وساعدته وقدمت له كل ما من شأنه ان يجعله يجد متعة في تلويث اسمي . لاشك ان خيانته كانت اشد اثراً ... لو ان المسألة كانت صحيحة . ولكن لا ، انها ليست صحيحة . انني لا اصدق ذلك وليس لي الحق في تصديقه » . وفي تلك الاثناء ، كان يرى الطابع الوحشي على قسمات وجه دولوخوف كلما سقط فريسة لنوبة قسوة . ذلك اليوم مثلا ، يوم ان اوثق الشرطي على ظهر الدب قبل ان يلقي بهما الى الماء ، وذاك اليوم ايضاً ، عندما اثار رجلا وبارزه دون اي سبب ، وتلك المرة عندما رآه يقتل حصان احد السعاة بطلقة من غدارته . وفجأة تذكر بيير ان دولوخوف نظر اليه اكثر من مرة تلك النظرة المفعمة بالوحشية والقسوة . قال يحدث نفسه : « نعم ، انه ولوع بالقتل ، ان قتل رجل لا يشكل عنده ظلا من الاسف ، لابد انه يتخيل ان كل الناس يخافون منه ، فيتذوق هذه المتعة بسرور ماكر . ولا شك انه يظن انني كذلك اخاف

منه . انه غير مخطىء في ظنه هذا على كل حال » ! ومن جديد عصفت في نفسه اعصارات عنيفة مدمرة .

وكان دولوخوف الجالس قبالته وبجانبيه دينيسوف وروستوف ، يبدو في تلك اللحظة غارقاً في التسلي مع صديقيه . كان روستوف يتحدث بوداعة مع صديقيه وهو فخور بأن يكون احدهما فارساً شجاعاً غيوراً والآخر مقاتلا بنفسية مستهترة . ومن حين الى آخر ، كان يلقى على بيير نظرة خالية من الظرف ، متأملا هيكله الضخم ووجهه المكتئب اللذين يلفتان اليهما الابصار . وليس عسيراً على المرء تفسير سبب عداء هذا الفارس الشاب : فقد كان بيير في نظر هذا العسكري « مدنياً » واسع الغنى وزوج سيدة شديدة الجمال . وبالايجاز : رجلًا ضعيف الارادة . ومن جهة اخرى فان بيير بدا كأنه لايعرف نيكولا روستوف حتى انه لم يرد على تحيته .

ولما ازفت ساعة شرب الانخاب ، وطلب الكونت العجوز ان يشرب المدعوون نخب الامبراطور ، ظل بيير مستغرقاً في بحرانه ، فلم ينهض ولم يأخذ كأسه بيده .

صعقه روستوف بنظرة ثقيلة غاضبة ملتهبة وصاح به :

ـ ماذا تعمل ؟ الا تسمع انهم يشربون نخب صحة جلالته ؟

فزفر بيير ونهض بخشوع وافرغ كأسه . وبينما كان ينتظر أن يروق للآخرين الجلوس فيجلس معهم ، القى على روستوف نظرة اشفعها بابتسامته الطيبة المعروفة وقال له :

ـ وانا الذي لم اعرفك !

لكن روستوف كان مندفعاً في هتافاته فلم ينتبه الى قوله .

سأله دينيسوف :

ـ لمَ لاتجدد معرفتك به ؟

– انني لا احفل ابداً بهذا الغبي !
فقال دينيسوف معترضاً :
– ولكن يجب ان يجامل المرء دائماً ازواج النساء الجميلات !
لم يسمع بيير حديثهما ، لكنه خمن انهما يتحدثان عنه، فاحمر وجهه وأدار رأسه.
قال دولوخوف مقترحاً :
– والآن ، لنشرب نخب النساء الجميلات .
ونهض واقفاً وخاطب بيير بلهجة جدية وقورة وعلى زاوية فمه ابتسامة صغيرة :
– بيتروشاه نخب النساء الجميلات وعشاقهن !
افرغ بيير كأسه وهو خافض ابصاره ، دون ان يجيب بكلمة على دولوخوف او ان يوجه اليه نظرة .

وجاء خادم يوزع على المدعوين المرموقين نسخاً مطبوعة من قصيدة الاحتفاء بضيف الشرف ونشيد كوتوزوف ، فوضع واحدة امام بيير. فلما همّ هذا بأخذها، انحنى دولوخوف فوق المائدة وانتزعها من يديه وراح يقرأها . وعندئذ نظر اليه بيير . انخفضت حدقتاه وانفجرت العاصفة الهوجاء التي كبتها طيلة فترة الطعام. فانحنى بكل جسمه الثقيل على المائدة بدوره وصرخ :
– دع هذا !
ذعر نيسفيتسكي لهذه البادرة وعرف الشخص الذي استهدف لها فحاول التدخل يدعمه زميل دولوخوف الذي الى يمينه . قالا له معاً :
– اهدأ ، ماذا دهاك ؟
اما دولوخوف فقد حدج بيير بنظرته الصريحة البهيجة القاسية معاً وابتسم ابتسامة من يقول : « آه ! آه ! هذا مايروق لي » ! واجابه بصوت جازم :
– كلا ، لن اتركها !
امتقع وجه بيير من الغضب وارتعدت شفتاه فانتزع الورقة من يده وقال هائجاً :

ـ انك ... مخلوق ... حقير ! ...

ودفع مقعده وغادر المائدة .

وفي اللحظة التي نطق فيها بيير بتلك الكلمات وقام بتلك الحركة ، شعر ان مسألة ادانة زوجته ، تلك المسألة التي كانت تعرض له بأسى بليغ منذ اربع وعشرين ساعة ، قد فصل فيها الآن دون تأخير ومالت الى الجانب الايجابي . فنبت في صدره حقد على زوجته وأحسّ بأنه انفصل عنها الى الابد .

وافق روستوف على ان يكون شاهداً لدولوخوف رغم تقريع دينيسوف وممانعته . فلما انفض المدعوون عن المائدة ، سوّى مع نيسفيتسكي ، الذي كلفه بيزوخوف ببحث هذه المسألة ، شروط اللقاء . اما بيير فقد عاد الى منزله بينما استمر روستوف ودينيسوف في صحبة دولوخوف يتسامرون في النادي حتى ساعة متأخرة ، ويصغون الى غناء البوهيميين والمغنين العسكريين . ولما افترق الاصدقاء عند مدخل النادي قال دولوخوف :

ـ الى الغد اذن في حديقة الفوكونيية (مدربي البزاة) .

سأله روستوف :

ـ وهل انت هادىء النفس ؟

توقف دولوخوف وقال :

ـ اسمع ياصديقي . سأكشف لك بكلمتين عن كل سر المبارزة . انك اذا رحت في المساء الاسبق ليوم اللقاء تكتب وصيتك ورسائل عاطفية الى أقاربك ، واذا فكرت في امكانية اصابتك وموتك ، فانك لست الا احمقاً تسعى الى حتفك . اما اذا ذهبت للقاء خصمك وانت على يقين ثابت بأنك ستقتله في اسرع وقت او باسرع مايمكن ، فان كل شيء سيكون على العكس ، على خير مايرام كما يقول صياد الدببة في كوستروما . لقد قال لي مراراً : « اذا ذهبت لصيد الدب ، شعرت بالخوف . لكن ماان يظهر الوحش حتى يتبدد الخوف ويحل

محله شعور بالابتهال كي يبقي الوحش في سيره عليك » . وهذا ما اعمله بكل دقة .
فإلى الغد اذن ياعزيزي .

وفي صباح اليوم التالي ، وصل بيير ونيسفيتسكي الى حر مدربي البزاة حيث كان دولوخوف بانتظارهما وبرفقته دينيسوف وروستوف . كان بيير فريسة انهماك واستغراق غريبين عن المسألة التي كان بصددها . كان يُرى على سحنته الصفراء المستطيلة ، وفي نظرته الشاردة ، وفي عينيه الزائغتين المغمضتين وكأن انعكاس ضوء باهر يعميها ، أنه لم ينم ليلته تلك . كان امران فقط يشغلانه : ادانة زوجته التي تأكد منها خلال ساعات ارقه الطويل وبراءة دولوخوف الذي لم يكن لديه اي سبب للتجاوز عن ثلم شرف رجل لايشغل في نفسه اي اعتبار . كان يقول في سره : « لو انني كنت مكانه ، اما كنت انهج نهجه ؟ بلى ولاشك ، انني كنت سأعمل مثله . اذن لمَ هذه المبارزة ، هذا القتل ؟ اما ان اقتله او انه هو الذي سيصيبني في راسي او مرفقي او ركبتي . ماذا لو فررت ، ماذا لو اختبأت في مكان ما » ؟ لكنه في حين كان يغذي مثل هذه المناقشات والافكار في سره ، كان يسأل قائلاً بلهجة باردة بروداً ملحوظاً وبطلاقة استغرب لها من حوله : « هل نحن على استعداد » ? او « هل نتأخر بعد » ?

وفي تلك الاثناء ، كان الشهود يحشون الغدارات ويفرسون السيوف في اماكن معينة على الثلج اشارة الى الحد الذي لايجب تخطيه . ولما انتهت هذه الاستعدادات ، اقترب نيسفيتسكي من بيير وقال له بصوت متهدج :

— اظن انني ياكونت اخون واجبي ولا استحق الشرف الذي منحتنيه بانتقائي شاهداً لك اذا لم ابادر في هذه اللحظة الخطيرة شديدة الخطورة الى اطلاعك على الحقيقة كلها . انني لااری اسباباً وجيهة تدعو الى هذه المبارزة ، لان المسألة لاتستحق ان يراق من اجلها الدم ... انك مخطىء او على الاقل ، انك لست على كثير من الصواب ... لقد ثرت وانفعلت ...

فقال بيير مؤيداً :
– نعم ، ان كل هذا غاية في السخف .
فاردف نيسفيتسكي قائلاً :
– في هذه الحالة ، اسمح لي بنقل اعتذاراتك . انني متأكد من ان خصومنا سيقتلونها . انك لاتجهل ياكونت انه من النبل بمكان الاعتراف بالاخطاء بدلاً من الوصول الى مالايمكن تلافيه . لم تقع بينكما اهانة خطيرة ولم تتبادلا ما يستحق هذه النتيجة فاسمح لي اذن بالتفاوض ...
كان نيسفيتسكي يقوم بواجبه اسوة بكل انسان آخر يجد نفسه منغمساً في مثل هذه الامور . ولم يكن يعتقد – ككل من وقفوا مثل موقفه – ان المسألة ستستمر حتى تبلغ نهايتها المحتومة . لذلك فقد ادهشه ان قاطعه بيير بتصميم وحزم قائلا :
– كلا ، مافائدة ذلك ؟ ... ماذا يهم ذلك الآن ؟ ... هيا ، هل نحن على استعداد ؟ فقط قل لي الى اي حد ينبغي ان اتقدم وفي اي اتجاه ينبغي ان اطلق غدارتي ؟
اضاف هذه الجملة وهو يبتسم ابتسامة مغتصبة . وأخذ الغدارة وسأل كيف يضغط زنارها دون ان يعترف رغم ذلك بأنه لم يمّس سلاحاً طيلة عمره . قال عندما شُرح له ماغمض عليه :
– آه نعم ! لقد فهمت ، كنت ناسياً .
وكان دولوخوف من جانبه يقول لدينيسوف الذي كان يحاول اعادته الى الصواب فيقر بخطئه ويطلب الصفح عنه :
– كلا ، انني ارفض بشدة ، لن اقدم اعتذارات .
ومضى بدوره الى مكانه المعين .
كان المكان الذي وقع الاختيار عليه للمبارزة ، واقعاً على بعد ثمانين خطوة عن الطريق حيث ترك الطرفان الزحافات في بقعة مكشوفة من غابة الصنوبر .

وكان موسم ذوبان الثلج قد اقبل مبكراً منذ ايام . وقف الغريمان على جانبي البقعة المكشوفة تفصل بينهما مسافة اربعين خطوة . وكان الشهود قدخلفوا آثار اقدامهم على الثلج الرخو عندما راحوا يقيسون المسافة قبل الشروع بالمبارزة ، وكانت تلك الآثار تتوقف عند سيفي نيسفيتسكي ودينيسوف اللذين كانا مغروسين على بعد عشر خطوات لتحديد سعة الساحة . وكان الضباب ونجار الثلج الذائب من الكثافة حتى ان الرؤية كانت مستحيلة على بعد اربعين خطوة. وكان كل شيء معداً منذ ثلاث دقائق دون ان يفكر احد في الشروع بالعمل او التلفظ بكلمة.

* * *

الفَصلُ الخَامِسُ

المبارزة

قال دينيسوف :

– حسناً ، هيا !

فقال بيير وهو دائم الابتسام :

– هيا بنا .

كان واضحاً انه بات متعذراً ايقاف هذه المسألة التي قوبلت وأُجريت بشيء من الاستخفاف وعدم التروي . لقد اصبحت القضية مروعة مخيفة . كانت قوة فوق طاقة البشر تريد ان يتم هذا الامر دون تأخير ولا تبديل .

تقدم دينيسوف من الحد المقرر وهتف :

– لما كان الخصمان قد رفضا التصالح ، فإنني ادعوهما الى التسلح بالغدارات والسير عندما اصل الى رقم « ثلاثة » !

ثم اردف بصوت غاضب منفعل :

– واحد ! اثنان ! ثلاثة !

وابتعد . راح الخصمان اللذان يحق لكل منهما ان يطلق النار قبل بلوغ الحد الفاصل ، يمشيان الواحد باتجاه الآخر ، سالكين الطريق الحديث الذي شقته في

الثلوج اقدام الشهود عند قيامهم بالترتيبات الاولية . اخذا يريان بعضهما بعضاً بشكل اوضح كلما اقتربا في ذلك الضباب. كان دولوخوف يقترب بخطوات بطيئة ، خافضاً غدارته ، شاخصاً الى بيير بعينيه الزرقاوين الصافيتين الملتمعتين. وكانت ابتسامة غامضة تشرق على وجهه كعادته .

قال بيير :

— وهكذا فإنني استطيع اطلاق النار متى اشاء ، اليس كذلك ؟

عندما هتف الحكم « ثلاثة » ، اندفع بيير الى الامام في مشية سريعة كانت تحرفه عن السبيل الممهد فتغرز اقدامه في الثلوج . لاريب انه كان يخشى ان يصيب نفسه بجرح من غدارته الشخصية ، لذلك فقد كان ممسكاً بها على امتداد ذراعه الايسر ، جاهداً في ابقاء يسراه الى الوراء لانه كان ينوي استعمالها في تثبيت يمناه ، غير جاهل عدم جواز ذلك . ولما خطا بضع خطوات تائهة وسط الثلج ، نظر الى قدميه والقى نظرة سريعة على دولوخوف وضغط الزناد كما اوضحوا له . قفز مروعاً من دوي الانفجار الذي لم يكن يتوقع شدته ، لكنه ماعتم ان ابتسم لسذاجته وتوقف في مكانه . وكان الضباب والدخان يحجبان خصمه عن عينيه تحت ستار كثيف. وبدلاً من ان تدوي الطلقة الثانية كما كان ينتظر ، شعر بوقع خطوات سريعة متلاحقة . واخيراً ، شاهد شبح دولوخوف يبرز من الضباب ، ووجهه ممتقع واحدى يديه تضغط على جنبه الايسر بينما كانت الاخرى مطبقة بشدة على الغدارة المخفضة . هرع روستوف اليه وقال له بضع كلمات اجاب هذا عليها خلال اسنانه المطبقة :

كلا ... كلا ، لم ينته بعد

خطا بضع خطوات اخرى وهو يترنح ثم هو على الثلج بجانب السيف . وبعد ان مسح يده اليسرى الملطخة بالدم بسترته ، استند عليها بجسمه . كان وجهه الشاحب المكفهر يرتعد .

غمغم بصعوبة وهو يقوم بمجهود خارق :

- اسـ .. اسـ .. اسمحوا ...

راح بيير الذي كان على وشك الاجهاش بالبكاء ، يعدو نحوه دون ان يتبادر الى ذهنه الخروج من الساحة . فهتف دولوخوف قائلا : « الى الحد » ! . فهم بيير مايعنيه فتوقف قرب حسامه . لم يكن يفصله عن دولوخوف الا عشر خطوات. غمر دولوخوف رأسه في الثلج وملأ فمه منه بنهم ثم انتصب وهو يحافظ بصعوبة على توازنه حتى استطاع الجلوس . كان يمتص الثلج الذي ملأ به فمه . وكانت شفتاه ترتعدان لكن عينيه كانتا أبداً تبسمان ويلتمع فيهما بريق حقد عميق ضاعفه ذلك المجهود الخارق الذي كان يبذله. واخيراً رفع غدارته وراح يسدد الى الهدف.

قال نيسفيتسكي يوصي بيير :

- قف وقفة جانبية واحجب نفسك بالغدارة .

ولم يستطع دينيسوف بدوره الا ان يهتف به رغم انه شاهد الخصم :

- رباه ، احجب نفسك !

لكن بيير ظل واقفاً مباعداً بين ساقيه وذراعيه دون دفاع ، يعرض صدره العريض لدولوخوف ، وهو ينظر اليه بابتسامة شاحبة تحمل طابع الاشفاق والندم. اغمض دينيسوف وروستوف ونيسفيتسكي عيونهم . سمعوا صوت انطلاق الغدارة وصيحة يأس وغضب ترافقها .

زمجر دولوخوف :

- اخطأت الهدف ! ..

وخارت قواه فهوى على الارض ووجهه على الثلج .

اطبق بيير على رأسه بيديه ونكص على اعقابه وراح يلتجىء الى الغابة . كان يسير بخطوات واسعة على الثلج الذائب يصرف بصوت مبحوح كلمات متتابعة :

- شنيع ! ... شنيع ! ... الموت ... ترهات كل هذه ! ...

فلحق به نيسفيتسكي واعاده الى منزله .

وحمل روستوف ودينيسوف الجريح .

كان دولوخوف ممدداً في قاع الزحافة مغمض العينين ، لايجيب على الاسئلة التي كانت تطرح عليه .

وبينما هم داخلون الى موسكو ، عاد الى صوابه وامسك بيد روستوف الجالس بجانبه . كان وجهه مضيئاً بقبس مشع من حنان ووجد وكانه تحول الى مخلوق آخر . سأله روستوف وهو لايصدق عينيه :

- حسناً ! كيف حالك ؟

- سيئة !

وبادر بصوت متقطع يقول :

- ولكن ليس من الجرح ياصديقي . اين نحن ؟ في موسكو اليس كذلك ؟ ...
انني لاابالي بما قد يصيبني ... ولكن هي ... لقد قتلتها ، لقد قتلتها ... انها لن تحتمل هذا ، كلا ، ابداً ...

فقال روستوف مستفسراً :

- من «هي» ؟

فأجابه دولوخوف وقد استحال الى دموع هاطلة :

- امي ، امي ، ملكي ! ملكي المعبود ! ...

وضغط على يد روستوف باصابعه المتشنجة .

ولما هدأت ثائرته ، اوضح لروستوف انه يعيش مع امه وانها اذا شاهدته على تلك الحال ، فانها لن تحتمل ذلك المشهد . وراح يتوسل الى نيكولا ان يمضي اليها قبل وصوله وان يمهد السبيل لتخف الصدمة على اعصابها .

قبل روستوف القيام بتلك المهمة التي اطلعته — ولدهشته البالغة — على ان ذلك الحقير التافه ، ذلك المبارز الولوع بالقتل ، يعيش في موسكو مع امه العجوز واخته الحدباء ، وانه كان اكثر الابناء براً والاخوة محبة .

الفَصلُ السَّادِسُ

ثورة بيير

لم يحدث ان وجد بيير نفسه وحيداً مع زوجته في الايام الاخيرة : فالبيت في موسكو ، كان ابداً عامراً بالناس كما كانت عليه الحال في بيترسبورج . وفي الليلة التالية ليوم المبارزة ، لبث بيير - كما كان يحدث له مراراً - في الغرفة الفسيحة الرحبة التي كان يشغلها ابوه من قبل ، تلك الغرفة التي مات فيها الكونت . لم يشعر برغبة في الذهاب الى غرفة نومه .

استلقى على اريكة آملا ان يجد في النوم سلواناً لما وقع ومضى ، لكنه اخفق في بغيته . كانت عاصفة عنيفة من الافكار والعواطف والذكريات تصخب في نفسه ، فما كان يطيق النوم ولا كان يستطيع الجلوس . فقفز عن الاريكة وراح يذرع الغرفة الفسيحة بخطوات سريعة متلاحقة . استعاد في ذاكرته صورة هيلين في لحظات زواجها الاولى ، وهي عارية الكتفين ذات نظرة زاوية ضعيفة . وانتصب الى جانب تلك الصورة ، وجه دولوخوف الجميل المزاح الساخر كما كان يوم الحفلة ثم ذاك الوجه بالذات ، الممتقع المتقلص المتألم الذي شاهده آخر الامر عندما كان صاحبه التعيس يهوى على الثلج .

اخذ يتساءل : « ماذا حدث بعدئذ ؟ لقد قتلت «العشيق» نعم ، لقد قتلت

عشيق زوجتي . ولماذا ؟ كيف توصلت الى ذلك ؟ » ليجيبه صوت داخلي قائلا: « ـ لانك تزوجتها ! » ـ « ولكن ماهو ذنبي ؟ » ـ « ذنبك انك تزوجتها دون حب ولانك خدعتها اذ خدعت نفسك » . وعادت الى ذاكرته على الفور تلك الدقيقة الحاسمة التي نطق خلالها ـ وكان ذلك بعد العشاء الذي تناوله عند الامير بازيل ـ بهذه الكلمات التي لم تكن تريد الخروج من فمه : احبك . « نعم ، ان كل شيء كامن في هذه الكلمة . كنت اشعر تماماً بأن لاحق لي بنطقها ، وانني كنت اخطو خطوة عقيمة سقيمة . ولم يخدعني شعوري المسبق » .

احمر وجهه فجأة حينما مثلت في خاطره ذكريات شهر العسل . وكان حادث واحد خلال ذلك الشهر السعيد يغمره بالخجل . ذلك انه ذات صباح ، حوالي الساعة الحادية عشر ، بينما كان خارجاً من غرفتها في طريقه الى مكتبه ، التقى هناك بوكيله العام . فلما رأى هذا الرجل وجه بيير الطافح بالسعادة ومعطفه المنزلي المصنوع من الحرير ، حياه تحية مفعمة بالاحترام وسمح لنفسه باظهار ابتسامة مبتسرة معبراً بها عن مشاطرته سيده الشعور بسعادته .

« وانا الذي كنت اجعل منها مداراً لفخري ! كنت اعتز بجمالها الصارخ ، وبتاثيرها وعصمتها المنيعة . كنت اعجب باسلوبها في استقبال الناس في بيترسبورج! لقد كان فيها مايبعث على الفخار والتيه ! كنت اظن انني لا افهمها . وكم من مرة ، لمت نفسي وانا ادرس طبيعتها ، على تجاهل هدوئها الدائم ومظهرها الرضي القانع ، واختفاء كل آثار الرغبة والنزوة فيها ! مع ان مفتاح السر كان في هذه الكلمة الرهيبة : انها فاجرة . لقد اوضحت هذه الكلمة الرهيبة كل الامر وانارت السبيل !

« كان آناتول يقترض منها المال ويقبل كتفيها العاريين . انها ما كانت تعطيه المال ولكن كانت تتقبل منه القبل . وابوها كان يثير غيرتها مازحاً فتجيبه بابتسامتها الهادئة بانها ليست حيواناً لتتطرق الغيرة الى نفسها . كانت تقول عني : يمكنه ان يعمل ما يشاء » . ولما سألتها ذات يوم عما اذا كانت لا تحس ببوادر الحمل ،

أجابتني بضحكة مزدرية أنها : « لم تكن حمقاء حتى ترغب في الحمل وانها على كل حال لن تنسل مني ولداً » .

ثم راح يكرر على نفسه انحطاط أفكارها الطبيعي وفجاجة تعابيرها التي لاتتلاءم مع نشأتها الارستقراطية الراقية. كانت تقول مثلًا: «أتعتبرني سخيفة؟.. جرّب لأرى . . . « شوف شغلك[1] . . . » لقد كان يحار دائماً ، كلما رآها موضع ملق الجميع وتزلفهم ، في فهم السبب الذي يجعله وحده لا يشعر بحبها . « كلا ولا ريب ، انني لم أحببها قط ، كنت أعرف أنها خالعة العذار فاجرة ، لكنني ما كنت أجرأ على التصريح بهذه الحقيقة. . . والآن، ها ان دولوخوف متهاوياً فوق الثلج ، يحاول جاهداً ان يبتسم ، ولعله سيموت ، وان يجيب على نزعة الندم في نفسي بالتظاهر بالشجاعة الخارقة ! »

كان بيير من أولئك الناس الذين –رغم مايعزى اليهم من ضعف في العزيمة– لايأمنون جانب أحد فلا يفصحون عن أحزانهم لأحد ويبقونها تعتلج في أنفسهم الاجترار بها في خلواتهم .

استرسل في مناقشته : « انها الجانية ، نعم ، انها الجانية . ولكن ماالعمل معها ؟ لمَ ارتبطت بها ؟ لماذا قلت لها تلك الجملة القاضية « احبك » رغم انها لم تكن الا كذبة واسوأ من كذبة ايضاً ؟ انني انا الجاني اذن ، وينبغي ان احتمل ... ولكن ماذا احتمل على التحديد ؟ تلويث الشرف ، الخصومة ... كلا ، كلا بل العار والدناءة . ان كل هذه تتصل بسبب بينها فتجعل شخصيتي في خبر كان .

« لقد » اعدموا » لويس السادس عشر « لانهم » اعتبروه مجرماً عديم الشرف، وكانوا على حق من وجهه نظرهم ،لكن اولئك الذين احتملوا الاستشهاد والتضحية

---

(١) استعملنا هذا التعبير العامي مرغمين لنفسر به التعبير الوارد في النص : الذي ينطبق عليه تماماً . — المترجم —

من اجله ، وكانوا يضعونه في مصاف القديسين ، الم يكن هؤلاء ايضا على حق؟ طبعاً لقد كانوا محقين من وجهة نظرهم كذلك. ثم أعدموا بعد ذلك روبسبير[1] لانه كان مستبداً طاغية . . فمن الذي كان على حق ومن الذي كان مخطئاً ؟ لاأحد . اغتنم فرصة وجودك على قيد الحياة لانك ستموت غداً كما كدت اموت اليوم منذ ساعة . فهل يستحق شيء في الوجود ان يتعذب المرء من اجله ، خصوصاً وان الوقت الذي سنعيشه لايساوي ثانية في عمر الزمن » ؟

لكنه في اللحظة التي كان يظن نفسه فيها انه بلغ الهدوء المنشود بفضل تلك المحاكمة البليغة ، عاد يعيش في ذاكرته تلك الدقائق من الاستسلام الكاذب التي « راحت » خلالها تعرب له عن غرامها الكاذب . وحينئذ شعر بالدم ينحبس في قلبه ويكاد يفجره . فنهض من جديد ليمشي ويحطم ويجزىء كل شيء يقع تحت يده . راح يتساءل : « لماذا قلت لها : « احبك » بحق الشيطان » ؟ وبينما كان يطرح على نفسه هذا السؤال للمرة العاشرة ، تذكر كلمة موليير[2] الشهيرة : « لكن ، ياللشيطان ، ماذا كان يريد ان يعمل في ذلك الجحيم « تلك السفينة» ،

---

(١) اسمه الكامل ماكسيميليان دورو بسبير ، ولد عام ١٧٥٨ في آراس. كان محامياً ومشرعاً وغدا روح لجنة الخلاص الشعبي وملهمها فساد فيها وتخلص من غرمائه هيبير ودانتون ، وانقلب الشعب عليه في اليوم التاسع من شهر تيرميدور للعام الثاني من الثورة (٢٧ تموز ١٧٩٤) ، واعدم على المقصلة حيث ارسل اليها عدداً كبيراً من الضحايا . — المترجم —

(٢) اسمه جان باتيست بوكولان ، اطلق عليه اسم موليير . كان كاتباً هزلياً فرنسياً ولد في باريس عام ١٦٢٢ وتوفي عام ١٦٧٣ . وكان ممثلا ومدير فرق تمثيلية ، له في مضمار الفن المسرحي الفرنسي باع طويل . لايجارى في ابراز شخصياته وانطباق موضوعاته على واقع الحياة وقوة عباراته وجمال اسلوبه ، سبق كل المتقدمين والمتأخرين من الادباء في اغداق تحف من الادب الرفيع والادب الشعبي على خزانة الادب حتى ان كثيراً من تعابيره ذهبت مثلا . ولقد قال عنه سانت بوف « ان كل من يستطيع القراءة ، يمكنه ان يكون قارئاً جديداً لموليير!» — المترجم

يريد القول بذلك « مالذي دفعه الى سلوك هذا السبيل الوعر » ؟، وراح يضحك من تعاسته الشخصية .

استقدم خادمه اثناء الليل وامره باعداد المتاع . لقد كانت فكرة التقائه بزوجته تبدو له مريعة فقرر الرحيل منذ صباح اليوم التالي على ان يفسر لها الامر في رسالة يتركها لها ويعلمها فيها انه يفترق عنها الى الابد .

وفي الصباح ، لما جاءه الوصيف بقهوته ، كان بيير مستلقياً على اريكة تركية حيث نام ليلته وفي يده كتاب مفتوح . قفز من مرقده فزعاً وراح يجيل حوله نظرة متبلدة حتى ادرك اخيراً اين كان ولمَ كان حيث كان .

قال الخادم :

– ان سيدتي الكونتيس تسأل اذا كنتم سعادتكم على استعداد لمقابلتها .

لم يكن بيير قد حزم امره على الجواب بعد ، حينما دخلت الكونتيس مرتدية غلالة من الساتان الابيض المطعم بالفضة ، ووجهها الفتان ، تتوجه ضفيرتان ثقيلتان على شكل اكليل ، وقد ارتسمت فوق جبهتها المرمرية المائلة قليلًا ثنية اقامها الغضب ليشوه ذلك الاشراق الرائع . دخلت متحلية بالحزم والجلال . لقد تناهى اليها خبر المبارزه فجاءت تسأله تفسيراً وايضاحاً . مع ذلك ، فقد استطاعت بهدوئها المكين ان تسيطر على اعصابها حتى فرغ الوصيف من عمله وغادر الغرفة . واسترق بيير نظرة خجلى خلال نظارتيه وبدا اشبه بالارنب الذي داهمته كلاب الصيد واحاطت به ، عندما يرخي اذنيه وينطوي على نفسه امام اعدائه الألداء . حاول التحصن وراء كتابه والتلهي بالقراءة ، لكنه شعر بعقم هذا التصرف ، فراح يرقبها من جديد بنظرة ورعة . اما هي فقد لبثت واقفة تتفحصه وعلى شفتيها ابتسامة هازئة . سألته بلهجة شديدة عندما خرج الوصيف من الغرفة :

– ماذا هناك من جديد ؟ لقد ارتكبت امراً جللا ! ما معنى ذلك ؟

سألها بيير :

ـ انا ؟ ماذا عملت ؟

ـ هه ، ها انتذا قد اصبحت مغواراً في الحروب ! مامعنى هذه المبارزة ؟ ماذا اردت ان تثبت بها ؟ اجبني عندما احدثك !

استدار بيير بتثاقل فوق الاريكة وفتح فمه لينطق بشيء ، لكنه لم يخرج من حنجرته حرفاً واحداً . اردفت هيلين تقول :

ـ حسناً ، طالما انك لن تجيب فانني انا التي سأتحدث . انك تصدق كل مايقولونه لك ، ولقد قالوا لك ان دولوخوف ... كان « عشيقي » .

نطقت بهذه الكلمة واشفعتها بضحكة مدوية . كانت تتحدث بالفرنسية بتلك الرنة الوقحة المألوفة في اسلوبها ، فأطلقت تلك الكلمة الفجة دون اي ارتباك او خجل ! اردفت :

ـ ولقد صدقت انت هذه الاقاويل . ولكن على اي شيء برهنت في هذه المبارزة ؟ على انك «احمق» فحسب . ثم ان كل الناس كانوا يعرفون عنك ذلك!... والآن تريد ان تجعل مني اضحوكة اهل موسكو ، سيقولون كلهم انك في ساعة ثملك اخفقت في السيطرة على اعصابك ، فتحديت رجلا كنت تغار منه دون سبب وبارزته ...

واضافت وهي ترفع صوتها اكثر فأكثر :

ـ نعم ، رجلا يستأهل كل الالتفات والاحترام اكثر منك ...

زمجر بيير وهو يرف بعينيه دون ان ينظر اليها او ان يقوم بحركة ما :

ـ هم ! هم ! ...

ـ مالذي جعلك تعتقد انه عشيقي ؟ ... لانني اجد متعة في رفقته ؟ لو انك كنت اكثر ذكاءً وتودداً لفضلت عشرتك على عشرته ولاريب .

غمغم بيير بصوت اجش :

ـ دعيني هادئاً ... اتوسل اليك .

– ولمَ اذن ؟ ان من حقي ان اتكلم على ما اعرف ! ... اقول لك بكل صراحة : مع زوج مثلك ، اية امرأة ما كانت لتجعل لنفسها عشاقاً ؟ ... ومع ذلك فإنني لم افعل ذلك .

ود بيير ان يقول شيئاً ، لكنه اكتفى بان القى عليها نظرة لم تفهم شيئاً مما قصده بها . عاد يجلس على الاريكة وهو فريسة قلق فظيع . كان مبهور الانفاس يكاد صدره ان ينفجر . كان يعرف الوسيلة التي تضع حداً لعذابه وألمه ، لكنه كان يتراجع امام هذه النتيجة . واخيراً ألمح بصوت متقطع :

– الأفضل لنا ان نفترق .

– نفترق ؟ بالسعادة . ولكن بشرط ان تعطيني ما اعيش به ! ... أما ما تبقى ، فإنني اسخر به !

قفز بيير عن الاريكة ومشى اليها بخطوات متعثرة مترنحة .

زمجر كالحيوان الجريح :

– سأقتلك !

وأطبق بقوة لم يعهدها في نفسه على قطعة الرخام التي تغطي المائدة ورفعها مهدداً .
تقلص وجه هيلين من الرعب فاطلقت صرخة ثاقبة ورمت بنفسها الى الوراء .
لقد نطق الدم الابوي في عروق بيير : كان يشعر بلذة غريبة مسكرة من غضبته .
القى قطعة الرخام فتحطمت واندفع نحوها مطبق القبضتين وزأر بصوت مريع اهتزله القصر المنيف رعباً :

– اخرجي !

ولو ان هيلين لم تفر في تلك اللحظة ، لوقعت امور لا يعلم مداها الا الله وحده .
وبعد ثمانية ايام ، سافر بيير وحيداً في طريق املاكه في روسيا الكبرى ، تلك الاملاك التي كانت تشكل اكثر من نصف ثروته .

الفَصلُ السَّابعُ

فجيعة بولكونسكي العجوز

انقضى شهران على وصول انباء معركة اوسترليتز الى ليسيبا جوري (الجبل الاقرع) حيث يقيم الامير العجوز بولكونسكي . كان ابنه آندريه لازال في حكم المفقود رغم كل الرسائل التي وجهها ابوه الى السفارة ، والتحقيقات الكثيرة التي أجريت ، والتي لم تسفر عن ايجاد جثة الامير آندريه خصوصاً وان اسمه لم يرد في قائمة من قوائم الاسرى . ولم يكن هناك اي امل في ان تكون جثته قد رفعت من قبل السكان بعد المعركة ، بل ان هذه النظرية كانت اكثر النظريات ايلاماً لعائلة الفقيد . لانه في هذه الحالة ، يكون وحيداً في مكان ما في طور النزع او في دور النقاهة دون ان يكون حوله نصير او مغيث ، ودون ان يستطيع وهو في غربته ان يبعث باخباره . اطلع العجوز بادىء الامر على انباء الهزيمة عن طريق الصحف . كانت هذه — كعادتها تعلن بعبارات مقتضبة غامضة ان الروسيين بعد معارك عظيمة اظهروا فيها بسالة فائقة ، اضطروا الى التراجع وان الانسحاب جرى في جو منظم تنظيما تاماً . فلما قرأ الامير هذا البلاغ ، ادرك ان الروسيين قد هزموا . ولم تمض ثمانية ايام حتى تلقى رسالة من كوتوزوف يطالعه فيها بنعي مصير ابنه . قال في رسالته :

« لقد سقط ولدكم تحت ابصاري والعلم في يده بينما كان على رأس فيلق ، سقوط الابطال ، فكان جديراً بابيه ، جديراً بوطنه. وانناـ لشديد أسفي واسف الجيش كله ـ لاندري اذا كان حياً او ميتاً . مع ذلك فاننا نستطيع ان نرضي انفسنا بالقول انه نجا والا ، فان اسمه كان يجب ان يرد في قائمة اسماء الضباط القتلى الذين اطلعت على نسخة منها بنفسي ، بعد ان حصلنا على هذه القائمة عن طريق المفاوضات مع العدو » .

ابلغت هذه الرسالة للأمير العجوز في ساعة متأخره من الليل ، عندما كان وحيداً في مكتبه . وفي اليوم التالي ، باشر بنزهته الصباحية المعتادة وكأن امراً لم يحدث . لكنه بدا شديد الشراسة مع وكيله وبستانيه ومهندسه. وعلى الرغم من سمات الغضب التي كانت باديه على وجهه ، فانه لم يوجه اللوم والتعنيف لاحد.

ولما دخلت الاميرة ماري لتحيته صباحاً حسب العادة ، كان منصرفاً الى دولابه (دولاب صنع الفخار) ، فلم يلتفت اليها .

وفجأة قال لها بصوت مبحوح :

ـ آه ، ماري !

القى بازميله جانباً ، فظلت العجلة تدور بفعل السرعة المكتسبة، وظل ذلك الصرير المكتوم الذي اخذ يخفت تدريجياً ، عالقاً زمناً طويلاً في ذاكرة ماري مقروناً بذكريات تلك الصبحية .

اقتربت منه وقد قرأت على وجهه آية جعلتها تتهم عينيها، واضطربت اضطراباً شاملاً . لم يكن ذلك الوجه حزيناً ولا مرهقاً ، ولكن كان منقلباً وكأنه فريسة عراك غير طبيعي ، وكان ينبئها بان مصيبة مريعة معلقة من قبل فوق رأسها على وشك ان تسحقها الآن برزئها . تلك المصيبة التي كانت اخطر ما مر بها في حياتها ، والتي كان يستحيل محوَ آثارها ويستحيل احتمالها بتجلد وصبر ، كانت موت كائن تحبه بحرارة وقوة .

صرخت الاميرة المكدّرة الفاشلة بصوت خارج عن غير ذاتها وبألم شديد الوقع والأثر قائلة :

- أبي ! آندريه !

ولم يستطع الاب الصمود لنظرتها ، فاشاح بوجهه وانتحب . قال بصوت كالنباح بلهجة غاضبة متمردة وكأنه يريد ان يطرد ابنته من حضرته :

- لقد تلقيت اخباراً . انه ليس في عداد الجرحى ولا في عداد الموتى ... لقد كتب لي كوتوزوف ... واذن فانه ميت !

لم تفقد الاميرة الوعي ولم يستول عليها الدوار . كانت من قبل شاحبة الوجه. لكنها لما تلقت النبأ ، تبدل وجهها وشعت نظراتها بوميض اضاء عينيها الجميلتين. سيطر على ألمها العميق الهائل ، يُمن علوي ، لون من الذهول الغريب ، مترفع عن افراح هذه الارض السفلية واتراحها على السواء . نسيت الخوف الذي كان يبعثه ابوها في نفسها فاقتربت منه وامسكت بيده واحاطت عنق العجوز الاعجف المعقد بذراعيها وقالت :

- ابتاه ، لاتبالي بوجودي . لنبك معاً .

صرخ الامير وهو يتخلص من ذراعي ابنته :

- السفلة ، الاوباش ! لماذا اضاعوا الجيش وقتّلوا الرجال ؟ اذهبي واخبري ليز .

سقطت الاميرة في مقعد واطلقت لدمعها العنان . رأت بعين الخيال اخيها يودعهم قبل سفره ، يودع ليز ويودعها هي ، بلهجة مترفعة وودودة معها . ورأت نفسها تضع « الايقونة » الصغيرة حول عنقه وهو يقابل صنيعها بسخرية رقيقة حانية . تساءلت : « هل كان مؤمناً ؟ هل تاب عن الحاده وزندقته ؟ هل هو الآن هناك في السماء ، في مقام الراحة الابدية واليمن الازلي » ؟

سألت اباها خلال دموعها :

- قل لي ياأبي ، كيف وقع ذلك ؟

ـ هيا ، هيا ، لقد قتل في معركة فقدنا فيها الى جانب مجدنا خيرة الروسيين.
هيا ياأميرة ماري ، اخبري ليز وسألحق بك .

لما عادت ماري من لدن ابيها ، كانت الاميرة الصغيرة جالسة امام نولها . راحت ترقبها وتتأمل الامارات التي تدل على القناعة والاشراقة المتيقظة ، التي تنفرد بها النساء الحاملات . ما كانت ترى فيها زوجة لأخيها فحسب ، بل كانت تنظر في اعماق روحها وتتأمل الحدث السعيد الذي كان يتم في عالم المجهول والخفاء.

قالت ليز وهي تكف عن العمل على نولها وتستلقي الى الوراء :

ـ ماري ، اعطني يدك .

اخذت «ليز» يد ماري ووضعتها على بطنها . كانت عيناها تضحكان ضحكة الترقب والانتظار ، وشفتها ذات الزغب ترتفع لتبقى جامدة في مكانها مضفية على وجهها سعادة الاطفال الابرياء الهانئين .

ركعت ماري ودفنت وجهها في ثنيات ثوب زوجة اخيها .

قالت ليز وهي تنظر الى ماري بعينين مشرقتين :

ـ هنا ، هنا ، اتشعرين ؟ ان هذا يبدو لي شديد الغرابة . ثم هل تعلمين ؟ لقد كنت احبه حباً جماً .

لم تستطع ماري ان ترفع راسها . كانت تبكي .

ـ ماذا بك ياماري ؟

ـ لاشيء ... انني اشعر بفائض من الحزن كلما فكرت في آندريه.

وجففت ماري دموعها بثوب زوجة اخيها .

همت عدة مرات ان تهيئها لتقبل الخبر المفجع ، لكن دموعها كانت تحبس النطق في حنجرتها كل مرة فتصمت وتتراجع . وما كان يمكن لتلك الدموع التي لم تكن ليز تفهم الباعث على ذرفها الا ان تعذبها وتزعجها مهما بلغ ذكاؤها من ضعف ووهن . لم تكن تنبس ببنت شفة ، لكنها كانت تجيل حولها في الغرفة

نظرات قلقة مضطربة . وقبل موعد الطعام ، رأت الامير العجوز يدخل الى حجرتها . وكان الامير يبعث الرهبة في نفسها ابداً . لكنه كان في تلك المرة على غير عادته ، تحمل امارت وجهه طابعاً سيئاً متباهياً . وقد رأته يخرج من غرفتها دون ان يوجه اليها كلمة . وراحت تحدجه بنظرة فـــارغة ثم استغرقت في التفكير وقد ارتسمت على وجهها ظاهرة العناية الموجهة الى مكنون احشائها كما يحدث غالباً للنساء الحبالى . وفجأة انخرطت في البكاء .

سألت باكية :

– هل تلقيتم انباء عن آندريه؟

– كلا ، ان الوقت لازال مبكراً كما تعلمين . لكن ابي شديد القلق من اجله ، الامر الذي يؤلمني أشد الألم .

– اذن ، الا زالوا لايعرفون شيئاً ؟

فأجابت ماري مؤكدة وهي تنظر اليها بعينيها المشعتين :

– كلا ، لاشيء .

قررت ان تكتم الحقيقة واقنعت اباها بوجوب اتخاذ مثل هذاالقرار بانتظار قيام «ليز» من الوضع القريب المنتظر . وراح الاب والابنة ، كلٌ على طريقته ، يسيطر على آلامه واحاسيسه ويخبيء حزنه . كان الامير العجوز لايتعلق بأي امل رغم انه كلف رجلًا موثوقاً بالقيام بابحاث وتحريات في النمسا . كان قانعاً بان ابنه قتل ، واعلن نبأ موته لجميع الناس . بل انه اوصى على نصب يرسل اليه من موسكو ليقيمه في حديقته ذكراً لابنه القتيل . وعلى الرغم من محاولته عدم تبديل شيء من عاداته المألوفة ، فان قواه كانت تخونه : فقصر مدى نزهاته وضعفت شهيته للطعام وجفاه النوم . وبالاختصار ، كان حالته تسوء يوماً عن يوم . اما الاميرة ماري ، فقد كانت بعيدة عن مسالك اليأس ، تصلي من اجل اخيها كما تصلى من اجل مخلوق حي تنتظر خبرأوبته سالماً بين لحظة واخرى .

الفَصْلُ الثّامِنُ

عودة آندريه

قالت الاميرة الصغيرة فجأت بعد افطار يوم ١٩ آذار :

– ياصديقتي الطيبة ، اخش ان يكون «الفروشتيك»[1] – كما يسميه الطاهي فوكا – قد سبب لي بعض الارتباك .

تقوست شفتها المظللة بشكل آلي وهي بسبيل تصوير ابتسامة . ولما كان كل مافي ذلك البيت منذ ورود ذلك النبأ المفجع ، من ابتسامات واصوات بل وحركات ايضاً يحمل طابع الحداد ، فان ليز نفسها انساقت مع المجموعة دون ان تفقه شيئاً من الموجبات ، واندفعت مع التيار العام ، فكانت ابتسامتهاتزيد في الاكتئاب العام .

هتفت ماري وهي تهرع بخطوها الثقيل المتراخي :

– ماذا بك ياعزيزتي ؟ رباه كم انت شاحبة !

والحت احدى الوصيفات قائلة :

– ماذا ياصاحبة السعادة لو ارسلنا في استدعاء ماري بوجدانوفنا ؟

كانت ماري بوجدانوفنا هذه ، قابلة تقطن في المدينة الصغيرة المجاورة ،

---

(١) كلمة محورة عن الاصل الالماني وتعني طعام الافطار . – المترجم –

وقد استقرت في ليسيبا جوري منذ خمسة عشر يوماً .

قالت ماري مؤيدة :

– بلا شك ، لعل استدعاؤها بات ضرورياً . انني ماضية اليها ، تشجعي ياملكي !

وقبلت ليز قبل ان تخرج ، فهتفت هذه متوسلة ووجهها الشاحب المتقلص من الآلام يعكس الفزع الصبياني من العذاب والألم المنتظرين :

– اوه ، كلا ! كلا ! كلا ، انها المعدة . . . قولي انها المعدة ، قولي ، ماري ، قولي . . .

وانخرطت في البكاء وراحت تلوي ذراعيها كالطفل الحرون بحركة لم تخل من التصنع .

ابتسمت ماري وخرجت مسرعة مصحوبة بـ : اوه ! اوه ! وياربي ! ياربي ! التي كانت ليز تواكبها بها .

وفي الطريق ، التقت بالقابلة التي كانت قادمة وهي تفرك يديها البضتين السمينتين ووجهها الخطير موسوم بالهدوء . قالت ماري وهي تلقي على القابلة نظرات حائرة من عينيها المتسعتين من الذعر :

– ياماري بوجدانوفنا ، اعتقد ان المخاض قد بدأ .

فقالت ماري بوجدانوفنا دون ان تسرع الخطا :

– حمداً لله ياأميرة . لكن هذه الامور لايجوز للعذارى معرفتها .

– ولكن لمَ لم يصل الطبيب من موسكو ؟

كانوا بناء على رغبة ليز وآندريه قد اوصوا على طبيب مولد من موسكو ، ليحضر في الوقت المحدد . وكانوا ينتظرونه بفارغ صبر .

اجابت القابلة :

– لاتبتئسي ياأميرة ، لاحاجة الى الطبيب وسيسير كل شيء على مايرام .

وبعد خمس دقائق ، سمعت ماري ، التي كانت قد انسحبت الى جناحها ، صوتاً يدل على ان بعضهم ينقل شيئاً ثقيلا . واربت الباب ، فرأت عدداً من

الخدم يحملون بينهم الديوان الجلدي الذي كان يزين مكتب الامير آندريه ، ويدخلونه الى مخدع ليز . وكان الخدم يؤدون عملهم بجلال وتأن .

لم تتحرك ماري من غرفتها بل كانت تصيخ السمع الى الضجة التي تنبعث بين الحين والحين وتوارب الباب بين فترة واخرى لتراقب الحركة الدائبة القائمة في الممشى . كان عدد من النسوة بين داخلات وخارجات ، يمشين بخطى هادئة ولكنهن كن يشحن بابصارهن عن وجه الاميرة كلما التقت نظراتهن بعينيها المتسائلتين . ولم تجرأ الاميرة على طرح اسئلة عليهن ، فكانت تغلق بابها لتجلس على مقعد او لتأخذ كتاب الصلوات او لتركع اما «الايقونات» مبتهلة . ولشدة دهشتها الاليمة ، كانت الصلاة عاجزة عن تخفيف حدة انفعالها وألمها . وفجأة ، فُتح باب غرفتها بهدوء وبرز رأس يغطيه منديل ، ومن تحته مربيتها العجوز بر'سكوفي سافيشنا التي ، نزولاً عند اوامر الامير ، لم تكن تدخل الى غرفتها ابداً تقريباً . قالت المربية :

– لقد جئت اجالسك ياماريتي الصغيرة . وهاهي يامليكي شموع زواج والديك ساشعلها امام قداسة السعيد[1] .

– آه ! كم تسرني صحبتك ايتها المربية .

– ان الله رحيم ياحمامتي .

اشعلت المربية الشموع الملفوفة بورق مذهب امام خزانة التمائم المقدسة وعادت تجلس قرب الباب وبين يديها اشغالها . واخذت ماري كتابا وراحت تقرأ ، فلم تكونا تتبادلان النظر دون الحديث الا اذا طرأ مسامعهما صخب او ضجيج او اصوات خطى وحديث . وكانت نظرة ماري قلقة مترقبة بينما كانت نظرة المربية هادئة مطمئنة .

---

(١) درجت العادة عند المسيحيين على اعتبار القديس الذي يصادف عيده يوم ولادة الطفل حامياً لذلك الطفل . ولا زال بعضهم يطلق على الوليد اسم ذلك القديس . وهكذا فان قداسة السعيد هنا تعني القديس نيكولا حامي الامير العجوز . – المترجم –

كان الشعور بالقلق الذي استحوذ على ماري في غرفتها ،منتشراً في كل انحاء الدار بين كل اهلها . وهناك خرافة قديمة تقول انه كلما نقص عدد الاشخاص العارفين بأمر المرأة التي تعاني المخاض ، كلما نقصت آلامها وخفت . لذلك فقد كان كل من في المنزل يتصنع الجهل بالامر متظاهراً بالهدوء ، فلا حديث عن الولادة ولا همس . ولكن كان لون من الاهتمام المشبع بالحنان والعطف يبرز خلال ذلك الجمود والحركات الخطيرة الهادئة المعروفة لدى كل من في خدمة الامير العجوز وحوله . وكان ذلك الاهتمام يتحد مع القناعة الواضحة بوقوع حدث كبير مجهول لازال في دور التكامل .

وفي غرفة الخادمات والوصيفات لم تكن احداهن تبعث بضحكة . اما في المخادع والغرف الاخرى فكانت الشموع مضاءة والمسارج مشعلة وكل من في البيت يقظان . وكان الامير العجوز يذرع غرفته على اطراف قدميه حذر الضجة، فقرر اخيراً ان يرسل تيخون للاستفسار من ماري بوجدانوفنا عن حالة الام المنتظرة . قال له :

– عليك ان تقول لها فقط ان الامير يسأل عن الحالة . وعد الي بما ستقوله لك.

فلما بلغ الى حيث كانت القابلة قالت له وفي عينيها نظرة حافلة بالمعاني :

– اخبر الامير ان المخاض قد دب فيها .

وعاد تيخون يحمل الجواب . فقال الامير وهو يغلق الباب وراءه :

– حسناً ، حسناً .

وبعد ذلك لم يسمع تيخون ضجة ما او صوتاً صادراً عن مكتب الامير .

وبعد فترة طويلة ، دخل الى المكتب بحجة تنظيف الشموع . فرأى الامير مستلقياً على الاريكة . راح تيخون يتأمل وجهه المهدم فترة ، ثم اقترب منه بهدوء عظيم وقبل كتفه وخرج دون ان يعمل شيئاً آخر او ان يفضح عن رغبته. بينما ظل السر الجليل الذي لايضاهيه شيء في العالم ، يتكامل ويتحقق . واقبل

الليل وراح شعور الانتظار والحنو والخشوع امام المجهول الذي لا يمكن ادراكه، يتزايد باطراد بدلا من ان تخبو جذوته .

كانت تلك الليلة من ليالي آذار التي يعود فيها الشتاء فجأة ثائراً مغضباً ينقض بيأس بجحافله الاخيرة وعواصفه الثلجية المدخرة . وكان بعض الرجال على جيادهم حاملين المصابيح ، يقفون في اماكن معينة على الطريق المتصلة بالشبكة العامة ، منتظرين وصول الطبيب الالماني من موسكو ليقودوه بين الردغات والجرات العميقة الى القصر . وكانوا ينتظرون قدومه بين حين وآخر وقد ارسلوا جياداً الى الطريق العام لاستقباله .

تركت ماري كتابها منذ فترة طويلة وراحت تتأمل بصمت بعينيها المضيئتين ، وجه مربيتها المتغضن الذي الفت تقاطيعه وعرفتها ابتداءً من خصلات شعرها الاشهب الناجية من قماط رأسها وحتى ذلك الجيب الجلدي الخي الذي يتدلى اسفل ذقنها اشبه بالطنف .

وكانت المربية سافيشنا ، تقص بصوت منخفض ، دون ان تسمع او تفهم ماتقوله بنفسها ، حكاية كررتها اكثر من مائة مرة ومرة ، موضوعها ان الاميرة المرحومة ، وضعت ماري في كيشينيف[1] بمساعدة سيدة مولدافية[2] فقط . واعقبت :

– سوف يرحمنا الله . اما « الدوختور » فانه لا يستطيع شيئاً .

وفجأة هبت ريح قوية على احدى النوافذ التي رُفع حاجزها الخشبي الخارجي ، نزولاً عند اوامر الامير الذي درج على مثل هذه العادة كل عام ، حال وصول

---

(١) كيشينيف ، مقاطعة من اتحاد الولايات السوفياتية كانت فيما مضى تابعة لرومانيا . وهي تقع على احد روافد نهر دنيستر وسكانها (١١٣٠٠٠) نسمة. – المترجم –

(٢) مولدافيا واسمها بالرومانية مولدوفا ، مقاطعة على الدانوب جمت عام ١٨٥٩ مع فالاشيا وكونت المملكة الرومانية وظلت تابعة لرومانيا حتى عام ١٩١٨ . وهي الآن التي تشكل جمهورية من جمهوريات الاتحاد السوفياتي . – المترجم –

طير القنبرة مؤذنا بحلول الربيع ، فاهتزت الدقيرة التي لم تكن محكمة الوضع وفتحت النافذة وازيح الستار الحريري وانطفأت الشمعة . ارتعدت ماري بتأثير تلك النفحة الثلجية الباردة . وقامت المربية فوضعت اشغالها واقتربت من النافذة وراح تحاول الامساك بالدرفة الخارجية لاغلاقها وهي تنحني الى الخارج على قدر استطاعتها . وراحت الريح العاصفة تحاول انتزاع طرفي قمطتها واختطاف خصلات شعرها الاشهب الهوجاء .

قالت وهي ممسكة بالحاجز الخشبي لاتطبقه :

- ياأميرة ، ياابنتي العزيزة ، هناك بعضهم قادماً على الممشى ، وحوله المصابيح المضاءة . انه « الدوختور » ولاشك .

هتفت ماري :

- حمداً لله ! ينبغي ان اهرع لاستقباله ، انه لايعرف الروسية .

القت شالها على كتفيها وهرعت تستقبل القادمين . وبينما هي تجتاز الردهة ، لمحت خلال النافذة عربة يواكبها حملة المصابيح ، تقف امام المدخل . فهبطت السلم . وكان على قائمة حاجز السلم شمعة تصارع الريح وتصمد له ، تضيء المدخل . ورأت فيليب ، وهو احد الخدم ، واقفاً بذهول اسفل السلم وفي يده شمعة . وعند مدخل السلم ، كانت خطوات حذاء ملبّد ترتفع مرتقية . وارتفع صوت لم يكن غريباً على ماري . كان الصوت يقول :

- حمداً لله وشكراً ! وأبي ؟

فيجيبه رئيس الخدم داميان الذي هرع الى الاسفل :

- لقد نام منذ حين .

ونطق الصوت ببضع كلمات اخرى اجاب عليها داميان ، وراحت الخطوات الخفيفة غير المنظورة ترتقي السلم مقتربة .

تساءلت ماري : « أهو آندريه ؟ كلا مستحيل ، سيكون ذلك خارقاً صعب التصديق » !

وفي اللحظة التي راودتها تلك الفكرة ، رأت على البسطة قرب الخادم الذي كان يحمل الشمعة ، ظلا يظهر ثم وجه الامير آندريه ثم جسده ، وقد غطت الثلوج ياقة معطفه السميك . نعم ، لقد كان القادم آندريه بنفسه ، لكنه كان شاحباً هزيلا تصعب معرفته لأول وهلة ، لان عذوبة غريبة كئيبة كانت تحل محل قسماته القاسية الاولى . فلما بلغ اعلى السلم ، ضم اخته بين ذراعيه . سألها :

ـ الم تتلقوا رسالتي ؟

ولم ينتظر الجواب الذي ما كان ليأتي لان ماري كانت عاجزة عن الكلام ، ونزل ليأتي بالطبيب المولد الذي التقى به عند المرحلة الاخيرة من الطريق . وبعد حين ، عاد بصحبة الطبيب يرتقي السلم بخطوات واسعة ، وعاد يعانق شقيقته من جديد . قال :

ـ يالها من مصادفة غريبة ، اليس ذلك ياعزيزتي ماري ؟

ونزع معطفه وحذاءه ومضى الى مخدع زوجته .

* * *

الفَصلُ التّاسِعُ

ولادة ليز

كانت الاميرة الصغيرة التي كانت آلامها تترك لها فترات راحة متقطعة ، مستلقية على الوسائد . وكانت خصلات من الشعر الاسود تفلت من غطاء رأسها الابيض وتسترسل على طول خديها المحمومين الندبين ، وكان فمها البديع الوردي ذو الشفة المظلة ، منفرج الشفتين قليلا وكانت تبسم بجذل . ولما وقف آندريه قرب الاريكة التي كانت ممددة عليها ، وقعت عيناها الملتمعتان بنظرتها المذعورة ذعر الاطفال عليه ، ولكنها لم تبدل من تعبير هما . كانت تلك العينان تقولان : « انني احبكم جميعاً حباً جماً ، ولم اسيء الى احد فلماذا اذن اتألم ؟ رحماكم ، خففوا آلامي عني » ! عرفت زوجها ، لكنها لم تعرف معنى ظهوره المفاجيء في تلك اللحظة . دار آندريه حول الاريكة حتى بلغ موضع رأسها فقبلها في جبينها وقال لها :

– ياروحي العزيزة ، ان الله رحيم .

كانت هذه اول مرة يناديها بهذا القول . لكن عينيها امتلأتا بالعتاب اشبه بعيني طفل حرد وكأنها تقول :

« كنت انتظر منك بعض السلوان فاذا بك كالآخرين لا تختلف عنهم في شيء » !

لم تكن مدهوشة لرؤيته امامها لكنها لم تكن تفقه السبب الذي جاء .. لم يكن

لوصول زوجها أية علاقة بآلامها وتخفيف تلك الآلام عنها. وعادت الآلام تتجدد، فرجت ماري بوجدانوفنا الامير اندريه بمبارحة الغرفة .

دخل المولد الى الغرفة وخرج آندريه فالتقى باخته وراح يتحدث معها بصوت منخفض حديثاً تقطعه فترات صمت . كان كلاهما ينتظر مرهفاً سمعه بصبر نافذ.

قالت له ماري :

- هيا ياصديقي .

مضى آندريه الى شقة ليز واقام في الغرفة الملاصقة لغرفة النوم . وبعد فترة خرجت امرأة يعلو الذعر والهول وجهها فلما لقيت الامير تضاعف ارتباكها . غطى وجهه بيديه ولبث كذلك دقائق طويلة . كان الانين يقطع نياط القلوب والعويل الصادر عن غرفة النوم يشبه زمجرة الحيوان في الكرب اقترب آندريه من الباب وهم بفتحه . لكن صوتاً من الداخل هتف بذعر قائلا :

- مستحيل ! مستحيل !

ويداً مجهولة قاومت حركته . فعاد الى غرفته يذرعها بخطى مضطربة محمومة .

توقف الانين . ولكن بعد ثوان قليلة ، انطلقت صرخة مروعة تجاوبت في المنزل ، صرخة لايمكن ان تصدر عن ليز وهي على مثل حالها من الضعف . وبينما اندفع نحو الباب من جديد يحاول اقتحام الغرفة ، انقطعت الصرخة فجأة وارتفع استهلال طفل وليد .

تساءل آندريه للوهلة الاولى : « لماذا أتوا بطفل الى هنا ؟ طفل ؟اي طفل؟ ماذا يعمل هنا الطفل ؟ هل ولد طفل » ؟

وفجأة ادرك أن ذلك الاستهلال الذي سمعه يحمل معه حبوراً شديداً لوالديه ، فخنقته العبرات ، وارتمى على مسند النافذة وانخرط في بكاء ونحيب كطفل صغير. جاء الطبيب ، وكان خالعاً « الرودنجوت » الرسمي حاسراً اكمام قميصه ،تحرك رعدة عصبية قسمات وجهه الممتقع . لم يجب على اسئلة الامير الا بنظرة تائهة ،

وتجاوزه الى مقعد . وهرعت إمرأة جمدت في مكانها لما وقع بصرها على الامير آندريه وكأنها فقدت حواسها . فقرر هذا دخول مخدع النوم . رأى ليزممددة كما شاهدها منذ خمس دقائق ، وقد فارقتها الحياة . كانت تلك التعابير نفسها التي قرأها على وجهها اللطيف الصغير ذي الشفة المظللة بطيف من الزغب الاسود ، والخدين الشاحبين والنظرة الشاخصة الجامدة .

كان وجهها الميت الفتان المؤسي يقول : « انني احبكم جميعاً حباًجماًولم اسيء الى احد ، وانتم ماذا صنعتم بي »؟

وفي احد اركان الغرفة ، كان شيء صغير احمر يهمهم ويصرخ بين يدي ماري بوجدانوفنا البضتين المرتعدتين .

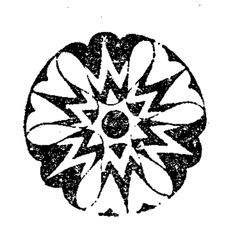
بعد ساعتين من هذا الحادث ، مضى آندريه الى مخدع ابيه بخطوات صامتة . كان العجوز قد اطلع على كل شيء . وكان واقفاً قرب الباب فلما فتح ، اخذ عنق ابنه بيديه القاسيتين الهرمتين الشبيهتين بالكلاّبات ، وراح يبكي كالطفل .

وفي ثالث يوم ، شيع جثمان الاميرة الصغيرة . وصعد الامير آندريه فوق النعش ليودع زوجته . كانت قسمات وجهها محتفظة بذلك التعبير الخالد رغم عينيها المغمضتين : « اه ! ماذا فعلتم بي » ? فأحسّ اندريه كأن شيئاً قد تمزق في صدره وشعر انه مذنب وان خطيئة لاتغتفر . وخانته الدموع فلم يقدر على البكاء . وجاء الامير العجوز بدوره يقبل اليدالشمعيةالصغيرةالممدةفوقالاخرى باسترسال وهدوء . وكان الوجه ، وجه الاميرة يقول له : « اه ! ماذاعملت بي؟ ولماذا » ? فأشاح الشيخ بابصاره عنها في شيء من الغضب ازاءذلك الاستفسار الصامت .

ومضت خمسة ايام اخرى فاقيم الاستعداد لتعميد الامير الطفل نيكولا آندريئيفيتش . كانت المربية تمسك بقمط الذقن بينما كان القس يمسح بالزيت الكفين الصغيرين واسفل القدمين الاحمريين المغضنين بريشة أوز .

كان الجد ، وهو شبين الطفل ، يخاف ان يفلته من يده فيسقط على الارض ،

لذلك فقد حمله حول اجران المعمودية ، وكانت عبارة عن طست قديم من الحديد الابيض «التنك» المبعوج ، واسلمه الى شبينة التي لم تكن الا الاميرة ماري . اما اندريه فكان الخوف يكاد ان يودي به لشدة قلقة على ابنه وخوفه من ان يغرقوه في الطست اثناء العماد . كان ينتظر في الغرفة المجاورة ويترقب بلهفة نهاية الطقس الديني . ولما جاءته المربية به ، راح يتأمله بسرور واخذ يهز رأسه برضى وارتياح لحديث المرأة ، التي اخبرته بانهم عندما القوا في الطست بقطعة الشمع الملصق به خصلة من شعر الوليد ، لبثت طافية تسبح على سطح الماء دون ان تنحدر الى القاع[1] .



(١) هذه خرافة شعبية شائعة . وقد درجت العادة على الصاق جانب من شعر الطفل بقطعة من الشمع والقائها في جرن المعمودية ، فان طفت ، كان ذلك دليلا على ان الطفل سيعيش ! —المترجم—

الفَصلُ العَاشِرُ

ام دولوخوف

نشط الكونت روستوف العجوز نشاطاً كبيراً حتى استطاع ان يجعل المسؤولين يتجاوزون عن اشتراك ابنه في مبارزة دولوخوف ـ بيزوخوف . وكان نيكولا ينتظر ذلك . والحقيقة انه بدلا من ان تسحب منه رتبته، عُيّن ضابطاً مساعداً لحاكم موسكو العام . وكان بحكم منصبه الجديد ، مرغماً على البقاء في العاصمة . وهكذا تخلف عن مرافقة اسرته الى الريف وقضى الصيف كله في موسكو . وكان دولوخوف قد أبل من جراحه بفضل عناية أمه التي كانت تحبه حباً عميقاً ، فازدادت اواصر الصلة بينه وبين نيكولا توثقاً خلال فترة نقاهته . وكانت ام دولوخوف ، العجوز ماري ايفانوفنا متأثرة بهذه الصداقة ، فأحبت روستوف واحلته من نفسها مكانا لائقاً وراحت تتحدث معه عن عزيزها فيديا . كانت تقول :

ـ نعم ياكونت انه نبيل جداً وروحه ساميه لاتتفق والقرن الحاضر الفاسد . ان احداً لايحب الفضيلة اليوم ، انها تكدر كل الناس وتزعجهم . خذ مثلا ياكونت ، هل ماقام به بيزوخوف نبيل وحق ؟ لقد كان فيديا يحبه باخلاص من اعماق قلبه الكبير ، وهو حتى هذه الساعة لم يتفوه بكلمة سيئة عنه . تذكر

مشاكلهم في بيترسبورج وقصة ذلك الشرطي . ان الله وحده يعلم حقيقتها. لكنهما كانا مشتركين فيها معاً أليس كذلك ؟ مع ذلك ، فقد تخلص بيزوخوف من النتائج أما « فيديا ي » العزيز فقد تحمل كل الوزر . والله يعرف وحده مبلغ الألم والشقاء الذي قاساه في محنته ! ثم اعادوا اليه رتبته؟ ان البواسل والمواطنين المخلصين مثله قلة في الجيش !... وهم في حاجة الى أمثاله ... ثم هذه المبارزة ؟ انني اسألك يا كونت ، هل حقيقة ان لهؤلاء الناس قلباً وشرفاً ؟ انه يعرف ان فيديا ولدي الوحيد ، مع ذلك فقد ورطه في ذلك النزاع واطلق النار عليه دون ان ينبهه ! ولحسن الحظ ، رفق الله بنا ولطف . وما هو سبب المبارزة ؟ من الذي يخلو في عصرنا هذا من الدسائس والمكايد ؟ فاذا كان يحس بالغيرة على زوجته ، لماذا لم يبد له ملاحظاته من قبل بدلا من ان يحتمل دأبه وزياراته المتكررة الكثيرة طيلة عام كامل ؟ وهو اذ تحداه ، كان يظن ان فيديا لن يقبل التحدي لأنه مدين له ببعض المال . يالها من دناءة ! يالها من خسة ! انني اعرف تماماً ياعزيزي الكونت انك تفهم « فيديا ي » حق الفهم . ولهذا السبب احبك من كل قلبي . قلائل الذين يفهمونه ، فلا تبتئس ! انه روح علوية سامية؟

وكان دولوخوف نفسه يحدث روستوف بشيء من هذا القبيل ، الامر الذي لم يكن منتظراً منه . كان يقول :

ـ انا اعرف انهم يعتبرونني رجلا خبيثاً . لكنني لا ابالي . انني لا أريد ان اعرف احداً الا اولئك الذين احبهم . وعندما احب انسانا ، فان حبي يبلغ مبلغ افتدائه بدمي وروحي. اما الآخرون ، فانني سأسحقهم جميعاً اذا حاولوا الوقوف في سبيلي والتصدي لي . ان لي اما اعبدها ولا استطيع ايفاءها حقها من التقدير ، وثلاثة من الاصدقاء بينهم انت . اما الباقي ، وانني كما ترى لأعتبرهم الا بالقدر الذي استطيع ان افيد منهم. ويختلف تقديري لهم باختلاف النفع والضر . وهم جميعاً مضرون كما تبدو وخصوصاً النساء . نعم ياعزيزتي ،

انني اذا وجدت حقيقة رجالا نبلاء القلوب رفيعي العواطف مهذبين ، فانني بالمقابل لم أجد بعد بين النساء ، ابتداء من الكونتيسات وحتى الطاهيات ، الا مخلوقات برسم البيع. انني لم أعثر بعد على ذلك الطهر الملائكي والاخلاص الذي أنشده عند المرأة واذا وقع مثل هذا الاكتشاف ، ووجدت المرأة المنشودة فانني سأقدم حياتي هبة لها . اما تلك الـ ... ! ـ وأشار بيده اشارة احتقار ـ صدقني كذلك انني شديد التعلق بالحياة ، لسبب واحد وهو اكتشاف العصفور النادر ذات يوم ، المخلوق السماوي السامي الذي سيطهرني ويرفعني ويسمو بي ويبدل نفسيتي . لكنك لاتفهمني ...

فاجاب روستوف وهو شديد الاعجاب والافتتان بصديقه الجديد .

– بل افهمك تماماً .

جاء الخريف وعاد آل روستوف الى موسكو . وفي اول الشتاء عـاد دينيسوف بالمثل ونزل عندهم . كان ذلك الشتاء من عام ١٨٠٦ ، اول شتاء قضاه نيكولا روستوف في موسكو . وكان أروع واسعد شتاء عرفته تلك الاسرة . واقد اجتذب وجود نيكولا عدداً كبيراً من الشباب . وكانت فيرا قد بلغت العشرين واصبحت جميلة ، وسونيا السادسة عشرة وملء أهابها اللطف والجمال الذي لما يتفتح بعد . أما ناتاشا فاضحت نصف طفلة نصف آنسة، تجمع بين عبث الطفلة وفتنة الشابة الفتية .

كان منزل آل روستوف في تلك الاثناء ، مشبعاً بجو غرامي تنفرد به البيوت الحافلة بالفتيات الجميلات الناضجات . وكان الشبان الذين يدخلون ذلك البيت وتطالعهم تلك الوجوه المشرقة المتعطشة المتقبلة كل أنواع الايحاء ، الباسمة الطروب من السعادة ولا شك ، ويرون تلك الحركة الدائمة وذلك النشاط المتقد، ويصغون الى الاغاني والموسيقى وثرثرة نساء في مقتبل العمر يحدوهن الامل والارادة الطيبة ، تلك الثرثرة الفارغة الا من تودد وعطف ، كان اولئك الشبان

يشاطرون شباب آل روستوف ذلك الترقب للحب والسعادة الذي يعيشون فيه.

وكان دولوخوف، وهو اول الوافدين الى تلك الدار بتسهيل من نيكولا، يحوم حول كل من في الدار باستثناء ناتاشا التي كادت ان تشتجر مع اخيها نيكولا بسببه. كانت ناتاشا تؤكد ان هذا الرجل يحمل وحده كل الخطأ في مبارزته مع بيير وانها تنفر منه لأنه متصنع ومكروه. كانت تصرخ بعناد في وجه أخيها:

ـ انني لا اريد فهمه ولا يهمني ذلك. لنأخذ على سبيل المثال صديقك دينيسوف. انه فاسق حقاً وكل مايريد المرء ان يقوله عنه يمكن ان يكون صحيحاً. لكن ذلك لايمنعني من ان احبه وبالتالي ان افهمه. لست أدري كيف اوفق في افهامك هذا الرأي... ان الآخر، كل شيء عنده قائم على تدبير سابق، وهذا مايزعجني فيه وينفرني منه. بينما دينيسوف...

فيجيبها نيكولا:

ـ ان دينيسوف يختلف اختلافاً كلياً. يجب فهم روح هذا الشاب ومعرفة ذلك القلب الذي يضمه بين جوانحه، وكيف يتصرف حيال أمة!

كان يريد بهذا القول ان يلمح بان دينيسوف لايعتبر شيئاً مذكوراً اذا قيس بدولوخوف. قالت ناتاشا:

ـ انني اجهل كل هذا. لكنني أشعر بالارتباك في حضرته... هل تعرف انه مفتون بسونيا؟

ـ يالها من حماقة!

ـ بل انني متأكدة وسوف ترى.

والحقيقة ان ناتاشا كانت محقة في تخمينها. اصبح دولوخوف ـ وهو الذي لم يكن يحب عشرة النساء ـ ضيفاً مواظباً في دار روستوف، حتى ان كل السكان ادركو ادراكا ضمنياً ان تردده المنظم ماكان الا من اجل سونيا. وسونيا نفسها، رغم انها لم تجرأ حتى تلك اللحظه على التفوه بحرف واحد من

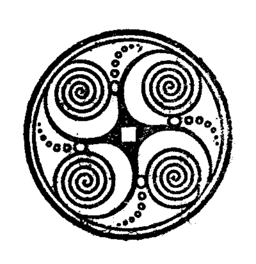
ذلك ، كانت تعرف حقيقة نواياه ويتضرج وجهها خجلا كلما ظهر دولوخوف في البهو .

كان دولوخوف يتناول طعامه غالباً لدى آل روستوف ، ولا يتخلف عن أية حفلة تقام حتى حفلات الاحداث الخاصة بهم ، التي كان استاذ الرقص ايوجل يقيمها احيانا ، والتي كانت النسوة من آل روستوف يحضرنها بلا انقطاع . كان يظهر كثيراً من العناية والرعاية ازاء سونيا ويغمرها بنظرته المغرية التي ماكانت تتذكرها دون ان تندفع الدماء الى وجهها حياء . بل ان الكونتيس نفسها وناتاشا ايضاً كانتا تشعران بمثل شعورها حيال تلك النظرة . كان ذلك الرجل القوي الغريب الشاذ ، يتأثر بشدة تأثراً لايقاوم بفتنة تلك السمراء الصغيرة الجذابة الذي كان قلبها مشغولا في مكان آخر .

وادرك نيكولا أخيراً ـ دون ان يحدد الغاية الحقيقية من ذلك ـ ان هناك صلة مابين دولوخوف وسونيا . فكان يحدث نفسه وهو يفكر في اخته وابنة عمه : « آه ، باه ! ان هاتين الخبيثتين لا تقضيان يوماً دون ان تغرما باحد ! » ولما كان يشعر انه على غير ما يرام في صحبة دولوخوف وسونيا ـ ومن ان يعرف السبب ـ فقد راح يقضي جل وقته خارج الدار .

ومنذ خريف عام ١٨٠٦ ، عاد حديث الحرب الى الالسن ، الحرب مع نابوليون ، فكان حديثاً اكثر انتشاراً وحماسة من العام السابق . تقرر اجراء تجنيد يعادل عشرة على كل الف للجيش العامل وتسعة على كل الف لبقية الاسلحة الفنية والمهمات الحربية . وفي كل مكان كانت اللعنات الدينية والحرمان الكنيسي يسلط على بونابارت ، فلم تكن موسكو لتتحدث الا عن معاودة القتال القريب ولولا عزيزهم نيكولا ، لما علق آل روستوف على تلك الاخبار والاستعدادات الا أهمية سطحية . لكن الشاب كان يرفض بالحاح البقاء في موسكو . كان

تنتظر انتهاء مأذونية دينيسوفـ بفارغ صبر ليعود معه الى القطعة بعد أعيـاد الميلاد . غير ان ذلك الرحيل المنتظر لم يبدل شيئاً من افراح روستوفـ وعاداته اليومية . بل انه كان على العكس يثيره ويشحذ همته . وكان لذلك النبأ رد فعل لطيف . ذلك ان الدعوات انهالت عليه بين حفلات راقصه وولائم ، حتي ان ذويه باتوا لايرونه الا غراراً .



الفصل الحادي عشر

غرام دولوخوف

تناول نيكولا طعام الغداء ظهر اليوم الثالث من ايام عيد الميلاد مع افراد اسرته بصورة استثنائية . كان ذلك الغداء بمثابة وليمة الوداع . لأن رحيل نيكولا بات مقرراً عقب اليوم الاخير مباشرة . وكانت المائدة تضم عشرين آكلا بينهم دولوخوف ودينيسوف .

لم يحدث من قبل ان اشبع الهواء في منزل آل دينيسوف بمثل ذلك الحب كان ذلك الجو يوحي للمرء ان : « اطبق على هذه اللحظات من السعادة واحبب ودع الآخرين يحبونك ! ان الحب هو الامر الوحيد ذو الشأن والقيمة وهـــو وحده الذي يشغلنا لأن كل ماعداه ليس الا سخفاً وتحريفاً . »

وصل نيكولا كعادته قبل البدء في الطعام بلحظة وجيزة بعـد أن انهك جياد عربتين طافتا به على التتابع بين دور اصدقائه ، دون ان يستطيع مع ذلك تلبية كل الدعوات ولقاء كل الراغبين في رؤيتة . ولم يكد يدخل غرفة الطعام حتى شعر بالجو العاطفي المخيم على الموجودين ولمس ارتباك بعضهم وانزعاجهـم وكانت سونيا والكونتيس وناتاشا وكذلك دولوخوف يبدون على شيء كثير من الانفعال ، فادرك ان امراً ما قد وقع قبل الطعام ، وقدر ان يكون

ذلك الامر قد وقع بين سونيا ودولوخوف . ولما كان رقيق القلب حساساً فقد سعى الى تجنبها بكثير من العطف والمودة . وكان مقرراً اقامة حفلة راقصة يحيها استاذ الرقص « إيوجل » ويشترك فيها تلاميذه من الجنسين .

قالت له ناتاشا :

– نيكولا ، ياعزيزي ، هل تأتي الى دار ايوجل ? انه يعتمد على مجيئك كل الاعتماد ثم ان فاسيلي دميتريش – اي دينيسوف – قد وعد بالحضور .

فهتف دينيسوف الذي جعل من نفسه رفيقاً لناتاشا وهو قرير العين مطمئن النفس :

– وهل هناك مكان لا أذهب اليه بناء على امر الكونتيس ? سوف أرقص عن طيبة خاطر « خطوة الشال » لأدخل البهجة على نفسها .

فقال نيكولا :

– سأذهب اذا وجدت دقيقة فراغ في وقتي . لقد وعدت آل آرخاروف بحضور حفلتهم ... وانت ?

كان هذا السؤال موجهاً الى دولوخوف . لكنه ادرك بعد فوات الاوان انه كان من الاصوب عدم طرح ذلك السؤال .

اجاب دولوخوف بجفاء :

– نعم يحتمل ان احضر .

وتاهت نظرته الى سونيا فلمستها برفق ثم عادت تنحط على روستوف الذي قرأ فيها مثل ذلك التعبير الذي شاهده من قبل عندما كان دولوخوف يحدق في وجه بيير ابان تلك الوليمة المشهودة .

حدث نيكولا نفسه : « لاشك ان امراً قد وقع ! » وتأكدت ظنونه بسرعة عندما رآى دولوخوف ينسحب فور فراغ المدعوين من الطعام . استدعى ناتاشا وسألها عما حدث . قالت له وهي تهرع اليه :

ـ كنت ابحث عنك بذات الوقت . لقد اخطرتك من قبل ولكنك لم تصدقني حينذاك . لقد طلب الى سونيا ان تتزوجه .

كانت ناتاشا تتحدث بلهجة منتصرة . اما نيكولا فانـــه على الرغم من قلة اهتمامه بأمر سونيا في المدة الاخيرة ، شعر بيد خفية تعصر قلبه عند سماع هـذا النبأ . وكان دولوخوف بالنسبة ليتيمة مثل سونيا ، « صفقة » ملائمة ، بل ورابحة من بعض وجهات النظر . وكان يستحيل رفضه في نظر الكونتيس والآخرين. وهكذا فان نيكولا هم بالقول مدفوعاً بالاحساس الاول : « هيا ، ليكن ! لتنس وعود الطفولة ولتعرب عن موافقتها ! » لكنه لم يجـــد الوقت للنطق بهذا القول .

اردفت ناتاشا بعد فترة صمت :

ـ تصور انها رفضت : لقد رفضت رفضاً جازماً ... بل انها قالت له بأنها تحب شخصاً آخر غيره .

فقال نيكولا في سره : « ما كنت اتوقع منها غير ذلك ! » واردفت ناتاشا قائلة :

ـ ولقد الحفت عليها أمنا وتوسلت اليها ان تقبل به ولكن عبثا . وانا واثقة من انها لن تتراجع عن عزمها .

فقال نيكولا بانزعاج :

ـ توسلت اليها أمي !

ـ نعم ... اصغ يانيكولا ولا تغضب . انني اعرف انك لن تتزوجها ... كلا انك لن تتزوجها وانا متأكدة من ذلك . ان الله يعرف السبب لكنني واثقة مما اقول .

فاعترض نيكولا بقوله :

ـ هذا ما لايمكنك معرفته ... لكن يجب ان اتحدث معها ...

– واردف مبتسماً :

- انها فاتنة سونيا الصغيرة هذه !

وقفزت ناتاشا الى عنق اخيها تطوقه وانطبقت راكضة .

لم تمض دقائق حتى دخلت سونيا مرتبكة خجلى وعلى وجهها امارات المتهم المذعور . اقترب نيكولا منها وقبل يدها . كانت تلك اول مرة يلتقيان فيها منفردين منذ عودة نيكولا ، ويتحدثان فيها بصراحة .

شرع نيكولا يقول بصوت وجل أخـــذ يسترد ثباته رويداً رويداً حتى اصبح جريئاً :

– صوفي ، صوفي ، هل يعقل انترفضي مثل هذا العرض المغري ؟ ... انه شاب ممتاز نبيل القلب ... ثم انه صديقي .

فبادرت سونيا تقاطعه قائلة :

– لقد رفضت وانتهى .

– اذا كان رفضك بسببي فانني اخشى من جانبي ان ...

ومن جديد بادرت تقاطعه قائلة وهي تستعطفه بنظرة :

– نيكولا لاتقل لي هذا .

– بل يجب ان اقوله لعله لون من الغرور من جانبي ، ولكن يجب ان اقوله . اذا كنت ترفضين دولوخوف من اجلي فانني اضطر عندئذ على مفاتحتك بكل الحقيقة . انني احبك ولا شك . وأومن ان أياً في العالم ...

فقالت سونيا مضرجة الوجه :

– وهذا يكفيني .

– صحيح لكنني عشقت اكثر من مرة وهذا يتكرر الآن ايضاً رغم انني لااشعر بالاطمئنان والود مثل شعوري بها لما اكون معك . ثم ان امي لاتريد

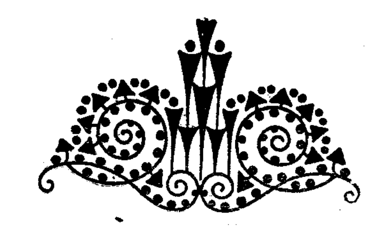
ان اتزوجك وبالاختصار ، فانني لا اتعهد بشيء . واطلب منك ان تفكري في عرض دولوخوف .

ونطق باسم صديقه بشيء كبير من العناء . فقالت سونيا :

— لمَ تقول لي هذا ؟ انني لا اطلب شيئاً . انني احبك كأخ وسأحبك دائماً : فماذا ينبغي لي اكثر من ذلك ؟

ازك ملك طاهر وانا لست جديراً بك . وكل ما اخشاه هو أن لا أستطيع الاجابة على طول انتظارك وصبرك .

وقبل يدها مرة اخرى .



الفصل الثاني عشر

حفلة الاحداث

كانت حفلات ايوجل الراقصة التي يقيمها من حين الى آخر اكثر الحفلات تسلية في موسكو كلها . هذا ما كانت تقوله الامهات وهن يرقبن « اكبادهن » يتمرنون على اجادة الخطوات التي تعلموها . وكذلك الصغار انفسهم ، بين بنين وبنات ، كانوا جميعهم من هـذا الرأي ، وكانوا يجدون متعة كبيرة في تلك الحفلات . وكان الشباب لايخالفون هـذا الرأي ، فيحضرون تلك الحفلات باسم المسايرة ، فيتسلون فيها أكثر من أي مكان آخر . وقد تم عقد زواجين اثنين في تلك الحفلات هذا العام ، ذلك ان الأميرتين الجميلتين جورتشاكوف وجدتا هناك زوجين صالحين . وارتفعت اسهم تلك الحفلات وذاع صيتها حـتى بلغ الأوج . وكان فيها شيء خاص جذاب لايتوفر في امكنة اخرى ، ذلك ان تلك الحفلات كانت تقام في جو لايعكره وجود رب منزل أو ربة دار . لقد كان « ايوجل » طيب القلب يجري هنا وهناك كالريشة الخفيفة ، يقدم الانحنـاءات والاحترامات حسب كل الوان فنه وقواعده ، ويتقبل اساليب مدعويه كلهم خصوصاً وان كل من كان يجتمع هناك ، كان ولوعاً بالرقص شغوفاً بانتهال المسرات البريئة ، كما هو حال الفتيات الصغيرات دائمـاً اللاتي لم يتجاوزن الثالثة

عشرة او الرابعة عشرة من اعمارهن ، ويرتدين لاول مرة اثواباً طويلة . كانت الفتيات كلهن ، ما عدا استثناءات نادرة ، جميلات فاتنات ، بسبب الحماس والحيوية التي تشتعل في كيانهن ، وابتساماتهن المشرقة وو ميض عيونهن . وكان خيرة تلاميذه يحاولون احيانا رقصة خطوة الشال التي كانت شديدة الشيوع . لكن ناتاشا كانت اكثر التلاميذ اجادة لهذه الرقصة وابعدهم شأوا . لكن الرقصات المقررة تلك الليلة كانت محصورة في : الايكوسية ، والانجليزيه والمازوكا التي بدأت تحتل مكانها في الذوق العام . وكان ايوجل قد استعار احدى صالات الكونت بيزوخوف لاقامة حفلته فكانت حفلة ناجحة كل النجاح كما شهد الجميع بذلك . كانت الفتيات الجميلات كثيرات تلك الليلة وكانت الآنستان الممتلئتان سعادة ونشاط ، تعتبران في عداد اجمل الجميلات وكانت سونيا شديدة الفخار بالطلب الذي تقدم به دولوخوف اليها وبرفضها ذلك الطلب وبتفاهمها مع روستوف بعدذلك ،الأمر الذي كان يغمرها بالسعادة ويجعلها تدور حول نفسها وتتيه في لون من التسامي العلوي الذي لا يشعر بمثله الا المحبون ، فما كانت تمكن الوصيفة من وضع القلنسوة على رأسها الا بعد مزيد من العناء لكثرة هياجها وحركتها . لقد كانت فرحة جنونية تغمر نفسها وحتى ليقال انها تبدلت تبديلاً كلياً . اما ناتاشا فانها لم تكن اقل افتخاراً من سونيا ، لأنها كانت سترتدي ثوباً طويلاً لاول مرة في حياتها ، وستمضي الى حفلة راقصة حقيقية . فكانت هي الاخرى تشعر بسعادة جامحة ولا تستقر على حال .

لم تكد ناتاشا تدخل القاعة حتى استمالت لميلها الغرامي ... كانت لا تميز شخصاً بعينه ، بل تعجب بكل الناس معاً . فاذا وقعت ابصارها على شخص ما عشقت ذلك الشخص ... بانتظار تحول ابصارها الى آخر وهكذا ...

قالت تحدث سونيا كلما التقتا خلال الحفلة .

– آه ! كم هذا بديع !

وكان نيكولا ودينيسوف، يروحان ويجيئان ويمنحان الراقصتين نظرات حانية واقية . قال دينيسوف :

– انها فاتنة ، سوف تصبح آية في الجمال .

– من هي ؟

فأجاب هذا بعد صمت :

– الكونتيس ناتالي ... انها ترقص بمهارة ، باللظرف والملاحة !

– عمن تتكلم ؟

فاجاب دينيسوف بضجر :

– عن اختك ، الا تفهم !

وابتسم روستوف .

وجاء ايوجل يحدث نيكولا قائلاً :

– ياعزيزي الكونت ، انك واحد من خيرة تلاميذي . يجب ان ترقص . انظر كم من فتاة جميلة في هذا الحفل !

وتقدم بمثل ذلك الرجاء الى دينيسوف الذي كان فيما مضى تلميذاً له كذلك فقال هذا :

– كلا ، كلا يا عزيزي . سأكون كثير الاخطاء ... لم احسن الانتفاع بدروسك ، الا تذكر ؟

فبادر ايوجل قائلاً قصد التعزية والترفيه :

– آه ، كلا ، لقد كنت ساهم الفكر ، لكن استعداداتك لم تكن رديئة . نعم ، نعم ، ان استعداداتك كانت طيبة .

عزفت الموسيقى المازوكا التي كانت حديثة العهد في البلاد . ونزل نيكولا على رغبة ايوجل والحاحه فخاصر سونيا . اما دينيسوف فقد مضى يجلس الى جانب النساء المسنات متكئاً على حسامه ، ضابطاً الايقاع بقدمه ، يحدثهن احاديث

ماجنة طريفه وهو لاينفك عن مراقبة الراقصين . وكان ايوجل أول « زوج » بين المتخاصرين يراقص ناتاشا ، التي كانت خير تلميـــذة عنده ومبعث فخره . كان ينزلق بخفـة فوق خفيه ، ويندفع خلال القاعـة مع راقصته المرتبكة التي كانت رغم ذلك تلاحق خطاه وتنقل خطاها بتيقظ وانتباه . ولم يكن دينيسوف يحول ابصاره عنها . اما عن طريقته في ضبط الايقاع بحسامة فانها كانت تدل على انه كان عازفاً عن الرقص بملء ارادته وليس بسبب جهله كما قـــد يتبادر الى الاذهان . وبينما كان الاستاذ يقوم بحركة تصويرية ، نادى دينيسوف روستوف الذي كان قريباً منه في تلك اللحظة وقال له :

ـ ليس هذا بالمازوركا البولونية ، كلا ليست هذه المازوركا ... على كل حال ، انها ترقص بابداع .

ولما كان نيكولا يعرف ان دينيسوف يستطيع ان يرقص المازوركا في بولونيا نفسها وان يستأثر باعجاب الموجودين ، فقد هرع الى ناتاشا وقال لها :

ـ اذهبي الى دينيسوف واطلبي اليه ان يراقصك . انه لايباري في المازوركا .

وجاء دور ناتاشا فنهضت وراحت تنزلق على حـــذائيها الصغيرين المزينين والدم يتصاعد الى وجنتيها تحت وطأة الانظار التي كانت تحدق فيها من كل جانب ، حتى بلغت ركن دينيسوف . رآهما نيكولا يتناقشان برهة ، اذ كان دينيسوف يرفض بلطف ـ على ما يبدو ـ وناتاشا تصر ، فهرع الى نجدتها . كانت ناتاشا تقول :

ـ ارجوك يافاسيلي دميتريش ، تعال ، ارجوك .

ـ اعفيني يا كونتيس .

وهنا تدخل نيكولا قائلا :

ـ هه يا فاسيا ، لمَ لاتجاريها ؟

فقال دينيسوف مازحاً :

– سيقولون انهم يلاطفون قطهم [1]

وو عدته ناتاشا :

– ساغني لك كل الامسية .

فقال دينيسوف وهو ينزع حسامه من منطقته :

– آه يا للمهالقة ! انها تتصرف بي وفق هواها .

خرج من صفوف المقاعد وامسك بقوة على يد مراقصته ورفع رأسه ومدّ ساقه بانتظار الايقاع . لقد كان دينيسوف يستطيع اخفاء عيب قامته في مناسبتين: عندما يكون على صهوة جواده وعندما يرقص المازوكا . ففي هاتين المناسبتين كان يبدو بمظهر الشاب القوي البهي الذي يريد ان يكونه . ولما ازف دوره ، بعث الى مراقصته بنظرة فكهة ومنتصرة معاً ، وقام بحركة عنيفه من قدمه وقفز كالكرة المرنة ساحباً معه ناتاشا في غمار الرقصة . كان يجتاز على قدم واحدة نصف مساحة البهو دون ان تصدر عنه اية ضجه أو يند عنه صوت يذكر ودون ان يتظاهر برؤية المقاعد المصفوفة قبالته ، فكان يُظن انه سيصطدم بتلك المقاعد لكنه فجأة ، كان يتوقف على كعبيه بين رنين مهازيه وصوت ارتطام كعبيه بالارض ، فيباعد بين ساقية ويستعين برشاقة قدميه ليستدير دورة عنيفة سريعة ويلحق بحلقة الراقصين وقدمه اليمنى تضرب دون هوادة بالقدم اليسرى . وكانت ناتاشا تتابع كل حركة من حركاته وتتوقعها وتستسلم لفارسها مسلوبة الاحساس. كان يجعلها تدور حول نفسها تارة ممسكاً بها بيمناه أو يسراه ، وطوراً يركع على ركبتيه ويجعلها ترسم حلقات حوله ثم ينتصب فجأة ويعود الى جريه السريع المغضب وكأنه يريد اجتياز القاعات كلها دفعة واحدة ، ليتوقف فجأة ، قبل ان

---

(١) ان كلمة فاسيا هي تحريف لاسم فاسيلي وهو اسم دينيسوف الاول وهـو كذلك التدمية الأليفة للقط ومن هنا كانت الدعابة .

يدرك المتفرج غرضه ، فيقوم بحركة تصويرية غير منتظرة . ولما قام بحركته الدائرية الرائعة الكبيرة موصلاً ناتاشا الى مقعدها الذي كانت جالسة عليه اشارة الى انتهاء الرقصة ، لم يكن لهذه من صفاء الذهن ما يمكنها من الانحناء امامه لشكره كما يقتضي الأمر ، بل كانت تحدق في وجهه بعينيها الباسمتين المذهولتين وكأنها تنظر الى شخص جديد .

غمغمت بدهشة :

– ما معنى هذا ؟

وعلى الرغم من ادعاءات ايوجل بان هذه ليست المازوكا الحقيقية ، فان عظمة رقص دينيسوف استأثرت باعجاب كل الحاضرين . وهرعت الراقصات اليه يطلبن مراقصته بشغف واستعاد الكهول ذكريات شبابهم في بولونيا والوقت الطيب الذي قضوه . اما دينيسوف فقد كان مضرج الوجه يجفف عرقه بمنديله . وكان يجلس قرب ناتاشا فلم يفارق مجلسها طيلة الحفلة .

★ ★ ★

الفَصلُ الثّالِثَ عَشَرَ

حفلة دولخوف

لم يظهر دولوخوف في منزل آل روستوف بعد تلك الليلة رغم مضي يومين متتاليين عليها . واخيراً ، وبعد ثلاثـــة أيام أخر ، وصلته من دولوخوف الرقعة التالية :

« لما كنت لا ازمع الحضور الى داركم للاسباب التي تعرفها ، وكنت سألتحق بالجيش قريباً ، لذلك فانني اقيم حفلة عشاء هذه الليلة لوداع اصدقائي . فقال اذن الى فندق انجلترا . »

خرج روستوف من الملهى الذي رافق اسرته اليه مع دينيسوف ، وقصد فندق انجلترا حوالي الساعة العاشرة . وهناك اقتاده الخدم الى احسن غرفة كان دولوخوف يشغلها تلك الليلة . شاهد روستوف حوالي عشرين مدعواً يزدحمون حول مائدة مثقلة باوراق النقد والقطع الذهبية . وكان دولوخوف جالساً بين شمعتين مضاءتين يوزع ورق اللعب . شعر نيكولا بشيء من الرهبة للمقابلة الاولى التي ستقع بينه وبين صديقه الذي لم يره منذ تلك الليلة التي رفضت فيهـــا سونيا طلبه . تقابلت نظرته بنظرة دولوخوف المتقدة الباردة امنذ ان وطأت اقدامه

الحجرة وكأن هذا كان في انتظاره . قال دولوخوف :

ـ لقد مضى زمن طويل لم نتقابل خلاله . شكراً على مجيئك . سوف يصل ايليو شامع مغنيه حال فراغي من هذا « البنك » .

فقال روستوف وقد تضرج وجهه :

ـ لقد مررت بدارك مرتين او ثلاثا فلم اجدك .

وقال دولوخوف دون ان يلقي بالاً الى تلك الملاحظة :

ـ يمكنك المراهنة اذا شئت .

تذكر نيكولا فجأة حديثاً مثيراً دار بينه وبين دولوخوف ذات يوم . لقد قال له هذا : « ليس الا الحمقى الذين يلعبون على السعادة الصغرى . »

اردف دولوخوف باسماً وكأنه يقرأ ما في طويته :

ـ هل يخيفك ان تقامر معي ؟

ومن خلال تلك الابتسامة ، برزت لعيني روستوف حالة صديقه النفسية التي كانت تسيطر عليه دائماً كلما مر به وقت طويل دون تبديل ، فتتوق نفسه ـ كما حدث يوم حفلة النادي الانجليزي ـ الى الخروج من ذلك الجمود بتصرف غريب شاذ ، كان غالباً شديد القسوة ايضاً .

وكان نيكولا غير منشرح الصدر ، فراح يتساءل عن الدعابة التي سيرد بها على صاحبه عندما حدجه هـــذا في اعماق عينيه وقال وهو يضغط على الالفاظ ويقرعها قرعاً ليسمع الموجودون حديثه :

ـ اتذكر ما كنا نقولة ذات يوم من ان الحمقى وحدهم هم الذين يلعبون بالسعادة الصغيرة ؟ ينبغي ان يقامر الانسان بكل شيء وهذا ما سأحاوله الآن .

فراح روستوف يتساءل : « ترى هـــل اجرب حظي فقط ام اقامر بكل شيء ؟ »

اعقب دولوخوف قائلاً وهو يمزق الورقة المحيطة بورق اللعب :

ــ ثم انك تحسن صنعاً اذا امتنعت عن اللعب ... « بنك » ايها السادة !

وبعد ان نثر دراهمه امامه راح يقطع الورق ويوزعـه . جلس روستوف بجانبه وامتنع بادىء الأمر عن الرهان . فالقى عليه دولوخوف نظرة وقال :

ــ اذن ؟ ألا تلعب ؟

والغريب في الموضوع ان نيكولا شعر كأنه مرغم على اللعب ، فأخذورقة ووضع عليها مبلغاً تافها . قال مفسراً :

ــ لست احمل مبلغاً معي .

ــ ساقرضك .

وضع روستوف خمسة روبلات على ورقـة فخسرها ، فكرر العمل وخسر كذلك . وهكذا «حطم دولوخوف عشر ورقات متتالية كان روستوف يقامر عليها . وبعد ان استأثر « بالبنك » فترة قال :

ــ ايها السادة ، ارجوكم ان تضعوا نقودكم على الورقة بالذات والا فانني قد اخطىء في الحسابات .

فاحتج احد اللاعبين بقوله :

ــ نحن قوم موثوقون على ما اظن .

فاعقب دولوخوف قائلاً :

ــ لاشك لكنني اخش ان اخطىء . ارجو اذن ان تضعو نقودكم على الورقه .

واردف يحدث روستوف :

ــ اما انت فلا تنزعج ، سوف نسوي الأمر بيننا فيما بعد .

استمر اللعب واستمر الخادم يصب الشمبانيا في الكؤوس .

« تحطمت » كل اوراق روستوف فخسرت وارتفع دينه الى ثمانمائة روبل . هم ان يغامر بهذا المبلغ على ورقة جديدة ، لو لا ان امسك عندما كان الخادم يصب له الشمبانيا وقرر ان يعود الى مبلغه العادي « عشرين روبـلا » الذي ما

يربح يقامر به تباعاً .

قال له دولوخوف وهو يتظاهر بانه لاينظر اليه :

– قامر بالمبلغ كله . الا ترى انني اخسر مع الجميع الا اوراقك انت فانني « احطمها » دائماً ؟ اتراك تخاف مني مثلاً ؟

خضع روستوف للايحاء . التقط من الارض ورقة « السبعة الكبا » من الاوراق الممزقة – وقد ظلت ذكرى تلك الورقة في مخيلته زمناً طويلاً – وكتب على ظهرها رقم « ٨٠٠ » باحرف معتدلة وبخط جميل ، ثم ازدرد كأس الشمبانيا الساخنة التي كانوا في تلك اللحظة يطوفون بها على الضيوف ، وابتسم لدولوخوف رداً على جملته وانتظر واجف القلب وعيناه شاخصتان الى يدي « البانكيه » متأملاً ان يقلب له « البنك » رقم « ٧ » . لقد كان ربح تلك الورقة « السبعة الكبا »أو خسارتها ، يشكل بالنسبة اليه خطوره كبيرة . اذان ايليا آندريئيتش رغم عدم امساكه على ولده وتقتيره ، طلب منه يوم الأحد المنصرم ان يقتصد في نفقاته . واعطاه الفي روبل قائلاً انه لن يستطيع امداده. بمبلغ آخر قبل شهر أيار المقبل لأسباب وجيهة . وكان نيكولا قد أكد له حينئذ ان ذلك المبلغ سيكفيه لنفقاته حتى الربيع المقبل مهما بلغت تلك النفقات من افراط ، واقسم له بكل الآلهة انه لن يطلب منه شيئاً حتى ذلك التاريخ . وهو الآن بعد ان خسر ثمانمائة روبل ، لم يبق له من مجموع نقوده الا الف ومائتا روبل فقط . وكان مصير تلك الروبلات الثمانمائة متوقف على تلك السبعة « الكبا »لأنه ما كان سيخسر الفاً وستمائة روبل فحسب ، بل انه سيخون الوعد الذي قطعه على نفسه . ولهذا كله ، كان قلقه عظيماً وهو يرقب يدي دولوخوف . راح يحدث نفسه قائلاً : « هيا ، اعطني هذه الورقة واسرع لأمضي الى حيث سأتناول الطعام مع دينيسوف وناتاشا وسونيا ، واقسم غير حانث هذه المرة على انني لن اقرب الورق بعد اليوم ابداً . » وفي تلك الاثناء ، خطرت على باله أتفه الحوادث التي

التي مرت عليه في حياته العائلية: دعابات بيتيا وتبجحاته، والاحاديث مع سونيا، وثنائي الغناء مع ناتاشا، وموقفه مع ابيه بل وتقلباته فوق سريره الوثير؛ وبدت في خياله بهجة تلك السعادة الماضية الضائعة التي يحسن التمسك بها والابقاء عليها، بكل قوة ووضوح. وما كان يتقبل ان يكون مصيره الآن مرتبطاً بصدفة سخيفة، تجعل «سبعة» اذا جاءت الى اليمين اوسقطت الى اليسار، تعكر عليه صفو حياته وتحرمه ذلك اليمين الذي استعاده في خياله بكل تفاصيله ودقائقه، لتغمره في جحيم الأمواج السيئة المجهولة منه. كلا، ان ذلك لا يمكن ان يكون... مع ذلك، فقد كان يتابع بقلق كل حركة من حركات يدي دولوخوف الحمراوين العظميتين اللتين كان الشعر الذي يغطي ساعديها ظاهراً عند المعصمين، تضعان الورق على المائدة لتمسك احداهما بالغليون والاخرى بالكأس، كأس الشمبانيا.

كرر دولوخوف قوله:

— انك اذن لا تخاف من اللعب معي! اليس كذلك؟

واسند ظهره الى مقعده وانه سيقص على الحاضرين قصة ممتعة، وهو مستلق في جلسة مريحة. وغمرت شفتيه ابتسامة بطيئة وقال:

— نعم أيها السادة، لقد تلفظت مرة بقول مفاده انني اعتبر غشاشاً في اللعب في موسكو. لذلك فانني انصحكم ان تكونوا على حذر.

فقال روستوف:

— هيا، وزع الورق.

فأجاب روستوف وهو يعود الى الورق فيمسك به والابتسامة لا تفارق شفتيه:

— آه! من نساء موسكو العجائز!

ورفع يديه الى شعره. لقد كانت السبعة الي هو في مسيس الحاجة اليها، اول

ورقه من الاوراق وبذلك لم تصل اليه . ومعنى ذلك انه خسر اكثر مما كان يستطيع ان يدفع .

فقال له دولوخوف وهو يحدجه بطرف عينه :

ـ لاتجزع ، هه !

وعاد يوزع الورق من جديد .

* * *

الفصل الرابع عشر

خسارة روستوف

بعد ساعة ونصف الساعة ، كان معظم اللاعبين في غرفة دولوخوف لايقامرون الاشكلياً . لقد تركز اللعب كله في روستوف وحده . لقد بلغ دينه عموداً طويلاً من الارقام بلغ مجموعها عند جمعها اكثر من عشر الاف روبل بعد ان كان لايتجاوز الالف والستمائة روبل . بل ان رقم عشرة الاف كان منذ حين ، اما الآن ، فانه ارتفع ولاشك الى خمسة عشر الفاً أو اكثر . والحقيقة ان المجموع تجاوز العشرين الف روبل . توقف دولوخوف عندئذ عن الاصغاء الى اقوال الآخرين وأمسك عن سرد القصص وراح يراقب كل حركة من حركات روستوف ويحصي مجموع الحساب بعينه . لقد قرر الاستمرار في اللعب حتى يصل المبلغ الى ثلاثة واربعين الف روبل . وكان روستوف متكئاً على المائدة ورأسه بين يديه ، وامامه الارقام تغطي المائدة الملوثه بالخمر المراقة والمحملة باوراق اللعب . كان شعور مسيطر طاغ مستولياً عليه : هاتان اليدان هاتان اليدان الحمر اوان العظميتان التي يظهر الشعر عند رسغيها . هاتان اليدان اللتان كان يحبها ويمقتها بنفس الوقت كانتا تجعلانه تحت رحمتها .

« ستمائه روبل ، آس ، مضاعف ، تسعه ... لم يعد هناك أمل في استعادة

الخسارة ! ... آه ! كم كنت اتسلى عندك! ... « شاب » على «صفر » ! لكن كلا ، بالله ! ... لم يعاملني بهذا الشكل ؟ »

كان اذاهم بالمساهمة بمبلغ كبير ، تهرب منه دوخوف وحدد بنفسه المبلغ الذي يقبل المجازفة به . وكان روستوف يستنجد بالله محاولاً الظهور . بمظهر الهادىء ، وكان ابتهاله يشبه ذاك الذي رفعه بخشوع الى الله عندما كان في معركة آمستيتين . كان يتصور حيناً ان ورقة « كذا » ، الأولى من رزمة الاوراق التي كانت توزعها اليدان الحمراوان ، قادرة على انقاذه ، واخرى كان يعد خيوط الخرج على سترته ويقامر على الورقة التي تتساوي مع عددها آملاً ان يستعيد كل خسارته دفعة واحده . كان تارة يستجدي الالهام من وجود الآخرين وطوراً يتفحص وجه دولوخوف الذي غدا جامداً متحجراً ، محاولاً سبر أعماقه ومعرفة نواياه .

« رباه » انه يعرف مع ذلك معنى هذه الخسارة بالنسبة الي . لا يمكن ان يكون راغباً في دماري . لقد كان صديقي . لقد كنت احبه وأوده ... لكن الخطيئة ليست خطيئته ، ماهو ذنبه اذا كان الحظ يحالفه ! ... وأنا ، ماهو ذنبي ؟ انني لم ارتكب فعلة مؤذية ؛ انني لم اقتل ولم احقر انسانا ! فلمَ اذن هذا الطالع السيء ؟ ومتى بدأ هذا النحس ؟ منذ لحظات اقتربت من هذه المائدة لأربح مائة روبل كنت مزمعاً شراء الصندوقة التي سأقدمها لأمي بها بمناسبة عيدها ، على ان أعود بعد ذلك مباشره الى الدار . لقد كنت عظيم السعادة آنذاك شديد الغبطة ممتلئاً بالحرية ! انني ما كنت افهم سعادتي ... فمتى إذن أخلت مكانها ليحل محلها هذا الموقف الجديد الرهيب ؟ بأي بادرة وقع هــذا التحول العظيم ؟ انني لم ابارح مكاني هذا ولم أتوقف عن أخذ الورقة تلو الورقة واللعب بها ، ولم أنفك عن النظر الى هاتين اليدين الحمراوتين البارعتين . فمتى تم ذلك وما هوهذا الشيء على وجه التحديد ؟ انني في صحة طيبة ، قوي نشيط ،

لم أتبدل ولم ابّدل مكاني ... ان كل هذا ليس الا حلماً مزعجاً . ولا شك.»

كان أحمر الوجـه يسبح في العرق رغم ان حرارة الغرفـة كانت مقبولة معتدلة . كان وجهه يخيف ويستدعي الشفقة معاً ، بسبب المجهودات الخارقـة التي كان يبذلها ليظهر بمظهر الهادىء المتزن .

واخيراً وصل الحساب الى الرقم الرهيب : ثلاثة واربعين الف روبل !
كان روستوف يستعد للمقامرة بالثلاثة آلاف الفائضة التي ربحهـا على أساس الازدواج عندالربح « Paroli »، عندما ترك دولوخوف الورق من يده بحركة قوية وراح يجمع الارقام التي يدين له بها . ولما كان يضغط بشدة على قطعـة الحكك التي كان يسجل بها الرقم الهائل ، فقد تفتتت بين اصابعة . قال :

– لقد أزف الوقت ايهاالسادة ، هاقد وصل البوهيميون في الوقت الملائم.

والحقيقة ان عدداً من الرجال والنساء ، سمر الوجوه ، دخلوا الغرفـة في تلك اللحظة حاملين معهم البرد من الخارج، يتحدثون فيما بينهم بلهجة اهل بوهيميا. فهم نيكولا ان كل شيء قد انتهى . فلم ينطق الا بجملة واحدة وبلهجـة من استأثر اللعب بلبه _ لا الخسارة _ فانفعل :

– كيف ! الا تستمر ؟ مع ذلك فقد كنت مهيئا لك ورقة كنت ستخسر بها ولا شك !

فكر في نفسه : « لقد انتهى كل شيء ، لقد ضعت ! لم يبق امامي الا ان افرغ غرارتي في رأسي ! » فقد كرر بوداعة :

– نعم ، ورقة ممتازة ! ... هيا ، جولة ثانية !

فقال دولوخوف الذي كان قد انتهى من عمليات الجمع :

– ليكن ، سنبدأ من واحد وعشرين روبلا ...

وأشار الى هذا الرقم الذي كان فائضاً عن الارقام الكبيرة الاخرى ، عن مبلغ ثلاثة وأربعين الف روبل ! ثنى جانب ورقته ليسجل عليها رقم ٢١ .

فقال روستوف :

سيان عندي . كل ما أرغب فيه هو معرفة ما إذا كنت ستعطيني عشرة ام انك ستحطم ورقتي كالعادة .

خلط دولوخوف الورق ووزعه بعناية فائقة مركزة . آوه ! كم كان روستوف يحقد على تينك اليدين في تلك اللحظة ، تينك اليدين الحمراوين باصابعهما القصيرة ، اللتين كان الشعر يظهر فوق معصميهما ، واللتين كانتا تجعلانه تحت رحمتهما ! ...

ربحت العشرة فقال دولوخوف وهو ينهض عن المائدة ويتمطى بتثاقل :

– انك مدين لي بثلاثة واربعين الف روبل ياكونت ! ياللشيطان كيف يجلس الانسان كل هذا الوقت دون حراك !

فقال روستوف :

– نعم ، انني الآخر ماعدت أستطيع البقاء .

غير ان دولوخوف اراد ولاريب ان ينبهه الى ان دعابته ليست في حينها ، فقاطعه قائلا .

– متى ستسدد هذا الدين ياكونت ؟

صعدالدم الى وجهروستوف حتى غدا بلون الدم ، فامسك بيير دولوخوف وأخذه الى الحجرة المجاورة . قال معترفاً :

– لن استطيع ان ادفع لك مرة واحدة . سأعطيك سنداً بالمبلغ .

فقال دولوخوف وهو ينظر في عينيه بنظرته الباردة وابتسامته الجامدة لاتفارق شفتيه :

– اصغ اليّ ياروستوف . انت تعرف المثل القائل : « سعيد في الحب تعيس في اللعب . » ان ابنة عمة مفتونة بكَ وانا أعرف ذلك .

فكرر روستوف في سره « آوه ! ياله من عذاب أليم لمن يشعر انه تحت

رحمة هذا الرجل ! »كان يعرف ماسيحدثه اعترافه بالخسارة في نفس افراداسرته. آه ! ياله من سرور بليغ وبهجة لاتوصف ان استطاع التخلص من هـذا الموقف المخجل المعيب ! كان دولوخوف يستطيع انقاذه من هذا الكابوس المريع ، وهو يعرف ذلك ، لكنه كان يتسلى باللعب معه لعبة القط والفأر .

فقال دولوخوف بالحاح :

ـ ان ابنة عمك ...

غير ان نيكولا قاطعه بشدة قائلا بغضب ظاهر :

ـ لاعلاقة لأبنه عمي في هذا الامر ، فدعها بسلام !

ـ اذن متى ستدفع لي ؟

فقال روستوف وهو ينسحب و كأن في اعقابه الشيطان :

ـ غداً .

* * *

الفصل الخامس عشر

في اجواء الحب

أن يقول المرء غداً بلهجة التأكيد ، أمر سهل . ولكن أن يعود الى البيت فيقابل الاخوات والاخوة ، والام والاب ، وأن يعترف بالخسارة ويطلب المال رغم الوعد المقطوع ، امر مريع مختلف عن الاول .

لم يكن احد في البيت قد نام بعد . هرع الشباب الى الارغن عقب وصولهم من المسرح . فلم يكد روستوف يضع قدمه في القاعة الكبيرة ، حتى أحسّ بذلك الجو العاطفي المشبع بالحب والشعر ؛ ذلك الجو الذي ظل هائماً في سماء ذلك البيت طيلة الشتاء ، والذي تركز في الايام الاخيرة، بعد تصريح دولوخوف وحفلة إيوجل الراقصة ، حول سونيا وناتاشا ، كما يثقل الهواء قبل العاصفة ، يحيط به ويغمره . كانت الفتاتان الشابتان ، في البستهما الزرقاء التي ارتدتاها قبل الذهاب الى المسرح ، سعيدتان هانئتان ، مطمئنتين الى جمالها وروعته، تبتسمان وهما واقفتان قرب المعزف . اما فيرا فكانت تلعب الشطرنج مع شينشين في البهو . وكانت الكونتيس تتسلى بلعبة الحظ مع سيدة نبيلة عجوز تقطن في بيتهم ، بانتظار عودة ابنها وزوجها . وكان دينيسوف جالساً الى المعزف مشعث الشعر ، براق العينين ، دافعاً احدى ساقيه الى الوراء قليلا ، يضرب على المعزف

باصابعه القصيرة بقوة وحيوية ، ويغني بصوته الاجش ولكن غير الموزون ، قصيدة من نظمه عنوانها « القانتة » . وهو يدير حوله عينيه الكبيرتين ، ويبحث عمن يشاركه في الغناء .

ايتها الساحرة ! آه ! يالها من قوة تدفعني
الى ايقاظ هـــذه الاوتار النائمة
وبأية قوة تعانقين قلبي ،
وأي هيام تخفق به اصابعي !

وبينما كان يهدل بهذه الانشودة العاطفيـــة ، كانت عيناة العقيقيتان ترسل اشعاعاتها باتجاه ناتاشا التي كانت مأخودة وهي مذعورة ذعراً غامضاً .

هتفت دون ان تلاحظ دخول اخيها :

– ان هذا رائع ! غن مقطعاً آخر !

فقال نيكولا في سره : « ان كل شيء اذن يسير في طريقه الهادىء هنا ». وألقى نظرة على البهو فرآى فيرا وأمه والسيدة العجوز .

هتفت ناتاشا وقد وقع بصرها عليه فهرعت اليه :

– آه ! هاهو ذا نيكولا .

سأل :

– هل أبي هنـــا ؟

فقالت ناتاشا دون ان تجيبه على سؤاله :

– كم أنا مسرورة لعودتك ! اننا نتسلى جداً هنـا . هل تعرف ان فاسيلي دميتريش قرر البقاء يوماً آخر من أجلي ؟

وقالت سونيا :

– كلا ، ان « بابا » لم يعد بعد .

وعلا صوت الكونتس يقول :

ـ ها انتذا اخيراً ياكوكو . تعال الي ّياصديقي !

اطاع نيكولا نداء أمه فمضي اليها وقبل يدها وجلس بقربها دون ان ينطق بحرف واحدمستغرقاً في تأمل اصابعها وهي تصف الورق وترتبه . ومن قاعة الرقص تعالت الضحكات واصوات بهيجة تتوسل الى ناتاشا .كان دينيسوف يقول :

-- كلا ، كلا ، لن اقبل اعذاراً . انك مدينه لي باغنية . باركارولا ّ، ويجب ان تغنيها لي ، اتوسل اليك .

قالت الكونتيس وهي تلقي على وجه ابنها الصامت نظرة مستفسرة :

ـ ماذا وقع لك ؟

فأجاب وكأنه مستاء من هذا السؤال الدائم الأبدي :

ـ لاشيء . هل سيعود ابي مبكراً ؟

ـ بلا شك .

راح نيكولا يخاطب نفسه بقوله : « ان كل شيء يسير في هدوئه المعتاد هنا . انهم لايعرفون شيئاً . الى اين استطيع اللجوء؟» وذهب الى القاعة الكبري .

كانت سونيا شارعة في التمهيد لمقدمة الباركارولا التي كانت تعجب دينيسوف وكان هـذا يفترش ناتاشا بنظراته وهي على وشك الغناء . راح نيكولا يذرع القاعة بانفعال .

كان يحدث نفسه : « يالها من فكرة تلك التي جعلته يطلب اليها الغناء وكأنها تجيده أو تقوى عليه ! ماذا يجدون في هذا من تسلية ؟ » بينما كانت تعيد المقدمة وتضبط النغم . عـاد يفكر في نفسه : « رباه ، رباه ! انني رجل مقضي ّعلي ّ! لقد فقدت شرفي ! رصاصة في رأسي ، هذا خير جزاء ! ... ان الامر يستحق الغناء !... اذهب ؟ ولكن الى أين ؟... على كل حال ، ليغنوا اذا كان قلبهم يطاوعهم على الغناء ! ...

واستمر في طوافه في القاعة مكتئب الوجه مكفهره ، ملقياً على دينيسوف

والفتاتين نظرات شاردة ومتحاشياً نظراتهم .

كانت عينا سونيا الشاخصتين اليه تسألانه : « نيكولا ، ماذا بك ؟ » لقد خمنت من فورها ان امراً ما قـد وقع له . فراح نيكولا يتهرب من ذلك الاستفسار الصامت .

وناتاشا الحساسة كانت هي الاخرى قد ادركت منذ دخول أخيها انه في حالة نفسية مضطربة . لكنها كانت في تلك اللحظة شديدة الفرح ، بعيدة كل البعد عن الافكار المزعجة ، حتى انها ابعدت عامدة ذلك الشعور المحزن الذي خامرها. فكرت في نفسها : « آه ! ما فائدة تبديد مثل هذا الجو المرح السعيد ، لمشاركة الآخرين في ما يزعجهم ؟ ثم انني مخطئة ولا شك في تصوري . انه ولا ريب في مثل حالي من الابتهاج والفرح ! » وهكذا فانها لم تخرج في محاكمتها عما ألفه كل الشباب من مناقشة وتفسير في مثل هذا الموقف .

سألت :

– هل انت مستعدة يا سونيا ؟

وشمخت برأسها وباعدت بين ذراعيها على طريقة الراقصات ، ومضت بخطوات متحمسة تقرع الارض حتى بلغت منتصف القاعـة حيث المجال السمعي افضل وفجأة توقفت .

بدت في وقفتها تلك كأنها تجيب على نظرة دينيسوف المعجبة : « كذلك أنا ، انني كما تراني ! »

تساءل نيكولا : « ماذا تجد في هذه الحركات المتصنعه من جمال وفكاهة ؟ ألن تنتهي ؟ ان هذا معيب ! »

اطلقت ناتاشا المقطع الاول من الاغنية ، فتمددت حنجرتها وارتفع صدرها واتخذت نظرتها طابعاً جدياً . لم تكن في تلك اللحظة تفكر في شيء خاص . وراحت الاصوات تنبعث خلال شفتيها المقوستين بشبه ابتسامة ، اصوات كان

كل انسان قادراً على اخراج مثلها وعلى نسقها وطبقتها ، اصوات تجعلنا باردين جامدين الف مرة ولكنها في المرة الواحدة بعد الالف تجعلنا نرتعد ونبكي .

كانت ناتاشا ، استجابة لاطراء دينيسوف المتحمس لها ، قد أخـــذت تغني خلال فصل الشتاء بشكل جدي. وقد تحرر غناؤها من الطابع المضحك الصبياني الذي كان يشوهه من قبل ، لكنه لم يبلغ حد الكمال . وكان العارفون الخبيرون يقولون: « انه صوت جميل ، لكنه غير متزن بعد، ينبغي العناية به لصقله . » ما كانوا يذيعون رأيهم هذا الا بعد ان تكون ناتاشا قـد فرغت من غنائها منذ وقت ليس بالقصير ، أما خلال الفترة التي كان صوتها « الخام » يرسل انغامه خلال انفاسها المبهورة ومحاولاتها الشاقـة لابدال الطبقة او اللحن ، فان قضاتها القساة ما كانوا يستطيعون التمالك عن مشاطرتها البهجة والطرب والاحساس بالرغبة الملحة في الاصغاء الى غنائها ابداً . كان في صوتها نضرة بتولية ، وفيـه تنكر لقواه وتأثيراته ، ورخامة غير ناضجة بعد ، تتناسق مع الاخطاء الفنية بشكل يبدو للسامع معه أن أي تبديل او تحويـــل فيه قمين بافساد كل شيء وتبديد كل المتعة .

تساءل نيكولا وقد اتسعت عيناه دهشة : « ما معنى هذا ؟ ماذا حدث لها؟ انها تغني اليوم بشكل رائع غير مألوف ! » لم يلبث حتى استغرق روحاً وجسداً في انتظار اللحن وترقب الجملة التالية . وبدا له العالم كله قائماً في الايقاع الذي يضبط الاغنية ! عاش فيها برهة وراح يضبط السلم الموسيقى في نفسه : « واحد، اثنان ، ثلاثة ... واحد ... ، اثنان ... ثلاثة ... واحد ... اوه ! كم هو سخيف وجودنا ! كل هـــذا ، والنحس الذي ركبني ، والغضب ، والاحراج والشرف ، نعم ، كل هـذا ليس الا ترهات ... هذا هو الحقيقي ... تشجعي يا ناتاشا ، تشجعي ياصديقتي ! ترى هل تستطيع ابراز هـذا الـ : « سي » ؟ ... مرحى ، لقد احسنت الاداء ! » ودون ان يشعر بأنه يغني ليساعدها على ابراز

ذلك الـ : « سي » ، ارتفع باللحن الى مرحلته الثالثة « Tirce » في اعلى طبقاته« رباه ، هو بديع ! أصحيح انني انا الذي أدى هـذه « النوتة » الموسيقية ? كم كانت ناجحة ! » .

اوه ! كم اهتز ذلك اللحن وتردد في الغرفة ، وكم تأثر به روستوف في اعماق فؤاده ! كان في تلك اللحظة يحلق متسامياً بعيداً عن كل ماله علاقـة بالارض والعالم ! « ماذا تهم الخسارة التي منيَ بها في اللعب ، وماذا يهمه من دولوخوف والوعد المقطوع ! ... ان كل هذه ليست الا ترهات ! ... يستطيع المرء ان يسرق وان يقتل ، ومع ذلك ، يستطيع بنفس الوقت ان يتذوق السعادة بكل كيانه .:. »

* * *

الفصل السادس عشر

خيبة دينيسوف

لم يشعر روستوف بمثل تلك الرغبة في الاصغاء الى الموسيقى كما شعر بها ذلك اليوم . ومع ذلك ، فان ناتاشاما كادت تنهي الباركارولا حتى عاد اليه الاحساس بالواقع . خرج دون ان يتفوه بكلمة ومضى الى حجرته . وبعد ربع ساعة ، عاد الكونت العجوز من النادي وهو على احسن مزاج . سمع نيكولا صوت مجيئه فمضى للقائه .

قال ايليا آندريئيتش وهو يبسم لابنه ابتسامة فخر مرحة :

– هه يا فتاي ! هل تسليت ؟

اراد نيكولا ان يجيبه بنعم لكن قواه خانته واختنق صوته بالعبرات . ولم يلاحظ الكونت حالة ابنه العنيفة لأنه كان يشعل غليونه .

قرر نيكولا ان يخطو الخطوة الرهيبة وقال يحدث نفسه: « هياه ينبغي ان احدثه بكل شيء وان انتهي من هذا الموضوع ! » وفجأة ، شرع يتحدث بطلاقة اخجلته نفسه ، وبمثل اللهجة التي يطلب بها عربة للذهاب الى المدينة ، قال لأبيه:

– على فكرة يا أبي ، كنت اود محادثتك لأنني في حاجة الى المال .

فأجاب الكونت وهو شديد المرح ذلك المساء :

– آه باه ! لقد قلت لك انك ستنفق كل ما معك . هل يلزمك مبلغ كبير؟

أجاب نيكولا بابتسامة بلهاء ماجنة ظل ضميره يوبخه من اجلها طويـــلاً ، ووجهه متضرج :

– نعم ، مبلغ كبير . لقد خسرت قليلاً ... اعني مبلغاً غير قليل ... بل كثير ايضاً ، ثلاثة واربعين الف روبل .

هتف الكونت بشدة بينما تغطي عنقه فجأة بالحمرة الناجمة عن ارتفاع الضغط عند المسنين :

– ماذا ! ... مع من ؟ ... انك تمزح !

فاردف نيكولا :

– وقد وعدت بتسديد هذا الدين غداً .

فتهاوى الكونت بيأس على احدى الارائك وهو يقول :

– رباه ! ...

فتابع نيكولا بطلاقة :

– ما العمل ! ان هذا يحدث لكل الناس !

لكنه كان في سره يعتبر نفسه سافلاً دنيئاً لا تكفيه حياته لدفع ثمن جريمته . كان يؤكد لأبنه بطيش ورعونة قريبة من الاهانة ان ذلك يقع لكل الناس ، في حين ان واجبه كان يقضي عليه بان يقبل يديه وان يطلب غفرانه وصفحه وهو راكع على ركبتيه !

خفض ايليا آندريئيتش ابصاره لدى سماعـــه تلك الاجابة وغمغم منتقياً الكلمات المناسبة :

– نعم ، هذا مؤكد ... لن يكون من السهل تدبير هـذا المبلغ ، انني اخش ذلك ... نعم ولا شك ، لقد وقع مثل هذا لآخرين ... لقد وقع لآخرين .

واختلس نظرة سريعة الى ولده واتجه نحو الباب . كان نيكولا يتوقع ممانعة

ورفضاً من ابيه لذلك فقد فوجىء بسلوكه ذاك وأخذ على غرة .

هتف بين دموعه وتنهداته :

– ابتاه ، ابتاه ! اصفح عني !

واطبق على يد أبيه والصق شفتيه عليها بخشوع وانخرط في البكاء .

وبينما كان الأب والابن يتفاهمان على تلك الصورة ، كانت مناجاة اخرى لاتقل عن هذه خطورة ، تدور بين الأم والبنت . كانت ناتاشا قد هرعت الى امها الكونتيس وكلها انفعال وارتباك . قالت :

– اماه ، اماه ! ... لقد ... لقد ...

– ماذا حدث ؟

– لقد صرح ... لقد صرح بحبه !

لم تكن الكونتيس تصدق اذنيها . لقد صرح دينيسوف بحبه ! ولمن ؟لتلك الطفلة ناتاشا التي كانت الى زمن قريب تلعب بلعبتها والتي لازالت تدرس على يد مربية !

قالت الام آملة ان يكون ذلك محض دعابة :

– هيا يا ناتاشا ، لاتتفوهي بحماقات .

فأجابتها ناتاشا بشيء من الدهشة المتألمة :

– حماقات ! ولكن ليس ما اقوله حماقة ابداً . انني اتكلم جدياً . لقد جئت اسألك الرأي فتحدثيني بهذا الشكل وتتهميني بالتلفظ بالحماقات ...

هزت الكونتيس كتفيها وقالت :

– اذا كان السيد دينيسوف قد طلب يدك فأجيبيه بأنه أحمق ، وستغني هذه الكلمة عن مجمل الحديث .

اصرت ناتاشا على موقفها وقالت بلهجة جدية :

– كلا يا اماه ، انه ليس أحمقاً .

فقالت الكونتيس وعلى شفتيها ضحكة مغتصبة :

ــ اذن ماذا تريدين ؟ في هذه السن ، لاتخلو رأس احـداكن من نوع من الحب ... حسناً ، اذا كان يعجبك بمثل هـــذه الشدة ، فتزوجيه وليباركك الله الرحيم !

ــ لكن كلا يا اماه ، انني لا احب دينيسوف ، أو على الأقل ، لا أعتقد انني أهواه .

ــ واذن ؟ قولي له ذلك .

ــ اماه ، انك غاضبة اليس كذلك ؟ لاتنزعجي ارجوك ، هل هي خطيئتي؟

فقالت الكونتيس باسمة :

ــ لكنني لست غاضبة ابداً ... هيا ، هل تريدين مني ان اذهب لاتحدث معه؟

كلا ، بل انني ساكلمه بنفسي . لكنني اريد منك فقط ان تنبئيني بما يجب علي ان اقوله .

واردفت مستجيبة لابتسامة امها :

ــ الا ترين ، ان كل شيء سهل في نظرك . آه ! ليتك شاهدته عندما حدثني عن هذا الأمر ! ثم انني اعرف تماماً انه لم يكن يريد ان يقوله ، لكن الكلمات افلتت من فمـه !

ــ هذا لايمنعك من ان ترفضي طلبه .

ــ لكن لا ، ان ذلك سيؤلمني اشد الألم ! انه عظيم اللطف !

فقالت الام ساخرة :

ــ اذن فاقبلي . ثم الا ترين ان الوقت قد ازف لتتزوجي وكاد ان يفوت!

ــ آه يا امي ! ان ذلك يؤلمني كل الألم ، لست ادري كيف اجيبه وماذا اقول له .

فقالت الكونتيس في شيء من الغضب لأن بعضهم عامل تلك الطفلة معاملة الفتاة الناضجة :

- لست انت ستتكلمين ، بل انني ساتكفل بذلك .

- آوه كلا ! سوف احدثه بنفسي وستصغين الى حديثي من وراء الباب .

عادت ناتاشا الى بهو الموسيقى حيث كان دينيسوف جالساً في مكانه الاول قرب المعزف ورأسه بين يديه . انتفض في مكانه لدى سماعــــه صوت خطواتها الخفيفة العائدة .

قال وهو يهرع للقائها :

- ناتالي ، قرري مصيري ، انه بين يديك .

- فاسيلي دميترويش ، انك تزعجني كثيراً ! ... انك شديد اللطف... حقاً ان ذلك لايمكن ان يكون ... لكنني ساظل احبك دائماً .

انحنى دينيسوف على يدها وسمعت ناتاشا اصواتاً غريبة غير مفهومة . الصقت شفتيها بشعرها الأجعد المشعث . وفي تلك اللحظة ارتفع حفيف ثوب عنيف ينبىء بمقدم الكونتيس .

قالت هذه بصوت منفعل بدا رغم رقته على شيء من القسوة في نظر دينيسوف :

- يا فاسيلي دميتريش ، شكراً على الشرف الذي تسبغه علينا . لكن ابنتي لازالت طفلة . ولقد ظننت أنك بوصفك صديقاً لابني ، ستبدأ بالاتصال بي اولاً . ولم يكن ذلك - لو عملته - ليدفعني الى اجابتك بالرفض .

تمتم دينيسوف مطرق الرأس كالمجرم :

- يا كونتيس ...

ولعله اراد ان يضيف شيئاً الى كلمته ولكن ارتج عليه .

ولما رأت ناتاشا مبلغ الانقلاب الذي طرأ عليه ، لم تتمالك اعصابها وخرجت عن هدوئها بنوبة صاخبة من البكاء والنحيب .

واخيراً استطاع دينيسوف ان يقول بصوت متهدج متقطع :

- كونتيس ، قد اكون مخطئاً في حقك ، ولكن اعرفي تماماً انني اشعر

باحترام لايوصف نحو ابنتك ... ونحو كل اسرتك ... لدرجـة انني مستعد لاعطاء حياتين لو كنت املكها ...

وتوقف فجأة عندما لاحظ ان هيئة الكونتيس لازالت موسومـــة بطابع القسوة . واخيراً قال فجأة بشيء من العنف :

ـ هيا ، الوداع .

وقبل يد الكونتيس وخرج بخطوات مصممة سريعة دون ان يلقي نظرة على ناتاشا :

وفي غداة اليوم التالي ، ودع نيكولا دينيسوف الذي رفض البقاء يوماً آخر في موسكو . كان كل اصدقائه يحتفلون بسفره لدى البوهيميين لذلك فانه لم يذكر قط كيف حشروه في زحافته وكيف اجتاز المراحل الثلاثة الاولى .

اضطر نيكولا الى البقاء في موسكو خمسة عشر يوماً اخرى بانتظار ان يجمع الكونت العجوز المبلغ الذي كان يسعى لايجاده سداداً لدين ولده . ولقد امضي هذه الأيام حابساً نفسه غالباً في غرفـــه الفتاتين ، متشاغلاً بالتنظيم والتدوين الموسيقي .

ابدت سونيا نحوه حنواً واخلاصاً اشد من أية مرة مضت . كانت تحاول ان تُظهر له أن خسارته في القمار تجعله في عينيها ارفع قيمة واسمى مكانة . لكن نيكولا كان يعتقد جازماً انه لم يعد جديراً بها .

وفي نهاية تشرين الثاني ، استطاع روستوف ان يرسل ثلاثة واربعين الف روبل الى دولوخوف وان يأخذ منه براءة ذمة . وبعد ذلك مباشرة ، سافر الى وحدته دون أن يتقدم الى احد من اصدقائه ومعارفيه مودعاً . وكانت فرقته معسكره حينذاك في بولونيا .

* * *

الجزء الثاني

الفَصلُ الأوّل

المسافر الغامض

سافر بيير الى بيترسبورغ غب خصومته مع زوجتـــه . فلما بلغ مرحلة تورجوك ، ادعى مدير مركز تبديل الخيـول انه لاتوجد لديه في تلك الليلة خيول مستريحة، فاضطر بيير الى الانتظار . تمدد بكامل ثيابه على اريكة جلدية امام مائدة مستديرة مددفوقها ساقيه الطويلتين المحتذيتين والمبطنتين بالفراء ، واستغرق في خواطره .

سأل وصيفه :

- هل أحضر الحقائب ؟ هل اعد سريراً وشاياً .

غير ان بيير لم يجبه . كان لايسمع ولا يرى شيئاً . كانت افكاره وتصاميمه تدور حول موضوع شديد الخطورة منذ المرحـلة الاخيرة ، حتى انه ماكان يعير كل مايدور حوله أي التفات . ماكان يهتم للوصول الى هدفه عاجلا أم آجلا ، ولا بأن يجد في هذه المرحلة سريراً او لايجد ، بل انه ماكان يهتم اذا امضى في هذا المكان ساعات معدودات ام قضى العمر كله فيه ، لشدة أنهاكه في افكاره التي كانت تشغل كل انتباهه .

وكان مدير المركز وزوجته ووصيف بيير وبائعة جلود[1]، يتناوبون دوريا

---

(١) ان الدباغات في تورجوك ومشهورة ومن هذه المدينة تخرج معظم الجلود الروسية الشهيرة .

في المثول بين يدي بيير عارضين عليه خـــدماتهم . فكان بيير ، يتأملهم خلال نظارتيه ، دون ان يبدل وضعيته أو أن ينزل ساقيه ، غير مدرك مايريدون ولا كيف استطاعوا ان يعيشوا حتى الآن دون ان يوفقوا الى حل المعضلات التي كانت تدمي فؤاده وتعذبه . وكانت هـذه المعضلات هيَ هيَ ، لم تتبدل منذ أن طرح على نفسه تلك الاسئلة بعد عودته من المبارزة في غابة الفوكونييه ، تلك الاسئلة التي ظل يفكر فيها طيلة ليـلة الارق الرهيبة التي قضاها انذاك . لكن عزلة السفر جعلت تلك الاسئلة أكثر الحاحاً واشد وقعاً . فكان كلما حاول ان يفلت منها خلال ثغرة ما ، او أن يزوغ امامها ، عادت اليه تهاجمه وتحدق به دون ان يستطيع ايجاد اجوبة لها وحلول ، وكأن المحور الرئيسي في كيانه وحياته قد تركز في رأسه وغُرس فيه . فكان يشعر في ذلك المحور ثابتاً لا يحاول النفاذ الى ابعد من مكان وجوده ، ولكنه لايحاول الخروج من مكانه كذلك ، بل يكتفي بالدوران في مكانه دون ان يلف حوله شيئاً وكذلك دون أن يتوقف عن الدوران ابداً .

جاء رئيس المركز يرجو سعادته بخضوع ان يتفضل بالانتظار ساعتين صغيرتين حتى يستطيع بعدها ان يقدم على مسؤولياته الشخصيه وعهدته ، خيول عربة البريد لسعادته . كانت تلك كذبة واضحة لأن الرجل « الطيب » كان يحاول أن يسحب من الرجل المسافر الثري أكبر جانب ممكن من المال .

تساءل بيير « هل يتصرف تصرفاً حسناً ام سيئاً . انه على حق فيما يتعلق بي . ولكن اذا عامل مسافراً آخر على هـذه الصورة فانه يكون مخطئاً . أما هو ، فانه على صواب لأنه فقير لايجد مايتبلغ به . ولا يستطيع كسب عيشه الا بهذه الوسيلة . لقد ادعى ضابطاً جاء منذ حين يطلب « بدلا » لعربته ، فلما امتنع ، ضربه وقسا عليه . فاذا كان حقيقياً ، فان معناه ان الضابط كان على عجلة من امره . لقد اطلقت النار على دولوخوف لأنني ظننت انه اهانني ،

ولويس السادس عشر ، ألم يعدموه لأنهم اعتبروه مجرما ؟ وبعد عام اعدموا اولئك الذين حكموا عليه من قبل ؛ ولا شك انه كانت لديهم اعذارهم ايضا. ماهوالسيء، وما هوالحسن ؟ ماذا ينبغي ان يحب المرءوماذا يجب ان يكره؟ لماذا ينبغي ان يعيش المرء وما هو « الأنا » ؟ ماهي الحياة وما هو الموت ؟ وما هي القوة التي تسيّر كل هذا ؟.

لم يكن يجد على كل هذه الاسئلة الا جوابا واحداً لم يكن جواباً في حد ذاته . « ستموت يوما وتنتهي . ستموت وستعرف كل شيء أو ستكف عن طرح الاسئلة على نفسك . » ولكن ان يموت ، كان كذلك شيئا رهيبا .

كانت البائعه تعرض بضاعتها على بيير بصوتها الثاقب ، وبصورة خاصة ، كانت تقدم له احـذية من « الشيفرو » جلد الجديان . قال يحدث نفسه « ان معي مئات من الروبلات لست أدري ماذا اعمل بها ، وهذه المرأة بفروتها الممزقة ، تسألني بخضوع ان اساعدها . ولكن هل هي في حاجة حقيقيـة الى المال ؟ هل يستطيع المال ان يشتري « اوقيـة » من السعادة وراحة الفكر ؟ كلا . لاشيء في الدنيا يستطيع ان يجعلها أو يجعلني اقل خضوعا للسوء أو للموت ، ذلك الموت الذي سينهي كل شيء والذي سيأتي اليوم أو غداً ، ولا قيمة لذلك لأنه لن يكون الا لحظـة بالقياس الى الابدية . » ومن جديد اصطدم بالمحور الذي يدور في الفراغ حول نفسه دون أن يأتي بما يفيد ، دورات لاطائل تحتها ولا جدوى .

قدم له خادمه كتابا قطّعت نصف صفحاته . كان ذلك الكتاب عبارة عن رواية في رسائل لمدام دوسوزا . راح يقرأ قصة الصراع الجبار الصالح الذي قامت به من تدعى آميلي دومانسفلد[1] . راح يتساءل ، « لماذا تقاوم وتمانع من

---

(١) جاء في الترجمة الفرنسية حاشية بقلم المترجم هنري مونجو ان تولستوي اخطأ في ايراد هذا الاسم . لأن رواية آميلي دومانسفلد التي وضعت عام ١٨٠٣ ليست لمدام دوسوزا بل لمدام كوتان

فتنتها طالما انها تحبـــه ؟ ان الله ما كان ليضع في نفسها رَغبات ضد رغبته . ان زوجتي السابقة لم تناضل ـ هي ـ ولعلها كانت على صواب ... لم يُكتشف شيء ولم يُخترع شيء . ان كل مانستطيع معرفته هو أننا لانعرف شيئا . هذه هي الدرجة القصوى في الحكمة الانسانية . »

كان كل شيء في نفس بيير وحوله ، يبدو بعينيه ارتجاجا مزعجا وصخبا غريبا مخالفا للمألوف . لكن ذلك التناقض كان يتيح له في ثنياته لونا من المتعة والاغراء .

قال رئيس المركز وهو يدخل مسافراً آخراً ، كان افتقار المركز للخيول يرغمه على التريث هو الآخر :

ـ هل تتفضل سعادتكم ـ اذا كان ذلك لايضايقكم ـ بأعطاء مكان صغير لهذا السيد ؟

كان المسافر عجوزاً قصير القامة بارز العظام ، اصفر الوجه متقلصه ، يبرز حاجباه الاشهبان فيظللان عينين براقتين بلون رمادي غير مركز .

رفع بيير ساقيه عن المائدة ومضى يستلقي على السرير الذى أُعد له ، ملقيا بين الحين والآخر ، نظرة على القادم الجديد الذي لم يكن يعيره التفاتا ، بل كان ـ كما يبدو عليه ـ مكتئب الوجه متعبا ، يتخلص بصعوبة من فروته ، يساعده على ذلك خادمه . اما ثيابه الداخلية ، فكانت عبارة عن جلد خروف مبشور مغطى بنسيج قطنى اصفر ، وحذائين من اللباد المتين يرتفعان حتى اعلى ساقيه الهزيلتين المعروقتين . جاس على الاريكة في ذلك التجهيز وكفأ رأسه الكبير الحليق ذا الصدغين العريضين ، على مسندها وعندئذ فقط ، ألقى على رفيقه نظرة جعلت بيزوخوف يفاجأ ببيانها الصارم الخارق المتخلخل . شعر برغبة في الدخول في حديث مع ذلك المسافر ، فهم بسؤاله عن حالة الطريق . لكن العجوز كان قد أغمض عينيه وعقد يديه المغضنتين الهزيلتين التي يزّين اصبع

احداهما خاتم كبير من المعدن على شكل جمجمة ميت ، ولبث جامداً مستغرقا في بحران هادىء عميق كما خُيّل لبيير . اخرج خادمه ـ وكان عجوز خفيف الحركة قصير القامة أجرد الوجه ، ذا صفرة متقلصه كوجه سيده تماما ، يرى بوضوح انه لم يحلقه يوما ما بل ولم يكن يوما يحوي على لحية وشاربين ـ ادوات الشاي وجاء « بسماور » يغلي الماء فيه . ولما انتهى كل شيء ، فتح السيد عينيه واقترب من المائدة حيث اعد لنفسه قدحا من الشاي وقدم آخر الى الرجل الاجرد . شعر بيير بكآبة غامضة ، وأحسّ بضرورة ملحة تدفعه الى توجيه الحديث الى المسافر .

اعاد الخادم بعد حين قدحه فارغا ومقلوبا على صحيفتـــه ، دلالة على أنة لايرغب في قدح آخر ، والى جانبه قطعة السكر الفائضة عن استهلاكه وسأل سيده عما يرغب فيه من خدمات .

فاجابه هذا :

ـ كلا ، لاشيء . اعطني كتابي .

قدم له الخادم كتابا خمن بيير انه يبحث في شؤون النسك والورع ، واستغرق في قراءته . اما بيير الذي كانت عيناه في تلك اللحظة محولة نحو المسافر العجوز ، فقد شاهده فجأة يضع الكتاب من يده ويغلقه ويعود الى وضعه الاول مغمض العينين منكفىء الرأس على مسند الاريكة . همّ بيير أن يستدير ، لكنه لم يجد الوقت الكافي لذلك ، اذ ان العجوز فتح عينيه فجأة وراح يتفحص وجهه بصرامة وتصميم .

شعر بيير بالارتباك . كان يحب من كل نفسه ان يفلت من تينك العينين اللامعتين اللتين كانت لهما جاذبية لاتقاوم .

* * *

الفصل الثاني

اوسيب بازديئييف

قال المسافر الغريب بصوته القوي المتزن :

– اذا لم اكن مخطئاً ، فان لي شرف التحدث مع الكونت بيزوخوف اليس كذلك ؟

لم ينبس بيير بنت شفة بل اكتفى بالنظر اليه خلال نظارتيه نظرة مستفسرة .
اردف المسافر الغريب يقول :

– لقد سمعتهم يتحدثون عنك ياسيدي وعن المصيبة التي اصابتك .

كانت لهجته وهو ينطق بتلك الجملة تؤيد معنى الكلمات وكأنها تقول: «نعم، انها مصيبة مهما اطلقت عليها من اسماء اخرى ، انني اعرف ان ماوقع لك في موسكو مصيبة » .

اردف :

– انك تراني ياسيدي شديد الغم .

احمر وجه بيير فوضع قدميه على الارض بسرعة ومال الى العجوز وعلى شفتيه ابتسامة رسمها الخجل والضيق .

تابع المسافر العجوز قوله :

— انني لم احدثك ياسيدي عن هذا الامر بمجرد فضول عابر ، بل لاسباب اجل شأنا .

صمت المتحدث دون ان يغفل عن النظر الى بيير ، ثم تحرك في مقعده داعياً بيير في حركته الى الجلوس بجانبه . شعر بيير بدافع يرغمه على اطاعة ذلك النداء الصامت رغم نفوره من الامتثال له . استرسل المسافر :

— انك تعيس ياسيدي . انك شاب وانا كهل . وانني اريد ان اساعدك في حدود طاقتي وامكانياتي الشخصية .

فقال بيير بابتسامة مغتصبة :

— آه ! نعم . ساكون شاكراً لك صنيعك ... من اين اتيت ؟

استأنف العجوز الكلام :

— مع ذلك ، اذا كنت تجد لسبب او لآخر ان حديثي يزعجك او يضايقك ، فارجو ان تنبئني بذلك ياسيدي العزيز .

كان لهذا الرجل وجهاً عابساً بل وجامداً وصارماً . مع ذلك فان وجهه واجاثه كانت تفرض جاذبية لاتقاوم على بيير . ولما انتهى من جملته الاخيرة ، بتسم فجأة ابتسامة ابوية حانية ما كانت تُنتظر منه .

اجاب بيير وهو يفحص عن قرب خاتم صديقه الجديد .

— كلا البته . بل على العكس ، انني مفتون بالتعرف اليك .

ولما تأكد ان الخاتم يحمل جمجمة ميت ، وهي رمز الماسونية قال له :

— اسمح لي بسؤال . هل انت ماسوني .

فقال المسافر وقد ازدادت نظرته غوصاً في اعماق نظرة بيير :

— نعم ، انني منتسب لجمعية الماسونية . وانني باسمي واسم اخواني امدلك يدي الاخوية .

اجابه بيير باسماً ، تتجاذبه عوامل الثقة التي توحيها اليه شخصية ذلك العجوز ، وميله الى الهزء من المعتقدات الماسونية :

– اخشى كثيراً ، اخشى كثيراً ان لا استطيع ... كيف اعبر لك ؟... اخشى ان تكون نظرتي الى العالم ومعتقداتي بعيدة جداً عن معتقداتك حتى ليتعذر التفاهم بيننا .

استأنف الماسوني حديثه :

– انني اعرف افكارك . انها ليست خصوصية نابتة من اعماق نفسك . انها الثمرة العامة للكبرياء والجهل وكسل الذهن . ان السواد الاعظم من الناس يؤمنون بها . اعذرني ياسيدي العزيز ، ولكن لو انني ما كنت اعرف اسلوبك في التفكير لما عقدت معك هذا الحديث . ان آراءك ليست الا خطيئة محزنة .

اعترض بيير بابتسامة واهنة وقال :

– انني استطيع وصف معتقداتك بمثل هذا الوصف .

قال الماسوني الذي اخذت لهجته الحازمة الواضحة تدهش بيير وخوف اكثر فاكثر :

– لن اجرء ابداً على الادعاء بانني حاصل على الحقيقة . ان احداً من المخلوقات لا يستطيع باضوائه الخاصة ان يبلغ الى الحقيقة . ان المعبد الذي سيكون المقام الجدير بالله الكبير ، لم يبن الا حجراً حجراً ، بالتعاون بين «الكل» وبفضل ملايين الاجيال التي تعاقبت منذ سلفنا آدم الى اليوم .

واغمض العجوز عينيه . فقال بيير وكأنه يخضع اسفاً ، لدافع عدم اخفاء شيء ، الذي نبت في نفسه :

– انني مضطر للاعتراف لك بانني ... انني لا أؤمن ... بالله .

تأمله الماسوني باسماً ابتسامة رجل غني يملك الملايين ، جاءه صعلوك فقير يشكو له عجزه عن ايجاد الروبلات الخمسة التي فيها كل سعادته . قال :

ـ ان هذا صحيح ياسيدي . انك لاتعرفه ولاتستطيع ان تعرفه . ولأنك لاتعرفه تشعر بالتعاسة .

قال بيير :

ـ الحق انني تعيس . ولكن ماذا استطيع ان اعمل ؟

قال الماسوني بصوت قاس ولكن مرتعد :

ـ انك لاتعرفه ياسيدي العزيز . ولهذا السبب انت تعيس . انك لاتعرفه وهو هنا . انه فيّ ، في كلماتي . بل انه فيك انت (وهنا استعمل صيغة المفرد واستمر يستعملها حتى نهاية الحديث) بل وهو في تلك الجمل الدنسة التي نطقت بها منذ حين !

صمت الماسوني واطلق زفرة ، ولعله كان يحاول استرداد هدوئه . استأنف بلهجة اقل عنفاً من الاولى :

ـ لو انه لم يكن موجوداً ياسيدي لما كان في هذه اللحظة موضوع جدلنا وبحثنا . عمّ وعمن نتحدث الآن ؟ ... من هو الذي انكرته ؟ ...

وصاح فجأه بتلك اللهجة الجليلة الآمرة :

ـ من الذي اخترعه لو انه لم يكن موجوداً ؟ من اين جاءتك فكرة وجود كائن لايمكن فهمه وادراكه وتصوره ؟ من اين اتى العالم كله وانت نفسك بفكرة كائن شديد القوة ازلي وغير محدود في كل صفاته ؟ ...

توقف وصمت فترة طويله . فلم يستطع بيير ولم يرد كذلك ان يخرق حجاب ذلك الصمت .

استأنف الماسوني حديثه وعيناه تنظران امامه بدلاً من التحديق في وجه بيير ، بينما كانت يداه المعقدتان تتصفحان كتابه بتأثير اضطرابه الداخلي وانفعاله:

ـ انه موجود ولكنهم لايفهمونه بسهولة . لو ان الامر كان مقتصراً على رجل تشك في وجوده ، لأتيت به اليك ولأمسكت بيده وعرضته على ناظريك.

ولكن كيف استطيع وانا الداني الحقير ، ان أريَ جلالته جلّ وعلا، وازليته ورحمته التي لاحدود لها ، للذي هو أعمى او مغلق عينيه كيلا يرى بهاولا يفهمه، للذي لايرى ولايفهم شناعته وبشاعة الشخصية وفساد اخلاقه ؟ ...

وصمت برهة وتحرك في جلسته واردف بابتسامة ساخرة :

ـ من انت اذن ؟ نعم ، من انت ؟ انك تعتقد انك حكيم لانك قادرعلى النطق بهذه الكلمات الدنسة . لكنك في الحقيقة لست الا اكثرحمقاً واكثرسخفاً من الطفل الصغير الذي بعد ان لعب فترة طويلا باجزاء ساعة متقنة الصنع ،يجرأ على القول انه ، طالما لم يفهم الغاية من هذه الساعة ، فانه لايؤمن كذلك بالصانع البارع الذي صنعها . نعم ، ان من الصعب معرفته . لقد عملنا منذ قرون ، منذ سلفنا ادم حتى اليوم ، في تلك المعرفة ، ولازلنا حتى الآن بعيدين جداًعن بلوغ غايتنا . لكن هذا العجز ان دلّ على شيء فانما يدل على ضعفناازاءعظمته.

راح بيير يحدق في وجه الماسوني بعينيه اللامعتين وقلبه يكاد يكف عن الخفقان . كان يصغي الى توكيدات هذا المجهول دون ان يقاطعه او ان يطرح عليه سؤالاً . وكان يؤمن ولاريب في اقواله . ترى هل يستسلم للمنطق الذي في نقاشه ؟ هل يدع نفسه يُقاد كالطفل بحرارة اقوال هذا الرجل والانفعال الذي كان يخالط صوته فيجعله يرتعد حيناً ويتقطع احيانا ؟ هل يخضع لسحر تلك النظرة التي يلتمع فيها نور ايمان مخلص ؟ هل كان ذلك الاشراق وتلك الثقة الحوارية [1] تنكده بالقدر الذي كانت تتناقص تماماً مع كآبته الشخصية وفساده الخلقي؟مهما كان الامر ، فانه كان راغباً في الايمان بتلك الاقوال ،مؤمناً بها،يشعرباحساس منشط مجدد يخفف من حدة آلامه ويعيده الى الحياة .

وانهى الماسوني كلامه قائلا :

ـ ان الذكاء لايمكن ان يدركه ، لكن الحياة وحدها هي التي تقود اليه !

شعر بيير بقلق ، بقيام شك في نفسه . ترى هل يجعله ضعف حجج محدثة

---

(١) نسبة للحواريين اصحاب السيد المسيح

وغموضها يتنكر للايمان بمزاعمه ؟ ذلك ما كان يخشاه .

قال معترضاً :

ـ لست افهم كيف لايستطيع الفكر البشري الوصول الى تلك المعرفة التي تتحدث عنها .

فابتسم العجوز ابتسامته الأبوية الطيبة وقال :

ـ ان الحكمة ، الحقيقة العارية ، تشبه سائلا شديد النقاء والصفاء نريد ارتشافه. فهل استطيع الحكم على نقائه اذا صببته في وعاء قذر متسخ ؟ انني لن استطيع ان اجعل ذلك السائل الثمين يبلغ مرحلة معينة من النقاء الا اذا عمدت الى دخيلة نفسي فانقيتها .

هتف بيير متشجعاً :

ـ نعم ، نعم ، هو كذلك !

ـ فالحكمة المطلقة اذن لاترتكز على العقل وحده ولا على العلوم المنافية للمناقبية الدينية ، كالفيزياء والكيمياء والتاريخ وفروع المعرفة البشرية الاخرى. ان الحكمة البشرية « واحدة » ، اما الحكمة المطلقة فان لها علماً واحداً وهو علم «الكل» . انه العلم الذي يفسر كل الخليقة والمكان الذي يحتله الانسان فيها. ولكي يفسح الانسان المجال لهذا العلم في نفسه ، لابد له من ان يطهر تلك النفس وان يجدد وجوده الداخلي . اي ان عليه قبل ان يعرف ، ان يؤمن ويكمل. ومن اجل مساعدتنا على بلوغ هذه الاهداف ، وُضعت في نفوسنا تلك الشعلة الالهية المسماة بالضمير .

فقال بيير مؤيداً :

ـ نعم ، نعم .

ـ تأمل شخصك الباطن بعيني روحك وتساءل : هل انت مسرور من نفسك حقاً ؟ الى اين بلغت بمساعدة الفكر البشري وحده ؟ ... انك شاب وغني

وذكي ومثقف . فماذا عملت ياسيدي بكل هذه الملكات التي وزعت عليك؟ه
انت راض عن نفسك وعن طريقتك في الحياة ؟

فقال بيير مكتئباً يعترف بواقعه :

– كلا ، انني امقت حياتي .

– اذا كنت تمقتها ، فابدلها ، واستفد منها . وكلما ازددت تطهيراً لنفسك ، اشتد قربك من الحكمة . الق نظرة على حياتك ياسيدي . ماذافعلت حتى اليوم؟ سلسلة من الفسق والافراط في المنكر . لقد نلت كل شيء من المجتمع لكنك لم تعط المجتمع شيئاً . لقد جاءت الثروة اليك ، فكيف تصرفت بها ؟ ماذاعملت لآخرتك ؟ هل فكرت في عشرات الالوف من عبيدك[1]؟هل قدمت لهم مساعدة جسدية او فكرية ؟ كلا . لقد افدت من كدحهم وعملهم ،لتحيا حياة كلهافوضى. هذا ماعملته . هل بحثت عن بعض الاعمال التي تسمح لك بان تكون نافعاً لآخرتك؟ كلا . لقد امضيت عمرك في عطالة وبطالة . ثم تزوجت ياسيدي، فوجبت عليك مسؤولية كبري ، وهي توجيه امرأة شابة خلقياً . ولكن ماذا عملت ؟ لقد غمستها في اعماق جحيم الكذب والتعاسة بدلاً من ان تسدد خطاها في طريق الحقيقة . وأهانك رجل فقتلته . وها انك تقول لي انك لا تعرف الله وأنك تكره وجودك . ليس في ذلك مايدهش ياسيدي العزيز .

ولما بلغ الماسوني هذا الحد ، اسند رأسه مرة اخرى الى مسند الاريكة من التعب ولاريب ، واغمض عينيه . راح بيير يتأمل ذلك الوجه الصارم الجامد الشبيه

---

(١) كلمة serfs ،تعنى المماليك . لقد درجت العادة في عصور الاقطاع القديمة على ان يشتري السيد الارض ومن يعملون فيها ويتحكم في مصائر هؤلاء دون ان يحق لهم الاعتراض حتى اذا باع الارض ، باع اولئك المماليك وافراد اسرهم معها . ومن هنا كانت ثروة الاقطاعي لاتقاس فقط باطيانه وعقاراته بل وبالعاملين فيها ايضاً .

بوجوه المومياء . حرك شفتيه لتنطقا بجملة : « نعم ، لقد عشت حياة بشعة مليئة بالفسق والعطالة » . لكنه لم يجرأ على تبديد الصمت الشامل .

سعل الماسوني سعالاً خشناً ينفرد به الشيوخ واستدعى خادمه :

ـ اذن ، ماذا جرى للخيول ؟

ـ انهم على وشك اعدادها من اجلك . ولكن الا تأخذ قسطاً من الراحة؟

ـ كلا ، اقطر الخيول الى العربة .

راح بيير يتساءل : « هل سيمضي دون ان يحدثني بكل ماكان يريد أن يقوله لي ، ودون ان يعدني بمساعدته وعونه » ؟ كان في تلك اللحظة يذرع ارض الحجرة مبلبل الخاطر ، ويختلس بين الحين والحين نظرات وجلة الى وجه الماسوني . « نعم ، انني لم افكر في هذا من قبل ابداً . لقد امضيت حياة مشوشة حقيرة كريهة ، لكنها كانت ضد رغبتي . نعم ، لقد كنت امقتها حقاً ... ان هذا الرجل يعرف الحقيقة ، وهو يستطيع اطلاعي عليها لو انه وافق على ذلك » .

كان بيير يود من صميم قلبه ان يعترف بهذه الافكار امام المسافر العجوز ، لكن الشجاعة خانته . وفي تلك الاثناء ، كان العجوز يزر فروته بعد ان نظم ادوات الشاي بيديه النحيلتين الخبيرتين . ولما انتهى من عمله ، استدار نحو بيزوخوف وقال له بلهجة مهذبة غير رفيعة :

ـ الى اين تفكر في الذهاب ياسيدي ؟

فأجاب بيير بصوت طفل غير واثق من نفسه :

ـ انا ؟ ... الى بيترسبورج . انني ممتن لك كل الامتنان . انني موافق على ارائك بكل قوتي . ولكن لاتعتقد انني على كل هذا الفساد في الاخلاق . انني اتعطش من كل روحي الى بلوغ الدرجة التي تريدني على بلوغها . لكن احداً لم يأخذ بيدي من قبل ولم يساعدني ... الامر الذي ـ على كل حال ـ لايخفف من بشاعة سلوكي شيئاً . ساعدني اذن ، وثقفني ولعلني عندئذ ...

خنق الانفعال صوته فلم يستطع الاسترسال في الحديث ،فاستدارساخطا.
بدا على الماسوني انه يفكر . واخيراً قال بعد فترة صمت طويلة :
ـ ان العون لا يأتي الا من عند الله . لكن جمعيتنا تستطيع مساعدتك ضمن نطاق امكانياتها . ولما كنت ذاهباً الى بيتر سبورج ، ارجو ان تسلم هذه الى الكونت فيلاّرسكي .
واخرج من حافظته ورقة كبيرة طواها اربعاً بعد ان كتب عليها بضع كلمات ، واعطاها له وقال متمماً :
ـ اسمح لي بان اعطيك نصيحة . حالما تصل الى العاصمة، كرس الايام الاولى من وصولك للوحدة ، فافحص ضميرك ولاترجع الى اسلوبك القديم في الحياة .
ولما رأى خادمه داخلا قال مختتماً كلامه :
ـ والآن ياسيدي ، اتمنى لك سفراً طيباً ... وحظاً سعيداً ...
ولما تصفح بيير سجل مدير المركز ، علم ان ذلك المسافر لم يكن الا اوسيّب الكسيئيفيتش بازدييف . وكان هذا منذ زمن نوفيكوف[1] واحداً من اكثر المتحمسين لشيعة القديس مارتن والماسونية . ظل بيير زمناً طويلا بعد ذهاب المسافر ، يذرع الغرفة جيئة وذهاباً دون ان يفكر في الايواء الى سريره او في طلب خيول لعربته . كان يتمثل الحياة الفاسدة التي عاشها حتى ذلك اليوم ،ويتصور، بحماس المؤمن حديث الايمان ، المستقبل الجميل الذي ينتظره ، مستقبلا مليئاً بالفضيلة والسعادة كان يقدر أن تحقيقه على جانب من اليسر والسهولة،وان فساد اخلاقه من قبل لم يكن الا نتيجة لصدفة منكدة مزعجة . لقد عمي من قبل عن رؤية جمال الفضيلة . اما الآن ، فقد تبددت شكوكه كلها ، واصبح مؤمناً بان رجالاً متحدين فيما بينهم ، يستطيعون التعاون للبحث على الفضيلة،وان الماسونيين كانوا بلا ريب كذلك !

---

(١) نيكولا ايفانو فيتش نوفيكوف ، كاتب خصيب ، اصدر مجلات عديدة واصبح في النصف الثاني من القرن الثامن عشر واحداً من اشد المتحمسين لنشر الفكرة الماسونية في روسيا. وكانت تعاليم الماسونية آنذاك الروحية والخلقية تعارض بشدة الالحاد الذي كان الفلاسفة الفرنسيون يدعون اليه . ولد عام ١٧٤٤ وتوفي عام ١٨١٨ .

الفصل الثالث

الكونت فيلارسكي

لم يخطر بيير أحداً بوصوله الى بيترسبورج ، بل امضى أيامه الاولى يقرأ كتاب « القدوة » الذي اوقعته في يده يد مجهولة ، وقد اضفت عليه تلك القراءة متعة لم يكن يعرفها من قبل : وهي الايمان بامكانية البلوغ الى الكمال وتحقيق الحب الأخوي في هذا العالم السفلي ، ذلك الحب الاخوي الفعال الذي انبأه به اوسيب الكسيئيفيتش .

وبعد وصوله بثمانية أيام ، دخل الكونت البولوني فيلاّروسكي ، الذي كان بيير قد صادفه في المجتمعات البيترسبورجية من قبل ذات مساء الى مكتب بيير وعلى وجهه ذلك الطابع الخطير الرسمي الذي اتسم به ، شاهد دولوخوف عندما تقدم اليه . وبعد ان اغلق الباب وراءه ، وتأكد من خلو المكتب الا منهما ، قال لبيير دون ان يجلس :

— انني مكلف بمهمة لديك يا كونت . لقد تدخلت شخصية رفيعة المقام في جماعتنا ، لتجعل قبولك بيننا قبل المدة المحددة عادة مقبولاً وممكناً . ولقد كلفت من قبلها ان اكون كفيلك في هذه الخطوة . وانني اعتبر الامتثال لرغبات تلك الشخصية الرفيعة بمثابة واجب مقدس . فهل ترغب في الانخراط في جماعة الماسونيين على مسؤوليتي وعهدتي ؟

دهش بيير للّهجة الباردة الحازمة التي يتحدث بها هذاالرجل الذي لم يره مرة الا والابتسامة مشرقة على وجهه في المجتمعات ، لطيفاً ، مقرباً الى المع النساء واشدهن فتنة .

قال يجيبه :

– نعم ، انها رغبتي .

هز فيلاّرسكي رأسه مؤيداً وقال :

– هناك سؤال أخير يا كونت ، أرجو ان تجيبني عليه بكل اخلاص وأمانة ، لا بوصفك ماسونياً مقبلاً بل بوصفك شاباً اميناً نبيلاً : هل تنكرت لأفكارك القديمة وبت تؤمن بالله ؟

فكر بيير برهة وقال :

– نعم ... نعم انني اؤمن بالله .

قال فيلاّروسكي :

– في هذه الحالة ...

لكن بيير قاطعه مكرراً :

– نعم ، انني أؤمن بالله .

فقال فيلاّروسكي متمماً :

– في هذه الحالة ، يمكننا الذهاب . ان عربتي بالباب وهي في خدمتك .

لبث فيلاّروسكي صامتاً طيلة الطريق . كان يجيب على اسئلة بيير حول ما يجب عليه ان يعمل ويقول ، ان اخوة ارفع مقاماً منه وأكبر منه شأناً سيختبرونه وان عليه ان يصدقهم القول .

وبعد ان ترجلا من العربة تحت رواق البناء الذي يحتله المحفل ، صعدا سلماً معتماً ودخلا الى ردهة صغيرة مضيئة وهناك نزعا فروتيهما دون مساعدة الخدم . ولما دخلا الى الغرفة التالية ، جاء رجل يرتدي زياً غريباً ، دخل عليهما من الباب

الآخر ، فمضى فيلارسكي الى لقائه وخاطبه بالفرنسية بصوت منخفض ثم اقترب من خزانة شاهد بيير فيها ألبسة لم ير مثلها في حياته . أخذ فيلارسكي منديلاً من الخزانة عصب به عيني بيير وربط عقدته وراء رأسه ضاماً بذلك دون عمد خصلة من شعر رأسه . ولما انتهى من عمله ، جذبه الية وقبله ثم مضى به ممسكاً بيده . وكانت خصلة الشعر الملفوفة مع عقدة المنديل تؤلمه ، فكان يقلص وجهه من الألم ويبسم مع ذلك ابتسامـــة المستحي . كان ذلك العملاق ذو الذراعين المباعدين والوجه المتقلص الباسم ، يتبع فيلارسكي بمشية مضطربة مترددة .

ولما قطع بضع خطوات توقف فيلارسكي وقال له :

– مهما اصابك ، ينبغي ان تحتمل بشجاعة وجلد اذا كنت مصمماً بعزم على الدخول في محفلنا واخوتنا .

فهز بيير رأسه ايجاباً . بينما اردف فيلارسكي :

– عندما تسمع قرعاً على الباب ، يمكنك نزع العصابة عن عينيك . اتمنى لك شجاعة طيبة وحظاً طيباً :

وانسحب بعد ان ضغط على يده مصافحاً .

لبث بيير يبسم بعد ان اصبح وحيداً . لقدرفع يده مرتين او ثلاث مرات محاولاً نزع العصابة وهو يهز كتفيه ، لكنه في كل مرة كان يسدل يده قبل ان تصل الى المنديل . كانت عيناه معصوبتين منذ خمس دقائق فقط . مع ذلك فقد خيل اليه ان تلك الدقائق الخمس كانت ساعـة كاملة . شعر بيديه تتخدران وبساقيه تنحطان تحت ثقل جسده ، واحس بموجـــة من الوهن تستولي عليه وتضنكه . وكان اشد ما يخافه هو ان يخفق في اخفاء خوفه . كانت معرفـة ما سيعملون به وما سيطلعونه عليه تثير في نفسه فضولاً قوياً . وكان جذله يتزايد كلما شعر ان اللحظة التي ستمهد له السير على طريق التجدد والنشاط الفاضل الذي كان يحلم به منذ لقاءة مع اوسيب الكسيئيفيتش باتت قريبة وشيكة .

تجاوبت طرقات عنيفة على الباب فنزع بيير العصابة عن عينيه وراح يجيلها حوله . استطاع خلال الظلام الدامس الذي كان يغمر المكان ، ان يميز قنديلاً مشغلاً في شيء ابيض . فلما اقترب منه ، رآى القنديل موضوعاً على مائدة سوداء امام كتاب كبير مفتوح . كان ذلك الكتاب نسخة من الانجيل و كان الشيء الابيض جمجمة ميت . قرأ الكلمات التالية : « في البداية كان الفعل ، والفعل كان في الله . » وعلى مقربة من المائدة ، شاهد صندوقاً مثبتة مغطاة ، يبدو عليها انها ممتلئة ، عرف فيها نعشاً تملأه عظام بشرية . لكن ذلك كله لم يذهله ولم يدهشه . كان يتوقع اشياء خارقه ، اكثر غرابة من التي رآها حتى تلك اللحظة ، و كان توقعه هذا ، راجع الى رغبته العميقة في تدشين حياة جديدة مختلفة تماماً عن حياته السابقة . اما الجمجمة و الانجيل والنعش ، فقد كان يؤمن انه متوقع كل هذه الاشياء و كثيراً غيرها ايضاً . ولكي يثير في نفسه حميـــة العبادة والتمجيد ، اخذ يلفظ في سره : « الله ، موت ، حب ، اخوة » التي كان يرى فيها مرئيات غامضة مطمئنة تنبعث منها ، في تلك اللحظة ، فتح الباب ودخل بعضهم .

شاهد بيير الذي اعتادت عيناه الظلام ، رجلاً قصير القامة يقف متردداً لحظة لدخوله من الضوء الى الظلام ، ثم يمشي بخطوات متحرزة ، فيضع فوقها يـديه المغيبتين في قفازين من الجلد . كانت صدارة من الجلد الابيض تغطي صدره وجزءاً من ساقيه ، و كان يطوق عنقه بشيء يشبه القلادة ، وتبرز من ذلك الشيء مشغلة بيضاء تؤطر وجهه المتطاول المضاء من الاسفل .

التفت ذلك الرجل نحو الاتجاه الذي كانت تصدر عنـه حركة خفيفة تدل على وجود بيير وسأله :

– لماذا جئت الى هنا ؟ لماذا جئت الى هنا ، يامن لاتؤمن بالنور الحقيقي ولا ترى ذلك النور ؟ ماذا تريد منا : هو الحكمة والفضيلة والعلم ؟

منذ اللحظة التي فُتح فيها الباب ليسمح لذلك الغريب بالدخول ، شعر بيير

باحترام قلق يشبه ذلك الذي كان يسيطر عليه في طفولته كلما مضى للاعتراف. لقد كان في تلك اللحظة وجهاً الى وجه مع رجل لم يكن شيئاً مذكوراً بالنسبة اليه في الحياة العامة ، ولكن الاخاء البشري جعله شديد القرب منه في تلك اللحظة . كان قلبه يكاد يقفز من صدره او يتفجر فيه ،فاقترب من « الخطيب » - هذه هي التسمية التي تطلق في المحافل الماسونية على الاخ المكلف بتثقيف المبتدىء - ولما صار في دائرة الرؤية ، عرف فيه المدعو سموليانينوف ، وهو أحد معارفه . لكنه طرد ذلك الخاطر وكأنه خاطر مزعج : ان هذا الرجل لايجب ان يكون له أخ ومدرس فاضل . ظل فترة طويلة لايجد ما يرد به على سؤاله حتى ان الخطيب اضطر الى تكرار السؤال . واخيراً تمتم بيير :

فقال سموليانينوف مستأنفاً كلامه بلهجة حازمة وسريعة :

- حسناً . هل تعرف لمحات عن الاساليب التي تملكها جماعتنا المقدسة والتي تكفل لك الوصول الى غايتك ؟

فأجاب بيير بصوت منفعل متداع مرتعد :

- انني اتوقع ... ان ... أوجه ... وأغاث .

لم يكن يألف التعبير عن افكاره باللغة الروسية ، خصوصاً اذا كانت افكار مجازية . لذلك فانه ما كان يجد الكلمات الموافقة الملائمة .

- أية فكرة كونت لنفسك عن الماسونية ؟

أجاب بيير وهو شديد الخجل لاستعماله كلمات لاتتفق تماماً مع عظمة الموقف وجلاله :

- انني ارى فيها جمعية اخوية تؤمن بالمساواة في سبيل اهداف نبيلة فاضلة ، انني ارى فيها ...

بادر الخطيب يقول وقد اعجبه الرد كما يبدو :

- حسناً هل فتشت في الدين عن وسائل تبلغك الى هذه الغايات ؟

- كلا . لقد كنت اعتبر الدين خدعة وغشاً فلم ألاحظ تعاليمه واحكامه .
نطق بيير بهـذه العبارة بصوت منخفض . حتى ان الخطيب اضطر الى مطالبته برفع صوته . فقال مفسراً :
- لقد كنت ملحداً .
صمت الخطيب لحظة . ثم استأنف قائلاً :
- انك تبحث عن الحقيقة لتخضع حياتك لتعاليمها ، وبالتالى ، فانك تبحث عن الحكمة والفضيلة أليس كذلك ؟
فقال بيير مؤكداً :
- بلى . بلى .
عقد الخطيب يديه المقفزتين على صدره وبعد ان سعل سعالا خفيفاً ، قال :
- ينبغى ان اكشف لك الآن عن الخطة الهائلة التي يتبعها محفلنا ، فاذا وجدتها متفقة مع اهدافك ومراميك ، فانك ستجد فائدة في مساهمتك معنا في اخوتنا . ان غايه جماعتنا الاولى ، اي القاعدة التي ترتكز عليها والتي لايمكن لقوة بشرية ان تزعزها ، هي المحافظة على سر معين شديد الخطورة ورفعه وابلاغه الاجيال الصاعدة ... لقد وصل الينا هذا السر الخطير منذ اكثر القرون تأخراً بل منذ خليقةالانسان الاول ، ويتوقف عليه تقريباً مصير الجنس البشري كله ولما كان هذا السر من نوع خاص يجعل من المستحيل على أي كان ان يفيد منه الا اذا هيأ نفسه طيـلة فترة طويلة من التطهير النفسي ، لذلك فان عدداً قليلا جداً من الاشخاص ، يستطيعون الاطلاع عليه للوهلة الاولى . ولهـذا السبب فان مهمتنا الثانية تنحصر في اعداد اخواننا وتنقية قلوبهم وتطهير عقولهم وتنويرها بالطرق التي نقلها الينا الرجال الذين جهدوا في البحث عن هذا السر ، حتى نجعلهم صالحين وقادرين على الاطلاع عليه وفي المرحلة الثالثة ، فاننا نسعى بكل قوانا لاصلاح الجنس البشري كله ، بتطهيرنا وتهيئتنا تلامذتنا والمتشيعين

لنا ، حتى نقدمهم له كأمثلة من التقوى والورع والفضيلة . وبهذه الطريقة ، نستعمل كل نشاطنا لمحاربة الاثم والشر اللذين يسيطران على هذا العالم ...فكر في هذا وسأعود بعد قليل .

وانسحب الخطيب فور انتهائه من هذا الكلام .

كرر بيير قوله : « محاربة الاثم والشر اللذين يسيطران على هذا العالم ... » وهو يهيء نشاطه المقبل للسير في هذا المضمار . راح يتمثل نفسه حيال اشخاص يشبهون ما كان عليه منذ خمسة عشر يوماً ، وهو يوجه اليهم فكريا موعظة مقنعة وانه يساعد الفاسدين المتفسخين باقواله وافعاله ، ويسعف المساكين البؤساء وينقذ ضحايا المعتدين والطغاة . كان يقدر المبدأ الثالث من المبادىء التي سردها عليه الخطيب وهو : تهذيب الجنس البشري . صحيح ان السر الخطير الذي تحدث عنه ذلك الرجل ، أثار فضول بيير ، لكنه لم يبد له شديد الاهمية . اما الهدف الثاني ، التطهير الشخصي ، فانه كان قليل الالتفات اليـه لانه كان يشعر في اعماق نفسه بانه قد أصلح من نفسه تماماً وان اخطاءه السابقة لم تعد الا ذكريات باهتة وان عنايته قد صرفت الآن نحو الخير ، ولا شيء سواه .

لم تنقض نصف ساعة حتى عاد الخطيب لينبىء الخطيب التلميذ بالفضـائل السبع التي تقابل درجات معبد سليمان السبع ، والتي يجب على كل ماسوني ان ينميها في نفسه . وهـــذه الفضائل هي : ـ ١ السرية التي تحفظ اسرار الجماعة ، ٢ ـ الطاعة لذوي المناصب الرفيعة ، ـ ٣ الخصال والعادات الرفيعة ، ٤ـ حب الانسانية ، ٥ ـ الشجاعة ، ٦ ـ الكرم ، ٧ ـ حب الموت .

ولما انسحب الخطيب من جديد تاركاً بيير لافكاره الخاصة ، فكر هـذا في سره : « نعم ، ينبغي ان يكون الامر كذلك ، ينبغي ان يكون الامر كذلك . لكنني مازلت من الضعف لدرجة انني أحب الحياة التي بدأت الآن اتعمق في فهم اتجاهها وجوهرها . » اما الفضائل الخمس الاخرى التي راح بيير

يراجعها وهو يعدها على اصابعه ، فانه كان يشعر انها موجودة فعلا في نفسه : فالشجاعة والكرم والعادات الطيبة وحب الانسانية وبصورة خاصة الطاعة التي كانت تبدو له سعادة اكثر من كونها فضيلة ، كانت متجمعة في نفسه . لقد كان يشعر ان الطاعةسعادة اكثر منها فضيلة لشدة رغبته في التخلص من حكمه الخاص واسلام ارادته او لأولئك الذين يملكون الحقيقة المطلقة التي لا يمكن دحضها . اما الفضيلة السابعة ، فقد نسيها بيير ، فلم يكن يتوصل الى تذكرها .

عاد الخطيب الى الظهور بعد غياب اقصر من الاول . سأل بيير عما اذا كان لايزال مصمما على قراره ومقرراً بملء رغبتـه ان يخضع لكل مايطلبونه منه . فقال :

ـ انني مستعد لكل شيء .

اردف الخطيب قائلا :

ـ ينبغي ان اخطرك كذلك بان جماعتنا يعلمون مبادئهم ليس بالاقوال فحسب بل بوسائل اخرى ايضاً تفرض على ذلك الذي يبحث عن الحكمة باخلاص وعن الفضيلة . ولعل تلك الوسائل اشد تأثيراً من التعليمات الشفهية . ان مايزين هذه الغرفة ، ينبغي ان يؤثر في قلبك ـ اذا كان مخلصاً ـ اكثر من تأثير أي خطاب . ولعلك سترى ، كلما ازددت تعمقاً في العلم وسائل للتثقيف مماثلة لهـــذه . ان جماعتنا تحاكي في هذا ، المجتمعات العريقة القديمه التي كانت تنشر تعاليمها بواسطة الالغاز ، كما كانت عليه الكتابة الهيروغلوفية .

توقف برهة ثم اردف متمتما :

ـ ان الهيروغلوفية هي رمز شيء لايقع في مدى الحواس ولكنه مع ذلك يملك صفات تشبه تلك التي يمثلها .

كان بيير يعرف تماماً مامعنى « كلمة » هيروغليف ، لكنه لم يجرأ على الافصاح عن رأيه . كان يصغي بصمت شاعراً ان الاختبارات على وشك الوقوع .

استأنف الخطيب كلامه وهو يقترب منه قائلا .

– اذا كنت مصمماتصميما حازماً ، فأن واجبي يجبرني على البدء في اشراكك في جماعتنا . والآن ، ارجو ان تعطيني كل ماتملكه من اشياء ثمينة للدلالة على كرمك .

فقال بيير معترضاً معتقداً انهم يطلبون منه تقديم كل مايملك من مال وعقار: لكنني لم احمل معي شيئاً ...

– ماهو موجود معك هنا : ساعة ، نقد ، خواتم ...

بادر بيير الى اخراج كيس نقوده وساعته واستغرق وقتاً طويلا في سحب خاتم زواجه من اصبعه الضخم . فلما قدم هذه الاشياء قال له الماسوني :

– والآن ارجوا ان تخلع ثيابك للدلالة على طاعتك .

نزع بيير ثوبه وصدارته وحذائه الايسر بناء على اشارة الخطيب . وكشف له الماسوني القميص عن الجانب الايسر من صدره ، وانحنى فحسر كُم سرواله الايسر حتى فوق الركبة . اراد بيير ان يخلع حذاءه الايمن حتى يوفر العناء على هذا الرجل الذي لم يكن بالنسبه اليه شيئاً مذكوراً . لكن الماسوني اكد له ان ذلك غير ضروري وقدم له خفاً منزلياً لينتعله في قدمه اليسرى. ارتسمت على وجه بيير ابتسامة صبيانية ، مزيج من الخجل والسخرية. ظل واقفاً وذراعاه وساقاه مباعدة قبالة الخطيب ينتظر اوامر جديدة . قال هذا اخيراً :

– والآن ، للدلالة على اخلاصك ، ارجو ان تعترف لي بالضعف الرئيسي الموجود فيك .

قال بيير :

– نقاط ضعفي ! ان عندي كثيراً منها !

– النقطة التي جعلتك تتعثر على طريق الفضيلة اكثر من سواها .

راح بيير يفكر ويزين بميزان عقله كل اثم من آثامه وميل ومفسدة في نفسه:

« الخمر ؟ رخاءالعيش ؟ البطالة ؟ الكسل ؟ الغضب ؟ الخبث ؟ النساء ؟ » ما كان يعرف اي عيب من هذه العيوب يقدم . واخيراً قال بصوت لايكاد يسمع :

— النساء !

ظل الماسوني فتره طويلةصامتاً بعد هذا الجواب لايتحرك. واخيراً اقترب من بيير واخذ المنديل عن المائدة فعصب عينيه من جديد .

للمرة الاخيرة اقول لك : تعمق في نفسك ، كبل عواطفك ، وابحث عن السعادة في قلبك وليس في شهواتك . ان منبع السعادة الابدية ليست خارج نفوسنا ، بل في نفوسنا نفسها .....

شعر بيير سلفاً ان نبع السعادة الابدية ذاك اخـــذ يتفجر في قلبه ويغرقه بالحبور والحنو .



الفَصلُ الرابعُ

المحفل الماسوني

بعد قليل من الوقت ، جاء احدهم يقود بيير . لم يكن ذلك الشخص هو الخطيب نفسه ، بل فيلاّرسكي ، شبين بيير في هذا العماد . ولقد تعرف بيير على شخصه من صوته . كرر عليه السؤال حول عزمه الأكيد وتصميمه واستعداده فاجاب بيير : « نعم ، نعم ، انني مصمم وموافق . » وارتسمت على جهه ابتسامة الطفل المشعة ، وراح يمشي وصدره الضخم مكشوف ، وخطواته متعثرة مرتبكة ، وفي احد قدميه حذاؤه وفي الآخر الخف . اخذ بيير يسير وأمامه فيلاّرسكي وبيده سيف مسدد الى صدره . اقتيد عبر المماشي المتعرجة حتى بلغ اخيراً باب المحفل . سعل فيلارسكي فاجيب بطرقات موقعة وفتح الباب . سأل احدهم بيير بصوت غليظ منخفض عن اسمه ومكان ولادته الخ ... ثم عاد الى السير يقوده دليله وعيناه لازالتا معصوبتين . كان بعضهم يحدثه خلال سيره بعبارات مجازية رمزية عن صعوبات رحلته والصداقة المقدسة ومهندس الكون الازلي ، وعن الشجاعة التي يجب عليه احتمال الوصب والمتاعب بها والاخطار . ولاحظ بيـــير انهم كانوا يسمونه تارة بـ : « الذي يبحث » واخرى بـ : « الذي يتألم » وثالثة بـ « الذي يسأل » وانهم يقرعون في كل مرة السيوف والمياقع قرعاً خاصاً . وبينما كانوا

يقودونه نحو شيء معين ، لاحظ ترددا على مرافقيه الذين راحوا يتباحثون بصوت منخفض . وسمع احدهم يلح على ان يمر التلميذ فوق بساط ما . واخيراً امسكوا بيمناه ووضعوها على شيء ما ، ووضعوا في يسراه فرجاراً ورجوه ان يضغط به على ثديه الأيسر . ثم طلبوا اليه ان يكرر قسم الاخـــلاص للمحفل والجماعة طيلة تلاوتهم لذلك القسم . واخيراً اطفأوا الشموع واشعلوا كحولاً ، كما استنتج بيير من الرائحة التي انبعثت من احتراق الكحول واخطروه بأنه سيرى الآن النور الأصغر . ثم رفعوا العصابة عن عينيه فشاهد ـ وكأنه في حلم ـ على ضوء الشعلة الخافتة ، عدداً من الاشخاص واقفين قبالة مرتدين صدارات بيضاء تشبه صدارة الخطيب ، ومسددين الى صدره سيوفهم . وكان احـدهم يرتدي قميصاً مخضباً بالدم . فلما وقع بصر بيير على ذلك المشهد ، ارتمى على السيوف راغباً في ان تخرق صدره . لكن هذه ابعدت عنه وهرع بعضهم الى العصابة يحكم وضعها على عينيه .

قال له صوت :

ـ لقد رأيت الآن النور الأصغر .

ثم اشعلت الشموع مجدداً واخطروه بأنه سيرى بعد قليل النور الأكبر . ثم رفعوا العصابة غن عينيه وسمـــع اثني عشر صوتاً تردد معاً عبارة : Lic transit gloria mnndi (هكذا يمر مجد العالم) .

استعاد بيير رباطة جأشه تدريجياً وراح يفحص الغرفة والاشخاص الموجودين فيها . شاهد فيها اثني عشر رجلاً جالسين وراء مائـــدة مستطيلة مغطاة بقماش اسود ، يرتدون الالبسة التي شاهـــدها من قبل . عرف بعضهم ، لكنه لم يستطع معرفة الرئيس ، وهو شاب كان عنقه مزيناً بوسام خاص . وكان الى يمين الرئيس ، يجلس الاب الروحي الايطالي الذي شاهـده بيير في العام الماضي عند آنا بافلوفنا . وكذلك رآى موظفاً كبيراً في الدولة ومدرساً سويسرياً كان صديقاً حميماً لآل كوراجين . كانوا جميعهم صامتين صمتاً رهيباً ، يصغون الى

اقوال الذي كان ممسكاً بميقعة في يده . وعلى الجدار ، شاهد نجماً يتألق ، ورآى سجادة صغيره مزينة بصفات رمزية ممدة عند جانب المائدة . اما الجانب الآخر ، فكان مجاوراً لمذبح اقيم عليه انجيل وجمجمة بشرية . وكان في الغرفة سبعة « شمعدانات » كبيرة كالتي توضع في الكنائس ،مصفوفة بنظام في اركانها.
قاد اثنان من الاخوان « بيير »الى المذبح وطلبوا اليه الاستلقاء على الارض بعد ان باعدوا بين ساقيه على شكل مثلث ، وفسروا له هـذا العمل بأنه خضوع وخشوع امام ابواب المعبد .

قال احدهما بصوت منخفض :

– ينبغي ان ان يتلقى المسيعة أولاً .

فاجاب الآخر :

– كلا ، ان ذلك عديم الجدوى لا لزوم له .

لم يخضع بيير للأمر ، بل راح يجيل حوله نظراته الضعيفة التائهة . وفجأة برزت الشكوك في نفسه . « اين أنا ؟ ماذا اعمل ؟ الايسخرون مني ؟ ألن أشعر بالخجل مستقبلاً اذا تذكرت كل هذا ؟ » لكن تردده لم يدم لحظة واحدة . تأمل الوجوه الجدية التي تحيط به ، وفكر في كل ما عمله حتى تلك اللحظة ،وفهم ان من الصعب النكوص على عقبه بعد ان اجتاز هـذه المرحلة الطويلة . رفع شكوكه وابعدها برعب واستنكار ،مستعيداً اندفاعه وحماسته الاولى ،واستلقى امام المعبد . وشعر ان غيرته الدينية قد عادت اليه ، وهي اكثر اتقاداً من كل وقت مضى . ظل في استلقائه زمناً معيناً واخيراً رجوه ان ينهض ، وعندئذ قدموا اليه صدارة بيضاء مماثلة لصدارتهم واعطوه مسيعة وثلاث ازواج من القفازات ، ثم وجه اليه المعلم الكبير الكلام . طلب اليه ان لايلوث بياض هذه الصدارة بشيء لأنها رمز الحزم والطهر . اما المسيعة الغامضة فانها ستفيده في تنظيف قلبه من الادران والخبائث ، وفي تسوية قلب المجتمع دون خشونة . اما الزوج الاول من

القفازات فلن يُكشف له في الوقت الحاضر عن معناه. لكن عليه الاحتفاظ به. اما الثاني فعليه ان يضع يديه فيه في الاجتماعات . وكان الزوج الثالث من تلك القفازات، مصنوعاً للنساء على عكس الزوجين الاولين . قال له المعلم الكبير عنها : « ايها الاخ العزيز ، ان هـذه القفازات النسوية مخصصة لك كذلك . ستعطيها للمرأة التي ستشعر بالاحترام نحوها اكثر من الاخريات . سوف تبرهن بهديتك هذه على نقاء قلبك وصفائه لتلك التي ستنتخبها لتكون ماسونية جديرة باسمها .» وبعد فترة صمت اردف قائلا : ولكن حاذر يا أخي العزيز ، ان تزين هذه القفازات أيد غير نقية . » خيل لبيير خلال حديث المعلم الاكبر ، ان هذا ليس على غاية مايرام ، فازداد اضطرابه لهذه الفكرة واندفع الدم غزيراً الى وجهه فغدا شديد الاحمرار أشبه بوجوه الاطفال وراح يلقي حوله نظرات قلقة .

تبع ذلك سكوت مربك قطعه احد الاخوان بعد قليل . قاد ذلك الأخ « بيير » نحو السجادة وراح يقرأ عليه في دفتر هناك ، شروح تلك الرسوم الرمزية التي كانت عليهـــا : الشمس ، القمر ، الميقعة ، القادم ، المسيعة ، الحجر الخام والمكعب ، العمود ، النوافذ الثلاث الخ ... ثم عينوا له مكانا في الاجتماعات واشارات المحفل المصطلحة وكلمة السر واخيراً سمحو له بالجلوس . اخذ المعلم الاكبر يقرأ عليه النظام الذي كان شديد التطويل والذي لم يلق بيير اليه اذناً مستوعية لشدة ماكان متأثراً بالفرح والانفعال والارتباك . فلم يحفظ منه الا المقطع الاخير :

« في معابدنا ، لانعرف درجات اخري غير التي تفصل الخير عن الشر فاحذر القيام بخلافات تحطم المساواة . اهزع الى مساعدة اخيك دون تمييز وأعد الذي يتوه وانهض الذي يسقط ولا تغذ في نفسك أي شعور بالكراهية لأخيك أو الحقد عليه . أوقظ في كل القلوب شعلة الفضيلة واقتسم سعادتك مع المجتمع ولا تدع الحسد والرغبة يزعزعان هذه المتعة النقية الطاهرة اصفح عن عدوك ولا

تنتقم منه الا بعمل الخير له . انك اذا نفذت القانون الرفيع على هذا الشكل ، استعدت على آثار عظمتك القديمة الضائعه .»

ولما انتهت قراءة النظام ، نهض المعلم الاكبر وضم بيير وقبله . حار بيير في ايجاد التعابير الملائمة للجواب على التهاني وعبارات الود والصداقة التي ارتفعت من كل مكان حوله فراح يجيل حوله نظرات حائرة والدموع تترقرق في عينيه نسي اولئك الذين كان يعرفهم بين المجتمعين ، وراح ينظر اليهم جميعاً نظرته الى اخوان له ، كان يتحرق شوقاً الى العمل متعاوناً معهم .

قرع المعلم الأكبر بمطرقته ، كلٌ الى مجلسه وعرض احد الاخوان ضرورة التصاغر والخشوع فكان ذلك الدرس الأخير الذي القي على بيير يومئذ .

ولما اوعز المعلم الأكبر بالقيام بالواجب الأخير ، قام الموظف الكبير الذى كان يشغل منصب الأخ الجابي ، وطاف بالموجودين . كان بيير يريد ان يسجل على ورقة التبرعات كل المال الذي كان يحمله ، لكنه خشي ان يكون في ذلك دليل على الكبرياء ، لذلك فقد وضع رقماً مساوياً لارقام الآخرين .

انتهت الجلسة . ولما عاد بيير الى مسكنه ، أحسّ كأنه رجع لتوه من سفر طويل ، دام عشرات السنين ، تبدل خلاله تبدلاً كلياً وقطع كل علاقة له وصلة مع عاداته القديمة .

* * *

الفَصلُ الخَامِسُ

محاولة الامير بازيل

في اليوم الثاني لقبول بيير في المحفل ، كان هذا جالساً في مسكنه يقرأ محاولاً بكل قواه الفكرية ان يتفقه في معنى المربع الذي كان احد اضلاعه يشير رمزياً الى الله والثاني الى العالم الفكري ، والثالث الى العالم السفلي والرابع الى العالمين معاً . كان خلال فترات ، يترك الكتاب والمربع ،ويطلق لخياله العنان ،ويضع في تفكيره اسس حياته الجديدة . لقد اخبروه أمس في المحفل ، ان الامبراطور أطلع على قصة المبارزة ، وانه يتصرف بتعقل اذا ابتعد عن بيترسبورج لبعض الوقت . فكان يزمع القيام برحلة الى املاكه في الجنوب للتفرغ بالعناية بفلاحيه هناك . وكانت الاحلام اللذيذة تهدهد خاطره عندما قطع عليه تأملاته فجأة الامير بازيل الذي دخل الحجرة .

سأله هذا دون مقدمات :

— ماذا فعلت في موسكو يا صديقي ؟ لمَ بحق الشيطان اختصمت مع ليوليا « يا عزيزي » ؟ انك على خطأ مبين . انني اعرف كل شيء واستطيع ان اؤكد لك ان ليوليا ليست مخطئة نحوك الا بالقدر الذي اخطأ فيه المسيح نحو اليهود .

همّ بيير بالجواب ، لكن الأمير بازيل لم يترك له الوقت . تابع حديثه قائلاً :

– ولماذا لم تأت اليّ لتطلب مشورتي كصديق؟ اعرف كل شيء وافهم كل شيء . لقد تصرفت تصرف الرجل الذي يعرف قيمة شرفه ، ولكن في شيء من العجلة . مع ذلك ، لندع هذا . فكر فقط في أي موقف وضعتنا – هي وانا – حيال المجتمع ... بل وحيال البلاط .

اضاف هذه الجملة الاخيرة بصوت منخفض ثم اردف مؤكداً ، وقد أمسك على عادته بذراع بيير وانزلها نحو الارض :

– انها تقطن في موسكو وها انتذا هنا . فهيا ياعزيزي ، انه سوء تفاهم لا أكثر . اعتقد انك لمست ذلك بنفسك . لنكتب لها رسالة ، وستهرع على الفور ، وسيزول كل الجفاء . وإلا ياعزيزي ، فان هذه المسألة قد تنتهي بما لايسرك بل ويؤسفك . انني ارغب في اخطارك منذ الآن .

واعقب قائلاً بعد ان القى على بيير نظرة حافلة بالمعاني :

– نعم ، انني علمت من مصدر موثوق ان الامبراطورة المطلقة مهتمة بهذا اهتماماً كلياً ، وانت تعرف محبتها والتفاتاتها نحو هيلين وعطفها عليها .

كاد بيير يقاطع المتحدث مراراً . لكنه الى جانب استرسال الأمير في الحديث بحرارة ، كان يخشى ان يعلن لحميه بلهجة قاسية شديدة ، رفضه الجازم الذي كان مصمماً على التمسك به . ثم انه تذكر في تلك اللحظة ان مقطعاً من النظام الماسوني يأمره ان يكون : « وديعاً جانياً » . لذلك فقد قطب حاجبيه وتضرج وجهه ، وراح يقف ويجلس ويكرر ذلك وهو يناضل نفسه في اشد المواقف إيلاماً ، مما لم يسبق له من قبل ان جربه بها . ذلك انه لم يكن يطيق مجابهة أحد بأشياء مزعجة ، وابلاغ هذا الرجل ، بصرف النظر عن مكانته ، امراً لايتوقعه ، كان من اشد المزعجات . لقد اعتاد بيير الاستكانة أمام لهجة الأمير بازيل المستخفة الحازمة وأساليبه المصطنعة ، فكان في تلك اللحظة كذلك لايجد بنفسه الشجاعة الكافية على مقاومتة . مع ذلك فقد كان يعرف ان الكلمات

التي سيفوه بهاستقرر مصير مستقبله كله . فهل يرجع الى اخطائه السابقة وضلاله، أم يسلك السبيل الجديد الذي اطنب الماسونيون في امتداحه والذي سيقوده دون ريب الى التجدد الذي طالما تاقت نفسه اليه ؟

استأنف الأمن بازيل كلامه قائلاً بلهجة فكهة :

– هيا يا عزيزي ، قل نعم ، وسأكتب لها بنفسي ، وعندئذ لايبقى امامنا الا ان نحتفل بازالة سوء التفاهم .

لم يكن قد انهى جملته بعد ، عندما انتصب بيير ووجهه المتقلص من الغضب يعيد الى الذاكرة فجأة وجه ابيه ، وقال بصوت منخفض دون ان ينظر اليه .

– لا اعتقد يا أمير بأنني استدعيك الى منزلي... فاخرج ، ارجوك، اخرج!

واندفع نحو الباب فلما فتحه عاد يكرر وهو لايصدق نفسه :

– اخرج ، هيا !

شعر بغبطة غامرة عندما رآى الأمير بازيل تفضح قسمات وجهه فجأة لوناً من التشوس والخوف . قال هذا :

– ماذا دهاك ؟ أأنت مريض ؟

فكرر بيير بصوت مرتعد :

– قلت لك اخرج !

فاضطر الامير بازيل الى الانسحاب دون ان يحظى بتفسير عماجاءمن اجله.

وبعد ثمانية ايام ، استأذن بيير من اصدقائه الجدد وقدم اليهم منحة كبيرة ، ومضى لزيارة املاكه واراضيه. حمله الاخوان رسائل الى الماسونيين في كييف[1] واوديسا[2] ووعدوه بالكتابة اليه وارشاده في نشاطه الجديد .

---

(١) كييف ، عاصمة اوكرانيا ، واقعة على نهر الدينبر ، سكانها (٨٤٧٠٠٠) نسمة ، شهيرة بالسكاكر والمعارض الهامة .

(٢) اوديسا مدينة في اوكرانيا ، وهي مرفأ على البحر الأسود . سكانها (٦٠٤٠٠٠) نسمة شهيرة بالحبوب .

الفَصلُ السَّادِسُ

حديث الاندية

على الرغم من القسوة والصرامة التي كان يبديها الامبراطور في ذلك العصر حيال المبارزات ، فان المبارزة التي وقعت بين بيير ودولوخوف لم تتبعها ذيول مؤسفة وتدابير مؤدبة بالنسبة للخصمين والشهود معاً . مع ذلك فان الشائعات لم تلبث ان راجت حول اسباب المبارزة ودوافعها ، فجاء قطع العلاقات بين بيير وهيلين منشطاً لها حتى بلغت المجتمعات الراقية واصبحت حديث اليوم فيها. وكان بيير الذي عومل بمراعاة عندما كان يُعتبر ابن سفاح ، والذي راحوا يطرونه ويتملقونه عندما اصبح محط الانظار و « الصفقة » الهائلة الكبرى في المملكة كلها ، قد خسر منذ زواجه الشيء الكثير من اعتباره في المجتمعات الراقية ، وفقد الاهتمام الشديد الذي كانوا يحيطونه به . فالامهات اللاتي كن يحلمن في تزويجه بناتهن ، والفتيات اللاتي كن ينظرن الى الفوز به زوجاً ، فقدن اهتمامهن به . اما الاندية والمجتمعات ، فقد تغاضت كذلك عنه لانه كان جاهلا باسباب الرياء والملق ، والفات الانظار اليه فيها . وعلى ذلك ، فقد راحوا يعتبرونه المسؤول الأوحد عن كل ماحدث ، ويصورونه غيوراً سخيفاً شاذاً ، خاضعاً كأبيه المرحوم ، لنوبات من الغضب الدموي الوحشي . فلما عادت هيلين الى الظهور في الاندية

بعد ذهاب بيير من بيتر سبورج ، استقبلها معارفها كلهم بود يشوبه الاحترام ، بسبب المصيبة التي وقعت لها . فاذا مادار الحديث حول زوجها ، اتخذت هيلين طابع الوقار الذي كان احساسها الفطري يوحيه لها ، دون ان تفهم على الضبط موضوع ذلك الحديث كان ذلك الطابع يشير الى انها مصممة على احتمال مصيبتها دون تذمر ، وانها تعتبر زوجها صليباً[1] ارسله الله اليها . اما الامير بازيل ، فكان يعرب عن رأيه في صهره بعبارات اكثر دقة واحكام فيقول مشيراً باصبعه الى جبهته :

— انه ارعن ماجن ، وقد قلت دائماً .

وتؤيد آنا بافلوفنا اقواله جازمة :

— لقد قلت ذلك دائماً . نعم ، لقد اظهرت ذلك منذ البداية قبل كل الناس .

كانت تلح على اسبقيتها في التكهن بفساد بيير وعدم صلاحه :

— نعم ، لقد قلت قبل كل الناس ان افكار هذا العصر الفاسدة قد زعزعت عقل هذا الفتى . لقد كان عائداً من الخارج ، فكان كل الناس يرفعونه فوق السحاب الا انا . لقد حكمت عليه للوهلة الاولى ، عندما رأيته ذات مساء عندي ، يتحدث وكأنه مارا[2] ، الا تذكرون ؟ ثم كيف انتهى ذلك؟ انني منذ تلك اللحظة ما كنت ارغب في ذلك الزواج . لقد كنت اتوقع هذه النتائج .

كانت آنا بافلوفنا تحيي في ايام فراغها ، الحفلات التي تنفرد وحدها في فن

---

(١) المقصود من هذه العبارة : « عذاباً سلطه الله عليها » . لان المسيح تعذب على الصليب بارادته ، بسكون وتقبل .

(٢) جان بول مارا ، ثوري شهير ولد في بودري (سويسرا) عام ١٧٤٣ ، الف كتاب صديق الشعب وكان المحرض على مذابح ايلول المعروفة . اصبح نائباً في مجلس الشعب واظهر صرامة في محاكمة الملك . اغتالته شارلوت كورداي عام ١٧٩٣ .

اقامتها على طريقتها وتنظيمها . كانت تجمع – حسب تعبيرها الخاص – زبدة المجتمع الراقي الحقيقي ، وزهرة الروح الفكرية الرفيعة الكامنة في مجتمع بيتر سبورج . والى جانب هذا الانتقاء الرائع للمدعوين ، كانت حفلات آنابافلوفنا تعرض شيئين جذابين آخرين : ففي كل منها ، كانت تقدم لضيوفها شخصية جديدة مهمة ، وتعطيهم فكرة صحيحة عن الميزان السياسي في الاوساط الحاكمة في البلاط والمدينة ، الامر الذي يتعذر وقوعه في اي مكان آخر بمثل الدقة والصحة التي يبدو عليها عندها .

اقامت حفلة على هذا الطراز في نهاية عام ١٨٠٦ ، عندما كانت انباء انتصار نابوليون الساحق في ايينا[1] واويرستايدت[2] ، واستسلام كل الحصون البروسية تقريباً ، قد بلغت الى العاصمة حديثاً . كانت القطعات الروسية قد دخلت حينذاك بروسيا ، وكانت الحملة الثانية ضد نابوليون على وشك القيام . وكانت « زبدة المجتمع الطيب الحقيقية » ذلك المساء : هيلين الفاتنة التعيسة التي هجرها زوجها ، ومورتمارت – الذي مر ذكره – ، والامير الفتان هيبوليت الذي عاد حديثاً من فيينا ، وسياسيان ، و « ماتانت » وشاب « رفيع الذكاء » لاأكثر ، ووصيفة شرف ، انعم عليها بذلك اللقب مؤخراً ، وام تلك الوصيفة ، وأخيراً بعض الشخصيات الأدنى اهمية ومرتبة . اما الباكورة التي كانت آنابافلوفنا تقدمها لمدعويها في تلك الحفلة ، فانها كانت بوريس « وبتسكوي – اياه – الذي كان عائداً من بروسيا

---

(١) ايينا ، مدينة المانية على نهر سالا ، سكانها (٥٣ ٠٠) نسمة تنتج اليوم ادوات دقيقة وعدسات وفيها جامعة شهيرة . انتصر فيها نابوليون على البروسيين عام ١٨٠٦

(٢) ضاحية من الساكس البروسي سكانها (٥٨٠) نسمة انتصر فيها دافو على البروسيين انتصارات رائعة في ذات اليوم الذي كان نابوليون ينتصر فيه في ايينا عام ١٨٠٦ . وقد سمي دافو هذا دوقاً بهذا الاسم . ودافوا هذا ، كان ماريشالاً لفرنسا واميراً قبل ان يصبح دوقاً وهو واحد من خيرة قواد بونابارت عاش ٥٣ سنة (١٧٧٠ – ١٨٢٣) .

بمهمة رسول . كان الميزان السياسي يشير الى مايلي : « يستطيع من يشاء من امراء وجنرالات ان يتعاهدوا مع بونابارت ويتفقوا ماشاؤوا معه ليحدثوا «لي» او «لنا» مضايقات ومزعجات ، لكن رأينا في صدده لن يتغيير مطلقاً . لن نتوقف ابداً عن التعبير عن رأينا الخاص بهذا الصدد ، ولا نستطيع ان نقول لملك بروسيا وللآخرين الا : انتم وشأنكم . لقد اردتها بنفسك ياجورج داندان[1] » .

وعندما دخل بوريس ، وهو الذي كان مقرراً ان يتسلى المدعوون على حسابه ، الى البهو ، كان الضيوف كلهم مجتمعين فيه والحديث الذي كانت آنّا بافلوفنا توجهه على عادتها ، يدور حول علاقات روسيا الدبلوماسية مع النمسا والامل الذي يراود النفوس في الارتباط بحلف مع هذه الامة . كان بوريس مرتديا ثوباً انيقاً من اثواب الضباط المساعدين ، نضراً متورد الوجنتين ، ولكن اكثر رجولة من قبل ، يمشي مشية رشيقة نشيطة . قدمت آنابافلوفنا اليه يدها الجافة ليقبلها ثم قادته حسب القاعدة المطردة لينحني امام « ماتانت » ، وبعد ان ادخلته في الحلقه الرئيسية الكبرى ، قدمته الى عدد من الاشخاص الذين لم يكن يعرفهم ، وهي تشير الى كل واحد منهم وتذكر له اسمه بصوت منخفض :

— الامير هيبوليت كوراجين ، شاب فتان . السيد كروج ، القائم بالاعمال في مفوضية كوبنهاجن ، وهو عبقري عميق التفكير ؛ السيد شيتوف ، رجل جم المواهب ...

---

(١) جورج داندان ، كوميدية ذات ثلاث فصول دبجها موليير نثراً عام ١٦٦٨ وهي تدور حول جنون رجل تزوج سيدة ارفع مقاماً من طبقته الاجتماعية ، برم بها دون ان يستطيع ابداء ذلك . وقد درجت عبارة : « لقد اردت ذلك ياجورج داندان ، لقد اردت ذلك » التي كان ذلك الرجل يخاطب نفسه بها للدلالة على كل ورطة يقع بها الانسان بسبب اعماله . يقابلها بالعربية : على نفسها جرت براقش .

وصل بوريس الى مركز مرموق بفضل تصرفات آناميخائيلوفنا ومواهبها الخاصة ، وبفضل عقليته المتحفظة . لقد كان ضابطاً مساعداً لشخصية رفيعة جداً ، فاستطاع أخيراً ان يؤدي مهمة هامة في بروسيا. لقد وضع نصب عينيه ذلك القانون غير الرسمي الذي اطلع عليه في اولموتز فسحر به وافتن ، ذلك القانون الذي يستطيع بفضله ان يحتل حامل علم بسيط مركزاً ارفع من مركز جنرال في الجيش . قانون لايدين الترقي في العمل والمجهود والشجاعة والصبر والثبات ، بل للموهبة التي تجعل المرء مرموقاً يستحق تلك الترقية . كان نجاحه الشخصي يدهشه أيما دهشة حتى ان كان يتساءل لم َلايحذو الآخرون حذوه؟ لقد ابدل ذلك الاكتشاف كل حياته وشخصية وعلاقاته ومعارفه القدماء وقلب خططه للمستقبل رأساً على عقب . لقد كان - رغم فقره - ينفق آخر قرش لديه ليكون أحسن هنداماً من الآخرين لقد حرم نفسه متعاً كثيرة كيلا يقطع شوارع بيترسبورج مرتدياً زياً بالياً اوقديماً ومتنقلاً في عربة حقيرة قديمة. لم يكن يتصل الا بشخصيات رفيعة ، ارفع منه مقاساً ، كانت تستطيع ان تكون مفيدة له في المستقبل . كان يحب بيترسبورج ويمقت موسكو . كانت ذكرى آل روستوف ، وغرامياته الصبيانية مع ناتاشا تزعجه ، حتى انه لم يطرق منزلهم منذ ان ذهب الى الجيش . وكانت دعوته الى حفلة آنا بافلوفنا تعتبر في نظره خطوة كبيرة الى الأمام في طريق مستقبله . فهم على الفور الدور الذي عليه أن يلعبه ، فترك لمضيفة استثمار الاهتمام الذي كانت تثيره بحضرته ، وراح يعاين الموجودين فرداً بعناية واهتمام ويزين الفوائد التي قد يجنيها من هؤلاء اوهؤلاء في المستقبل . وكان جالساً قرب هيلين الجميلة ، في المكان الذي عين له ، يصغي بانتباه الى الحديث العام .

كان القائم بالاعمال الدانماركي يقول :

- ان فيينا ترى ان أسس المعاهدة المقترحة بعيدة المنال حتى ليتعذر الوصول

اليها ولو بواسطة سلسلة من النجاح والانتصارات الأكثر شأناً ، وهي تشك في الوسائل التي يمكنها ان تؤمن لنا كل هذا النجاح . ان هذه الجملة هي التي يتمسك بها المكتب الوزاري في فيينا .

تدخلت آنّا بافلوفنا قائلة :

إه ! ياعزيزي الفيكونت ، ان ايروبا ـ كانت تعتقد انها اذا نطقت كلمة اوروبا بالفرنسية محرفة حتى تصبح ايروبا ، فان ذلك يدل على رقة في النطق ولا يعلم الا الله من أين أتت بهذه البدعة ـ ان ايروبا لن تكون حليفتنا أبداً .

ولكن تمنع دخول بوريس في المناقشة ، حولت دفة الحديث فراحت تمتدح شجاعة ملك بروسيا وحزمه . اما بوريس ، فكان يصغي باحترام وصمت الى الحديث الدائر حوله منتظراً دوره للدخول في سياقه . لكن ذلك ما كان يمنعه من اختلاس نظرات الى وجه جارته الحسناء التي قابلت نظراته مراراً مبتسمة لذلك الضابط المساعد الشاب الجميل .

رجت آنا بافلوفنا ، بمناسبة الحديث عن بروسيا ، « بوريس » بكل بساطة ان يقص عليهم قصة سفره الى جلوجو [1] وان يصف لهم حالة الجيش البروسي كما شاهدها . فراح بوريس يعطي بيانات وتفصيلات دقيقة هامة عن الجيش والبلاط بصوت متزن وبلغة فرنسية سليمة . لكنه حرص على تجنب ابداء رأيه في الاحداث التي نتجت عنها وعلى كتمان وجهة نظره الشخصية فيها . احتكر خلال فترة طويلة الاهتمام العام في ذلك الحفل ، واستطاعت آنا فلوفنا ان ترى بنفسها مبلغ الاستمتاع الذي نعم به مدعووها بهذه الباكورة التي قدمتها اليهم . وبدا على هيلين انها اهتمت ببوريس اهتماماً خاصاً فراحت تطرح عليه عدة اسئلة تتعلق بسفره ووضع الجيش البروسي الذي خيل للموجودين انها تعيره عناية خاصة . فلما انتهى من

---

(١) Glogau مدينة بروسية في سيليزيا على نهر الاودر ، سكانها (٢٦٠٠٠) نسمة ، الحقت ببولونيا منذ عام ١٩٤٥ (Glogouv)

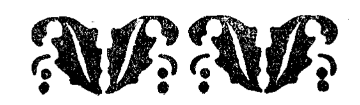
تقديم تفصيلاته واجوبته ، استدارت نحوه وقالت له خلال ابتسامتها المعهودة :

- ينبغي ان تحضر لرؤيتي يوم الثلاثاء بين الساعة الثامنة والساعة التاسعة ، ولا اقبل الاعتذار .

كانت لهجتها توحي بان الاسباب التي دعتها الى طلب مقابلته ، والتي كانت مجهولة منه ، تجعل زيارته لابد منها . فوعد بالامتثال لطلبها ، وراح يتحدث على انفراد مع هيلين ، وعندئذ استدعته آنا بافلوفنا بحجة ان « ماتانت » تتحرق شوقاً لسماعه بدورها .

ولما ابتعد معها ، قالت له مشيرة الى هيلين اشارة مشفقة ومغمضة عينيها بعد ذلك .

- انك تعرف زوجها على ما أظن ؟ آه ! يا لها من سيدة فاتنة وبائسة لا تتحدث عنه أمامها ، أتوسل اليك . ان ذلك يؤلمها أشد الايلام .



الفَصلُ السَّابعُ

صديق جديد لهيلين

عندما عاد بوريس وآنا بافلوفنا الى الحلقة الكبرى ، كان الامير هيبوليت يتدخل في الحديث الدائر .

هتف وقد مال بجذعه الى الامام :

— ملك بروسيا !

وانفجر ضاحكا . فاستدار الضيوف نحوه مترقبين .

عاد يقول ، ولكن بلهجة استفهامية هذه المرة :

— ملك بروسيا ؟

وبعد ضحكة جديدة ، عاد الى مقعده يغرق فيه بخطورة ووقار وتأن .

انتظرت بافلوفنا لحظات ، فلما وجدت ان هيبوليت لايرغب في متابعة الحديث ، وكان هذا هوالواقع ، راحت تروي للموجودين ان بونابارت الزنديق سرق من بوتسدام سيف فريدريك الأكبر . بلغت في حديثها قولها : انه سيف فريدريك الاكبر الذي ... عندما قاطع هيبوليت كلامها .

شرع يقول :

— ملك بروسيا ...

ولما راح الموجودون يصوبون نحـوه نظراتهم المستفسرة ، اعتذر وعاد الى سكوته المطبق .

اخذت آنا بافلوفنا موقفاً سلبياً وراح مورتمارت صديق هيبوليت يحثه على الاعراب عما يريد قائلا :

– هيا ، مع من تتحدث بملك بروسيا وما هي هذه النغمه ؟

فضحك هيبوليت ضحكة جديدة ولكنها مرتبكة وقال :

- كلا ، لاشيء في الامر . لقد أردت ان اقول فقط ... اردت ان اقول فقط اننا مخطئون اذ نحارب من اجل ملك بروسيا .

والحقيقة انه كان قد تعلم هذه النكتة في فيينا ، فامضى تلك الامسية كلها، يتحين الوقت المناسب عبثاً ليلقي بها .

قالت آنا بافلوفنا وهي تهدده باصبعها الصغير المغضن :

– ان لعبة الالفاظ هذه شديدة القبح ، دقيقـــة جداً وذهنية ولكن غير حقيقية ولاعادلة . اننا لانحارب من أجل ملك بروسيا ولكن من اجل المبادىء السامية الطيبة . آه ! ياله من شيطان هذا الامير هيبوليت !

لم تخمد حدة الحديث طيلة السهرة ، لقد ارتطم الوقت حول السياسة ولم تزد حدته الا عندما تطرق بعضهم الى المكافئات التي وزعت باسم الامبراطور .

قال الرجل جم المواهب :

– لقد تلقي ن . ن في العام الماضي علبة سعوط ذات صورة محفورة ، فلمَ لايحظى س.س. بواحدة كذلك ؟

فتدخل احد الدبلوماسيين قائلا :

– انني اسألك العفو . لكن علبتي المحلاة بصورة الامبراطور ليست تمييزاً او تقديراً ، بل مكافأة . او على الاصح هدية .

– لقد وقعت حوادث مماثلة من قبل . خذ مثلاً شوارزنبرج .

فاعترض الآخر قائلاً :

- ذلك مستحيل .

- هل تراهن ؟ ... الشريط الكبير (وسام) ان امره يختلف .

ولما ازفت ساعة الانصراف ، خرقت هيلين الصمت الذي لاذت به طيلة الوقت تقريباً وكررت على بوريس دعوتها اللطيفة الآمرة . قالت له :

- انني في مسيس الحاجة الى رؤيتك .

وراحت عيناها تستدعيان آنا بافلوفنا الى مساعدتها فجاءت هذه تثني على طلب هيلين وتدعمه بابتسامتها السويداوية التي تضفيها على وجهها عندما تتحدث عن حاميتها السامية النبيلة .

بدا كأن هيلين قد اكتشفت ، خلال حديث بوريس عن الجيش البروسي ، اسبابا ملحه تدعوها الى رؤيته من جديد ، فكانت دعوتها ليوم الثلاثاء المقبل أشبه بوعد منها حددت فيه اليوم الذي ستقص عليه تلك الاسباب الموجبة فيه . مع ذلك ، فأن بوريس لما دخل الى بهو الكونتيس الانيق في اليوم المحدد ، انتظر عبثاً ان تقدم له تفسيراً عن سلوكها . كان بعض الناس مجتمعين في البهو ، فلم تحدثه هيلين الا حديثاً تافهاً . فلما استأذن منصرفاً وهو يقبل يدها ، همست له بصوت خافت دون ان تبتسم - الامر الذي يثير الفضول - قائلة :

- تعال غداً ... وقت العشاء . ينبغي ان تحضر ... تعال .

واصبح بوريس خلال كل مدة اقامته في بيترسبورج ، الصديق الحميم للكونتيس بيزوخوف .

الفَصْلُ الثّامِنْ

الامير بولكونسكي العجوز

عادت الحرب الى الاشتعال وراحت تقترب من الحدود الروسية . لم يعد يسمع الا اللعنات تصب على بونابرت في كل مكان ، بوصفه عدواً للجنس البشري وفي القرى والضواحي ، كان التجنيد للجيش العامل والخدمات الفنية قائماً على قدم وساق . وكانت اشاعات مختلفة متناقضة تدور على الألسن حول العمليات الحربية . وكانت تلك الاخبار خاطئة مضلة كالعادة ، وبالتالي ، فانها كانت تعطي المجال للتآويل والتفاسير المختلفة .

منذ عام ١٨٠٥ ، دخلت تعديلات كبيرة على طراز حياة الامير العجوز بولكونسكي واولاده .

جمعت صفوف الخبراء العسكريين المجندين في ثمانية فيالق كبيرة من مختلف بقاع روسيا ، وانيطت قيادة احدى هذه الفيالق بالامير العجوز عام ١٨٠٦ . وعلى الرغم من الانهيار الذي ظهر على الامير العجوز ، وخصوصاً خلال الفترة التي اعتقد فيها بموت ابنة في ساحه المعركة ، فانه لم يستحسن التصامم عن النداء الشخصي الذي وجهه الامبراطور اليه شخصياً . هذا عدا عن ان ذلك النشاط الجديد في مركزه الجديد ، اتاح له فرصة استعادة قوته ونشاطه وشجاعته .

كان يفتش دون توقف المناطق الثلاث الموضوعة تحت اشرافه ، تفتيشاً حازماً صارماً ، فكان يتصرف حيال مرؤوسيه بخشونة ويقوم بواجباته الشخصية بكل دقة وأمانة ويتعمق في اتفه التفاصيل . وتوقفت دروس الرياضيات بالنسبة الى ماري ، التي كان عليها ان تدخل الى غرفة ابيها كل صباح ، اذا كان في البيت ، بصحبة المربية وحفيده نيكولا الصغير كما كان يسميه جده . كان الامير الصغير نيكولا ، يشغل مع مربيته والخادم العجوز سافيشنا ، جناح المرحومة جدته. وكانت ماري تقضي معظم أيامها بالقرب منه فتقوم ـ على قدر طاقتها ـ بدور الام لأبن أخيها . وكان يبدو على الآنسة بوريين انها هي الاخرى تحب الطفل حب العبادة ، حتى ان ماري كانت غالباً تتخلى عن مكانها لها ، حارمة نفسها متعة تدليله وملاطفته ، لتحل بوريين محلها ، فتناديه «بملكها الصغير» وتلعب معه.

اقيمت للاميرة المتوفاة قبة صغيرة الى جانب كنيسة « ليسياجوري » ضمت ضريحها الذي رفعوا فوقه نصباً من الرخام المستورد من ايطاليا بصورة خاصة . كان ذلك النصب عبارة عن ملك باسطاً جناحيه على وشك التحليق وكانت شفة الملك العليا المرفوعة قليلا توحي بشروع في ابتسامه . وذات يوم، بينما كان اندريه وماري خارجين من القبة ، اتفقا في الرأي على أن وجه الملك يشبه لى حد بعيد وجه الفقيدة نفسها . وكان هناك امر أشد غرابة من الاول وأبعد أثراً ، امر لم يطلع آندريه اخته ماري عليه . ذلك أن الفنان الذي نحت ذلك الملك ، اعطاه دون ان يشعر ، ذات الامارات التي ارتسمت غلى وجه المتوفاة ، حتى لكأنه ينطق بمثل كلماتها العذبه ، كلمات اللوم الرقيقة التي قرأها من قبل على وجه زوجته الراحلة : « آه ! لمَ عاملتني على هذا النحو ؟»

بعد عودة الامير الشاب بفترة قصيرة ، منحه ابوه سلفة على ميراثه، املاكه الهامة في بوجوتشاروفو التي تبعد عن ليسيياجوري باربع مراحل روسية وكانت

ليسيياجوري ، تحيي في نفس الامير الشاب ذكريات أليمة ، فكان يلجأ الى أراضيه الجديدة ، ابتعاداً عن ابيه وعقليته الصعبة ناشداً الوحدة . لهذه الاسباب كان يرى في بوجوتشاروف محط آماله ، فشرع يقيم فيها الابنية ويقضي فيها جل ّ اوقاته .

قرر آندريه بعد معركة اوسترليتز الانسحاب نهائياً من الحياة العسكرية فلما اعلنت الحرب من جديد واضطر كل مواطن الى القيام بواجبه ، قبل آندريه ان يساعد اباه في تجنيد « الميليشيا » مفضلا هذه المهمة على الخدمة الفعلية . وبدت الادوار تنقلب عكسياً : فالأب الذي شحذ منصبه الجديد همته ، بات يتصور الحملة الجديدة على ضوء تفاؤله براقة سهلة هينة ، والابن على العكس ، كان يراها مؤسية ويأسف في صميم قلبه على وقوعها وينظر الى الامور بمنظار أسود .

ذهب الأمير العجوز في السادس والعشرين من شباط عام ١٨٠٧ في جولة تفتيشية ، فقرر آندريه ، كما كانت عادته اثناء غياب ابيه ، البقاء في ليسيياجوري ، لان الأمير نيكولا الصغير ، كان معتل الصحة منذ حوالي اربعة أيام . عاد السائقون الذين حملوا الأمير العجوز الى المدينة ، ومعهم بريد آندريه ، فلم يجده الوصيف في غرفته . ولما راح يبحث عنه في جناح ماري ، ارسلته هذه الى حيث كان الطفل مع مربيته .

قالت احدى الوصيفات للأمير آندريه الذي كان جالساً على مقعد صغير من مقاعد الاطفال مكفهر الوجه مرتعد اليدين مقطب الحاجبين ، يصب الدواء من قارورة صغيرة في قدح مملوء الى نصفه بالماء :

– اعذرني يا صاحب السعادة ، ان بيتروشا بالباب ومعه بعض الاوراق .

سأل آندرية بلهجة محنقة :

– ماذا هناك ؟

وادت حركته المنفعلة الى اهراق نقط زائدة في القدح ، فألقى محتوياته على

الارض وطلب ملأه بالماء من جديد . فنفذت الوصيفة امره .

كانت الحجرة مؤثثة بسرير صغير وصندوقين واريكتين ونضد ومائدة اطفال وكرسي صغير ، وهو الذي كان الامير آندريه يستعمله لجلوسه كلما جاء لزيارة ابنـــه . وكانت الستائر مرفوعة وشمعة واحـدة مضاءة ومثبتة على النضد ، يحجب نورها عن السرير دفتر موسيقى اقيم بجانبها على شكل ستارة ،

قالت الأميرة ماري التي كانت تسهر على الامير المريض :

– يا صديقي ، لننتظر قليلًا ، لان ذلك اجدى ...

فغمغم الامير آندريه راغباً في احراج اخته وايلامها :

– كلا ... انك تقولين دائماً مثل هذه السخافات . انك تطلبين التريث والانتظار دائماً ، وهذه هي النتيجة التي حصلنا عليها .

واستأنفت الاخت قائلة بلهجة متوسلة :

– اؤكد لك يا صديقي ان من الاصوب عدم ايقاظه طالمـا هو مستغرق في نومـــه .

نهض آندريه وفي يده العلاج ، واقترب من السرير الصغير على اطراف قدميه وقال مرتبكاً :

هل يجب حقاً ان ندعه نائماً ؟

فاجابت ماري متمتمة وهي خجلى لرؤية اخيها يأخذ برأيها .

– كما تشاء ... انني اعتقد حقاً .. ولكن كما تشاء ...

ونبهت اخيها الى الوصيفة التي كانت تناديه بصوت منخفض .

كانت تلك ثاني ليلة يقضيانها ساهرين قرب سرير الطفل الذي كان مصاباً بحمى عنيفة . ولما كانت ثقتها قليلة في طيب الاسره ، فقد ارسلا يستدعيان طبيباً آخر من المدينة ، بينما كانا يجربان الدواء تلو الدواء عبثاً . كانا مثقلين بالقلق محطمين من القلق ، فراحا يلقيان على بعضهما متاعبهما يتخاصمان ويتبادلان اللوم والتقريع .

ظلت الوصيفة مصرة على موقفها تقول :

- ان بيتروشا هنا ومعه اوراق من ابيك .

فغمغم الامير آندريه الذي وافق اخيراً على مقابلة بيتروشا :

- ياله من قت مناسب !

وبعد ان سلمة الخادم البريد وتعليمات ابيه الشفهية ، عاد آندريه قرب سرير ابنه . سأل اخته :

- ماذا اذن ؟

فدمدمت ماري وهي تزفر بحرقة :

- كما هو . انتظر اتوسل اليك . ان كارل ايفانيتش يقول دائماً انه يجب احترام النوم .

اقترب آندريه من الطفل وتحسس نبضه. كانت يده ملتهبة من الحرارة هتف:

- دعيني انت وكارل « ايفانيبتشك » هذا !

وعاد الى الدواء يحمله واقترب من السرير . قالت ماري :

- دعه ، دعه .

فنظر اليها نظرة غاضبة ومتألمة معاً ،وانحنى فوق الطفل والقدح في يده. قال:

- انني اصر على اعطائه الدواء . خذي ، اسقيه انت بيدك .

هزت ماري كتفيها ولكن لم تعترض . استدعت الوصيفة وراحت تحاول بمساعدتها أعطاء الدواء للطفل الذى عاد يحشرج ويتوجع ويزمجر . اكفهر وجه آندريه ، وهرع الى الغرفة المجاورة ورأسه بين يديه .

هوى على اريكة هناك ، وعندئذ لاحظ ان الرسائل لازالت في يـده . فضها بحركة آلية وراح يقرأ . كان الامير العجوز يعرفه بخطه الكبير المطاول، وبالاصطلاحات الموجزة التي كان يزرعها هنا وهناك في رسالته ، بما يلي :

« جاءني رسول يحمل اليّ خبراً لا تضاهى بهجته في الساعة الحاضر ، شريطة ان يكون الخبر موثوقاً . انه يقول أن بينّيجسن[1] قد انتصر على نابوليون انتصاراً كاملاً في ايلو[2] . وفي بيترسبورج، كل الناس في فرح مقيم ، والمكافآت تمطر على الجيش . ان بينيجسن هذا يستحق ان ارفع له قبعتي رغم انه الماني ماذا يستطيع السيد خاندريكوف ان يفعل بحق الشيطان ، وهو الذي يقود الجيش في كورتشيفا ؟ انه لم يرسل لنا بعد لاجنوداً لتعزيز قوتنا ولا ما يلزم من ارزاق. امض اليه سريعاً وابلغه انه لن يحتفظ برأسه فوق كتفيه اذا لم يكن كل شيء جاهزاً خلال ثمانية ايام ... ان انتصار بروسيخ ـ ايلوتأيد ، لانني تلقيت رسالة من بيتنكا « الاميرباجراسيون »، الذي ساهم في تلك المعركة يؤكد النصر. عندما لايتدخل اولئك الذين لايعنيهم الامر ، فان بونابارت يُهزم حتى من الماني . انهم يزعمون انه يفر في أقصى الفوضى ... واذن ، فاهرع الى كورتشيفا ونفذ اوامري ! » .

اطلق آندريه زفرة وفض الرسالة التالية . وجد فيها ورقتين مكتوبتين بخط دقيق عرف فيه خط بيليبين . طواهما مرة اخرى وعاد الى رسالة ابيه يعيد قراءتها . ولما بلغ هـــذه الكلمات : « هرع دون تأخر الى كورتشفيا ونفذ اوامري » قرر في سره قائلاً : « كلا ، والف معذرة . لن اذهب قبل ان يشفى ولدي المريض . » ومضى الى الباب فأطل منه . كانت ماري لاتزال في مكانها قرب السرير تهدهد الطفل برفق .

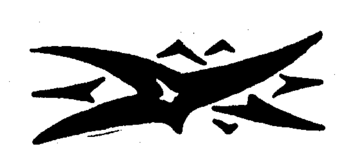
---

(١) بنييجس ، جنرال روسي ولد في برونسويك عام (١٧٤٥) وتوفي عام (١٨٢٦) هزمه نابوليون في معركة ايلو !

(٢) ايلو ،مدينة ليتوانية قرب كالينينجراد ، هزم نابوليون الروسيين والبروسيين فيها في شباط عام ١٨٠٧ !

قال الامير آندريه متمثلاً ذكرياته : « هيا تُرى ما هو الخبر المزعج الذي يبعثه اليّ هذه المرة ؟ آه نعم ! لقد فزنا على بونابارت وانتصرنا عليه ، وانا بعيد عن الجيش . هيا ان القدر يهزأ بي دائماً ... شكراً له وبورك فيه ! ».

أخذ رسالة بيليبين والقى عليها نظرة عجلى حتى بلغ نصفها دون ان يفهم او يعي شيئاً . لم يكن يقرأ في الحقيقة الا فراراً من الافكار الاليمة التي كانت منذ زمن طويل ترهقه وتزعجه .



الفصل التاسع

رسالة بيليبين

كان بيليبين بوصفه ملحقاً سياسيا في الاركان العامـة ، يصف المعركة باللغة الفرنسية وبالاسلوب والتفكه الفرنسيين . لكنه كان كذلك يكتب بتلك الصراحة المتهورة التي تسمح للروسيين ـ وللروسيين وحدهم ـ ان ينتقدوا انفسهم ويهزأوا بأنفسهم دون اشفاق . اعترف في رسالته ان كتمانه الدبلوماسي كان يزعجه جداً ، وانه سعقد اذ يستطيع ان يفصح عما بنفسه ، لصديق موثوق أمين ، يمكنه من ان يفتأ غضبه المتراكم في اعماقـه والذي تسببت الامور التي تقع في الجيش في اشعال نيرانه . كانت الرسالة قديمة ، أي قبل معركة بروسيخ-ايلو . كتب بيليبين :

« منذ فوزنا الكبير في اوسترليتز ، لم انقطع يوماً واحداً عن القيادة العامة كما تعرف يا عزيزي الامـــير . والحقيقة انني اصبحت ميالاً للحروب ، ولقد احسنت في هذا الميل . ان ما رأيته خلال هذه الاشهر الثلاثة لايكاد يصدق .

« ابدأ من الالف . ـ وهنــــا استعمل التعبير اللاتيني (ab ovo) أي من البداية ـ ان عدو الجنس البشري ، كما تعرف ، يهاجم البروسيين . والبروسيون هم حلفاؤنا المخلصون الذين لم يخدعونا الا ثلاث مرات فقط منذ ثلاثـه اعوام .

لذلك فاننا ننصرهم في عملهم وفي قضيتهم . لكن الظاهر ان عدو الجنس البشري لا يلقي بالاً الى خطاباتنا الجميلة ، فهجم بطريقته الوحشية المفتقرة للآداب على البروسيين دون ان يترك لهم الوقت لانهاء استعراضهم الذي شرعوا فيه ، فانزل بهم « علقة » شديدة ادمت عظامهم ، راح يستقر في قصر بوتسدام[1] . كل ذلك لم يستغرق الا لمحة من الوقت .

« وقد كتب ملك بروسيا الى نابوليون يقول انني راغب كل الرغبة في ان تحلو جلالتكم في قصري وان تعاملوا المعاملة التي تروق لكم . ولقد بادرت الى اتخاذ كل الترتيبات المقابلة التي سمحت لي الظروف بها في هـذا الشأن ، فعساي وفقت في مسعاى ! والجنرالات البروسيون يبدون كل اللباقة والادب حيال الفرنسيين فيستسلمون ويلقون باسلحتهم عند اول مناوشة .

« ان رئيس حامية جولجو ومعه عشرة آلاف رجل تحت امرته ، ارسل يسأل ملك بروسيا عما يجب عليه ان يفعل اذا انذر بالاستسلام ... كل هـذه التصرفات ايجابية ولا ريب !

والخلاصة اننا بعد ان كنا نأمل في التأثير على الموقف بمظهرنا العسكري وحده ، وجدنا انفسنا في حرب حقيقية ، حرب واقعة على حـــدودنا ـ وهو الادهى والأمر ـ « مع ملك بروسيا ومن اجله » . كل شيء على خير مايرام ولا ينقصنا الا شيء صغير واحد ، وهو القائد العام . ولما كان مقدراً ان النجاح الذي احرزناه في اوستيرليتز كان يمكن ان يكون اقل شمولا لو ان

---

(١) بوتسدام مدينة بروسية على بحيرة هافل سكانها (١٣٥٠٠٠) نسمة ، فيها قصر ملوك بروسيا الاقدمين ، تعتبر « فرسايل » المانيا . يقوم في ضاحيتها قصر سان سوسي والحديقة المسماة بهذا الاسم . وقد اشتهرت في أيامنا هذه بالاجتماع الذي اجري فيها عام ١٩٤٥ بين ترومان وستالين وتشرشل .

القائد العام كان اكبر سناً ، فقد استعرضت اسماء ابنـاء الثمانين ، وفُضل في هذا المضمار كامنسكي على بروزوروفسكي ، بعد المفاضلة بينهما . وأخيراً جاءنا الجنرال دارجاً على طريقة سوفوروف ، فاستقبل بهتافات الفرح المجد .

في الرابع من هذا الشهر وصل بريد بيترسبورج الاول ، ونقلت الصناديق الى مكتب الماريشال الذي يحب ان يعمل كل شيء بنفسه . وقد استدعيت المساعدة في فرز الرسائل لأحمل ماهو مرسل الينا . وكان الماريشال ينظر الينا ونحن نعمل ، منتظراً الرزم المرسلة اليه . ولقد بحثنا فلم نجد شيئاً . نفذ صبر الماريشال فجاء يبحث بنفسه . وهناوجد رسائل موجهة من الامبراطور الى الكونت «ت.» والى الامير «ف.V» وآخرين وعندئذ ثار ثورة فظيعة رهيبة وانهال بالنار واللهب على كل الناس ، واستحوز على الرسائل ففضها وراح يقرأ تلك التي كتبها الامبراطور للآخرين . آه ! هكذا يعاملونني اذن . ليس لهم ثقة بي ! انهم اقاموا على العيون والارصاد ! حسناً جداً . اخرجو ! وكتب الأمر اليومي العتيد التالي للجنرال بينّيجسن :

«انني جريح لااستطيع ركوب الخيل ولا بالتالي قيادة الجيش . لقد اعدت فيلقك من بولتوسك[1] في حالة فوضى ، وهو مكشوف تماماً ومحروم من العلف والحطب . فيجب الحذر اذن والتفكير في التراجع على حدودنا . كما اخبرت الكونت بوكزويفدن بنفسك البارحة ، الأمر الذي يجب ان يتم اليوم .

وكتب الى الأمبراطور يقول : ان احتكاك السرج خلال رحلاتي العديدة سبب لي خدشاً اذا اضفناه الى الانهاك الذي نالني من تنقلاتي السابقة ، يمنعني من ركوب الحصان وقيادة جيش يضم مثل هذا العدد الكبير . لذلك فقد سلمت القيادة لأكثر الجنرالات قدماً بعدي ، وهو الكونت بوكزويغدن ؛ ولقد

---

(١) بولتوسك مدينة في بولونيا على نهر ناريف سكانها (١٩٠٠٠) نسمة . هزم الفرنسيون الروسيين فيها عام ١٨٠٦ .

نقلت اليه كل صلاحياتي واعمالي واوصيته ان يقترب من حدودنا متقهقراً عبر بروسيا اذا نقص منه الخبز. والواقع انه لم يبق من الخبز الا ما يكفي يوما واحداً بل ان بعض السرايا لا تملك خبز يوم ، اذا اخذنا بما اطلعني عليه قواد فيالق اوسترمان" وسيد موريبيدذكي ولقد التهم كل ما كان عند القرويين. اما انا ، فانني بانتظار شفائي ، ابقى في مستشفى اوسترولنكا[1] . ولي الشرف ان اقدم لجلالتكم طياً تقريراً عن الارزاق وان اخطر جلالتكم بكل خضوع ان الجيش اذا امضى خمسة عشر يوما اخرى في معسكراته الحالية ، لن يبقى جندي واحد صالح للخدمة في الربيع المقبل .

« اسمحوا للعجوز ان ينسحب الى الريف حاملاً معه العار لأنه اخفق في اداء المهمة الكبيرة المجيدة التي انتقي لأدائها . سوف انتظر في المستشفى هنا ، اذنكم اللطيف ، كيلا العب في الجيش » دور « المسجل » بدلاً من دور « الرئيس» . ان انسحابي من الجيش لن يحدث من الضجة الا ما يحدثه انسحاب أعمى منه . ان اشخاصاً مثلي ، تحفل روسيا بالالوف منهم . »

« وهكذا فقد غضب الماريشال من الامبراطور فعاقبنا جميعاً ، اليس ذلك منطقي وسديد ؟

« هذه هي العملية الاولى . لننتقل الآن الى ما بعدها ، وهي التي تبلغ فيها المنفعة والسخرية الى رتبة الحق والصواب . ذلك اننا ، بعد ذهاب الماريشال ، وجدنا انفسنا على مرآى من العدو ، الأمر الذي يلجئنا الى شن هجوم عليه أو الاشتباك معه في القتال . ولقد اضحى بوكزويفدن قائداً عاماً بحكم قدمه ، لكن الجنرال بينيجسن ليس من هذا الرأي ، خصوصاً وانه ، هو وجيشه ، كان امام العدو

---

(١) اوسترولنكا ، مدينة بولونية على نهر ناريف ، سكانها (١٥٠٠٠) نسمة ، هزم الفرنسيون الروس فيها عام (١٨٠٧) وضمت الى اتحاد الولايات السوفيا ية عام (١٩٣٩) في ايلول .

وانه كان يريد انتهاز الفرصة اذا اتيحت له بعد معركة نظيفة كما يقول الالمان .
واذن ، فقد شن الهجوم ووقعت معركة بولتوسك ، التي اعتبرت نصراً كبيراً والتي
هي - في رأيي - ليست كذلك مطلقاً . لقد درجت عادتنا اللعينة جداً ، نحن
معشر المدنيين ، على احصاء وتقرير الخسارة او الربح كما تعلم . اننا نقول ان من
ينسحب بعد معركة ما ، يكون قد خسر تلك المعركة . وعلى هذا الاساس ، فاننا
خسرنا معركة بولتوسك . والخلاصة ، اننا انسحبنا بعد المعركة ، لكننا ارسلنا الى
بيترسبورج بريداً يحمل انباء النصر ، ولم يسلم الجنرال القيادة العامة الى بوكزويفدن
آملا ان يتلقى من بيترسبورح لقب قائد اعلى ، مكافأة له على انتصاره وفي اثناء
هذه الفترة ، فترة خلو منصب القيادة العليا ممن يشغله ، بدأنا في تنفيذ مناورات
مفرطة في الاغراء والابتكار . لم يكن هدفنا مركزاً في تحاشي العدو او مهاجمته
كما كان ينبغي أن يكون ، بل لتحاشي الجنرال بوكزويفدن فقط ، الذي هو
قائدنا بحكم قدمه . تابعنا هدفنا بحماس ونشاط مرموقين ، فكنا اذا اجتزنا نهراً
لم يكن سهل العبور ، احرقنا الجسور لنفترق عن العدو ونباعد بيننا وبينه .
اما ذلك العدو الذي كنا نتحاشاه ، فانه لم يكن بونابرت بل « بوكزويفدن » .
وكان الجنرال بوكزويفدن ان يُهاجَم وان يُطوّق من قبل قوة عدوة تفوق
تعداد جيوشه عدداً ، بفضل مناوراتنا الرائعة التي كانت تبعدنا عنه . فكان
بوكزويفدن يتبعنا ونحن نفر منه فاذا مر الى الجانب الذي نكون فيه ، عبرا
النهر ببراعته الى الجانب الآخر . واخيراً لحق بنا عدونا بوكزويفدن وهاجمنا .
و « زعل » الجنرالان ، بل ان دعوة الى المبارزة صدرت من جانب بوكزويفدن
أُجيب عليها بنوبة من نوبات القلب من جانب بينّيجسن . لكن بريد بيترسبورج
وصل في اللحظة الدقيقة الحاسمة . لقد حمل لنا البريد ـ الذي حملناه نبأ انتصارنا
في بولتوسك ـ نبأ تسمية القائد الاعلى ، وبذلك تغلبنا على عدونا الاول
بوكزويفدن ! والآن نستطيع ان نفكر في العدو الآخر ، في بونابرت . ولكن

في تلك اللحظة قام امامنا عدو ثالث ، وهو الجيش الاورثوذكسي المبجل الذي يطلب الخبز واللحم « والبسكويت » والعلف ولست أدري مـاذا ، بصيحات عالية وزمجرات مريعة ! لقد فرغت مخازن المؤونة واصبحت الطرق غير مسلوكة، شرع الجيش الاورثوذكسي يقوم بالسلب والنهب ، بشكل لا يمكن لما رأيته « أنت » خلال الحملة الماضية ، ان يعطيك أية فكرة صحيحة عنه . لقد اصبحت نصف السرايا تؤلف فرقاً حرة تجوب المنطقة تعيث فيها سلباً وتقتيلاً بفظاعة ووحشية. و نُكب السكان نكبة مريعة ولحقهم الدمار ، وامتلأت المستشفيات بالمرضى ، وعم القحط والنحس كل مكان . لقد هوجمت القيادة العامة نفسها مرتين من قبل السلابين ، فاضطر القائد الاعلى ان يطلب لواء كاملا لطردهم . ولقد حملوا معهم في احدى غزواتهم ، صندوقاً فارغاً ومعطفي المنزلي. ان الامبراطور يريد اعطاء قواد الفيالق كلهم حق اعدام السلابين النهابين . لكنني أخشى ان يؤدي ذلك الى ان يقتل نصف الجيش النصف الآخر رمياً بالرصاص . »

كان الامير آندريه لا يقرأ الا بعينيه فقط ، لكنه لم يلبث ان شعر بنفسه يتابع رواية بيليبين ، التي كانت صحتها تدعو الى الشك . فلما وصل الى هذا الحد من القراءة ، كور الورقة في يديه والقاها بعيداً . لم تغضبه فحوى الرسالة ، بل انه كان غاضباً على نفسه لأن هذه الحوادث البعيدة ، التي كانت تبدو له شديدة الغرابة ، كانت تحرك كوامن عواطفه . اغمض عينيه ورفع يديه الى جبينه وكأنه يطرد الافكار المزعجة التي ايقظتها تلك القراءة ، ثم اصاخ السمع الى ما يدور في الحجرة المجاورة التي ينام الطفل فيها . خيل اليه فجأة انه سمع صوتاً غريباً صادراً عن تلك الغرفة ، فراح يتساءل بذعر عما اذا كانت حال ابنه لم تبلغ حد التفاقم. اقترب من الباب على اطراف قدميه وفتحه .

في اللحظة التي اجتاز فيها المدخل ، رآى ان الخادم العجوز تخفي شيئاً وعلى وجهها آيات الارتياع ، ورآى ان اخته ليست قرب السرير كما كانت من قبل. سمع صوت ماري وراءه يحدثه قائلاً :

– ياصديقي ...

وشعر ان اللهجة حافلة باليأس . استولى على الأمير ذعر لا مبرر له ، كما يحدث للمرء غالباً بعد فترة طويلة من القلق والارق . لاشك ان ولده مات ، فكل ما كان يراه وكل ما كان يسمعه ، كان يؤكد هذا الظن !

فكر في نفسه : « اذن ، لقد انتهي كل شيء ! » غمر جبينه عرق بارد . فاقترب من السرير الصغير زائغ البصر ، متأكداً انه سيجده فارغاً ، وان الخادم العجوز اخفت منذ حين جثة ولده . ازاح الستائر قليلاً ، وظلت عيناه فترة طويلة ، يعميها الذهول . فلا يرى بها شيئاً . واخيراً وجد ابنه . كان الطفل مستلقياً على سريره عكسياً ، وردي الوجنتين ، مباعد بين الذراعين ، ورأسه بعيد عن الوسادة ، يرضع في نومه ويتنفس بانتظام .

استخفه الفرح لرؤية ابنه حياً وهو الذي قدّر انه قضى ، فانحنى على الطفل ووضع شفتيه على جلده ليتحسس حرارته ، كما علمته اخته ماري . كان الجبين الرقيق ندياً . تحسس رأس الطفل بيده ، فوجد انه مبتل حتى الشعر . واذن ، فقد حدثت نوبة جعلت الطفل يتعرق بشدة ، وبذلك عاد الى الحياة . كان آندريه يتوق الى الاطباق على هذا المخلوق الصغير الضعيف وضمه الى قلبه بشدة وعنف ، لكنه لم يجرأ على ذلك . ظل ذاهلاً يتأمل الرأس الندي واليدين الصغيرتين ، والساقين الصغيرتين اللتين تركتا آثارهما على الغطاء . شعر بحفيف بالقرب منه ، وانعكس ظل على ستار السرير . لم يحفل بذلك الظل : لقد كانت عيناه شاخصتان الى الجسد اللدن المسجى على السرير ، وكان يصغي الى صوت تنفسه الرتيب . كان ذلك الظل هو الأميرة ماري ، التي اقتربت بخطوات مكتومة ، فرفعت ستائر السرير وتركتها تنسدل وراءها . عرفها الامير دون ان يستدير ، فمد اليها يده ، فاطبقت تشد عليها .

قال آندريه :

ـ لقد نضح جسمه عرقاً.

ـ لقد قلت لك ذلك منذ حين .

تحرك الطفل قليلا ، وابتسم في نومه وفرك جبينه الصغير على الوسادة .

نظر آندريه الى اخته . وفي عتمة غرفة النوم الخفيفة ، كانت عينا ماري تبدو ان اشد التماعاً ووميضاً من جرى عاداتها ، وكانت دموع الفرح تزيد البريق توهجاً . وبينما هي تتسلل قرب اخيها لتعانقه ، علقت ستارة السرير . تناشد الهدوء والسكون فتبادلاه ، ولبثا فترة في تلك العتمة ، يشكلون ثلاثتهم فقط ، عالماً خاصاً بهم ، كانا يجدان صعوبة في نزع نفسيهما منه . راح الامير آندرية يخفي شعره في طيات ستارة السرير المصنوعة من « الموصلين » ، واخيراً ، ابتعد قبل اخته عن السرير وهو يقول زافراً بارتياح :

هيا ، ان هذا هو كل ماتبقى لى وما سيشغلني بعد الآن .

* * *

الفَصْلُ العَاشِرُ

مساعي بيير

بعد زمن قصير من دخول بيير في عداد الاخوان الماسونيين،زوده هؤلاء بتعليمات خطية ليسير على خطوطها في اعماله وواجباته الكثيرة التي كانت تدعوه الى زيادة أراضيه فسافر هـــذا، مقاطعة كييف حيث كان السواد الاعظم من فلاحيه يعملون فيها .

استدعى بيير حال وصوله الى مدينة كييف ، كل وكلائه ومسجليه الى كتب الرئيسي حيث شرح لهم نواياه ورغباته .كان يتطلب منهم اتخاذ تدابير فورية لاستقلال الفلاحين في الاراضي استقلالاً تاماً . وبانتظار ذلك ، لايجب [illegible] ء بالعمل ، اما العقوبات الجسديه ، فينبغي ان ُتلغى وان يحل محلها تحذير ونصح شفهي . ينبغي مساعدة الفلاحين واقامة المستشفيات في كل مقاطعة، وملاجىء، ومدارس ؛ ويجب اعفاءالنساء والاطفال من السخرات . كان بعض اولئك المسجلين ـ وبينهم خولٌ شبه اميين ـ يصغون اليه بذهول وذعر، معتقدين ان الكونت ، بدلالة محاضرته تلك ، غير راض عن ادارتهم واساليبهم في الحاق الغبن بالفلاحين . والبعض الآخر ، كانوا يجدون ، بعدالفترة الاولى من الذهول ، ان لثغة سيدهم وتلك الكلمات الجديدةالتي ينطق بها ، فكهة مسلية

كل التسلية . اما الفريق الثالث ، فقد كان افراده يجدون متعة في الاصغاءاليه ، ولا شيء غير المتعة . لكن اشدهم حنكة وذكاء ، وفي طليعتهم رئيس المسجلين استخلصوا من اقواله ومواعظـه دلالة ثمينة جـداً : اصبحوا يعرفون الآن ، السلوك الذي يجب عليهم انتهاجه حيال سيدهم ليبلغوا مآربهم الشخصية .

راح المسجل العام يعرب عن شديد ميله واستئناسه بمشاريع بيير ، لكنه اطلعه على ضرورة تنظيم الامور التي كانت شديدة التعقيد ، قبل الشروع في ادخال تلك الاصلاحات .

صحيح ان بيير كان في تلك الاثناء يملك ثروة الكونت بيزوخوف الضخمه التي كانت مواردها السنوية تصل الى خمسمائة الف روبل كما كانوا يقولون ، الا انه كان يشعر مؤمناً انه كان أوسع غني من قبل ، عندما كان ابوه يعطيه عشرة آلاف روبل في العام لنفقاته الشخصيه . وفيما يلي الطريقة العجيبة التي كانت ميزانيته السنوية تقام على اساسها : كان يدفع لمجلس الصيانة عن املاكه كلها ، حوالي ثمانين الف روبلاً ، وثلاثين الف روبلاً لقاء الخدمات والصيانة عن ابنيته في موسكو وبيته الريفي وبيته في المدينة ودخل اميرات السنوي . وهناك نفقات اخرى كانت تستهلك خمسة عشر الف روبلاً ، ومؤسسات الاحسان والغوث مثلها . وكانت الكونتيس تنفق مائة وخمسين الف روبلا كل عام على نفسها ، وتبلغ فوائد الديون التي تدفع كل عام سبعون الف روبلا تقريباً وقد ارتفعت نفقات تشييد كنيسة جديدة الى عشرة آلاف روبل خلال العامين الآخرين . اما الباقي ويبلغ مائة الف روبل تقريباً ، فكان ينفق بشكل لا يعرفه بيير ولا يستطيع تحديده ، حتى انه في كل عام ، كان يجـــد نفسه مضطراً الى الاستدانه والاقتراض . أضف الى ذلك ، ان الوكيل العام ، كان يطلعه كل سنة على نبأ احتراق بعض المحصول او تلف البعض الآخر ، او القحط الذي نزل في مكان كذا ، او الاضرار اللاحقة ببعض الابنية والمعامل التي تتطلب اصلاحات فورية . فكان

على بيير والحالة هذه ، ان يشرع قبل كل شيء بالعناية بمصالحه ورعايتها، الأمر الذي كان يشعر بعجزه عن القيام به ونفوره منه .

راح يعمل كل يوم في تنظيم شؤونه بمساعدة وكيله العام . لكنه لم يلبث ان وجد ان العمل الذي شرع فيه طافح بالاخطاء وانه لم يكن يقدمه في طريق التحسن قيد انملة . كان وكيله العام من جهة ، يعرض عليه الامور من اسوأ زواياها ، فيمتدح سداد الديون وفرض سخر جديدة على العبيد ، الأمر الذي ما كان بيير يوافق عليه . ومن جهة اخرى ، كان هـذا يلح على تجهيز ما يجب لاقراض الفلاحين ، الامر الذي كان الوكيل العام لايراه ممكناً الا اذا سددت الديون لمجلس الصيانة . كان الوكيل يضيف الى اقواله ان بالامكان الشروع في اقرار الفلاحين منذ الآن ، شريطة ان تباع غابات كوستروما واراضي الفولجا المنخفضة وارض الكريمة . ولكن ، لكي تنجز هـــذه المبيعات ، لابد من اجراءات شديدة التعقيد ، على حد قول الوكيل العام ، بين دعاوى واجراءات نزع اليد ، وتراخيص الخ ... ، مما كان يجعل بيير يشعر بالدوار ، ويلجئه الى القول : « هو كذلك ، اعمل كما تراه مناسباً . »

كان بيير محروماً من الروح العملية والجلد الذي يتيح له ان يتبنى مشاكله بنفسه ، لذلك فقد كان ينفر من هذا العمل . لكنه كان يتظاهر باهتمامه الشديد امام المسجل العام . اما هذا ، فكان يتظاهر بأنه يرى تلك المشاغل شديدةالنفع لسيده مضجرة ومملة بالنسبة اليه .

وفي مدينة كبيرة ككييف ، وجد بيير ولا شك بعض معارفـــه ، بل وتعرف على اشخاص جدد ، كانوا يفخرون بصلتهم بثري كبير مثله حديث العهد في المدينة ، مالك اكبر ارض في المقاطعة ، فكانوا يدعونه متهافتين ويحيون الحفلات السخية على شرفـه . وكانت الاغراءات المتعلقة بضعفه الشخصي الذي اعترف به في المحفل ، من القوة حتى استحال عليـــه الصمود امامها . وهكذا

جرفته حمى الولائم والسهرات والحفلات في دوامـة لاراحـة فيها ولا توقف ، خـلال ايام كاملة واسابيع وشهور . وعاد بيير سيرته في بيترسبورج . لقد انغمس في حياته القديمة بدلاً من ان يشرع في حياة جديدة ، مع فارق واحد ، وهو ان المظهر كان مختلفاً .

اضطر الى الاعتراف بأنه لم ينفذ من الواجبات الثلاثة التي فرضتها عليه العقيدة الماسونية ، ذلك الذي يطالب كل ماسوني بان تكون قـدوته مثالية ، وبان اثنتين من الفضائل السبع ، وهما العادات الحميده وحب الموت ، لم تجد مكاناً في نفسه . لكنه كان يعزي نفسه بقوله انه ينفذ مهمة اخرى ، وهي تحسين النوع البشري ، وانه يملك فضائل اخرى مثل حب المجتمع وبصورة خاصة : الكرم.

قرر بيير العودة في ربيع عام ١٨٠٧ الى بيترسبورج ، وان يزور املاكه اثناء مروره بها . كان يتمسك بضرورة ملاحظة كيفية تنفيذ الاوامر التي اصدرها ؛ ومعرفة الوضع الحالي لذلك الشعب ؛ الذي وضعه الله امانة في عنقه؛ والذي كان يريد ان يكون المحسن اليه .

اما الوكيل العام الذي كان يرى ان مشروعات الكونت الشاب ليست الا باطلاً يسيء الى الملاك والفلاحين بقدر ما تسيء اليه نفسه ؛ فقد قرر ان يقوم ببعض المنح ارضاء لسيده . لم يكف فترة واحدة عن التدليل على استحالة تحرير العبيد الفلاحين واقرارهم ، لكنه أمر بمناسبة زيارة السيد ، ان تقـــام في كل الاملاك اسس ابنية ضخمة على غرار مايبنى للمدارس والمستشفيات والمـآوي . كان يعرف بعد دراسة عميقة لاخلاق بيير ، ان الاستقبالات الحافلة ستزعجه لذلك فقد استعاض عنها باستعدادات لتوزيع الخبز والملح واعمال البر مصحوبة باهداءات صور مقدسة ، قرر انها ستؤثر في قلب الكونت وتحرك مشاعره .

احدث ربيع الجنوب والسفر السريع في عربة مريحة من طراز عربات فيينا ، والوحدة الشاملة على الطريق ، تأثيراً حسناً على نفس بيير . كانت تلك

الاملاك التي يزورها لاول مرة ، تتبارى في الجمال وتتنافس عليه . كان اينما حل ، يرى السكان في مظهر من الرخاء يبرهنون له عن اخــــلاص مؤثر وتعلق شديد ، ويستقبلونه استقبالا يملأ نفسه غبطة وفرحاً الى جانب الخجل والارتباك اللذين كان يشعر بهما كذلك . وفي احدى ممتلكاته ، قدم له الفلاحون مع الخبز والملح ، صورة للقديسين بول وبيير ، وسألوه ان يوافق على اقــامة مذبح في الكنيسة على نفقتهم ، يكرس لسادته المقدسين ، اعترافاً منهم بما تلقوه منه من فضل واحسان . وفي مكان آخر ؛ جاءت النسوة مع رضعهن يستقبلنه شاكرات له اعفاءهن من السخرات والاعمال الشاقة بينما جاء القسيس بنفسه يستقبله في المرحلة الثالثة ؛ والصليب في يده ؛ وحوله اطفال كان يعلمهم الدين ومبادىء اللاتينية بفضل تدابير الكونت الاخيرة . وفي كل مكان ،كان بيير يرى الابنية تقام حسب مخطط موحد ؛ ابنية من الحجر ؛ كان مقرراً ان تصبح عما قريب ؛ مدارس ومشافي ومآوي وفي كل مكان ؛ كان وكلاؤه يحملون اليهم التقارير المشيرة الى تخفيف الاعمال عن كاهل الفلاحين والاقلال من السخرات ؛ وفي كل مكان كانت وفود الفلاحين في « قفاطينهم » جلابيهم الزرقاء ؛ تهرع اليه لتعبر له عن اخلاصها العميق وشكرها .

ما كان يعرف بالطبع ان الضاحية التي قدم له فيها الخبز والملح كانت ساحة تجارية يقام فيها معرض ريعه لكنيسة سان بيير ؛ وان مذبح القديسين بيير وبول كان يشيد منذ بعض الوقت على حساب اثرياء المنطقة ، وهم اولئك الذين جاؤوا يستقبلونه ، بينما كان تسعة اعشار الفلاحين في حالة من العوز والجوع الكاملين . ما كان يعرف ان اولئك الامهات الشابات اللاتي اعفين من السخرة بناء على اوامره . كن مقابل ذلك يقمن في بيوتهن باعمال مسخرة اكثر اجهاداً من اعمالهن السابقة . كان يجهل ان ذلك القسيس الذي استقبله والصليب في يده ، كان يوقر رعيته بالاعشار ويبهظ كاهـــل اولئك المساكين

الذين ماكانوا يسلمونه ابناءهم الا وهم يبكون ويدفعون له مبالغ كبيرة أجراً على تثقيفهم . كان يجهل ان الشروع في تلك الابنية الحجرية العتيدة ، كان يرهق الفلاحين لانه قام على نفقتهم وبجهودهم ، لان السخرة قد ضوعفت فعلا ولم تخفف الا على الورق ، كان يجهل ان فلانا من الوكلاء الذين كان يخطر أمامه ويتبجح بانه انقص - حسب رغبات سيده ـ الواجبات المقدرة على الفلاحين بمقدار الثلث ، مستشهداً بدفاتره وسجلاته ، قد ضاعف مقابل ذلك اعمال السخرة ، فأي عجب اذن ، اذا كان بيير في تجواله في املاكه قد انطبع بشعور من الراحة النفسية والغبطة . لقد راح يكتب الى اخيه الموجه ـ وهو الاسم الذي كان يطلقة على المعلم الاكبر ـ رسائل كلها حماسة واندفاع ، وقد استفزه الشعور بمحبة البشر الذي امتلأت نفسه به عندما كان في بيترسبورج .

كان يحدث نفسه قائلا : « كم هو سهل ، وكم من جهد يسير تافه يقتضيه تحقيق كل هذه الحسنات ، وكم نغفل الانشغال في مثل هذه الامور رغم بساطتها ! » .

كان سعيداً بالعرفان الذي أظهر نحوه في كل مكان ، رغم انه ما كان يتقبل تلك المظاهر الا بمزيد من الارتباك ، لانها كانت تذكره بانه قادر على عمل الشيء الكثير في سبيل هؤلاء البسطاء الطيبين .

كان الوكيل العام قد كشف عن حقيقة سيده فعرفها . عرف ان هذا الفتى الذكي ولكن الساذج ، يمكن ان يكون العوبة بين يديه . فلما رآى ان تدابيره الارتجالية المؤقتة قد احدثت في بيير الاثر المطلوب ، راح ذلك الداهية الماكر يعلن له بتلاعب لفظي ان اقرار العبيد الفلاحين مستحيل وعديم الجدوى لانه لن يضيف شيئاً الى سعادتهم .

كان بيير في اعماق نفسه يرى مثل هذا الرأي : كان يخيل اليه انه يستحيل ايجاد اشخاص اكثر سعادة من مماليكه ، خصوصاً وان والله يعرف

اي مصير ينتظرهم اذا حررهم . مع ذلك فقد الحّ في طلبه ارضاء لشعور العدالة والحق . فوعد الوكيل العام بان يعمل كل ماهو ممكن لتنفيذ هذا العمل . لقد كان يعرف سلفاً ان سيده عاجز عن التحقيق بنفسه اذا كانت التدابير قد اتخذت فعلا لبيع الغابات والاملاك المقرر بيعها لسداد دين مجلس الرعـاية ، وانه على ذلك ، سيظل دائماً جاهلا ما اذا كانت تلك الابنية الجميلة استعملت في الغاية المنتظرة منها ، واذا كان الفلاحون مستمرين على اعطاء كل مايعطونه للآخرين ، اي كل ما كانوا قادرين على اعطائه سواء أكان بالعمل ام لقاء أجر .



الفَصْلُ الحَادِي عَشَرْ

زيارة وتبشير

ولما كان بيير عائداً من الجنوب وهو على احسن مايكون من الغبطة والانشراح والارتياح ، فقد انتهز تلك الفرصة للقيام بالزيارة التي طالما أجلها واخرها ، زيارة صديقه بولكونسكي الذي لم يره منذ عامين كاملين .

كانت بوجوتشارفو ـ المقاطعة التي منحها الامير العجوز لابنه آندريه ـ واقعة في ناحية مسطحة موحشة ، تتخلل الحقول فيها ادغال الصنوبر والسندر ، مبعثرة هنا وكثيفة هناك ، والقرية مبنية على طول الطريق الكبير في خط مستقيم اما المقر الذي ينزل فيه السيد ؛ فقد كان مشيداً وراء بحيرة حديثه الحفر ممتلئة بالماء ؛ ذات حوافي مجردة لم تعبد بعد ؛ وسط غابة اصطناعية حديثة الغرس ؛ تشمخ فيه بعض شجرات الارز الكبيرة . وكانت دائرة السيد ؛ تشمل الى جانب البيادر وملحقاتها ؛ الاصطبلات والمغاسل والحمام والمنافع العامة ؛ وجناحاً ملحقاً وبناء كبيراً من الحجر ذا واجهة نصف دائرية لم يستكمل بناؤه بعد . وكانت حديقة وحديثة الغرس والاعداد تحيط بالمسكن . اما الحواجز الخشبية والبوابات فكانت جديدة ومتينة ، وتحت طنف قرب البيت ؛ كانت مضختان لمكافحة الحريق مستقرتين الى جانب برميل ماء

كبير مطلي بلون اخضر . وكانت الطرقات مخططة بدقة وعناية والجسور متينه محاطة بالحواجز ، وكل شيء في ذلك « الحانوت » يدل على النظام وتفهم عميق للحياة الريفية الزراعيــــة والتنظيم القروي . سأل بيير المماليك الخدم عن منزل سيدهم ؛ فأشاروا الى الجناح الجـــديد المقام على شاطىء البحيرة ؛ فقصد بيير الى البناء وهناك ؛ ساعده خادم اسمه انطون ـ كان يرافق الامير منذ صباه ويعنى بشؤونه ـ على الترجل من عربته واخــــبره بان سيده موجود وادخله غرفة صغيرة نظيفة .

كان ذلك المسكن المتواضع يتناقص كل التناقص من المظهر الباذج الانيق الذي شاهد بيير صديقه فيه آخر مرة في بيتر سبورج فادهشه هدا التحول وبادر الى ولوج البهو الصغير الذي لم تكن جدرانه قد غطيت كلهــــا بطبقة الجص ، والذي كانت تبعث منه رائحة خشب الصنوبر . هم بان يدخل الى الغرفة المجاورة لكن انطوان سبقه على اطراف قدميه فقرع بابها .

سأله صوت اجش مقبض من الداخل :

ــ ماذا هناك ؟

فاجاب انطوان :

ــ زيارة لك .

ــ دعة ينتظر .

ارتفع صوت تراجع مقعد ، فاندفع بيير ليصطدم بالامير آنــــدره على عتبة الباب وهو خارج من الغرفــــة مكتئب الوجه عابسه وعلى وجهه امارات الشيخوخة ؛ طوقه بذراعه ونزع نظارتيه ثم قبله في خديه وراح يتأمله عن قرب . قال آندريه :

ــ بحق الشيطان ما كنت انتظر !... انني شديد السرور لرؤيتك .

ذهل بيير من الانقلاب الكبير الواضح على مظهر صديقه ، فراح ينظر اليه

دون ان ينبس ببنت شفة . كانت كلمات الامير مسرحية ووجهه بسام، لكنه رغم كل رغبته واستعداده ، ما كان يستطيع ان يضيء وميض الفرح في عينيه الخابيتين . كم هزل بولكونسكي وشحب وشاخ . غير ان بيير لم يكن ليلقي بالاً الى كل هذا لولا تلك النظرة الميتة ، وذلك الاخدود الذي يقطع جبهته دلالة على تركيز التفكير في امر واحد زمناً طويلا . لقد كانت هناك هاتان البادرتان تحيفانه وتجعلان صديقه بعيداً عنه . مما اقتضاه فترة غير قصيرة ليألفهما .

وكما يحدث عادة في الحديث الذي يدور بين صديقين بعد غياب طويل ، فقد ظل الحديث يتعثر بينهما فترة حتى استقام. شرعا يبحثان في موضوعات مختلفة وفي آن واحد دون ان يولياها العناية التامة رغم ان تلك الموضوعات كانت جديرة بالبحث والنقاش ، كالبحث في ماضيهما وخططهما للمستقبل ورحلة بيير ومشاغله والحرب الخ ... ثم قام التفاهم بينهما رويداً رويداً واتفقا ضمنياً على بحث كل مسألة على حدة . كان الانهماك والتداعي الذين لاحظهما بيير في نظرة صديقه الامير آندريه، يبدو أن اكثر وضوحاً في الابتسامة التي ارتسمت على شفتيه ، والتي اخذ يستقبل بها الاحاديث التي كان الكونت الشاب يشرع فيها ،وبصورة خاصة مشاريعه الحماسية المتعلقة بالمستقبل ورواياته عن الماضي كانت تلك الامور رغم كل ماقد تثيره في نفسه من منعة - لاتستأثر باهتمام الامير . وكان هذا الاحساس ظاهراً على آندريه ، حتى ان بيير لم تفت عليه ملاحظته فادرك ان حماسته واحلامه وآماله في السعادة والفضيلة كانت في غير محلها . لذلك فقد عرض افكاره الماسونية الجديدة في شيء من الارتباك ، خصوصاً ما كان يتعلق منها برحلته وما شعر به بعد تلك الرحلة . اخذ يسيطر على لسانه خشية ان يبدو ساذجاً ، لكنه كان يتحرق شوقاً ورغبة في اظهار صديقه على انه اصبح الآن بييراً آخر غير الذي عرفه في بيتر سبورج . قال :

ـ لااستطيع اطلاعك على كل ماحدث في نفسي من تغييرات في الايام الاخيرة . انني لااكاد اعرف نفسي .

فاجابه آندريه :

ـ نعم ، لقد تبدلنا كثيراً ، كثيراً ،

سأله بيير :

ـ وانت ، ماهي مشاريعك وخططك ؟

فرد عليه آندريه بلهجة ساخرة :

ـ مشاريعي ؟

وكرر وكأن معنى تلك الكلمة كان يدهشه :

ـ خططي ؟ لكن كما ترى . انني ابني داراً واتوقع ان استقر هنا نهائياً في العام المقبل .

اخذ بيير يدقق في وجه صديقه المهرم وقال :

ـ انا لااتحدث عن هذا . لقد اردت سؤالك عن ...

فقاطعه آندريه قائلا :

إه ، مافائدة التحدث عني !... الافضل ان تقص عليّ رحلتك وكل ماعملته في املاكك هناك ...

شرع بيير يتحدث ـ ساعياً الى اخفاء دوره في هذا الموضوع ـ عن التحسينات التي بات ماليكه الفلاحون ينعمون بها . وقد انجز آندريه أكثر من مرة وكأنه يعرف ذلك منذ زمن طويل ، اللوحة الكلامية التي كان يصورها له بيير . لكنه كان واضحاً عليه انه لم يكن يعير ذلك الحديث اية اهمية بل انه كان يبدو خجلا لمجرد اصغائه الى تلك الترهات .

أخيراً شعر بيير بالضجر فآثر الصمت . ولاريب ان آندريه كان يحس مثل ذلك الاحساس ، لذلك فقد راح يبحث فقط عما يشغل ذلك الضيف

الذي كانت آراؤه لاينسجم ولاتتفق في شيء مع آرائه الشخصية. قال له :

ـ انت ترى ياعزيزي انني جئت اعسكر هنا ، ولقد قدمت لالقي نظرة على ماتم وسأعود بعد حين لالحق باختي في البيت ، سوف اقـــدمك اليها ... لكنك تعرفها على ما اعتقد ؟ ... سوف نذهب بعد العشاء ... والآن ، هل ترغب في زيارة ارضي وتفقدها ؟

ظلا يتنزهان حتى موعد العشاء وهما يتحدثان ، وكأنهما لاتربط بينهما الا معرفة سطحية ، عن اصدقائهما كليهما وعن الانباء السياسية . لم تتـــدفق الحيوية في نفس الامير آندريه الا عندما تحدث عن ترتيباته الجديدة . لكنه عاد فبتر الحديث فجأة ، بينما كان يتحدث عن التجهيزات المنتظرة ، خلال وصف جميل للمسكن المنتظر قال :

ـ ثم ان كل هذا لايثير الا اهتماما ضئيلا ... هيا بنا الى المائدة قبل ان نمضي الى القصر .

تحدثا خلال الطعام عن زواج بيير ، فقال آندريه :

ـ لقد ادهشني النبأ كل الدهشة .

تضرج وجه بيير كعادته وتطرق البحث الى هذه الناحية وبادر يقول :

ـ سأقص عليك ذات يوم كيف وقع كل هذا . اعلم فقط ان كل شيء قد انتهى وللأبد .

ـ للابد ؟ لاشيء يمكن ان يدوم الى الابد .

ـ هل تجهل اذن كيف انتهى الامر ؟ هل سمعت عن المبارزة ؟

ـ نعم ، انني اعرف أنك بلغت حتى هذا السبيل !

ـ ان الامر الوحيد الذي اشكر عليه ، هو انني لم اقتل ذلك الرجل .

ـ ولم الشكر؟ ان قتل كلب مسعور يبدو لي امراً ممتازاً .

ـ كلا . ان قتل رجل اثم ، انه غير حق ...

ـ غير عادل ؟ ولمَ ؟ ان الانسان لايمكنه ان يقرر الحـق والباطل ، الظلم والعدل . ان هذه هي النقطة التي اخطأ فيهاالانسان اكثر من غيرها ؛ وسيخطيء في تقديرها ابداً .

استأنف بيير وقد اسعده ان استثار الحديث اهتمام آندريه أخيراً ، وبدا كأنه يريد ان يفضي اليه بمكنونات نفسه في تلك الآونة :

ـ ان كل مايسيء المجتمع غير عادل !

ـ ومن الذي قال لك ماهو الشيء الذي يسيء الى المجتمع ؟

ـ كيف هذا اننا نعرف جميعاً . ما يسيء الينا .

فقال آندريه ، وفي نفسه رغبة في عرض وجهة نظره الجديدة على بيير :

ـ نعم ، اننا نعرفه . لكن ذلك الشر الذي اعتـبره مسيئاً اليّ شخصياً ، لااستطيع ان احمله للمجتمع .

ثم ازداد تحمسه واضاف بالفرنسية :

ـ انني لااعرف في الحياة الا سيئتين حقيقيتين : المرض وتبكيت الضمير ولا شيء احسن من غيابهما عن النفس والجسد . ان حكمتي الحالية تنحصر في ان اعيش لنفسى وان اتجنب هذين الشرين .

فاستأنف بيير مناقشاً :

ـ وحب المجتمع ، وروح التضحية ؟... انني لااستطيع ان اشاطرك الرأي ، ان يعيش المرء لمجرد ابتعاده عن الاساءة تجنباً لتبكيت الضمير ، امر تافه قليل ، لقد عشت كذلك ، عشت من اجل نفسي فحطمت حياتي والآن ، وانا اعيش للآخرين ـ وبادر الى تصحيح جملته بتواضع فقـــال ـ أعني انني احاول على الاقل ان اعيش للاخرين ، فانني على العكس ، بدأت اشعر بلذة الحياة وافهمها . كلا ، انني لست من رأيك ، ثم انك لاتؤمن بما تقوله بالفعل .

أخذ آندريه يتأمله وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة قال :

- سوف ترى اختي ماري ، وستتفق معها في الرأي .

واردف بعد فترة صمت :

- ان من الممكن ان تكون على حق في مايتعلق بك . لكن كل انسان يعيش كما يرى ، وعلى هواه . انك تزعم بعيشك من اجل نفسك ، كما عملت بادىء الامر ، كدت ان تفسد وجودك وتحطم حياتك ، وانك لم تتعرف الى السعادة الا عندما رحت تعيش للآخرين . لقد قمت بالتجربة العكسية . لقد عشت من اجل المجد ، والمجد هو حب المجتمع كذلك ، والرغبة في تحقيق شيء من اجله ، الرغبة في ان امتدح من قبله . اذن ، عشت من اجل الآخرين ، فحطمت حياتي كلها نهائيا . انني منذ ان بدأت اعيش من اجل نفسي ، شعرت على العكس ، باكثر قسط من الراحة والهدوء .

فناقشه بيير بحماس :

- ولكن كيف يمكن ان يعيش المرء من اجل نفسه فقط ؟ وابنك ، واختك ووالدك ؟

انهم يدخلون في ال « أنا » ، انه ليسوا الآخرين . انالآخرين، المجتمع ، كما تسميهم انت وماري ، هم السبب الجوهري للخطأ والشر . ان المجتمع هو فلاحو كييف الذي تريد ان تعمل صالحاً من اجلهم .

خيل لبيير ان نظرته الهازئة تتحداه . فأجابه وقد ازداد حماسه توقداً :

- انك تمزح ولا ريب ، كيف يمكن ان تكون رغبتي في عمل الخير خطأ وشراً ؟ قد اكون اخطأت في الترتيبات والتنفيذ ، لكن نيتي طيبة ، وقد قمت ببعض الخير رغم كل شيء ، شر في ان يخفف عن فلاحينا التعساء ، الذين هم من بني الانسان مثلنا ، والذين يكبرون ويموتون دون ان يعرفوا عن الله والحق الا تطبيقات غير مجدية وصلوات ربانية سخيفة ، اقول ، اي شر في ان يطلعوا على مايخفف عن نفوسهم ، فيعرفوا شيئاً عن الحياة الاخرى

التي تنتظرهم جزاء لهم على اعمالهم ؛ وتخفيفاً عمـــا في نفوسهم ؟ أي شر واي خطأ في ان نجنب الرجـال الموت دون غوث مادي ، وفي ان نؤمن لهم حاجتهم من الاطباء والمستشفيات والملاجيء مع مافي ذلك من يسر ؟ أليس منح بعض الراحة لاولئك التعساء البـائسين وللامهات الشابات اللواتي يقتلن انفسهن في العمل المرهق ، عملا طيباً لايبارى ؟..

كان بيير يتحدث بسرعة متمتها فلما بلغ هذا الحد ، اعقب بصوت هادىء وبرزانة قائلا :

-- هذا ماعملته صحيح انه كان عملا ناقصاً وانه نفذ بشكل غـــير مرض كليا ، لكنني عملته على كل حال . انني لن اصدق ابداً ، مهما قلت وأكدت ، انني اسأت صنعاً فحسب ، بل لن اصدق كذلك انك لم تفكر في هذا بالمثل ، ان المتعة التي يشعر بها الانسان بعد عمـل الخير هي سعادة الحياة الحقيقية . انني اعرف ذلك الآن وفي نفسي القناعة الكاملة وهذا هو الشيء الاساسي .

استأنف الامير آندريه قائلا :

– على هذا الاساس ، فان المسألة تبدو بشكن مختلف تماماً . انني اشيد داراً او اغرس شجراً . وانت ، تبني مشافي . لكل منـا تسليته ، اما ماهو خير وما هو عـــادل ، فدع للذي يعرف كل شيء فرصة تقرير ذلك . ان هذه المسألة ليست شأننا ... لكن ، اتريد ان نتناقش ؟ هيا ، ليكن !

– حسنا ، لنستمر...انك تقول: مدارس ، مواعظ وماذا بعد ؟الخلاص انك تريد أن تسحب هذا المخلوق ـ واشار الى فلاح كان يمر في تلك اللحظة محيياً ـ من حالته الحيوانيه الحالية لتعطيه ما ينقصه من النواحي الفكرية والخلقية . اما أنا ، فاعتقد على العكس ، ان سعادته الوحيدة الممكنه كامنة على الدقة في هذه السعادة الحيوانية التي تود سلبها منه . انني اغبطه في الوقت الذي تريد أنت ان

ان تجعله « أنا » دون ان تعطيه على اية حال واحداً أو اكثر من مصادري...
ثم تقول بعدئذ : لنخفف عنه عمله . لكنني اقـدر عكس ذلك ايضاً ان العمل الجسدي يعتبر ضرورة بالنسبة لك ولي . انك لاتستطيع ابداً ان تتخلى عن التفكير ، وانا لا انام قبل الساعة الثانية او بعدها . لأن حشداً كبيراً من الاشياء يتجمع في رأسي ، فاتقلب واتقلب ولا اجد سبيلاً الى النوم كل لانني لااستطيع ان اعمل شيئاً غير التفكير . وعلى ذلك فانه لن يستطيع التخلي بدوره عن الحراثة والحصاد وإلا ، ذهب الى الحانات وسقط فريسة للامراض . انني لا استطيع احتمال عمله الجسدي المخيف ، لأنه سيقتلني في بحر اسبوع اذا مارسته . كذلك فان بطالتي ستجعله عظيم السمنة وستقتله ... ثالثاً ... ماذا كنت تقول ؟ آه! لقد تذكرت .

وثنى اصبعه الثالث واردف :

ـ المستشفيات والمـداواة . فهو اذا اصيب بضربة دم مات . أما انت ، فتريد ان تعالجه ليشقى . سيعيش عشر سنين بعد شفائه . لكنه سيكون مقعداً ، عاجزاً ، عالة على الآخرين ومن الخير له ان يموت مرة واحدة . ان غيره يولدون بكثرة ، وسيحلون محله باستمرار ، وسيكون عددهم ابداً كافياً . فاذا كنت تأسف لخسارة عامل ـ وانني اعتبر الأمر كذلك ـ فليكن ! لكن كلا ، انك تريد معالجته حباً به ليس إلا ! انه ليس في حاجة الى مساعدتك ... ثم من الذي شفاه الطب حتى الآن ؟ ان الطب لايعرف الا القتل !

واشاح بوجهه غاضباً . كان آندريه يتحدث بطلاقة ووضوح الرجل الذي ناقش هذه الافكار في نفسه طويلاً ، والذي وجد اخيراً مجالاً للتعبير عما يجيش في صدره . فكلما كانت استنتاجاته كثيبة مظلمة ، ازداد بريق عينيه وميضاً .

قال بيير :

ـ آه ! ان هذا مريع ، ان هذا مريع ! كيف يمكن ان يعيش المرء بمثل

الآراء ! لقد عرفت والحق يقال ـ دقائق من هـذا الطراز في موسكو واثناء سفري ... لكنني لما اشعر بسقوطي في مثل هذا الاسفاف ، لا اشعر بالحياة ، بل ان كل شيء يبدو لعيني بشعاً كريهاً ، اعتباراً من نفسي ... وعندئذ أعزف عن الطعام والاغتسال ... وانت ؟

لمَ اهمال النفس ؟ ان ذلك يعتبر قذارة ... يجب على العكس ان يجهد المرء ليجعل حياته على اقصى مايستطيع من درجات الرفاهية . اذا كنت اعيش فليس ذلك خطأي . فلنعش اذن على خير ما نستطيع بانتظار لحظة الموت .

– ولكن كيف يمكنك مع ذلك ان تتمتع بالحياة وتشعر بلذة العيش ؟ عندما يكون المرء في مثل هذه الحالة ، فان من الافضل ان يدفن نفسه في احد الاركان وان يستغرق في تأملاته ويضرب اخماسه بأسداسه ...

– الا ترى ، ان الحياة لاتترك لنا مجالاً للراحة . ولولا ذلك ، لاسعدني ان اعيش دون ان اعمل شيئاً . لكن فئة النبلاء في المقاطعة ارادت بادىء الأمر ان تنتخبني قيماً على مصالحها . ولقد وجدت صعوبات كبيرة في اقناع هؤلاء السادة بأنني لم اكن رجلهم المنشود ، لان المنصب يتطلب استعداداً نفسياً مرحاً ودناءة مستمرة ، مما يتوفر فيّ . ثم اضطررت الى تشييد هذ البيت لأجد لنفسي ركناً خاصاً اشعر فيه بالراحة . وأخيراً جاء دور « الميليشيا » .

– لمَ لم تعد الى الخدمة العسكرية ؟

فأجاب الامير بصوت كئيب :

– بعد اوسترليتز ! كلا ، مع عظيم الشكر ! لقد آليت على نفسي ان لا اعود الى الخدمة الفعلية ، ولسوف احافظ على وعدي . ولو ان بونابارت وصل الى ابواب سمولنسك وبات يهدد ليسيياجوري ، فانني لن اعود الى الخدمة الفعلية ...

ثم تابع بصوت استعاد بعض هدوئه :

– انني كما قلت لك ، وجدت ان خير وسيلة للافلات من الخدمة الفعلية هي

ان اعمل ملحقاً لأبي الذي يقود المنطقة الثالثة لاعداد الميليشيا .

– انك اذن في الخدمة اليس كذلك ؟

وصمت فترة طويلة . سأله بيير بالحاح :

– ولمَ تخدم ؟

– اليك السبب : ان ابي من ابرز شخصيات عصره واهمها لكنه اصبح اليوم هرماً ، واضحى تصرفه على شيء من العنف دون ان تكون فيه قسوة . والآن قد منحه الامبراطور سلطة غير محدودة بوضعه على رأس فرق الجيش الفني ، اضافة الى عاداته الآمرة ، فقد اصبح خطراً يخشى جانبه . لقد كاد منذ خمسة عشر يوماً ان ينفذ حكم الاعدام شنقاً في واحد من المقيّدين في إيوخنوف لو تأخرت ساعتين عن الوصول .

وابتسم آندريه واردف :

– واذن ، اذا كنت اخدم ، فلأنه لايوجد سواي من يستطيع التاثير على عقلية ابي ، وانني من حين الى آخر أستطيع منعه عن القيام ببعض الاعمال التي يمكن ان يأسف عليها فيما بعد أسفاً عميقاً .

– أرأيت !

– نعم ، ولكن ليس كما تتصور الامروتفسره. انني ما كنت اطلب ولن أطلب اي خير لذلك المقيّد الذي سرق احذية الميليشيا ، بل انني كنت سأنظر اليه وهو يشنق بسرور . لكنني اشفقت على أبي وأعني انني أشفقت على نفسي مرة اخري .

أخذ انفعال الامير يزداد تدريجياً . وبينما كان يجهد في ان يبرهن لبيير ان اعماله لاتضم شيئاً من ارادة الخير للآخرين ، كانت عيناه تتوقدان بحماسة محمومة . استأنف القول :

– واذن ، فانك تنوي تحرير العبيد واقرارهم . انها نية ممتازة . لكنها لن

تكون ذات نفع لك ـ وانت الذي لم تأمر بجلدهم قط أو نفيهم الى سيبيريا كما اعتقد ـ ولا لهم . بل انني اعتقد انهم اذا جلدوا أو أبعدوا ، فان ذلك لن يكون في رأيهم شيئاً كل السوء . ولو ارسلوا الى سيبيريا لتابعوا حياتهم الحيوانية هناك وكأن شيئاً لم يحدث . فاذا ما التأمت جروح السياط وبرئت ، فانهم سيشعرون بمثل سعادتهم السابقة . مع ذلك ، فان التحرير والاقرار ضروريان . ولكن لاولئك الذين يخنقون في انفسهم صوت تبكيت الضمير بعد ان فقدوا تدريجياً الاحساس الروحي ، فيقسون في عادتهم الرديئة التي يعتبرونها حقاً لهم ، وهي انزال العقاب بعدل أو بغير عـــدل . هؤلاء هم الذين اشفق عليهم والذين أتمنى ان يُصار الى تحرير العبيد الفلاحين بسببهم . لعلك لاتعرف بعضاً من هؤلاء لكنني رايت اشخاصاً بارزين نشأوا في تقاليـــد السلطة المطلقة ، فأصبحوا مع السنين ، اكثر استجابة للغضب واشد قسوة ووحشية . وهم يعرفون ذلك عن انفسهم لكنهم لايستطيعون السيطرة على رغائبهم فيزدادون تعاسة وحزنا .

كان آندريه يتحدث بحرارة . فكر بيير في سره مرغماً : « لاشك ان هذه الافكار قد تسربت الى نفسه من تأثير عقلية ابنه . » لم يجب ، بينما اعقب آندريه قائلاً :

ـ نعم « هؤلاء هم الذين يوحون اليّ بالشفقة : واعني كرامـة الانسان ، راحة الضمير ونقاء الروح . أما الظهور والرؤوس ، ظهور هؤلاء الاشخاص ورؤوسهم ، فانك مهما جلدت وحلقت ، فانها ستبقى أبداً ظهوراً ورؤوساً !

فقال بيير :

ـ كلا وألف كلا ، لن اكون ابداً من رأيك .

الفَصْلُ الثّاني عَشَرْ

مناقشة

استقل آندريه وبيير العربة وقصدا الى ليسيباجوري عند حلول الظلام .

كان آندريه يلقي نظرات مختلسة على بيير ويقطع الصمت من حين الى آخر ليتحدث في موضوعات مرحة مسلية . كان يفسر له وهو يريه الحقول ، مختلف التحسينات التي ادخلها على الاستثمار .

لم يكن بيير يجيبه الا بكلمات وحيدة المقاطع ، دلالة على استغراقـــه في تأملات قاتمة مكدرة . كان يفكر في ان صديقه تعيس موغل في السبيل الخطأ ، جاهل النور الحقيقي ، وان عليه ان يضيء افكاره وينتشله من وهدته . لكنه عندما كان يفكر في اقواله واسلوبه في الكلام ، كان يشعر بأن آندريه قادر على تهديم كل مناقشته بكلمة واحدة. لذلك فقد كان يتردد في الشروع في الكلام خشية تعريض قدس أقداسه للهزء والسخرية .

قال بعد حين وقد احنى رأسه اشبه بالثور الذي يتأهب للنطاح :

– قل لي ، من أين لك هذه الافكار ؟ لايجب ان تفكر على هذا النحو .

سأله الامير حائراً :

– أية افكار ؟

- افكارك عن الحياة ومهمة الانسان . لقد كانت لي افكار مثلها أنا الآخر ، لكن اتدري ماذا انقذني منها ؟ الماسونية . آه ! لاتبسم . انها ليست كما كنت اظنها مذهباً دينياً كله طقوس . بل انها اجمل تعبير عما في الانسان من أحسن ومن ازلي باق . انها المعبر الوحيد عن كل هذا .

وراح يعرض شارحاً الماسونية - حسب رأيه - ، مؤكداً انها الشريعة المسيحية النقية المتحررة من قيود الحكومات والاديان ، شريعــــة المساواة والاخاء والحب . قال :

- ان محفلنا المقدس هو الوحيد الذي يملك معني الحياة الحقيقي ، وكل ماعداه احلام ووهم . ان كل شيء خارج نطاق المحفل ليس الا كذبا وخطأ وزوراً خارج دائرة المحفل وعقيدته ، لايبقى للرجل الذكي النبيل الا ان يعيش حتى يموت ، جاهداً ان لايسيء الى سواه ، تمــــاماً كما تفعل انت انني على اتم وفاق معك حول هذا . لكنك اذا اعتنقت مبادئنا الاساسية ، اذا دخلت في محفلنا ، اذا اسلمت زمامك لنا ، اذا تركتنا نوجهك ونرشدك ، فانك ستشعر على الفور كما شعرت انا من قبل ، بانك حلقة في تلك السلسلة الهائلة غير المنظورة ، والتي تضيع بدايتها في الاجواء العليا ، في السماوات .

كان آندريه يصغي الى بيير دون ان يتفوه بكلمة ، وعيناه شاخصتان الى نقطه وهمية أمامه . رجاه اكثر من مرة ان يكرر بعض الـكلمات والعبارات التي لم يستوعبها للمرة الاولى بسبب ضجيج العربة . شجع سكوته والتريق الخاص الذي انبعث عن عينيه ، « بييراً » على الاسترسال شعر • انه لم يعد يتحدث عبثاً ، وانه لاخوف عليه من مقاطعات صديقه او سخريته .

بلغا نهراً فائضاً اضطرا الى اجتيازه على طوف كبير . وبينما راح الخدم ينقلون العربة والخيول الى العابرة ، اخذ الصديقان مكانهما عليها متابعين الحديث كان آندريه متأكداً على حاجز الطوف ، يتأمل المياه الهادرة التي تنعكس عليها

آخر اشعاعات الشمس الغاربة ، بصمت ووجوم سأله بيير :
– حسنا ! مارأيك في كل هذا ؟ لمَ انت صامت ؟
– مارأيي ؟ لكنني مصغ اليك . ان كل هذا جميل ولا شك . انك تقول: ادخل في محفلنا وسندلك على غاية الحياة ومصير الانسان والقوانين التي تسيّر العالم . لكن من نحن ، غير مخلوقات بسيطة فانية ؟ كيف حدث انكم تعرفون كل شيء ؟ كيف حدث انني وحدي لاأرى ماترونه على هذه الارض ؟ انكم ترون على الارض ملكوت الخير والحق وانا لاأراه .
قاطعه بيير قائلا :
– هل تؤمن بالحياة الآخرة ؟
– الحياة الآخرة ؟
ولما كان بيير يعرف من قبل ان صديقه ملحد ، فقد اعتبر استفساره هذا نفياً ، فلم يعطه وقتاً للجواب او التفسير واستأنف قائلا :
– انك تقول أنه يستحيل عليك رؤية ملكوت الحق والخير على الارض انني انا الآخر ماكنت أراه . اذ ليس ممكناً أن نراه اذا اعتبرنا ان نهاية حياتنا هي نهاية كل شيء . على الارض ، نعم على هذه الارض ـ وأشار الى السهل ـ لايوجد حق . أن كل شيء عليها كذب وشر . ولكن في العالمين ، في مجموع الكون ، تسود الحقيقة . اننا ابناء الارض لفترة وجيزة . لكننا في الازل ، ابناء الكون . ألست أشعر في اعماق نفسي بأنني جزء من هذا الكون الهائل المتناسق ؟ ألست أشعر في اعماق روحي انني ، في هذه الكميه العظيمة المحدودة من المخلوقات التي تتجلى القدرة فيها أو القوة العليا ، كما تشاء ، لست الا حلقة صغيرة ، درجة من سلالم الخلق ، من أدناها الى أرفعها ؟ بلى ، انني أرى ، وارى بوضوح ذلك السلم الذي يبدأ من النبتة حتى يصل الى الانسان . فلمَ اذن اعتقد انه عندما يصل اليّ ينتهي عندي بدلا من القناعة والايمان بأنه يمضي بعيداً

كذلك الى أبعد مني ؟ انني أشعر انني لايمكن ان اختفي من الوجود لأن لاشيء يختفي فيه . انني اشعر بأنني كنت من الأزل وسأبقى الى الازل . انني احسّ بوجود أرواح اخرى غيري وارفع مني تعيش في الكون معي . وفي هذا الكون ، تقيم الحقيقة ويجثم الحق .

قال آندريه :

– نعم ان هذه عقيدة هيردر[1] لكنها ياعزيزي لن تقنعني ان الحياة والموت هما وحدهما مجلبه للقناعة والايمان . ان مايقنعك ، هو ان ترى مخلوقاً كنت شديد التعلق به مذنباً حياله ، كنت تفكر في التكفير عن اخطائك نحوه – واخذ صوته يرتعد انفعالا ، فاشاح بوجهه – اقول ، ان ترى هذا المخلوق العزيز الغالي يتألم فجأة ويحتمل اوجاعاً رهيبة مريعة ، ثم يكف عن الحياة ، فلمَ هذا ؟ لايمكن ان يكون هذا السؤال دون جواب انني اعتقد ان هناك جوابا على الاقل ... ان هذا المقنع ، وهذا مااقنعني .

– لكن بلى ، بلى . ان هذا ماكنت اقوله لك .

– ابداً ياعزيزي . اصغ الي جيداً : ان الحياة الآخرة ليست الحجج التي تثبت لي ضرورة ذلك ، بل انها الواقعة التالية : يدخل المرء في مضمار الحياة ممسكا بآخر في يده . وفجأة يختفي هذا الآخر ، « هناك في العدم » . وعندئذ يقف المرء على حافة الهاوية يتفحصها بعينيه باحثاً .. ولقد تفحصتها بنفسي .

– حسناً ! انك اذن تعرف ان في الامر « هناك » و « بعضهم » ان هذه الـ : « هناك » هي الحياة الاخرة ، وذلك الـ : « بعضهم » هو الله .

---

(١) جان جوتغريد دو هيردر كاتب الماني شهير ، ولد في مهرونجن عام ١٧٤٤ وتوفي عام ١٨٠٣ وضع المؤلف الشهير : فلسفة تاريخ الانسانية

لم يجب آندريه . كانت العربة قد سحبت من الطوف الى الشاطىء الاخر وقطرت الخيول اليها ، والشمس كادت ان تغيب ، وجليد المساء يرسم نجوماً من برك الماء الصغيرة المنتثرة على الشاطىء . لكن السيدين ظلا في مكانيهما على الطوف لايبرحـــانه ، الامر الذي اثار دهشة الخدم واستغرابهم . لبث بيير وآندريه يتناقشان دون ان يفكر احدهما في مغادرة الطوف .

كان بيير يُقلوِن وهو يشير الى السماء .

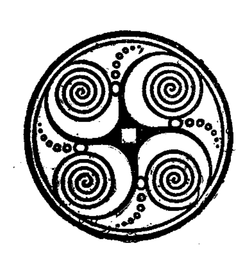
ـ اذا كان الله موجوداً ، والحياة الاخرة موجودة ، فان الحقيقة والفضيلة موجودتان كذلك . والامنية القصوى والنعيم المقيم ، في السعي لمعرفتها ينبغي ان يعيش المرء وان يحب وان لايعتقد باننا نعيش على هذه القطعة من الارض فحسب ، بل اننا عشنا وسنعيش الى الابد هناك ، في « الكل » .

لبث آندريه يصغي الى بيير وهو متكىء الى حـــاجز الطوف ، لاتفارق عيناه الامواه الزرقاء اللامعة التي يلقي عليها المغيب سهامه الحمراء . صمت بيير وخيم سكون عميق ، لايقطعه الا تكسر المياه الهادرة على جوانب الطوف الراسي على الشاطيء منذ حين . خيّل لآندريه ان يسمع في هذه الدمدمة الغامضة ، صدى لاقوال بيير : « تلك هي الحقيقة فصدق » اطلق زفرة وشمل وجه بيير المتضرج بجلال ، بنظرة مشعة صبوية حانية . كان وجه بيير رغم وقاره يحمل طابع الخجل ازاء هذا الصديق الذي يعرف انه متوفق عليه في كل شيء قال أخيراً :

ـ نعم ، على الامر كذلك ! هيا ، لنصعد الى العربة .

ولما جلا عن الطوف ، رفع عينيه الى السماء التي اشار بيير اليها منذ حين ، فرآى من جديد ، للمرة الاولى منذ اوسترليتز ، تلك السماء الازلية العميقة المتسامية التي تأملها على ساحة المعركة ولقد كان لذلك المشهد في نفسه تجديد

للغبطة والحنان اللذين افتقدهما . لكن ذلك تبدد من فوره ، حالما عاد الامير آندريه الى واقعه المألوف في الحياة . غير انه كان يعرف ان ذلك الشعور الذي لم يغذيه وينشئه في روحه ، باق في اعماقه حيّ فيه . وعلى الرغم من ان مظهر آندريه لم ينم عن شيء مما في نفسه ، فان ذلك الحديث الذي دار بينه وبين بيير ، اشرق في اعماقه فجراً جديداً داخلياً غير مألوف لديه .



الفَصْلُ الثّالِثُ عَشَر

رجال الله

وصلت العربة الى ليسيياجوري ووقفت امام الطنف الكبير بعد حلول الظلام . نبه آندره صديقه بيير الى الذعر الشديد الذي احدثه وصولهما على مدخل باب الخدم . لقد كانت هناك عجوز محنية الظهر ، جرابها على كتفها ، يصحبها رجل قصير القامة طويل الشعر مرتدياً البسة سوداء ، يجريان الى الباب العمومي هاربين ، وفي اعقابهما امرأتان ركضتا تحاولان اللحاق بهما . فلما اجتمع اربعتهم ، ألقوا نظرة ذعر ووجل الى العربة واندفعوا الى سلم الخدم .

قال آندره :

— هؤلاء هم « رجال الله » عند اختي ماري . لقد اعتقدوا ان ماري تستقبلهم دائماً ، رغم أن أبي دأب على طردهم دون هوادة . ان هذا هو الامر الوحيد الذي تخالفه ماري من اوامر أبي .

سأل بيير :

— ولكن مامعنى رجال الله ، ومن هم هؤلاء ؟

لم يجد آندره متسعاً للاجابة عليه ، فقد هرع الخدم لاستقبالهما ، فسألهم

. الى أوه ان الامير العجوز لازال في المدينة ، لكنهم ينتظرونه بين لحظة واخرى .

قاد آندره صديقه بيير الى حجراته المعدة للاستقبال ، حيث تركه فترة ليستطلع انباء ابنه ويراه . ولما عاد اليه قال له وهو يتقدمه :

ـ والآن ، هيا بنا الى اختي . انني لم ألمحها ، انها محتجبة في حجرتها مع محميها . سوف نفاجئها ، وسيغمرها الخجل . لكنك سترى رجال الله . انهم لعمري يثيرون التطلع .

سأل بيير مرة اخرى :

ـ مامعنى رجال الله ؟

ـ سوف ترى بنفسك .

خجلت الاميرة ماري كل الخجل لدى دخولها الى غرفتها الجميلة ، حيث القناديل مضاءة بجلال قرب خزانة التمائم المقدسة ، وعلت وجهها بقع حمراء تضرجه . كانت جالسة على اريكة تتناول الشاي بصحبة فتى طويل الانف والشعر مرتدياً مسوح راهب . وكانت امرأة عجوز عجفاء هزيلة ، ذات وجه يشبه وجوه الاطفال في دعته ، تشغل مقعداً وثيراً بجانبها .

قالت ماري في رنة لوم خفيفة :

ـ لمَ لم تخطرني بقدومك يا آندره ؟

وهرعت تقف بينه وبين حجاجها ، كالدجاجة التي تحمي صغاره ، واردفت :

ـ انني سعيدة جداً لرؤيتك يا كونت .

وقبلت يد بيير . كانا يعرفان بعضهما منذ الطفولة . والان ، فان صداقته التي كانت تربطه الى آندره ، ومصائبه الزوجية واشجانه ، وعلى الاخص وجهه الصريح الطيب ، كل هذه الاشياء كانت تحمل ماري على الميل اليه . لبثت تحدق في وجهه بعينيها الجميلتين المتوقدتين وكأن نظرتها تقول : « انني احبك كثيراً

ولكن رحماك ، لاتسخر من جماعتي ! »

تبادلا التحية والتمنيات المألوفة وجلسوا جميعاً . قال آندره مشفعاً كلامه بابتسامة موجهة الى الحاج الشاب:

– هه ! ها ان ايفانوشكا هنا كذلك !

فهتفت ماري بلهجة متوسلة :

– آندره !

فقال هذا لبيير :

– ينبغي ان تعلم انه امرأة لا رجل كما تظن .

كررت ماري توسلها :

– آندريه ، ناشدتك الله .

كان من الواضح ان مشاكسات آندريه للحجاج ، واحتجاجات ماري غير المثمرة لحمايتهم ، كانت متأصلة في اعماق الاخ والاخت ، اصيلة في عاداتهما.
قال آندريه :

– ولكن ياصديقتي الطيبة ، ينبغي ان تشكري لي مااحتملة من عناء في شرح علاقتك الاليفة مع هذا الفتى !

قال بيير وهو يتفحص وجه الحاج خلال نظارتيه بفضول خطير ، كانت ماري شاكرة له سلوكه الجدي :

– صحيح ؟ .

وادرك ايفانوشكا انهم يتحدثون عنه فراح يجيل حوله نظرة ماكرة .

اخطأت ماري في دفاعها عن « جماعتها » وخوفهـــا عليهم لانهم لم يكونوا مرتبكين مطلقاً ازاء تلك النظرات المتطفلة . كانت العجوز ذات العينين المطرقتين التي كانت تختلس بين حين وآخر نظرة دائرية الى وجهي القادمين ، قد قلبت قدحها على الصفحة ووضعت بجانبه قطعـة السكر التي قرضت نصفها ،

منتظرة ان يقدم لها الشاي من جديد ، وهي جامدة ساكنة على مقعدها . اما ايفانوشكا ، فقد كان يرقب القادمين خلسة بعينيه الماكرتين الشبيهتين بعيني الامرأة ، وهو يتجرع محتويات قدحه بتمهل وسكون في الصفحة دون القدح .

سأل آندريه المرأة العجوز :

– من اين قدمت هكذا ؟ امن كييف ؟ لاشك ؟

فاجابت العجوز وقد اسعدها ان تحل عقال لسانها :

– لقد ذهبت الى كييف ياابي وقد أسعدت ، في يوم عيد الميلاد المقدس ، بتلقي « المناولة » المقدسة قرب ضريح الصالحين ... اما الآن فانني قادمة من كوليازين[1] ياابي . لقد ظهرت فيها معجزة كبرى .

– وهل يصحبك ايفانوشكا ؟

فأجاب هذا ساعياً الى النطق بصوت خفيض :

– كلا يا أبي الرضعي . انني امضي في سبيلي . انني لم التق ب : بيلاجويوشكا الا في ايوخنوف ...

لكن العجوز لم تدعه يسترسل . لقد كانت تتحرق شوقاً الى رواية ماشاهدته :

– لقد تبدت معجزة كبيرة في كوليازين ياأبي .

سأل آندريه :

– ماذا حدث ؟ أهي بقايا اجساد مقدسة اكتشفت ؟

---

(١) ورد في حاشية المترجم ان كييف هي أهم منطقة للحج في روسيا ، يتوافد المؤمنون للتبرك في دير الاقبية ، بأضرحة مائة وثماني عشر ولياً صالحاً . اما كوليازين فهي مدينة صغيرة في مقاطعة تفير ، فيا دير [illegible] كذلك ، ديرسانت ترينيته (الثالوث المقدس) ، يتوافد الحجاج بكثرة اليه وخصوصاً يوم الجمعة العاشرة بعد عيد الفصح . ولقد اطلقنا على دير كييف اسم دير الأقبية ترجمة لكلمة (Cryptes) .

فقالت ماري :

– ارجوك يا آندريه . لاتقصي شيئاً يابيلاجويوشكا

– ولمَ لا يا امي ؟ انني احبه كثيراً . انه مختار من الرب ، وهو طيب القلب . لقد اعطاني مرة عشرة روبلات لازلت اذكرها حتماً ... واذن ، بينما كنت في كييف ، قابلت صدفة كيروشا البريء – وهو من رجال الله المقدسين يمشي حافي القدمين في الصيف وفي الشتاء . – قال لي : « ماذاجئت تعملين هنا ، ليس مكانك هنا ، اذهبي الى كوليازين ، فهناك صورة عجيبة ،ان امنا العذراءشديدة القدسية قد تجلت . » هكذا قال لي،وعندئذودعت الاولياء الصالحين وسرت في الطريق .

كانوا جميعاً صامتين ، متعلقة اعينهم بشفتي التقية التي كانت تروي قصصها بصوت متزن ، تقطعه تنفساتها العميقة . اردفت :

– ولما وصلت ، قال لي كل الناس « ان نعمة ربانية قدطهرت ، انالبلسم المقدس يقطر من وجنة امنا العذراء شديدة الطهر . »

قالت ماري :

– هيا ، كفى . ستقصين هذه الحكاية مرة اخرى .

فتدخل بيير قائلًا :

– اسمحي لي ان القي عليها سؤالاً . هل رأيت ذلك بنفسك ؟

– لاشك ياأبي ، لقد حصل لي هذا الشرف العظيم . كان وجه امنا الطيبة يلمع بنور سماوي والبلسم الشافي يقطر من وجنتها قطرة فقطرة .

فهتف بيير بسذاجة بعد ان اصغى باهتمام بالغ الى مزاعم العجوز :

– لكن هذه خرافة !

فقالت هذه مذعورة مغضبة تناشد الأميرة ماري الحماية بنظرة :

– ماهذا الذي تقوله ياابي !

كرر بيير بإلحاح :

ــ هكذا يخدعون الشعب .

هتفت التائهة وهي ترسم على صدرها اشارة الصليب :

ــ ياسيدي يسوع ! اوه ! لاتتحدث هكذا ياأبي ! كان هناك جنرال لم يشأ تصديق المعجزة . قال : « إنها خدعة من القساوسة » لكنه اصيب لفوره بالعمى . وقد حلم في نومه ان امنا المقدسة في كريبت جاءت اليه وقالت له « آمن بي وسأشفيك » وعندئذ راح يتوسل ضارعاً : « خذوني اليها ، خذوني اليها ! » ان ما اقوله لك هو الحقيقة الحقة . لقد رأيته ، لقد رأيته بعيني هاتين . وعندئذ اخذوا الاعمى اليها مباشرة فتهالك على ركبتيه وهويقول : « اشفيني وسأعطيك ما منحنيه القيصر . » وانه صحيح ياأبي ، اذ انني رأيت نجمته ـ وتقصد رتبة الجنرالية ـ معلقة في الصورة المقدسة . واعادت اليه الأبصار الام الطيبة !... انها خطيئة ان تتحدث هكذا . ان الله سيعاقبك .

سأل بيير غير مبال بلهجتها الصارمة :

ــ ولكن كيف وجدت النجمة معلقة فجاة في الصورة ؟

واعقب آندريه ضاحكاً :

ــ هل منحوا الام الطيبة رتبة جنرال ، ياترى ؟

شحب وجه الحاجة بيلاجويوشكا وضربت كفاً بكف وصاحت بعد ان زايلها امتقاع لونها فغدا وجهها احمر قانياً :

ــ ياللخطيئة ! ياللخطيئة ! اصمت ياابي ان . لك ولداً ... ماذاقلت ؟ ماذاقلت !

وراحت تضرع الى الله وهي ترسم شارة الصليب :

ــ ليغفر لك الله ! مولاي اغفر له ... آه ! ياأمي ، ما معنى هذا ؟

وجهت هذه الجملة الى ماري وهي تلتفت اليها ، ثم نهضت وهي على وشك البكاء وراحت تجمع جرابها . كان يُرى على وجهها انها كانت خجلة ومروعة

لقبولها الضيافة في بيت يتحدثون فيه امثال هذا الحديث . لكنه كان يبدو عليها كذلك انها تأسف لاضطرارها في المستقبل الي العزوف عن هذهالضيافة .

قالت ماري :

ـ ماذا دهاكم ؟ اية متعة تجد انها في هذا القول ... كان يمكنكما ان لاتحضرا ابداً ...

فأجاب بيير :

ـ لقد اردت ان امزح فقط يابيلاجويوشكا . ايتها الاميرة ، اقسم بشرفي انني مااردت جرح كرامتها ولا اهانتها . لقد تحدثت في غير مكر ... لاتظني بي الظنون ، لقد اردت المزاح ...

واردف ملحاً وهو يبسم ابتسامة خجلى :

ـ وهو كذلك كان يمزح .

كان واضحاً انه راغب في ازالة خطأه وكان وجههيعبر عن ندممخلص . اما آندره فقد راح يلقي نظرات شديدةالحنوالىبيير تارة والى العجوز التائهة تارة اخرى ،حتى ان هذه ، بعد ان كانت قليلة الميل الى تصديق توبته ، اقتنعت بصحتها تدريجياً .

★ ★ ★

الفَصلُ الرابعُ عَشرَ

عودة الأمير العجوز

اطمأنت الحاجة فعادت تتحدث بحماسة متزايدة . ظلت فترة طويلة تطري مواهب احد الآباء المسمى آمفيلوك الذي بلغ من تقشفه وزهده وقدسيته ان راحت يداه تتضوعان برائحة البخور المنتشر منهما . ثم راحت تشرح بتفاصيل ضافية قصة مقامها الاول في كييف . قالت ان بعض معارفها من الرهبان اعطوها مفاتيح الاقبية ، فلبثت فيها ثماني واربعين ساعة في صحبة السعداء الصالحين لا تأكل الا البسكويت . « وبعد ان اصلي صلاة طويلة امام أحد الاضرحة ، كنت انتقل للتبرك بآخر والصلاة امامه . ثم نمت فترة قصيرة وعدت اقبل الاضرحة المقدسة . لقد كان السكون عميقاً جداً والنعيم العلوي يدخل في نفسي متدفقاً حتى انني ما كنت ارغب في الخروج لرؤية ضياء الله الطيب الكريم . »

كان بيير يصغي اليها بانتباه خطير . لكن ماري لم تدعه يستقر طويلاً ، لأن آندريه كان قد انسحب . فتركت رجال الله يتممون احتساء شايهم وقادت بيير الى البهو . قالت له :

– كم أنت طيب القلب !

– آه ! حقاً انني لم افكر في اهانتها مطلقاً . انني أفهم هذه المشاعر واقدرها حق قدرهـــا .

تأملته ماري فترة وهي صامتة وعلى شفتيها ابتسامة حانية . وأخيراً قالت :

– انني اعرفك منذ زمن طويل واحبك كأخ لي .

ثم أضافت دون ان تترك له المجال للاجابة على كلماتها الرقيقة :

– كيف وجدت آندريه ؟ انه يقلقني جداً . لقد كان أحسن حالاً هذا الشتاء. لكن جرحه نكأ في الربيع فأوصى له الطبيب معالجة خارج البلاد . ثم أن حالته الفكرية تزعجني وتقلقني ايضاً . انه ليس من طبيعة مثل طبيعتنا نحن معشر النساء ، تمكنه من استهلاك احزانه بالدموع والمظاهر الخارجية . انه يطوي آلامه في حناياه . واذا تظاهر اليوم بالانشراح والوداعة فما ذلك الا بسبب وجودك الذي كان له هذا الاثر . يندر أن يكون على مثل هذه الحال من الانشراح . ليتك تقنعه بالسفر الى مكان ما ! انه في حاجة الى النشاط . ان هـــذه الحياة الساكنة الوتيرية تقتله . ان الآخرين لايلاحظون هـذا ، اما انا ، فانني اراه بكل وضوح .

تجاوزت الساعة التاسعة وعندئذ ارتفعت ضجة في الخارج وعلت جلجلة . لقد كان الأمير العجوز عائداً من المدينة . هرع الخدم على الطنف وتبعهم بيير وآندريه . فلما نزل الامير من عربته شاهد « بيير » فسأل :

– من هذا ؟ ...

ولما عرف الكونت الشاب هتف :

– آه ! اهلاً بك ! قبلني هنا .

كان على خير مزاج فعامل « بيير » بشيء كثير من المجاملة والعطف وقاده الى مكتبه . فلما جاء آندريه يلحق بها ساعة العشاء ، وجدهما غارقين في نقاش حامي الوطيس . كان بيير يصر على القول ان وقتاً سيحين ، تبطل فيه الحروب .

اما الامير فكان يسفه هذا الرأي ولكن في غير جفاء وخشونة .

قال الامير وهو يربت بلطف على كتف بيير :

— ان الوسيلة الوحيدة لمنع الحروب هي ان تفصد العروق وتملأها بالماء بدلاً من الدم . ان هذه ترهات واحلام نساء !

ثم اقترب من المائدة حيث كان آندريه يتصفح اوراق ابيه التي اتى بها من المدينة عازفاً ولا شك عن الاشتراك في النقاش . راح يحدثه عن الأعمال . قال:

— لم يستطع الكونت روستوف بوصفه رئيس منطقة ان يقدم لنا نصف الرجال المستنفرين ... ثم تصور بعد ذلك انه جاء الى المدينه يدعوني الى تناول العشاء عنده ! لقد ارسلته وعشاءه الى ... ! هل رأيت مثل هذا ... تأمل .

اردف ، وهو يضرب كتف بيير متودداً :

— وبهذه المناسبة ياعزيزي ، هل تعلم ان صديقك يعجبني ؟ انه فتى باسل يملأني حماساً وفخراً . ان أياً كان مثله يبحث في مواضيع حساسة لكنها تثير اشمئزاز المرء فلا يلذ له الاصغاء اليها . اما هذا ، فانه ينطق بحماقات ، لكنه مع ذلك يثيرني رغم تقدم سني ... حسناً ، انني لا استبقيكما . اذهبا فتناولا طعامكما . لعلني انضم اليكما . قد اجيء لمشاكستك من جديد ...

فلما خرجا ، هتف الأمير العجوز متمماً :

— حاول ان تنظر بعين العطف الى ابنتي الحمقاء ماري .

تذوق بيير خلال مقامه القصير في ليسيياجوري كل متعة الصداقة وقوتها ، تلك الصداقة التي كانت تربطه الى بولكونسكي . ولم تكن تلك المتعة قاصرة على علاقاتها الشخصية بل تعدتها الى الصلات التي جمعت بينه وبين افراد اسرة بولكونسكي ومعارفهم . فعلى الرغم من انه لم يكد يتعرف على الامير العنيد وماري الاميرة الخجول كما يجب ، فإنه شعر في اعماقه براحة قصوى في مجالستها اكثر مما يشعر به مع اصدقاء قدامى . ثم انهم جميعاً سرعان ما احبوه بدورهم . فماري ، اعجبتها

طريقته اللطيفة واساليبه الرقيقة في معاملة حجاجها ، فراحت تلقي عليه نظراتها الاكثر اشراقاً وتوقداً ، ونيكولا الصغير نفسه ، ذلك الطفل الذي لم يتجاوز عامه الاول والذي كان جده يدعوه بالامير الصغير ، تقبل دعابة بيير ورضي بحمله هذا بين ذراعيه وراح يناجيه . اما ميخائيل ايفانوفيتش والآنسة بوريين فكانا يبسمان ابتسامة حقيقية صادرة من اعماقهما كلما وقع بصرهما عليه أو شاهداه يتحدث الى الامير العجوز وكأنه اليفه وصفيه القديم ، حتى ان هذا راح يحضر طعام العشاء مع الآكلين تكريماً لضيفه الشاب . والخلاصة ان بيير خلال اليومين اللذين قضاهما في ليسيياجوري ، تلقي من عطف الامير العجوز وايناسه الشيء الكثير حتى ان هذا دعاه بالحاح الى زيارته مرة اخري .

فلم بارح بيير آل بولكونسكي بعد ذلك ، واجتمعت الاسرة ، اعطى كل فرد من افرادها رأيه في الضيف الراحل كما هي العادة بعد ذهاب شخص دخل في نطاق الأسرة من جديد . والعجيب النادر في الامر ، ان كل واحد منهم كان مجمعاً مع الآخرين على امتداح الضيف المرتحل .

★ ★ ★

الفصل الخامس عشر

عودة روستوف

فهم روستوف لأول مرة عندعودته من اجازته انه شديد التعلق بدينيسوف وبالفيلق كله ، فقد خلقت عودته الى المعسكر في نفسه مشاعر مماثلة لتلك التي أحسّ بها عند دنوه من منزله الابوي بعد ذلك الغياب الطويل . لقد شعر عندما شاهد احد الفرسان ببزته مفكك الازرار ، ثم ديمانتييف الاشقر والخيول الصهباء في مرابطها ، وعندماسمع لافروشكا يهتف بمرح معلناً لسيده : « ها هوالكونت قد وصل ! » ورأى دينيسوف يهرع اليه من مسكنه اشعث الشعر وقد غادر فراشه لتوه ، ليحييه التحية الودية المعروفةبينما شرع الضباط الآخرون يحتفلون بوصول « العائد »،عندما شاهد كل هذا المظاهر ، احسّ روستوف بمثل الشعور الذي خالجه عندما كانت امه تلاطفه وابوه يداعبه واخوته يستقبلونه . لقدكانت القطعة بالنسبة اليه منزلاً آخر عزيزاً مغرياً جذاباً كمنزله الابوي .

لما تقدم روستوف الى الكولونيل معلناً وصوله ، اعاده هذا الى كوكبته السابقة ، فانصرف بكليته الى مشاغله اليومية الكثيره التي تقتضيها طبيعة الخدمة . شعر من النهج الوتير اليومي في حياة الجندية والحرمان من الحرية والارتباط بملاك القطعة ارتباطاً وثيقاً ثابتاً ، بمثل الدعة والسكون اللذين شعر بهما في بيته حيث

كان مدعوماً من قبل اسرته دعماً معنوياً ومادياً . كان يشعر انه هنا ايضاً في بيته وفي مكانه اللائق به هنا . حيث لاتصل الحياة الاجتماعية التي تحمل المرء في تيارها الجارف فلا يعرف اين يستقر وبأي شيء يتشبث ، ولا توجد سونيا التي يُخشى تقديم المبررات والتفاسير لها ، ويتبدد التردد في اشغال الوقت وصرفه ، وتنعدم نهائياً تلك الايام الطويلة التي تستمر اربعاً وعشرين ساعة دون توقف ولا انقطاع ، والتي تغري المرء فيها مئات من المشاغل وتستدعيه ، وتختفي تلك الجماعات من الناس الذين لايرتبط المرء بهم بأية صلة والذين يشعر مع ذلك انه ليس غريباً عنهم تماماً وليسوا عنه ببعيدين . تنتهي هنا العلاقات المالية مع ابيه التي لم تكن صريحة تماماً وتتبخر ذكرى خسارته الهائلة في الميسر ! ان كل شيء هنا في القطعة ، بسيط ومحـــدود . لقد كان العالم كله منقسماً الى قسمين غير متساويين ، القسم الاول يشمل « فيلقنا بافلوجراد » والآخر ، كل ما تبقى من العالم . وهذا الذي « يتبقى » يبدو للمرء عديم الاهمية . كانوا يعرفون هنا من هو الملازم ومن هو الرئيس ، من هو الشجاع ومن الرديء ، وعلى الاخص من الذي يجب اتخاذه صديقاً . هنا ، يقدم لك بائع المعسكر حاجتك ديناً ويستوفي رصيده على دفعات ، فلا حاجة بك الى التفكير ولا الى الانتقاء . يكفيك ان تتنزة عن كل ما هو معروف بسوئه في فيلق بافلوجراد . فاذا اوكلوا اليك مهمة ، عليك بتنفيذها حسب ما جاء في التعليمات الصريحـة الواضحة المتعلقة بها ، وعندئذ تسير كل الامور على خير ما يرام .

شعر روستوف بعد استعادته تلك العادات النظامية التي تنفرد بها الحيـاة العسكرية ، بعزاء وانفراج ونشاط ، كالتي يشعر بها الرجل المتعب المنهوك عندما يستسلم للراحة . كان ذلك اللون من الحياة يبهجه ويرضيه خـلال الوقت الذي استغرقته الحملة ، حتى انه صمم منذ خسارته في الميسر ، تلك الخطيئة التي لم يكن يغفر لنفسه وقوعه فيها رغم كل ماتقدم به ابواه اليه من عزاء وتسلية ، على أن

يخدم في الكوكبة ليس كما كان يخدم من قبل ، بل بشكل يساعده على محو خطيئته. كان يتوقع ان يصبح زميلاً حقيقياً وضابطاً مثالياً . وبالاختصار كان يريد ان يصبح رجلا كاملا ، الامر الذي كان يبدو له صعب التحقيق «في العالم» شديد السهولة هنا في القطعة .

كذلك فقد كان مزمعاً على تسديد القرض الذى اضطر ذويه اليه ، خلال فترة خمس سنين . لقد قرر ان يكتفي بألفين من الروبلات في العام بدلاً من عشرة آلاف روبل ، جرايته المقررة في كل عام ، وبذلك يعيد الى ابويه من هذا الفرق المبلغ الجسيم الذي خسره ودفعوه عنه .

بعد مناورات عديدة وحركات عسكرية كثيرة ، وبعد معارك بولتوسك وبروسيخ ـ ايلو ، تركز الجيش[1] الروسي في بارتنشتن حيث كان ينتظر مقدم الامبراطور واستئناف العمليات فور قدومه .

اشترك فرسان بافلوجراد مرات عديدة في مناوشات مع العدو ، ففاز ببعض الاسرى واغتصب مرة قوافل المؤن وعربات الذخيرة التابعة للماريشال اودينو[2]. كان فيلق بافلوجراد تابعاً لاحدى وحدات الجيش الذي حارب عام ١٨٠٥ وقد عاد الى روسيا لاستكمال ملاكه الناقص . لذلك فانه لم يساهم في العمليات الاولى . فلما عاد الى ساحة المعركة ، اصبح يشكل وحدة من فيلق بلاتوف الذى كان يعمل بصورة مستقلة عن باقي الجيش .

---

(١) لقد اجزنا لنفسنا التحدث عن الجيش الروسي بضمير الغائب تبدلا من عبارات : جيشنا او قطعاتنا اتي استعملها المؤلف الذي يتحدث عن جيش بلاده ووطنه .

(٢) نيكولا شارل اودينو ، دوق دو ريجيو ، ماريشال فرنسا ، ولد في «بار-لو-دوك» عام ١٧٦٧ وتوفي عام ١٨٤٧ . قدمه نابوليون للقيصر بوصفه « بيار » الجيش الفرنسي - وبيار فيبسالته عند الفرنسيين كخالد بن الوليد عندالعرب - اظهر براعةفي اوسترليتز واوسترولنكا وفريدلاند وفاجرام وبوتزن .

خيم فيلق بافلوجراد في ضواحي قرية ألمانية مدمرة تدميراً كلياً ولبث في مكانه بضعة اسابيع قبل شهر نيسان . وفي نيسان كان الطقس بارداً بسبب ذوبان الثلوج وكانت الانهار فائضة والطرق غير سالكة ، فانقطع التموين عن الرجال والعلف عن الخيول أياماً . ولما اصبح سير القوافل متعذراً بل ومستحيلا انتشر الجنود في القرى المهجورة يبحثون عن البطاطا التي اصبحت بدورها نادرة الوجود . لقد التُهم كل شيء وفرّ معظم السكان . اما الذين مكثوا في دورهم المخربة ، فقد كانوا أكثر تعاسة من المتسولين . لم يكونوا يملكون شيئاً يسلب منهم . بل ان الجنود ، وهم من طينة قليلة الاشفاق والعطف ، كانوا رغم ذلك يقاسمون هؤلاء التعساء آخر لقمه في يدهم .

وهكذا فان فيلق بافلوجراد الذي لم يخسر اكثر من رجلين في المعارك ، خسر اكثر من نصف عدده بفعل المجاعة والمرض . لقد كان الموت مؤكداً في المستشفيات ، حتى ان الجنود المرضى بالحمى أو الالتهابات بسبب سوء التغذية كانوا يفضلون االاستمرار في اعمال السخرة على قدر مافي طاقتهم على الذهاب الى المستشفى . ولما حل الربيع ، اكتشف الجنود نبتة تخرج من الارض ، تشبه الهليون ، اطلقوا عليها - والله اعلم بالسبب - اسم «جذر ماري الحلو» ، فراحوا ينتشرون في الحقول لجمع تلك النبتة الحلوة ، التي كانت مرة المذاق جداً ، فينبشون بسيوفهم الارض بحثاً عنها ويأكلونها رغم الاوامر المحذرة الصادرة اليهم. فانتشر مرض جديد بسبب ذلك ، علاماته تورم اليدين والارجل والوجوه ، عزاه الاطباء الى تلك العشبة السامة التي يأكلها الجنود. اما كوكبة دينيسوف ، فانها ظلت مثابرة على توزيع بقايا الارزاق على الجنود بمعدل ربع كيلوغرام يومياً من البسكويت للرجل الواحد . اما البطاطا التي وصلت مؤخراً ، فكانت مصابة بالصقيع فاسدة . وقد مضى على الخيول خمسة عشر يوماً ، كان طعامها خلالها القش الذي تغطى به سقوف الأكواخ . وكانت أجسادها المهزولة

الضعيفة تحمل شعرها الشتوي الذي لم يسقط بعد كتلاً متلبدة .

وعلى الرغم من هذه الضائقات كلها ، فان الجنود والضباط ظلوا يعيشون حياتهم العادية . فالفرسان ظلوا يواظبون على التفقد وتفتيش النظافة وتطمير الخيول وتنظيف الاحذية والاعتدة وتلميعها وعلى سخرة جمع العلف الذي اصبح جمع القش ، بل وعلى الانتظام بانتظار الطعام الذى كانوا يعودون منه جياعاً كما ذهبوا . لكنهم كانوا رغم ذلك يتندرون بجرايتهم الهزيلة ويسخرون من بطونهم الخاوية . لقد ظلوا كعادتهم كلما فرغوا من العمل ، يشعلون النيران ويصطلون دفأها وهم عراة الاجساد يدخنون ، اويجنون البطاطا التالفة والفاسدة او ينضجونها ، وهم يصغون الى حكاياتهم الشعبية او يقصون على بعضهم مآثر بوتمكين وسوفوروف ومغامرات أليوشا الداهية (أشبه بحكاية الشاطر حسن) أو ميكولكا عتيل الراهب ، وهي من القصص الشعبي الروسي . أما الضباط فقد ظلوا من جانبهم يعيشون مثنى وثلاثاً في بيوت نصف مهدمة مفتوحة لكل ريح . بينما كان كبار الضباط منصرفين بكليتهم الى تأمين التبن والبطاطا ، لان غذاء رجالهم كان شغلهم الشاغل . وظل مرؤوسوهم كعادتهم ، يلعبون الورق لان المال كان وفيراً رغم فقدان الارزاق ، او يتسلون بألعاب بريئة كلعبة الاسطوانات ولعبة الـ : « شعايكا » وهي عبارة عن وتد مغروز في الارض يحاول اللاعبون احاطته بحلقة يلقونها عليه من مسافه معينة . اما سير العمليات الحربية العام ، فلم يكن احد يتحدث عنه لسببين : الاول انهم ما كانوا يعرفون عنها شيئاً ايجابياً ، والثاني انهم كانوا يشعرون شعوراً مبهماً بانها ليست على ما يرام .

كان روستوف يشاطر – كالماضي – دينيسوف مسكنه . ولقد اضحت صداقتهما منذ اجازتها الاخيرة اكثر وثوقاً . لم يكن دينيسوف يتكلم عن اسرة روستوف ، لكن الود الرفيق الذي كان القائد يظهره لضابطه المساعد ، كان يوحي اليه

بجلاء بان غرام الفارس العجوز بناتاشا لم يكن غريباً عن هذا الافراط بالمعاملات الحسنة . كان واضحاً ان دينيسوف يجنب نيكولا المهام الخطرة فلا يرسله الى المخاطر الالماماً ؛ حتى اذا ارسله ورآه عائداً سليماً ؛ او وقع اشتباك مع العدو ونجا منه نيكولا ؛ كان دينيسوف لايستطيع كتم سروره وابتهاجه بسلامة الضابط الشاب . وقد اكتشف روستوف ـ خلال احدى مهامه الى قرية مخلاة ظن ان فيها ارزاقاً وعلفاً ـ بولونيا عجوزاً وابنته التي كانت ترعى ولدها الوضيع . كانت تلك الاسرة المنكودة متدثرة بالاطمار جائعة لاتستطيع المشي ومغادرة المكان لانها عجزت عن تدارك عربة تنقلها بعيداً لافتقارها الى النقود فاشفق روستوف على تلك الاسرة البائسة وقادها الى معسكره وآواها في منزله وظل اسابيع طويلة يقوم على اطعامها انتظاراً لشفاء العجوز المريض . وذات مرة، كان احد زملاء نيكولا لايزوره مره ، فدار الحديث حول النساء . وهنا راح الزميل يمزح معه متهما اياه بأنه اخفى عن اصدقائه بكر ودهاء البولونية الحسناء التي انقذها . ولم ترق الدعابة لروستوف ، فانفصل وثار وحمل على الضابط الزميل حملة بلغت من العنف ان دينيسوف وجد صعوبة كبيرة في حل المسألة ومنع الضابطين من التقاتل . ولما رحل الضابط المزاح ، أنب دينيسوف نيكولا على انفعاله خصوصا وانه شخصيا ما كان يعرف عن علاقة الضابط الشاب بالبولونية الحسناء شيئا . فأجاب روستوف :

ـ ولكن ... انني انظر اليها نظرتي الى اخت ولا يمكنني ان افصح لك الى أي مدى شعرت بايلام حديثة ... لأنني ... لأن ...

ربت دينيسوف على كتفه باخاء وراح يذرع الحجرة دون ان ينظر اليه ، كعادته كلما كان منفعلاً مضطربا . واخيراً همهم قائلاً :

ـ انكم جميعا بلهاء في اسرتكم !

لكن روستوف لاحظ ان عيني دينيسوف كانتا مبللتين بالدموع .

الفصل السادس عشر

ورطة دينيسوف

اعادة عودة الامبراطور في شهر نيسان ، الحياة والاندفاع الى وحـــدات الجيش . لم يُسعد روستوف بحضور العرض الذي اقيم على شرف العاهـــل في بارتنتشتن لأن فرسان بافلوجراد كانوا معسكرين عند الخطوط الامامية .وكان روستوف ودينيسوف يقطنان كوخاً حفر في الارض وغطي بالاغصان والحشائش وفيما يلي الطريقة التي اصبحت شائعة في اقامة مثل هذه الاكواخ . كانوا يحفرون خندقاً عرضه متر وعمقه متر ونصف المتر وطوله متران ونصف المتر . وفي احد الجانبين ، كانوا يحفرون درجات متناسقة على قدر المستطاع لتكون مـدخلاً للغرفة التي هي الخندق نفسه . وكان المجدودون من الضباط ، كقائد الكوكبة مثلاً ، يتمتعون بلوح من الخشب قائم على ركيزتين ، ليقوم مقام الطاولة . وعلى جانبي الخندق وعلى عمق ستين سانتيمتراً ، كانت الارض تحفر ، وبذلك يتهيأ للساكنين السرير والارائك! وكان السقف يسمح لشاغل الحجرة بالوقوف في منتصفها بل وفي الجلوس على السرير ، وذلك في الجزء القريب من المـائدة على الاقل . ولما كان فرسان دينيسوف يحبونه ويقدرونه ، فانهم بفضل ذلك التعلق منحوه شيئاً من الترف في كوخه ، اذ أقاموا له في مقدمـة السقف قطعة من الخشب

مزينة بقطعة زجاج للانارة . صحيح ان الزجاج كان محطما ، ولكن اجزاءه كانت ملصقة الى بعضها بوسيلة ما . والى جانب ذلك ، فان جنوده كانوا يأتونه، كلما اشتد البرد ، بقطعة من الصفيح يضعونها على الدرجات التي كان دينيشوف يدعوها : البهو ، ويملأوون تلك القطعة من الصفيح بجمر متقد ، يستخلصونه من نيران المهاجع ، وبذلك كان الجو بديعاً في كوخ الزميلين حتى ان الضباط كانوا يجتمعون بكثرة في مسكنها المترف ويخلعون ستراتهم احياناً بسبب رداءة جوه.

وذات صباح ، حوالي الساعة الثامنة ، عاد روستوف من الحراسه بعد ليلة بيضاء ، فامر ان يأتوه بالجمر لانه كان مبتل الثياب . ابدل ثيابه وأدى صلاته وشرب الشاي وتدفأ ثم سوى أمتعته وأخلى ما كان على الطاولة ، واستلقى على ظهره عليها بعد ان خلع سترته ، ووضع ذراعيه تحت رأسه . كان وجهه ملتهباً من الريح الباردة . اخذ يفكر بسرور في أن مهمته الاستطلاعية الاخيرة المثمرة سترقيه رتبة . وكان ينتظر زميله دينيسوف بفارغ صبر ليثرثر معه . وفجأة دوى صوت دينيسوف الغاضب وراء الكوخ ، فزحف روستوف الى النافذة ليرى الشخص الذي يحدثه القائد . فتعرف على صف الضابط توبتشيانكو . كان دينيسوف يصيح به قائلاً :

– لقد اعطيت متعمداً الامر بمنعهم من التهام جذر ماري ذاك ! وها انني ارى لازارتشوك يحمل هذه البيئة الخبيثة من الحقول !

فأجاب صف الضابط :

– لقد اصدرت اليهم الاوامر الصارمة ياصاحب النبالة لكنهم لايصغون اليّ.

عاد روستوف الى استلقائه وهو يحدث نفسه : « ليجهد نفسه بدوره ، لقد انهيت خدمتي وليس علي الآن الا ان انام ، هذا هو خير ! » لكن صوت صف الضابط اخذ يختلط في تلك اللحظة بصوت آخر ، عرف فيه روستوف صوت الخبيث لافروشكا ، تابع دينيسوف . كان ذلك الفتى يزعم انه رآى اثناء ذهابه الى توزيع الارزاق ، قوافل محملة بلحم البقر والبسكويت.

واعقب ذلك صوت دينيسوف المدوي وهو يصيح آمراً : « المفرزة الثانيـة ، اسرجوا الخيول ! » .
تساءل روستوف :
– الى اين يمضون بحق الشيطان ؟
دخل دينيسوف الى الكوخ بعد مضي خمس دقائق ، فزحف بأحذيته الموحلة على السرير حيث دخن ملء غليونه وهو محنق ، ثم قلب امتعته رأساً على عقب واخذ سوطه وسيفه وهمّ بالخروج . ولما سأله روستوف عما ينتويه ، اجابه بلهجة غامضة ولكن مغضبة ان عليه عملاً يريد اداءه . وهرع خارجاً وهو يقول :
– ليحا كمني الله والامبراطور العظيم !
سمع روستوف وقع حوافر جياد وراء الكوخ تتخبط في الوحول . لكنه لم يكتئب او يحاول استزادة الايضاح لمعرفة المكان الذي كان صديقه يقصده . ولما كان الركن الذي انحشر فيه دافئاً ، فقد نام ملء جفونه ولم يخرج من الكوخ الا عند المساء . ولم يكن دينيسوف قد عاد بعد من رحلته . أخـــذ الجو يتحسن . رأى روستوف قرب الكوخ المجاور ، ضابطين مع زميل لهما يلعبون وهم يغرسون في الوحل اللزج لفتاً ويضحكون . فانضم اليهم . وبينما هم يلعبون ، شاهدوا عربات تقترب يتبعها خمسة عشر فارساً على خيول هزيلة . اخذت القافلة والموكب المحيط بها يقتربان من مرابط الخيل ، وهب حشد من الفرسان يحيط بالعربات . هتف روستوف :
– هه ، هاهي الارزاق قدوصلت . معذلك فان دينيسوف لم يكن يكف عن التبرم والتوجع !
فقال الضباط :
– نعم ، لعمرنا . كم سيسر الجنود الآن !
كان دينيسوف يتبع القافلة بين ضابطين من ضباط المشاة على خيولهم . وكان

يتحدث معهما ، فهرع روستوف الى لقائه . كان احـد الضابطين ، وهو نحيل الجسم بادي الغضب ، يقول :

– انني انذرك يا كابتين ...

فيجيبه دينيسوف :

– لن اعيد شيئاً .

– اتدري ما انت فاعله يا كابتين ! ان اغتصاب ارزاق اخوان في السلاح يعتبر تمرداً ! .. ان رجالي لم يتناولوا طعاماً منذ يومين !

– اما رجالي ، فمنذ خمسة عشر يوماً !

فقال ضابط المشاة بصوت مرتفع :

– لكن هذه لصوصية ياسيدي ، ولسوف تُسأل عنها .

فصاح دينيسوف نافذ الصبر :

– هلا كففت عن مضايقتي وازعاجي ! ... سأسأل ؟ حسناً ، ليكن ، لكنك لن تكون انت المسؤول ! ... فاجهد في الصمت أو حذار ، حـــذار لنفسك ! ... اغرب عن وجهي !

فقال ضابط المشاة دون ان يرتبك :

– حسنا ! ان هذه لصوصية واني ...

فزمجر دينيسوف ودفع حصانه نحو المتكلم وصاح :

– اذهب الى الشيطان ، ولكن بأسرع من هذا الخطو !

كرر الضابط بلهجة متوعدة :

– حسنا ، حسنا !

ولوى عنان جواده وابتعد خبباً يهتز على سرج الجواد .

هتف دينيسوف متعمداً سماع الضابط المرتحل :

– كلب على دائرة من الاوتاد !

كانت هذه العبارة ، هي الجملة الشائعة التي يستعملها الفرسان للسخرية من من جنود المشاة الذين يمتطون صهوات الجياد . اقترب من روستوف وانفجر ضاحكا وهو يقول :

– لقد انتزعت منهم مؤونتهم بالقوة ، يالقارعي الحصى ! انني لا استطيع ترك رجالي يموتون جوعاً .

كانت المؤن التي احضرها دينيسوف لفرسانه ، مرسلة الى فيلق من المشاة . لكن لافروشكا الماكر ابلغ دينيسوف انها لم تكن محروسة من قبل الجنود . فانتهز هذه الفرصة واخــذ مفرزة من فرسانه وانتزع الارزاق من الضابطين بالقوة . وُزع البسكويت توزيعاً عادلاً وأعطي منه الى الكوكبات الاخرى.

وفي اليوم التالي استدعى الزعيم « دينيسوف » وقال له وهو يغمض عينيه بأصبعه :

– اليك الطريقة التي سأرى بها هـذا الموضوع : انني لا اعرف شيئاً ولا اتدخل في شيء . لكنني اوصيك بالذهاب الى الاركان العامة ، دائرة التموين وهناك حاول ان تدبر الأمر وان توقع على استلام كمية كذا وكذا من الارزاق ، فان المسألة ستدخل في نطاق جدي وقد تنتهي نهاية سيئة .

مضى دينيسوف فور خروجه من لدن الزعيم ، الى الاركان العامة وهو يتوق بكل اخلاص الى الاخذ بنصيحة رئيسه . ولم يعد الامساء وهو يلهث لفرط الغضب . ولم يكن روستوف قد رآه من قبل على مثل هذه الحال ، لذلك فقــد راح يسأله عما به عبثاً . كان دينيسوف يكتفي بارسال السباب والشتائم بصوت اجش ضعيف ويشفعها بالتهديد والوعيـد . ذعر روستوف فقام الى صديقه يخلع عنه ثيـابه ويعطيه مايشربه ، وارسل يستدعي الطبيب هتف دينيسوف أخيراً :

– يحاكمونني بتهمة السلب ، انا ... اعطني مزيـــداً من الماء ... حسناً

ليحاكموني ! ان ذلك لن يمنعني من سحق هؤلاء الاوباش ! ... سوف اتحدث الى الامبراطور بهذا الشأن ... اعطني قطعة ثلج ...

قال الطبيب انه يجب فصد دينيسوف ، فلما استقطروا من ذراعه المغطى بالشعر ملء صفحة من الدم الاسود ، استطاع اخيراً ان يروي لهم ماوقع له . قال :

– وصلت الى هناك فسألت : « حسنا ، اين رئيسكم ؟ » فدلوني عليه وقال بعضهم : – انتظر قليلا . فقلت « لدي عملي ، ولقد قطعت ثماني مراحل ، فاعلمه بقدومي « حسناً ، ها ان رئيس اللصوص قد بدا وراح حضرته يلقي عليّ درساً قال انها لصوصية ! فقلت له : « اللص ليس الذي يستحوز على الارزاق لاطعام جنوده ، بل الذي يحتكرها لمصلحة جيوبه ! » فأمرني بالصمت . حسناً جداً ، أخير قال : – اذهب ووقع على افادتك لدى مفوض الارزاق وستتبع قضيتك الطريق القانوني . ذهبت الى هناك وعرفت في شخصي حضرة المفوض ... خمن من الذي يجعلنا نموت جوعاً ؟

وضرب على المائدة بقبضة يده المتوجعة بعنف حتى ان الطاولة كادت ان تنقلب ، بينما ارتطمت الاقداح ببعضها ، وقال :

– اتدري من ؟ تيليانين ! قلت له : « هه ، أهو انت الذي تتركنا نتضور جوعاً وننفق من القحط ؟ « و ، طا ... طا ... على وجهه المنتفخ السمين ! « آه ! ايها الوحش القذر ! » و طا ... طا !...

وصاح بصوت اقرب الى الصراخ وهو يكشف بضحكته الوحشية عن اسنانه البيضاء اسفل شاربيه الاسودين .

– لقد فثأت غضبي فقرت عيني وطابت نفسي . ولو لم ينتزعوه من بين يدي لقتلته .

قال له روستوف :

ـ هيا ، لاتصرخ هكذا ، هدء روعك . ها هو الدم قد عاد ينزف من جديد . ابق هادئاً ريثما اعيد تضميد جرحك .

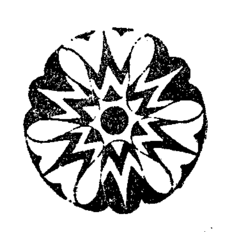
ضمدت ذراع دينيسوف واودع السرير . وفي اليوم التالي استفاق وقد هدأت نفسه وصفا مزاجه . ولكن حوالي الظهر ، جاء الضابط المرافق ووجهه مكتئب يحمل طابع الجد والحزن ، فدخل كوخ الزميلين وسلم الى الماجور دينيسوف ورقة رسمية من قبل الكولونيل ، وورقة تحمل اسئلة حول مسألة الامس . قال الضابط المساعد ان المسألة تدخل الآن في طور سيء للغاية وان لجنة للتحقيق قد شكلت ، وان اقل ماينتظر دينيسوف من عقاب هو نزع رتبته عملاً شكلياً بالانظمة الجديدة القاسية المتعلقة باعمال السلب والعصيان .

زعم المشتكون ان دينيسوف بعد اغتصابه الارزاق ، جاء الى مفوض الاعاشة العام ، وهو في حالة سكر شديد دون ان يستدعيه احد وهناك هدد المفوض واتهمه باللصوصية . ولما طرد خارجاً ، اندفع الى مكتب من المكاتب فانهال على موظفين ضربا ولكما وخلع ذراع احداهما .

عاد روستوف يسأل زميله فاعترف هذا ضاحكاً بان شخصاً آخر حشر نفسه في المعركة . لكنه كان يزعم ان كل هذه الامور عديمة الاهمية وكان يستخف بكل المحاكم ويقول انه اذا تجرأ هؤلاء اللصوص على منازلته فانه سيتصرف حيالهم تصرفاً يجعلهم يحتفظون بذكراه زمنا طويلا .

وبالرغم من ان دينيسوف كان يتظاهر باللامبالاة ، فان روستوف كان يعرفه تمام المعرفة ويدرك انه كان في اعماق نفسه متهيباً نتائج فعلته رغم كل محاولاته في اخفاء شعوره عن زميله . استمرت اوراق التحقيق ترد كل يوم ليجيب دينيسوف عليها حتى مطلع شهر ايار ، حيث تلقى امراً رسمياً حازماً باسناد قيادة الكوكبة الى اقدم ضابط بعده ، وان يمثل امام قيادة الفيلق

الذى يتبعه للاجابة على ماقام به في دائرة التموين . وكان بلاتوف قد قام بالامس بعملية استطلاع مع سريتين من الخيـــالة القوقازيين و كوكبتين من الفرسان . فاندفع دينيسوف كعادته الى الخطوط الاماميه وهناك اصابته رصاصة ، انطلقت من الجانب الفرنسي ، في ربلة ساقه . وانتهز دينيسوف تلك الفرصة ، وهو الذي ما كان ليغادر السرية من اجل جرح تافه كهذا ، فرفض المثول امام قيادة فيلقه وطلب ارساله الى المستشفي لمعالجته .



الفصل السابع عشر

زيارة للمستشفى

دارت معركة فريدلاند في حزيران ، تلك المعركة التي لم يساهم فيها فرسان بافلوجراد بنصيب ، واعقب تلك المعركة هدنة بين الجانبين ، فانتهز روستوف الفرصة طالبا الاذن بزيارة صديقه دينيسوف الذي كان يشعر بفراغ عميق لغيابه . كان قد حرم من كل الاخبـــار حول صحة صديقه ، لذلك فقد كان يشعر بقلق شديد عليه خصوصاً فيما يتعلق بالنهاية التي بلغت اليها قضيته .

كان المستشفى واقعاً في كفر بروسي ، دُمر مرتين من قبل الفرنسيين والروسيين على السواء . كانت تلك المدينة الصغيرة بمبانيهـا المتهدمة ودوائرها المتداعية وشوارعها المليئة بالاقـــذار والدنس ، والتي كان سكانها يهيون على وجوههم باطمارهم المهلهلة ، مختلطين بالجنود بين ثمل ومريض ، تتنـــاقض في مظهرها البائس مع صفاء الصيف وروعته المتفجرة في كل مكان من السهول المحيطة بها ، وتعطى لونا قاتماً مكفهراً تنقبض له القلوب .

كان بيت من الحجر بنوافذه المحطمة الا بعضها ، يستخدم كمستشفى للجنود الجرحى والمرضى . وفي فناء ذلك البيت ، بين حطام من الركام ، كان بعض الجنود ، شاحبي الوجه هزيلين ، يروحون ويغـــدون وهم في ضماداتهم القذرة ويستريحون تحت اشعاع الشمس .

لم يكد روستوف يتخطى العتبة ، حتى اندفعت الى صدره رائحة العفن والادوية فغصت بها حنجرته . وعلى السلم ، التقى بطبيب روسي يضع سيجاراً بين شفتيه ، كان الطبيب يقول لمساعده الذي كان يصحبه :

– لااستطيع ان انقسم الى اربع ،تعال هذا المساء عند ماكير اليكسييئفيتش سأكون هناك .

عرض عليه مساعده سؤالا آخر فأجابه :

– إه ! اعمل ماتراه مناسباً ! على ان يعود ذلك عليهم بالخير !

وفي تلك الاثناء شاهد الطبيب روستوف فقال يسأله :

– ماذا جئت تعمل هنا ، نبالتك ؟ ألأن المقذوفات النارية قد أخطأتك جئت تنشد اصابة بالتيفوس ؟ ان هنا ياعزيزي بؤرة مرض حقيقية .

– كيف ذلك ؟

– ذلك لأن التيفوس منتشر ياسيدي العزيز . الموت مصير كل من يدخل الى هنا . لم يبق إلاّنا ، ماكيئيف وانا – وأشار الى الممرض – ، وقد بقينا بعيدين عن التلف . لقد مات خمسة من زملائي هنا .

واردف برضى واضح :

– عندما يأتي شخص جديد ، فان ثمانية ايام تكفي ليأخذ نصيبه . لقد طلبنا عدداً من الاطباء البروسيين . لكن حلفاءنا الطيبين سدوا آذانهم عن سماع اصواتنا .

ابلغه روستوف انه راغب في رؤية ضابط الفرسان دينيسوف فقال الطبيب :

– دينيسوف ؟ لاأعرفه ان سبب ذلك ياعزيزي انني مسؤول لوحدي عن ثلاثة مستشفيات تضم اكثر من اربعمائة مريض ! لكننا سعداء بعض الشيء لان سيدات بروسيات من ذوات الروح المحسنه الطيبة ، يرسلن الينا قهوة ونسيلاً[1] بمقدار ليبرتين شهريا ولولا ذلك لضعنا .

---

(١) النسيل نوع من « الكتيت » كان يستعمل سابقاً بدلا من القطن المعقم قبل اكتشافه والانتفاع به وكان يصنع من خيوط الاقمشة القطنية المستعملة .

وأردف الطبيب ضاحكا :

- نعم ياعزيزي ، اربعمائة مريض ، ثم يرسلون الي كل يوم مرضى جدداً. أليس لدينا اربعمائة مريض واكثر ؟ هم ؟

لكن مساعد الطبيب الذي وجه اليه الطبيب السؤال الأخير كان يبدو متعباً ، غير منكد من ثرثرة رئيسه الا بمقدار . عاد روستوف يقول :

- انه الماجور دينيسوف الذي جرح في مولوتان .

- اعتقد انه مات . اليس كذلك ياماكيثيف ؟

كان الطبيب يتحدث بلا مبالاة . فلما لم يؤيد مساعده ذلك الزعم ، التفت الى روستوف وسأله :

- ألم يكن طويلا أحمر ؟

اعطاه روستوف اوصاف صاحبه فقال الطبيب وهو شديد الابتهاج :

- نعم ، نعم . لقد كان لدي واحد مثله . لكنني اعتقد انه مات . على كل حال سأعيد فحص قوائم الاسماء . هل هي عندك ياماكيثيف ؟

فأجاب المساعد :

- انها عند ماكير أليكسييئفيتش .

ثم أردف محدثاً روستوف :

- ولكن ادخل الى قاعة الضباط وسترى بنفسك .

لكن الطبيب اعترض قائلا :

لاتذهب الى هناك ياعزيزي خشية ان تضطر الى البقاء ابداً .

غير ان روستوف اجابه بتحية قصيرة وطلب الى المساعد ان يقوده اليها . فصاح الطبيب من أسفل السلم مشيعاً :

- لاتلمني بعد ذلك على الاقل .

سار روستوف ودليله في دهليز معتم . كانت الرائحة شديدة حتى ان روستوف

اضطر الى سد منخريه والتوقف فترة ليستعيد نشاطه . فتح باب الى اليمين وبدا في فتحته رجل معتمداً على عكازين وهو هزيل اصفر الوجه حافي القدمين، في ثياب النوم . كان متكئاً على اطار الباب ينظر الى القادمين بعينين ملتهبتين ملؤهما الرغبة والحسد . ألقى روستوف نظرة الى الداخل فرأى الجرحى والمرضى هاجعين على الارض فوق المعاطف او كومات من التبن . سأل دليله :

— هل استطيع القاء نظرة ؟

فأجاب المساعد وهو عازف عن الدخول :

— لايوجد شيء يستحق المشاهدة .

لكن نفوره دفع روستوف ، على عكس ما كان ينتظر ، الى ولوج الغرفة كانت الرائحة التي اعتاد روستوف على استنشاقها اخيراً ، اشد نفاذاً في تلك الغرفة ، رغم انها كانت مختلفة بعض الشيء عن رائحة الممشى . وكان واضحاً ان تلك الغرفة كانت مبعث الرائحة المنتشرة في الخارج .

كانت الشمس تضيء تلك الغرفة الطويلة اضاءة عنيفة نافذة اليها خلال نوافذ مرتفعة . وكان المرضى مستلقين في صفين ـ بينهما ممشى ـ على الارض ورؤسهم لصق الجدار . وكان معظمهم في النزع الاخير ، لذلك فان دخول روستوف ودليله لم يثر في النفوس أي رد فعل . أما اولئك الذين كانوا محتفظين بوعيهم ، فقد تناهضوا لينظروا الى روستوف او اطلعوا عليه بوجوههم المصفرة المهزولة، يلتهمونه بعيونهم بنظرة تكاد تكون متشابهة في كل العيون ، نظرة اختلط فيها الامل في نيل غوث عاجل ممكن ، بالحسد الحقود على الصحة التي يتمتع بها الزائر . عبر روستوف الغرفة ووقف في منتصفها وهناك اتيح له ان يرى خلال الابواب الاخرى المفتوحة ، مشاهد مماثلة في الغرف المجاورة . اذهله ذلك المشهد الذي لم يكن يتوقع رؤيته ، فوقف ساهماً صامتاً وراح يجيل بصره فيما حوله . كان احد المرضى مسجى على الارض قرب قدميه ، ممدود الساقين والذراعين . كان

يبدو عليه انه قوقازي ، بدلالة شعره المحلوق على الطريقة الروسية . كان ذلك الرجل مصطبغ الوجه بحمرة الاقحوان ، لايبدو من عينيه الغاربتين الا بياضهما وكانت العضلات متصلبة على اطرافه العارية الحمراء ، أشبه بالحبال المشدودة . قرع الارض بمؤخرة رأسه واطلق نداءً بصوت أجش راح يكرره بالحاح . فاصغى روستوف الى ندائـــــه وتبين انه يقول : « ماءً ، اسقوني ماءً » فأخذ يبحث بعينيه عمن يمكنه ان يعيد المريض الى مكانه ويسقيه جرعة ماء . سأل المساعد :

– من المكلف هنا بالعناية بالمرضى ؟

وفي تلك اللحظة دخل خادم القاعة ، وهو جندي من صفوف الجيش، قادماً من غرفة مجاورة ، وجاء بخطوات متزنة حتى وصل الى حيث كان روستوف، وهناك قرع الارض واتخذ وضعية الاستعداد .

هتف وهو يظن روستوف احد الرؤساء في المستشفى ، فيحدق في وجهه بالحــــاح .

– صحة جيدة لنبالتكم السامية !

فقال له روستوف وهو يشير الى المريض :

– أعد هذا الى مكانه واسقه ماءً .

أجاب الجندي بحماس وسرور واضح وعيناه تزدادان اتساعاً :

– كما تأمرون نبالتكم العلية .

لكنه لبث واقفاً في وضعية الاستعداد لايتحرك . فخفض روستوف عينيه وخاطب نفسهُ في سره قائلاً : « لاشك انه ليس هناك ما يعمل ! » ولما همّ بالخروج ، شعر الى يمينه بنظرة ملحة عنيدة تتفحصه . فالتفت الى تلك الناحيـة كان الرجل الذي يتفحصه ، جندياً عجوزاً ذا لحية شهباء ووجـه صارم اشبه بوجوه الموتى ، وكان جالساً على معطفه في آخر الصف تقريباً . وكان احد

زملائه القريبين منه يهمس في اذنه شيئاً وهو يشير الى روستوف . ادرك روستوف ان العجوز يرغب في ان يقول له شيئاً فاقترب منه ورآى انه قد فقد احدى ساقيه من فوق الركبة ، اما الاخرى فكانت مثنية تحته . وبالقرب منه رآى جسد جندي شاب ،مسجى على الارض ، مائل الرأس الى الوراء ذي انف افطس وعينين غاربتين ووجـه شمعي ملطخ ببقع الدم . فحص روستوف الجندي وعندئذ سرت قشعريرة في عموده الفقري . قال للمساعد :

– لكنني اعتقد ان هذا ...

فقاطعه الجندي العجوز وقد سقط فكه من الانفعال :

– هذه هي المرة العشرون التي نطلب اليهم فيها ذلك يا صاحب النبالة . لقد مات منذ الصباح . اننا ، رغم كل شيء ، لسنا كلاباً ...

فقال مساعد الطبيب مسرعاً :

– فوراً ، فوراً . سوف اعمل على نقله من هنا ... ولو تتفضلوا نبالتكم وتتبعوني . . .

فغمغم روستوف مبادراً :

– هيا ، لنذهب ، لنذهب .

واطرق برأسه محاولاً ان يمر دون ان تلتقي عيناه بتلك النيران المتقاطعة التي تنبعث من العيون الطافحة بالرغبة واللوم ، هرع روستوف يغادر القاعة .

* * *

الفصل الثامن عشر

لقاء مع دينيسوف

ادخل المساعد روستوف الى قاعة الضباط في اقصى الممر . كانت تلك القاعة مؤلفة من ثلاث غرف مفتوحة الابواب مطلة على بعضها . وكان فيها اسرة جلس او استلقى عليها الضباط المرضى او الجرحى . وكان بعضهم مرتدياً معاطف المستشفى ، يروح ويجيء على طول القاعة متنزها . كان اول شخص وقع بصر روستوف عليه ، رجلا قصير القامة نحيل البنيه ابتر الذراع ، يرتدي معطفاً وقلنسوة من القطن ، ويعض بين اسنانه غليوناً قصيراً وهو يذرع الغرفة تذكر روستوف بشكل غامض انه رأى ذلك الوجه في مكان ما . قال الرجل القصير :

– آه باه ! كيف التقينا ! توشين ، الاتذكر توشين الذي اعادك الى شوينجرابن ؟ ... إه ، انك ترى انهم اقتطعوا مني قطعة صغيرة ...

واشار الى كم معطفه الخاوي وهو يبتسم .

اطلعه روستوف على غرضه من زيارة المستشفي فقال هذا :

– فاسيلي دميترينفتيش دينيسوف ؟ بالطبع انه هنا . تعال ، تعال ...

واقتاده توشين الى غرفة مجاورة كانت تنبعث الضحكات منها عالية .

فكر روستوف في نفسه : « كيف ، ايضحكون ! وانا الذي كنت اتساءل كيف يمكن لهم ان يعيشوا في مثل هذا الجو ! » كانت رائحة الجثة تلاحقه ، والحاجز المزدوج من النظرات المشعة بالرغبة واللوم تطارده ووجه الجندي الشاحب ذي العينين الغاربتين لايزال يمثل في خاطره .

كان دينيسوف نائماً وقد التحف ادثرته والتف بها رغم ان الساعة كانت قد جاوزت الحادية عشرة .

هتف بمثل صوته الذي عُرف به في السرية :

– آه ! روستوف ! مرحباً مرحبا !

لكن روستوف لاحظ بصعوبة ان شعوراً بالمرارة يطفو على ذلك المظهر المرح ويطبع وجه دينيسوف بطابعه الاليم بل ويظهر حتى في لهجته ، رغم طلاقته الطبيعية في الكلام .

لم يكن جرحه – رغم بساطته ومضي ستة اسابيع على اصابته به – قدالتأم بعد . وكان وجهه شاحباً منتفخاً لكل النازلين في المستشفي . غير ان مازاد في دهشة روستوف كان مظهر صديقه وهيئته . كان يبدو قليل السرور بمشاهدته يبسم له ابتسامة شبه مغتصبة . لم يسأله عن احوال الفيلق ولا عن سير الامور العام ولما حاول روستوف طرق هذه الموضوعات ، تظاهر دينيسوف بأنه غير مصغ اليه .

لاحظ روستوف كذلك ان كل تلميح الى الحياة الهانئة التي يحيونها خارج جدران المستشفى كانت تؤلمه وتمضه . كان يبدو بلا ريب راغباً في نسيان حياته السابقة ، فلا يشغله الا ماوقع له مع جماعة مفوضيةالتموين والاعاشة ولما سأله روستوف عما آلت اليه تلك القضية ، اخرج من تحت وسادته ورقة تلقاهامؤخراً من الهيأة واطلعه على مسودة جوابه عليها . اتقد انفعالاً وهو يقرأ له الرد الذي ابرز فيه النقاط والطعنات التي كان يوجهها لاعدائه . وما ان شرع

في القراءة ، حتى تفرق زملاؤه الذين كانوا قد التفوا حول روستوف في شبه حلقة محكمة حين مجيئه يدفعهم حب استطلاع ما في جعبة القادم الجديد . قرأ روستوف على وجوههم مايشير الى ان رؤوسهم كانت متصدعة من هذه المسألة بالذات ، فلم يبق من يصغي اليه الا زميل له على سرير مجاور ، وهو رماح ضخم الجثة كان يمضغ قصبة غليونه بوجه عابس مكفهر ، وتوشين الابتر كان يعلن استنكاره بهزات من رأسه .

قال الرماح الضخم قاطعاً على دينيسوف قراءته فجأة :

– في رأيي ان ماينبغي عمله هو التماس رحمة الامبراطور مباشرة ، لقد سمعت ان مكافآت كثيرة ستوزع ، واذن فان العفو ليس ببعيد ...

قال دينيسوف بلهجة حاول ان يودع فيها كل حيوته القديمة ، لكنها بدت اشبه بالعويل اليائس !

– التماس الصفح من الامبراطور ! ولمَ ذلك ؟ لو انني كنت لصاً لطلبت الغفران . لكنهم اذا كانوا يلاحقونني ، فما ذلك الا لانني كشفت النقاب عن هؤلاء الانذال . ليحاكموني ، فلست اخشى احداً . لقد خدمت دائماً القيصر والوطن بكل شرف . انني لست لصاً ... ثم انهم يحاولون نزع رتبتي بينما ... اسمع . انني اقول لهم بكل صراحة : « لو انني كنت مخالفاً واجباتي حانثاً ... »

فتدخل توشين قائلا :

– انها ليست عبارة رديئة ولا شك . لكن الامر يتعلق بهذا ...

واردف مستشهداً بروستوف :

– ينبغي على المرء ان يخضع بينما فاسيلي دميتريتش يرفض ذلك . لقد أخطرك امين لجنة التحقيق بان مسألتك سيئة .

– ليكن ! لست ابالي ...

فألح توشين مردفاً وهو يشير الى روستوف :

ـ لقد كتب لك ملتمساً فيجب ان توقعه وان توسله بواسطة هـذا السيد . ان لديه ولا شك بعض المعارف في الاركان . لن تجد مناسبة افضل من هذه قط .

فأجاب دينيسوف وهو يعود الى تلاوته :

ـ لقد اعلنت من قبل : لن انحني واتوسل .

شعر روستوف بغريزته ان السبيل الذي اشار بـه توشين والآخرون كان افضل كل شيء واكثر سلامة . وكان يسعده ان يؤدي خدمة لصديقه لكنه كان يعرف استقامته المخيفة وارادته التي لاتتزعزع . لذلك فانه لم يجرأ على التدخل لاقناعه .

ولما انتهى دينيسوف بعد ساعة طويلة من قراءة مطاعنه السامة ، لم يجد روستوف بدأ من السكوت . امضى بقية يومـه في صحبة زملاء دينيسوف الذين عادوا يتجمهرون حوله . فقص عليهم ما كان يعرفه عن الموقف واصغى بدوره الى اقاصيصهم وحكاياتهم بينما كان دينيسوف محتفظـاً بصمت مدلهم .

استعد روستوف لمغادرة المستشفى في نهـاية السهرة . سأل صديقه عن اية خدمة يرغب اليه اداءها . فأجاب دينيسوف :

ـ بلى ، انتظر .

وبعد ان القى نظرة على الضباط المجتمعين ، اخرج من تحت وسادته اوراقاً ومضى الى النافذة حيث كانت محبرته وراح يكتب . وبعد فترة عاد يقول وهو يسلم الى روستوف مغلفاً كبيراً :

ـ ان الادوية الكبيرة توصف للادواء الوبيلة !

كان الملتمس الذي كتبه له امين لجنة التحقيق ، والذي لم يذكر فيه شيء عن مساوىء مفوضية التموين ، بل توسل الى الامبراطور فيه ان يتكرم بالصفح عنه فقط ، هو ماودعه دينيسوف في المغلف الكبير . قال :

ـ ابعث بهذا طالما ان ذلك ...

لكنه لم يتم جملته بل تقلصت قسمات وجهه بتأثير ضحكة مغتصبة .

★ ★ ★

الفصل التاسع عشر

روستوف وبوريس

بعد ان اطلع روستوف الكولونيل قائد الفيلق على نتيجة ما وصلت اليه قضية دينيسوف ، سافر الى تيلسيت[1] حاملا الملتمس العتيد .

وفي الثالث عشر من حزيران ، التقى الامبراطوران في هذه المدينة الصغيرة فطلب بوريس دروبتسكوي من رئيسه المتنفذ ان يلحقه ذلك اليوم بحاشية جلالته قال مبرراً طلبه :

– انني اود من صميم قلبي ان ارى الرجل الكبير .

وكان يعني بهذا الوصف نابوليون الذي كان يُطلق عليه حتى ذلك اليوم اسم بيونابارت استهزاءً كما كان يفعل الآخرون .

سأله الجنرال باسما :

– هل تتحدث عن بيونابارت ؟

القى بوريس نظرة على رئيسه ادرك بعدها على الفور ان هذا كان يمازحه وانه كان يريد اختباره فحسب فقال يجيبه :

---

(١) تيلسيت ، اسمها اليوم سوفيتسك مدينة ليتوانية سكانها (٥٠٠٠٠) نسمة عقدت فيها معاهدة بين نابليون بونابارت والامبراطور الكسندر الاول ، امبراطور روسيا عام ١٨٠٧

- ياأميري ، انني اتحدث عن الامبراطور نابوليون .

قال الجنرال وهو يربت على كتفه بود :

سوف تصعد بعيداً على سلم الترقي ...

وصحبه معه . وبذلك كان بوريس من المجدودين القلائل الذين حضروا محادثة نييمن[1] . شاهد الارمات مزينة بأحرف اسمي الامبراطورين متداخلة بخط جميل ، « ونابوليون » على الضفة المقابلة يستعرض حرسه بينما كان الكسندر صامتاً ساهماً ينتظر في مبنى على شاطىء النهر . رآى العاهلين ينزلان في زورقيهما « ونابوليون » ، وقد وصل الرمث قبل الكسندر ، يقترب من الكسندر بخطوات سريعة ويمد له يده . ثم رآى الامبراطورين يختفيان تحت الرواق . كان بوريس منذ ان تسلل بين المتنفذين في المجتمع ، قد اعتاد مراقبة كل شيء بدقة وتسجيل كل ما يدور حوله بعناية . وجه عنايته خلال مقابلة تيلسيت الى الاشخاص الذين كانوا يرافقون « نابوليون » واستعلم عن اسمائهم ومميزات ازيائهم العسكرية والتقط بكل عناية كل ما كان يتفوه به المتنفذون من ذوي المكانة . استشار ساعته في اللحظة التي دخل فيها العاهلان تحت الرواق ولم ينس قط ان يعيد النظر اليها عندما خرج الكسندر . تبين له ان المقابلة دامت ساعة وثلاثة وخمسين دقيقة فسجل هذا التفصيل ذلك المساء بالذات بين عدد من التفاصيل الدقيقة الاخرى التي كان يشعر انها ذات اهمية تاريخية . ولما كان الكسندر لم يصطحب معه الا حاشية قليلة العدد ، فان وجود بوريس في عداد تلك الحاشية في تيلسيت كان في حد ذاته حدثاً هاماً وخطوة مرموقة في طريق مستقبله ، مستقبل شاب

---

(١) نييمن اسم نهر من انهار روتينيا البيضاء وليتوانيا . يسقي اراضي جرودنو ، وتيلسيت ويصب في بحر البلطيق ، طوله ٨٣٠ كم . اطلق اسمه على المحادثات التاريخية التي دارت بين نابوليون وقيصر روسيا .

طموح كبوريس . لمس بنفسه عقب ذلك ان مكانته ازدادت قوة ومتانة . فلم يعد معروفا فحسب بل كان كذلك قبلة الانظار يستهوي الابصار ويألفه الناس . وقد كُلف مرتين بمهات لدى الامبراطور حتى ان هذا بات يعرفه للنظرة الاولى ، وبات افراد الحاشية يدهشون اذا انقطع عن الظهور بينهم على عكس ما كانت عليه الحال من قبل عندما كانوا يتحاشون النظر الى ذلك الوجه الجديد .

كان بوريس يسكن مع احد زملائه الكونت جيلينسكي . كان ذلك البولوني الفني الذي نشأ في باريس ،شديدالولع بالفرنسيين . وبذلك فان ضباط الحرس وكبار ضباط الاركان العامة الفرنسيين ، ظلوا طيلة مدة اقامتهم في تيليسيت يُدعون كل يوم تقريبا الى تناول الطعام ظهراً ومساء لدى الضابطين المساعدين .

وفي الرابع والعشرين من حزيران ، أولم الكونت جيلينسكي حفلة عشاء لاصدقائه الفرنسيين . وكان في الوليمة مدعواً على جانب من الخطورة ،وهو مساعد الميدان لنابوليون ، وعدد من ضباط الحرس وشاب سليل اسرةفرنسية قديمة كان وصيفا للامبراطور . وفي ذلك المساء بالذات ، انتهز روستوف فرصة الظلام المدلهم ، وتسلل الى تيليسيت في ثياب مدنية ومضى الى مسكن بوريس .

كان الجيش ، الذي جاء منه روستوف ، لم يبدل بعدعواطفه نحو الفرنسيين الذين انقلبوا فجأة من اعداء الى اصدقاء ، لان ذلك التحول لم يحدث الا في القيادة العامة . اما الجيش ، فقد ظل افراده يشعرون نحو بونابارت واتباعه بذلك الشعور بالذات ، الذي كان مزيجاً من الغضب والاحتقار والفزع . ومنذ وقت قصير ، كان روستوف يتناقش مع ضابط من قافازيي فيلق بلا خوف وكان يؤكد انه اذا وقع نابوليون اسيراً فانهم لن يعاملوه معاملة امبراطور بل

معاملة مجرم . بل وانه منذ امد جـــد قصير ، التقى روستوف بزعيم فرنسي جريح ، وأفهمه عامداً ان من العبث قيام صلح بين عاهل شرعي كالقيصر وذلك المجرم بونابارت . لذلك فقد ذهل عندما رآى في منزل بوريس عسكريين كان يتوقع ان يراهم في كل مناسبة في الخطوطة الامامية ولكن ليس هنا ، فلما وقع بصره على ضابط فرنسي ظهر على عتبـــة الباب ، شعر فجأة بالكراهية العسكرية تتفجر في اعماق نفسه ، تلك الكراهية التي تستحوز على كل كيانه عند رؤيته العدو . توقف قبالته وسأله باللغة الروسية عما اذا كان دروبتسكوي يقطن هنا . سمع روستوف صوتا غريباً يخرج للقائه . فلما عرف روستوف ، لم يستطع كتمان انزعاجه ونفوره . لكنه مع ذلك اقترب منه وهو يبتسم قال :

– آه ! هذا أنت ؟ أهلا ، أهلا . سرتني رؤيتك .

فأجابه روستوف في شيء من البرود لان البادرة الاولى التي ارتسمت على وجه صديقه لم تفته :

- يبدو لي انني ازعجك أليس كذلك ؟ ما كنت ارغب في المجيء لكن هناك مسألة اضطرتني ...

– ابدا ، البتة . انك لاتزعجني ، لكنني دهشت فقط عندما وجدتك بعيداً عن قطعتك .

واجاب على صوت كان يناديه من الداخل :

– خلال لحظة اعود لاكون رهن تصرفكم .

كرر روستوف قوله :

– انني ارى بوضوح انني ازعجك .

تبددت اثار الانزعاج التي ارتسمت لاول وهلة على وجـه بوريس . لقد استعاد هدوءه بعد ان اتيح له وقت للتفكير في الامر ، فوصل الى القرار

اللازم . امسك بيدي نيكولا بهدوء وقاده الى غرفة مجاورة . اخذ ينظر اليه بسكون وجلد حتى خيل لروستوف ان صديقه بدأ يستعمل القناع المعروف عند الاشخاص الذين يشقون طريقهم في المجتمع الراقي ، قناع الحياة الزائفة . قال بوريس مجيباً :

– ابداً ، انك لاتزعجني . ماهذا القول ؟ هل يمكن ان تسبب لي انت اي ازعاج ؟

وقاده بوريس الى القاعة التي كان المدعون منتظمين فيها بانتظار الطعام ، فقدمه اليهم وبين لهم انه ليس مدنياً بل ضابطاً من سلاح الفرسان ، وصديقاً قديماً له . ثم قدم اليه الموجودين :

– الكونت جيلنسكي ، الكونت ن. ن. الرئيس س. س. الخ ...

القى روستوف نظرة شرسة على الفرنسيين وحياهم بصلابة ثم لزم الصمت .

استقبل جيلنسكي هذا الدخيل من جانبه في شيء من الحفاوة فلم يوجه اليه اية كلمة ! اما بوريس ، فانه تظاهر بانه لم يشعر بالارتباك الذي احدثه قدوم روستوف ، وراح – شأن رجال المجتمع الراقي – يحاول اثارة الحديث بين الموجودين لازالة الاثر الذي علق في النفوس . ورأى احد الفرنسيين ان روستوف لاينبس ببنت شفة ، فقال بالادب المعروف عن بني قومه انه يعتقد بانه جاء الى تيلسيت ليرى الامبراطور ولا ريب . فاجابه روستوف بايجاز :

– كلا ، بل جئت بصدد قضية .

ساء مزاج نيكولا منذ اللحظة الاولى التي رآى فيها بوادر التبرم على وجه بوريس اخذ يتصور – كما هي الحالة في مثل هذه المواقف – ان كل الموجودين . والحقيقية انه كان يزعجهم . لقد كان وحده بعيداً عن دائرة الحديث العام . فبدت الانظار كلها كأنها تقول : « ماذا جاء يفعل هنا ؟ » فنهض واقترب من بوريس وقال له بصوت منخفض :

- انني اشعر بانني ازعجك . فهيا بنا نتحدث قليلا عن الموضوع الذي من اجله وسأنسحب بعدئذ .

فاجابه بوريس :

- انني لااشعر باي ازعاج . مع ذلك ، اذا كنت تعباً ، فهيا بنا الى الغرفة المجاورة حيث يمكنك ان تستريح قليلا .

- ذلك خير ..

انسحبا الى الغرفة الصغيرة التي ينام فيها بوريس فلما ولجاها ، شرع روستوف دون ان يجلس - وكأن بوريس اساء اليه في شيء ما - يتحدث بصوت خشن ، عارضاً عليه الامر الذي دعاه الى اللجوء اليه . سأله عما اذا كان يستطيع او يريد ان يتدخل في هذا الموضوع بواسطة الجنرال الذي كان يشغل منصب الضابط المساعد عنده ، ليرفع الملتمس عن طريقه الى الامبراطور ? اقتنع نيكولا لاول مرة خلال تلك المقابلة الخاصة انه لايجرأ على النظر الى وجه بوريس نظرة صريحة . كان هذا جالساً ، واضعاً ساقاً على ساق ، يفرك يديه الجميلتين ويصغي الى نيكولا وكأنه جنرال يصغى الى تقرير احد مرؤوسيه وكانت نظرته تشرد تارة في احد الاركان وطوراً تنصب بقحة على روستوف وكلما شعر روستوف بتلك النظرة المحبوبة بستار الرسميات « والبروتوكول » تنحط عليه ، كان يشيح بنظرته . قال بوريس :

لقد سمعت قصصاً من هذا القبيل واعرف ان الامبراطور يظهر قسوة في مثل هذه الامور . وفي رأيي ان من الافضل عدم اللجوء الى جلالته في هذه المسألة بل التوجه بها مباشرة الى قائد الفيلق ... ثم انني اعتقد ...

قال نيكولا دون ان يرفع بصره الى بوريس :

- اذا كنت لاتريد المساهمة في هذا الامر فقل ذلك بكل صراحة !

فاجاب هذا باسماً :

– بل على العكس ، سأعمل كل مااستطيعه ، لكن رأيي ...

وفي تلك اللحظة ارتفع صوت جيلنسكي يدعو « بوريس » من وراء الباب. فقال نيكولا :

– هيا ، اذهب ، اذهب ...

ورفع مشاركة الضيوف في طعامهم . ولما اصبح لوحده ، راح يذرع الغرفة الصغيرة بعصبية ، بينما كانت الضحكات المرحة وصدى اصوات الفرنسيين المرحة ترتفع من القاعة المجاورة .



الفصل العشرون

جواب الامبراطور

اخطأ روستوف في انتقاء اللحظة المناسبة المجيء الى تيلسيت . لم يكن يستطيع مقابلة الجنرال آمر الخدمة لانه كان في البسة مدنية وكان متغيباً عن قطعته دون اجازة رسمية . اما بوريس ، فانه على فرض وجـــود النية الطيبة لديه ورغبته في اداء هذه الخدمة ، ما كان يستطيع الشروع بتنفيذها غداة اليوم التالي لوصول صديقه القديم . والواقع ان في ذلك اليوم ، السابع والعشرين من حزيران ، جرى التوقيع على البنود التمهيدية للصلح ، وتبادل الامبرطوران ارفع اوسمتها فتلقى الكسندر الوشاح الاكبر لجوقة الشرف ، وتقلد نابوليون وشاح سان آندريه الرفيع . وكان عليهما بعد ذلك حضور حفلة كبرى يقيمها لواء من الحرس الامــبراطوري الفرنسي للواء من فيلق بريوبراجنسكي .

كان روستوف شديد الارتباك في حضرة بوريس حتى انه تظاهر بالنوم عندما عاد هذا اليه بعد العشاء . وفي الصباح ، اختفى في ساعـــة جد مبكرة دون ان يودعه بكلمة . تاه في المدينة وهو في ثيابه المدنية وعلى رأسه قبعة مستديرة وراح يعاين الفرنسيين في البستهم العسكرية ويتفحص الشوارع والبيوت

التي ينزل فيها الامبراطوران . وفي ساحة المدينة ، لاحظ ان عدداً من الموائد قد اقيم استعداداً لحفـــلة كبيرة . رآى الشوارع مزدانة بالاعلام الفرنسية والروسية ، والحرفين الاولين « آ » و « ن » اللذين يرمـزان الى اسمي الامبراطورين ، مرفوعين في كل مكان على النوافذ ، فلم تكن العين لترى اكثر من الاعلام والاحرف .

اخذ نيكولا يفكر في سره : « ان بوريس لايريد ان يعمل شيئاً . ثم انني ماعدت اتمسك بفكرة الركون اليه . لقد انتهى كل شيء بيننا . غير انني لن ارتحل من هنـــا قبل ان احاول المستحيل من اجل دينيسوف ، وخصوصاً قبل ان اوصل رسالته الى الامبراطور ... الامبراطور ؟ لكنه هنا ! ... »

وعلى الرغم منه ، اقترب من الدار التي ينزل فيها الكسندر كانت بعض الخيول المسرجة، خيول الركوب، تزدحم قرب الباب وكان نفر من ضباط الحاشية يتقاطر حول المكان ، فتأكد ان الامير على وشك الخروج.

فكر روستوف : « انني استطيع ان اراه في كل لحظة . ليتني فقط اتمكن من تسليمه الملتمس يداً بيد ، لافسر له المسألة واوضحها !... لكنني في ثياب مدنية ، ولعلهم سيوقفونني من اجل ذلك ! ولكن كلا ، لن يحصل ذلك ... ان الامبراطور سيعرف ولا ريب جهة الحق فيدعمهـــا . انه يفهم كل شيء ويعرف كل شيء . من ذا الذي يستطيع ان يكون اكثرعدالة واكثر كرماً منه ؟ ... وبفرض انهم اوقفوني لانني هنا ، ماذا يهم ذلك ! ... »

ولما رآى الضباط يدخلون الى المقر الامبراطوري دون عوائق قال لنفسه : « إه ، لكنهم يدخلون بكل يسر وسهولة ... هيا تشجع يافتى ! سوف اسلم الملتمس الى الامبراطور بنفسي . الحق على دروبتسكوي الذي الجـأني الى اتخاذ مثل هذا النهج . »

وفجأة ، وبعزم لم يعهده في نفسه ، توجــــه روستوف مباشرة الى مدخل المسكن وهو يلمس الملتمس في جيبه .

قال يحدث نفسه : « لن ادع الفرصة تفوتني هــــذه المرة كما حدث في اوسترليتز ! » كان يتوقع ان يرى نفسه بعد كل خطوة وجها الى وجه مع الامبراطور . وازاء تلك الفكرة ، كان الدم يقفز من كل اطرافه ليطفح به قلبه « سالقي بنفسي على قدميه مسترحماً متوسلاً ، فيرفعني ويصغي اليّ ، بل انه سيشكرني كذلك . » واخذ خياله يسمع اذنه صوت الامبراطور يقول له : « انني سعيد اذ استطيع عمل خير ، وان رفع حيف وظلم عن بعضهم هو غاية سعادتي . »

تجاوز المشى تحت وابل من نظرات الضباط الفضولية وهناك ، انتصب امامه سلم عريض يقود الى الطبقة الاولى مبـــاشرة . وكان الى اليمين باب مغلق . وفي اسفل السلم ، باب آخر يطل على البناء الارضي . سأله بعضهم :

ـ ماذا ترغب ؟

فأجاب نيكولا وفي صوته رعدة :

ـ رفع ملتمس الى جلالة الامبراطور .

ـ ملتمس ؟ اذهب الى ضابط الخدمة . من هنا من فضلك .ـ واشار له الى الباب الذي في اسفل السلم ـ لكنه لن يستقبلك .

لما سمع روستوف ذلك الصوت الجلي ، شعر بفداحة عملة . كانت فكرة استقبال الامبراطور ، على مافيها من فتنة للنفس ، ترعبه لدرجة انه كان يرحب بالفرار من هذا المأزق لولا ان فتح له الضابط المنوب باب حجرة ضابط الخدمة فاضطر الى الدخول اضطراراً .

رآى رجلا ضخماً سميناً في العقد الثالث من عمره ، يرتدي سراويل بيضاء وينتعل احذية الفرسان طويلة الساق ، واقفاً في منتصف الغرفة . كان قد فرغ

لتوه من ارتداء قميص رقيق من « الباتيستا » الفاخرة وكان وصيفه يضع له حمالات السراول الجديدة كل الجـــدة ، الموشاة بالحرير . وكان يتحدث مع شخص آخر في غرفة مجاورة . وقد لفتت هذه الملاحظة انتباه روستوف . كان الرجل الضخم يقول :

– جيدة التكوين وبجمال الشيطان ...

لكنه لما وقع بصره على روستوف ، قطب حاجبيه وقطع حديثه وقال له

– ماذا تريد ؟... ملتمس ؟...

وسمع الصوت الاخر يقول من داخل الغرفة :

– ماهذا ؟

فاجابه الرجل ذو الحمالات الجديدة :

– انه مستدع جديد .

– قل له ان يعود مرة اخرى . انه على وشك الخروج فينبغي ان نعطي خيو لنا الآن .

دار روستوف على اعقابه وهم بالخروج عندما استوقفه الرجل الضخم سائلًا :

– من انت ؟ والملتمس من طرف من ؟

– انه من طرف الماجور دينيسوف .

– وانت من تكون ؟ ضابط ؟

– الملازم الكونت روستوف .

– ياللجرأة ! ارسل الطلب عن طريق التسلسل . هيا ، اذهب واسرع ، اسرع ...

وارتدى ثوبه الذي جاء به الوصيف في تلك اللحظة .

عاد روستوف الى الممشى فرآى عدداً كبيراً من الجنرالات والضباط في ثياب الحفلات مجتمعين عند باب المسكن ، فكان عليه ان يمر بينهم ، تحت انوفهم

لعن جرأته ، وخارت عزائمه لمجرد تفكيره في انه سيغمر بالخجل ويوقف ويسجن في حضرة الامـــبراطور . ادرك سوء تصرفه في تلك اللحظة فراح يتسلل مطأطىء الرأس خارجاً من ذلك البيت الذي كان عدد من الاتباع المرموقين محدقين به . وفجأة استوقفته يد احدهم . سمع صوتا منخفض الطبقة خشناً يقول له :

– هه ايها الباسل ! ماذا تعمل هنا وفي البسة مدنية ؟

عرف صاحب الصوت . كان قائد فيلقه القديم، وهو جنرال استطاع خلال الحملة الاخيرة ان يحظى بعطف الامبراطور وتقديره . ارتبك روستوف لاول وهلة ارتباكاً شديداً وهمّ بتبرير موقفه امام الجنرال . لكنه اطمأن عندما رآى امارات الطيبة مرتسمة على وجه هذا الاخير ، فانتحى به جانباً وعرض عليه المسألة كلها وتوسل اليه ان يتدخل لمصلحة صديقه . وكان الجنرال يعرف دينيسوف حق المعرفة ، فهز رأسه بقلق وانشغال وقال :

– انها نهاية محزنة بالنسبة لهذا الباسل . اعطني الملتمس .

لم يكد روستوف يسلمه الرسالة حتى علا قرع المامبز الدالةعلى حركة الاقدام على السلم ، فتركه الجنرال ليعود الى مركزه . كان القادمون افراد الحاشية وقد هرعوا الى خيولهم يمتطونها . وجاء اينو ، وهو نفسه الذي كان في اوسترليتز ، يقود جواد الامبراطور . ارتفع وقع خطوات خفيفة على السلم فلم يجد روستوف عناء في معرفة صاحبها نسي الخطر الذي ينتظره اذا اكتشف امره فاقترب واختلط بين عدد من الفضولين حتى وصل الى الباب . استطاع ان يرى ، بعد فترة عامين طويلين ، تلك القسمات المعبودة ، وتلك النظرة المعروفة والمشية اياها ، ذلك المزيج من الجلال والدعة والحلم ... استسلم مجدداً للحماس الذي كان يتسلط عليه من قبل . كان الكسندر يرتدي سراويل بيضاء وينتعل

احذية الفرسان ، وقد بدا في زي فيلق بريوبراجنسكي وعلى صدره وسام كان روستوف يجهل نوعه وكان هو وسام جوقة الشرف . كان يغيب يديه في قفازيه واضعاً قبعته ذات الزاويتين تحت ابطه . توقف على المدخل والقى نظرة حوله ، نظرة اضاءت كل ماحوله . توجه بحديثه الى بعض الجنرالات وتعرف على الفور على قائد فيلق روستوف السابق ، فابتسم له واشـــار اليه ان يقترب .

ابتعد كل افراد الحاشية . فرآى روستوف ذلك الجنرال يتحدث فترة غير قصيرة مع الامبراطور الذي اجابه ببعض كلمات واقترب خطوة نحو جواده . ومن جديد اقترب الفريقان ، فريق الحاشية وفريق الفضوليين الذي كان روستوف في عدادهم . ولما وصل الامبراطور الى حيث كان جواده ، وضع يده على السرج واستدار نحو الجنرال وقال له بصوت مرتفع ، ساعياً ولاريب ان يبلغ قوله مسامع المتجمهرين :

- لااستطيع ياجنرال وذلك لأن القانون ارفع مني مقاماً .

ووضع قدمه في الركاب فانحنى له الجنرال باحترام . امتطى الامبراطور جواده ومضى هدباً . وبلغ الحماس بروستوف مبلغ الهذيان فاندفع مع الجمهور في اعقاب الكسندر .

★ ★ ★

الفصل الحادي والعشرون

منحة نابوليون

في الساحة التي مضى اليها الامبراطور ، كان لواءان يقفان متقابلين اولهما ، الى اليمين ، لواء من فيلق بريوبراجينسكي ، والثاني الى اليسار ، لواء من الحرس المهاجم ذوي القلنسوات المصنوعة من الشعر .

وبينما كان الكسندر يبلغ احد الجانبين اللذين يمثلان كل اقسام اسلحة الجيش كانت كوكبة من الفرسان تهدب نحو الجانب الاخر . عرف روستوف بغريزته ان السائر على رأس تلك الكوكبة الاخرى لم يكن الا « نابوليون » اذ انه لايمكن ان يكون احد غيره . كانت قبعته الصغيرة على رأسه ، وعلى صدره وشاح سان آندريه فوق ثوبه الازرق الغامق الذي كان يكشف عند العنق عن صدارة بيضاء وكان متمطياً صهوة جواد عربي كريم رائع الجمال ، تحلى ثوبه الرمادي النظيف ، لبادة حمراء موشاة بالذهب . فلما اصبح بمحاذاة الكسندر رفع قبعته . استطاعت عين الفارس روستوف ان تستشف ، استناداً الى تلك الحركة الخرقاء ، ان «نابوليون» لم يكن خالياً من الارتباك والانفعال . ارتفعت الهتافات من حناجر جنود الالوية : هورّا ! يعيش الامبراطور ! حدث نابليون «الكسندر» بضع كلمات وترجل كلاهما وتصافحا . كان نابوليون

يبتسم ابتسامة باهتة منفرة . اما الكسندر فقد توجه اليه يحدثه ببشاشة زائدة .

اخذ رجال الدرك الفرنسيين يحفظون النظام بين الجماهير رغم عدم استقرار جيادهم . راقب روستوف كل حركة من حركات الأمبراطورين لكن مازاده دهشة ، هو ان «الكسندر» كان يعامل نابوليون معاملة الند للند . اما بونابارت، فكان من جانبه يبدو و كأن علاقته وتآلفه مع الكسندو امر طبيعي جداً يرجع الى زمن بعيد .

اقترب نابوليون والكسندر واتباعهما المتعددون نحو لواء بريوبراجنسكي على الجانب الايمن وهما يمشيان في خط مستقيم نحو الجموع المحتشدة . وبلغ من شدة اقتراب الامبراطورين واتباعهما من المتجمهرين ، ان خشي روستوف — وكان في الصفوف الاولى — ان يُكتشف امره .

ارتفع صوت واضح حازم يبرز كل حرف من احرف الكلمات بوضوح يقول :

— ياصاحب الجلالة ، اطلب اليكم السماح بتقليد اشجع جندي من جنودكم وسام جوقة الشرف .

كان بونابارت هو الذى يتحدث وهو ينظر في عيني الكسندر نظرة صريحة من اعلى قامته القصيرة . فأصغى الكسندر الى كلماته بانتباه كبير وايدها بهزة من رأسه وابتسم بدعة ملاطفاً :

اردف نابوليون محدداً عرضه وهو يقرع كل مقطع من مقاطع كلماته ، بينما كانت عيناه تتصفحان صفوف الروسيين بهدوء واعتداد ثارت لهما نفس روستوف ، في حين كان هؤلاء ساكنين يقدمون التحية بالسلاح وعيونهم شاخصة الى امبراطورهم وحده :

— الى ذلك الذي تصرف بأكثر بسالة وشجاعة خلال هذه الحرب الأخيرة.

فقال الكسندر :

- هل تسمح لي جلالتكم باستشارة الكولونيل وأخذ رأيه ؟
واتجه مسرعاً ببضع خطوات نحو الامير كوزلوفسكي الذي كان آمر اللواء . وفي تلك اللحظة نزع بونابارت يده الصغيرة البيضاء من قفازها ، فتمزق القفاز فألقاه جانبا . وهرع احد افراد الحاشية يلقتطه .
سأل الكسندر بصوته المنخفض الامير كوزلوفسكي :
- لمن نعطي الوسام ؟
- الى ذلك الذي تتفضلون جلالتكم بانتقائه .
قطب الكسندر حاجبيه دلالة على عدم الرضى وقال وهو يلقي نظرة الى الوراء :
- ينبغي اعطاءه الجواب رغم ذلك .
اعتزم كوزلوفسكي امراً ، فطاف بالصفوف بنظرة بلغت مكان روستوف نفسه حتى ان هذا غمغم يحدث نفسه : « أأكون انا ؟ » ولم يلبث ان صاح بصوت شرس :
- لازاريف !
فتقدم الجندي الاول من الصف بخطوات عسكرية منسقة .
هتفت بعض الاصوات تحدث ذلك الجندي الباسل الذي لم يكن يدرى اين يمضي :
- الى اين تذهب ؟ البث في مكانك !
فتوقف لازاريف وهو يختلس نظرة مذعورة الى وجه الكولونيل كان وجهه متقلصاً بعصبية شأن كل جندي يستدعى في عرض عسكري شامل
التفت نابوليون التفاتة خفيفة من رأسه وحرك يده البيضاء السمينة وكأنه يتناول شيئاً . فهرع رجال الحاشية وقد ادركو غرضه من تلك الحركة ، وماجت صفوفهم وهمسوا شيئاً تناقلته الشفاه الى الاذان . وعندئذ هرع تابع

خاص ، وهو الذى شاهده روستوف بالامس عند بوريس ، الى حيث وقف سيده ، فانحنى امامه باحترام ووضع في اليد الممدودة وساماً ذا شريط احمر . فضغط نابوليون باصبعيه على الوسام دون ان ينظر اليه او الى قدمه واقترب من لازاريف الذي كان شاخص البصر الى امبراطوره بعينين جاحظتين فيهما عناد واصرار ثم القى نظرة على الكسندر وكأنه يقول ان مايعمله الآن ، انما يعمله من أجل حليفه لااكثر . ارتفعت اليد البيضاء السمينة حاملة الوسـام فاحتكت بثوب الجندي الروسى لازاريف . كان نابوليون يعتقد بلاريب انه لكي يجعل هذا الجندي سعيداً الى الابد ، ولكي يجعل منه مخلوقاً مغرقاً بالرعاية والاحسان ، خلافاً لكل مخلوقات العالم الاخرى ، يكفي ان تتنازل يده ، هونابوليون ، بلمس صدره لمسا ، لذلك اكتفى بان ضغط صليب الوسام على صدر لازاريف وسحب يده على الفور والتفت الى الكسندر كما لو كان واثقا من ان الصليب سيبقى عالقاً في مكانه هناك . والواقع انه ظل في مكانه معلقاً على صدر الجندي . ذلك ان يد متلهفة فرنسية وروسية ،تناولت الوسام على الفور وثبتته على صدر الجندي المجدود .

كان لازاريف ينظر الى الرجل القصير ذي اليدين البيضاوين ، الذي قام بتلك الحركة ، نظرة كئيبة ، وهو مستمر في تقديم سلاحه بالتحية ، ثم اشاح ببصره الى الكسندر وكأنه يسأل عما اذا كان يجب ان يبقى في مكانه اويبتعد او ان يعمل اي شيء آخر يطلب اليه . ولما لم يتلق اي امر ، فقد ظل فترة طويلة منتصباً في مكانه ذاك في وضعيته تلك لايبدلها .

اعتلى الامبراطوران صهوتي جواديهما وابتعدا . فتفرقت صفوف لواء بريوبراجنسكي واختلط افراده بجنود الحرس الفرنسيين الذين اقيمت الحفلة على شرفهم ، وجلسوا الى الموائد .

كان لازاريف يحتل مكان الشرف . وكان ضباط من الفرنسيين

والروس يهنئونه ويعانقونه ويصافحونه بحرارة ، وكان المدنيون والعسكريون على السواء يتدافعون ليحظوا بنظرة الى وجهه . كانت الساحة كلها مدوية باصداء الاحاديث والضحكات المرحة . مر ضابطان سعيدان هانئان ، تشرب وجهاهما بحمرة النشوة ، امام روستوف . كان احدهما يقول :

- ياله من احتفال ياعزيزي ! لقد خرجوا الاطباق الفضية ونثروها على الموائد ... هل رأيت لازاريف ؟

- نعم .

- سوف يقيم لواء بريوبراجنسكي حفلة على شرف الفرنسيين غداً على ما نُمي الي .

- يالة من مجدود لازاريف هذا ! تصور انه نال بذلك مائتي فرنك جراية سنوية .

وهتف احد الجنود الروسيين في تلك اللحظة وهو يضع على رأسه قلنسوة احد جنود الحرس :

- انظروا الى هذه القلنسوة ياأولاد ! عاينوها !

- انها جميلة جداً !

وقال احد ضباط بريوبراجنسكي لزميل له :

- اتعرف كلمة السر ؟ لقد كانت اول امس : « نابوليون ، فرنسا ، شجاعة » وامس : « الكسندر ،روسيا ، عظمة » . ان امبراطورنا يعطي كلمة السر ثم يعطيها نابوليون في اليوم التالي ،سوف يعطي جلالته صليب سان جورج غداً الى اشجع جنود الحرس الفرنسيين . يستحيل بغير ذلك ان نعيد اليهم بادرتهم المهذبة .

جاء بوريس وصديقه جيلنسكي يعاينان الوليمة بدورهما . وبينما هو يلتفت عفويا ، شاهد روستوف واقفاً عند زاوية احد المنازل . قال له :

ـ هه ! مرحبا ياروستوف ! اننا لم نكد نقابل بعضنا .
ولما رآى سحنته المكفهرة المنقلبة لم يتمالك من سؤاله عن السبب فقال روستوف :
ـ لاشيء ، لايوجد شيء .
ـ ألا تمر بي لتزورني .
ـ كيف لا ، بلى .
لبث فترة طويلة واقفاً في زاويته يتأمل الحفل الصاخب . كان يشعر في اعماق نفسه بصراع عنيف لايستطيع الوصول به الى نتيجة مرضية . كانت شكوك مريعة تستولي على نفسه . فتارة يتذكر دينيسوف ، وتعابير وجهه غير المألوفة وخضوعه غير المنتظر ، فيرى ذلك في المستشفى القذر بمرضاه ورائحته التي تشبه رائحة جثث الموتى ، فتلاحقه تلك الرائحة وتزكم خياشيمه حتى انه كان يستدير ليرى مصدر تلك الرائحة القذرة الكريهة . وطوراً يتمثل بونابارت ،ذلك الرجل الرضي ذي اليد البيضاء ،الذي اصبح الآن معترفاً به كامبراطور ،والذي كان الكسندر يظهر حياله احتراماً وتودداً . واذن ؟ لمَ هؤلاء الموتى واولئك الذين فقدوا اطرافهم ؟ وكان احياناً يفكر في لازاريف والمكافأة التي منحت له ، وفي دينيسوف وعقوبته التي لا يُنتظر الصفح عنها . لقد راودته افكار غريبة جداً حتى انه شعر بخوف منها .
اثارت رائحة الوليمة شهيته الى الطعام واخرجته من احلامه . كان مضطراً الى تناول بعض الطعام قبل ان يعود الى كوكبته . مضى الى فندق مر به ذلك الصباح فوجد فيه جمعاً غفيراً من الناس ومن الضباط في ثياب مدنية مثله ،حتى انه وجد صعوبة كثيرة في الحصول على الطعام . انضم اليه ضابطان من فيلقه ودار الحديث حول الصلح بالطبع . كان اولئك السادة ، اسوة بعدد كبير من مؤيديهم في الجيش ، يستنكرون ذلك الصلح بعد معركة فريدلاند . كانوا

يزعمون ان الجيش الروسي لو قاوم مدة اخرى لقضي على نابوليون ، وان جنوده لم تعد تملك ذخيرة وعتاداً ومؤنه كافيه . كان نيكولا يتناول طعامه ويكثر من الشراب دون ان ينبس ببنت شفه . ارتشف وحده زجاجتين من الخمر . كان لايزال فريسة لذلك الصراع الداخلي المرير ، يخشى الاستسلام لتفكيره وتأملاته دون ان يستطيع مع ذلك التخلص منها . وفجأة ، وبعد ان قال احد محدثيه انه يخجل ان يرى المرء نفسه قبالة الفرنسيين ، تصاعد الدم الى وجه روستوف وصاح بحرارة لم يكن يبررها ذلك القول ، مما اثار دهشة المتكلم والضباط كلهم :

– كيف يمكنك ان تعرف الأحسن ؟ هل انت الذي تحكم على تصرف الامبراطور ؟ من الذي يعطينا الحق في مناقشة ذلك ؟ اننا لانستطيع ان نعرف خططه وتصرفاته ولا ان نفهمها .

فقال الضابط معترضاً وهو يعزي اندفاع صديقه وثورته الفجائي الى عامل الخمر :

– لكنني لم اتفوه بكلمة واحدة عن جلالته .

غير ان روستوف لم يلق بالاً الى اقوال الضابط وبياناته ، بل استمر يقول بأشد حماسة واكثر اندفاعاً :

– اننا لسنا سياسيين بل جنود ليس الا . فاذا امرنا ان نموت فما علينا الا ان نموت . واذا عوقبنا فما ذلك الا لأننا مذنبون . ليس من حقنا ان نناقش. واذا راق لجلالته الاعتراف ببونابارت كامبراطور وعقد حلف معه ، فان معنى ذلك انه ضرورة واجبة . فاذا رحنا نتدخل في الامور ونناقشها ، كان معنى ذلك انعدام كل شيء مقدس .

وازداد انفعالاً فضرب المائدة بقبضة يده وصاح متمماً :

– .. والا فان بامكاننا ان نقول اذن بان الله غير موجود وانه لايوجد شيء في الدنيا ! ان دورنا في الحياه هو القيام بواجبنا والطعن بالسيف دون التفكير في شيء !

كان واضحاً ان ذلك اللوم العنيف ، رغم ما بـدا عليه في نظر المستمعين من انه في غير محله ، يشغل ركناً متيناً في سياق افكار روستوف . فلما انتهى من حديثه بتلك الجملة ، بادر احد الضباط معقباً لتلافي كل نزاع او قيام مشادة غير مرغوب فيها :

- وان نشرب !

فأيده نيكولا قائلًا :

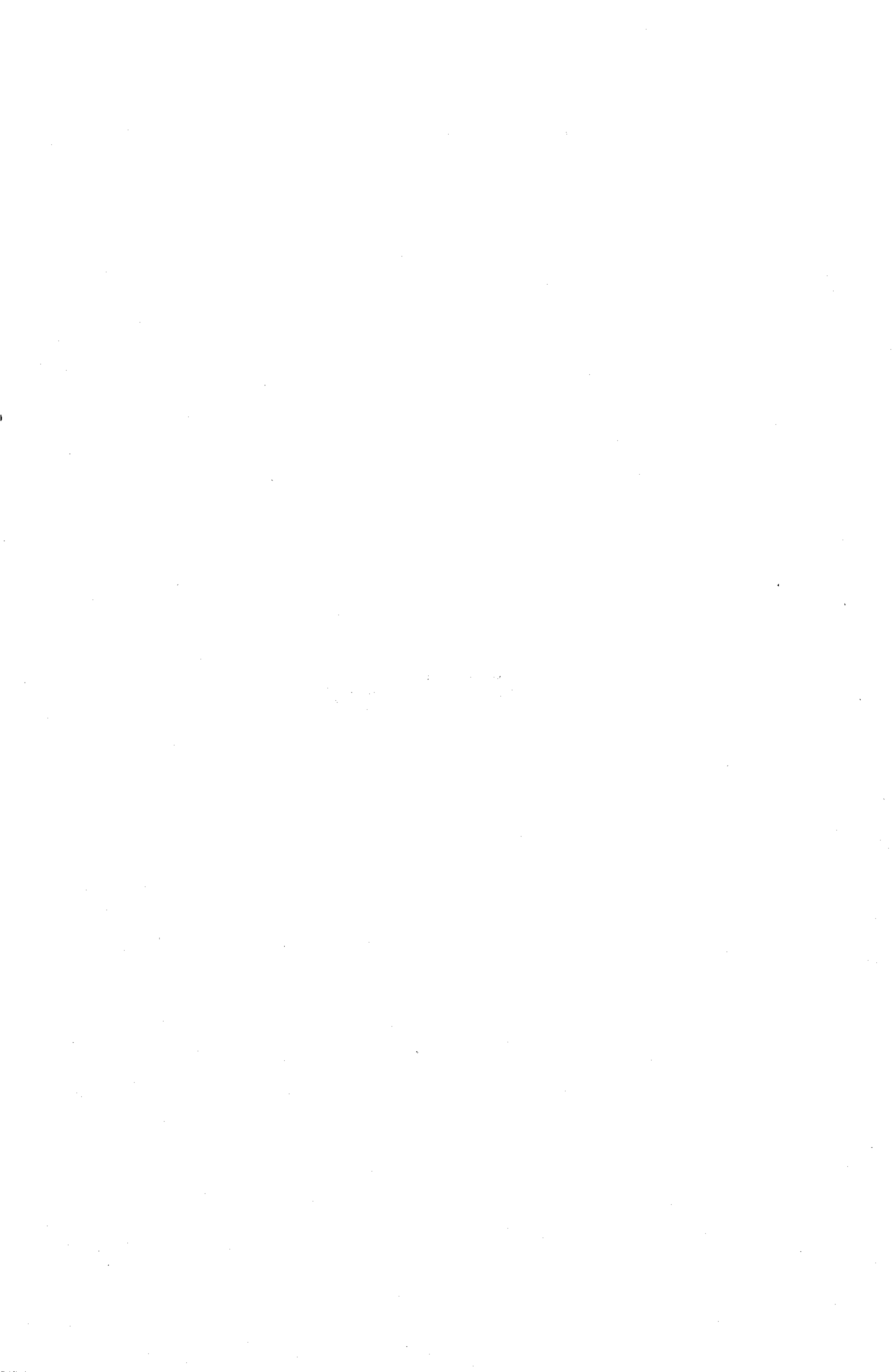
- نعم ، وان نشرب .

وصاح بالندل آمراً :

- هه ! يامن هناك ! زجاجة اخرى .



الجزء الثالث



الفصل الأول

سيدا العالم

انتقل الامبراطور الكسندر عام ١٨٠٨ الى ايرفورت[1] حيث وقع له مع الامبراطور نابوليون مقابلة جليلة جديدة رائعة ، ظلت حديث المنتديات الراقية في بيتروسبورج زمناً طويلاً .

وفي عام ١٨٠٩ ، بلغ تفاهم سيدي العالم - كما كانوا يسمونهما - ذروة المنتهى. كان نابوليون في تلك السنة قد اعلن الحرب على النمسا ، فتوجه جيش روسي عبر الحدود للتعاون مع العدو القديم بونابارت ضد الحليف القديم : امبراطور النمسا. بل ان هناك شائعة راجت في الاوساط الخاصة العليا حول توقيع زواج نابوليون باحدى اخوات الامبراطور الكسندر. الى جانب كل هذه الاحداث في السياسة الخارجية ، فان التبديلات والتجددات التي احدثت في كل اجزاء الجهاز الحكومي ظلت شغل المجتمعات الروسية الشاغل .

مع ذلك ، فان الحياة اليومية بكل خصائصها الجوهرية من صحة ومرض وعمل وبطالة ، ومقوماتها الاخرى من افكار وعلم وشعر وموسيقي وحب

---

(١) ايرفوت مدينة في مقاطعة الساكس على نهر جيرا سكانها (١٦٥٦٠٠) نسمة تقدم فيها صناعات الاقمشة والصناعات المعدنية الكهربائية والكهربائية الكيماوية وصناعة الآلات. تقابل فيها نابوليون مع امبراطور روسيا بحضور عدد كبير من ملوك اوربا ، وانتهت تلك المابلة بمعاهدة في صالح فرنسا

وصداقة وحقد ورغبات ، ظلت تسير على نهجها السابق مستقلة كل الاستقلال ، بعيدة كل البعد عن متناول التبديلات الجارية وتعاقب علاقات الروسيين بنابوليون .

دفن الامير آندريه نفسه في الريف طيلة عامين كاملين .

استطاع ان يدخل كل الاصلاحات التي ادخلها بيير في ممتلكاته ، والتي لم تصل احداها الى نهايتها المرضية عنده لانه كان يتنقل دون توقف من احداها الى الاخرى ، دون ان يبدو عليـــه شيء من العناء أو ان يبدل رأيه ازاء اول معترض . ذلك انه كان يمتلك ثباتاً عملياً وجزماً قوياً ، يستطيعان ان يبلغانه ما يشتهي دون شديد عناء ، على عكس صاحبه بيير .

كان من اوائل الروسيين الذين سجلوا اسماء فلاحيهم العبيد في عداد «الزراع الاحرار» ، عندما منح هذه الصفة لثلاثمائة عبد من فلاحيه في احدى مقاطعاته . اما في اراضيه الاخرى ، فقد استبدل اعمال السخرة بالاعمـال المأجورة . أقام قابلة على نفقته في بوجوتشارفو ، وقسيساً يتقاضى منه الاجر ، مهمته تعليم اولاد الفلاحين والخدم .

كان يمضي نصف وقته في ليسيياجوري مع ابيه وابنه الذي كان لايزال بين أيدي المربيات والخادمات ، والنصف الآخر في صومعته في بوجوتشاروف كما كان يدعوها الامير العجوز . وعلى الرغم مما اظهره من لا مبالاة حيال احداث العالم امام بيير ، فانه كان يتتبع كل الوقائع بانتباه ويستحصل على كتب عديدة . حتى انه كان يلاحظ بمزيد الدهشة اثر عودته من زياراته لبيتروسبورج ـ وهي محور حياة البـــلاد ـ ان اولئك السكان الادعياء يعرفون عن سياق السياسة الداخلية والخارجية اقل مما يعرفه هو ، رغم انه ما كان يغادر مكانه في الريف . وكانت ادارة املاكه ومطالعاته الكتب المختلفة متباينة المرامي والاهداف ، لاتستنفد كل وقته . وبذلك كان يستغرق في معاينة حملتي الجيش الروسي ،

معاينة الناقد المتجرد ، بكل ما فيها من بؤس وتعاسة ، ويضع اسساً تنظيمية جديدة لقوانين روسيا العسكرية .

وفي ربيع عام ١٨٠٩ ، مضى آندريه لزيارة املاكه في ريازان وهي املاك تخص ابنه الذي نصب نفسه ـ بحق ـ وصياً عليه . كان مستلقياً في عربته معرضاً نفسه لاشعاعات شمس الربيع الحانية ، يتأمل العشب الطري الجديد واوراق السندر الاولى ، والغيوم البيضاء الاولى التي كانت ترسم في زرقة السماء الصافية اشكالاً تشبه قطعان الغنم المتلاصقة . لم يكن يفكر في شيء معين بـــل كانت نظراته تشمل كل شيء .

اجتاز الطوف الذي وقف عليه في العام الماضي يتحدث مع بيير . وتخطت عربته قرية حقيرة وعـدد من البيادر ثم اكواماً من قمح الشتاء في حشائشه ، وانحدر على رابية حيث ظل على جوانبها طيف من ركام الثلج قرب جسر هناك لم يتبدد بعد ، ثم تسلقت العربة مرتفعاً طينياً وسارت على طول اكواخ متناثرة هنا وهناك تتخللها شجيرات مخضرة الاغصان واخيراً دخلت في حرج من اشجار السندر . كان الجو في الغابة حاراً تقريباً ، لاترتفع فيها نسمة هواء . فكان السندر ، تزينه اوراق خضراء نديه ، جامـداً لايتحرك . ومن خـلال بساط اوراق السنة الفائتة ، اطلت الاعشاب الجديدة الاولى مخضرة تحمل في رؤسها زهوراً بنفسجية صغيرة . وهنا وهناك قامت بعض اشجار هزيلة من الصنوبر خلال اشجار السندر ، تذكر بأس ، الشتاء القاسي ، بزرقتها القاسية الدائمـة . وثارت الخيول عند دخولها الغابة وازداد تعرقها غزارة .

قال بيير ، الوصيف العجوز ، شيئاً للسائق الذي رد عليه ايجاباً . فلم يكتف بذلك الجواب بل استدار في مقعده وقال لسيده وعلى شفتيه ابتسامة احترام :

ـ كم الطقس جميل يا صاحب السعادة !

ـ ماذا تقول ؟

– الطقس جميل يا صاحب السعادة .

فكر الامير في سره : « ماذا يقول هذا ؟ آه ! نعم . الربيع ! ... صحيح ، لعمري ان كل شيء قد اصبح مخضرا ... السندر والقراصياء ... وها هي اشجار الحور قد بسقت ... ولكن ليس من شجر سنديان ... آه ! بل ها هي ذي واحدة . »

على جانب الطريق انتصبت سنديانه عجوز . لاشك انها تفوق في قدمها اشجار السندر بعشر مرات ، فكانت لذلك اضخم منها بعشرة اضعاف واعلى منها ارتفاعاً بمثل هذه النسبة . كانت سنديانة ضخمة لاتحيط بها اربعة اذرع ، ذات اغصان محطمة من عهد قديم ولحاء متساقط مقعر ، ممتلئة بالنتوءات والتصدعات . كانت اذرعها الرحبة المعقدة البشعة الممدودة في غير تناسق ، تغطيها وهي في مكانها بين اشجار السندر الشابة ، مظهر وحسن عجوز غاضب مكروه محتقر . كانت وحدها ترفض الاستسلام لفتنة العام الجديد وتأبى رؤية الرتيع والشمس .

كأن تلك السنديانة كانت تقول : « الربيع ، الحب ، السعادة ! ألا تأنفون من هذا السخف الأبدي ؟ الا ترون ان كل هذا ليس الاحماقة وسخفاً ؟ لايوجد لاربيع ولا شمس ولا سعادة انظروا الى هذه الصنوبرات ، انها ميتة ، مختنقة ، متشابهة دائماً . وانظروا الي انا ، لقد حاولت طاقتي ان امد اذرعي الملتوية المحطمة ، فخرجت من ظهري وخاصرتي ومن كل مكان شاءت ان تخرج منه . بينما انا هنا ، لا استطيع حراكاً . فلست أؤمن بآمالكم وأكاذيبكم . »

ظل الأمير آندريه يلتفت من حين الى آخر ليرمق السنديانة بنظرة بينما كانت عربته تتوغل في طريق الغابة . كان يلتفت اليها وكأنه ينتظر وقوع شيء ما . كان في ظلها حقل امتزج فيه العشب بالأزاهير بينما ظلت هي ، هي الوحش الجبار ، تنصب بعناد قامتها الهائلة الكئيبة الشرسة .

فكر آندريه: « نعم ، ان لـهذه السنديانه الحق كل الحق . » كم من الآخرين، الشباب ، يستسلمون لهذه المخاتله . اما نحن ، فاننا نعرف كيف نتصرف : لقد انتهت حياتنا ، انتهت تماماً ! »

احدثت رؤية تلك الشجرة انبثاق افكار جديدة ، افكار يائسة ولكن ملؤها الفتنة المغمة . اخضع اسلوبه في الحياة خلال هذه الرحلة ، لدراسة عميقة مثمرة، انتهت به من جديد الى هذه النتيجة المؤلمـة ولكن المسكنة : انه لاينبغي له الشروع في شيء جديد بل انهاء حياته بكل وداعة دون ان يسيء الى احد او يتطلع الى شيء ودون أن ينكد عيشه .

* * *

الفَصْلُ الثّاني

آندريه وروستوف

اضطر آندريه لرؤية الكونت روستوف ، رئيس نبلاء المقاطعة ، لاعمال تتعلق بوصاية على املاك ريازان. ذهب للقائه حوالي النصف من ايار ، وهو بدء موسم القيظ . كانت الغابات قد اكتست حينذاك بالاوراق وانبعث الغبار واشتد الهجير حتى ان المرء لتتوق نفسة الى الاستحمام في اول بركه ماء يمر بها مهما بلغت ضآلة مياهها .

اخترق آندريه الممشى الرئيسي في حديقة « اوترادنواي » بيت آل روستوف الصيفي ، وهو عابس الوجة مشغول الفكر بسبب الوف الاشياء التي كان عليه بحثها مع رئيس النبلاء ، حينما تنهاهى الى سمعه وقع اصوات جذلة آتيه من ناحية اليمين . وخرجت زمرة من الفتيات من الدغل وقطعت الطريق على العربة ، تقودها سمراء ذات عينين سوداوين ، رشيقة جداً ، ترتدي ثوبا من القماش الهندي الاصفر وتعصب رأسها بمنديل ابيض افلتت منه خصلات مشعثة من شعرها . هتفت الصبية بقولٍ للامير ، لكنها نفرت هاربة وهي تنفجر ضاحكة عندما تبينت انها ازاء غريب لاتعرفه .

شعر الامير اندريه فجأة ببعض الامتعاض . لقد كان الطقس شديد البهاء

والشمس عنيفة الحرارة والعالم كله مبتهج جذل وهذه البنية اللطيفة لاتعترف ولا تريد الاعتراف بوجوده هو ، اندريه ! لقد كانت راضية عن وجودها هي ، خرقاء ولا شك غير مبالية ومسرورة ، اخذ يتساءل بالحاح : « ماالذي يجعلها على مثل هذه الحالة من صفو المزاج ؟ في أي شيء تفكر اذن ؟ لاشك ان تفكيرها لاينصرف الى التماثيل الحربية ولا الى تأجير الاراضي لفلاحي ريازان . في أي شيء تفكر ؟ وما الذي يجعلها سعيدة كل هذه السعاده ؟ »

كان الكونت ايليا آندرييئيفيتش يعيش باوترادنواي عام ١٨٠٩ مثل الحياة التي كان يعيشها من قبل ، اي انه كان يشبع المقاطعة كلها تقريباً بطرائد صيده وبالحفلات والولائم والموسيقي ، فكانت كل زيارة جديدة يقوم بها بعضهم لبيته تفتنه . وهكذا فقد استقبل الامير اندريه استقبالاً مملوءه الحفاوة واستبقاه لقضاء الليل عنده بما يشبه القسر .

لم يستطع آندريه النوم ذلك المساء بسرعة عندما اوى الى تلك الحجرة المجهولة منه ، التي جعلت مصاريع نوافذها الداخلية الحرارة فيها لاتطاق . لبث وحيداً يطالع كتابا ثم اطفأة الشمعة . لكنه عاد فأضاءها مرغماً وهو يشتم ذلك الاحمق العجوز ـ بذلك كان يسمى روستوف ـ الذي استبقاه بحجة ان الاوراق الضرورية لم تصل بعد من المدينة . احس بالنقمة على نفسه لأنه قبل الدعوة .

نهض ليفتح النافذة . ولم يكد يوارب مغاليقها حتى تسلل القمر الى الغرفة وكأنه كان ينتظر هذه الاشاره منذ امد طويل . فتحها على مصراعيها . كان الليل رطيباً هادئاً مشعاً . امتد قبالته تماماً ، صفاً من الاشجار المشذبة ، معتمة من جهة ومضاءة بنور قوي من الجهة الاخرى . وتحت الاشجار ثوت من النبت الكثيف الندي الممتليء بالرواء ، برزت على سطحه هنا وهناك اوراق وسوق فضية . ومن وراء الاشجار المعتمة ، يشاهد سقف يلتمع بالندى وابعد منه الى اليمين ، شجرة كبيرة كثيفة الاغصان ذات جذع واغصان بيضاء ناصعة

ومن فوقها القمر بادراً في سماء ربيعية مشرقة نادرة النجوم . اتكأ اندريه على النافذة وشخص بابصاره الى السماء .

كانت غرفته في الطبقة الاولى وسكان الشقة التي في الطبقة العليا لم يأووا بعد الى مضاجعهم بدلالة الاصوات النسائية التي كانت منبعثة من فوقه .

سمع اندريه صوتا عرفه من فوره يقول :

– مرة اخرى ، لاأكثر من مرة .

فاجاب صوت آخر :

– لقد حان وقت النوم هيا .

– كلا لن انام . لاأستطيع . انها ليست خطيئتي... هيا ، مرة اخيرة .

ورتل الصوتان جملة موسيقية كانت نهاية مقطوعة .

– آه ! كم هي جميلة ! ... حسناً ، والآن انتهينا ! فالى النوم .

– نامي اذا شئت . اما انا فلا أستطيع .

ولا شك ان صاحبة الجملة الاخيرة اقتربت من النافذة ولعلها كذلك اطلت منها وانحنت الى الخارج لان حفيف ثوبها طرق اذن اندريه حتى وصوت تنفسها. بدا القمر وضياؤه والظلال وكل شيء غارقاً في الصمت . حتى اندريه نفسه ، بات يخاف ان يفضح وجوده حركة تصدر عنه .

هتف الصوت الاول :

– سونيا ، سونيا . ياللعجب ، كيف يحلو النوم ! انظري ماأبهى الجو آه! كم هو جميل ! ... لكن استيقظي ، هيا .

واصبح الصوت متوسلاً وكأنه مشفع بالدموع :

– لم يسبق قط ابداً ان شوهدت ليلة بمثل هذا البهاء !

غمغمت سونيا ببضع كلمات مبهمة :

– انظري قليلا ، ياللبدر !... آه ! كم هو رائع ! ... تعالي هنا ، تعالي

انظري ... حسناً ، ماذا ترتأين ؟ ... ان هذا يهيب بالمرء ان ينطوي على نفسه هكذا وان يمسك باسفل ركبتيه ويشد ويضغط بعنف شديد ، كأعنف مايستطيع ، وان يحلق ويطير ... انظري ، هكذا ...

– كفاك ، هيا ... سوف تسقطين ...

وسمعت جلبة تشبه العراك ثم صوت سونيا المتذمر يقول :

– ان الساعة قد تجاوزت الواحدة .

– آه ! انك تفسدين بهجتي ... حسناً ، اذهبي ، اذهبي !

واستغرق كل شيء في سبات من الصمت . لكن آندريه حدس انها لاتزال هناك . لقد ظل يسمع الحفيف الخفيف والزفرات . وفجأة هتفت :

– آه ! رباه ، رباه مامعني هذا ؟ الى النوم طالما يجب ان ننام !

واغلقت النافذة بجلبة .

فكر آندريه الذي انتظر عبثاً خشية ان تكون الفتاة تتحدث عنه : « انها لاتعبأ بوجودي بكل تأكيد ! ثم لماذا قدر لي ان اراها من جديد تقتحم سبيلي؟ يمكن القول انها بادرة مقصودة . »

تصاعد من اعماق قلبه اعصار مفاجيء من الافكار والآمال الصبيانية التي تتنافى كليا مع واقعة حياته . ولما لم يجد في نفسه القدرة على ايضاح الامور ، نام لتوه .

★ ★ ★

الفَصلُ الثّالِثُ

آراء آندريه

وفي اليوم التالي ، استأذن الامير آندرية من الكونت وعاد ادراجه دون ان ينتظر نزول السيدات الى البهو .

عندما اخترق الأمير آندريه في طريق عودته الى ليسيبيا جوري تلك الغابة من شجر السندر حيث انتصبت تلك السنديانة العجوز الملتوية التي اوحت اليه ذلك الاحساس المفجع ، كان شهر حزيران قد هل . رددت جلجلة عربته في تلك الغابة صدى مكتوماً اكثر مما ندعها قبل ستة اسابيع . اصبحت الظلال والادغال المتشابكة في كل مكان حتى ان اشجار الصنوبر الفتية لم تتخلف عن عن البهجة العامة : لقد سننتها في ذلك الحين فروع نضيرة خضراء ملساء تشبه الزغب ، تتوافق مع بهاء المجموعة كلها .

وكان النهار خانقاً قائظاً ينبىء بتكون عاصفة صيف في مكان ما وان لم تكن في السماء الا سحابة واحدة ذرفت دموعها على غبار الطريق وعلى الاوراق المثقلة بالعصارات ، فاوغل جانب الغابة الأيسر في الظل بينما التمع الجانب الايمن بقطرات المطر التي عكست اشعاعات الشمس في ذلك الجو الساكن . وكان كل شيء مزدهراً والعنادل تشدو وتتناجي تارة قريبة واخرى بعيدة .

فكر آندريه : « هنا في هذه الغابة تقوم السنديانة التي كنت معها على وفاق متين ، فاين هي الآن على الضبط ؟ وبينما راحت عيناه تجوسان فيما حوله بافتتان ، توقفتا عند شجرة لم يتعرف عليها بادىء الأمر . بـدت السنديانة العجوز أشبه بهرم من الخضرة الغزيرة التي فقدت شعورها تحت ملق المغيب وملاطفته وكأنها ابدلت خلقاً جديداً . اختفت الاطراف الملتوية والتضاريس والاخاديد ونسي التهجم واليأس الهرم . انبعث من قلافتها القاسية المعمرة اوراق فتية منتفخة بماء الحياة تدعو المرء الى التساؤل كيف استطاعت تلك العجوز الفانية التمخض بمثل هذه الاجنة وبعثها الى النور . قال آندريه في نفسه : « نعم ، انها السنديانة اياها . » وشعر بنشاط فجائي وبحيوية جديدة . اخذت أفضل دقائق حياته تمر متلاحقة في خاطره : اوسترليتز بسمائها العميقة ووجـــه زوجته المتوفية المتسم بامارات اللوم ، وبيير على المعبر ، والصبية التي اثارتها محاسن الليل ، وتلك الليلة بالذات وسنا القمر ؛ كل ذلك انبعث دفعة واحدة في خياله .

قرر دون تردد : « كلا ، ان الحياة لم تنته في الواحدة والثلاثين . لا يكفي ان اعرف ما انا قادر على صنعه ، بل يجب ان يعرفه كل الناس كذلك : من بيير الى هذه الصبية التي ارادت ان تطير . يجب ان يعرفني كل الناس ، وان لا تسير ايامي من اجلي فحسب وان لا تكون حياة الآخرين مستقلة كل الاستقلال عن حياتي وان تنعكس حياتي في حياتهم وان تختلط حياتهم بحياتي ! » .

قرر آندريه حال وصوله ان يسافر في الخريف الى بيترسبورج وان يضطلع فيها باعباء عمل ما . وراحت الوف الاسباب الطيبة والمبررات ، بعضها اقوى حجة من بعض ، تؤيد في نظره ذلك القرار . لقد كانت فكرة مغادرة الريف تبدو سخيفة في نظره قبل شهر اما الآن ، فانه لم يكن يفهم كيف استطاع تجاهل الحاجة في عيش حياه فعلية عملية . احذ يرى ان كل التجارب التي حصل

عليها في حياته ستذهب بدداً اذا لم يخرج نتائجها العملية الى حيز الفعل . بل انه لم يفهم كيف ارتكز من قبل على حجج بمثل هذا الافتقار الى المنطق لاقناع نفسه بانه انما يسف اذا ظل مؤمناً في امكانية انتفاع الآخرين به وفي الغرف على السعادة والحب بعد الدروس القاسية التي مر بها في حياته اما الآن فان المنطق بات يلقنه عكس ذلك تماماً .

اصبح الريف يثقل عليه وانشغالاته الاولى باتت لاتعنيه في شيء . وكثيراً ما نهض خلال اعتزاله في مكتبه ، ليقترب من المرآة يعاين فيها وجهه فترة طويلة ، ثم ينتقل بنظرته الى صورة ليز التي كانت تبسم له بوداعة في اطارها المذهب وقد ازدهى وجهها بخصلات الشعر المصففة على الطريقة اليونانية . لم تحدق فيه بمثل ذلك اللوم الرهيب الذي كان يقرأه في عينيها من قبل ، بل اكتفى بالابتسام له وعلى وجهها امارات التطلع والتفكه . واذا ما فرغ آندريه من النظر اليها ، عقد يديه وراء ظهره وراح يذرع الغرفة مقطباً حاجبيه تارة ومبتسماً تارة اخرى ، مستعيداً في ذهنه تلك الافكار المختنقة المستعصية على التعبير ، الخفية كالجريمة ، والتي يمتزج فيها بغموض بيير والمجد والصبية قرب النافذة والسنديانة والجمال والحب ، والتي غيرت وجود تغيّراً كليا . فلو دخل عليه بعضهم خلال تلك الفترات ، كان يتظاهر بالقسوة والجفاء والحزم ويبدو منطقياً منفراً . واذا جاءت اخته ماري مثلاً تقول له بسلامة طويه :

– ياعزيزي ، لايمكن الخروج بنيكولا الى النزهة اليوم لان الجو بارد جداً.

يجيبها بخشونة :

– لو كان الطقس حاراً فانه يستطيع الخروج بالقميص . اما وان الدنيا باردة ، فدثريه بثياب دافئة . انها صنعت خصيصاً من اجل ذلك . هكذا يجب

ان تتصرفي عندما يكون الطقس بارداً ولكن لايجوز ترك طفل في البيت عندما يكون في حاجة الى الهواء .

كان يبدو بهذا المنطق المتوافر كانه يريد الانتقام من بعضهم لكل هـذا التفاعل الغريب المكتوم الذي يعتلج في سره .

وفي مثل تلك الحالات ، تحدث اخته ماري نفسها قائلة ان الرجال لفرط التفكير ، يتخوشنون بشكل مفزع .



الفصل الرابع

بولكونسكي وآراكتشييف

وصل الامير آندريه الى بيتر سبورج في شهـــر آب « اغسطس » من عام ١٨٠٩ عندما كان سبيرانسكي الشاب في اوج مجده يقوم باجراء تعديلاته بحيوية ونشاط كبيرين . جنحت عربة الامبراطور في ذلك الشهر واصيب الكسندر بالتواء في قدمه اضطره الى الحلول في بيتيروف طيلة ثلاثة اسابيع. كان سبيرانسكي وحده يستقبل يومياً من قبل العاهل . وفي هـذه الفترة ، أنضجت الى جانب المرسومين الامبراطوريين الشهيرين اللذين اثار الرأي العام بشدة ، المتعلقين بالغاء رتب البلاط والفحوص الواجب اجتيازها للحصول على رتب الارتقاء في الكلية وفي مجلس الدولة الاستشارين ، مجموعة قوانين كاملة تهدف الى قلب النظام القضائي والاداري والمالي المعمول به حتى ذلك اليوم اعتباراً من مجلس الامبراطورية وحتى اصغر السلطات الاقليمية . وفي تلك الفترة بالذات اتخذت احلام الامبراطور الكسندر التحريرية المبهمة التي كان يدهدها في سره عندمـا اعتلى العرش والتي حـاول حينذاك تحقيقها بمساعدة معاونيه آل كزارتوريسكي ونوفوسيلتسوف وكوتشوبيئي وستروجونوف الذين كان يسميهم مازحاً : مجلس الصيانة العامة ، شكلا واضحاً . لقد تنحي

هؤلاء الآن عن مراكزهم لسبيرانسكي في القضايا المدنية ولـ : آراكتشييف في القضايا العسكرية .

اظهر الامير آندريه نفسه فور وصوله بوصفه من مرافقي الامبراطور في البلاط وعند مخارج الجناح الامبراطوري ومداخلة . ولقد لمحه الامبراطور مرتين على طريقه فلم يتنازل بتشريفه بكلمة واحدة . ومكان اندريه ابـدا يشعر انه موضوع نفور الامبراطور وان وجهه وكل شخصه مكروهان من العاهل . وقد أيد هذا الزعم النظرة الجافة المقصية التي رماه بها الكسندر . وفسر له اتباع الامبراطور سبب ذلك البرود بان اعتزاله الخدمة منذ عام ١٨٠٥ كان موضوع استياء الامبراطور .

حدث الامير نفسه قائلا : « انني اعرف تماماً اننا لسنا سادة ميولنا ونفورنا فلا يجب اذن ان افكر في تقديم مذكرتي حول النظام العسكري الجديد الى جلالته يداً بيد . لكن الفكرة ستشق طريقها لوحدها » .

ابلغ مشروعه الى ماريشال عجوز صديق لابيه فحدد له هذا الرجل الكبير موعداً واستقبله ببشاشة واعداً بالتحدث عن مشروعه الى الامبراطور . ولم تمض ايام قليلة حتى أخطر اندريه بوجوب المثول بين يدي الكونت آراكتشييف وزير الحربية .

دخل الامير اندريه قاعه استقبال الكونت آراكتشييف في الساعة التاسعة من صباح اليوم المحدد . لم يكن يعرفه من قبل كما لم يكن قد رآه ابداً . بيد ان معلوماته عنه لم تكن وافية لتقديره حق قدره .

فكر اندرية وهو ينضم الى عدد من الاشخاص المتفاوتين في الاهمية في بهو الانتظار : « ان وزير الحربية ، وهو حائز على ثقة الامبراطور ، فليس لاحد اذن التشاغل في صفاته الشخصية لقد انيط به امر فحص مذكرتي فهو بالتالي الوحيد الذي يستطيع احلال مشروعي موضع الاعتبار . »

ساعدت مراكز الامير آندريه المختلفة وبصورة خـاصة وظيفته كمساعد عسكري ، على التعرف على عديد من الابهاء في قصور الشخصيات الكبيرة وتمييز الصفات الخاصة لكل منها . لكنه وجد قاعة انتظار الكونت آراكتشييف ذات طابع خاص . وجد ان الاشخاص ذوي المراكز المتواضعة ينتظرون حلول دورهم في المقابلة بوجوه يعلوها الخجل والارتباك وان من هم ارفع شأنا يخفون ارتباكهم وراء ضروب من الانطلاق متخذين السخرية وسيلة وان كانت تشمل أشخاصهم بقدر مـا تتصل بالشخصية التي سيمثلون امامها . كان بعضهم يذرع القاعة بقلق والبعض الآخر يبتسم ويتهـامس افراده فيما بينهم ، حتى ان اندريه سمع خلال احاديثهم الخافتة ، لقب سيلا اندرييفيتش[1] وعبارة « سوف يغسل الرجل الطيب لك رأسك » . ورأى جـنرالا رفيع المركز والقدر ، يجلس عاقداً ساقيه وعلى شفتيه ابتسامة احتقـار يخفي بها استياءه من انتظاره الطويل .

لكن ما ان فتح باب المكتب حتى عبرت الوجوه كلها عن احساس واحد: الخوف . طلب الأمير آندريه الى الموظف المختص ان يعلن عن وجوده مرة ثانية . لكنهم نظروا اليه في سخرية معلنين ان دوره سيحين . وبعد ان أُدخل عدد من الاشخاص الى مكتب الوزير وخرجوا منه يشيعهم المساعـد الملحق ، ادخل من الباب الرهيب ضابط جذب انظار بولكونسكي بامارات الفزع والخنوع المرتسمة على اساريره . طالت المقابلة بعض الوقت وفجأة ، ارتفعت من وراء الباب اصداء صوت منفر وخرج الضابط ممتقع الوجه مرتعد الشفاه ، فاخترق قاعة الانتظار وهو يمسك برأسه بين يديه .

---

(١) ورد في النص الفرنسي تفسيراً للتلاعب اللفظي في كلمة سيلا التي تعنى « صامت » اذا كانت اسم علم و « قوة » اذا كانت اسماً عاماً .

جاء دور الامير آندريه وهمس الموظف :

– الى اليمين قرب النافذة .

دخل آندريه الى مكتب بسيط منسق وشاهد رجلاً في الاربعين من عمره فارع الجزع طويل الرأس ذا شعر قصير واخاديد عميقة وانف احمر محدودب وحاجبين مزويين فوق عينين ملونتين تبدو نظرتها مطفأة ، جالساً وراء المكتب .

التفت اراكتشييف نحوه دون ان ينظر اليه وقال :

– ماذا تسأل ؟

فأجاب آندريه بهدوء عميق :

– لست اسأل شيئاً يا صاحب السعادة .

استدارت عينا اراكتشييف نحوه :

– خذ مقعداً . الامير بولكونسكي أليس كذلك ؟

– لست أسأل شيئاً لكن جلالته تفضل واحال المذكرة التي رفعتها اليه الى سعادتكم .

قاطعه آراكتشييف بلهجة بدأت متوددة ثم اصبحت زاجرة ثم اصبحت مشمئزة :

– كما ترى يا عزيزي العزيز ، لقد قرأت مذكرتك . انك تعرض فيها نظماً عسكرية جديدة ؟ ان لدينا عدداً وفيراً من النظم القديمة ، تبلغ من الوفرة استحالة تطبيقها . واليوم يضع كل الناس مشاريع قوانين على الورق . ان الكتابة اسهل من التنفيذ .

استأنف الامير آندريه بلهجة مهذبة :

– لقد جئت بناء على امر جلالته لأطلع من سعادتكم على النتيجة التي اعطيت لمذكرتي .

قال آراكتشييف :

- لقد بينت رأي على المذكرة نفسها وأحلتها الى اللجنة .

ثم نهض من وراء مكتبه واخذ ورقة كانت امامه وأضاف :

- هاهي ذي !

مدّ يده بالورقة الى آندريه فاذا بها تحمل السطور التالية المكتوبة دون مراعاة لاستقامة السطر وقواعد الاملاء والتنقيط واحرف البدء : « غير منظم جدياً ، وعلى الرغم من انه منقول عن النظام العسكري » الفرنسي ألا انه يختلف دون ما سبب عن المعمول به . »

سأل الأمير :

- والى اية لجنة احيلت مذكرتي ؟

- الى لجنة النظام العسكري وقد رشحت نبالتكم لتكونوا عضواً فيه ولكن دون مرتب .

فقال آندريه باسماً :

-- لست اطلب مرتباً قط .

كرر آراكتشييف :

- دون مرتب . لقد حصل لي الشرف ...

ثم صاح بعد ان صرف الامير آندريه :

- هه ، التالي ! من بقي هنا ؟

الفصل الخامس

سبيرانسكي العظيم

بانتظار تسميته عضواً في اللجنة ، عاد الامير آندريه يوثق عرى الصداقة مع معارفه القدماء وخصوصاً ذوي السلطان منهم القادرين على إزجائه عوناً ونفعاً. سيطر عليه تطلع جامح غامض يشبه التطلع الذي احس بمثله في امسيات المعارك من قبل ، اخذ يجذبه الآن نحو الاجواء العليا حيث يُبحث مستقبل ملايين الرجال . استدل من غضبة المسنين من الرجال وفضول المستهترين وتحفظ العارفين الملمين بالأمور وانشغالهم وكثرة اللجان والمجالس التي اخذ عددها يتزايد كل يوم، على ان معركة داخلية كبرى يرأسها ويقودها ذلك الشخص الغامض ، سبيرانسكي الذي كان يعزو اليه دون ان يعرفه كل صفات العبقرية ، تُهيأ في ذلك العام نفسه. ولم تلبث مسألة الاصلاحات الكبرى التي لم تكن لديه عنها الا معلومات مبهمة وصانعها الرئيس سبيرانسكي ، ان استهوته لدرجة باتت معها اهمية النظام العسكري وغايته تشغل المرتبة التالية في مدرج تفكيره وانشغاله .

كان آندريه في مركز طيب يساعده على تلقي جفاوات قلبية في زياراته لمختلف المجتمعات الراقية في بيترسبورج. فحزب الاصلاحات كان يسلفه الاحترام: اولاً ، لما عرف عنه من ذكاء متقد وثقافة عالية ، لما اكتسبه إثر تحريره عبيده

من شهرة في ميدان السخاء . وحزب الشيوخ المتذمرين الذي يفترض ان افكار آندريه تتفق مع افكار ابيه ، كان يجد فيه حليفاً له . اما النساء ، وبعبارة اصح « المجتمع » ، فقد كن يحتفين به على اعتبارة زوجاً منشوداً غنياً ونبيلاً ويعتبرنه وجهاً جديداً تمام الجدة تحدق به هالة مغامرة موته المزعوم الخيالية ونهاية زوجه المفجعة . أضف الى ذلك ان كل من عرفه من قبل بادرن الى الاعتراف بصوت واحد بأنه تبدل تبدلاً كبيراً في صالحه خلال الاعوام الخمسة المنصرمة : لانت عريكته وتوطدت آراؤه وحل الهدوء والتعديل اللذين يكتسبا مع الزمن محل الصلف والتصنع والهجاء . بات حديثه يشغل الاوساط والناس يهتمون به ويبحثون عنه .

وفي اليوم التالي لزيارته لآراكتشييف قصد منزله الكونت كوتشوبيئ لقضاء السهرة وحدثه بمقابلته مع : « سيلا آندريئيفيتش » . وكان كوتشوبيئ هو الآخر يطلق هذا اللقب على الوزير كلي النفوذ مشفوعاً بذلك التنويه الغامض الساخر الذي أظهره الملتمسون في قاعة الانتظار .

ـ ياعزيزي ، لاغنى لك عن ميخائيل ميخائيلوفيتش حتى في قضيتك . انه « الصانع الأكبر » . سوف احدثه بالأمر . يجب ان يحضر هذا المساء ...

سأل آندريه :

ـ ولكن ما علاقة القوانين العسكرية بسبيرانسكي ؟

بدا كأن سذاجة بولكونسكي قد اذهلت كوتشوبيئ وادهشته فابتسم وهز برأسه ثم استطرد :

ـ لقد تحدثنا عنك في الايام الاخيرة وعن مزارعيك الاحرار .

وسأل عجوز من عصر كاتيرين وهو يلتفت نحو بولكونسكي في شيء من الازدراء :

ـ آه ! اهذا انت اذن ايها الأمير الذي حررت فلاحيك ؟

فقال بولكونسكي وهو يهدف الى تخفيف حدة هذا الكهل وتهوين فعلته في نظره بدلاً من استثارته دون جدوى :

- لقد كانت قطعة ارض لاتغل شيئاً مذكوراً.

استطرد ذلك العجوز وهو يلقي نظرة الى كوتشوبيئي :

- كنت تخشى ان تصل متأخراً ... هناك مسألة لا استطيع فهمها ، من الذي سيحرث الارض اذا نحن اعطينا الفلاحين حريتهم ؟ ان وضع القوانين ليس عملاً شاقاً ولكن الادارة شيء آخر ... خذ ، سؤال آخر : من أين يأتون برؤساء للألوية اذا كان كل واحد مرغماً على اجتياز فحص ؟

فأجاب كوتشوبيئي . وهو يعقد ساقيه ويسرح الطرف حوله :

- من عداد الذين يتقدمون لاجتياز الفحوص على ما اعتقد !

- على هذا ، فان في مكاتبي رجلاً ممتازاً اسمه بريانيتشنيكوف . وهو انسان ثمين ولكن في الستين من عمره . فهل يجب عليه كذلك اجتياز فحوص؟

- لاشك انها صعوبة خصوصاً ان الثقافة غير منتشرة بكثرة ، ولكن ..

لم يكمل كوتشوبيئي جملته ، بل نهض واخذ آندريه من ذراعه ومضى يستقبل ضيفاً جديداً ، طويل القامة اشقر اصلع في الاربعين من العمر عريض الجبهة مستطيل الوجه ناصع البياض بشكل غريب . كان الزائر مرتدياً ثوباً رسمياً « فراك » ازرق تزينه شارة على الجانب الأيسر ويتدلى من عنقه وسام آخر . ذاك كان سبيرانسكي حدس الأمير آندريه ذلك من فوره وشعر بذلك الاضطراب الداخلي الذي يعتري المرء في اللحظات الرهيبة الجليلة من حياته . هل كان مبعث ذلك الشعور الاحترام او الحسد او الفضول ؟ ذلك مالم يكن يستطيع تبيانه . كانت شخصية سبيرانسكي كلها تبرز طابعاً بديعياً ينم عنه لفوره ويدل عليه . لم يجد آندريه لدى كل من اختلط بهم من الشخصيات اكثر من هدوء سبيرانسكي وثقته بنفسه المتوفرين الى جانب الخَرَق في الحركات ، كما لم

يجد في احد قط مثل تلك النظرة الحية الأنيسة تنبعث من عينين نصف مغمضتين وكأنهما غارقتين ، ومثل ذلك الحزم في ابتسامة جوفاء او ذلك الصوت الدقيق المتناسق ، ولا مثل ذلك البياض الناصع النضير في الوجه وتينك اليدين العريضتين بعض الشيء ، ولكن الناعمتين السمينتين . ان مثل تلك النعومة في الجلد وذلك البياض الناصع في الوجه ، لم يجدهما آندريه الا عند الجنود الخارجين من المشافي بعـــد اقامة طويلة فيها . كذلك كان سبيرانسكي ، سكرتير الدولة ومشير الامبراطور ورفيقه في ايرفورت حيث تحدث اكثر من مرة هناك مع نابوليون.

لم تكن نظرة سبيرانسكي تنطلق من رجل الى آخر كما هي عادة المرء اثر دخوله مكاناً حافلاً بالناس ، ولم يكن كذلك يتعجل الحديث . وكان صوته الهادىء ينم عن ثقته العظيمة في ان محدثه يصغي اليه ، وما كان ينظر الى الشخص الذي يخاطبه .

راح الأمير آندريه يسجل في ذاكرته بعناية خاصة كل كلمة وحركة تصدر عن سبيرانسكي . وككثير من الناس ، وبصورة خاصة اولئك الذي ألفوا الحكم بصرامة على الآخرين ، كان الامير آندريه عن التقائه بشخصية جديدة ، وخصوصاً اذا كان لايعرف صاحبها الا عن طريق شهرته يتوقع دائماً ان يكتشف فيه موجزاً لكل الفضائل الانسانية .

قال سبيرانسكي لكوتشوبيئي انه يأسف لتأخره بسبب استبقائه في القصر. سجل آندريه كذلك ذلك التواضع المصطنع . وعندما قدم كوتشوبيئي الأمير اليه ، وجه سبيرانسكي انظاره اليه ببطء مشفوعة بتلك الابتسامة بالذات ونظر اليه لحظة في صمت . اخيراً قال :

— يهمني ان اتعرف عليك . لقـــد سمعتهم يتحدثون عنك كما سمع كل الناس بالطبع .

ولما المح كوتشوبيئي الى الاستقبال الذي تلقى به اراكتشييف الاميرآندريه

اتسعت ابتسامة سبيرانسكي وقال وهو يبرز كل مقطع في كلماته :
ــ ان السيد مانيتسكي ، رئيس لجنة القوانين العسكرية ، من اصدقائي الطيبين . انني استطيع اذا رغبت ان اقابلك به .
ثم توقف برهة واردف :
ــ سوف تصادف لديه ــ على مارجو ــ انجذاباً ورغبة في اخراج كل فكرة معقولة الى حيز الوجود .
تشكلت دائرة حول سبيرانسكي وطرح البوروقراطي العجوز الذي اطرى رجله بريانيتشنيكوف ، سؤالاً هو الآخر .
راح اندريه يراقب كل حركات ذلك الرجل الذي كان بالأمس تلميذاً مغموراً من طلبة اللاهوت واضحى اليوم يمسك بين بين يديه البضتين السمينتين كل مستقبل الروسيا ، دون ان يشترك في الحديث . اعجب بالطلاقة المحتقرة التي اجاب بها سبيرانسكي على سؤال العجوز : بدت كلمته المراعية وكأنها سقطت من علوٍ لاتدرك رفعته . اعلن البوروقراطي وهو يرفع صوته قليلاً ويبتسم ، انه ليس الحاكم على المحاسن والمحاذير التي تترتب على قرارات جلالته .
لبث سبيرانسكي فترة ثم اخترق الحلقة وفضها ومضى الى الامير آندريه واصطحبه الى الجانب الآخر من البهو . قدر ولاشك ان الاهتمام بالأمير آندريه ضروري . قال له :
ــ لم تسمح لي المحادثة الحامية التي ساقني اليها ذلك الكهل بالتحدث اليك ايها الأمير !
اشفع قوله بابتسامة تدل على احتقار ضمني ، اراد بها افهام الأمير انهما معاً يعرفان كيف يقدران مثل تلك المحادثة التافهة فاثر هذا الاطراء بالأمير اندريه بينما استرسل سبيرانسكي :
ــ انني اعرفك منذ امد : اعرف اولاً تصرفك حيال فلاحيك ، وهو مثال

اول نود لو يحتذي به كثير من الآخرين . وبعد فانك من المـرافقين القلائل الذين لم يعتبروا القانون الجديد بمثابة اهانة لهم رغم الاستقبال السيء قوبل الذي به هذا القانون من كافة المتصلين بالبلاط على اختلاف مناصبهم .

قال الأمير اندريه :

ــ نعم ، ان ابي لم يرض ان استغل هدا الحق وافيد منه . لذلك فقد تتبعت السبل الرسمية .

ــ لاشك ان السيد اباك ، رغم انتمائه الى القرن الماضي ، ارفع بكثير من معاصريه الذين ينتقدون تدبيراً عادلاً جداً خصوصا وانه يرفع ظلامة صارخة .

اجاب بولكونسكي وهو يقاوم التأثير الذي اخذ سبيرانسكي يحدثه فيه :

ــ الحق يقال انني لااعتقد ان كل الانتقادات لاترتكز على اسس معينة..

ازعجه ان يؤيده في شيء فاراد ان يناقض . لكنه اخذ يعبر عن ارائه في في شيء من الارتباك وهو الذي اعتاد على استعمال عبارات واضحة والافصاح عن ارائه بطلاقة ويسر . لقد كان شديد الانهماك آنئذ في مراقبة شخصية ذلك الرجل الشهير ودراستها .

اعترض سبيرانسكي بهدوء :

ــ ان الاساس الوحيد لانتقادهم ليس الا الكرامة فحسب .

فاضاف الامير اندريه :

ــ ومصلحة الدولة ايضا .

اخفض سـبيرانسكي عينيه وسأل :

ــ وكيف تفسر ذلك ؟.

اجاب اندريه :

ـ انني من المعجبين بمونتيسكيو[1] . ان نظريته القائلة ان مبدأ الملكية هو الشرف ، تبدولي ارفع من كل نقاش . ويخيل الي ان بعض الحقوق والامتيازات المعطاة للنبلاء ان هى الا وسائل لدعم هذا التفكير .

اختفت الابتسامة من الوجه الشاحب فازدادت هيئة سبيرانسكي ملاحة . ولا شك ان الفكرة التي عرضها الامير منذ حين بدت له جديرة بالاهتمام . شرع يقول بهدوء لايتزعزع رغم ماعترى اسلوبه في التعبير عن افكاره باللغه الفرنسية من ارتباك واضح جعله اكثر تمهلاً في حديثه مما كان عليه عندما كان يتحدث بالروسية :

ـ اذا كنت تنظر الى الامر من الزاوية ...

وراح يشرح بحجج بسيطة موجزة وواضحة ان « الشرف » لايمكن ان يُدعم بامتيازات تضر بسير الامور المفيدة . ان « الشرف » ليس الا الدراية السلبية للامتناع عن الافعال الموجبة للزجر ، او بعبارة أخرى ، حافز معين يحثنا على الحصول على الاستحسان او على المكافآت التي هي دليل عليه . وخير ترتيب وضع في هذا الصدد . كان ماوضعه الامبراطور الاكبر نابوليون : واعني وسام جوقة الشرف . ان هذا الوسام ابعدمايكون عن الاضرار بصالح الخدمة ، لكنه يعاون فيها دون ان يشكل في حد ذاته امتيازاً كبيراً لحامله في طائفته او في البلاط .

---

(١) شارل دوسوكوندا ، بارون دومونتيسكيو ، مشرع فرنسي شهير ولد في قصر لابريد (مقاطعة الجيروند) عام ١٦٨٩ وتوفي عام ١٧٥٥ وكان اول من وضع مبدأ فصل السلطات في الدولة . ولعله كان ابعد الناس نظراً واكثرهم فيضا في النتائج العملية بين كل المبشرين بالثورة الفرنسية . له مؤلفات عديدة : الرسائل الفارسية ، عظمة الرومان وسقطتهم ، روح القوانين الخ ...

اجاب آندره على البديهة :

– انني لااعترض على ذلك . لكن امتيازات البلاط تهدف كذلك الى مثل هذه الغاية ، وهو ولا شك فيه . اذ ان كل فرد من البطانة يعتبر نفسه شبه ملزم باحتلال مركزه بجدارة .

فقال سبيرانسكي وهو يبتسم ابتسامة من يريد انهاء ذلك السجال الذي بدأ يوبك مخاطبه بعبارة لطيفة :

– مع ذلك لم تشأ الافادة من هذا الامتياز ياأمير !

واضاف :

– شرفني بزيارة يوم الاربعاء . وسأكون قد التقيت بما نييتسكي خلال هذا الوقت فأنقل اليك عند لقائنا امـــوراً مهمة . ثم انني ساتمتع بالتحدث معك لفترة طويلة .

ثم اغمض عينيه وحيا واختفى على الطريقة الفرنسية دون ان يستأذن من مصغيه .

* * *

الفَصلُ السَّادِسُ

مهمة بولكونسكي

لاحظ الامير اندريه خلال الايام الاولى من اقامته في بيتر سبورج ان الف شاغل صغير يعزل في الظل مجموعة افكاره التي نضجت في ذهنه خلال حياة الوحدة التي عاشها .

كان كلما عاد الى مسكنه مساء ، سجل في مذكرته اربعاً او خمس زيارات او مواعيد ضرورية محددة بالساعة كذا و كذا . وكان ترتيب حياته على شكل يجعله موجوداً في كل مكان في الوقت المحدد ، يتطلب منه صرف حيوية كبيرة. لذلك لم يكن يعمل شيئاً ولا يفكر في شيء ، لم يكن وقته يكفي الا للخطابة واذاعة الآراء التي كونها لنفسه خلال عزلته في الريف ، بنجاح مرموق . كان يلاحظ احيانا باغتمام انه كرر في يوم واحد اشياء بعينها في اوساط مختلفة لكن اوقاته كانت مشغولة كلها حتى انه ما كان يجد فسحة من الوقت ليقول انه لم يعد يفكر في شيء .

وكما وقع له عند كوتشوبيئي ، احدث سبيرانسكي على بولكونسكي تأثيراً قويا عندما استقبله يوم الاوبعاء واختلى به وقتاً طويلا أمضياه في حديث مطمئن .

كان آندريه يعتبر كثيراً من الناس عاجزين او محتقرين ، وكانت به رغبة عنيفة في العثور عند الآخرين على المثال الحي للكمال العقلي والاخلاقي الذي يصبو اليه ، حتى انه وجد نفسه على استعداد للتعرف على ذلك الكمال في شخص سبيرانسكي . فلو ان رجل الدولة ذاك كان من الوسط الذي نشأ آندريه فيه او على مثل ثقافته وتكوينه الخلقي لاستطاع آندريه بسرعة اكتشاف نقائصه الانسانية ومعايبه . لكن ذلك الفكر المنطقي كان يوحي اليـــه مزيداً من الاحترام لم يكن مستطيعاً الاحاطة بكل فيضه . اضف الى ذلك ، ان سبيرانسكي ، وان كان يقدر كفاءات آندريه ويجد ضرورة في اجتذابه الى صفه ، كان في حضرته يكشف عن كل ماللتفكير الهادىء من مصادر منزهة عن التحيز لوجهة دون اخرى ويتملقه بذلك الاطراء الدقيق الممزوج بالزهو الذي يقوم على اساس الاعتراف ضمنياً بانه ومحدثه وحدهما قادرين على تفهم كل سخافات الآخرين والحكمة العميقة الكامنة في افكارهما وحدهما .

استعمل سبيرانسكي اكثر من مرة خلال حديثهما المطول الذي دار بينهما مساء الاربعاء عبارات من هذا النوع : اننا « نحن » نعتبر ان كل مايتجاوز مستوى العادات المتأصلة ... « او وهو يبتسم : » ولكننا « نحن اولاء » نريد ان تشبع الذئاب دون اضرار كبير بالغنم . . . » او ايضاً « انهم لايستطيعون فهم ذلك ... » وتنبيء لهجته اثناء ذلك اننا : « نحن » ، انت وانا ، نعرف تماماً ماهي قيمتهم « هم » وما هي قيمتنا « نحن » . »

مكنت هذه المقابلة الطويلة في نفس آندريه احساسه الاول . كان يرى في سبيرانسكي منطقياً عميقاً ومفكراً كبيراً اكتسب السلطة بقوة حيويته ونشاطه ولم يتصرف بها الا لصالح روسيا . لقد كان سبيرانسكي بالدقة الرجل الذي ودلو كانه ، ذلك الرجل الذي يلقي في غربال الفكر بكل بيانات الحياة ولا يعترف على اهمية بينة منها الا اذا اجتازت ذلك الاختيار بداله كل مافي آراء سبيرانسكي

وعروضه من البساطة وشدة الوضوح حتى انه وجد نفسه يوافقه في كل شيء بديهيا ، اما اذا كان قد اثار بعض الاعتراضات فما ذلك الا للبرهنة على استقلال الفكر وعدم الاستسلام دون بعض المقاومة . مع ذلك فقد ظل امر واحد يقلق آندريه : تلك النظرة الباردة عديمة الحساسية كالمرآة التي لا تسمح بالتغلغل الى الروح ، وتانك اليدان البضتان، السمينتان اللتان كان ينظر اليهما رغماً عنه كما يفعل المرء عادة عندما يكون في حضرة رجل متسنم السلطة ، فالنظرة الشبيهة بانعكاسات المرآة واليدان الناعمتان نعومة غريبة كانت تزعج بولكونسكي كذلك كان يغيظه فيه الاحتقار المتناهي للرجال الذي كان سبيرانسكي يفضحه والتنوع الكبير في الحجج التي يلجأ اليها لدعم آرائـــه وتأييدها . لقد كان يستعمل كل انواع البرهنة باستثناء المقارنة وينتقل بمزيد من الجرأة من احدها الى الآخر برضى بولكونسكي ، فتارة يطرق الحقل العملي فيذم الحالمين واخرى يعمد الى السخرية ويمطر خصومه بوابل من التجريح او يرتقي من اضيق مناحي المنطق الى علم النظريات « الميتافيزيك » الاكثر ارتباطاً بالفكر المجرد . وكان هـذا الاسلوب الاخير في البرهنة سلاحـــه المفضل اذ ينقل المسألة الى الاجواء الميتافيزيكية العليا معطياً تفسيرات للفضاء والفكر ليخلص منها تفنيداً ثم يعود من جديد الى بساط المناقشة .

على العموم كان ايمانه الثابت في سلطة الفكر وحقوقه هو البادرة الرئيسية في ذكاء سبيرانسكي التي كان لها تأثيراً شديداً في نفس آندريه . وبالطبع ، فان الشكوك المألوفة عنـد بولكونسكي لم تمس قط سبيرانسكي : انه لم يقـل مرة واحدة ان الافصاح عن كل مايفكر به المرء غير مجـد ولم يشك قط في اسس افكاره ومعتقداته او يبحث في قوامها . ومن هنا كان سر افتتان بولكونسكي به .

احس آندريه باعجابٍ وشغفٍ يشبه ماأحس به من قبل حيال بونابارت،

ازاء هذا الرجل منذ اللحظات الاولى . اما واقع انتماء سبيرانسكي الى اسرة كنائسية ـ الامر الذي سهل على الحمقى ايجاد نعوت مختلفة له ك : « نسل خوري فاسد » او « جريذ » ـ فان هذا الواقع ، رغم ماأتاحه لآندريه من اسباب لتخفيف حدة حماسه . كان يزيد في ذلك الحماس عفويا .

طرقا خلال خلوتهما الاولى موضوع اللجنة التشريعية ، فشرح سبيرانسكي للامير ، ان تلك اللجنة موجودة بالفعل منذ مائة وخمسين عاماً ، وانها كلفت الدولة الملايين دون ان تعمل شيئاً ، لان روزانكانف اقتصر في عمله على الصاق عنيان على كل مواد التشاريع المقارنة . قال :

ـ ومن اجل هذه النتيجة الجميلة انفقت الدولة الملايين ! اننا نزعم اعطاء مجلس الشيوخ سلطة قضائية جديدة بينما لاقوانين لدينا ! انك ترى ايها الامير ان الانذواء بالنسبة الى اشخاص مثلك يعتبر خطيئة .

اعترض الامير آندريه بان هذا النوع من النشاط يقتضي استعداداً فقهياً لايملكه .

ـ لكن احداً لايملك مثل هذا الاستعداد فماذا يجب ان نصنع اذن ؟ اننا في دائرة فاسدة لايمكن الخروج منها الا بتحطيمها .

وبعد ثمانية ايام ، سمي آندريه عضواً في لجنة النظام العسكري و ـ لدهشته البالغة ـ رئيساً للجنة فرعية في المجلس التشريعي . فوافق نزولاً عند الحاح سبيرانسكي ، على اعداد الجزء الاول من القانون المدني ، وعمل في موضوع : حقوق الانسان ، بالرجوع الى قوانين نابوليون وجوستينيان .

* * *

الفصل السابع

في المحفل الماسوني

قبل عامين ، اي في سنة ١٨٠٨ ، عندما عاد بيير من جولته الطويلة في املاكه ، وجد نفسه دون ان يتوقع ،على رأس الماسونية في بيترسبورج . اخذ ينظم مختلف المحافل ويقبل الاعضاء الجدد ويهتم بتوحيد مختلف المحافل والشرائع المتعلقة بها ، ويبني بماله الخاص الهياكل الجديدة ويتمم - في حدود امكانياته - حصيله التبرعات التي كان معظم الاخوان يظهرون حيالها بخلاً وتمهلاً . واصبح يشرف وحده تقريباً على بيت الفقراء الذي اسسته الهيأة الماسونية في بيترسبورج .

وفيما عدا ذلك ، كانت حياته تسير على نهجها السابق من الفوضى وتنقل الفؤاد . ما زال يحب الطعام الجيد والشراب الطيب ، لايستطيع الامتناع عن المساهمة في فجور الأعزاب الذين كان يضمهم في بيئته رغم اعتباره تلك الامور مخزية ومنافية للاخلاق .

انتهى الامير بيير بعد عام ، رغم دوامة مسراته ومشاغله ، الى الشعور بأن بساط الماسونية الذي استقام فوقه ، بات ينسل من تحت اقدامه بقدر ما كان يتمسك به بكل قواه . ولكن ، كلما ازدادت تلك الارض انزلاقاً تحت قدمية ، ازداد خلاصه منها استحالة شعر عندما دخل في عداد الماسونيين انه وضع قدما

مطمئنة فوق سطح مستنقع سوي ، لكنه ما كاد يضع قـدمه حتى شعر بأنها تغوص . ولكي يختبر صلابة الارض اختباراً احسن ، وضع قدمـــه الاخرى فازداد غوصاً وغرقاً وبات يخوض في وحل المستنقع حتى ركبتيه .

فترت همة جوزيف الكسيبفيتش منذ فترة من الزمن فما عاد يهتم بمحافل بيترسبورح ولم يعد يغادر موسكو. كان كل اعضاء المحافل اشخاصاً من المجتمع الراقي يعرفهم بيير معرفة عميقة لاتسمح له اعتبارهم اخوان محفل فحسب بصرف النظر عن كونهم الامير ب . . . وايفان فاسيليفيتش د . . . أو غيرهما من الشخصيات المعروفة بضعفها أو بفسادها وعدم نفعها . كان يرى تحت المآزر والشارات الماسونية الاخرى ، الاوسمة والالبسة الرسمية التي تشكل وحدها سر حياة اصحابها .

وعندما كان يسطر في قوائم التبرعات ـ كلما شرع في جمعها ـ مبلغ عشرين أو ثلاثين روبلاً في حقل « الداخل » وغالباً في حقل « مدين » اسماء عشرة من الاعضاء في مثل ثرائه ، يذكر القسم الماسوني الذي يتعهد الاخوان المنتسبون بموجبه بتقديم كل ثرواتهم للغير ، فترتفع في نفسه الشكوك التي يبذل كل جهد في سبيل كبتها ومحوها .

ينتظم الاخوان الذين يعرفهم بيير في اربع فئات يضع في عداد الفئة الاولى اولئك الذين لايساهمون قط في النشاط العملي أو في اعمـــال المحافل والقضايا الانسانية ، بل يقصرون اهتمامهم على التعمق في اسرار « النظام » وتسمية الله الثلاثية والاسس الثلاثية لكل الاشياء : ـ الكبريت والزئبق والملح ـ وعلى تفسير معنى المربع والرسوم التي على معبد سليمان . وكان بيير يكنّ لهـــذه الفئة من الاخوان التي تضم في عدادها أقدم الاعضاء وجوزيف آليكسيبفيتش نفسه ـ كما كان يظن ـ ، احتراماً عميقاً . لكنه ما كان يشاطرهم مشاغلهم لان الناحية التصوفية في الماسونية ما كانت تجتذبه .

وفي الفئة الثانية كان يضع نفسه واولئك الذين يبحثون ـ مثله ـ ويترددون والذين ما كانوا ييأسون من ايجاد الطريق المستقيمة ذات يوم رغم انهم لم يجدوا طريق الماسونية المستقيم بعد .

اما في الفئة الثالثة ، وهي الاكثر عدداً ، فكان يضع الذين لايرون في المذهب الا اشكاله الخارجية وحفلاته ، ويتمسكون بانجاز طقوسه الشاقة دون الاهتمام بمضامينها ومعانيها الخفية . وهذا الوصف ينطبق على كل الاعضاء تقريباً اعتباراً من فيلارسكي وحتى معلم المحفل الأكبر .

وتضم الفئة الرابعة كذلك عدداً كبيراً من الاخوان معظهم من الجـدد . كانوا ـ كما لاحظ بيير ـ اناساً لايؤمنون بشيء ولا يرغبون في شيء ؛ اناساً لم يدخلوا المحفل الا ليتعرفوا على اخوان شبان واغنياء من ذوي النفوذ والعلاقات وشرف المنشأ الذين كانوا وافري العدد في المحفل .

لم يكن نشاط بيير يرضيه حقيقة . بدت له الماسونية ، او على الاقل تلك التي عرفها ، مجرد شكليات ، فراح يشك في النظم الماسونية الروسية دون ان يرقي به الشك الى المبدأ نفسه ، ويعتقد المحافل الروسية اخطأت النهج فانحرفت عن الاصول . قرر اذن ان يسافر في نهاية العام الى الخارج ليطلع هناك على اهم اسرار النظام وابعدها غوراً .

عاد بيير الى بيترسبورج في اول صيف عام ١٨٠٩ . عرف الاخوان الماسونيين في روسيا ، استناداً الى مراسليهم في الخارج ، ان بيزوخوف قد اكتسب ثقة عدد من كبار ذوي المناصب المطلعين على الكثير من الاسرار الذين رشحوه لرتبة عليا ، وانه عائد ومعه الكثير من المشاريع النافعة للماسونية الروسية . فجاء الاخوان في بيترسبورج لزيارته ساعين الى مرضاته ولاحظوا انه يخفي ويهيء شيئاً ما .

قرروا إقامة محفل من الدرجة الثانية وعد بيير ان يطلع الاخوان فيه على الرسالة التي حمله اياها ذوو المناصب العليا في « النظام » الى إخوانه . فكانت جلسة حافلة نهض بيير بعد المراسيم المألوفة وفي يده خطاباً مهيأ .

قال وهو يلكن وقد احمر وجهه استحياء :

— ايها الاخوان الاعزاء ، لايكفي ان ننجز اسرارنا في خفاء المحفل بل يجب كذلك ان نعمل .. نعم ، نعمل . اننا نغط في النوم بينما يجب علينا ان نعمل.

اخذ دفتره وشرع يقرأ .

« لكي ننشر الحقيقة النقية ونحصل على انتصار الفضيلة ، يجب ان نستأصل من حولنا المعتقدات الفاسدة وان نُعنى بتثقيف الناشئة ونرتبط بصلات لاتحل عراها بالعقول المستنيرة ونخذل الخرافة والالحاد والحماقة بحكمة وجرأة ، وان نشكل من المخلصين لنا كتيبة تربط بين افرادها وحـــدة الهدف ونضع رهن اشارتهم النفوذ والقوه .

« ولكي نبلغ هذه الغاية يجب ان تعطي الفضيلة الغلبة على الرذيلة وان نعمل جاهدين على ان ينال الرجل الطيب مكافأته الابدية على فضائله ابتداء من هذا العالم الفاني . غير ان عدداً كبيراً من المؤسسات السياسية الخارجية تقف حائلاً دون تحقيق اهدافنا العظمى ، ماذا نعمل اذن في مثل هذا الحال ؟ هل نشجع الثورات لنقلب كل شيء ونستعمل القوة ضدالقوة ؟ ... اننا بعيدون كل البعد عن ذلك . ان كل اصلاح يفرض بالقوة يستوجب اللوم والمؤاخـذة لأنه لايصلح السوء اذا ظل الاشخاص كما هم ولأن الحكمة ليست في حاجــــة الى العنف .

« يجب ان يهدف نظامنا الى تكوين اشخاص أقوياء ثابتي العقيدة صالحين تربطهم وحدة العقيدة التي تقوم على الرغبة في مطاردة الرذيلة والسوء بكل قوة

وفي كل مكان وعلى حماية المناقب والفضيلة وتخليص المستحقين من حماة الرذيلة وربطهم بنا واشراكهم معنا . وبذلك يتمكن نظامنا من القدرة على شل ايدي المساعدين على الفوضى دون ان يشعروا بذلك وتوجيههم الوجهة الصالحة دون ان يشعروا بذلك ايضاً وبالاختصار ، يجب اقامة ادارة عالمية يمتد محور نشاطها الى العالم كله دون ان تصطدم مصالحها بمصالح الحكومات الاخرى . وستظل هذه الحكومات تعمل وستبقى حرة في تصرفاتها ما عـدا ما يتعلق بمقاومتها لبرامج نظامنا التي تقوم على اساس نصرة الفضيلة على الرذيلة . لقد كان هـذا البرنامج هو هدف النصرانية التي علمت الناس ان يكونوا عقلاء وطيبين وان يتبعوا في مصلحتهم الشخصية نهج وتعاليم الافضل منهم والاكثر حكمة وتعقلاً .

عندما كان كل شيء غارقاً في الظلمات كانت العظة وحدها تكفي . وكان اعلان « الحقيقة » يجد في جدته نفسها قوة خاصـة . اما في ايامنا هذه ، فاننا في حاجه الى وسائل اكثر قوة ونفوذاً : يجب ان يجد الرجل الذي يخضع لسيطرة حواسه افتتانا عميقاً بالفضيلة . ولما كان لا يمكن استئصال النزوات والميول ، يجب توجيهها نحو هدف نبيل . وعلى ذلك يجب على كل منا ان يقدر على ارضائها في حدود الفضيلة وعلى نظامنا ان يهيء له الاسباب .

وعند ما نحصل على عدد معين من المتشيعين الجديرين بنا في كل دولة ، يعمل كل منهم على ايجاد اثنين آخرين يتحدان مع البقية ، وهكذا حتى يصبح ميسوراً لنظامنا الذي عمل حتى الآن في السر كثيراً من الاعمال النافعة للانسانية ، والسعي الى غايتنا المنشودة .

احدث الخطاب في المحفل تأثيراً قويا حتى واضطرابا . استقبلته الاكثرية ببرود ادهش بيير لأنها ظنت انه ينطوي على المبادىء الهرطقية الخطيرة . اثار المعلم الاكبر اعتراضات ، وشرح بيير افكاره بحماسة متزايدة . لم يشاهد احد

من الاخوان من قبل جلسة صاخبة كهذه . وتألفت كتل واحزاب : بعضهم يتهم بيير بالهرطقية والبعض الآخر يدافع عنه . ادرك بيير لاول مرة ان تباين العقليات اللامحدودة يحول دون كل حقيقة ـ مهما كان نوعها ـ والظهور بمظهر واحد في نظر شخصين مختلفين . حتى اولئك الذين اتخذوا موقف الدفاع عنه ، لم يفهموا اقواله الا على طريقتهم، فادخلوا عليها قيوداً وتعديلات ما كان يستطيع الموافقة عليها وهو الذي ما أورد افكاره كما ادركها وفهمها .

لفت المعلم الاكبر انتباهه في نهاية الجلسة بسخرية مقصودة الى انه تحمس اكثر مما ينبغي : ولا شك ان حب الكفاح قد سيّره اكثر من حب الفضيلة . لم يجب بيير بشيء بل سأل بايجاز عما اذا كان عرضه مقبولا . ولما تلقى جواباً سلبياً ، خرج دون ان ينتظر الشكليات المألوفة ومضى الى منزله .

* * *

الفَصْلُ الثّامِن

عودة هيلين

عادت الكآبة العميقة التي يخشاها بيير اعظم الخشية تتسلط عليه . لبث طيلة الايام الثلاثة التي تلت خطابه في المحفل متمدداً على اريكته لايريد مبارحتها ولا يستقبل احداً .

في هذه الفترة بالذات ، تلقى رسالة من زوجته تلتمس منه موعداً لمقابلته : كانت تعرب له فيها عن رغبتها المتقدة في رؤيته لتكرس له وجودها مختارة ، وتعلمه في ختامها بقرب عودتها الى بيترسبورج بعد مقام طويل في الخارج .

وبعد فترة من الزمن اقتحم بابه احد اخوانه الماسونيين الذي كان يتمتع باحقر نصيب من تقديره ، ووجه الحديث نحو حياة بيير الزوجية فصورله على شكل نصيحة اخوية ان الحزم الذي كان يبديه حيال زوجته غير عادل لأن رفض السماح والصفح عن التائب يتنافى مع واحدة من القواعد الاساسية لنظامهم المقدس .

وبنفس الوقت ، بعثت حماته ، زوجة الامير بازيل ، تطلب اليه مقابلتها . كانت تتوسل اليه ان يمنحها بعض وقته لأن لديها مسألة هامة تريد بحثها معه . ادرك بيير انهم يتآمرون في الخفاء لمصالحته مع زوجته لكن حالته المعنوية كانت بانحطاط كبير حتى انه لم يحفل بالامر مطلقاً . بات كل شيء في نظره عديم

القيمة ، واقتنع بان لاشيء في الحياة يستوجب البحث في مضاعفاته . لقد كان فريسة الجمود وخمود الهمة فما عاد استقلاله يشغل باله واحسّ بان قراره الحازم القاضي بمعاقبة زوجته قد تخاذل .

فكر : « ليس هناك من هو على حق وبالتالي من هو مذنب . فلا يمكنني اذن ان اتهمها بشيء . »

واذا لم يبادر من فوره لاقامة الصلح مع هيلين فما ذلك الا لأن حالة الوهن التي كان عليها ، منعته من المباشرة باي شيء . ولو جاءت زوجته تزوره لما صدها حتما . ماذا يهمه ، وهو على تلك الحال من المشاغل ، ان يعيش معها او يبقى وحيداً ؟

ودون ان يجيب زوجته وحماته على رسالتيهما ، قصد ذات يوم جميل الى موسكو لاستشارة جوزيف الكسيبيفيتش . وفيما يلي مادونه في مذكرته .

موسكو ، ١٧ تشرين الثاني « نوفمبر »

انني اخرج للتو من لدن « المحسن » وابادر الى ايراد مشاعري هنا . ان جوزيف الكسيبيفيتش يعيش عيش كفاف ويشكو منذ ما قريب ثلاث سنوات من مرض أليم في المثانة . لم يسمع من أحد قط ، صوته يجأر بالشكوى او الانين . انه ينكب على الدراسة منذ الصباح وحتى ساعة متأخرة من الليل ، باستثناء الساعات التي يتناول خلالها طعاماً بسيطاً شديد التقتير . استقبلني بمحبة واجلسني على السرير حيث كان مستلقياً . حييته باشارة فرسان الشرق والمقدس فاجابني باشارة مثلها وسألني عما تعلمته في محافل ايكوسيا وبروسيا . فسّرت له على قدر طاقتي وعرضت عليه الافكار التي ادليت بها في المحفل في بيترسبورج وبينت الاستقبال الرديء الذي لقيته تلك الآراء ، ذلك الاستقبال الذي سبب انقطاعي عن الاخوان . وبعد ان فكر جوزيف الكسيبيفيتش طويلا ، شرح لي وجهة نظره التي انارت لي من فورها كل الماضي والسبيل الذي ينفتح امامي

في الحاضر . ولقد دهشت حينما سمعته يسألني عما اذا كنت لازلت اذكر الهدف الثلاثي للنظام : ١ – المحافظة على الاسرار والتعمق فيها ، ٢ – تطهير الذات ومعاقبة النفس وردعها لاعـــدادها للاشتراك في تلك الاسرار ، ٣ – اصلاح الجنس البشري عن طريق المجهودات المبذولة في سبيل ذلك الاصلاح . أي هدف من هذه الاهداف الثلاثة يعتبر اكثر اهمية ؟ انه دون ادني شك اصلاح الذات انه الهدف الوحيـد الذي نستطيع ابداً السعي لبلوغه رغم كل الاحتمالات . لكنه بنفس الوقت يتطلب منا اكبر الجهد والاجتهاد . لذلك فاننا نزوغ عنه يخدعنا الكبرياء ، لنتعلق اما بالتعمق في الاسرار الدي يمنعنا تدنسنا من الولوج فيها والتوغل في خفاياها ، واما باصلاح الجنس البشري في حين اننا نقدم انفسنا مثالا لفساد الخلق والقباحة . ان الهرطقة على اختلاف انواعها ، الملوثة بالكبرياء الطامعة في لعب دور اجتماعي ، ليست الا عقيدة رديئة . واستناداً الى ذلك لامني جوزيف الكسييفيتش على ماتقدم مني وعلى خطابي ، فوافقته من اعماق روحي .

« وعندما تقدم مني شرعنا نتحدث في مشاكلي العائلية ، قال لي : « ان واجب الماسوني الحقيقي الرئيسي يقوم – واكرر لـك – على اصلاح ذاته . لكننا غالبـاً نتوهم ان بمقدورنا بلوغ هذه الغاية باعظم سرعة بابتعادنا عن كل متاعب الحياة واثقالها . بينما الامر على العكس ياعزيزي السيد الأعز . اننـا لانبلغ هذا الهدف الا وسط مصائب الدهر وكروبه وذلك للاسباب التالية : ١ – معرفة ذاتنا . لان الانسان لايمكنه التعرف على نفسه الا بالمقارنه . ٢ – الاصلاح ، وهذا لايتم الا بالجهاد والكفاح ، ٣ – الفضيلة أي حب الموت . ان صروف الحياة وحدها تستطيع اظهارنا على كل الزهو الباطل وإلهامنا حب الموت أي الرغبة في بعث في عالم آخر جديد . » ان هذه الكلمات على جانب كبير من

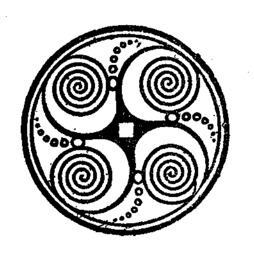
الاهمية لاتضاهيها الا أهمية صاحبها جوزيف الكسيبيفيتش الذي رغم آلامه الجسدية الخطيرة ، لايشكو ابدا من عبء الحياة . وعلى الرغم من حبه للموت فانه يشعر بعدم اعداد نفسه اعداداً كافياً رغم كل النقاء والنبل اللذين تتصف بهما حياته الخاصة .

« ثم فسر لي المحسن المعني العميق لمربع الخليقة الاكبر وبين لي ان الارقام ثلاثة وسبعه ، هي اساس كل شيء . نصحني كذلك ان لاأنقطع نهائياً عن الاخوان في بيترسبورج ولكن ان احذرهم من تبعات الكبرياء ونتائجه واعيدهم الى طريق المعرفة الحقيقية واصلاح الذات ، بنفس الوقت الذي اتشاغل خلاله بالقيام باعمال من الدرجة الثانية في المحفل . اما فيما يتعلق بي شخصياً ، فقد قادني الى مراقبة نفسي واعطاني لهذه الغاية دفتراً هو هذا الذي اخط على صفحاته هذه المذكرات والذي سأسجل فيه كل حركاتي في المستقبل . »

« بيترسبورج ، ٢٣ تشرين الثاني »

« تصالحت مع زوجتي . جاءت حماتي تذرف الدمع وتقول لي ان هيلين هنا واستحلفتني ان اصغي اليها . انها بريئة أيأسها هجراني واشياء اخرى ايضاً . انني اعرف تماماً انني اذا سمحت لنفسي بالذهاب لرؤيتها ، لن استطيع رفض ملتمسها طويلاً . وفي هذا التردد الذي وقعت فيه ، كنت اتساءل عمن الجأ اليه . لو ان المحسن كان هنا ، لكانت نصائحه جد ثمينة ومفيدة . تماسكت فترة طويلة واعدت تلاوة رسائل جوزيف الكسيبيفيتش . ثم تذكرت احاديثنا وخرجت بنتيجة نهائية : ينبغي ان اتقبل من يبتهل الي وان أمد الى كل الناس يد العون وخصوصاً الى ذلك الشخص الذي تربطه بي وشائج متينة . يجب علي اذن ان احتمل عذابي . لكنني اذا كنت اصفح عنها حباً في الفضيلة ، فانني اتوقع ان لايكون لرابطتي معها إلا هدف روحي فحسب . اما زوجتي ، فقد

رجوتها ان تنسي الماضي وتصفح عن اخطائي التي قـد اكون ارتكبتها حيالها .
اما انا ، فليس عندي شخصيا ما يستحق ان اصفح عنه . لقد سرني ان استطعت التحدث اليها على هذا النحو وان تظل جاهلة مقدار النصب الذي احتملته بموافقتي على رؤيتها . لقد اقمت في الطبقة العليا من مسكننا واتذوق الآن البهجة التي وفرها لي شعوري بالتجدد . »



الفَصلُ التَّاسِعُ

عودة الى المجتمع

وفي تلك الاثناء ، على جري العادة ، كان افراد المجتمع الراقي الذين يتقابلون في البلاط أو في الحفلات الراقصة الكبرى ، ينقسمون الى حلقات عديدة ، تحتفظ كلٌ منها بطابعها الخاص . وكانت الحلقة الأكثر عدداً هي حلقة الفرنسيين ، التي يميل افرادها الى التعاون مع نابليون ويرأسها الكونت روميانتسيف والكونت دو كولنكور[1] وما كادت هيلين تعود الى الحياة مع زوجها حتى شغلت ارفع مقام مرموق في المجتمع . اخذ هؤلاء السادة الذين يمتون الى السفارة الفرنسية ، وعـــدد كبير من الشخصيات ذوي الاذواق المتجالسة ، يرتادون ابهاءها .

صدف ان كانت هيلين في اير فورت عندما تمت المقابلة العتيدة بين الامبراطورين ، فصادفت هناك نجاحاً مرموقاً وارتبطت بعلاقات مع كل شخصيات اوربا النابوليونية المهمين . ولقد لاحظها الامبراطور نفسه ذات مرة

---

(١) المار كيز لويس دو كولنكور ، دوقدو كيسانس ، جنرال فرنسي ولد في كولنكور عام ١٧٧٢ وتوفي عام ١٨٢٧ كان كبير « البارران » ثم سفير روسيا في عهد المملكة ، مثل نابوليون في مؤتمر شايتون . اما اخوه اوغست ، فهو جنرال ولد في كولنكور كذلك عام ١٧٧٧ وقتل في معركة موسكو عام ١٨١٢

في المسارح فقال عنها : « انها حيوان رائع . » ولما كانت محاسنها قد ازدادت ، فقد بدا فوز هذه المرأة البديعة الانيقة واجتذابها الانظار ، امراً طبيعياً في نظر بيير . لكنه كان يتساءل ابداً كيف استطاعت خلال هذين العامين ان تكتسب شهرة : « المرأة الفاتنة الجميلة بقدر ماهي ذكية . » كان الامير الشهير دولين[1] يكتب لها رسالات من ثماني صفحات . بينما كان بيليبين يدخر كلماته ليترك لهلين الاولوية في الحديث . وعلى هذا فان ولوج بهو الكونتيس بيزوخوف كان بمثابة وسام فكري للداخل اليه . كان الشباب يتعمدون قراءة الكتب قبل الذهاب الى ندوتها ليعدوا لانفسهم مواضيع يطرقونها ، بينما يأتمنها امناء السر في السفارات والسفراء انفسهم ، على اسرارهم الدبلوماسية . وبالاختصار ، كانت سلطة مستقلة من نوعها . وكان بيير ـ وهو الذي يعرف انها حمقاء سخيفة ـ يحضر احيانا مجالسها وهو فريسة لمزيج غريب من القلق والخوف من تلك الحفلات والسهرات والولائم التي كانوا يتحدثون خلالها عن السياسة والشعر والفلسفة . كان يحسّ بشعور الحاوي الذي يخاف ان يرى خدعته تنكشف في كل لحظة . لكن شهرة الكونتيس بيزوخوف بوصفها امرأة فتانة متقدة الذكاء كانت وطيدة جداً ، سواء أكانت الحماقة عاملاً ضروريا لادارة ندوة من هذا النوع ام كان الاغرار يجدون متعة في ان يُغرَّر بهم ، حتى ان هيلين كانت تستطيع الادلاء بكل الحماقات التي تخطر ببالها ليهلل الحاضرون كلهم اعجابا بكل كلمة نطقت بها ، يحاولون البحث عن معنى عميق فيها ، معنى ما كانت تحمل نفسها مشقة الافصاح عنه .

كان بيير الزوج المنشود لهذه الاجتماعية اللامعة ، زوج « سيد عظيم » ، متاهم الفكر شاذ الطباع ، لايزعج احداً ولا يتضايق من جلبة البهو بل ويصلح

(١) شارل جوزيف امير دولين ، جنرال بلجيكي في خدمة النمسا . ولد في بروكسل عام ١٧٣٥ وتوفي عام ١٨١٤ كاتب شهير بخواطره الفذة .

بذات الوقت ليكون دافعاً مبرزاً لأناقة زوجته وظرفها . ساعدته اجتهاداته الاخرى المنافية لكل هذه المظاهر ، طيلة عامين كاملين واحتقاره الكلي لكل ماعداها ، على ان يتخذ في مثل هـــذه الندوات التي لاتثير اهتمامه ، موقف لامبالاة منطلقة عطوف كل المجتمعين ، لايمكن اكتسابهابالصنعة ، الامر الذي يوحي ببعض الاحترام . كان يدخل بهو زوجته وكأنه داخل الى قاعة عرض يعرف فيها كل الموجودين ، فيستقبل كلا منهم بمثـل مايستقبل الآخر ثم يظـل بعيداً عنهم جميعاً بعداً متساويا . فاذا بدت له احدى المناقشات مجدية هامة ، اشترك فيها بكل رغبة وحينئذ يعرب عن آرائه مدندناً بوجهات نظر كانت احيانا تتنافى كلياً مع الجو الذي تذاع فيه ، دون ان يأبه لمعرفة ماذا كان « السادة اعضاء السفارة موجودين ام لا . » لكن زبائن الندوة كانوا يعرفون تماماً كيف يعـــاملون ذلك الزوج البسيط الشاذ ، زوج « ابرز امرأة في بيتر سبورج » ، فلا يأهبون بحماقاته ولا يحملونها على محمل الجد .

لم يكن بين العدد الكبير من الاشخاص الذين يحاصرون ندوات الكونتيس بيزوخوف يومياً بعد عودتها من اير فورت ، من يلقى مثل العناية التي يلقاها بوريس دروبيتسكوي الذي حصل خلال تلك الفترة على مركز جيد . كانت هيلين تسميه « تابعي » وتعامله معاملة الطفل . صحيح ان البسمات التي كانت بها ما كانت تختلف عن بسماتها للاخرين ، لكن بيير كان يغتم احيانا اغتمامـاً مؤسياً بسببها . وكان بوريس يظهر لبيير احتراما خاصاً موسوماً بوقار كئيب ، لكن هذا الاحترام كان يقلقه بالمثل . لقد تألم بقسوة هـائلة قبـل ثلاثة اعوام للاهانة التي اصابته بها زوجته . لذلك فقد كان الآن يحـاول تجنب اهانة مماثلة فهو ليس زوجاً لزوجته وهو كذلك لايسمح لنفسه بالارتياب في سلوكها . كان يقول في سره :

– لقد اصبحت الآن « مشبوهة » لذلك فانها ولا شك قد عزمت عن كل تصرفاتها الشائنة السابقة .

ويكرر لنفسه قائلا :

– لم يسبق ان اصيبت « مشبوهة » بضعف عاطفي .

والله وحده يعلم من اين اتى بهذا الزعم واعطاه براءة المبدأ الثابت . مع ذلك ، فان وجود بوريس المستمر في بهو زوجته كان يحدث في مزاجه تأثيراً غريباً : يشل كل اعضائه ويذهب بحرية حركاته وطبيعتها الغريزية .

كان يقول لنفسه : « ياللنفور العجيب ! مع انه كان من قبل يعجبني كل الاعجاب . »

واذن ، فان بيير كان في نظر الاوساط الراقية سيداً كبيراً وزوجاً كفيف البصر شاذاً لزوجة شهيرة ، مبدعاً ولكن غير غبي ، عاطلا عن العمل ولكن غير مسيء الى احد ، وبالاختصار ، فتى طيباً باسلا . لكن في نفس بيير ، ظلت تقوم خلال هذه الفترة زوبعة مركبة عسيرة تصطخب في اعماقه ، فتفتح له افاقاً كثيرة وتسلمه الى الشكوك والريب ، لكنها كذلك كانت تتيح له متعاً روحية جمة .

★ ★ ★

الفصل العاشر

يوميات بيير

« ٢٧ تشرين الثاني »

استمر بيير يدون في مذكرته . وفيما يلي ماسجله فيها خلال تلك الفترة .

« ٢٤ تشرين الثاني – نوفمبر – »

« نهضت في الساعة الثامنة وقرأت الكتاب المقدس ثم ذهبت الى جمعيتي .–
ذلك ان بيير وافق نزولا عند نصح « المحسن » على المساهمة في جمعية – عدت لتناول الطعام ، فتناولته وحدي لان لدى الكونتيس عدداً كبيراً من المدعوين الذين لااميل اليهم . اكلت وشربت بمقدار ثم نسخت بعد الطعام مستندات للاخوان . وفي المساء . عندما نزلت الى جناح الكونتيس ، رويت قصة مثيرة عن (ب.) . لكنني تبينت بعد فوات الاوان ، ومن جلجة ضحكات الموجودين انني اخطأت في سرد تلك القصة .

« انني انام سعيداً مشرق النفس . اللهم ياقدير ساعدني على السير في سبلك ، واعني : ١ً – هزيمة نزعتي الى الغضب بالصبر والدعة ، ٢ً – التفوق على المنكر بالتعنف والاشمئزاز ، ٣ً – ابعادي عن الزهو الدنيوي ولكن دون ان تقصيني او تبقيني في معزل عن : أ – شؤون الدولة ، ب – مصالح الاسرة ، ج – العلاقات الودية ، د – المشاغل ذات الطابع الاقتصادي . »

نهضت متأخراً وبعدان استيقظت ، لبثت فترة طويلة في سريري فريسة الكسل ،
اللهم مدلي يد المساعدة واعطني القوة على السير في سبلك ! قرأت في الكتاب المقدس
لكن بغير تركيز الحواس الكافي . جاء الاخ اوروسوف ، فتحدثنا عن البطلان الذي
يسيطر على الناس اطلعني على مشاريع الامبراطور الجديدة . كدت ابادر الى
الى نقدها عندما تذكرت فجأة قواعدي وكلمات محسننا القائلة : ان الماسوني
الحقيقي يجب ان يكون اداة ذات حمية وعزم في يد الدولة عندما يُطلب اليه
المساهمة في شيء ، ومتفرجاً سلبياً عندما لا تدعو الحاجة اليه . ان لساني هو عدوي .
جاء الاخوان « ج . ف . » و « او . » لزيارتي . اتخذنا الاجراءات لاستقبال
جديد في المحفل . انا طالب دوَر الملقن للعضو الجديد . انني احسّ انني غير جدير
بذلك وغير معد اعداداً طيبا . تناقشنا بعدئذ في المعنى الواجب اعطاؤه للاعمدة
ودرجات الهيكل السبع ، والعلوم السبعة والفضائل السبع والرذائل السبع ومنح
الروح القدس السبعة . كان الاخ « او . » لبقاً طليا . اقيمت الحفلة مساء ، ساهم
ترتيب المحفل الجديد في اضفاء جو من البهاء على المشهد . ان من قبلناه هو
بوريس دروبيتسكوى . لقد زكيته ولقنته . كنت طيلة الوقت الذي قضيته
بصحبته في الحجرة المظلمة ، نهباً لشعور غريب . انني اشعر نحوه بحقد اعمل عبثاً
على التغلب عليه . انني اود بكل اخلاص ان انقذه واقوده في طريق الحقيقة .
لكن الافكار السيئة لا تغادرني . كنت احدث نفسي بأنه لم ينضم الى صفوفنا
الا للتقرب من بعض الشخصيات الهامة ذات النفوذ الواسع المتوفرة في محفلنا ،
ليفوز بعطفها . ألم يسألني مراراً عما اذا كان « ن . » و « س . » اعضاء في محفلنا
وهو الامر الذى لا حق لي في البوح به ؟ اضف الى ذلك ما يبدو لي من انه غير
قابل للشعور نحو نظامنا المقدس بالاحترام اللازم ، لانني اراه كثير التشاغل
راضياً عن نفسه رضى لا ينتظر معه ان يرغب في تهذيب روحه . مع ذلك ،

لم تكن لدي اسباب خاصة للشك فيه ، لكنني اشعر انه غير مخلص حتى خيل الي طيلة الفـــترة التي قضيتها معه في الهيكل المعتم ، انه كان يبتسم باحتقار لسماع نصائحي ، فتمتلكني الرغبة في ان اخرق صدره العاري بالسيف الذي في يدي. لم استطع اظهار بلاغتي ، لكنني ما كنت اجد لشكوكي اسساً بينة لاطلع الاخوان والمعلم الاكبر عليها . آه يا مهندس الكون الاعظم ، ساعـــدني على ايجاد الطريق الذي يقودني خارج متاهة الكذب . »

وبعد ثلاث صفحات بيضاء ، تعود كتابة المذكرات كما يلي :

« وقعت لي مقابلة طويلة ومفيدة مع الاخ « ف . » الذي اوصاني بالتعلق بالاخ « آ . » اطلعت على اشياء كثيرة رغم انني لااستحق الاطلاع عليها . ان آدانوي هو اسم خالق الكون ، وايلويم اسم الذي يريده ! اما الاسم الثالث ، وهو يفوق حد الوصف ، فيعني « الكل » . دعمت فؤادي محادثاتي مـع الاخ « ف . » وثبتت جناني وخطواتي في طريق الفضيلة «هو» موجرد ، وكل شك يزول . انني ارى بوضوح الفرق بين العلوم الفارغة التي يعلمونهـــا في العالم ، ومبادئنا المقدسة التي تحيط بكل شيء . ان العلوم البشرية تحطم كل شيء لتفهم وتقتل كل شيء لتفحص . اما في مباديء نظامنا ، فعلى العكس ، الكل وحدة كل شيء يصبح مفهوماً في تعقيده وفي حياته . ان الثلاثيات ، عوامل الاشياء الثـلاثة هي الكبريت والزئبق والملح . اما الكبريت فيضم خصائص الزيت والنار ممتزجة . وباتحاده مع الملح ، يثير في نفسه بفعل النار التي يطويهـا بين جوانحه ، الرغبة التي يجتذب الزئبق بواسطتها ، فيمسك به ويحتفظ به ويحدث ـ بالاتحاد معه ـ الاجساد الملموسة اما الزئبق ، فهو الجوهر الروحي في حالته السائلة وفي حالة التصعيد ـ المسيح ، الروح القدس ، الكون . »

٣ كانون الاول -ديسمبر-

« استيقظت متأخراً وقرأت في الكتاب المقدس ولكنني لم اتحسس بما قرأت . اخذت اذرع البهو . كنت اريد التفكير . لكن خيالي راح بدلاً من ذلك ، يدفع في ذاكرتي بمشهد مضى منذ اربعة اعوام . قال لي السيد دولوخوف عقب مبارزتنا وقد التقى بي في موسكو ، انه يأمل ان انعم الآن - رغم غياب زوجتي - باستقرار فكري كامل، لم اجبه حينذاك . لكن ها انني هذا الصباح ، وانا استعيد كل تفاصيل ذلك اللقاء اوجه له الخطب الاكثر حنقاً وهجاء لاذعا . بلغ غضبي مبلغ الهيجان عندما ثبت الى نفسي : لقد طردت هذه الافكار لكنني لم اجد في ذلك عزاء كافيا وبعدئذ جاء بورس دروبيتسكوي

وراح يقص احدوثات، لم تعجبني زيارته منذ الوهلة الاولى لذلك فندبسطت امامه موضوعات شحيحة الانس . جاوبني على اقوالي . ثرت وكلت له عدداً من الاشياء المقذية الخارجة عن حدود اللباقة . فصمت وأسفت متأخراً على اقوالي . رباه انني لااعرف مطلقاً كيف اتصرف معه بسبب كبريائي وكرامتي انني اضع نفسي في مستوى اعلى من مستواه ثم اهوي الى درك احط : والواقع أنه بينما يظهر تساهلاً حيال سماجاتي ، لااشعر حياله الا بالكره . رباه ، امنحني القدرة على ان ارى في حضرته عيبي اكثر مما اراه عادة ، وأن أعدل سلوكي بشكل يصبح معه ملائماً حتى بالنسبة اليه . رقدت قليلا بعد الغداء . وبينما انا أفقد حواسي تدريجياً ، سمعت صوتاً يهمس في اذني بوضوح : « لقد جاء يومك . »

« حلمت انني اسير في العتمة حتى وجدتني فجأة وسط كلاب تحيط بي . لكنني لبثت اسير دون ان أفرق وفجأة اطبق كلب صغير باسنانه على ربلة ساقي اليسرى ولما لم يشأ التخلي عنها ، اخذت اخنقه وما كدت اتخلص منه ، حتى القى كلب آخر ، اكبر من الاول ، بنفسه علي وعضني . رفعته بين يدي وكلما رفعته ازداد كبراً وثقلا . وفجأة جاء الاخ « آ. » وامسك بيدي ثم

جرني الى بناء لايمكن الدخول اليـه الا بالعبور فوق لوح ضيق من الخشب فلم اكد أطأ بقدمي ذلك المعبر حتى ترنح وانهار . وعندئذ تسلقت حاجزاً دائريا كانت يداي لاتبلغانه الا بصعوبة . وبعد جهود مضنية ، استطعت ان ارفع نفسي قليلا ، واصبح جذعي متدلياً في جهة وساقاي في الجهة الاخرى . وفجأة لمحت الاخ « آ . » واقفاً فوق الحاجز يشير الى ممشى في حديقة . وفي تلك الحديقة بناء فسيح جميل . رباه ، يامهندس الكون الاعظم ساعدني على التخلص من كلا بي واعني من رغباتي وشهواتي ، وخصوصاً من الاخيرة التي تتركز فيها سلطة كل الرغبات الاخرى وقوتها . ساعدني اللهم على الدخول الى هيكل الفضيلة الذي شاهدته في الحلم . »

« ٧ كانون الاول ـ ديسمبر ـ »

« حلمت ان جوزيف الكسيبفيتش موجود عندي فكنت سعيداً جـداً بزيارته راغباً في معاملتـه أحسن معـــامله . مـع ذلك كنت اثوثر مع آخرين ثوثرة لاآخر لها . ادركت فجأة ان هذا التصرف لايمكن ان يرضيه واعتلجت في نفسي رغبة ضمه بين ذراعي . وبينما كنت اقترب منه ، رأيت وجهه يتبدل فيعود الى الشباب وسمعتـــه يحدثني ببعض كلمات عن مبادىء النظام ولكن بصوت هامس شديد الخفوت حتى انني لم استطع فهم اقواله . ثم خرجنا بعدئذ جميعاً من الغرفة فوقع امر على جانب من الغرابة . كنا جالسين او مستلقين على الارض وهـــو يحدثني . اما انا ، فكنت أريد أن اكشف له عن حنوي ، وبدون ان اصغي الى اقواله ، تصورت حـالة نفـسي الداخلية التي امدها الله بعون من لدنه تلألأت دمـوع في عيني فكنت اغتبط أن يكون رآها . لكنه حدجني بنظرة متـــذمرة وتنحي عني وبعنف فجأة واضعاً حداً للحديث . روعت وسألته عما اذا كان قد رغب في التحدث عني .

لم يجبني بشيء لكنه مع ذلك رمقني بنظرة مؤنسة وفجأة انتقلنا ، دون ان أدري كيف ، الى حجرتي حيث كان فيها سرير مزدوج ، نام على حافة السرير وانا ـ التهب برغبة اظهار حبي له ومودتي ـ نمت الى جانبه . خيل الىّ انه سألني :

« ماهي رغبتك المسيطرة ؟ قلها لي دون مراوغة . هل توصلت الى عزلها وحلها ؟ نعم ، لاشك انك تعرفها الآن . « اضطربت لهذا السؤال فأجبته بانها : الكسل . هز رأسه بلهجة مكذبة . فقلت له انني رغم سكناي مع زوجتي كما اوصاني ، لااعاملها معاملة الزوج . فاعترض على ذلك . وافهمني انه لاينبغي لي حرمانها من ملاطفاتي واسمعني تنويهاً انني مرغم على ذلك . اجبته بان ذلك يخجلني وفجأة اختفى كل شيء . استيقظت وفي رأسي هذا المقطع من الكتاب المقدس يدوي : « [1] والحياة كانت نور البشر والنور يشع في الظلمات والظلمات لم تتلق ذلك النور . » كان وجه جوزيف الكسيبيفيتش فتياً ومضيئاً . وفي نفس اليوم ، تلقيت رسالة من « المحسن » تبحث في الواجب الزوجي .

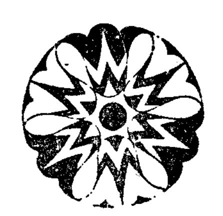
« ٩ كانون الاول ـ ديسمبر ـ »

« حلم جديد دعاني عندما استيقظت خافق الفؤاد . كنت في موسكو ، في بيتي ، في القاعة الكبرى ذات الارائك،وجوزيف الكسيبيفتش آتياً نحوي من جهه البهو ، لمحت على الفورنشوراً تم فيه فهرعت الى استقباله . قبلت يديه فقال لي : « هل لاحظت ان وجهي لم يعد كسابق عهده ؟ » رحت انظر اليه بانتباه وانا محتفظ به مضموماً الى صدري : كان وجهه اصفراًوتقاسيمه مختلفة كل الاختلاف ورأسه مجرداً من الشعر . قلت له حينئذ : « لو انني لقيتك صدفة لما فاتنيأن أعرفك . لكنني كنت أقول في سريمتسائلا : « هل تفوهت

---

(١) يوحنا ١ و ٤ و ٥

بالحقيقة حقاً ؟ » وفجأة رأيته امامي ممددا كالجثة . ثم عاد الى رشده تدريجيا ودخل معي الى حجرة كبيرة . كان ممسكا بيده كتابا كبيرا من اوراق البردي المدهون. قلت له : « انني انا الذي زوقت هذا الكتاب » فاشار لي اشارة الاستحسان . فتحت الكتاب . كانت رسوم جميلة جدا تزين صفحاته . كنت اعرف ان تلك الرسوم تمثل مغامرات الروح مع حبيبها . على صفحة منه ، ظهرت عذراء في ثياب شفافه وجسد مرمري ، تحلق بين الغيوم . وكنت اعرف ان تلك العذراء هي صورة رمزية لنشيد الاناشيد . شعرت بانني مخطىء في تأمل هذه الرسوم . لكنني ما كنت اقدر نزع انظاري عنها . اللهم هب الى مساعدتي ! اواه يا ربي ، اذا كان الهجران الذي انا فيه من صنعك ، فلتكن مشيئتك ! لكنني اذا صنعته بيدي وبخطأ مني ، علمني مايجب ان اصنعه . سوف يقتلني الفساد اذا تخليت عني نهائيا . »



الفصل الحادي عشر

خطوبة بيرج

على الرغم من ان آل روستوف انسحبوا الى الريف حيث امضوا فيه عامين كاملين ، فان وضعهم المالي لم يتحسن بقدر ما كانوا يتوقعون .

صحيح ان نيكولا ظل مخلصا لكلمته ، باراً بعهده الذي قطعه على نفسه ، يعيش في فيلقه عيشة متواضعة وينفق بمقدار . لكن طراز الحياة في مركز الاسرة الريفي في اوترادنوي وادارة ميتانكا، جعلا الديون تزداد تضخماً من عام لآخر . فلم يجد الكونت العجوز وسيلة لدرء هذا الخطر الا بالعودة الى الخدمة. لذلك مضى الى بيترسبورج باحثا عن عمل . وبنفس الوقت، وعلى حسب تعبيره الخاص ، اعطاء اوقات بديعة للفتيات الشابات للمرة الاخيرة للترفيه عنهن .

وبعد وصولهم الى بيترسبورج بأمد قصير ، طلب بيرج يد فيرا، فقبل طلبه .

كان آل روستوف في موسكو يعتبرون في عداد ارفع طبقة في المجتمع ، دون ان يأبهوا في الحقيقة لمعرفة الى اية طبقة ينتمون . لكنهم في بيترسبورج باتوا على العكس لايحظون الا بعلاقات مختلطة غير واضحة . ذلك ان عدداً كبيراً من الذين كانوا في موسكو يعتبرون انهم واياهم يقومون على صعيد واحد، باتوا في بيترسبورج لايوافقون على الظهور مع هؤلاء القرويين الآتين من الاقاليم

لكنهم ظلوا يعيشون على طريقتهم في موسكو ، تجمع ولائمهم اشخاصاً من مختلف الطبقات : وصيفة شرف ، الآنسة بيترونسكي ، تجاور بعض القرويين الموسرين وفتياتهم ، وبيير بيزوخوف الى جانب ابن رئيس البريد في منطقتهم الموظف في العاصمة . وكان اكثر الرجال إلفة في بيت آل روستوف ، بوريس وبيير الذي قابله الكونت العجوز في الشارع وقاده في شبه قسر الى منزله ، ثم « بيرج » الذي كان يقضي عندهم اياما كاملة ويعرب لابنتهم البكر ، الكونتيس فيرا ، عن لهفته التي تفضح نواياه في الزواج منها .

لم يظهر بيرج ذراعه اليمنى التي اصيبت في معركة اوسترليتز لكل وافدٍ عبثا ولا امسك بعناد بيده اليسرى سيفا لم يكن يفيده في شيء . لقد اقنعت لهجته الخطيرة التي كان يحدث بها كل وافد ـ اي وافد ـ عن شجاعته وجرحه ، كل من حوله حتى ان وسامين جاءا أخيراً يشهد ان ببسالته في اوسترليتز .

ولقد منحته حرب فنلندا كذلك فرصة للظهور . لقد التقط شظية قنبلة اصابت مساعداً عسكريا فقتلته قرب القائد الاعلى وسلمها الى رئيسه . وكما فعل عقب معركة اوسترليتز ، راح يروي القصة بالحاح شديد مسحر حتى اعجب كل من حوله ببسالته من جديد ومنح من اجل ذلك مكافأتين . وفي عام ١٨٠٩ اصبح ، برتبة رئيس في الحرس وبات يحتل مركزاً خاصاً عظيم النفع .

كان بعض المتشككين يبتسمون كلما دار البحث حول مواهب بيرج وشجاعته . لكنهم ما كانوا يستطيعون الانكار بانه ضابط انيق شجاع مرموق جداً من قبل رؤسائه ، وانه شاب يعيش عيشة طيبة ، ينتظره مستقبل لامع وانه بلغ حتى الآن مركزاً متيناً في المجتمع .

قبل اربعة اعوام ، عندما قابل بيرج احد رفاقه الالمان في موسكو في حديقة مسرح هناك ، اشار الى فيرا روستوف وقال له بلغته : « ستكون

هذه زوجتي . » ومنذ ذلك الحين ، اتخذ قراره . بدا له مركزه الآن معادلا لمركز آل روستوف ،واذن فقد ازفت اللحظة المناسبة فتقدم بطلبه.

قوبل عرضه بادىء الامر بتحفظ لايبشر بخير عميم ، اعتبروا ان من الغرابة ان يتقدم ابن سدليفوني مغمور بطلب الزواج من كونتيس روستوف، لكن اخلاق بيرج كانت تمتاز بطابع خاص من الانانية الساذجة البريئة حتى ان آل روستوف انتهى بهم الامر الى القول ان الامر يجب ان يكون كذلك ، لانه هو نفسه كان شديد القناعة به . اضف الى ذلك ان الخطيب لايمكن ان يجهل تشوش اوضاعهم المالية،ثم ان فيرا قد بلغت الرابعةوالعشرين واختلطت كثيراً بالاوساط فلم يتقدم احد لطلب يدها رغم وفرة جمالها واتزانها واحتشامها وعلى ذلك وافق آل روستوف على الطلب .

كان بيبرج يقول لزميله الذي يسميه صديقه لان العادة تقضي بان يكون للمرء صديق :

– اصغ . لقد وزنت كل شيء وحسبت كل شيء وما كنت لأتزوج قط لو ان القضية تعرضت لادنى الموانع . ولكن كما ترى لايحتاج ابواي شيئاً بعد ان اقطعتهم اراض في اقاليم البلطيق . اما انا فانني احسن الحساب رجة لاتجعل العيش في بيتر سبورج متعذراً اذا اجتمع مرتبي بثروتها هي . سوف يمكننا ان نعيش على خير مايرام . انني لم اتزوجها بالطبع من اجل مالها لان ذلك لايعتبر نبلاً ، ولكن يجب على الزوج والزوجة ان يتشاركا كل في حدود طاقته على انشاء حياتها . ان لي مركزي ولها علاقاتها وندوتها الصغيرة . واعتقد ان مثل هذه الامور في ايامنا هذه ليست ممجوجة على ماأظن ؟ واخيراً وقبل كل شيء انها فتاة رائعة شريفة وتحبني ..

ويبتسم بيرج لدى تفوهه بهذه الكلمات ويتخضب وجهه ،

– ثم انني احبها أنا الاخر لان لها عقلية ممتازة دائمة الجد ... ان اختها

الثانية تختلف عنها كل الاختلاف ... انها لعلى خلق رديء ينقصها الارهاف ولست ادري كذلك ماينفرني منها ... اما خطيبتي سوف تأتي غالباً ...
– وهم ان يقول « لتناول الطعـــام » لكنه استدرك وقال – ... لنشرب الشاي عندنا .

وبحركة خاصة من لسانه اطلق دائرة من الدخـان ، مثالاً كاملا لاحلامه في السعادة .

تلت لحظة الدهشة الاولى التي سببها طلب بيرج اجـــواء من الافراح والسرور تفرضها الظروف في مثل هذه المناسبات . لكن هذا الفرح كان مصطنعاً وسطحيا فحسب . كان الابوان مرتبكين وعلى شيء من الخجل وكأنهما يوبخان انفسهما على قلة محبتهما لابنتهما ورؤيتهما لها تذهب دون أسف . كان الكونت العجوز اكثر أستياءً من زوجة لان المسألة المادية كانت تؤرقه وان لم يكن قد اعلن عن شعوره بصراحة . كان يجهل حالته الماليه ومجموع ديونه والبائنة التي يستطيع بحكم مركزه المالي ان يمنحها لفيرا ، لقـد خصص لكل من بناته عند ميلادها بائنة قدرهـا ثلاثمائة عبد . لكن واحدة من قراه المخصصة لهذه الغاية بيعت والثانية رهنت بكل مافيها . وعلى ذلك لم تعد املاكه تدخل في حساب التغطية . فكان عليه والحالة هذه اللجوء الى النقد . ولكن من اين ياتي بالمبالغ النقدية ؟

اعلنت خطوبة بيرج منذ اكثر من شهر وانتظر ان يُحتفل بالزواج في غضون اسبوع . مع ذلك فان الكونت لم يكن بعـــد قد قرر شيئاً بصدد البائنة ولا اطلع زوجته على هذه القضية . كان يزمع احيانا اقطاع ابنته فيرا املاكه في ريازان وحيناً آخر يفكر في بيع غـــابة او استقراض نقود لقاء صكوك نقدية . وقبل الحفلة بايام معدودة دخل بيرج في الصباح البـاكر على

الكونت في مكتبه وسأل حماه المقبل باحترام والابتسامة على شفتيه ان يتفضل باعطائه احصـــاء دقيقاً عن بائنة الكونتيس فيرا ، وعلى الرغم من توقع الكونت مثل هذا السؤال منذ امد بعيد الا انه ارتبك لدى سماعه ارتبا كاً شديداً حتى انه اجاب غير عامد باول ماجادت به قريحته .

– انني سعيد اذ أراك تشغل نفسك بهذا الموضوع . هذا حسن ، حسن جداً . لن يكون في الامر مايستدعي تذمرك .

وبعد ان ربت على كتف بيرج نهض وكأنه يضع حداً للمحادثة ، لكن بيرج الذي ظل محتفظاً بابتسامته الوديعة ، اعلن انـــه اذا لم يعرف قيمة البائنة على الضبط ولم يقبض منهـا جزءاً على الاقل سلفاً فانه سيضطر الى سحب طلبه .

– انك تفهم ياكونت انني اذا تزوجت دون ان اطمئن على قدرتي على اعالة زوجتي وتأمين طلباتها فان تصرفي لن يكون شريفاً .

ولـكي يبرهن الكونت على كرمه ويقطع الطرق في وجه طلبات جديدة وعد بتقديم صك معتمد بقيمة ثمانين الف روبل . فطافت بشفتي بيرج ابتسامة حانية وقبل كتف الكونت معلناً له عن عظيم شكره مؤكداً انه لايستطيع الشروع في انشاء كيان اسرته دون ان يقبض ثلاثين الف روبل بالعملة الدارجة ثم صحح طلبه قائلا :

– او على الاقل عشرين الف روبل ياكونت . وفي هذه الحال لن تكون قيمة الصك المعتمد اكثر من ستين الف روبل .

فوافق الكونت على الفور قائلا :

– نعم ، نعم . ولكن اعذرني ياصديقي . سوف تقبض عشرين الف روبل نقداً ويبقى الصك المعتمد بقيمة ثمانين الف روبل هيا قبلني .

الفَصلُ الثّاني عَشر

بوريس وناتاشا

بلغت ناتاشا السادسة عشرة من عمرها عام ١٨٠٩ ، وهو العام الذي حددته ناتاشا لبوريس وهي تعد على اصابعها قبل اربعة اعوام عندما تعانقا وقبلها . ومند ذلك الحين لم تره مرة واحدة . فاذا جاء ذكره امام سونيا وأمه ، كانت تقول بكل طلاقة ان كل هذه القصص القديمة لم تكن الا صبيانيات نسيت منذ طويل امد . لكنها في اعماق نفسها كانت تتساءل في شيء من القلق عما اذا كان عهدها لبوريس مجرد دعابة ام وعداً جدياً .

لم يطأ بوريس بقدمه مسكن آل روستوف منذ ان التحق بالجيش عام ١٨٠٥ مع ذلك فقد حل مراراً في موسكو ومر على مقربة من او ترادنوي دون ان يعرج عليها . وكانت ناتاشا تتصور احياناً انه لايرغب في رؤيتها وتدعم هذا الاعتقاد في نفسها اللهجة الحزينة التي يتحدث بها المسنون في الاسرة كلما تطرقوا الى ذكر الشاب .

كانت الكونتيس تقول اذا نُوه امامها بذكر بوريس .

— لقد بات الناس في عصرنا هذا ينسون اصدقاءهم القدامى .

وكانت آنّا ميخائيلوفنا التي باتت قليلة التردد على الاسرة تحتفظ بعلاقات

محدودة معها ، تطري بحماس ملحوظ مواهب بوريس ونجاحه اللامع المرموق كلما ورد ذكره في حضرتها .

وعندما استقر آل روستوف في بيترسبورج ، ذهب بوريس لزيارتهم وهو يشعر بالاضطراب . كانت ناتاشا ذكراه الاكثر شاعرية والاكثر عذوبة وكان مزمعاً افهامها وذويها ان علاقة طفولتها لا يجب أن تجر وراءها اية ارتباطات بالنسبة اليه . فصداقته الوثيقة مع الكونتيس بيزوخوف اتاحت له مركزاً مرموقا في المجتمع وحماية الشخصية المتنفذة الهامة التي كان يتمتع بثقتها المطلقة تؤمن له مستقبلاً لامعاً . فكان بمقدوره الآن ان يغذي في نفسه في غير زهـو مشاريع زواج من اغنى فتيات اسر بيترسبورج .

عندما دخل بوريس بهو آل روستوف ، كانت ناتاشا في غرفتها . وما ان علمت بقدومه حتى تضرج وجهها وهرعت من فورها مشرقة الوجه بابتسامة فيها اكثر من معنى الود . وكان بوريس يحتفظ بذكرى بنية في اثواب قصيرة ذات عينين سوداوين لامعتين تحت خصلات من الشعر المتمرد وضحكة مجنونة فضية ، فلما رأى ناتاشا اخرى تدخل البهو اضطرب وفضح وجهه دهشة معجبة اسعدت الفتـــاة .

قالت له الكونتيس :

– كيف ، ألم تعد تعرف صديقتك الصغيرة الشيطانة ؟

قبل بوريس يد ناباشا واعلن دهشته للتغيير الذي طرأ عليها .

– كم ازددت جمالاً !

فأجابت عينا ناتاشا : « انني اعتقد ذلك ! » بينما قال لسانها :

– وأبي هل هرم ؟

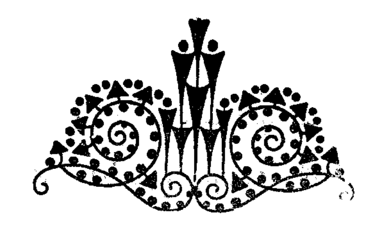
جلست وراحت تراقب بصمت خطيب طفولتها في أدق حركاته دون ان

تشترك في الحديث الدائر بينه وبين الكونتيس . اما بوريس فكان يشعر بثقل تلك النظرة الودية العتيدة فيكاد من حين الى آخر يتورط في اجابتها عليها بمثلها . لاحظت ناتاشا ان ثوب بوريس ومهمازيه وربطة عنقه وطريقة ترجيل شعره مطبوعة كلها بطابع الذوق المرهف والـ « كما يجب » . كان جالساً على ثلاثة ارباع مقعد الى جانب الكونتيس يسوي بيده اليمنى القفاز الأنيق الذي يضم يده اليسرى . فكان حيناً يسرد وهو يمرز شفتيه بحركة مفضلة ، مسرات الطبقة الراقية في بيتر سبورج ويستعيد حيناً آخراً في سخرية خفيفة ذكريات موسكو وعندما كان يولج في كل خبر من اخبار الطبقة الراقية عن حضور سفير ما الى حفلة راقصة او عن الدعوات التي تلقاها من « ن . ن . » أو من « س . س . » كانت ناتاشا تشعر ان قولة هذا بعيد عن الطيش والخفة .

ظلت صامتة مع ذلك تراقبه خلسة . ولما شوشت تلك النظرة بوريس ، توقف فجأة عن متابعة الحديث والتفت اليها في مزيد من الالحاح . ولم تمض عشر دقائق حتى نهض واستأذن منصرفاً تشيعه تانك العينان المتطلعتان نصف المتحديتين ونصف الساخرتين تحصيان عليه حركاته .

اعترف بوريس بعد هذه الزيارة الأولى بأنه لازال يجد ناتاشا جذابة كسابق العهد . لكنه اعترف بنفس الوقت بانه لاينبغي له ان يستسلم لذلك الميل : اذ ان الزواج من فتاة شبه مفلسة يهدم كل مشاريعه المقبلة . بينما العودة الى توثيق الصلات السابقة دون مقصد جدي تعتبر عملاً غير شريف . لذلك قرر البقاء في معزل . لكنه رغم هذا القرار البديع ، عاد لزيارة آل روستوف بعد ايام قليلة ثم كرر زياراته حتى انتهى به الامر الى قضاء ايام كاملة عندهم . كان يؤمن ان من واجبه التفاهم بصراحة مع ناتاشا وابلاغها بوجوب نسيان الماضي لأنها لايمكن برغم كل شيء ان تصبح زوجته وهو الذي لا مال لديه أضف الى ذلك

انهم لن يوافقوا مطلقاً على تزويجها به . لكنه ما كان يعرف كيف يتصرف بل كان يزداد كل يوم تدلها . وبدت ناتاشا من جانبها - كما لاحظت أمها وسونيا تعود الى غرامها السابق ببوريس. كانت تغني له الاغنيات التي يفضلها وتطلب اليه ان يكتب شيئاً في مجموعتها وتمنعه من التفكير في الماضي فلمحة الى ان الحاضر افضل منه واحسن . وفي كل يوم كان بوريس يخرج من عندها كالمسحور دون ان يطرق التفاهم العتيد ودون ان يدري لم جاء و كيف سينتهي كل ذلك . ولقد ظلت هيلين التي لم يعد بوريس يظهر في حفلاتها وابهائها تسأل عنه كل يوم وتمطره وابلاً من بطاقاتها المليئة باللوم دون ان يمنعه ذلك من قضـــاء أيامه عند آل روستوف »



الفصل الثالث عشر

خاتمة المطاف

كانت الكونتيس العجوز في قلنسوة الليل وجلباب النوم القصير تصلي صلاة المساء مدمدمة وتسعل سعالاً خفيفاً وهي تكرر فوق النجد الركوع والانحناءات عندما ارتفع صرير الباب وظهرت ناتاشا في ثوب النوم كذلك واندفعت الى الغرفة . وكانت الكونتيس قد نزعت شعرها المستعار وعصبت شعرها الطبيعي بقطعة قماش قطني لم تظهر منه الا باقة صغيرة . اما ناتاشا فكانت تلف شعرها بغطاء خاص وتلبس في قدميها العاريتين خفاً منزلياً . التفتت الكونتيس وقطبت حاجبيها بينما جرى لسانها بتتمة صلاتها : « هل سيصبح فراشي هذا تابوتي حقاً » ، وتبدو خشوعها على الفور . ولما رأت ناتاشا أمها مستغرقة في الصلاة توقفت في مكانها مضرجة الوجه منتعشة الاسارير وجلست القرفصاء وهي تظهر طرف لسانها وكأنها ضبطت مرتكبة خطيئة . وبينما استرسلت امها في صلاتها حجلت نحو السرير ونزعت خفيها ثم قفزت فوق ذلك الفراش الذي كانت الام تشك في ان يصبح تابوتها . وكان المرقد عبارة عن سرير من الريش وضعت عليه خمس وسائد مختلفة بين صغيرة وكبيرة . دفنت ناتاشا نفسها وسط تلك الوسائد وتدحرجت حتى استقرت في الفراغ القائم بينها ، وربضت تحت الغطاء تضحك

ضحكة مكتومة وترتج وتتحرك وتلاعب ساقيها تارة وترفع ركبتيها الى اسفل ذقنها تارة اخرى ، تخفي رأسها تارة وتختلس النظر الى وجه أمها تارة اخرى . وعندما انتهت هذه من أدعيتها اقتربت من السرير بجدة وصرامة . لكنها ما ان رأت ناتاشا مخفية رأسها تحت اللحف حتى شعت ابتسامة طيبة على وجهها وقالت :

— هيا ، هيا !

سألت البنت :

— اماه ، هل نستطيع التحدث معاً ؟ نعم ، أليس كذلك ؟ .. هيا قبليني في عنقي ، قبلة اخرى ، هل تريدين ؟ حسناً ان هذا جيد .

طوقت الكونتيس وقبلتها اسفل ذقنها . لقد كان لها مع امها اساليب عنيفة ولكن على جانب كبير من المهارة . فاذا اخذتها بين ذراعيها ، كانت تتدبر الامر دائماً بحيث لاتكون مداعباتها قاسية ولا مزعجة .

قالت الكونتيس وهي متكئة على وسائدها ويداها فوق الشراشف ووجهها رزين ، تطلب من ابنتها — بعد ان تدحرجت مرتين حول نفسها — من الاستقرار بجانبها تحت لحاف واحد :

حسناً ، ماذا لديك اليوم ؟

لقد كانت زيارات ناتاشا الليلية لأمها قبل عودة الكونت من النادي احدى المتع الكبيرة لدى الام والفتاة على السواء . كررت الكونتيس :

— ماذا لديك اليوم ؟ لقد كنت مزمعة التحدث اليك بدوري ...

وضعت ناتاشا يدها على فمها وقالت بلهجة جدية :

— عن بوريس ... نعم ، انني اعرف . ولقد جئت من اجل ذلك . لاتقولي شيئاً ، اعرف ...

ثم رفعت يدها واردفت :

– بل تكلمي . انه لطيف أليس كذلك ؟

– ناتاشا ، ان لك الآن ستة عشر عاما . ولقد كنت متزوجة لما كان لي مثل سنك . تقولين ان بوريس لطيف ... نعم ولاشك ، انه لكذلك وانني احبه كما احب ولدي . ولكن ماهي مراميك ؟ لقد سلبت عقله تماما ، انني ارى ذلك بوضوح ...

استدارت الكونتيس نحو ابنتها . كانت ناتاشا شاخصة بابصارها الى واحد من اهرامات خشب الكابلي المنقوشة في زوايا السرير وهي جامدة ساكنة حتى ان امها لم تستطع رؤية وجهها الا رؤية جانبية . مع ذلك فان أمارات الوجه الجدية المركزة لم تدهش الكونتيس .

قالت ناتاشا بعد فترة وجوم :

– حسناً ، وبعد ؟

– لقد سلبت لبه تماماً ولكن الى اين يبلغ بك الأمر ؟ ماهي غاياتك ؟ انك تعرفين تماماً تعذر زواجك منه .

سألت ناتاشا وهي في جمودها :

– ولمَ يالله ؟

– لأنه لازال يافعاً ولأنه فقير ولأنه قريبك ... واخيراً لانك لاتحبينه .

– وماذا يدريك ؟

– اننى اعرف ذلك . وهو ليس بالامر الحسن ياعزيزتي .

– لكنني اذا كنت اريد ...

– لاتتفوهي بالسخافات .

– لكنني اذا كنت اريد ...

– ناتاشا ، انني اكلمك جدياً ...

ودون ان تدعها تكمل حديثها ، جذبت ناتاشا بيد الكونتيس الضخمة اليها

فقبلتها في ظهرها ثم في باطنها ثم ادارتها من جـــديد وطبعت قبلة فوق مفصل اصبعها ثم فوق الفراغ الذي يليه ثم فوق مفصل الاصبع الآخر وهي تعد :

ـ كانون الثاني ، شباط ، آذار ، نيسان ، ايار .... هيا تحدثي ياماه ، لم لاتتكلمي ؟ تحدثي ....

ونظرت الى امها بعين مستفسرة فرأتها تسرّح فيها نظرة حانية وكأنهـــا نسيت في تأملها ذاك كل ماكانت تريد ان تقوله .

ـ ان هذا غير مناسب ياعزيزتي . ان كل الناس ليسوا على علم بزمالتكما ايام الطفولة ، والالفة التي تظهيرنها له اليوم يمكن ان تكون ذات ضرر بالنسبة اليك بين الشبان الآخرين الذين يرتادون بيتنا . ثم انها عـذاب عقيم بالنسبة اليه . لعله واجد اسرة نافعة غنية تناسبه . وها انك الآن تسلبينه الرشاد.

قالت ناتاشا :

ـ حقاً ؟

ـ استطيع ان اخاطبك عن علم . لقد كان لي ابن عم ...

ـ آه ! نعم ، سيريل ما تفييتش . لكنه كهل ...

ـ انه لم يكن كهلاً منذ ولادته . على ذلك ياناتاشا ، سوف اتحدث الى بوريس . لايجب ان يزورنا بمثل هذه المثابرة ...

ولمَ تحدثينه اذا كان هذا يروق له ؟

لأنني اعرف ان هذا لن يصل به الى نتيجة ...

قالت ناتاشا بلهجة من يُسلب ملكه :

ـ وماذا يدريك ؟ كلا ياماه ، لاتقولي له شيئاً ... يالها من حماقات لن اتزوجه ، ليكن ! ولكن لمَ لايثابر على المجيء الى هنا طالما ان ذلك يروح عنا كلينا ؟ انني لن اتزوجه ، لكننا سنحب بعضنا «هكذا».

وانسابت نحو امها باسمة .

ـ كيف ، « هكذا » !

ـ نعم ، « هكذا » . ان الزواج لايهمني ... واذن « هكذا »

كررت الكونتيس بينما راح جسدها الضخم يهتزبشدة بفعل ضحكة عميقة :

ـ هكذا ، هكذا .

هتفت ناتاشا :

ـ لاتضحكي بهذه القوة ، انك تزلزلين السرير ... انك تشبهينني شبهاً مذهشا ، انك ضحاكة مثلي ...

وامسكت بيدها وراحت تعد وهي تطبع قبلة على مفصل الاصبع الصغير :

ـ حزيران ،

ثم انتقلت الى اليد الاخرى واسترسلت :

ـ تموز ، آب ... » اماه هل يحبني كثيراً ؟ مارأيك فيه ؟ هل احبوك بمثل هذا القدر ؟ نعم ، انه لطيف ، لطيف جداً جداً ... لكنه لايروق لي تماماً انني اراه على شيء من الهزال ... أشبه بصندوق ساعة الجدار ... انه رقيق اشهب ، ناصع .

ـ ماهذا اللغو !

ـ كيف ، الا تفهمينني ؟ ... يفهمني نيكولا ، هو ... بيزوخوف مثلًا ازرق مشبع مموه بالأحمر ثم انه مربع كذلك .

قالت الكونتيس ضاحكة :

ـ يخيل الي انك تتطرفين مع هذا ايضاً .

مطلقاً ... لقد علمت انه من الاخوان الماسونيين ... انه فتى طيب ، ازرق مشبع مموه بالحمرة ... كيف افسر لك هذا ؟ ...

وارتفع صوت الكونت من وراء الباب :

ـ الست نائمة بعد ايتها الكونتيس الصغيرة ؟

قفزت ناتاشا الى اسفل السرير وامسكت بخفيها ثم فرت حافية القـدمين . لبثت تتقلب على فراشها زمنا طويلا . كانت تفكر في ان مامن أحد يفهم كل مايخيل اليها انه شديد الوضوح وما يعتلج في اعماق نفسها .

حدثت نفسها وهى تنظر الى القطة الصغيرة النائمة على شكل دائرة لايظهر منها الا الضفيرة الضخمة : « سونيا ؟ اوه ، كلا ! انها شديده التعلق بالفضيلة . انها تحب نيكولا « ها » ولاتريد التطلع الى شيء آخر . إن أمي هي الاخرى لاتفهمني . رباه ، كم انا ذكية اذن !...

واستتلت تتحـدث عن نفسها بصيغة الغـائب المفرد وكأن الحديث صادر عن فم انسان من الجنس الآخر يظهر لها كل ميزات جنسها الـكاملة : « ان ناتاشا هذه لفتنة طاغية حقا ! ان لديها كل شيء ، كل شيء لهاوحدها . انهاذكية ولطيفة وجميلة وحاذقة ... انها تسبح وتركب الخيل بمهارة فائقة وتغني غناءً ساحراً ... نعم يمكن القول بانه غناء ساحر !»

ودندنت احد انغامها المفضلة ، جملة مستعارةمن اوبراشيروبيني[1] وارتمت على سريرها وهي تضحك للفكرة التي واتتها من انها ستنام لفورها ، فنادت دونياشا لتطفيء الشمعة . ولم تكد هذه تخرج من الغرفة حتى كانت ناتاشاتحلق في دنيا الاحلام ، دنيا اكثر سعادة من هذه ، حيث كل شيء فيها جميل وسهل سهوله الحقيقة ولكنه افضل منها لانه يختلف عنها .

وفي اليوم التالي ، استدعت الكونتيس بوريس وتحدثت معه . ومنذ ذلك اليوم ، لم يعد بوريس يرى عند آل روستوف

---

(١) سالفادر شيروتيني موسيقار ايطالي ولد في فلورنسا عام ١٧٦٠ وتوفي عام ١٨٤٢ . تجنس بالجنسية الفرنسية وتسلم ادارة المجمع الموسيقي في باريز « كونسرفاتوار له مؤلفات دينية واوبرات عديدة مشهورة ذات عاطفة ملحوظة وتوزيع بديع

الفصل الرابع عشر

دعوة

في الواحد والثلاثين من كانون الاول ، ليلة بدء عام ١٨١٠ الجديد ، اقيمت ليلة احياء عند احد كبار الشخصيات المتبقين من عهد كاترين . وكان الامبراطور والسلك الدبلوماسي كله سيحضرها .

كان قصر ذلك السيد العظيم ، درة « رصيف الانجليز » ، يلتمع بألوف المصابيح المتقدة ، وقد فرشت امام المدخل المنار بسخاء ، سجادة حمراء ثمينة ، واقام رجال الدرك من اجسادهم حاجزاً تحت اشراف مدير الشرطة بالذات وعشرات من الضباط لمنع تكأكؤ المتفرجين . واخذت العربات التي يواكبها وصفاء وتابعون باثوابهم الحمراء وقبعاتهم المريشة ، تغدو وتروح دون انقطاع ، حاملة سادة بثيابهم الرسمية تزين صـــدورهم الاوسمة والنياشين وسيدات متدثرات بفراء السمور الابيض ، غارقات في الحرير ، يهبطن في حذر على المواطيء المنزلة بصخب وينزلقن رشيقات صامتات فوق سجادة المدخل .

وكلما وصلت عربة ، سرت تمتمة بين الحشور وارتفعت القبعات وتبودلت العبارات :

ـ أهو الامبراطور ؟... كلا ، بل وزر ... امير ... سفير . . . الا ترى الريش ؟...

كان احد البلهاء ، وهو افضل من غيره لباساً ، يبدو كأنه يعرف كل الناس ، ويميز كلا من كبار ذوي المناصب في ذلك العهد باسمه .

وبينما كان ثلث المدعوين قد وصل الى مكان الحفلة ، لم يكن آل روستوف – وقد وُجهت اليهم الدعوة لحضور تلك الحفلة الراقصة ايضاً – قد فرغوا من زينة الشعر بعد . لقد اثارت تلك الحفلة عندهم كثيراً من اللغو والاستعداد بل ومن المخاوف ايضاً : تُرى هل توجه اليهم الدعوة ؟ هل تكون ازياؤهم جاهزة في الوقت المناسب ؟ هل ينتهي كل شيء على مايتمنون ؟

كانت ماري اينيا تييغنا بيرونسكي ، وهي سيدة هزيلة صفراء وصيفة شرف سابقة في البلاط الفائت وصديقة وقريبة للكونتيس ، قد وعدت بمرافقة هؤلاء الاقليميين – آل روستوف – لتكون لهم بمثابة الدليل في الاوساط الراقية في بيترسبورج ، وكان على هؤلاء ان يمروا بمسكنها لاصطحابها ، في في الساعة العاشرة . والمسكن واقع في « جاردان توريد » وهو مقر الامبراطورة الام . وكانت الساعة قد اشرفت على العاشرة الا خمس دقائق والفتيات لم يرتدين بعد ثيابهن .

كانت هذه اول حفلة راقصه كبرى في حياة ناتاشا . استيقظت في الثامنة صباحاً وامضت نهاراً في اضطراب محموم . بذلت كل قواهـا طيلة النهـار ، لتكون امها وسونيا وهي على احسن هندام ممكن . ولقد استسلمت لهـا الكونتيس وسونيا استسلاماً مطلقاً ، تقررأن ترتدي الكونتيس ثوبا من المخمل الثمين بينما تلبس الفتاتان اثوابا بيضاء هفهافة فوق « أجفن من الحرير الوردي وان تزين الورود خصريهما ، بينما يصفف شعر ثلاثتهن على الطريقة اليونانية .

اجريت الترتيبات واتخذت الاستعدادات الجوهرية . فالاذرع والسيقان والاعناق والقذل والوجوه والآذان غسلت كلها بعناية وضخمت بالعطور ونثرت فوقها الذرور بما يتفق وحفلة راقصة ولبست الجوارب الحريرية الجديدة

والاحذية المصنوعة من الساتان ذات الاشرطة، وانتهت اعدادات زينة الرأس تقريباً . كانت سونيا على وشك الفراغ من زينتها العامة والكونتيس كذلك . لكن ناتاشا ، لكثرة ماتشاغلت في زينة الاخريات ، تأخرت في اعداد زينتها كانت حينذاك لاتزال جالسة اما مرآتها تدثر كتفيـا النحيلتين بمئرز ، وفي وسط الغرفة ، وقفت سونيا تغرز دبوساً في شريط لتثبته في مكانه فامتنع وبلغ بها الضغط مبلغ ايلام اصبعها .

قالت ناتاشا وهي تستدير ممسكة بشعرها بين يديها قبل ان تجد الوصيفة وقتاً للتخلي عنه :

- ليس على هذا الشكل ياسونيا . العقدة ليست هكذا . تعالي .

وجلست سونيا قريباً منها فغيرت ناتاشا وضع الشريط . وقالت الوصيفة وهي لاتزال ممسكة بشعرها :

– اعذريني يانسة ، لاسبيل ابداً ...

– اه ! يارب . تستطيعين الانتظار قليلا ... هكذا ياسونيا ، لقد استقام الأمر الآن .

وقالت الكونتيس

– هل فرغتما ؟ تكاد الساعه ان تقرع عشراً .

فوراً ، على الفور . وأنت ياأماه ، هل أنت جاهزة ؟

– لم يبق علي الا وضع قلنسوتي .

هتفت ناتاشا :

– لاتضعيها بدوني . لن تحسني وضعها !

– ولكن الساعة قد بلغت العاشرة .

كان مقرراً ان يصل ركبهم الى مكان الحفلة في العاشرة والنصف ، مع ذلك لم تكن ناتاشا قد ارتدت ثيابها بعد ، ثم كان عليهم المرور بقصر «التوريد» لاخذ قريبتهم

فرغت ناتاشا اخيراً من شعرها فهرعت مزملة بثوب داخلي لامهـا فوق « تنورة » قصيرة تظهر تحتها احذية الرقص ، تفحص سونيا ثم انتقلت منها الى الكونتيس . ادارت لها رأسها واثبتت قلنسوتها بدبوس وطبعت قبلة فوق شعرها الأشيب وعادت تجري نحو الوصيفات اللاتي كنّ يسوين ثوبها .

كان عليهن تقصير ذلك الثوب الذي كان اطول من المطلوب ، ووصيفتان تعملان فيه بهمة وتقطعان الخيوط بأسنانها بينما راحت ثالثة وبين شفتيها كمية من الدبابيس ، تنتقل من الكونتيس الى سونيا ، ورابعة تحمل فوق ذراعها الثوب الهفهاف الخارجي .

– مافروشا ، عجلي ياعزيزتي .

– ناوليني القمع يا آنسة ، هل تريدين ؟

ظهر الكونت على عتبة الباب وقال :

– هل ستفرغن قريباً ؟ ها كن عطوراً . لاشك ان الآنسة بيرونسكي تترقب وصولنا .

قالت الوصيفة وهي ترفع على اصبعين الثوب الهفهاف الموشى ثم تنفخ عليه وتنفضه لتبين ولاشك خفته الفائقة :

– لقد فرغت يا آنسة .

شرعت ناتاشا ترتديه . وهتفت بأبيها الذي وارب الباب :

– لحظة واحدة ، لحظة واحدة . لاتدخل يا أبي .

كان صوتها ينبعث خلال السحابة الحريرية التي تخفي وجهها . دفعت سونيا الباب بعنف وبعد دقيقة ، سُمح للكونت بالدخول فدخل معطراً مدهناً في ثوب ازرق وجوربين حريريين وخفين رشيقين .

هتفت ناتاشا وهي منتصبة وسط الحجرة تسوي ثنيات ثوبها :

– آه ! ابتاه ، انك جميل جمال القلب !

قالت احدى الوصفيات ، وهي جاثية على ركبتيها تجذب ذيول الثوب بينما تنتقل الدبابيس من ركن فمها الأيمن الى الركن الأيسر :

– اسمحي لي يا آنسة ، اسمحي لي .

واجابت سونيا على قولها في يأس :

– قولي ماتريدين ولكنني اؤكد لك انه مازال طويلاً !

ذهبت ناتاشا تعاين نفسها في المرآة الكبيرة . رأت ان الثوب طويل فعلاً! اعترضت مافروشا وهي تتبع سيدتها على اربع :

– البتة انه مناسب تماماً هكذا يا آنسة .

وقالت دونياشا بلهجة حازمة :

– اذا كان لايزال طويلاً ، فان تقصيره لن يستغرق اكثر من دقيقة .

واستلت ابرة كانت مغروسة في منديلها وراحت تعمل بلهفة وشوق . وفي تلك اللحظة ، دخلت الكونتيس بقلنسوتها وثوبها المخملي واقتربت بخطوات صغيرة وجلة .

صاح الكونت :

– اوه ! اوه ! كم هي جميلة ! انها تكسفكن جميعاً !

وهم يقبلها ، لكنها ابعدته عنها متضرجة الوجه خشية ان يفسد زينتها قالت ناتاشا .

– أميلي القلنسوة اكثر من ذلك ياأماه . أنتظري سوف اسويها بنفسي .

اندفعت فجأة وبعنف شديد حتى ان الوصيفات اللاتي كن يخطن ذيل الثوب لم يجدن متسعاً من الوقت ليتبعنها ، فاقتطعت ايديهن جانباً صغيراً من قماش الثوب .

– آه ! رباه ! ماذا بعد ؟ انني لست مسؤولة قط لعمري ...

اكدت دونياشا :

- سوف اخيطه ولن يراه احد .

قالت المربية وهي تدخل الحجره :

- آه ياجميلتي ، ياملكتي الصغيرة ! وسونيا ! آه ياجميلاتي :

واخيراً ، احتوتهم العربة في العاشرة والربع ودرج الركب . ولكن كان عليهم الذهاب الى « جاردان توريد » .

كانت الانسة بيرونسكي جاحرة . وعلى الرغم من بشاعتها وتقدمها في السن فان مثل الهرج والمرج الذي وقع عند آل روستوف تكرر وقوعه عندها ولكن باندفاع أقل ، بفضل ممارستها الطويلة لهذا النوع من الحياة . كانت شخصيتها المنفرة ، معطرة كلها ومدهنة ومزوقة ووجهها الهرم مجملا حتى وراء الاذنين بل ان وصيفتها العجوز هللت هي الاخرة لدي رؤية سيدتها تدخل في البهو في ثوبها الاصفر المزين بشعار الامبراطورة . تفضلت بالموافقة على زينة ال روستوف فراح هؤلاء بالمقابل ، يطرون ذوقها الرفيع في انتخاب زينتها وأنتقاء حليها . وعندما بلغت الساعة الحادية عشرة ، كان ركب السيدات يتحرك وصعدت السيدات الى العربات وهن يولين أثوابهن وشعورهن عناية بالغة .

* * *

الفصل الخامس عشر

في الحفلة

كانت ناتاشا طيلة ذلك النهار منصرفة الى مشاغلها الجمة حتى انها لم تجد متسعاً من الوقت للتفكير في ما ينتظرها .

تمثلت نفسها الاول مرة عندما لفح وجهها هواء الليل الرطيب البارد واحتوتها العربة الضيقة المتهززة في ظلامها المطبق ، في القاعات المضاءة المشعة وفي غمرة الموسيقى وغمار الزهور والرقصات والامبراطور وزهرة شباب بيتر سبورج اللامعين . كان ماينتظرها على درجة من الروعة متناقضة كل التناقض مع شعورها الحالي بالبرد والارتباك والظلام حتى ان ناتاشا ما كانت تستطيع تصديق الواقع المنتظر . لم تؤمن الا في اللحظة التي مرت بها فوق سجادة المدخل الحمراء ودخلت الدهليز حيث نزعت فروتها وتقدمت مع سونيا تسبقان امها ترتقيان السلم العريض المشع بالاضواء المزين بالزهور وحينئذ فقط تذكرت الطابع الذي قررت اتخاذه خلال الحفلة الراقصة ، وهو طابع جليل وقور يتلاءم ـ حسب افكارها ـ مع كل فتاة شابة في مثل هذه المناسبة . عنيت لفورها باتخاذ تلك الامارات . لكنها لحسن الحظ ، شعرت ان عينيها تترجرجان : لم تعد ترى شيئاً بوضوح واخذ نبضها يضرب بعنف وقلبها يخفق . بذلك لم تستطع اتخاذ السمة المقررة التي

لو اتخذتها لجعلت منها اضحوكة . تقدمت اذن يغشيها الاضطراب لاتكاد تستر بلبالها والحقيقة انها ما كان يمكن لها ان تجد اتزانا ، أما آل روستوف فقد غمرهم فيض المدعوين وكلهم مثلهم في ثيـــاب الحفلة يتحدثون مثلهم بصوت خافت . وكانت مرايا السلم تعكس صور السيدات في اثوابهن البيضاء والزرقاء والوردية وسنا اللآلىء والماسات فوق اكتافهن واذرعهن العالية .

اخذت ناتاشا تختلس النظر الى المرايا دون ان تستطيع تمييز نفسها عن الاخريات : كن جميعاً مختلطات في عرض مشرق بهي . وعندما دخلت البهو الاول أصمها ضجيج الاصوات المتناسقة والخطوات والتهاني المتبادلة ،و اعماها اشعاع الاضواء وروعة الاثاث والرياش . استقبل اصحاب القصر الذين لم يفتأوا منذ نصف ساعة يرددون وهم وقوف عند المدخل عبارتهم الخالدة لكل زائر جديد : « يسعدنا ان نراكم » ، آل روستوف والآنسة بيرونسكي بهذه العبارة بالذات .

دخلت الفتاتان في ثيابهم البيضاء متشابهتين حتى بالورود التي تزين شعرهما الاسود ، وانحنتاباحترام انحناءة واحدة . لكن نظرة ربة البيت توقفت عند ناتاشا الهيفاء اكثر من مألوف عادتها وخصتها بابتسامة خاصة مختلفة عن ابتسامة الترحيب المبتذلة التي كانت تزجيها للضيوف ، لاشك انها استعادت بعيني خيالها حفلتها الراقصة الاولى وأيام شبابها الذهبية التي اختفت الى الابد واحياها اليوم ظهور ناتاشا المليحة . كذلك تبع رب البيت ناتاشا بعينيه وسأل الكونت عن اي الصبيتين ابنته ثم قال وهو يلثم اطراف اصابعه :

— رائعة !

كان المدعون في قاعة الرقص متكأكئين حول باب المدخل بانتظار الامبراطور . استطاعت الكونتيس ان تجد لها مكاناً في الصفوف الاولى . وسمعت ناتاشا بعض الاشخاص يتحدثون عنها واحست بهم ينظرون اليهـا .

فحدست انها اعجبتهم وهدأ قلقها واضطرابها قليلا .

قالت تحدث نفسها : « هناك من هم مثلنا وهناك من هم أسوأ منا » .

وفي هذه الاثناء ، شرعت الآنسة بيترونسكي تعدد للكونتيس اسماء الشخصيات البارزة . قالت وهي تشير الى عجوز فضي الشعر اجعده مندمج بين فئة من السيدات يضحكن :

– هذا هو وزير هولندا ، هنا ذو الشعر الابيض .

واضافت وهى تشير الى هيلين التي كانت داخلة :

– وهذه ملكة بيترسبورج ، الكونيس بيزوخوف .

– كم هي جميلة ! انها لاتنقص عن ماري انتونوفنا ناريشكين (عشيقة الامبراطور الكسندر) جمالاً . . . انظري كيف يتهافت الشباب والشيوخ حولها كالفراش . انها جميلة وذكية . . . يقال ان الامير « س » مجنون بها . . . لكن هاتين الاخريين رغم بشاعتها محاطتين بلفيف اكبر من الرجال .

واشارت الى سيدتين كانتا تخترقن القاعة ، أم وبنت ذات جمال مخيف حقاً . استرسلت الآنسة بيرونسكي :

– انها صفقة ملايين وهؤلاءهم المعجبون ... انظري هـذا هو اخو الكونتيس بيزوخوف ، آناتول كوراجين .

واشارت الى فارس جميل من سلاح الحرس كان يخطر امـامها شامخ الرأس شاخص البصر الى الامام . اردفت :

– ياله من فتى جميل أليس كذلك ؟ يقال انهم سيزوجونه بكيس الملايين هذا . ثم هاهو ابن عمك دروبيتسكوي هو الآخر يغازلها .

واجابت على سؤال طرحته الكونتيس :

– كيف ! لكن هذا كولنكور سفير فرانسا بشحمه ودمه . الا يشبه

الملوك !... ان هؤلاء الفرنسيين لطفاء ظرفاء رغم كل شيء . مامن احد اكثر ظرفاً منهم في المجتمع .. آه ! هاهي ذي اخيراً ماري انتونوفنا ! كلا بـــلا شك ، لامثيلة لها ! ثم بالبساطة مظهرها ! معبودة حقاً ... وهذا الفتى الضخم ذو النظارتين ، انه ماسوني دولي ، انه يشبه الدمية القبيحة بجانب زوجته .

واشارت الى بيزوخوت الذي كانت تقصده بهذا القول .

تقدم بيير يؤرجح جسمة الضخم يشق طريقه وسط الجماعة يومىء برأسه ذات اليمين وذات الشمال بمثل مايفعل الطفل الغرير عندما يجتاز ساحة احد المعارض كان يشعه طريقه و كأنه يبحث عن بعضهم .

تأملت ناتاشا بسرور وجه تلك « الدمية القبيحة » كما سمته الآنسة بيرونسكي الذي تعرفه حق المعرفة . كانت تعرف ان بيير يبحث عنهم وبصورة خاصة عنها : الم يعدها من قبل بحضور هذه الحفلة الراقصة ليقدم لها راقصين ؟

مع ذلك توقف بيزوخوف قبل ان يصل اليهم قرب رجـــل اسمر جميل معتدل القامة في بزة بيضاء كان يتحدث امام احدى النوافـذ مع رجل مديد القامة تزين صدره الاوسمة التي يتدلى فوقها شريط الوسام الاكبر . ذلك الرجل بولكونسكي الذى بدا لها انضر شبابا واكثر جمالا ، قالت ناتاشا :

– اليك كذلك ياأماه احد معارفنا . بولكونسكي . انظري اليه . الا تذكرين ؟ لقد قضي ليلة عندنا في اوترادنواي .

قالت الآنسة بيرونسكي :

– آه ! اتعرفونه ؟ انني لاأطيق رؤيته . انه اليوم يبعث المطر والصحو كما يقولون . ثم انه على كبرياء لاحدود لها ! انها موروثة عن ابيه . لقد اتحد مع سبيرانسكي وهما الآن يضعان مشروعات لايعلم بها الا الله . انظروا اليه كيف يعامل السيدات : وهاهي ذي واحدة تحادثه وهو مدبر. لو كنت انا التي احدثه لعاملته كما يستحق !

الفصل السادس عشر

وصول الامبراطور

وفجأة عم الاضطراب في القاعة الكبرى وعلا الهمس وتقدم المدعون ثم تنحوا وظهر الامبراطور يتبعه اصحاب البيت وسط سياج من كبار الشخصيات ، وصدحت الموسيقى . تقدم الامبراطور وهو يوزع التحية ذات اليمين وذات الشمال وكأنه يتعجل الخلاص من هذه المجاملة المملة ، وعزفت الموسيقى لحن « بولونيز »لذي كان شائعاً في ذلك العصر بسبب الكلمات التي ترافقه .

الكسندر واليزابيث

انكما مبعث نعيمنا ...

مضى الامبراطور الى البهو فتكالب الجمهور على الابواب ، وتسلل بعض ذوي الوجوه المتلونة حسب متطلبات الظرف ، الى القاعة ثم خرجوا منها بعد قليل . وانثنى الجمهور متراجعاً فشوهد الامبراطور يتحدث مع مضيفته . وهرع رجل في مقتبل العمر ، ذو قسمات مضطربة يتوسل الى السيدات ان يتنحين انقض عليهن انقضاضا . كان بين السيدات من دلت على قسمات وجوههن على انهن لا يأبهن مطلقاً لمتطلبات اللياقة الاجتماعية مع ذلك فقد كن يتهافتن على احتلال الصفوف الاولى معرضات زينتهن . واقترب « الفرسان »من الراقصات وتشكلت الازواج لمواكبة لحن « البولونيز » .

واخيراً تنحى كل الناس فظهر الامبراطور باسماً ترافقة المضيفة دون ان يعني بمشية ايقاعية معها ، وتبعها المضيف ترافقه مـــاري انتونوفنا ناريشيكين فالسفراء فالوزراء « فالجنرالات » التي كانت الآنسة بيرونسكي لا يعيها تسميتهم. استدعي اكثر من نصف عدد السيدات للدخول في تلك الرقصة واخذت كل راقصة مكانها مع فارسها . وحينئذ تبينت ناتاشا انها وأمها وسونيا كن في عداد القلة التي كتب لها ان تقف موقف المتفرج . لبثت واقفة في مكانها يتدلى ذراعاها الناحلين الى جانبيها وتضطرب حنجرتها التي لم يكتمل نموها بعد ، كاتمة انفاسها حزينة ملتمعة العينين ، تنظر امامها بوجوم ، بينما كانت سحنتها القلقة تتلاءم مع انتظار فرحة غير منتظرة بقدر ما تتماشى مـع توقع حزن كبير . لم يكن الامبراطور ولا الشخصيات الكبيرة التى اشارت اليها الآنسة بيرونسكي يشغلون تفكيرها . لم تكن تفكر الا في شيء واحد : « حقيقة لن يتقدم احد لمراقصتي ألن أرقص في عداد الأزواج الاولى ؟ ألن أكون مرموقة من هؤلاء السادة الذين يبدون الآن وكأنهم لا يرونني والذين اذا نظروا الي ّبدا عليهم انهم يحدثون انفسهم بقولهم : « آه ! ليست هي ، فلنحول ابصارنا ؟ كلا ، ان هذا لا يمكن ان يدوم . يجب ان يعلموا بأنني اريد ان ارقص وانني ارقص رقصاً ساحراً ، وانهم سيجدون متعة من مراقصتي .

اخذت انغام البولونيز التي طال ترديدها تصل الآن الى اذني ناتاشا اشبه باصوات صاخبة مشوشـة تبعث في نفسها الرغبة في البـكاء . وكانت الآنسة بيرونسكي قد ابتعدت عن آل روستوف ، والكونت قد اصبح في الجانب الآخر من القاعة . ولبثت الكونتيس وسونيا وهي نفسها في امكنتهن اشبه بالتائهات وسط غابه ، وسط ذلك الحشد من الغرباء الذين ما كانوا يأبهون بوجودهن . مرّ الأمير آندريه بصحبة سيدة بالقرب منهن دون ان يعرفهن . ومر اناتول الجميل بدوره باسماً يتحدث مع مرافقته والقى على ناتاشا نظرة عابرة كتلك التي

ينظر بها المرء الى ستارة على جدار . وظهر بوريس مرتين لكنه في كل مرة منها كان يعني بان لاتلتقي انظاره بنظراتهن . جاء بيرج وزوجته ، ولم يكونا يرقصان ، فانضما الى الاسرة . لكن هذا الاجتماع العائلي جرّح ناتاشا ألم يكن هناك مكان افضل من هذا للاحاديث العائلية ؟ لم تعد فيها أي اهتمام وهي تتحدث عن ثوبها الأخضر .

واخيراً ، قاد الامبراطور مراقصته ، بعد ان رقص مرتين او ثلاث مرات فتوقفت الموسيقى عن العزف . هرع مساعد مشدوه الى السيدات من آل روستوف وسألهن ان يتنحين اكثر من ذلك رغم انهن كن لصق الجدار . ومن فوق السدة ، شرعت الموسيقى تعزف الحان الفالس البطيئة الجذابة المتناسقة . سرح الامبراطور في القاعة نظرة باسمه ومرت دقيقة طويلة قبل أن يتقدم زوج من الراقصين الى الحلبة . جاء المساعد المرافق واقترب من الكونتيس بيزوخوف يطلب مراقصتها . وضعت يدها فوق كتفه دون أن تنظر اليه فطوقها المساعد المرافق وهو ممتلىء بالثقة بنفسه ، في عنف غير متعجل وقادته مراقصته منزلقة معه حتى نهاية الحلبة ثم امسكت بيسراه ، ادارته حول نفسه على ايقاع الموسيقى الآخذ بالاسراع ، فلم يعد يسمع الا صوت المهاميز في قدمي الراقص البارع تطن مع الايقاع بينما اخذ ثوب مراقصته في الخطوات الثلاثة يشعو كأنه يلتهب أو ينفث اللهب . شعرت ناتاشا وعيناها شاخصتين الى هـذا الزوج السعيد ، إنها على وشك البكاء : لمَ لم تكن هي ترقص هـــذه الجولة الاولى من هذا الفالس ؟

كان الامير آندريه ، بثوبه الابيض الذي يشير الى رتبة زعيم في الفرسان وجوربيه الحريريين وخفيه ، واقفاً في في الصف الاول وديع النفس حي الروح لم يكن يعيداً عن آل روستوف . كان البارون فيرهوف يتجاذب معه أطراف الحـــديث حول جلسة مجلس الدولة الاولى التي حدد موعدها غداً . ولما كان

اندريه صديقاً حميما لسبيرانسكي وعضواً في اللجنة التشريعية ، فقد كان في مقدوره امداد البارون بمعلومات دقيقة حول تلك الجلسة التي ُفسر اعلانها على اشكال مختلفة متناقضة . لكنه لم يكن يعير البارون واقواله كبير اهتمام، بل كان ينظر الى الامبراطور تارة والى الراقصين تارة اخرى ، اولئك الراقصين الذين ماكانوا يجرأون رغم مافي نفوسهم من شهوة للرقص — على الدخول الى الحلبة . وبينما كان يراقب اولئك الراقصين الذين روعهم وجود الامبراطور ، واولئك الراقصات اللاتي كن يذوين حنيناً الى تقبل الدعوات ، تقدم بيير منه وامسك بذراعه وقال له :

—انت الذي تحب الرقص ، هناك الفتاة التي احميها ، روستوف الشابة ، ادعها وراقصها اذن .

سأل بولكونسكي :

— أين هي ؟

وقال للبارون معتذراً :

— عفوك ياباروان . سوف نتابع حديثنا في مكان آخر اما في هذه الحفلة فيجب ان نرقص .

تقدم في الاتجاه الذي عينه بيير وفجأة قفز امام عينيه وجه ناتاشا اليائس . عرفها لفوره وحدس الشعور الذي يعتلج في نفسها وادرك انها مبتدئة ،فاقترب من الكونتيس روستوف هاشاً باسما . قالت هذه ووجهها يتضرج خجلا :

— اسمح لي ان اقدم لك ابنتي .

قال آندريه وهو ينحني بتحية عميقة نقضت كل ماقالتهالآنسة بيرونسكي عن خشونته وصلفه :

— اننا معارف قدماء ولعل الكونتيس تذكر ذلك .

وقبل ان ينطق بعبارات دعوته المألوفة ، قدم ذراعه ليطوق قوام ناتاشا عارضاً عليها جولة فالس . اضاء وجه ناتاشا القلق الذي كان على استعداد للاعراب عن اليأس بقدر الاستعداد للتدليل على الفرح الطاغي ، وأشرقت عليه فجأة تلك الابتسامة الطفولية السعيدة المليئة بالعرفان .

كانت بسمتها التي شعت خلال الدموع الوشيكة تعبر عن قول صاحبتها « لقد كنت انتظرك منذ امد طويل . » بينما اسندت الفتاة يدها على كتف الأميرة وهي وضاءة الوجه مروعة معاً . ودخل زوج الراقصين الثاني الى حلبة الرقص . كان الأمير من خيرة الراقصين في عصره وبرهنت ناتاشا على انها ترقص هي الاخرى بابداع . كانت قدماها الصغيرتان في حذائيها الحريريين الخفيفين ، يدرجان بسرعة و كأنهما يندفعان بحركة كامنة فيهما . وكان وجهها طافحاً بالسعادة . كان عنقها وذراعاها العاريان اذا قيسا بعنق هيلين وذراعيها ، نحيلين واقل جمالاً . صحيح ان كتفيها لم يتم نموها بعد وحنجرتها لم تتكون ، لكن هيلين كانت تنوء تحت نيران الوف النظرات المنصبة على مجموع جسمها ، بينما كانت ناتاشا مجرد طفلة ُعرّي جيدها لأول مرة ، تشعر بالخجل الكبير لظهورها على هذا الشكل لولا ماقيل لها من وجوب ارتداءهذاالزي توطئه لمجاراة المجتمع .

كان الامير آندريه يحب الرقص ويرغب في الخلاص من احاديث السياسة والمداولات الجدية التي كان يُبهط بها . ثم انه تعمد تبديد جو التحفظ والضيق الذي خلقه الامبراطور بحضوره ، فقرر الانشغال في الرقص . وانتقى ناتاشا ليدخل السرور على نفس بيير لأنها كانت اول فتاة جميلة استوقفت ابصاره . لكنه ما ان اطوق خصرها النحيل المرن وشعر بها تتحرك قريباً منه ، وما ان رأها تبتسم اليه عن مقربة ، حتى طفت فتنة الفتاة على روحه وصعدت النشوة الى رأسه . أحسّ بالشباب والحياة يكتسحان كيانه عندما قاد الفتاة الى مكانها الاول ووقف معها يراقبان الراقصين وهو مبهور الانفاس .

الفَصْلُ السَّابِعُ عَشَرَ

ناتاشا وآندريه

جاء بوريس بعد آندريه يراقص ناتاشا واعقبه المساعد المرافق الذي افتتح الرقص ثم شبان آخرون اخذوا يتوافدون حتى ان ناتاشا لوفرة طالبيها ، اتحفت سونيا بعدد كبير منهم . لم تتوقف عن الرقص طيلة تلك الليلة وهي مشرقة الوجه ارجوانية الوجه ، غير عابئة بما يستوقف الاهتمام العام ولا مصغية الى البحوث المتداولة . لذلك لم تلاحظ دخول الامبراطور في حديث طويل مع سفير فرانسا ومخاطبته هذه السيدة بأيناس خاص ، ولم تنتبه الى ان هذا الأمير او ذاك عمل او قال كذا وكذا وان هيلين احرزت نجاحاً كبيراً وان شخصية كبيرة مرموقة تفضلت بتوليتها عناية خاصة . بل انها لم تر الامبراطور ولم تشعر بمغادرته الحفل الا بانتعاش الحركة العامة اثر مغادرته القاعة . رقص الأمير آندرية معها احدى تلك الرقصات المرحة التي سبقت العشاء . ذكرها بلقائهما الاول في ممشى حديقة اوتراد نواي ، بتلك الليلة القمراء التي لم يطرق النوم جفونها خلالها وبالحديث الذي بلغ مسامعه عفواً ساعة ان كان قرب النافذة . تخضبت وجنتاها لتلك الذكرى وحاولت ايجاد العذر لنفسها وكأنها خجلت للاحساسات التي اطلع عليها الأمير عفواً وهي تفثأ بركانها .

كان الأمير ـ ككل الذين نشأوا في المجتمعات الراقية ـ يحب لقاء اشخاص لايحملون الطابع الاجتماعي المبتذل . كذلك ناتاشا في دهشتها واستغرابها وفي وداعتها وقلة درايتها كما في اخطائها في اللغة الفرنسية . وعليه ، اخذ يعاملها برفق ورقة نادرين . جلس بجانبها يحدثها عن امور عادية جداً مغرقة في التفاهة ويعجب ببريق نظرتها المرحة وابتسامتها التي تعبر عن سرورها الداخلي اكثر مما تعبر عن منطوق اقوالها . كان يتأمل ظرفها البريء الساذج كلما راقصها او خاصرها راقص آخر . وبينما عادت ناتاشا بعد حركة تصويرية رائعة تخللت الرقصه الخفيفة البهيجة ، مبهورة الانفاس الى مكانها ، تقدم راقص جديد يطلب مخاصرتها . كادت ترفض لشعورها بالاعياء ، لكنها فجأة اتكأت على كتف مراقصها وابتسمت للأمير آندريه .

« كنت اشعر بسرور بالغ لو استرحت وجلست بقربك لأنني متعبة ، لكنك ترى كيف يبحثون عني وانني لشديدة الاغتباط . نعم ، انني سعيدة واحب كل الناس هذا المساء ، ثم اننا متفاهمين تماماً . » تلك كانت بعض ماتعبر عنه ابتسامتها الى جانب اشياء اخرى . وعندما اعادها فارسها الى مكانها ، جرت تخترق القاعة لتدعو سيدتين للقيام بالصورة الراقصة التالية .

قال آندريه في سره وهو يتابعها بعينيه دون عمد : « اذا مضت الى ابنة عمها اولاً ثم الى السيدة الاخرى ، فستكون زوجتي » وجرت ناتاشا الى ابنة عمها مباشرة . فكر آندريه : « ياللترهات التي تجول احياناً في خاطرك ! على كل حال ، ان هذه الصبية جمة اللطف والسذاجة وسلامة الطوية حتى انه لن يمضي شهر واحد الا وتكون قد أُخذت . لامثيل لها هنا حقاً . » تلك كانت اتجاهات الامير الفكرية عندما عادت ناتاشا تجلس الى جانبه بعد ان اصلحت وضع الوردة في ثوبها .

انتهت الرقصة المرحة فاقترب الكونت العجوز بثوبه الازرق من الراقصين دعا الأمير آندريه الى زيارتهم وسأل ابنته عما اذا كانت ُسرت ذلك المساء . فلم تجب ناتاشا لفورها وتركت ابتسامتها تقول : « كيف يمكن طرح مثل هذا السؤال ؟ » ثم اعترفت اخيراً :

– كما لم اُسر في حياتي !

ولاحظ الامير آندريه ان ذراعيها النحيلين قد تحركا لتطويق ابيها ثم عادا يسقطان الى جانبيها بسرعة . والحقيقة ان ناتاشا لم تشعر قط بمثل هذه البهجة . كانت تتذوق تلك اللحظة من السعادة القصوى حيث يشعر المرء انه مفعم بالطيبة والكمال ولا يؤمن بالسوء ولا بالفقر ولا بالألم .

للمرة الاولى في هذه الحفلة الراقصة ، شعر بيير بألم للمركز الرائع الذي تحتله زوجته في الوسط الراقي . لبث واقفاً قرب نافذة كيئباً ساهماً يقطع جبينه غضون طويل ، ينظر خلال نظارتيه دون ان يرى شيئاً .

وبينما كانت ناتاشا تمر بالقرب منه في طريقها الى قاعة المائدة لتناول العشاء استوقف حزنه وكآبته انتباهها . وكفت وكلها رغبة في مساعدته واملاء فؤاده بفيض السعادة التي تغمرها فقالت :

– كم يرفه المرء عن نفسه هنا يا كونت ، أليس كذلك ؟

فابتسم بيير – الذي لم يفقه شيئاً ولا شك من قولها – ابتسامة ساهمة وقال :

– نعم ، انني سعيد جداً .

فكرت ناتاشا : « كيف يمكن ان يكون المرء حزيناً ؟ وخصوصاً بيزوخوف هذا ، انه جم اللطف والعذوبة والطيبة ، كل واحد منهم يحب الآخر ، لا يخلق باحدهم اهانة الآخر وتجريحه ومن اجل ذلك كانت السعادة عامة واجبة .

الفصل الثامن عشر

نقطة التحول

لم يعلق الامير آندريه غداة اليوم التالي على حفلة الامس الا بذكرى عابرة:
« نعم ، لقد كانت حفلة لامعة جداً ... ماذا بعد ؟ ... آه نعم . روستوف الصغيرة ... فاتنة لعمري ، فيها شيء ناضر لا ادري كنهه وفيها شيء فريد يزيد في تمييزها عن نسائنا البيترسبورجيات . »

تلك كانت حدود افكاره . وما ان تناول الشاي حتى عاد الى العمل . لكنه ما شعر انه على غير ما يرام سواء أكان ذلك بسبب التعب ام الارق ، وهو شعور . كثيراً ما أحس به من قبل وجعله يتذمر من عمله . لذلك فقد سره ان اعلن عن قدوم زائر .

كان الزائر - وهو يدعى بيتسكي - عضواً في لجان مختلفة ، مواظباً على كل الحلقات ، مناصراً متحمساً لسبيرانسكي والاصلاحات ، ناقلاً اشاعات مجد في كل العاصمة ، وواحداً من اولئك الذين يسيرون في ركاب المجتمع الراقي بآرائه وافكاره وازيائه ، الامر الذي يجعله ومن على شاكلته في عداد اشد المتحمسين للافكار الحديثة . لم يكد الزائر يخلع قبعته حتى راح هارعاً نحو آندريه يتبسط معه في في موضوعات مطولة متصنعاً الاهتمام . صرح بأنه اطلع على تفاصيل عديدة

تتعلق بجلسة مجلس الدولة التي افتتحها الامبراطور نفسه هذا الصباح وتـلا فيها خطاباً رائعاً . لقد تحدث الامبراطور كما لايحسن التحدث مثله الا كل عاهل دستوري . لقد قال بكل صراحة « ان مجلس الدولة والشوخ هما « اجزاء » الدولة وان الحكومة يجب ان ترتكز « على اسس متينة » وليس على الارتجال. وقال ان النظم المالية ينبغي ان يعاد تنظيمها وكذلك الموارد العامة . » كان بيتسكي يقص هذه التفاصيل وهو يظهر كلمات معينة ويجيل حوله عينين كبيرتين. واخيراً خلص الى القول :

– نعم ، انه حدث يفتح افقاً جديداً ، اعظم وأجل افق في تاريخنا .

ولدى سماع الأمير هذه القصة عن حفلة الافتتاح التي طالما ترقبها بصبر نافذ وعلق عليها مزيداً من الاهمية ، أدهشه ان لم يشعر بأية استجابة لهذا الحديث بعد وقوعه وان يجد في ذلك امراً اكثر من تافـــه . اظهر سخرية معادلة لتعلق بيتسكي وحماسه وطافت في رأسه فكرة : « ماذا يهم بيتسكي ويهمني بل ماذا يهمنا جميعاً ان راق للامبراطور التحدث على هذا المنوال في المجلس ؟ هل يجعلنا هذا افضل مما نحسن واكثر سعادة ؟ »

وفجأة ، نزعت تلك الفكرة من رأسه كل اهتمامـه بالاصلاحات التي كانت في طريق الصدور والتنفيذ . كان عليه ان يتناول العشاء ذلك اليوم بالذات عند سبيرانسكي في « لجنة صغيرة » كما قال له مضيفه عندما دعاه . وكانت فكرة تناول الطعام في حدود عائلية وبين اصدقاء رجل كان شديد الاعجاب به ، قد فتنته اكثر مما افتتن من قبل في علاقاته الودية كلها . لكنه ها هو الآن لا يجـد دافعاً للذهاب الى ذلك الحفل .

مع ذلك فقد ولج باب المسكن الذي يملكه سبيرانسكي في « جاردان دو توريد » في الساعة المحددة . كان ذلك المسكن يمتاز بنظافة الاديرة . وجد آندريه – الذي وصل متأخراً قليلاً – في قاعة الطعام المفروشة بالواح خشبية ،

كل المدعويين الذين يؤلفون « اللجنة الصغيرة » مجتمعين فيها منذ الساعة الخامسة . ولم يكن هناك من السيدات الا ابنة الوزير ، التي كانت ذات وجـــه طويل كأبيها ، ومربيتها . وكان المدعوون ثلاثة : جرفيس ، ومانيتسكي وستوليبين سمع آندريه منذ ان دخل الردهة الخارجية صخب اصوات وضحكة مدوية نقية تشبه ضحكة الممثلين . وسمع بعضهم الذي كان صوته شبيهاً بصوت سبيرانسكي يطيل آهاته ويباعد بينها : ها ! ... ها ! ... ها ! ... بشكل لم ير عليـــه سبيرانسكي من قبل . احدثت تلك الضحكة المدويه الحادة الصادرة عن رجل الدولة وذلك الجذل الغريب تأثيراً شاذاً في نفس آندريه .

دخل الى قاعة الطعام فرآى المجتمعين منتظمين حول مائدة شراب ومقبلات مقامة بين النافذتين . وسبيرانسكي ، بشارة الوسام الرفيع فوق سترته الرسمية الشهباء ، والصدارة البيضاء نفسها وربطة العنق البيضاء العالية التي كان يضعها عند افتتاح جلسة مجلس الدولة العتيد ، جالساً قرب المائدة بوجه مشرق حبورا . وكان مانيتسكي ملتفتاً الى رب المنزل الذي كان يصغي اليه ضاحكاً سلفاً مما سيقوله ، يروي له احدوثة ، فلما دخل الامير آندريه ، عادت ضحكات عاليـة جديدة تعلو على صوت المحدث وتخنق كلماته ؛ فستوليبين انطلق يقهقه بصوت اجش وهو يمضغ قطعة من الجبن ، اما جرفيس فظل يضحك ضحكته المصفرّة وسبيرانسكي ضحكته الحادة المتقطعة . مد يده السمينة البيضاء الى آندريه دون يكف عن ضحكته وقال :

- يسعدني ان اراك يا أمير .

ثم قطع على مانيتسكي احـــدوثته بقوله : ـ لحظة ، اضاف يخاطب الأمير آندريه :

ـ ان عشاءنا مكرس للسرور ولذلك فقد اتفقنا على ان لا نتحدث في الاعمال .

ثم التفت الى المتحدث اللبق وضحك .

ازدادت دهشة آندريه لدى سماعه ضحك سبيرانسكي فراح ينظر اليه بخيبة امل حزينة . هل كان هذا سبيرانسكي فعلاً ؟ لقد تبدد كل ما كان يظنه فيه من غموض فتان وسحر ، فلم يعد يحس بشيء يربطه اليه .

استمرت الدعابات النارية تطوف بالمدعوين خلال فترة العشاء كلها . كان مانيتسكي اذا فرغ من فكاهته أو كاد ، انبرى آخر يروي فكاهة اخرى اشد منها اضحاكاً . وكانت هذه الدعابات ـ وان كانت لا تدور على الادارة بمعناها الصحيح ـ تمس الاشخاص الاداريين عن قرب ، حتى ليقال ان تفاهـــة ملاك الادارة لدى هؤلاء المجتمعين ما كان يستوجب منهم الا لوناً من الرحمة والتسامح الساخرين . قص سبيرانسكي على ضيوفه انه بينما كان يؤخذ رأي احـد كبار الموظفين المصاب بوقر في اذنيه الذي كان حاضراً في افتتاح مجلس الدولة ذلك الصباح ، اجاب هذا انه موافق على الرأي دون يدرك كنهه ، فراح جيرفيس يقص بصورة مطولة حادثة تفتيش بالغة في السخف الذي يطبعها بطابع مضحك يشمل ابطالها . اما ستوليبين ، فراح يهاجم بشدة وهو يتأتىء ، مفاسد العهد الفائت ، الامر الذي اعطى البحث صبغة جدية . سخر مانييتسكي من حماسة المتكلم الأخير وحماسه وبرز جرفيس بدعابة تليق بالمقام ، فعاد الحـــديث الى صبغته المجونية الاولى .

من الطبيعي ان يحب سبيرانسكي الترفيه عن نفسه من وطأة اعماله في حلقة من الاصدقاء . وفهم اصدقاؤه ، وهم مـدعووه ، رغبته فراحوا يسعون الى الترفيه عنه بتسليته وتسلية انفسهم بنفس الوقت . لكن ذلك الجذل بدا للامير آندريه شاقاً مغتصباً . ازعجته نبرة صوت سبيرانسكي الحادة . فقد بدت له ضحكة هذا الرجل الطويلة متكلفة احدثت جرحاً في ادق مشاعره . ولما كان وحده بينهم محتفظاً برزانته وجديته ، فقد خشي ان يعتبر متطفلاً . لكن ما من احد لاحظ انه لم يكن متهللاً مثلهم . بدا كل الموجودين في اوج الغبطة .

هم آندريه ان يتدخل مراراً في الحديث الدائر . لكنه في كل مرة كان يلاحظ ان اقواله تنبذ كما تنبذ الماء قطعة « الفلين » واخفق في مجاراتهم باسلوب حديثهم . لم يكن في تلك الدعابات شيء يتنافى مع مقام الاشخاص وقواعد الادب ، فقد كانت كلها منتقاة تـــدل على بديهة ودقة فكرية تثير الضحك . لكنها مع ذلك كانت تفتقر الى ذلك الشيء الخفي الذي يجعلها مستلمحة بهيجة ، لذلك ظلت وكأنها لم تكن .

انتهى العشاء فنهضت ابنة سبيرانسكي ومربيتها . قبل هذا ابنته وربت على خدها بيده البضة حتى ان تلك الحركة الحانية نفسها بدت لآندريه غير طبيعية .

ظل الرجال حول المـــائدة تبعاً للاصول الانجليزية ، يحتسون شراب « البورتو » وانتهى بهم الحديث الى طرق موضوع حرب اسبانيا فأيدوا جميعاً موقف نابوليون . وهناسمح الأمير آندريه لنفسه بمعارضتهم . ابتسم سبيرانسكي ولكي يدير دفة ذلك الحديث الشائك الى وجهة اخرى ، قص احدوثة خارجة عن الموضوع فعم السكون وصمت السامعون .

وبعد لحظة ، سد سبيرانسكي زجاجة الشراب وهو يقول : « ان الخمر الجيدة اليوم لا تطوف بالشوارع . » اعطى الزجاجة لخادم ونهض فاقتدى به الآخرون واتجهوا نحو البهو وهم يصخبون . حمل البريد الى سبيرانسكي غلافين اخذهما وانسحب الى مكتبه . وما ان خرج حتى تبدل الصخب بالجد واخذ المدعوون يتداولون الحديث بصوت خافت حول موضوعات جدية تماماً . بيد ان سبيرانسكي عاد بعد حين وقال :

والآن لننتقل الى الاحاديث المفخمة !

واشار الى مانيتسكي وقال يخاطب الأمير :

– ان له باعاً طويلة في هذا المضمار .

اتخذ مانيتسكي لفوره وضعية مناسبة وراح ينشد مقطوعة شعرية هزلية باللغة الفرنسية نظمها حول عدد من الشخصيات اللامعة في بيترسبورج . فقطع

مراراً بالتصفيق . فلما انتهى ، تقدم الأمير من سبيرانسكي مستأذناً .سأله هذا:

- الى اين تذهب في مثل هذه الساعة المبكره ؟

- لقد ارتبطت بموعد لقضاء السهرة .

لم يتبادلا كلمة اخرى . نظر آندريه عن قرب الى تينك العينين الملساوين الشبيهتين بالمرآة اللتين لا تسمحان بالتعمق الى ماورائها ، فخيل اليه انه من الغرابة والسخف ان يكون قد استملح الاصغاء الى أي موضوع صادر عن هذا الرجل كما شعر بغباء المجهود الذي يبذله بدافع منه كيف يمكن النظر بعين الجد الى ما كان يعمله سبيرانسكي ؟ ظلت تلك الضحكة المتقطعة الخالية من الانشراح تلاحقه ردحاً طويلا بعد ان انسحب من مجلس الوزير .

اعاد النظر فور عودته الى منزله بكل الحياة الجديدة التي بدأها في بيترسبورج وكأنه سيشرع فيها لاول مرة . تذكر تصرفاته خلال الشهور الاربعة الاخيرة وملتمساته وكل قصة مشروع النظام العسكري الذي وضعه والذي ُقبل للتدقيق وانتهى بة الامر الى احاطته بسياج كثيف من الصمت لمجرد ان مشروعا آخر لايمكن ان يداني مشروعه في حال ، قُدم الى الامبراطور . تذكر جلسات اللجنة التي عين بييرج عضوا فيها ، تلك الجلسات التي كان المجتمعون فيها يتحاشون بكل عناية البحث في جوهر الموضوع بينما يتناقشون في الشكل الواجب اضفاؤه على الضبوط تذكر اعماله التشريعية وترجماته الامينة عن القانون الوروماني وقانون نابليون ، فاستبد به الخجل لدى تفكيره في كل هذه الامور . ثم عاد يتصور نفسه في بوجوتشاروفو ، ويتذكر مشاغله في الريف وسفره الى ريازان وفلاحيه وما يتعلق بهم وكيف اخذ يعمل على تطبيق مبادىء قانون الانسان عليهم ، ذلك القانون الذي وضعه بنفسه بكل عناية . فادهشه ان رآى نفسه مكرساً وقتاً طويلا من حياته لعمل عقيم من هذا النوع .

فجر بولكونسكي

مضي الامير غداة اليوم التالي يقوم بزيارة لآل روستوف بين عـديد من الاشخاص الذين يدين لهم برد زياراتهم . ولقد جدد آل روستوف معرفتهم به منذ ليلة الحفلة الراقصة ، فكان من دواعي اللياقة ان يرد لهم زيارتهم . لكن تصرفه ذاك لم يكن مستوحي من روح القواعد المرعية فحسب بل من رغبته في رؤية تلك الصبية الساذجة المندفعة التي خلقت في نفسه شعوراً دقيقاً مرهفاً.

كانت ناتاشا إحدى أوليات المستقبلات. بدت له في ثوبهـا المنزلي الازرق اكثر جمالاً مما كانت عليها وهي في زينتها الرسمية . استقبلت ناتاشا وكل آل روستوف بولكونسكي استقبال الصديق القديم ببساطة قلبية ودية . شعر ان تلك الاسرة التي قسا عليها بحكمه من قبل ، مؤلفة من اشخاص ممتازين بسطاء وطيبين . لم يستطع الصمود ازاء معاملة الكونت العجوز المضياف التي تختلف كل الاختلاف عن النهج الاحتفالي المعمول به في بيترسبورج ، فقبل دعوتـه لتناول طعام العشاء على مائدته . قال يحدث نفسه : « نعم ، انهم اناس بواسل جداً لا يلقون بالاً مطلقاً الى الكنز الذي يمتلكونه مجسداً في شخص ناتاشا . ثم انهم يقومون بدور الدافع ـ غير عامـدين ـ لاظهار تلك الفتاة الرائعة المليئة بالشاعريه المفعمه بالحياة .

كان يشعر حيال هـذه المخلوقة الشابة انه امام عالم مجهول خـاص ، مليء بالمسرات غير المنتظرة ، ذلك العالم الذي ازعجه كثيراً من قبل في ممشى حديقة او ترادنواي وقرب نافذة الجناح الاعلى عندما كان القمر يغمر الحديقة بالضوء. لم يعد ذلك العالم غريباً عنه الآن . لقدوجد ، وهو يدخله ، مسرات جديدة .

وبعد العشاء مضت ناتاشا ـ بناء على طلبها ـ الى المعزف وشرعت تغني ، وكان بولكونسكي يصغي اليها رغم انشغاله في الحديث مع السيدات في فراغ احدى النوافذ . صمت فجأة في منتصف جملة وهو يشعر بأن الغصة تعمل في حلقه ، غصة مليئة بالدموع ، الأمر الذي كان يعتقد استحالة وقوعه من قبل . شخص بأبصاره الى المغنية وهو يحسّ باضطراب غريب وسعادة ممتزجة بالحزن. كان على استعداد لذرف دموع سخية دون ان يكون هناك اي داع للبكاء . على أي شيء يبكي ؟ على غرامه الاول ؟ على الأميرة الصغيرة ؟ على اخفاقه وتبدد اوهامه ؟ على آماله واحلامه ؟ نعم ولا . نشأت تلك الرغبة في البكاء من ايحاء جديد تجلى له في الغالب : ظهر له التناقض الهائل المروع بين ما كان يحس به من اغراق في العظمة والرحب المطلق في اعماق نفسه وبين الانسان المحدود الضيق الجسديالذي كان يملأ اهـــابه والذي هي عليه كذلك . هذا ما كان يبعث عذابه وسروره معاً خلال الفترة التي غنت فيها ناتاشا .

جاءت ، بعد ان فرغت ، تسأله عما اذا كان صوتهـــا قد اعجبه . لكنها ما كادت تطرح السؤال، حتى ادركت انها اساءت التصرف فارتعدت . ابتسم لها وقال ان غناءها قد اعجبه كما يعجبه كل ماتعمله .

عاد الامير متأخراً جداً الى مسكنه فاستلقى على فراشه بحركة آلية . لكنه تبين بعد حين عبث محاولته النوم تلك الليلة . اضاء شمعة واخذ ينهض ثم يعود الى الاستلقاء دون ان يلعن ذلك الأرق الذي استبد به لشدة ما كان يحسّ به من فيض الاحساسات الجديدة الذي كان يحمله معه . خيل اليه انه

كمن كان في غرفة مغلقة ثم خرج منها فجأة يستنشق الهـواء الطلق ملء رئتيه. لم تراوده فكرة امكان وقوعه في غرام ناتاشا ولم تخطر له على بال . لم يكن يفكر فيها، لكنها كانت ابداً امام عينيه ، وبنتيجه ذلك كان يحس ان كل وجودها يطل عليه ويلهمه نهاراً جديداً .

حدث نفسه : « لماذا ازعج نفسي بهذا المقدار في اطـــار ضيق مغلق بينما الحياة ، كل الحياة ، بمباهجها وافراحها تتفتح امامي ? » ولأول مرة منذ زمن طويل ، شرع يبني آمالاً جميلة لمستقبله . قرر تسليم تثقيف ولده نيكولا الى احد المربين بينما يقدم ـ هو ـ استقالته ويسافر الى انجلترا وسويسرا وايطاليا. فكر في نفسه : « يجب ان افيد من حريتي خلال الفترة التي أحسّ فيهـا انني على حظ وافر من القوة والشباب . ان بيير على حق في قوله : انـه لكي نكون سعداء يجب ان نؤمن في امكانية السعادة . والآن اراني مؤمناً . فلندع الاموات اذن يدفنون الاموات ، اذ يجب ان نحيا وان نكون سعداء طالما نحن على قيد الحياة » .

* * *

الفصل العشرون

حفلة بيرج

ذات صباح ، دخل الزعيم آدولف بيرج ، الذي كان بيير يعرفه كما يعرف كل اهالي موسكو وبيترسبورج ، على بيير في ثوب جديد انيق مضمخ الشعر مسدله على صدغيه على غرار الامبراطور الكسندر . قال له وهو يبتسم :

ـ انني خارج من لدن الكونتيس زوجتك وانا شديدالأسف اذا لم اجب الى ملتمسي . فآمل ان اكون اكثر حظاً معك ياكونت .

ـ ماذا ترغب يا « كولونيل » ؟ انني رهن اوامرك .

قال بيرج وهو واثق سلفاً من ان طلبه لن يقابل بارتياح بالغ :

ـ لقد فرغت من اقامة بيت جديد لي ياكونت . لذلك فقد قررت ان احيي حفلة صغيرة لاصدقائي ومعارفي واصدقاء زوجتي ـ وابتسم هنا ابتسامة اكثر ملاحة ـ وكنت ارغب في التقدم الى الكونتيس برجاء لتتفضل بتشريفنا بحضورها لتناول قدح من الشاي يعقبه عشاء متواضع .

كانت الكونتيس هيلين فاسّيلييفنا وحدها ـ وهي التي تقدر ان احتكاكها بآل بيرج أولاء يحط من قيمتها ـ قادرة على اظهار مثل هذه القسوة لرفض طلب من هذا النوع . اوضح بيرج بلباقة زائدة سبب اقامة هذه الوليمة وجمع

هذا العدد من كرام الناس وصفوتهم في بيته ،وسبب شعوره بالسعادة عند استقباله هذا الحفل الكريم ، واخيراً سبب قيامه ببعض التضحيات ـ التي قد يأسف عليها ـ لتوفير الترفيه بالورق وغير ذلك من التسليات الاخرى لضيوفه. وبالخلاصة ، ظل يلح على بيير ويقنعه حتى لم يجد هذا مانعاً من قبول دعوته فوعده بالحضور .

قال بيرج :

ـ لكنني ارجوك ان لاتتأخر ياكونت ، اتوسل اليك . ليكن حضورك في الثامنة الا عشر دقائق اذا تفضلت . سوف نلعب الورق وسيكون قائدنا « الجنرال » هناك . انه يظهر حيالي عطفاً سامياً ياكونت . ولسوف نتعشى بعدئذ . موافق ،أليس كذلك ؟

وصل بيير ، خلافا للمألوف عادته بالوصول متأخراً ابداً ، في الثامنة الا ربعاً الى منزل آل بيرج ذلك المساء بدلاً من الثامنة الا عشر دقائق .

كان آل بيرج قد انهوا استعداداتهم ووقفوا « تحت السلاح » استعداداً لاستقبال ضيوفهم . انتظروا قدومهم في المكتب الجديد المشع الانيق المزين بالتماثيل الصغيرة واللوحات المؤثث برياش جديد . وكان بيرج في ثوب عسكري انيق جديد مزرر بعناية ، يشرح لزوجته ان بالمستطاع ايجاد معارف من الطبقة الراقية التي تفوقهم في سمو المركز ووفرة النفوذ ، بل ويجب توفير مثل هؤلاء المعارف لأنه ينتظر من مثلهم دائماً الخير : « هناك دائماً شيء مفيد يكسبه الانسان من مثل هؤلاء ، قدم او جناح على حد القول . خذي على سبيل المثال مركزي اعتباراً من رتبي الاولى ـ وبيرج لم يكن يحصي سني حياته العسكرية بل ترقياتها ـ لازال زملائي في مراكز تافهة ، بينما انا ، ارتقيت في الرتب حتى اصبحت على وشك بلوغ قيادة فيلق ، وحصلت على

سعادة التزوج منك ـ ونهض ليقبل يد فيرا لكنه في طريقه اليها سوّى جانب السجادة المرفوع ـ ولمن يعود الفضل في كل هـذا ؟ انه يعود في الغالب الى فن انتقاء الاصدقاء ، الامر الذي لاينفي ـ بلا شك ـ الفضيلة والدقة اللتين اتحلى بهما » .

ابتسم بيرج لقناعته بتغلبه على امرأة ضعيفة وصمت وهو يحدث نفسه بانه اذا كانت هذه الامرأة الفاتنة التي هي زوجته ضعيفة ككل الاخريات ، فانها لن تستطيع ادراك كل مايشكل عظمة كونه رجل مرموق . لكن فـيرا كانت تبتسم هي الاخرى خلال هذه الفترة لوثوقها من تفوقهـــا على زوجها الفاضل ، الرجل الممتاز بلا شك ولكن الذي يفهم الحياة فهما خاطئاً ، ككل الرجال على السواء . وكان بيرج ـ وهو الذي يحكم على النساء بحسب حكمه على زوجته ـ يعتبر النساء كلهن مخلوقات ضعيفة وسخيفة . اما فيرا ، فكانت تحكم على الرجال استناداً الى شخصية زوجها وحـــده ، فتقدر ـ لدى تعميم ملاحظاتها ـ ان الرجال كلهم يميلون الى الاعتبار انهم وحدهم يتمتعون برجاحة العقل ، بينما هم في الحقيقه لايفهمون شيئاً لأنهم متكبرون وانانيون .

نهض بيرج وطوق زوجته بحذر شديد ليتفادى افساد معطف « الدانتيلا » الصغير الذي ترتديه والذي دفع ثمنه غالياً ،وقبل شفتيها ، وقال تدفعه مجموعة من الافكار العفوية :

ـ المهم ان لانرزق اطفال بسرعة .

فأجابت فيرا :

ـ نعم ،انني لااميل الى ذلك قط . يجب أن نعيش للمجتمع .

وفي تلك اللحظة ، أعلن قدوم الكونت بيزوخوف . تبادل الزوجان إبتسامة رضى وكل منهما يعزو إلى نفسه شرف هذه الزيارة .

حدث بيوج نفسه : « هذا هو نتاج معرفة ايجاد علاقات ، هذا هو حصاد حسن التصرف ! » قالت فيرا :

– كل ما اطلبه منك هو ان لاتقاطعني عندما أكون مع المدعوين. إنني أعرف تماماً مايجب أن أقوله لكل واحد منهم .

فأجابها بيوج باسماً :

– ليس دائماً . يجب ان تثار أحاديث رجال بين الرجال .

استُقبل بيوج في البهو الجديد حيث كان الجلوس على مقاعده متعذراً دون افساد المسافات المتساوية بينها . فكان من الطبيعي جداً أن يعرض بخيلاء وتنازل ان تُبدل اوضاع المقاعد والاريكة اكراماً لهذا الضيف العزيز . لكن قلقه من جراء ذلك كان بالغ الشدة حتى أنه ترك أمر تقويض ترتيب تلك المقاعد لرغبة ضيفه نفسه . بيد أن هذا حطم من تلقاء نفسه نظام تقابل المقاعد بان سحب كرسياً وجلس عليه ، فشرع الزوجان من فورهما في تدشين سهرتهما يقاطع أحدهما الآخر وهما يحدثان ضيفهما .

قدرت فيرا بحكمتها أن سفارة فرنسا موضوع مهم مناسب جداً لاجتذاب اهتمام بيير . لذلك فقد شرعت تبني حديثها حول هذا الموضوع . أما بيرج فقدر، على العكس ، أن حديثاً خاصاً بموضوعات الرجال يتطلب الاثارة ، فقاطع زوجته ليضع على بساط البحث موضوع الحرب مع النمسا . وبعد أن أعلن عن افكار عامة في الموضوع ، اندفع دون وعي منه بلا شك ، يتحدث في الاعتبارات الشخصية حول العرض الذي قدم اليه بالمساهمة في تلك الحرب والاسباب التي بنى عليها رفضه . فلما صار الحديث الى هذا الحد ، اصبح حديثاً متقطعاً غير منسجم ، حتى أن فيرا جدفت بشدة ضد هذا التدخل من جانب العنصر «الرجالي» . ومع ذلك فقد لمس الزوجان بغبطة وارتياح ان سهرتهم ، رغم انها تقتصر في

الوقت الحاضر على ضيف واحد تسير على أحسن مايكون ، لاتختلف في شيء عن السهرات الاخرى التي يُتبادل الحديث خلالها ويحتسي المدعوون الشاي وهم الى مائدة تنيرها الشموع ، وكأنها قطرة ماء الى جانب قطرة اخرى .

وصل بوريس بعد قليل ، وهو رفيق بيرج القديم . فكان واضحاً من من تصرفه حيال الزوجين انه يتخذ ازاءهما موقف من يبسط حمايته في لون من الترفع . جاء بعده « الكولونيل » بصحبة سيدة، ثم «الجنرال» نفسه وأخيراً آل روستوف . وحينئذ فقط ، بلغت السهرة الشأو الذي تمتاز به كل السهرات الاخرى. لم يتمالك بيرج وفيرا من الأفراج عن ابتسامة راضية لدى رؤيتهما البهو يعج بالحياة وسماعهما الاحاديث المتقطعة وأصوات حفيف أثواب السيدات وسط التحيات المتبادلة . سار كل شيء في الطريق الذي تسير فيه الامور في الحفلات الاخرى، حتى أن « الجنرال » لم يختلف في تصرفه عن « الجنرالات » الآخرين : يربت بصداقة على كتف بيرج ويهنئه بسلامة ذوقه وشكل فرقة لعب الورق باسلوب خاص ينطق برفع الكلفة . جلس قرب الكونت ايليا انديفيتش معتبراً أنه الضيف الارفع مكانة بعده هو - بالطبع - . وانسجم الشيوخ مع الشيوخ والشبان مع الشبان ، وربة البيت قرب المائدة التي قامت عليها سلة فضية تحمل المعجنات المشابهة تماماً للمعجنات التي قدمت لدى آل بانين - ، وبذلك لم يعد هناك أي فارق بين هذه الحفلات والحفلات الاخرى .

★ ★ ★

الفصل الحادي والعشرون

ملاحظات بيير

اضطر بيير ، بوصفه ضيفاً مرموقاً ، الى الجلوس الى مائدة اللعب بجانب الكونت ايليا اندرييفيتش والجنرال والكولونيل . ولما كان جالساً قبالة ناتاشا ، فقد لاحظ بذهول ، ان تغييراً غريباً طرأ على الفتاة منذ ليلة الحفلة الساهرة الراقصة . كانت صامتة أقل جمالاً مما بدت حينذاك بل يمكن القول انها بدت بشعة ، لولا امارات الشرود واللامبالاة التي كانت تكسو وجهها .

حدث بيير نفسه وهو يراقبها : « ماذا بها ؟ ». كانت جالسة الى مائدة الشاي قرب شقيقتها تجيب على حديث جارها بوريس باطراف شفتيها دون ان تنظر اليه . وكان بيير - لمزيد اغتباط شريكه - قد ربح وحده خمسة اشواط واخذ يجمع اوراقه حينما تناهى الى سمعه صوت خطوات وتبادل التهاني ، فاختلس نظره الى وجه ناتاشا . تساءل : « ترى ماذا وقع لها ؟ »

كان الامير آندره منتصباً امام ناتاشا يحدثها بحنو وعناية وعيناها شاخصتين اليه ووجهها متخضب بالحمرة ، لا تكاد تضبط انفاسها المبهورة ، وقد انبعثت من شخصها كله نار مستعرة كانت اضواؤها منذ حين خابية خامدة . لقد تبدلت تماماً فلم تعد تبدو بشعة بل اصبحت في مثل الاشراق الذي كانت عليه ابان الحفلة.

جاء آندريه يحيي بيير ، فلاحظ هذا ان وجه صديقه اتخذ - هو الآخر - طابعاً جديداً وكأنه عاد الى الشباب .

ابدل بيير خلال الشوط - حسب مقتضيات اللعبة - مكانه اكثر من مرة، فكان تارة مدبراً الى ناتاشا وتارة مقبلاً اليها . فلم يكف خلال جولاته الستةعن مراقبة صديقه والفتاة الشابة .

حدث نفسه قائلاً : « هناك شيء خطير يقوم بينهما . » وانتابه شعور امتزج فيه الاسف بالسرور ، شعور حرك عواطفه لدرجة كاد معها ان ينسى اللعب .

نهض الجنرال بعد الشوط السادس معلناً استحالة اللعب في مثل هذه الشروط، فاستعاد بيير حريته . كانت ناتاشا تتحدث مع سونيا وبوريس وفيرا تجاذب الامير آندريه الكلام وعلى شفتيها ابتسامة رقيقة . التحق بيير بصديقه وجلس بقربه وهو يتساءل عما اذا لم يكن متطفلا عليهما . كانت فيرا - وهي التي لاحظت عناية الامير باختها ناتاشا ، - تعتقد ان سهرتها تلك، باعتبارها سهرة مستوفية الشروط ، صالحة للتنويه بالشؤون العاطفيه تنويهاً رقيقاً ملزماً . فانتهزت فرصة انفراد الامير بنفسه وراحت تثير معه حديثاً حول الحب بصورة عامة واختها بصورة خاصة . قدرت انه يجب عليها اللجوء الى مرونتها كلها وكياستها للتحدث مع ضيف يمتاز بالذكاء المتوقد كما كان حال الأمير آندريه .

وعندما اقترب بيير ، لاحظ ان فيرا شديدة الانفعال مسترسلة في قولها ناعمة به وان الامير ظاهر الخجل والارتباك ، الامر الذي يندر وقوعه له . كانت تقول من وراء ابتسامتها الناعمة :

- ماهو رأيك ؟ انك دقيق الملاحظة الى حد بعيد ، عظيم الادراك من النظرة الاولى لأخلاق الناس . مارأيك في ناتالي ؟ هل تستطيع ان تكون ثابتة في تعلقها ؟ هل تستطيع كالنساء الاخريات - وهمت ان تقول مثلي - ان تحب

رجلا لاتحول عن حبه وان تظل مخلصة لحبه ؟ ان هذا هو الحب الحقيقي نظري . مارأيك انت ايها الامير ؟

فاجاب الامير وهو يخفي اضطرابه وراء ابتسامة ساخرة :

– انني لاعرف اختك تمام المعرفة لكي استطيع الاجابة على سؤال دقيق كهذا .

واضاف وهو يلتفت نحو بيير الذي كان قادماً اليها :

– ثم انني لاحظت ان المرأة يزداد اخلاصها كلما نقص الاعجاب بها .

فاستأنفت فيرا تقول :

– نعم ، هذا صحيح ياامير . اما في أيامنا ... – كانت فيرا تتحدث عن أيامها كما لايحب التحدث عنها الا ذوو العقول المحدودة الذين يعتقدون انهم اكتشفوا وحدهم وقدروا مميزات وقتهم حق قدرها ويفترضون ان البيعة الانسانية تتغير بحسب الازمنة – ، اما في ايامنا ، فقد كانت الفتيات يتمتعن بحرية كبيرة متناهية حتى ان اللذة التي كن يشعرن بها اذا أحطن بالمتغزلين كانت تخنق غالباً في نفوسهن الاحساس الحقيقي . وناتالي – والحق يقال – شديدة الحساسية .

ازداد تقطيب الامير لهذا التلميح الآخر واقحام اسم ناتالي . ارادالانصراف لكن فيرا استرسلت وابتسامتها تزداد رقة وعذوبة :

– انني لااظن ان فتاة « غوزلت » مثلها . لكن ما من أحد راق في عينيها جدياً حتى الآن .

وارفت وهي تخاطب بيير :

– انك تعرف تماما ياكونت ان ابن عمنا الفتان بوريس نفسه الذي كان – والحديث بيننا – مشدوهاً ومفتوناً بها ، سادراً تائهاً في افاق الاحساس الحاني ...

لم ينطق الامير اندريه بكلمته وظل على تقطيبه وعبوسه . قالت فيرا :

ـ انك صديق بوريس أليس كذلك ؟

ـ نعم ، انني اعرفه .

ـ لاشك انه حدثك عن غرام طفولته بناتاشا ؟

فسأل الامير وقد تضرج وجهه بالحمرة فجأة :

ـ آه ! هل كان هناك غرام منذ الطفولة ؟

ـ نعم . انك تعرف ان المـودة بين ابن العم وابنه العم تقود احيانا الى الحب : ان قرابة العمومة جوار خطر كما يقولون ، أليس كذلك ؟

فقال الأمير :

ـ آه ! بلاشك .

واخذ يداعب بيير مداعبة مغتصبة موصياً اياه بان ينتبه ويأخذ حذره من ابنتي عمه الخمسينيتين اللتين تقطنان موسكو . ثم نهض وهو مسترسل في مداعبته واخذ بذراع بيير وانتحيا ركنا . قال بيير الذي ادهشته دلائل الانفعال البادية على وجه صديقه االذي لاحظ النظرة التي ارسلها هذا الى ناتاشا :

ـ حسناً ! ماذا في الجو ؟

فأجاب آندريه وهو يلمح الى القفازات التي يعطيها الاخوان الماسونيون لزملائهم الجدد ليقدمونها الى النساء اللاتي يحبونهن :

ـ يجب ان احدثك . انك تعرف قفازاتنا النسائية ... حسناً ... كلا ، سأحدثك بالامر مستقلاً .

ومضى يجلس قرب ناتاشا في عينيه لهيب غريب وفي حركاته انفعال . وآه بيير يطلب الى الفتاة شيئاً اجابته عليه مضرجـة الوجه . لكن بيرج جاء في تلك اللحظة يرجو بيير ان يشترك في النقاش الذي يشترك فيه الجنرال والكولونيل حول مشاكل اسبانيا .

كان بيروج مرتاحاً منشرح النفس تضيء وجهه ابتسامة راضية . لقد نجحت سهرته وشابهتا في كل النقاط السهرات التي شهدها من قبل : احاديث نسائية رقيقة ، شوط من الورق مع جنرال مرتفع الصوت ، سماور ، حلويات ، كل شيء تام باستثناء ملاحظه واحدة كان بيروج يحلها محل الاعتبار في تقديره للسهرات المثالية : حديث صاخب بين الرجال ونقاش حاد حول موضوع خطير عظيم الاهمية ولكن الجنرال تفضل باثارة مثل هذا النقاش الذي هرع بيروج يجتذب بيير ليساهم فيه .



الفَصْلُ الثّاني وَالعُشْرُون

الحب الجامح

استجاب الامير آندريه لدعوة الكونت ايليا آندرييفيتش فمضى غداة اليوم التالي لتناول طعام الغداء على مائدته ، فأمضى عنده سحابة النهار .

حدس كل من آل روستوف ماحدث بين الامير وناتاشا . ذلك انه لم يكف عن مغازلة ناتاشا بشكل مكشوف ، بينما كانت ناتاشا سعيدة ومروعة معاً ، شأن افراد الاسرة كلهم لما اعتراهم من قلق يسبق اللحظات الحاسمة الجليلة . كانت الكونتيس ، عندما تتحدث مع ابنتها ، تصوب نحو الامير نظرات جدية حزينة لكنها لا تكاد تعود بانظارها اليها حتى يختفي القلق من عينيها بين طيات مواضيع تافهة . وسونيا ما كانت تجرأ على الابتعاد عن ناتاشا ، فكان وجهها يشحب من الرهبة والترقب كلما وجدت نفسها منفردة لفترة قصيرة مع الامير آندريه الذي اخذ يبلبل افكارها بخجله واحجامه . كانت تحس بانه يريد الافضاء اليها بشيء لكنه لا يحزم امره على الافضاء به .

وعندما غادر منزل آل روستوف مساءً ، جاءت الكونتيس الى ناتاشا وقالت لها بصوت خافت :

ـ حسناً ، ماذا ؟

اجابتها :

ــ اماه ، اتوسل اليك ان لاتسأليني شيئاً في هــذه اللحظة . ان هــذه الامور لاتقال .

مع ذلك ، فقد لبثت ناتاشا طيلة تلك الليلة فريسة للانفعال والحوار المتداولين مستلقية على سرير امها شاخصة البصر . روت لها أنه اطراها وامتدحها وانــه اطلعها على رغبته في السفر الى الخارج وسألها عن المكان الذي يقضي ذووها فيه فصل الصيف واخيراً ، انه حدثها مرة اخرى عن بوريس . ثم اعترفت قائلة :

ــ لكنني لم احس من قبل ابداً ابداً بمثل هــذا الاحساس . انني اشعر بحضرته بالخوف ، دائمــاً الخوف . ما معني هذا ؟ ان معنى هذا انه جد لاهزار أليس كذلك ؟ اماه ، هل انت نائمة ؟

ــ كلا يا عزيزتي . انني انا الاخرى خائفة . اذهبي ونامي .

قالت وقد استنفرها اكتشافها شعوراً جديداً في نفسها :

ــ على كل حال ، لن أنام . أنام ؟ كم هو سخيف النوم ! اماه ، يا امي الصغيرة ، انني لم اشعر من قبل قط بمثل هــذا الاحساس . ما كنا نفكر في مثل ذلك ! ...

اعتقدت ناتاشا انها افتتنت بآندريه منذ لقاءهما الاول في اوترادناي . وعلى ذلك فان الرجل الذي فكرت فيه منذ تلك اللحظة ، ــ وكانت مقتنعة تماماً بهذا الايمان ــ عاد الآن يقتحم طريقها دون ان يكون هــذه المرة مستخفاً بشأنها ! كانت تروعها تلك السعادة الغريبة غير المنتظرة .

ــ وكان عليه بلاشك ان يكون في بيترسبورج في الوقت الذي حللنا فيها به وان نتقابل في الحفلة الراقصة . ان كل هذا من عمل القدر . نعم انه واضح ان الامر كان يجب ان يكون على هذا الشكل . ثم انني ما كدت المحه حتى شعرت بشيء خاص يمتلج في نفسي .

سألتها امها وهى ساهمة ، عن الاشعار التي كتبتها في مذكرتها .

– ماذا قال لك كذلك ؟ ما هى هذه الابيات ؟ اقرأيها علي لارى ...

– اماه ، هل الزواج من ادمل امر سيء ؟

– اصمتي ياناتاشا . صلي لربك الكريم . ان الزواج يعقد في السماوات .

هتفت ناتاشا وهي تذرف دموع السعادة والاضطراب :

– اماه العزيزة ، كم احبك . كم انا سعيدة !

وارتمت على عنق امها .

وفي نفس الوقت ، كان آندرية يشرح لبيير في منزله غرامه بناتاشا وعزمه الاكيد على الزواج منها .

كانت الكونتيس هيلين فاسّيليفنا تقيم ذلك النهار وليمة عندها لكبار الشخصيات وعلى رأسهم سفير فرنسا الذي اصبح سعادته من المواظبين على دخول البيت . واجتمع نفر من ارفع نساء المجتمع والشخصيات المرموقة . قام بيير بجولة في الابهاء فلاحظ المدعوون جميعاً انه ساهم منكمش محنق مكتئب .

احس منذ ليلة الحفلة الراقصة بنوبة من السويداء تقترب منه فراح يعمل جاهداً بيأس لردها ، عين منذ ان ارتبطت زوجته بعلاقات من سعادته ، مرافقاً في البلاط على غير انتظار . ومنذ ذلك الحين وهو يشعر في المجتمعات شعور الارتباك والخجل . وعادت آراؤه القديمة حول نزوات البشر وتفاهة الاشياء الدنيوية تحاصره من جديد . اضف إلى ذلك ان العلاقه الودية التي رآها تقوى بين محميته ناتاشا وبين الامير اندريه ، والمقارنة بين موقف صديقه وموقفه هو نفسه ، كل هذه الاشياء ساعدت على تعكير صفوه ومزاجه . راح يطرد كل فكرة تتعلق بزوجته بمثل العنف الذي يطرد به كل مـايتعلق بناتاشا والأمير من اراء . ومن جديد ، خيل اليه ان كل شيء تافه لاشأن له اذا قيس بازلية

الله ، ومن جديد عاديتساءل : (ماالفائدة ؟) وبسبب ذلك ، أخذ يغرق نفسه ليلا نهاراً بالعمل في الشؤون الماسونية آمــلا بذلك التغلب على الافكار السيئة .

غادر اجنحة الكونتيس حوالي منتصف الليل وانسحب الى الدور الاول ، الى غرفة منخفضة مسودة بالدخان ، فجلس الى منضدة العمل مرتدياً ثوباً منزلياً قديماً وراح ينسخ المواد الشرعية للمحافل الايكوسية عندما دخل عليه بعضهم . كان الأمير اندريه هو الداخل . قال وهو سالم الفكر سؤوم :

– آه ! هذا أنت .

ثم أردف بلهجة أولئــك التعساء الذين يبحثون في العمل عن السلوان ونسيان الامهم .

– إنني أشتغل كما ترى . وهاهو دفتري .

ابتسم له الأمير آندريه بانانية السعداء دون أن يلتفت الى حزن صديقه وقال ووجهه مشرق بالسرور كأنه أنقلب خلقاً جديداً :

– نعم ياعزيزي ، هاأنذا . كنت أريـد التحدث اليك بامر بالامس . ومن أجل ذلك جئت انني لم أشعر قط بمثل هذا الشعور . إنني عاشق ياصديقي .

اطلق بيير فجأة زفرة عميقة وانهـــار متثاقلا على الاريكة بجانب اندريه وقال :

– ناتاشا روسوف اليس كذلك ؟

– نعم ، نعم . ومن سواها اذا لم تكن هي ؟ انني ما كنت لاصدق ذلك ابداً . لكن هذا الحب اقوى مني . بالامس تألمت كما يتألم المتعذبون الشهداء . مع ذلك فقد بدا لي ذلك العذاب أثمن من كل ما في الوجود . انني ما كنت على قيد الحياة من قبل . انني ولدت الآن وبدأت أعيش الآن ، ولن استطيع

الحياة بدونها . ولكن هل تستطيع ان تحبنى ? انني عجوز بالنسبة اليها ...
تكلم . انك صامت !

فقال بيير الذي نهض فجأة وراح يذرع الغرفة :

ـ انا ، انا ? وماذا تريد مني ان اقول ? لقد فكرت دائماً في هذا ...
ان هذه الفتاة كنز حقيقي ... نعم كنز ، كنز ، عصفور نادر ... يا صديقي العزيز ، اتوسل اليك ان لا تتردد ولا تناقش . تزوج وتزوج وتزوج ... ستكون اسعد الرجال وانا واثق من ذلك .

ـ ولكن هي ?

ـ انها تحبك !

اعقب آندريه وهو يبتسم ويغرق نظره في عيني بيير :

ـ لا تنطق بالغباء ...

هتف بيير نافذ الصبر :

ـ انها تحبك ، وانا اعرف ذلك .

عند ئذ قال آندريه وهو يمسك بذراعه :

ـ اذن ، اصغ الي . هل تعرف في أية حالة معنوية أجد نفسي ? يجب ان
ان افضي بمكنونات صدري لأحد .

أجاب بيير الذي اشرق وجهه :

ـ حسناً ، تكلم . ان ذلك يسعدني كل السعادة .

زال الخط العرضي الذي يشوه جبهته وراح يصغي الى آندريه وهو يبتسم . كان هذا قد اصبح بالفعل ذلك الرجل الجديد الذي بدت على وجهه آيات الابتهاج والشباب . أين ذهبت مرارته وانفعاله لشؤون الحياة واحتقاره لها ? كان بيير المخلوق الوحيد الذي وجد آندريه ان بالمستطاع التنفيس عما في خاطره امامه . فراح يضع حيناً مخططات بسيطة وجريئة لمستقبله الطويل قائلاً انه لا يستطيع

تكريس حياته لنزوة ابيه وان هذا اذا رفض مشروع الزواج فانه سيستغني عن موافقته . وحيناً آخر يظهر دهشته البالغة لهذه العاطفة التي استبدت به كما يستغرب المرء امراً شاذاً لاهمية له عليه . واخيراً قال مختتماً مناجاته :

– لو قال لي احدهم انني ساحب يوماً بهذا الشكل لما صدقته . ليس هـذا الاحساس هو ماشعرت به من قبل . ان العالم الآن ينقسم امامين الى شطرين : الاول ، حيث يكون كل شيء مغمم بالسعادةوالامل والضياء . والثاني،حيث لايكون شيء الا الظلمات واليأس .

كرر بيير :

– ظلمات ويأس . نعم ، نعم ، انني أفهم هذا .

- لاأستطيع الا ان احب النور . ان هذا اقوى من طاقتي . وانا سعيد جداً . هل تفهمني ؟ انني اعرف انك تبتهج من أجلي .

فقال بيير مؤيداً وهو يحيط صديقه بنظرة ودودة لاتخلو من تطير :

– نعم ، نعم .

كان كلما لاح له مصير الأمير مشعاً مضيئاً ، اتخـذ مصيره في عينيه طابعاً اكثر ظلمة واكفهراراً .

* * *

الفصل الثالث والعشرون

الخطوبة

لما كان الأمير آندريه لايستطيع الزواج دون موافقة ابيه ، فقد سفر منذ صباح اليوم التالي في طريقه اليه .

استقبل الأمير العجوز بيان ولده بهدوء ظاهري وغضب عاصف في داخله . ما كان يستطيع تقبل فكرة تبريل بعضهم لنمط حياته بادخال عامل جديد عليها بينما انتهت ايامه هو وانصرمت . كان يحدث نفسه : « ليتركوني على الاقل انهي أيامي على هواي ، وليفعلوا من بعدي ما يحلو لهم . » مع ذلك فقد عمد الى المرونة مع ابنه ، مرونة ايامه الحوالي . درس الموضوع ببرود من كل وجوهه .

اولاً ، ان كل شيء في هـذا الموضوع : ـ المولد ، الثروه ، النسب ـ كله سيء . ثم آندريه كان متقدماً في السن ضعيف الصحة ـ وقد الح العجوز على هـذه الناحيـة بصورة خاصة ـ ، بينما الفتـــاة بنية في مقتبل العمر . ثالثاً ، ان لآندريه ابناً وكان امر العهدة به الى ايدي بنية يستدر الشفقة حقاً رابعاً ـ ونظر الأمير العجوز الى ولده وهـو مستغرق في تفكيره وشرحه ، نظرة هازئة ـ اليك رغبتي : « أجل زواجك عاماً واحداً وسافر الى الخارج .

اعتن بصحتك هناك وابحث عن مربٍ فاضل للأمير نيكولا . فاذا لم يتبدل غرامك او شهوتك او ولعك - سمه بما شئت - خلال هذه الفترة بل ظل على كبره وعنفه ، تزوج . ان هذه هي كلمتي الأخيرة ، اعلم ذلك ، كلمتي الاخيرة ... »

كانت لهجه الاب وهو ينطق بقراره هذا تدل على أن أي حافز في الوجود لن يغير رأيه ابداً .

كان العجوز ولا شك يأمل ان تضعف عواطف آندريه خلال هذه المدة او ان تتبدد رغبة مخطوبته خلال هذه السنة وهي التي قد لاتقاوم هذا الاختبار . اما اذا لم يطرأ تبديل عليها ، فانه هو قد يموت خلال هذه الفترة . فهم آندريه مقصد ابيه وقرر ان يمتثل لرغبته . فاعتزم طلب يد ناتاشا شريطة تأجيل الزواج عاماً كاملا .

ومرت اسابيع ثلاث منذ زيارة آندريه الاخيرة لآل روستوف قبل ان يعود الى بيتر سبورج .

انتظرت ناتاشا قدوم آندريه غداه اليوم التالي لاعترافاتها لامها . ولكن ذهب انتظارها عبثاً . كذلك كان شأنها في الغد واليوم الذي تلاه . ولما ظل محتجباً كذلك ، فان ناتاشا ظلت جاهلة بامر سفر اندريه . لذلك ما كانت تجد تفسيراً لغيبته .

مرت ثلاثة اسابيع على هذا النحو وناتاشا ترفض الخروج من البيت ، تتيه كالطيف من حجرة الى حجرة خائرة القوى عازفة عن المشاغل . فاذا ماحل المساء ، بكت السر وانقطعت عن زياراتها الليلية لأمها ، اصبحت تنفعل وتثور لأتفه الأشياء وتتصور أن كل الناس على علم باخفاقها يسخرون منها او يرثون لحالها . وتلك الطعنة في كبريائها كانت تزيد مقدار يأسها .

ذهبت ذات يوم الى امها بغية التحدث معهـــا . لكنها انخرطت فجأة في بـكاء مرير . كانت تلك احزان طفلة عوقبت فماعادت تدري ماذا يؤخذعليها، وراحت الكونتيس تواسيها . فأصغت ناتاشا بادىء الامر الى اقوال امها ثم قاطعتهافجأة لتقول :

– كفي عن الحديث حول هذا الموضوع ياأماه . انني ماعدت أفكر فيه ولا أريد العودة الى التفكير ! ثم ان كل شيء على غاية من البساطة : انه كان يزورنا ثم كف عن زيارتنا ، نعم كف ...

وارتعد صوتها وعادت العبرات تخنقه . لكنها تماسكت واردفت هادئة :

– على كل حال ، لااريد ان اتزوج . ثم انه يخيفني . انني الآن هادئة تماماً تماماً .

وفي اليوم التالي ارتدت ناتاشا ثوبا قديمـاً كان من خصائصه ان يبسط مزاجها ، وشرعت منذ الصباح في حيـــاتها المؤلوفة التي اهلتها منذ ليلة الحفلة الراقصة . شربت الشاي ومضت الى البهو الكبير الذي كان يعجبها بصورة خاصة بسبب الشروط الصوتية المتوفرة فيـه وتمرنت على العزف فترة . فلما انتهت من الدرس الاول وقفت في منتصف القـاعة لتكرر مقطعاً حائزاً على اعجابها اكثر من سواه . راحت تحس بلذة جديدة في الاصغاء الى تلك الالحان المصطفاة التي تملأ فراغ القاعة لتتبدد لا شعوريا . وفجأة شعرت بمرح غامر . قالت : « مافائدة التفكير في كل هذه الامور ؟ أليست الحياة هنيئة على هذا المنوال ؟ » شرعت تتنزه في طول البهو وعرضه ليس بخطاها الطبيعية بل متكئة بادىء الامر على كعبها ثم رأس قدمهـــا . وكانت تلبس في قدميها الحذائين الجديدين اللذين كانت تفضلها على الاحذية الاخرى . احـدث في نفسها وقع الكعب المنتظم المتبوع بصرير مقدمة القدم بهجة تمـاثل في شدتها النشوة التي غمرتها عندما اصغت منذ حين الى صوتها . مرت بمرآة كبيرة فألقت عليها نظرة

رأت وجهها وكأنه يقول : « اي نعم ، هاأنذا ! ان هذا ممتاز كما هو ولست في الى احد » .

جاء خادم يعيد الى القاعة بعض الترتيب فصرفته ممانعة واستمرت في نزهتها رجعت ذلك الصباح الى حب نفسها والاعجاب بشخصها وهما العاملان اللذان يشكلان حالتها النفسية المعتادة . قالت وهي تتحدث عن نفسها بصيغة الغائب وكأن المتحدث جمعٌ من الذكور « ياللفتنة التي في ناتاشا ! انها صبية وجميلة ولها صوت عذب ، لاتزعج احداً فدعوها اذن بسلام ! » لكنها وان تركت بسلام ما كنت تستطيع استعادة هدوئها . وهاهي ذي قد مرت بالتجربة .

فُتح باب المدخل عند اقصى الدهليز وارتفع صوت يسأل عما اذا كانت الكونتيس تسمح بمقابلتها ثم ارتفعت اصوات الخطى المقتربة . ألقت ناتاشا من جديد نظرة الى المرآة لكنها لم تر فيها شيئاً بادىء الامر . احتكرت الخطوات الآتيه من الدهليز كل اهتمامها . وعندما استطاعت تبيان صورتها في المرآة ، أذهلها شحوبها . كان « هو » القادم . انها واثقة تماماً رغم ان صوته لم ينتاه الى سمعها واضحاً من وراء الباب المغلق .

امتقع وجهها فجرت دون وعي نحو البهو وهتفت :

ـ اماه ، ان بولكونسكي هنا ! انه امر مريع ياأماه يتجاوز حد طاقتي وقواي ! لااريد هذا العذاب ! ما العمل ؟ ..

لم تجد الكونتيس متسعاً من الوقت للاجابة عندما دخل الامير اندريه وعلى وجهه امارات القلق والخطورة وما ان لمح ناتاشا حتى اشرق وجهه . قبل يدي السيدتين وجلس .

شرعت الكونتيس تقول :

ـ لقد مضى زمن طويل لم نحظ فيه ...

لكن الامير لم يدع لها الفرصة لاتمام قولهـــا بل قال متعجلا الوصول الى غاياته :

- انني لم احضر لزيارتكم خلال الفترة الاخيرة لأنني كنت ابحث مع ابي موضوعاً على جانب كبير من الخطورة ، فلم أصل إلا أمس مساء .

والقى نظرة الى ناتاشا واسترسل بعد فترة صمت :

- انني اريد التحدث اليك يا كونتيس .

زفرت الكونتيس وغضت طرفها وقالت :

- انني مصغية اليك .

فهمت ناتاشا ان عليها ان تنسحب . لكنهـــا ما كانت تحرم امرها : شعرت ان شيئاً يضغط على حنجرتها فراحت تتطلع الى وجه الامير بعينيها الكبيرتين المتسعتين دون ان تحسب حسابا لتقاليد اللباقة المرعية . اخذت تحدث نفسها : « كيف ، سيقرر كل شيء !... وفي لحظة ؟... كلا ، ان هذا غير معقول !... »

عاد ينظر اليها من جديد فأقنعتها تلك النظرة بانها لم تكن مخطئة قط . نعم ، سوف يتقرر مصيرها في لحظة واحدة . قالت الكونتيس بصوت منخفض .

- اذهبي ياناتاشا . سوف استدعيك .

فألقت عليهما معاً نظرة مروعة متوسلة وخرجت .

قال الأمير آندريه :

- لقد جئت ياكونتيس اطلب يد ابنتك .

اصطبغ وجه الكونتيس بحمرة قانيــة وظلت فترة لاتستطيع الجواب . وأخيراً شرعت تقول بلهجة خطيرة بينما كان ينظر في عينيها :

- ان عرضك ...

واضطرب صوتها فكرت :

– ان عرضك مقبول ...و .. وانني اتقبله بسرور .. وزوجي كذلك.. على ما اتأمل ... لكنه امر منوط بها ...

قال آندريه :

– سوف اتحدث اليها بالامر عندما احصل على موافقتك. هل تمنحيني موافقتك؟

قالت وهي تمد له يدها :

– نعم .

ثم ضغطت شفتيها على جبين الامير الذي انحنى على يدها بقبلة جمعت شعوراً من الحنان والنفور . كانت تريد من صميم نفسها ان تحبه كإبنها . لكنها كانت تشعر بأنه غريب وانه يخيفها . استرسلت تقول :

– انني لااشك في موافقة زوجي ولكن ماذا بشأن أبيك ...

– لقد اطلعت أبي على نواياي فوافق شريطه الاّ يتم الزواج الا بعد عام . ولقد أردت اطلاعك على هذا الامر ايضا .

– صحيح ان ناتاشا لازالت صغيرة . لكن مثل هذه الفترة الطويلة ...

قال آندريه وهو يزفر :

– ما استطعت اقناعه بالعدل عن قراره .

قالت الكونتيس وهي تخرج من البهو :

– سوف أرسلها اليك .

وبينما هي تبحث عن ابنتها ظلت تكرر :

– رباه اشفق علينا !

قالت لها سونيا ان ناتاشا في غرفه نومها فمضت اليها الكونتيس لتجدها جالسة فوق سريرها شاحبة الوجه شاخصة بعينين جافتين الى الصور المقدسة ترسم

إشارة الصليب على صدرها بحركة محمومة وتدمدم بكلمات خافته . فلما وقع بصرها على امها قفزت من فوق السرير وهرعت للقائها :

ـ حسناً يا أماه ؟ ... ماذا ؟

قالت الكونتيس بلهجة لمست فيها ابنتها طابع البرود :

ـ اذهبي ، اذهبي ، انه ينتظرك . لقد طلب يدك .

ولما رأت ابنتها تجري مسرعة كررت تشيعها بنبرة حزينة لائمة :

ـ اذهبي ، اذهبي .

واطلقت زفرة عميقة .

لم تستطع ناتاشا بعدئذ ان تتذكر كيف ولجت البهو . توقفت على العتبة عندما وقع بصرها عليه وتساءلت: «هل يعقل أن يكون هذا الغريب قد أصبح لي بكليته ؟ » لتجيب نفسها بنفسها : « نعم ، بكليته . انه في الواقع أعز عندي من كل شيء في الوجود . »

اقترب منها آندريه خافض العينين ، وقال :

ـ لقد احببتك منذ ان رأيتك اول مرة . فهل لي ان آمل ؟

ورفع عينيه اليها فأذهله ما انطبع به وجهها من خطورة ووله . كان ذلك الوجه ينطق قائلًا : « لمَ هذا السؤال ؟ لمَ الشك في ما يستحيل تعذر فهمه ؟ لمَ الكلام بما لاتستطيع الكلمات الاعراب عما يشعر به المرء ؟ »

خطت بضع خطوات ووقفت بالقرب منه . فأخذ يدها وقبلها .

قالت ناتاشا وكأنها ترغم نفسها على القول :

ـ نعم ، نعم .

واضطرب تنفسها وانفجرت باكية .

ـ لماذا ؟ ماذا جرى لك ؟

أجابت وهي تضحك خلال دموعها :

– آه ! انني سعيدة جداً .

ومالت نحوه مترددة لحظة تتساءل ولاشك عما اذا كان يجوز لها ان تمنحه قبلة .

كان آندريه ممسكاً بيديها بين يديه ينظر الى وجهها دون ان يجد في قرارة نفسه ذلك الحب الذي احس به نحوها من قبل . واصطخبت في نفسه ثورة. لقد تبددت الشاعرية والجاذبية الغامضة التي كانت تخلق في نفسه الرغبة ، وحل محلها اشفاق على هذا الضعف الصبوي النسوي معاً وعلى ذلك الذهول الذي نجم عنه الاستسلام المطلق المشفوع بالثقة المطلقة . اخذ يشعر شعوراً يمتزج فيه السرور بالكآبة بالواجب الذي يربطه اليها رباطاً ابدياً . بدا له ذلك الشعور اقل لمعاناً وشاعرية من قبل ولكن اشد قوة واكثر جدية . استأنف اندريه وهو لايزال ينظر في عينيها :

– هل قالت لك امك ان زواجنا لايمكن ان يتم قبل عام ؟

كانت ناتاشا تفكر في سرها : « هل حقيقة اصبحت انا ، انا التي يعتبرني كل الناس بنية رعناء ، اصبحت زوجة هـذا الرجل المفرط في الذكاء والبهاء الذي يحترمه حتى أبي والذي لازال غريباً عني ؟ هل من المعقول ؟ هل صحيح ان الحياة لم تعد الآن دعابة وانني اصبحت شخصية كبيرة مسؤولة عن كل حركة من حركاتي وكل كلمة من كلماتي ؟ ولكن رباه ، ماذا يسألني ؟ »

اجابت دون ان تفهم شيئاً من السؤال :

– كلا .

قال اندريه :

– اسمحي لي ان اقول انك لازلت شابـــة في مقتبل العمر بينما عركتني تجارب الحياة . انني اخاف عليك لانك قد تكونين جاهلة نفسك .

كانت ناتاشا تصغي اليه بعناية مركزة محاولة تفهم معنى كلماتــه . بينما أردف الامير :

– مهما كان لهذه السنة التي تباعد بيني وبين سعادتي من إيلام لنفسي فإنها فترة كافية تساعدك على التحقق من مشاعرك . انني اطلب اليك ان تسعديني بعد عام . اما انت ، فاحتفظي بحريتك. سوف تبقى خطوبتنا سراً حتى اذا اقتنعت خلال هذا الوقت انك لاتحبيني او انك على العكس مصممة على حبي ...

ابتسم ابتسامة مغتصبة عندما قاطعته ناتاشا قائلة :

– لماذا نتحدث على هذا الشكل ؟ أنت تعرف انني احببتك منذ زيارتك الاولى في أوترادنواي .

وكانت لهجتها مفعمة بالثقة ونبرتها بالصدق .

– سوف تستطيعين التعرف على نفسك خلال عام .

وهنا فقط توصلت ناتاشا الى الفهم ان الزواج لن يتم قبل عام فهتفت مندهشة :

– عام كامل ! ولكن لماذا عام ؟ لمَ اذن عام ؟

شرع الامير يفسر لها اسباب هذا التأجيل لكنها لم تكن تصغي اليه . سألته .

– الا تستطيع ابدال شيء ؟

لم يجب اندريه لكنها قرات على صفحة وجهه ان القرار لايقبل النقض . وفجأة قالت ناتاشا وهي تنخرط في البكاء من جديد :

– انه مريع ، مريع ! سأموت اذا وجب أن انتظر عاماً . يستحيل ، انه مريع !

لكنها عندما رفعت عينيها الى وجـه خطيبها رأت أنه فريسة إشفاق اليم . فجففت دموعها على الفور وقالت :

– كلا ، كلا ، إنني اوافق على كل شيء ... إنني سعيدة جداً !

دخل الاب والام في تلك اللحظة ومنحا بركتها للشابين . ومنذ ذلك اليوم أخذ اندريه يزور بيت آل روستوف بوصفه من الاسرة .

الفصل الرابع والعشرون

سفر الأمير

لم تقم احتفالات رسمية بالخطوبة نظراً لالحاح الاميراندريه على ابقاء الامر طي الكتمان. كان يقول انه لما كان الموضوع خاضعاً للامهال فإنعليه أن يحتمل النتائج . ان كلمته المعطاة تربطه الى الابد . لكنه لايريد أنيربط ناتاشا بل انه يترك لها مطلق الحرية : فإذا تبينت خلال ستة أشهر انها لاتحبه ، فان لها كل الحق في رفض طلبه . ومن البديهي ان لاناتاشا ولا ذووها كانوا يوافقون على مثل هذا التصرف ، بيد انه لم يتراجع عن رأيه . كان يذهب كل يوم إلى بيت آل روستوف لكنه ما كان يعامل ناتاشا معاملة المخطوبه : ظل يخاطبها بصيغة الجمع ويكتفي بتقبيل يدها . بيد أن علاقاتها اتخذت خلال هـذه الفترة طابعاً جديداً لاتوفز فيه ولكنه عامر بالالفة ، حتى ليقال إنهما لايعرفان بعضهما حتى ذلك الحين . كان كل منهما يحب أن يتذكر الطريقة التي كانا ينظران إلى بعضهما بها يوم ان كان أحدهما « لاشيء » بالنسبة إلى الآخر . شعر أنهما أصبحا مخلوقين مختلفين كل الاختلاف : كانا من قبل يتواريان أما الآن فقد أصبحا بسيطين مخلصين . والاسرة نفسها كانت في بـــداية الامر تحس بلون من الارتباك في حضرة الامير اندريه الذي كانت تعتبره شخصية من عالم آخر . لذلك فقد

امضت ناتاشا زمناً طويلاً حتى استطاعت ايجاد الالفة بين ذويها وآندريه : ظلت تؤكد لهم بفخار ان بديعته ليست إلا مظهراً وانه في اعماق نفسه يشبه كل الناس وانه لايخيفها قط وكذلك لايجب أن يخشى منه احد قط. ومضت أيام انطبع بعدها افراد الاسرة وألفوا ذلك العنصر الجديد فتبدد الارتباك وعادت الحياة سيرتها الاولى . بل واكثر من ذلك إذ راح آندريه يساهم في نهج حياتهم كان يحسن الحديث في الزراعة مع الكونت وفي الازياء مع الكونتيس وناتاشا وفي المجموعات والتحف واللوحات مع سونيا . واحياناً ، كان افراد اسرة روستوف يبحثون ، سواء بينهم أو أمام آندريه ، في تطورات القدر وتدخله في كل هذه القضية : فسفر الامير إلى اوترادنواي ومجيئهم الى بيترسبورج ، والشبه بين ناتاشا وخطيبها الذي لاحظته الوصيفة العجوز منذ الزيارة الاولى والخصومة التي وقعت بين آندريه ونيكولا عام ١٨٠٥ وأشياء أخرى من هذا القبيل كانت كلها بمثابة إشارات مسبقة لاريب فيها .

عم البيت شعور بالسأم الشاعري الصامت الذي يحيط عادة بالمخطوبين . كان أفراد الاسرة يلتزمون الصمت غالباً اذا ماوجدوا مجتمعين في حجرة واحدة. واحيانا كانوا ينسحبون تاركين المخطوبين وحدهما مطبقين في الصمت . لم يتحدثا عن مستقبلهما الا نادراً. لأن آندريه كان يخشى التداول في هذا الموضوع ويجد مسلكه شائكا . اما ناتاشا فكانت تشاطر الامير هذا الشعور ككل مشاعره الاخرى التي كانت تخمنها فوراً . وذات مرة حزمت امرها على التحدث معه عن ابنه . احمر وجه آندريه ، وهو الامر الذي بات كثير الوقوع له يغمر نفس ناتاشا بالسرور ، وقال لها ان الطفل لن يساكنهما . سألته ناتاشا مروعة :

– ولمـــاذا ؟

– لانني لاأستطيع انتزاعه من جده ثم ...

فحزرت ناتاشا فكرته على الفور وقالت :

– كم سأحبه ! لكنني افهم ماتقصد . انك تريد ان تجنبنا ـ أنت وأنا ـ مغبة النقد .

كان الكونت العجوز يقترب من الامير أحياناً ويعانقه سائلا اياه النصح في موضوع تثقيف بيتيا ومركز نيكولا ، والكونتيس تزفر وهي تنظر الى المخطوبين . اما سونيا ، فتخشى دائماً ان تكون متطفلة وتختلق الاعذار لتتركهما منفردين حتى ولو لم تكن تلك رغبتهما . وعندما يشرع آندريه في الكلام ـ وكان محدثاً لبقاً ـ كانت ناتاشا تصغي اليه بزهو . اما اذا تحدثت هي فكانت تلاحظ انه يراقبها بعين فاحصة امتزج فيها الخوف بالسرور . كانت تتساءل في شيء من القلق : « عمّ يبحث فيّ ؟ ماذا يقصد بهذه النظرة ؟ ماذا يحدث لو انه لم يجد فيّ مايبحث عنه ؟ » كانت تستسلم للجذل المجنون الذي عرفت به وتشعر بغبطة بالغة كلما رأت الامير آندره يضحك مسروراً بدوره . كان هذا قليل الضحك لكنه اذا ماضحك استسلم بكليته ، الامر الذي كان يجعل ناتاشا تشعر انه ادنى اليه واقرب . وكان يمكن لسرورها ان يتجاوز كل حد لولا رهبتها من الفراق القريب الذي كان يجر الشحوب الى وجهه نفسه وتتجمد اطرافه كلما خطر له ذلك الفراق على بال .

استدعى الكونت ، في الامسية التي سبقت رحيل الامير ، بيير الذي لم يكن قد زار آل روستوف منذ تلك الحفلة الراقصة . كان بيير تائه النظرات مشوش الافكار . وبينما كان يتحدث مع الكونتيس جلست ناتاشا وسونيا الى رقعة الشطرنج داعيتين بذلك بولكونسكي الى موافاتهما . سألها :

– انك تعرفين بيزوخوف منذ زمن طويل ، أليس كذلك ؟ أتشعرين بالصداقة نحوه :

- نعم . أنه فتى باسل لكنه شاذ قليلاً .

وكعادتها كلما تحدثت عن بيير ، راحت تقص النوادر حول شروده ، نوادراً كان كثير منها مختلق أو مركب من نبذ مختلفة . قال الامير :

- اعلمى انني ائتمنته على سرنا. انني أعرفه منذ الطفولة . انه ذو قلب ذهبي.

ثم اضاف فجأة بنبرة جدية :

- ارجوك ياناتالي ، سوف ارتحل غداً والله يعرف ماقد يحدث . لك أن تكفي عن حب ... نعم إنني أعرف انه لايجوز لي التحدث عن هذا الامر لكنني ، مهما وقع لك خلال غيبتي ...

- ماذا يمكن أن يقع لي ؟...

- أي مكروه يحدث ، أرجو ياآنسة صوفي أن تسأليه وحده العون والنصح . صحيح انه أكثر الناس سهوماً وشذوذاً لكنه أحسنهم قلباً .

لم يكن الأب ولا الأم ولا سونيا ولا آندريه نفسه يتوقع رد الفعل الذي وقع لناتاشا عند افتراقها عن خطيبها . كانت منفعلة ملتهبة الخدين جافية العينين تروح وتجيء في حجرات البيت تتشاغل بأتفه الاشياء وكأنها لاتعرف شيئاً عما ينتظرها غداة ذلك اليوم . بل انها لم تبك حينما قبّل يدها لآخر مرة وهو يودعها . كل ماقالته كان عبارة : - لاتذهب ! وبصوت تساءل هو نفسه عما اذا كان سيعزف عن الذهاب . وقد ظل زمنا طويلاً يذكر ذلك الصوت . ولما ذهب لم تبك كذلك ، بيد انها لبثت اياماً عديدة مختلية فى غرفتها لاتأبه بشيء ، تهتف بين حين وآخر :

- آه ! لماذا ذهب !

مع ذلك ، ولدهشة المحيطين بها العميقة ، استيقظت من ذهولها بعد خمسة عشر يوماً من رحيل الامير ، وعادت الى سابق عهدها ولكن باستعداد خلقي جديد كما يحدث للاطفال عندما يبلون من مرض طويل وتتغير طباعهم .

الفصل الخامس والعشرون

الامير العجوز

خلال السنة التي اعقبت رحيل ولده ، ساءت صحة الامير بولكونسكي واخلاقه وتفاقم غضبه . اصبحت نوبات غضبه كثيرة لامبرر لها وكانت الاميرة ماري وحدها تقريباً تحتمل تلك النوبات ونتائجها حتى ليخيل الى المرء أنه ينتقي المواضع الحساسة في قلبها لينزل بها أقوى الأذى المعنوي . كان لماري هوايتان وبالتالي بهجتان : ابن أخيها والدين . فوجد الامير العجوز في هاتين الهوايتين موضوعة المفضل للسخرية ، فكان يوجه الحديث دائماً ـ مهما كان نوعه ـ نحو خرافات العانسات العجائز ونوبات التسامح نحو الاطفال والرأفة بهم التي يصبن بها . كان يقول لابنته : « إنك تودين أن تجعلي من نيكولا الصغير فتاة عجوزاً بينما الامير آندريه في حاجة الى ولد وليس الى بنت . » او كان يوجه الحديث الى الآنسة بوريين ويروح في سخرياته وتهكمه يسألها بحضور ماري عن رأيها في القساوسة ومسائل التقوى .

لكن الاميرة ، مهما قسا في تجريحها ، كانت تصفح عنه بطيبة خاطر . أذ هل يمكن أن يكون غير عادل أو أن يخطىء نحوها وهو الاب الذي تعرف جيداً أنه يحبها رغم كل شيء ؟ ثم ما هي العدالة ؟ لم تطرح ماري على نفسها قط هذا

السؤال كانت لأنها تجهل معنى هذه الكلمة المتكبرة :العدالة . ما كانت قوانين البشرية المعقدة كلها الا لتتلخص في نظرها بقانون واحد بسيط وواضح ، وهو قانون الحب والتضحية الذي علمه ذلك الذي تألم من أجل البشر حباً بالبشر في حين كان هو الله نفسه . فماذا كان إذن يهم ماري من أمر عدالة الآخرين وظلمهم ؟ لقد كانت مهمتها في الحياة أن تتألم وتحب وهي منصرفة إلى مهمتها .

زار آندريه ليسّيباجوري خلال الشتاء فوجدته ماري أنيساً وديعاً حانياً كما لم تره قط من قبل . أحست أن تبدلاً طرأ على أخيها . لكن هذا لم يحدثها بكلمة واحدة عن حبه . وقبل رحيله اختلى بأبيه فترة طويلة فلاحظت ماري أن أن تلك الخلوة تركتهما غير مرتاحين كليهما .

اتيح لماري بعد رحيل أخيها ببعض الوقت أن تكتب إلى صديقتها جولي كاراجين في بيترسبورج ، تلك الصديقة التي كانت تحلم ، كما تحلم كل الفتيات ، ان تزوجها أخيها . وقد تناهى اليها أن تلك الصديقة فقدت أخاها لانه قتل في تركيا .

« ان الحزن كما اري جيداً نصيبنا كلتينا يا عزيزتي وصديقتي الحنون جولي .

« ان خسارتك ضارية في القسوة ، لااستطيع تفسيرها الا على اعتبارها نعمة خاصة من الله الذي يريد ان يبلوك انت ويبلو امك الطيبة لانه يحبكما . آه يا صديقتي ! لايوجد الا الدين ملجأ ولا اقول لعزائنا ، بل لانقاذنا من اليأس . ان الدين وحده قادر على ان يفسر لنا مالا يستطيع الانسان بدونه أن يفهم السبب الذي من اجله يدعو الله اليه المخلوقات الطيبة النبيلة التي تعرف كيف تجد السعادة في الحياة والتي تهرع لانقاذ الآخرين وتتجنب إلحاق الأذى بالناس بينما يترك المخلوقات الخبيثة الضارة عديمة النفع التي تشبه الحمل الثقيل على اكتاف الآخرين تعيش في الحياة طويلاً . هذا هو الشعور الذي خلفته في نفسي الوفاة

الاولى التي شهدتها والتي لن انساها قط واقصد بذلك وفاة زوجة اخي العزيزة . وكما سألت القدرة عن السبب الذي سلبتك من اجله اخاك الممتاز ، كذلك سألت اننا عن السبب الذي دعا ليز ، ذلك الملك ، الى الموت وهي التي الى جانب عدم ايذائها الآخرين لم تكن روحها تضم الا اطيب الفكر . مع ذلك ، فقد مضت خمسة اعوام ياصديقتي العزيزة حتى بدأت افهم بذكائي الضعيف السبب الذي توجب من اجله الموت عليها . ان تلك الميتة كانت بلاشك دلالة الرحمة المتناهية التي اسبغها الخالق عليها ، ذلك الخالق الذي لايمكن لتصرفاته ، رغم اننا لانتوصل الى فهم جلها معظم الوقت ، ان تكون إلا دلائل الرحمة والحب غير المحدود الذي يشمل به المخلوق . لاشك انها - كذلك كنت احدث نفسي - كانت على براءة انجيلية يتعذر معها القيام باعباء واجباتها كأم . فهي وان كانت لايرتقي اليها النقد كزوجة شابة ألا إنها كان يمكن ان تعجز عن القيام بواجبات الأم . أما الآن فإنها على العكس تركت لناجميعاً وبصورة خاصة للأمير آندريه الأسف العميق والذكريات الاكثر زخراً . وفوق ذلك فإنها ولاشك بلغت هناك في السماء مركزاً لا اجرأ على التفكير فيه من اجل نفسي ومن جهة اخرى فان تلك الميتة المبكرة الرهيبة تركت في نفس اخي وفي نفسي أجل الأثر وأحسنه الى جانب الحزن العظيم الذي سببته لنا . ولو ان مثل هذه الافكار طافت بخاطري في فترة فقدها لطردتها مروعة مهولة . اما الآن فعلى العكس ، يبدو كل شيء لي شديد الوضوح لايقبل النقض ! اكتب لك ذلك ياصديقتي لأقنعك فقط بالحقيقة الانجيلية التي اصبحت قاعدة لحياتي : لاتسقط شعرة من رأسنا بدون مشيئة الله . ومشيئة مستوحاة من حبه اللامتناهي لنا . ولهذا السبب . فان كل مايقع لنا لايقع الا لخيرنا .

« تسألينني عما اذا كنا سنقضي الشتاء في موسكو ! انني رغم كل رغبتي في

رؤيتك لاأظن ذاك ولا اتمناه . ولعلك تدهشين اذا علمت ان الخطأ في ذلك يرجع الى بيونا بارته . واليك السبب . ان صحة ابي تعتل بشكل ظاهر مما يجعله لايحتمل اية معارضة لانه اصبح سهل العطب سريع الثورة . وسرعة الغضب هذه مبعثها كما تعلمين ، السياسة بصورة خاصة . انه لايستطيع احتمال مجرد الفكرة ان بيونا بارته هذا يقارع ويعامل ملوك اوربا وسادتها معاملة الندللندوخصوصاً مليكنا حفيد كاتيرين العظيمة ! انني كما تعلمين لا أبالي مطلقاً بالسياسة . لكنني اعرف من موضوعات ابي واحاديثه مع ميخائيل ايفانو فيتش كل مايدور في العالم وخصوصاً الولاء والخضوع اللذين يلاقيها بيونا بارته . ان ليسّيبا جوري هي المكان الاوحد في العالم الذي يرفض فيه اعطاؤه لقب الرجل الكبير وامبراطور الفرنسيين . وهذا هو الأمر الذي يخرج ابي عن طوره . فهو اذا كان لاينظر الى السفر الى موسكو بعين الرضا فان سبب ذلك يرجع بصورة خاصة كما يبدو لي الى آرائه السياسية : انه يتصور سلفاً وفرة المتاعب التي ستسببها له عادته في الاعراب عن رأيه بصراحة دون ان يحفل بأحد . وكل مايكتسبه صحته من العلاج والرعايه الطبية لن يقاوم بلا شك النتائج المترتبة عن المناقشات التي لابدمنها حول موضوع بيونابارته . على كل حال سوف يتخذ قرار قريب بشأن ذلك .

« ان حياتنا في الاسرة تتبع نهجها المألوف اذا استثنينا اخي الذي ارتحل عنا . لقد طرأ عليه تبديل كبير في الآونة الاخيرة كما سبق وكتبت لك . انه لم يعد الي الحياة منذ تلك النازلة التي اصابته الا في هذا العام . وقد شهدته اخيراً كما عرفته في طفولته : طيباً رؤوفاً ذا قلب ذهبي لامثيل له في علمي . لقد فهم على ما اظن ان الحياة لم تنته بالنسبة اليه لكن ماكسبه فكرياً اضاع مقابله جسدياً . لقد اضحى اكثر نحولاً وعصبية من السابق . انه يقلقني وانني

سعيدة جداً اذ أراه يسافر الى الخارج نزولاً عن رغبة الاطباء الذين كثيراً ما أشاروا عليه بذلك ، وآمل ان يكون سفره ذا فائدة وخير له . تقولين لي انهم في بيتر سبورج يتحدثون عنه حديثهم عن شاب من اكثر الشباب نشاطاً وأوفرهم ذكاء وأغزرهم علماً واصفحي عن كبريائي هذا كأخت حين اقول لك انني ما شككت قط في مزاياه . ثم ان الخير الذي وفره لنا هنا اعتباراً من الفلاحين وحتى جماعة النبلاء في المقاطعة اكثر من ان يحصى ويحصر . أنهم في بيتر سبورج لايدفعون له الا مايستحق . ان السرعة التي تنتشر فيها الشائعات من بيتر سبورج الى موسكو تغيظني خصوصاً اذا كانت تلك الشائعات على غرار النوع الذي حدثتني عنه . كيف يتزوج اخي انـّا روستوف الصغيرة ! لا أظن ان آندريه يفكر في الزواج من اية كانت وبصورة خاصة من هذه . واليك السبب اولاً ، على الرغم من انه لا يتحدث عن المرحومة العزيزة الا نادراً ، فان الحزن الذى خلفه فقدها في نفسه ، بذر في قلبه ألماً راسخاً يستحيل معه ان يفكر في إحلال امرأة محلها ، ورزء ملاكنا العزيز بزوجة أب وفي المرتبة الثانية ، ليست الفتاة المذكورة على ما اعلم من النوع الذي يروق له . وانني لاأظن ان الامير آندريه يقبل ان يتخذها زوجة وبصراحة لاأتمنى ذلك.

« لقد ثرثرة كثيراً حتى ملأت ورقتي الثانية . فوداعاً ياصديقتي العزيزة وليتعهدك الله بحمايته المقدسة القوية . ان رفيقتي العزيزة الآنسة بوريين تقبلك.

ماري »

★ ★ ★

محاولة آندريه

حوالي منتصف الصيف تلقت ماري رسالة من اخيها في سويسرا يطلعها فيها على خبر غريب غير متوقع. لقد اعلن لها فيها خطوبته الى الآنسة روستوف، كانت تلك الرسالة تعلن عن حب بالغ لمخطوبته الى جانب الحنان الوفير المطمئن حيال اخته . اعلن هذه انه لم يحبب قط من قبل كما يحب الآن وانه فهم اخيراً معنى الحياة ويعتذر عن كتمانه الامر عنها وعدم اطلاعها عليه عندما كان في ليسّيياجوري رغم انه باح لابنه بمكنونات صدره . ولقد اعتذر عن كتمانه بأنها كانت سترهق الامير العجوز بالتماسها الموافقة منه وعندئذ يصب جام غضبه كله عليها وحدها .

استتلى يكتب : « ثم ان الامر لم يكن في مرحلة متقدمة كما هو عليه اليوم . لقد حدد أبي مهلة عام انقضت منه ستة اشهر وانا أرسخ عزماً وأشد اصراراً على عزمي . ولوان الاطباء لم يؤخروني هنا حيث استشفي بالمياه المعدنية لعدت الى روسيا لفوري . لكنني مضطر الى ارجاء عودتي ثلاثة اشهر اخرى انك تعرفينني وتعرفين علاقاتي مع ابي . ليس لي ما أطلبه منه وانا الآن مستقل وسأكون مستقلاً ابداً . لكن هنائي وسعادتي لن يكونا كاملين اذا

تصرفت ضد رغبته وأثرت حفيظته فى الوقت الذي لم يبق لهوقت طويل يمضيه بيننا . لقد كتبت له في الموضوع نفسه فأطلب اليك انتقـاء الوقت المنـاسب لتسليمه رسالتي . كما أطلب اليك ان تتلطفي باعلامي عـن الطريقـــة التي سيتصرف بها حيال هذا الامر : تُرى هل من أمل في ان يوافق على اختصار المهلة بانقاص اربعة اشهر منها ؟ »

وبعد تردد طويل وصلوات حارة سلمت ماري الرسالة لابيها . وفي اليوم التالي استدعاها الامير العجوز وقال لها :

ـ اكتبي لاخيك ان ينتظر موتي ... ولن يطول الامر لانني سأخلصه قريباً .

ارادت ماري الاعتراض بشيء على قوله ، لكنه لم يسمح لها بل راح صوته يرتفع ساخطاً :

ـ تزوج ، تزوج يا فتاي الباسل ... يا للمصاهرة الرائعة ! اشخاص ذوو قيمة ومكانة أليس كذلك ؟ ذو ثراء اليس كذلك ؟ ستكون زوجة اب جميلة يُتحف بها الصغير نيكولا ! ... اكتبي له أن يتزوج منذ الغد إذا كان هذا يروق له . انه يريد اعطاء نيكولا خالة ، حسناً ! ساعطيه انا الآخر واحـدة : سأتزوج الآنسة بورين ! آه ! آه ! آه ! ... ألا أنه لا مكان عندي لنساء اخريات . ليتزوج ! ولكن ليذهب بعيداً وليحيا مستقلاً ... لعلك تفضلين مشاطرته الحياة؟ إذن ، سفراً سعيداً وليباركك الله !

لم يعد الامير يبحث في هذا الموضوع بعد تلك الثورة الجامحة . لكن السخط الذي سببه له ضعف ابنه كان يظهر بشكل مكتوم في كل علاقاته مع ماري . لقد اضاف موضوعاً ثالثاً للسخرية منها الى جانب الموضوعين الآخرين . موضوع الزوجة الجديـدة والغزال الذي يفكر في توجيهه الى الآنسة بورين . كان يقول لابنته :

- ولمَ لاأتزوجها ؟ ستكون اميرة رائعة .

ولشديد دهشة ماري وذهولها ، لاحظت بعد حين ان أباها بات اكثر اندماجاً مع الفرنسية . فكتبت الى آندريه تنبئه بالاسلوب الذي تلقى الامير به رسالته . لكنها تركت له المجال للأمل في انها ستغير من رأي ابيها .

اصبح عزاء الاميرة مالي مقتصراً على تثقيف ابن اخيها والتفكير في اندريه والدين . ولما كان كل انسان في حاجة الى الحاجات شخصية بحتة ، فانها كانت تخفي في اعماق قلبها حلماً وأملا كانا يشكلان نواة عزائها . انها مدينة بهذا البلسم الشافي الى « رجال الله » المجاذيب والحجاج الذين كانوا يفدون لزيارتها في غفلة من ابيها ، وكلما لاحظت الحياة واكتسبت منها خبرة ، ازدادت دهشتها لعمى البشر الذين يتبعون اهـــواءهم على الارض ويبحثون عن غنهم ، والذين ينصبون ويختصمون ويسيء بعضهم الى بعض في سبيل بلوغ هذا السراب الخادع المجرم . لقد أحب الأمير اندريه امرأة فماتت . ولم يكفيه هذا لأنه يريد ان يرتبط أبنه باسرة ذائعة الصيت واسعة الغنى . وعلى ذلك ، فان كل واحد يناضل ويتألم ويعذب روحه ويفقدهـــا ، روحه الخالدة ، ليبلغ يمناً لايدوم الا لمحة . ولم يكفنا اننا عرفنا ذلك من تلقاء انفسنا معرفة كافية ، بل ان المسيح ، ابن الله ، نزل على الارض ليقول لنا ان هذه الحياة ليست الا اختباراً عابراً . مـــع ذلك فاننا نتشبث بها ونأمل ان نجد فيها السعادة . كانت تحدث نفسها : « كيف لم يفهم هذا أحد ؟ مامن أحد ، باستثناء رجال الله هؤلاء ، الذين لايلقون الا كل احتقار ، والذين يصلون الى غرفتي عن طريق سلم الخدم حاملين خراجهم على اكتافهم خائفين التعرض لنظر الامير . وليس مبعث الخوف تعرضهم للاذى اذا رآهم ، بل رغبتهم في تجنيب الامير احتمال وزر أخطاء جديدة . هؤلاء الذين يهجرون اسرهم ومساقط رؤوسهم ويحتقرون كل نعم الارض فلا يتمسكون بشيء ، يهيمون من مكان الى آخر

مرتدين اثمالا من الكتان الخشن بصفة استعارة ، لايفكرون في ايذاء احد، يصلون من اجل الذين يسيئون اليهم كما يصلون من اجـل من يحمونهم . أية حياة وأية حقيقة تتفوق على هذا ! »

كانت احدى تلك التائهات ، فيدوسيوشكا ، ولها من العمر قرابة خمسين عاماً ، قصيرة هزيلة وادعة ، امضت ثلاثين عاماً ونيفاً وهي تمشي حافيةالقدمين مثقلة بالسلاسل ، تحتل مكانة مرموقة في نفسها . وذات يوم ، بينما كانت فيغرفتها المعتمة تستضيء بسراج ضئيل ، قصت عليها فيدوسيوشكا قصة حياتها . وفجأة قفزت الفكرة الى رأس ماريبان هذه الامرأة وحدهاوجدت الطريق السوي. كانت هذه الفكرة من القوة بحيث قررت هي الاخرى ان تشرع في المسير . ولما مضت السائحة لنيل قسط من الراحة ، قررت ماري بعد تفكير ناضج ،ان تبدأ هي الاخرىحياةالسياحة . لم تخطر احداً بفكرتها باستثناء الاب هيراسانت الذي اعتادت الاعتراف على يديه ، فأيد ما اعتزمت عليه . تذرعت بحجة تقديم هدية الى متعبداتها ، فاستحضرت زياً كاملاً : قميصاً وخفين وجلباباً ومنديلاً اسوداً . وكانت غالباً ، كلما اقتربت من الدولاب الذي اودعت فيه سرهـا ، تتوقف حائرة مترددة وتتساءل عما اذا كانت ساعة تنفيذ خطتها قد ازفت .

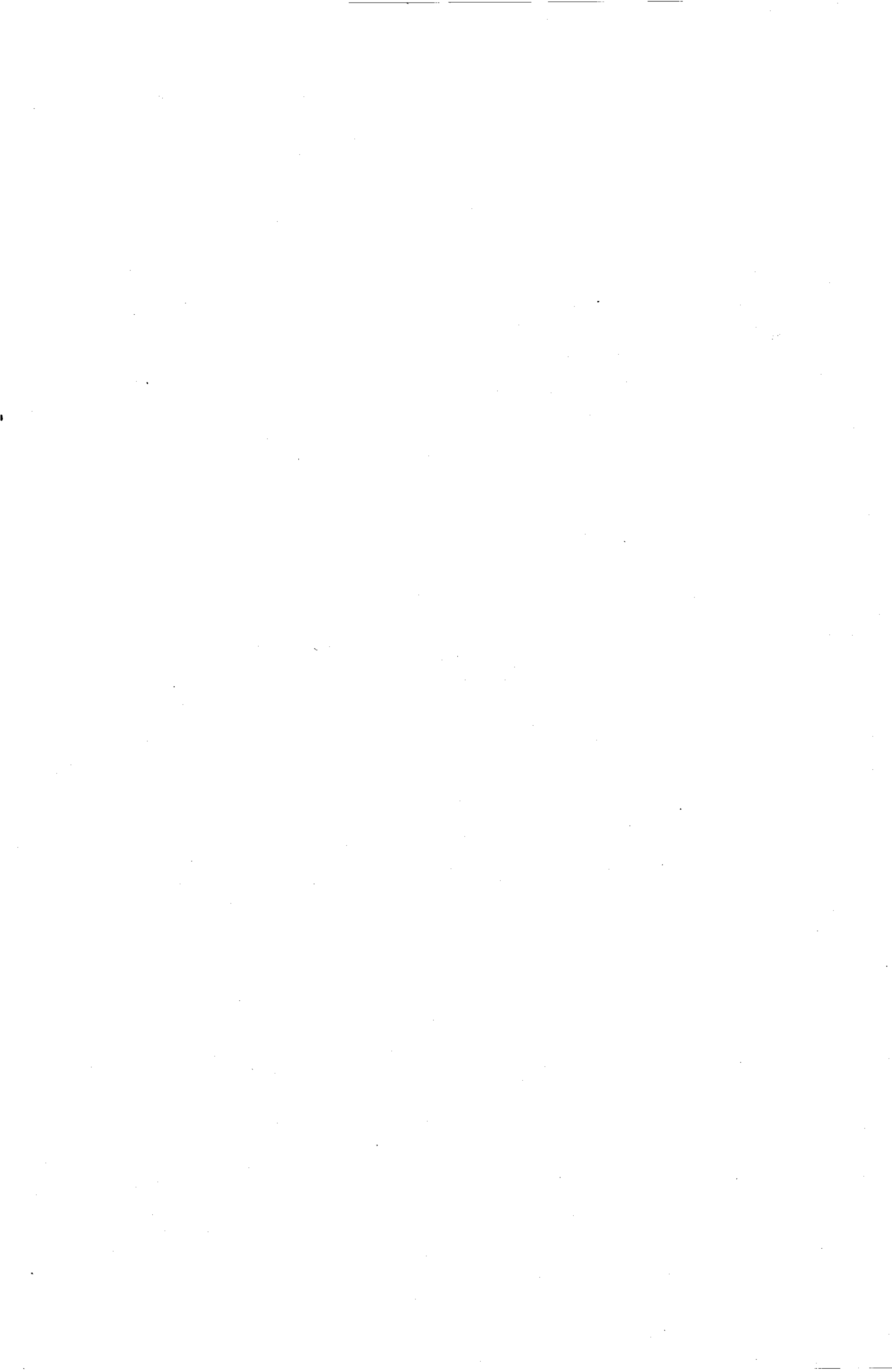
واحياناً ، عندما كانت تصغي الى رواياتالمتعبدات ، كانت تتحمسلتلك الاحاديث الساذجة التي ترويهااولئك النسوة بصورة آلية والتي كان لها في نفسها اعمق الأثر . وتبلغ بها الحماسة مبلغاً يجعلهاتقرر اكثر منمرة ان تترك كلشيء لتفر من البيت . بل انها كثيراً ما رأت نفسها بعين الخيـــال ، فيدوسيوشكا جديدة ، مرتدية اطماراً خشنة ، تمشي حاملة خرجها وعصاها فوق الطرقات الغبراء ، تتابع حجهـا دون حقد ولا حب بشري ولا رغبات ، من معبد الى آخر ، لتصل أخيراً الى المكان الذي لاتعرف فيه آلام ولا حسرات والذي تسوده البهجة والغبطة الابديتين .

« سأذهب الى مكان ما فاصّلي . واذا لم تألفه نفسي، او لم أشعر بالاغتباط، فسامضي الى مكان اقصى . وسأمشي حتى تخـــذلني ساقاي وعندئذ ساستلقى وأموت في مكان ما ، ثم ابلغ اخيراً ذلك الميناء الهادىء الذي ليس فيـــه حزن ولا حسرات . »

كذلك كانت تحلم ماري. لكنها كلما رأت أباها وعلى الأخص كوكو الصغير، يضعف قرارها فتشعر انها تحب اباها وابن اخيها اكثر مما تحب الله . وعندئذ تذرف الدمع السخي في السر وتعتقد انها خاطئة .

* * *

الجزء الرابع



الفصل الأول

عودة نيكولا

يزعم التقليد الديني ان يمن الرجل الاول قبل سقطته كان في انعدام العمل من حياته ، أي في البطالة . فقد احتفظ الرجل الساقط من مكانته بعادة البطالة. لكن لعنة الله تظـــله دائماً لا لأنه مرغم على كسب قوته بعرق جبينه فحسب، بل لأن طبيعته الفكرية ايضاً تحرم عليه التلذذ بالسكون والجمود . هناك صوت سري في اعماقنا يقول لنا اننا نرتكب خطيئة اذا استسلمنا للكسل . فلو ان الرجل استطاع ايجاد حالة يشعر معها رغم بطالته بأنه نافع وانه ببطالته تلك يؤدي خدمة وواجباً ، فانه اوجد ولاشك في تلك الحالة كل السعادة الاولية . وعلى ذلك فان طبقة اجتماعية كاملة ، هي طبقه العسكريين ، تنعم بكل تأكيد بحالة البطالة تلك المفروضة عليها فرضاً ،البعيدة عن مضمار النقد واللوم . وذلك الجمود الملزم المشروع ،كان دائماً ،وسيظل كذلك ، النقطة الرئيسية التي تجتذب الناس الى حمل السلاح .

كان نيكولا روستوف يتذوق مباهج هذه البطالة المشروعة منذ عام ١٨٠٧ في فيلق بافلوجراد الذي كان قائـد الكوكبة التي كان دينيسوف من قبل على رأسها فيه . اصبح الآن فتى قوي العود يقدره زملاؤه ورؤساؤه ومرؤوسوه

ويحبونه رغم ما اتفق عليه معارفه في موسكو من اعتباره « من نوع رديء » بعض الشيء . وكان روستوف مغتبطاً بنفسه راضياً عن مصيره . لكنه في الآونة الاخيرة ، اي في عام ١٨٠٩ ، راح يتسلم من امه رسائل تحوي على روح من الشكوى والتذمر آخذة بالازدياد : لقد كانت مساوىء ظروفهم المالية تتفاقم يوماً بعد يوم ، وقد حل الوقت الذي يجب عليه فيه ان يعود ليعزي ابويه ويسعدهم في شيخوخته .

كان يخشى ان تكون الغاية من تلك الرسائل ، انتزاعه من الوسط الذي يشعر فيه ان أيامه تسير وديعة هادئة بعيدة عن المتاعب . كان يتوقع ان يعود آجلاً ام عاجلاً ليلقي بنفسه في غمـــار الحياة الصاخبة ، يعيد النظام الى مشاكل اسرته المتشابكة المعقدة ويراجع الحسابات مع المسجلين ويناقش ويناضل ويصل ما انقطع من علاقاته الاجتماعية ويحسم قضية سونيا والوعود التي قطعها على نفسه لها . لقد كانت كل هذه الامور معقده بشكل مخيف ، فكان يجيب على رسائل امه بجمل مألوفة باردة تحمل في رأسها عبارة : امي العزيزة وتنتهي بعبارة : ابنك المطيع ،دون ان ينوه بحرف واحد عن عودته . وفي عام ١٨١٠ ، طالعته رسالة جديدة على نبأ خطوبة ناتاشا وبولكونسكي والزواج الذي لن يتم الا في غضون عام بسبب معارضة الامير العجوز . احزنه هـــذا النبأ وجرح كبرياءه . كان سبب آلامه ، ابتعاد ناتاشا عن البيت ، تلك الاخت المفضلة ، ثم اسفه لبعده عن البيت لأنه كان يفضل معالجة هذه القضية على طريقة الفرسان ، فيفهم بولكونسكي هذا ان اتحاد اخته به لا يشكل مثل هذا الشرف العظيم وانه اذا كان يحب ناتاشا بالفعل ، فانه يستطيع الاستغناء عن موافقة ابيه الخرف . تردد فترة قبل ان يفكر في الحصول على عطلة للتحدث الى ناتاشا قبل الزواج . لكن المناورات كانت وشيكة ، ففكر في سونيا وفي المتاعب التي تنتظره ، فآثر

التريث وأجل تنفيذ فكرته الى ما بعد . لكنه في ربيع تلك السنة بالذات ، حملته رسالة وردت اليه من والدته كُتبت في منجاة من رقابة الكونت ، على تعجيل عودته . كانت تخطره في الرسالة بأنه اذا لم يعد ليمسك مقدرات اسرته بيديه ، فان املاكهم الموروثة وأرثه المنتظر ستباع كلها في المزاد العلني ، وستؤول حالهم الى اشد الفاقة . فالكونت شديد الضعف ، جم الطيبة ، عميق الثقة في ميتانكا حتى ان كل الناس كانوا يخدعونه بكل وقاحة ، والامور تسير من سيء الى أسوأ . « انني استحلفك الله واتوسل اليك ياولدي ان تعود لفورك اذا لم تكن تريد تعاستي وشقاء كل افراد الاسرة . »

اثرت تلك الرسالة على نيكولا التأثير المطلوب . لقد كان يملك ذلك الاحساس الطيب الذي يرسم للناس الاغبياء خط مسيرهم .

لم يعد عليه الآن الا ان يقدم استقالته او على الاقل ، ان يطلب عطلة طويلة . ولكن لماذا يجب عليه ان يعود ؟ هذا مالم يكن واضحاً في نظره . أمر بعد استراحة الغداء ان يسرج جواده « مارس » ، وهو مهر أشهب جامح لم يبارح الاسطبل منذ مدة طويلة . ولما عاد من نزهته وحصانه مغطى بالزبد ، اعلن لـ : لافروشكا ، تابع دينيسوف سابقاً الذي اصبح تابعه ، ولأصدقائه المجتمعين لقضاء السهرة ، انه سيطلب احالته الى الراحة ليعود الى اسرته . كان بلاشك يأسف على رحيله قبل ان يتأكد من الاركان العامة ـ الأمر الذي كان على جانب من الاهمية بالنسبة اليه ـ عما اذا كان سيرشّح لرتبة رئيس أو على الاقل سيحصل على وسام القديسة آن إثر المناورات الأخيرة . ويجد غريباً كذلك ان يسافر دون ان يبيع الى الكونت جولوشوُسكي زحافته الكبيرة التي تقطرها خيوله الملونة التي دفع بها ذلك البولوني الفي روبل عندما كان يفاوضه في بيعها ـ وبدا له ان تخلفه عن حفلة الفرسان الراقصة التي يحيونها في با ّنا بورزوزووُسكا نكاية بالرماحة الذين يقيمون حفلة مماثلة في با ّنا بورزوزووُسكا

ضرب من المستحيل . مع ذلك فقد كان واثقاً بأنه مرغم على انتزاع نفسه من ذلك الجو الفتان الواضح البين ليمضي الى حيث يعلم الله وحده ، ليجد حماقات وشظايا . وبعد ثمانية أيام حصل على عطلته فقام زملاؤه الفرسان ـ ليس فرسان فيلقه فحسب ، بل فرسان الحملة كلها ـ حفلة عشاء كبيرة على شرفه بنسبة خمسة عشر روبلاً عن الفارس الواحد ، واستحضروا جوقتين موسيقيتين وفرقتين للغناء . رقص روستوف رقصة « التريباك » مع الماجور باسوف واخذ الضباط ، وكل واحد منهم اشد ثملاً من الآخر ، يعانقونه ويؤرجحونه ثم يلقون به على الارض ولقي من جنود الكوكبة الثالثة مثل هذه المعاملة المجاملة وهتفوا له : هورّا ! واخيراً اركبوه في زحافته وواكبوه خلال المرحلة الاولى كلها .

خلال النصف الاول من الطريق ، اي من كريمنتشوج وحتى كييف ، ظل روستوف ، كما هي العادة ، يفكر في كوكبته . لكنه ما ان قطع نصف المسافة حتى شرع ينس خيوله المرقشة ونائبه الرقيب دجوئيفيئيكو وراح يتجه بتفكيره بقلق الى ماينتظره في اوترادنواي . وكلما ازداد قرباً من نهاية الرحلة ازداد حنينه الى المنزل الأبوي وكأن الحس الروحي عنده خاضع لنظام سرعة سقوط الاجساد بالنسبة لمربع المسافات . وفي المرحلة الاخيرة قبل اوترادنواي منح السائق ثلاثة روبلات واندفع مبهور الانفاس يقفز كالغلام الشقي فوق مرقاة حدود ارضهم . وبعد الهرج والمرج اللذين يصاحبان وصول الغائب ، احس نيكولا بخيبة الامل تلك التي تجعل المرء يقول في سره : « لكنهم مازالوا كعهدي بهم فأية حاجة الى كل هذه العجلة ! » ثم انطبع تدريجياً بحياة الاسرة . كان ابواه قد هرما بعض الشيء وهو الامر الوحيد الجديد عليه الذي أثار قلقه وجعله ينظر الى ما أصابهم بوصفه نتيجة لسوء احوالهم . كانت سونيا مشرفة على العشرين ، لاتستطيع الاستزادة من الجمال ، لكنها محتفظة بما كان يُنتظر لها منه وكان نصيبها وافياً . ومنذ وصول نيكولا بات كل شيء فيها ينطق بالسعادة

واحب فكان تعلق هذه الفتاة المخلص الذي لايتزعزع يملأ نيكولا بهجة . امـــا بيتيا وناتاشا فقد ادهشاه اكثر من الآخرين . اصبح بيتيا فتى جميلاً مديد القامة في الثالثة عشر من عمره لائق المزاج عظيم الحيوية وقد اخذ صوته يتخوشن . اما ناتاشا ، فقد نظر اليها طويلاً في دهشة ضاحكة وقال :

ـ لم تعودي كما انت .

ـ ماذا ، هل تباشعت ؟

فقال لها بصوت خافت :

ـ على العكس ولكنك تبدين جدية الآن ... يا اميره !

فقالت وهي ممتلئة غبطة :

ـ نعم ، نعم .

قصت عليه روايتها مع الامير آندريه ووصوله الى اوترادنواي واطلعته على رسالته الاخيرة ثم سألته :

ـ هل انت مسرور ؟ اما انا ، فانني عميقة السعادة هادئة كل الهدوء .

ـ سعيد جداً . انه رجل مرموق . هل تحبينه كثيراً ؟

اجابت :

ـ ماذا اقول لك ؟ لقد احببت من قبل بوريس ومعلمي ودينيسوف . ولكن هذه المرة تختلف تماماً عن سابقاتها . انني مطمئنة لانني اطأ ارضاً صلبة انني اعرف انه لايمكن وجود رجل افضل منه لذلك اشعر انني سعيدة جـداً هانئة جداً ! كلا ، ان الامر ليس كالسابق مطلقاً ...

أعرب نيكولا عن امتعاضه للمهلة الطويلة التي حدد الزواج بعدها . فاستاءت ناتاشا استياءً شديداً وراحت تبرهن له في شيء من الامتعاض على انه ما كان يستطيع الاتيان بخير مما وقع : لان الدخول الى اسرة ضد رغبة الأب يعد اساءة لاتقبل هي نفسها السكوت عنها . ثم اعقبت :

- انك لاتفقه من الامر شيئاً ، شيئاً مطلقاً .

لم يجرأ نيكولا على معارضتها فاعترف لها بصوابها .

ومنذ ذلك الحين راح يراقبها خلسة فلاحظ بدهشة بالغة انها لم تكن بادية الأسى شأن الشابات اللاتي بعدن عن رجالهن الموعودين . كانت تظهر متزنة المزاج هادئة مرحة كسابق عهدها الامر الذي جعل الشك يتسرب الى نفسه حول نتائج الامر مع بولكونسكي . لم يكن مؤمنا بأن مصير اخته قد تقرر نهائياً خصوصاً وانه لم يرهما معاً ليحكم بنفسه . بداله في مشروع الزواج ذاك شيء يدعو الى التمهل والتفكير .

كان يتساءل : « مامعنى هذه المهلة ؟ لمَ لم تعلن الخطوبة رسمياً ؟ » وذات يوم ، بينما كان يتحدث عن ناتاشا الى امه تبين وهو مندهش ان امه كانت في اعماق نفسها تشاركه تحفظه حيال تلك الرابطة المنتظرة ، الامر الذي بعث في نفسه الغبطة . قالت له وهي تريه رسالة من الامير آندريه ، بتلك اللهجة العدائية المكتومة التي تظهر في نبرات صوت الامهات عندما يتصورن سعادة بناتهن الزوجية المقبلة .

- اليك مايكتب . ها انه يقول انه لن يستطيع العودة قبل كانون الاول فأية اعمال تؤخره هناك ؟ المرض بلا شك . ان صحته ليست على مايرام . ولكن لاتتحدث بشيء من هذا الى ناتاشا . لاتنخدع بحبور اختك : ان هذا هو آخر وقت سعيد عند الفتيات وانا واثقة من انها تتألم كلما كتب لها . ثم من يدري ؟ عسى الله ينهي الامر على خير وجه . انه رجل جذاب .

الفصل الثاني

مناقشة الحساب

ظل نيكولا خلال ايامه الاولى صموتا ضجوراً ، كانت الحاجة الملحة الى معالجة المسائل المادية اللعينة التي استدعته امه من اجلها تعكر مزاجه . ولكي يتخلص من ذلك الحمل الثقيل باسرع وقت ممكن اتجه منذ صبيحة اليوم التالي لوصوله مكفهر الوجه الى جناح ميتانكا دون ان ينبيء احداً بقصده ليسأل الرجل « حسابا عن كل شيء » . أما ماهو « حساب كل شيء » هاذا ، فان نيكولا ما كان يعرفه خيراً من ميتانكا الذي اذهلته تلك الزيارة وروعته . لم تكن الشروح والحسابات التي قدمها الرجل طويلة . سمع الوكلاء ومساعدوهم الذين كانوا ينتظرون في الردهة الكونت الشاب يصرخ بصوت مكتوم ازداد ارعاداً وأصغوا برعب يلطفه الارتيـاح الى فيض الشتائم والسباب التي أمطرها عليه .

– يالص ! ياعاق !... سأمزقك بسيفي كالكلب ...

انك لاتتعامل الآن مع ابي ايها المجرم !...

ورأى اولئك الوكلاء انفسهم برعب وارتيـاح مماثلين الكونت الشاب مخضب الوجه بدماء الغضب ، احمر العينين يجر ميتانكا من ياقته وينهـال عليه

خلال الكلام بضربات حاذقة من قدميه وركبته في ظهره وبين ساقيه ويصرخ:
« اخرج ! ولا تطأ باقدامك ارض هذا البيت بعد اليوم ايها المجرم ! » .

تدحرج ميتانكا فوق الدرجات الست بسرعة فائقة ومضى يختفي في دغل.
كان ذلك الدغل يستعمل مأوى لكل افراد اوترادنواي الذين يؤخذون بهفوة .
بل ان ميتانكا نفسه كان يختبيء فيه كلما عاد ثملاً من المدينة . اما اولئك الذين
كانوا يختفون فيه للتواري عن انظار ميتانكا نفسه ، فكانوا يشهدون بملاءمته
ووفائه للغرض .

اطلت زوجه ميتانكا وكنائنها برؤسهن فظهرت وجوههن الوجلة خلال
الباب الموارب الذي يسمح للناظرين برؤية « السماور » اللامـــع الذي تغلي
الماء فيه والسرير المرتفع الذي ينام عليه المسجل ، والذي فرش فوقه غطاء ثميناً.
مرّ الكونت من امامهن لاهث الانفاس دون ان يعبأ بهن ، وابتعد بخطوات
ثابتة قاصداً غرفته .

وما ان علمت الكونتيس من الوصيفات بنبأ ماجرى المسجل على يد ابنها،
حتى سرى الاطمئنان الى نفسها وتأكدت من ان احوالهم ستصلح بسرعة استناداً
الى هذه البداية الطيبة ، لكنها من جهة اخرى قلقت على حالة ابنها المعنوية التي
كان عليها ابنها بعد فراغه من تاديب ميتانكا ، ذهبت مراراً بخطوات متلصصة
الى باب غرفته ، فسمعته ينفث دخان غليونه بلا انقطاع .

وفي اليوم التالي ، انتحى الكونت العجوز بابنه جانباً وقال له بابتسامة
مرتبكة :

— أتدري ياصديقي الطيب انك انفعلت بالأمس خطأ ؟ لقد قصّ علي ميتانكا
كل شيء .

فقال نيكولا في سره : « كنت اتوقع ذلك ، واعرف انني لن أتوصل الى

فهم شيء في هذه الدنيا المقلوبة » أستمر الأب يقول :

– لقد غضبت لأنه لم يسجل في دفاتره مبلغ سبعمائة روبل . لكن هذا المبلغ مسجل في الصفحة التالية نقلاً عن الصفحة الاولى .

– ابتاه ، إنه مختلس دنيء ولص . ان ماعملته جيد ومفيد . ولكن اذا كان ذلك لايروق لك ، فلن اعترض له بعد اليوم بكلمة .

لم يكن الكونت على خير مايرام . فقد كان يشعر بذنبه وخطأه ازاء اولاده لأنه لم يحسن استغلال ثروة امهم . لكنه ما كن يعرف كيف يعالج هذا العجز . قال :

– كلا ياصديقي الطيب ، كلا ... بل أنك لتسرني اذا اهتممت باعمالنا بنفسك ... لقد شخت و ...

– آه ! اصفح عني ياابتاه اذا كان اندفاعي لم يرق لك . انني لاافقه في هذه الشؤون بقدر ماأنت عليم بها .

وحدث نفسه : « ليحملهم الشيطان هم وخدمهم وكل الفلاحين والحسابات والمبالغ المنقولة الى الصفحة التالية ! لقد مرت بي فترة كنت افقه خلالها الربح الذى يعود علي من مضاعفة البرهان ست مرات متتالية . أما « النقليكون » هذا ، فيا للأسف الشديد ! »

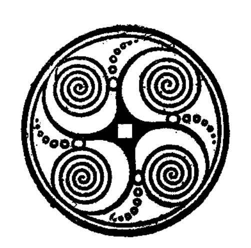
ومنذ ذلك الحين ، لم يعد يتدخل في شيء . مع ذلك فقد استقدمته الكونتيس ذات يوم . قالت له ان في حوزتها سنداً معتمداً بتوقيع آنا ميخائيلوفنا بمبلغ الفي روبل ، فماذا يجدر بها ان تفعل به : أجابها :

– حسناً ، اليك رأيي . انك تقولين ان الأمر متوقف علي . انني لاأحب لا آنا ميخائيلوفنا ولا بوريس . لكنهما كانا على اتصال وثيق معنا وهما من

الفقراء . واذن ، يجب ان تتصرفي هكذا !

ومزق السند ، الأمر الذي جعل الام العجوز تجهش بالبكاء من الفرح .

ومنذ ذلك الحين شغف روستوف الشاب بالصيدبالكلاب مغفلا كل الامور الاخرى . كان يجهل ذلك اللون من الصيد ، ولكن ابوه العجوز كان من اقوى انصاره ينظم الحفلات الخاصة به بحماس واندفاع .



الفصل الثالث

الخطوة الاولى

اخذت موجات الصقيع الاولى تحاصر الاراضي المشبعة بامطار الخريف وشرعت زروع الحنطة الشتوية تنشط على سيقانها الخضراء الزاهية وتعلو على بقايا حصاد الموسم السابقة : رقاع مائلة الى السمرة من القمح الخريفي وطئته اقدام الماشية ، ورقاع صفراء فاتحة من القمح الصغير المخطط بخطوط حمراء من من الحنطة السوداء . اما حزم الاشجار والحشائش الصغيرة التي تشكل حتى نهاية شهر آب جزراً صغيرة من الخضرة وسط بقايا القش والاراضي القمحية السوداء، فانها اصبحت الآن جزراً ذهبية وارجوانية بين الزروع زمردية اللون . اخذ الارنب البري ينسل و « يوسخ نفسه » على قول الصيادين ، وجموع الثعالب تفشت ونمت جراء الذئاب حتى فاقت على احجام الكلاب . فكان ذلك احسن الاوقات ملاءمة للصيد. مع ذلك فان مجموعة كلاب روستوف الشاب المتقد كانت على غير استعداد حتى انه تقرر في مجلس الصيادين العام اعطاءها راحة ثلاثة أيام لتستطيع العودة الى الصيد في السادس عشر من ايلول ، وحينئذ يشرع بالتغيب في غابة السنديان حيث نمى اليهم وجود فصيلة من الذئاب لم تمس بعد .

تلك كانت الحالة في الرابع عشر من ايلول . لم يستطع الصيادون الخروج

طيلة النهار بسبب شدة وطأة الجمد . لكن الطقس اعتدل بعض الشيء عند المساء . وفي الخامس عسر صباحاً ، عندما وقف روستوف الشاب في ثوبه المنزلي الى النافذة ، اتيح لناظريه طقس لايمكن ان يحلم المرء بافضل منه للصيد : بدت السماء وكأنها تذوب لتغرق الارض دون ان تتصدى لها نأمة ريح . اما سقوط أهباء الضباب غير الملموس فكان الحركة الوحيدة التي تظهر في الفضاء . اخذت أغصان الحديقة المجردة تساقط لآلي شفافة فوق أوراق حديثة السقوط والارض التي ظهرت عند بستان الخضـــار ، مزينة بسواد حبات الخشخاش اللامعة ، اخذت تغيب تدريجياً على البعد تحت كنن الضباب الكامد المخضل . خرج نيكولا فوق المرقاة الرطبة المتسخة باثار موحلة . كانت رائحة الاوراق الذابلة تمتزج برائحة الكلاب . نهضت « جراسيوز » لطيفة ، كلبته ذات الاهاب الاسود والأبيض والمؤخرة العريضة والعينين السوداويين البـارزتين ، لدى رؤية سيدها وتمطت ثم قبعت كما يفعل الارنب ووثبت فجأة حتى بلغت انفه وشاربيه فلعقتهما . وهرع كلب صيد آخر من احد المماشي وانـدفع الى المرقاة معطف الفقار منتصب الذيل وجاء يدلك نفسه على ساقيه .

وفي تلك اللحظة ، دوى نداء الصيادين الذي لايقلد : « هو ... هو ... هو ... ! » يجمع بين ارفع الاصوات طبقة وأعمقها صدى وانبعث قائد فصيلة الكلاب دانيلو من وراء زاوية البيت . كان أشهب الوجه والشعر مغضن القسمات محلق الشعر على الطريقة الاوكرانية ، يحمل في يده سوطاً مطوياً وتحمل قسمات وجهه امارات الاستقلال الأنوف والاحتقار المتنـاهي الذي يبدو من خصائص قواد كلاب الصيد . رفع امام السيد قلنسوته الصوفية والتي عليه نظرة ازدراء لاتحمل في معناها شيئاً مهيناً . وكان نيكولا يعرف ان دانيلو ذاك ، الذي يحتقر كل الناس ويضع نفسه فوق مصافهم جميعاً ليس اكثر من رجله هو وقائد كلابه .

صاح نيكولا ـ الذي لدى رؤيته ذلك الطقس البديع المثالي ، والكلاب وقائد فصيلة كلابه ، لان امام جنون الصيد الذي يشبه جنون العشاق فينسيهم كل مشروعاتهم السابقة ـ :

ـ دانيلو !

سأل الرجل بصوت خفيض جدير برئيس شمامسه ، ولكن كثرة تحريضه الكلاب واثارتهم جعله اجشاً ، بينما راحت عينـــاه السوداوان اللامعتان تختلسان النظر الى سيده الصامت وكأنهما تقولان : « آه ! آه ! انك لاتستطيع المقاومة ! » .

ـ ماهي اوامركم ياصاحب السعادة ؟

قال نيكولا وهو يحك « لطيفة » وراء اذنيها :

ـ يوم بديع أليس كذلك ؟ جميل للجري والكمين .

غمز دانيلو بعينيه دون ان يجيب . وبعد لحظة عاد الصوت الخفيض يقول :

ـ لقد ارسلت « اوفاركا » للترصد منذ ان بزغ الفجر . انه يقول « انها » انتقلت من مكانها الى حرز اوترادنواي . لقد سمعها تعوي هناك .

كان معنى ذلك ان الذئبة الذي يعرف الجميع بوجودها ، قـد انتقلت مع جرائها الى غابة اوترادنواي المنعزلة بين الحقول على بعد نصف ميل من هنا .

قال نيكولا :

ـ اذن هل نذهب الى هناك ؟ تعال لترافقني انت وأوفاركا .

ـ حسب اوامرك .

ـ وانتظر أن يعطى الطعام للكلاب .

بعد خمس دقائق ، كان دانيلو وأوفاركا في مكتب نيكولا الكبير . صحيح ان قامة دانيلو كانت قصيرة ، لكن وجوده في حجرة مؤثثة كان له من الأثر مثل ماتخلفه رؤية حصان أو دب تائه فوق ارضية خشبية وسط قطع

من الاثاث ، يعيشان في الشروط اللازمة لحياة الانسان . ولم يكن دانيلو نفسه يجهل ذلك فكان يقف على العتبة - كعادته - جاهداً أن يتحدث بصوت خافت وأن لايتحرك من مكانه خشية أن يحطم شيئاً . وكان يسرع في الحديث فيفضي بما لديه ليخرج بسرعة الى الهواء الطلق .

وبعد أن طرح نيكولا عدة اسئلة وتلقى الاجوبة اللازمة من دانيلو الذي لم يكن همه الا الانصراف ، تأكد الكونت الشاب ان الكلاب لاتتعرض لأي خطر ، فنهض وأمر ان تسرج الجياد . وبينما كان دانيلو يتأهب للخروج ، هرعت ناتاشا في ثياب المنزل متدثرة بشال وصيفتها العجوز الكبير فوق شعرها الاشعث يرافقها بيتيا ، قالت :

- انك ذاهب الى الصيد ؟ كنت واثقة من ذلك ! بينما كانت سونيا تؤكد العكس يستحيل ان يقاوم الانسان الرغبة في الذهاب الى الصيد في مثل هذا الجو !

اجاب نيكولا ممتعضاً ، لأنه كان يزمع الانهماك في صيد جدي يمنعه من اصطحاب ناتاشا وبيتيا :

- نعم ، نعم . لكننا سنطارد الذئب هذه المرة ولن يكون الأمر مسلياً بالنسبة اليك .

- على العكس ، انها اقوى رغائبي . يالعين ! يذهب الى الصيد دون ان يخطرنا !

هتف بيتيا :

- الى الأمام ! « لاشيء يشكل عائقاً في طريق الروسي ...[1] »

- ولكن ياناتاشا ، لايمكنك ان تأتي معنا ، ان امنا تمانع ...

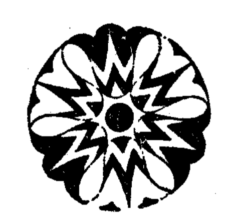
---

(١) مطلع نشيد باجراسيون كما سنرى في الجزء الثالث من هذا الكتاب .

بذلك اعترض نيكولا ، لكن ناتاشا اصرت بلهجة حازمة :

- بل سأذهب ، سأذهب رغم كل شيء . دانيلو مر ان تسرج لنا جياد وقل لميخائيلو ان يأتي بقود كلاب الصيد العائد لي .

واذا كان دانيلو يجد غضاضة وعناء في المكوث في حجرة ما ، فقد كان كذلك لايطيق مجرد التفكير في ان تكون له علاقة بالشباب .لذلك فقداطرق برأسه وبادر الى الانصراف وكأن كلمات الآنسة لم تكن موجهة اليه . لكنه عني في خروجه ان يتجنب الاحتكاك بها او اصابتها بحركة غير مقصودة من حركاته .



الفَصلُ الرابعُ

الذئب

قرر الكونت العجوز الذي كان في حالة نفسية مشرقة ذلك اليوم ، والذي كان يملك معدات كبيرة هامة للصيد ، اسلم زمامها الى ولده مؤخراً ، ان ينضم الى البعثة .

لم تمض ساعة حتى كان كل شيء جاهزاً امام المرقاة . سار نيكولا امام ناتاشا وبيتيا دون ان يلقي بالاً الى ما يحدثانه عنه ، مبيناً بتصرفه ذاك أن الوقت لا يتسع للترهات . وبعد ان تفقد كل شيء حتى اتفه التفاصيل ، وارسل فصيلة من الكلاب مع كشافين تتقدمهم ، اعتلى صهوة حصانه الأشقر : دونيتز وصفّر ينادي كلاب موكبه الشخصي واندفع عبر الحقول متجهاً صوب غابة اوترادنواي . وكان مرافق الكونت العجوز يقود حصانه « فيولان » ـ عنيف ـ ، وهو حصان اشهب عاقر ذو ذؤابة بيضاء . اما الكونت نفسه ، فكان عليه بلوغ المركز المعين له للمراقبة مستعملاً الزحارقة .

اسلم زمام خمسين كلب عداء الى ستة من الخدم المختصين بالكلاب ، واطلق ثمانية آخرون من الخدم ، اكثر من اربعين كلباً سلوقياً . ولو جمعت فصائل كلاب السادة ، لبلغ عددها مائة وثلاثين كلباً يواكبها عشرون صياد على خيولهم .

كان كل كاب يعرف اسمه وقائده وكل صياد ، مركزه ودوره . وما ان خرج الجمع الى الارض الفراغ ، حتى تفرقوا جميعاً بصمت وسكون وبخطى هادئة متزنة في الدروب المؤدية الى الغابة .

كانت الخيول تتقدم في البرية وكأنها تطأ بساطاً مرناً . لكنها عند تلاقي الطرق ، كانت تخوض في برك من المياه . وكان الضباب مستمراً في الذوبان البطيء غير الملموس مع الارض ، والهواء ساخناً خفيفاً . ومن حين الى آخر ، كانت صفارة احد الصيادين تدوي او يرتفع شخير حصان او فرقعة سوط او نباح أليم لكلب طلب اليه العودة الى الصفوف والانتظام .

اجتاز الموكب ربع ميل تقريباً ، عندما انفصل عن الضباب خمسة فرسان آخرين على رأسهم عجوز جميـــل الطلعة لايزال وافر النشاط ، ذو شاربين ابيضين ضخمين .

قال نيكولا عندما اقترب العجوز منه :

ــ مرحباً ياعماه .

قال العم ، وهو قريب بعيد لآل روستوف غـــير واسع الغنى ، يقطن في جوارهم :

ــ انه واضح تماما ، الى الأمام سر ! ... لقد كنت واثقاً من خروجكم . كنت اعرف انك لن تقاوم وانك لعلى حق . انه واضح ، الى الامام سر ! ــ وهذه عبارة العم المفضلة ــ . هاجم الغابة فوراً لأن رجلي جيرتشيك ، اعلمني ان آل ايلاجين متمركزون بموكبهم في كورنيكي . لسوف ينتزعون منك اسرة جراء الذئاب ، انه واضح ، الى الأمام سر !

ــ اننا ذاهبون الى الغابة . هل نجمع فصائل الكلاب ؟

جمعت الفصائل ومضى العم ونيكولا ساقاً الى ساق . اما ناتاشا المتدثرة بشالات عديدة يبرز خلالها وجهها ذو العينين البراقتين المنفعلتين ، فقد تبعتهما بصحبة

بيتيا يواكبها قائد الكلاب ميخائيلو الذي اقامته خادمتها العجوز حارساً عليها.
وكان بيتيا مبتهجاً كل الابتهاج ، يسوط حصانه ويثيره ليندفع به . اوقفت
ناتاشا وهي كالطود الراسخ فوق سرجها ، بحركة مدربة من يـدها حصانها
الادهم « نيجريون » .

القى العم نظرة استياء الى حيث وقف الشابان : ما كان يجب ان يجتمع
عبث الصبيان بالامور الجدية . هتف بيتيا :

- صباح الخير يا عماه ، اننا هنا نحن ايضاً .

- صباح الخير ، صباح الخير . ولكن حاذرا ان تسحقا الكلاب ...

قالت ناتاشا وهي تتحدث عن كلبها العداء المفضل :

- نيكولا ، يا له من كلب لطيف « تاكان » مشاكس هذا ، لقد عرفني!

قال نيكولا في سره : « ان مشاكس ليس كلباً بل كلب عدو » وبنظرة
صارمة اوضح لاخته المسافة التي يجب ان تحتفظ بها بينهما ، فامتثلت ناتاشا وعملت
بما يطلب .

استأنفت تقول :

- لاتقلق ياعماه ، لن نزعجكم في شيء . لن نتحرك من مكاننا .

اجاب العم :

- هذا افضل ، هذا افضل ايتها الكونتيس الصغيرة . فقط لاتسقطي عن
جوادك ، ففي هـذه الحالة اذن ، كل شيء واضح ، الى الامام سر ! لن تبقى
لديك وسيلة للحاق بنا .

كانت الجزيرة التي تشكلها غابة اوترادنواي ، تلوح على بضع مئات من
الامتار وقد بلغها رؤساء فصائل الكلاب . درس نيكولا مطولاً مع العم خير
الامكنة التي يشرع فيها باطلاق الكلاب . وبعد ان حلا هذه المعضلة الخطيرة ،
دلّ ناتاشا على المكان الذي يجب ان تقف فيه ، مراعياً في ذلك النقطة التي
لايمكن لحيوان بلوغها ، ثم دخل الغابه من أعلى الوادي .

قال العم :

ـ انتبه يا ابن اخي ، انك ازاء ذئب ضخم فلا تدعه يفلت .

صاح نيكولا دلالة على اخذه العلم بملاحظات العم :

ـ سوف نرى ... « رافاجور » مدّمر ، تعال هنا !

كان رافاجور هذا امغر اللون قبيح الشكل منتفخ الحنكين ، عليه ان يهاجم الذئب الضخم وحده . مضى كل الى مرقبه .

خشي الكونت العجوز ـ وهو الذي يعرف مدى حماس ابنه ـ ان يصل الى مركزه متأخراً . لكن الصيادين لم يكونوا قد احتلوا امكنتهم بعد عندما وصل اليا آندريئيتش ، مرحاً قرمزي الخدين يرتج خداه من الانفعال ، ماراً بين سوق القمح الخضراء ، تسابق خيول زحافته السوداء الريح ، الى المركز المعين له عند الغابة . وبعد ان أحكم كل ادوات الصيد فوق فروته النصفية ، امتطى صهوه « فيفليانكا » وهو حصان هادىء جيد التغذية لامع الجلد وخطه المشيب كصاحبه . وعلى الرغم من ان الكونت لم يكن صياداً في روحه ، فانه كان يعرف قوانين الصيد كلها . لذلك فقد اتجه الى مكانه عند حدود الغابة وجمع الاعنة في يده واستقام فوق سرج الحصان . ولما شعر بانه على استعداد ، سرح حوله نظرة باسمة .

كان يرافقه وصيفه سيمون تشيكمار ، وهو فارس هرم بدأ ينثني تحت ثقل السنين . وكان يمسك بيده مقاود ثلاثة كلاب قوية ولكن كثيرة الشحم كالحصان وصاحبها ، بينما رقد قريباً منها كلبان آخران طليقان وعلى بعد مائة خطوة ، عند طرف الغابة ، تربض ميتكا ، وهو مرافق آخر للكونت ، فارس ماهر وصياد دنف . تجرع الكونت ، وفاء منه لتقليد قديم ، جرعة كبيرة من العرق في كأس فضية ثم التهم قطعة من التوابل بسرعة بعد أن أغرقها في نصف زجاجة من نبيذ بوردو المفضل عنده ، فزادت تلك الوجبة من تضرج وجهه وراحت عيناه اللتان يغرقهما الماء تلتمعان كالوميض المبهر . استوى فوق سرج

الجواد متدثراً بفرائه القصير ، فبدا أشبه بطفل أخرج الى النزهة .

شرع تشيكمار النحيل ذو الخدين المتدليين ،بعد ان فرغ من استعداداته، يسأل سيده الكبير الذي كان يعيش معه على اتم وفاق منذ ثلاثين عاماً،والذي تبين له من انبساط اساريره ومزاجه الممتاز انه على استعداد للدخول في حديث طلي . خرج شخص ثالث من الغابة باحتراس ـ والقط الذي حرقته المياه الحارة يخشى من الماء البارد ـ وجاء يتمركز وراء الكونت . كان هـــذا القادم هو « المهرج » العجوز ذو اللحية البيضاء المزمل بمعطف نسائي وقلنسوة عالية جـداً وكان يجيب على الاسم النسائي المستعار : ناستاسيا ايفانوفنا . قال له الكونت بصوت خافت وهو يغمز له بعينه :

ـ إه يا ناستاسيا ايفانوفنا ! حاول ان لاترهب الوحش والا ، حـــذار من دانيلو !

اجاب ناستاسيا ايفانوفنا :

ـ ان لساني ليس في جيبي انا الآخر !

اهاب به الكونت .

ـ صه ، ثم استدار الى سيمون وسأل :

ـ هل رأيت ناتالي ايليينيتشنا ? أين هي ?

اجاب سيمون باسماً :

ـ انها قائمة مع بيوتر ايليتش عند مخرج ادغال جاروف . انها رغم كونها امرأة مولعة أشد الولع بالصيد .

ـ ويالها من فارسة ماهرة ياسيميون ! انها تتفوق على الرجل في الركوب!

ـ نعم ، انها تركب الخيل بمهارة : انها ذكية وجذابة ...

سأل الكونت بصوت خافت :

- وابني نيكولا أين هو ؟ في وادي ليادوف بدون شك ؟

فاعلن سيميون الذي يعرف نقطة الضعف في سيده :

- بالتأكيد . أوه ، انه يعرف المركز الجيد ! ثم انه فارس لايشق له غبار!

اننا ، دانيلو وانا لانصدق اعيننا كلما رأيناه على صهوة جواده .

- هه ، انه يتقن الركوب ! وبأية براعة !

- انه يصلح للتصوير ! ذاك اليوم عندما اكتشف ثعلباً في آجام زافارزينو، قفز قفزة لله ما أروعها ! ! ان حصانه يساوي حتماً الف روبل ، اما الفارس ،فانه لايقدر بثمن . ان فتى مثل هذا كما ترى ، ليس من السهولة ايجاد شبه له !

ردد الكونت وكأنه يأسف لان سيميون لم يجد عبارة اقوى من هذه لوصف ابنه :

- شبيهاً له ... شبيهاً له .

وعاد يكرر هذه العبارة بصورة آلية وهو يرفع اطراف فروته القصيرة ليأخذ علبة السعوط .

- وذلك اليوم بينما كان خارجاً من الصلاة بابهى منظر ، ميخائيل سيدوريتش

لم يتمم سيميون جملته لانه أحس في ذلك الهدوء بالمطاردة والعواء المكتوم الصادر عن كلبين عداءين أو ثلاثة كلاب فاحنى رأسه واصاخ السمع ثم اشار بيده الى سيده ان يلزم الصمت ودمدم :

- لقد عثروا عليها انهم يطاردونها هابطين في الوادي .

ظل الكونت محتفظاً بالابتسامة على شفتيه ينظر أمامه الى حيث توقع هجوم الكلاب وعلبة السعوط في يده دون ان يستعملها . ولم يلبثا بعد سماعها العواء ان تبينا نداء : الى الذئب ينطلق من حنجرة دانيلو ذي الصوت الغليظ الرنان . اتحدت فصائل الكلاب كلها واتحدت بالثلاثة الاول وارتفعت زمجرة

الكلاب السلوقية التي تظهر فيها اهتزازات خاصة تدل على انها في اثر الذئب .
ولم يعد الخدم يصرخون : تآيوت ! بل : هارلو ! وكان صوت دانيلو المنخفض الخطير حيناً والثاقب حيناً آخر يطغي على الاصوات الاخرى وكأنه يملأ الغابة كلها فيبلغ حدودها ثم ينتشر بعد ذلك في ابعاد البرية .

وبعد ان اصغيا فترة صامتتين ، تأكد الكونت ومرافقه ان الصيد انقسم الى قسمين : الاول ويضم العدد الاوفر والصخب الاعلى والاشد يبتعد عن جهتها تدريجياً والثاني ، وهو الذي تنبعث فيه صيحات دانيلو « هارلو » يمر عبر الغابة على مقربة من مكان الكونت اخذت اصوات الفرقتين تختلط وتتجاوب ولكن تمعن ابتعاداً

زفر سيميون وانحنى ليخلص كلبه الشاب من المقود الذي التف حوله . وكذلك زفر الكونت بدوره ولما تبين انه يحمل علبة سعوطه فتحها وادخل فيها ابهامه وسبابته . وفجأة صاح سيميون بكلب خرج في تلك اللحظة من جانب الغابة : « الى الوراء ! » وانتفض الكونت وسقطت علبته من يده . فترجل ناستاسيا ايفانوفنا ليلتقطها تحت انظار الكونت وسيميون اللذين لم يحركا ساكناً .

وفجأة ، كما يحدث غالبا ، اقترب صخب الصيد منهم حتى خيل اليهم ان رؤوس الكلاب النابحة التي يشجعها دانيلو بصرخاته تبرز امام اعينهم .

أدار الكونت رأســـه فرأى على يمينه ميتكا الذي كان ينظر اليه جاحظ العينين وقلنسوته مرفوعة بيده يشير له بها الى شيء ما في الناحية الاخرى الى الامام . صاح ميتكا بصوت شبه الانفجار :

حذار !

واطلق كلابه واندفع على حصانه باتجاه سيده . ابتعد الكونت وسيميون عن حدود الغابة فرأيا الى يسارهما الذئب الذي كان يتجه نحو البقعة التي بارحاها بقفزات صغيرة من جسمه المرن فثارت الكلاب وانتزعت مقاودها من يـــد

قائدها واندفعت نحو الذئب معرضة نفسها لخطر الدهس تحت حوافر الخيل.

توقف الذئب فجأة بغباء شأن المصاب بالخناق وأدار رأسه باتجاه الكلاب المهاجمة ثم قفز قفزتين اوثلاثاً بمثل حركته المتأرجحة وتسلل عبر الآجام وهو يحرك ذؤابة ذيله . وفي ذات اللحظة اندفع من الجانب المضاد وسط زمجرات شاكية ، كلب ثم اثنان ثم ثلاثة من الكلاب العداءة تتبعهم فصائل الكلاب كلها مندفعة كتلة واحدة في غير انتظام نحو المكان الذي اختفى فيه الذئب واخيراً انشقت ادغال البندق عن دانيلو فوق حصانه الاصهب وقد سوده العرق. كان دانيلو متكوراً فوق ظهر الحصان العريض منحنياً الى الامـــام عاري الرأس وشعره الابيض مشعث مبعثر فوق وجهه القرمزي السابح في العرق . كان يصيح ملء حنجرته : – هارلو ، هارلو ... لكنه ماأن رأي الكونت حتى التمعت الصاعقة في نظره وزمجر وهو يهدده بسوطه :

– يالله ... ! لقد أفلت منهم الذئب ياللصيادي النحس !...

ودون ان يتنازل بالتحدث اكثر من ذلك، ترك الكونت في مكانه مذهولا مشدوهاً وانهال بالضربات التي اعدها لسيده على كشح حصانه الغارق في العرق واندفع يتبع كلابه . أذهلت هذه البادرة الكونت ، فالتفت نحو سيميون يستجدي عطفه بابتسامة . لكن هذا لم يكن في مكانه : كان يلف حول الادغال ليرغم الذئب على الخروج من الغابة . كذلك كانت الكلاب السلوقية تطارد الحيوان من اليمين والشمال . لكنها ما كانت تستطيع التغلغل عـــبر الادغال وهكذا ولم يستطع احد ان يقطع الطريق علي الذئب .

الفصل الخامس

مقتل الذئب

ظل نيكولا روستوف خلال تلك الفترة ينتظر في مركزه ظهور الذئب يستهدي بابتعاد الصيد أو اقترابه ، واختلاف العواء وتردده ومسافات النـــداء ويعتبر تلك البوادر نقاطاً مضبوطة للاستهداء . كان يعرف أن في تلك الغابة جراء ذئاب وذئاباً ضخمة ويعرف أن فصائل الكلاب قد انقسمت الى قسمين وان احدهما قد تبع الحيوان المفترس حتى مكان ما ثم وقع حادث معين ،لذلك كان ينتظر في كل لحظة ان تنزاح الاغصان عن الذئب ، ويعمل في نفسه الف حساب عن الجهة التي قد يتجه الوحش فيها وعن الطريقة التي سيعمد اليها لمهاجمته. وكان الأمل في نفسه يتناوب مع اليأس . طلب الى ربه مرات عديدة أن يجعل الذئب يخرج من ناحيته ، وراح يصلي بحرارة مخجلة بعض الشيء ، كما يصلي المرء في مناسبات تجعل بعض الاسباب التافهة الاضطراب يصعد من اعماق النفس الى الى الالسنة . كان يقول : رباه ، ماذا يكلفك ان تفعل ذلك من أجلي ؟ انك ولاشك أرفع من هذه الصغائر ، وانها لخطيئة ان اتوجه اليك بمثل هذا الابتهال لكنني اتوسل اليك ، اعمل على أن يتجه ذئب ضخم نحوي وان يهرع كابي مدمر اليه تحت انظار عمي الذي اراه هناك يرقبني ، فيعمل فيه بانيابه في عضة قاتلة

في حلقه ! » ادار روستوف نظره حوله خلال نصف الساعة تلك ، اكثر من الف مرة بعناد وترقب وقلق وحدق في حدود الغابة وتينك السنديانتين الهزيلتين اللتين تبرزان خلال غيضة من الحور ، وذلك المنحدر ذي الجوانب المضرسة وقلنسوة العم التي لاتكاد تظهر بوضوح عبر دغل صغير الى اليمين .

كان يحدث نفسه : « كلا لن يكون لي هذا الحظ السعيد ! وماذا يكلف ذلك ! كلا ، لن يكون لي هذا الحظ . انني دائماً هكذا ، في الحرب ، في لعب الورق ، لاأحصد الا الخسران » مرت في مخيلته ذكرى اوسترليتز ودولوخوى بسرعة ولكن بوضوح شديد وراح يفكر : « ليتني استطيع مرة واحدة في حياتي أن أطارد ذئباً ضخماً وأصرعه ، إنني لاأطلب اكثر من ذلك ! » استمر يبحث حوله مستطلعاً مصيخاً بسمعه الى اضعف وأتفه اصوات الصيد .

وبينما هو ينظر الى يمينه ، شاهد شيئاً يجري نحـــوه عبر السهل الاجرد . حدث نفسه وهو يطلق زفرة أرتياح كالتي تنطلق من الصدور عندمـا يتحقق حلم جميل ظل زمناً طويلا يتهدهد في حناياها : « آه ! هل يعقل ذلك ؟ » وتحققت سعادته القصوى وبكل بساطة ، دون ضجيج ولا دوي ولا أشارات أو دلائل مسبقة ، لم يصدق ماتراه عيناه فظل فترة معينة فريسة الشك . لقد كان الذئب متجهاً نحوه على خط مستقيم ، بعد ان عبر بتثاقل حفرة كانت تقطع عليه الطريق . كان ذئب هرم مبيض الفقار ، أشهب البطن غير خال من السوء ، يجري دون تعجل لقناعته ولا شك بان احداً لايراه . امسك روستوف أنفاسه والقى نظرة على كلابه التي كانت بين مستلقية وواقفة ولا تشك في شيء رأى « مدّمر » العجوز مطأطيء الرأس مكشراً عن انيابه الصفراء يقرعها على قفاه باحثاً بحماسه عن برغوث يضايقه . قال روستوف بصوت خافت وهو يزم شفتيه :

ـ هارلو ! هارلو !

هزت الكلاب مقاودها وقفزت ناصبة آذانها . كف مدّمر عن حك جلده

ونهض ناصباً اذنيه يبصبص بذيله الذى تتدلى منه كتل من الوبر . تساءل نيكولا بينما كان الذئب مستمراً في تقدمه نحوه مبتعداً عن الغابة : « هل يجب ان أطلقها ؟ » وفجأة تبدل تصرف الحيوان : انتفض لانه ولاشك أبصر عيوناً آدمية ترقبه ، وادار رأسه ببطء نحو الصياد ثم توقف . بدا كأنه يتساءل : « ماذا اعمل الآن ؟ هل أقدم أو أرجع ؟ إه ! لكن هيا ! » ودون ان يتردد اكثر من ذلك استعاد جريه بقفزات مرنة واسعة غير متساوية ولكن ثابتة.

صرخ نيكولا بصوت مختلف :

– هارلو ! ..

واندفع بأقصى سرعة على المنحدر يحمله حصانه الجبار قافزاً به فوق الأغوار والمناقع ليقطع السبيل على الذئب . أما الكلاب فقد سبقته بسرعة اكبر وراء الطريدة . لم يعد نيكولا يشعر بنفسه وهو يصرخ او يرى القفزات الخطيرة التي كان يقوم بها ، ولا الكلاب التي تجري مندفعة امامه ولا الارض التي يطير فوقها . لم يكن يرى الا الذئب الذي ازدادت سرعته على طول المنحدر دون ان يبدل وجهته . ظهرت كلبته المرقشة « لطيفة » ذات المؤخرة العريضة الى جوار الوحش . بل انها لحقت به عندما اختلس الذئب نظرة اليها ، وحينئذ بدلاً من ان تتقدمه « لطيفة » كما كانت تعمل عادة ، اعتمدت على قائمتيها الاماميتين منتصبة الذنب وتسمرت في مكانها . صرخ نيكولا :

– هارلو !

اندفع الكلب الاشقر « مختار » الذي انبعث فجأةوراء « لطيفة » وأطبق على فخذي الذئب الخلفيتين . لكنه القي بنفسه جانباً وهو فريسة للهلع . سقط الذئب وصر على اسنانه ثم نهض وعاد الى العدو تتبعه الكلاب على بعد نصف متر دون ان تجرأ على اللحاق به .

حدث نيكولا نفسه وهو يتابع صراخاته بصوته الأجش : « سوف يفلت مني ! ولكن لامستحيل ! » زجر وهو يبحث بعينيه عن كلبه العجوز أمله الوحيد :

- مدمّر ! هارلو ! ...

رأي الكلب العجوز يركض بتثاقل مستعيناً بكل قواه الهرمة متوفز الجسد منبسطة ، شاخص العينين الى الحيوان يحاول ان يقطع عليه سبيل الفرار. لكن مرونة الذئب وبطء الكلب النسبي يظهر ان بوضوح ان خطط هذا الأخير لن تكون ناجحة . أخذ نيكولا يرى بأم عينه الغابة تقترب من الذئب الذي يهرع اليها ليختفي بين ادغالها وكاد اليأس ان يتسرب الى نفسه عندما شاهد فجأة صياداً آخر وكلابه يندفعون نحوه منجدين . وحينئذ تجدد أمله . اندفع كلب فتي أسمر أصهب متطاول الجسد يجهله نيكولا وألقى بنفسه باستماتة على الذئب فكاد ان يصرعه . لكن الوحش نهض بأسرع مما كان متوقعاً وارتمى على الكلب وهو يصك بأنيابه فارتفع عواء الحيوان المسكين ، عواء مخيف مؤلم وسقط الكلب ممزق الكشح دامي الجسد على الارض ورأسه تحته .

زجر نيكولا بغضب :

- مدمّر ! هيا يا صديقي ! ....

استطاع الكلب العجوز بفضل تلك الحادثة ان يسبق الذئب بخمس خطوات جارياً وكتل الوبر تتدلى على فخذيه . كان الآن يقطع الطريق على الذئب تماماً شعر الحيوان بالخطر : نظر الى « مدمّر » نظرة شاملة وضم ذيله بين ساقيه واسرع في عدوه . لكن « مدمّر » اطبق على خصمه بمثل لمح النصر وتدحرج معه رأساً على عقب في حفرة كانت أمامها .

لم يفهم نيكولا بادىء الامر ماذا وقع لكلبه مدمّر . لكنه أحس باحدى فرحات العمر الكبيرة عندما رأى الكلاب تتجاذب فروة الذئب السمراء في

اعماق الحفرة ورأى احدى قوائمه الخلفيه متصلبة ورأسه ذا الأذنين المائلتين تبدو عليه آيات الذهول والهع ، وأخيراً ، الكلاب العجوز مدمّر مطبقاً على حنجرته . امسك قربوس سرجه محاولاً الترجل للاجهاز على الحيوان عندما برز رأس الحيوان خلال جمع الكلاب وراحت قائمتاه الاماميتان تحاولان تسلق الحفره . وقفز الذئب الذي تخلص من فكي مدمّر الى خارج الحفرة وضم ذيله بين ساقيه وعدا متجاوزاً مطارديه من جديد . خرج مدمّر من الحفرة بصعوبة منثور الوبر ولعله كان جريحاً او مرضوض الجسد . هتف نيكولا بيأس :

– رباه ! ماذا عملت لك حتى تعاقبني على هذا النحو ؟

في تلك اللحظة . وصل قائد كلاب العم مع كلابه مرخياً عنان جواده ، وقطع الطريق على الذئب . ومن جديد احيط بالحيوان .

احاط نيكولا وقائد كلابه والعم وقائد كلابه كذلك بالدائرة التي يتوسطها الذئب ومن حوله الكلاب وراحوا يصرخون معاً « هارلو ». وكلما قعس الذئب على مؤخرته ، حاول نيكولا النزول . لكن الحيوان كان يشق طريقه بيأس نحو الغابة حيث السلام والخلاص .

خرج دانيلو منذ بدء المطاردة من مكان على حدود الغابة مستهدياً بصرخات الصيادين . ولما رأى الكلب « مدمّر » مطبقاً بأنيابه على عنق الذئب أوقف حصانه معتقداً ان كل شيء قد انتهى . لكنه عندما رأى الصيادين في امكنتهم على صهوات الجياد والذئب يتخلص من اعدائه ويفر من مطاردتهم ، ارخى لادهمه العنان ليس باتجاه الحيوان بل باتجاه الغابة على طريقة الكلب مدمّر ، ليقطع الطريق على الغار . وبفضل هذه المناورة البارعة وصل هدباً باتجاه الذئب في الوقت الذي حاصرته فيه كلاب العم للمرة الثانية .

كان دانيلو يهدب بسكون وفي يسراه خنجر مجرد بينما أخذت يمناه تسوط

الادهم الذي كان يجري بأقسى سرعة متوقعة . غابت حركاته عن عيني نيكولا فلم يشعر الا بلهاث العقيم الثقيل عندما مر أمة وسقطة جسد فجائية . وحينئذ رأى دانيلو مستلقياً بين الكلاب مطبقاً على مؤخرة الذئب يحاول الامساك بأذنيه . وحينئذ فقط ادرك الصيادون والكلاب والذئب نفسه ان كل شيء قد انتهى هذه المرة . حاول الحيوان لآخر مرة في غمرة رعبه وهو له ان يتخلص لينجو بنفسه ، بيدان الكلاب غمرته « نهض دانيلو وتقدم خطوة بتعثر ، وكما يلقي المرء بنفسه على سريره ، انهار بكل ثقله على الحيوان وأمسك بأذنيه . هم نيكولا ان يطعنه بخنجره ، غير ان دانيلو همس له قائلا : « لا فائدة سوف نشده » وأبدل من وقفته ووطىء عنق الذئب بقدمه . غرزوا له عصاً في حلقه ثم أوثقوه بقود على طريقة الانشوطة بعد ان ربطوا قوائمه . وعندئذ ادار دانيلو مرتين اوثلاثاً من جانب الى الآخر .

حمل الصيادون الذئب على الحصان الذي كان يتراجـــع بذعر الى الخلف ويشخر بخوف ، ووجوههم المبتسمة الضاحكة تنطق بالتعب ، ثم اتجهوا الى مكان الاجتماع توافقهم فصائل الكلاب التي كانت تنبح الذئب المتدلي . اقترب كل الصيادين ، الفرسان منهم والمشاة ، ، لرؤية الذئب الذي كان رأسة الضخم متدلياً ، ينهش بانيابه العصا المغروسة في حلقه ويحدق في الجموع والكلاب التي تحيط به بعينين كبيرتين زجاجيتين . فاذا مالمسه بعضهم ، ارتعد جسده وحرك قوائمه الموثقة والقى على المعتدين نظرات ساذجة ومتوحشة معاً . جاء الكونت ايليا آندريئيتش بنفسه ولمس الحيوان كذلك ثم سال دانيلو الذي كان واقفاً بالقرب منه :

— آه ! آه ! ان ذئب ضخم بديع ! انه كبير اليس كذلك ؟

فاجاب هذا وهو يبادر الى نزع قبعته :

ـ تماماً ياصاحب السعادة .

تذكر الكونت الخطيئه التي ارتكبها حين ترك الذئب يفلت منه والوقف الذي وقفه دانيلو منه ، فقال له :

ـ اتدري ياعزيزي انك لست لبقاً ؟

فاكتفى دانيلو بالابتسام ، ابتسامة مرتبكة تحمل طيبة الاطفال . وكانت تلك الابتسامة وحدها هي الجواب .



الفصل السادس

الخصم ايلاجين

عاد الكونت العجوز الى المنزل بعد ان وعده بيتيا وناتاشا بموافاته بعد قليل واستمر الصيد لأن الوقت مازال مبكرا . وحوالي الظهر ، اطلق الصيادون الكلاب العداءة في الوادي الذي تغطيه ادغال واعشاب نامية كثيفة ، وقبع نيكولا بين سوق الحنطة المحصودة يراقب رجاله كلهم .

اختفى قائد كلابه في حفرة واقعة وسط بقعة من القمح الجديد ، كائنه قبلة مكانه ، وراء باقة كثيفة من شجر البندق . لم يمض زمن طويل على انطلاق الكلاب حتى تناهى الى سمع نيكولا صوت نباح احدها المتقطع ، فعرف فيه كلبه « فانفاران » وانضمت كلاب اخرى اليه ، بعضهم صامت والبعض الآخر يزمجر اويعوي . وبعد هنيهة ، علا صوت من الغابة ينبه الى اكتشاف ثعلب فتوقفت الفصائل كلها ثم اندفعت معاً في الارض العراء مبتعدة عن نيكولا ، باتجاه القمح الأخضر .

شاهد نيكولا قواد الكلاب بقلنسواتهم الحمراء ، يطاردون على صهوات جيادهم فوق حافة الوادي ، وتبين الكلاب كذلك فانتظر ان يظهر الثعلب في ايه لحظة من الجانب الآخر من حقل القمح .

شرع قائد الكلاب المختفي بالمسير وفرق كلابه . وحينئذ شاهد نيكولا ثعلباً عجيب المظهر بلون ناري محجل القوائم مشرع الذنب يجرى بسرعة بين الخنطة الخضراء . كادت الكلاب ان تصل اليه ، وعندئذ راح يرسم دوائر آخذة في الضيق وهو يكنس الارض بذنبه الكث . وفجأة ارتمى عليه كلبان: ابيض مجهول الهويه وآخر اسود . ثم اختلط كل شيء ورسم الكلاب نجمة حول الحيوان الذي ظل جامداً تقريباً يواجه خصومه . ووصل قائدان احدهما ذو قلنسوة حمراء والآخر مجهول ، بجلباب أخضر ، يحسان فرسيهما .

تساءل نيكولا : مامعنى هذا ؟ من اين جاء هذا المجهول ؟ انه ليس قائد كلاب العم ! »

قضيا على الثعلب ولبثا فترة طويلة في مكانهما دون ان يوثقاه أو ان يعتليا ظهري جواديهما اللذين كان سرجاهما ذوو القربوسين العاليين ظاهرين خلال الدغل . كانت الكلاب راقدة حولهما . اما الرجلان فكانا يلوحان بايديهما وكأنهما يتنافسان على الطريدة. دوى قرع طبل ، وهي اشارة مصطلح عليها ، تدل على وقوع عراك . قال قائد كلاب نيكولا :

ـ انه قائد كلاب آل ايلاجين يتشاجر مع ايفاننا .

ارسل نيكولا مكاتبه يستقدم ناتاشا وبيتيا واتجه متمهلاً نحو المكان الذي فيه الخدم يجمعون الكلاب. بلغ بعضهم مكان المشاجرة .

ترجل ليتعرف الى واقع الخلاف وتوقف قرب الكلاب مع ناتاشا وبيتيا اللذين وصلا بدورهما . وجاء المكاتب الذي كان طرفاً في النزاع ممتطياً صهوة جواده معلقاً الثعلب الى السرج ، قاصداً سيده الشاب . رفع عن بعد قلنسوته وجهد في اتخاذ لهجة محترمة . لكنه كان يغص بالغضب ويختنق ، ووجهه شاحب ثائر وكانت احدى عينيه متورمة ، لكنه لم يكن ملقياً بالاًاليها . سأله نيكولا :

ـ ماذا وقع بينكما ؟

– وكيف ! هل سيسرقون الآن الطرائد منا ؟ لم يكن ينقصنا الا هذا ! ثم انها الكلبة الرمادية بلون الفأر التي امسكت به . ولكن لامجال لافهامه ذلك . اراد ان يتملك الثعلب ، لكنني ، انا ، انتزعت الحيوان ولكمته على خياشيمه . هاهوذا معلق الى سرج جوادي .

ثم اضاف وهو يلوح بسكين الصيد الذي في يده ، ولعله كان يعتقد ان خصمه لايزال امامه :

– اذا كان مافعلته بك لايكفيك يافتاي فسيكون سكيني هـــذا في خدمتك ...

لم يجبه نيكولا بل طلب الى اخويه ان ينتظراه وقصد الى المكان الذي توقفت فيه جماعة صيد الخصم إيلاجين .

اندمج قائد كلابه المنتصر في غمار زملائه وراح يقص عليهم ماعمل مدفوعاً بفضولهم المشجع وعطفهم الواضح .

هذا ماوقع : كان آل ايلاجين متخاصمين مع آل روستوف خصومة قضائية وكان هذا يصطاد في اراض كان اولئك يعتبرونها من أملاكهم بحكم تصرفهم فيها زمناً طويـــلاً . وفي ذلك اليوم بالذات ، وكانه امر مقصود ، اقترب ايلاجين من غابة آل روستوف وسمح لقائد كلابه ان يتتبع صيـداً اكتشفه كلاب خصمه .

كان نيكولا ، وهو المتطرف في ارائه تطرفه في عواطفه ، يكره ايلاجين كرهاً شديداً دون ان يراه ويعتبره عدواً يستحق الموت . كان يحكم على ذلك السيد بحسب الشائعات التي تتناقلهـا الألسن حول اخلاقه واندفاعاته ، تلك الشائعات التي لاتستند الى اساس متين . مشى اليه وهو فريسة غضب عنيف ويده قابضة بعنف على سوطه ، وفي نفسه عزم اكيد على اتخاذ اخطر الخطوات واشدها حزماً حيال ذلك الخصم .

لم يبلغ حدود الغابة حتى رآى سيداً ضخماً مقبلاً نحـوه على صهوة جواد رائع اسود يرافقه تابعان .

وبدلا من العدو الذي كان ينتظر ، رآى نيكولا في شخص ايلاجين رجلا دمثاً ذا وقار ومهابة وتصرفات محمودة لبقة ، يود من صميم قلبه ان يتعرف على الكونت الشاب . ما ان تقابلا حتى رفع القادم قبعته الوحيدة الحافة واعلن اسفه الشديد لما حدث . قال : ان الخـادم المذنب قد لقي عقابه وانه ينتظر ان يرتبط بعلاقات طيبة مع الكونت الشاب ويسمح له منذ الآن ان يصطاد في اراضيه .

تبعت ناتاشا اخاها عن قرب ، خشية ان يتصرف تصرفـاً سيئاً ، وهي شديدة الاضطراب . فلما تطمأنت عند سماع عبارات التودد والايناس التي تبادلها العدوان ، اقتربت منهما . رفع ايلاجين قبعته عالياً لدى اقترابها وقال مؤكداً بان الكونتيس ليست الا صورة حية لديانا بحبها للصيد كما بجمالها وبهائها الذي بلغ نبأه الى مسامعه .

ولـكي يذهب ايلاجين بخطيئة قائد كلابه ، رجا الكونت الشاب بالحاح ان يرافقه الى التلال الواقعة على بعد ربع ميل ، حيث يحتفظ لنفسه بصيد سمين وحيث الارانب البرية مترفرة بكثرة ـ على حد قوله ـ وافق نيكولا على عرضه وعاد الصيد من جديد مزدوجاً حماسياً .

كان على الصيادين ان يجتازوا الحقول للوصول الى التلال . تفرق القادمون وراح يمشون معاً . راح العم وروستوف وايلاجين يفحصون خفية كلاب بعضهم بعضاً ويرتعدون لفكرة اكتشاف منافسين اكفياء لكلابهم .

لاحظ روستوف بين كلاب ايلاجين ، كلبة حمراء مرقشة اصيلة صغيرة الجسم رقيقة الجسد ولكن ذات عضلات فولاذية ولا شك ، تبرز عيناها فوق بوزها الاملس الرقيق . ولما كان قد سمع الاطراءات الكثيرة التي يكيلها

الناس لكلاب جاره الخصم ، فقد وجد في تلك الكلبة الاصيلة المتينة خصماً محترماً لكلبته « لطيفة » .

قال نيكولا لجاره خلال حديث هام جدى حول المحاصيل اثاره هذا وهو يشير بطلاقة الى الكلبة الحمراء المرقشة .

ـ ان لديك هنا كلبة رائعة . هل هي عنيفة ؟

أجاب إيلاجين بمثل لهجته :

ـ هذه ؟ نعم ، انها حيوان جيد وهي تصطاد صيداً حسناً .

وكان ايلاجين هذا قد تنازل لأحد جيرانه في العام الماضي عن ثلاث اسر من الوعول الأليفة لقاء هذه الكلبة ، استرسل مستأنفاً حديثه الاول :

ـ اذن ياكونت ، ان محصول الحبوب عندكم لايستوجب الاعجاب ؟

ورغبة منه في مجاراة جاره الشاب ، اشار الى كلبته « لطيفه » التي أستوقفت أبصاره بجمال شكلها وقال :

ـ ان لديك هنا حيوانا بديعاً . انها تبدو لي على خير مايرام .

أجاب نيكولا :

ـ نعم إنها لابأس بها .

بينما فكر في سره مبتهلا : « آه ! لو ان السيد أرنب تنازل في هذه اللحظة بعبور هذا الحقل ، لأريتك اية كلبة هي هذه ! » ثم التفت الى قائد كلابه وقال له انه يمنح مكافأة قدرها روبل لكل من يكتشف أرنبـــاً خارج حجاره . استأنف الى حين قائلا :

ـ لست افهم كيف يستطيع الصياد ان ينازع صياداً آخر طريدته او كلابه ويحسده عليها ، اما أنا ياكونت فانني اؤكد لك أن ماأحبه في الصيد انما هو النزهة . نزهة مع مثل هـذا الصحب الكريم ـ وعاد يرفع قبعته احتراماً لناتاشا ـ ماذا يمكن للمرء أن يحلم به خيراً من هذا الصحب ؟ اما تعداد الجلود

التي يحصل عليها آخر النهار ، فانني أسخر من هذا !

– طبعاً ، طبعاً !

– هل اعتبر إهانة أن يمسك كلب الجار بالطريدة بدلا من كلبي ؟... كلا المهم في الامر هو ان أتمتع بمشهد الصيد ، أما ماتبقى فـلا يهمني في كثير أو قليل ... ألست على صواب ياكونت ؟ في نظري ...

وفي تلك اللحظة ، ارتفع صوت احد الخدم المكلفين بالكلاب السلوقية ، وكان واقفاً فوق تـل صغير في وسط سوق القمح المحصود والسوط مرفوع في يده :

– فيلو ! في ... ي ... لو !

تكرر هذا النداء المتقطع فكان ايذاناً باكتشاف أرنب . أمـا الصوت فكان يدل على مكان وجوده .

قال الى جين متصنعاً اللامبالاة :

– يظن أنه عثر على واحد ، هيا ياكونت هل نطرده ؟

فأجاب نيكولا وهو يلقي نظرة على كلبه المسماة « تريبيدانت » وعلى كلب العم الاصهب « تاباجور » الذين كانا خصمين مخيفـين لم يوازنهما قط مع كلابه من قبل :

– نعم ، نعم ... ولكن ماذا ؟ معاً !

فكر في نفسه وهو يتجه نحو الارنب بصحبة عمه وايلاجين « ماذالو تفوقا على لطيفة ؟ » سأل ايلاجين الخادم عندما حاذاه :

– أهو أرنب كبير ؟

ثم التفت في قلق وصفر ينادي تريبيدانت وأردف يخاطب العم .

- حسناًياميخائيل نيكانوريتش ، هل ترافقنا ؟

قال العم وهو يواكبه مكفهر الوجه :

– ماالفائدة ؟ ان كلابك ... انه واضح ، الى الامام سر ! تساوي جبلا من النقود انها حيوانات يساوي كل منها الف روبل . صفها وأنا ساكتفي بالنظر . . .

ثم نادي كلبه بصوت جعل مبلغ محبته له واضحاً في نبراته معبراً عن أمله الذي يضعه فيه .

– ياتاباجور ! ايها الجميل ، أيها المدلل !

حدست ناتاشا على الفور الشعور السائد بين الصيادين الثلاثةفشاركت أخاها والعجوزين اضطرابها المكتوم .

اما المكلّب ، فقد ظل واقفاً في مكانه على الاكمة والسوط في يده ، بينما اقترب السادة على صهوات جيادهم متمهلين . وكانت الكلاب المنتشرة حتى الافق مبتعدة كل الابتعاد عن مكان الارنب وقوادها متفرقون مبعثرون لكنهم ماعتموا ان انتظموا واجتمعوا في نظام رائع .

سأل نيكولا عندما بلغ مسافة مئة متر من مكان الكشاف :

– اين اتجاه رأسه ؟

لم يجد هذامتسعاً من الوقت للاجابة عليه، ذلك ان الارنب الذي كان يتحمس الجمد الذي سيتراكم في الغد ، قفز فجأة خارج وكره . انحدر الكلبان العداءان فوق المنحدر مندفعين كالسهم وتبعتهما من كل الجهات الكلاب السلوقية التي لم تكن مربوطة الى مقاودها . ولم تلبث الجماعة التي كانت متمهلة حتى تلك اللحظة ان اندفعت الى المعركة وأخذ قواد الكلاب العداءة يكبحون جماحها باوامرهم الداعية الى الوقوف بينما اطلق الخدم المعنيون بالكلاب السلوقية كلابهم وهم يهيبون بها صائحين : تايوت ! بدلا من هالت « أي قف » . أخذ ايلاجين الهادىء ونيكولا والعم يهدبون خيولهم دون وعي غير عابئين الا بالكلاب والارنب ، خائفين ان يفوتهم ذلك المشهد الطريف . كان الارنب كبير الجثه ثميناً .

لم يبادر الى الفرار حال خروجه من وكره ، بل جمع اذنيه واصغى الى الصيحات ووقع الاقدام والحوافر التي كانت ترتفع من كل مكان . قفز بضع قفزات غير سريعة تاركاً الكلاب تقترب منه ثم انتقى الوجهة التي سيقصدها وتأكد من الخطر الداهم ، فأسبل اذنيه وفر بكل قواه ، وكان عندحافة الارض المغطاة بسوق الحنطة المحصودة ، حيث كان يرقد ، رقعة كبيرة من الارض يغطيها القمح القمح الاخضر والمستنقعات . تبع كلبا الصياد الذي عثر على الطريدة ، الأرنب قبل سواهما . لكنهما كانا على مسافة بعيدة منه عندما تخطتهما تريبيدانت ، الكلبة الحمراء المرقشة التي يملكها ايلاجين ، وباتت لايفصلها عن الارنب الاطول كلب واحد . وعندئذ قفزت قفزة هائلة مستهدفة ذيل الحيوان لكنها اخطأته فتدحرجت على الارض . رفع الارنب فقاره وضاعف سرعته . وكانت « لطيفة » القوية قـــد وصلت في تلك اللحظة وتساوت سرعتها مع سرعة الحيوان النافر . فصاح نيكولا بصوت منتصر :

ــ لطيفة ، ياجميلتي !

كادت لطيفة ان تبلغ الارنب وتمسك به . لكنها تجاوزته بسرعة اندفاعها فلم تستطع التوقف في الوقت المناسب وهكذا افلت الارنب منها . عادت تربيدانت من جديد تتعلق بالطريدة . بل انها تعلقت فعلا بذيلها وكأنهـــا تتوقع ان تطبق على فترتين متعاقبتين عليه وتصرع ، صرخ ايلاجين بصوت تخنقه العبرات ولهجة متوسلة :

– تربيدانت ياجميلتي ! . لكن تربيدانت لم تبال بتوسلات سيدها ذلك انه في اللحظة التي ترقب الصيادون فيها رؤيتها ممسكة بالحيوان ، زاغ هذا منها بانعطافة مفاجئة وراح يجري على طول الاخـدود الذي يفرق بين القمح الاخضر والسوق المحصودة . راحت تريبندانت ولطيفة ، اشبه بحصانين مشدودين الى عريش واحد ، يجريان جنباً الى جنب وراء الارنب . لكن هـذا كان في

مكان يناسبه فعجزت الكلبتان عن اللحاق به .

وهنا علا صوت جديد صائحاً :

تاباجور ، ايها المدلل ! أنه واضح ، الى الامام سر !

وظهر كلب العم الاشقر الاحدب مندفعاً وكأنه يهم بالخروج من جلده حتى لحق بالكلبتين ثم تجاوزهما واطبق بتفان عجيب على الارنب نفسه مرغماً اياه على الخروج عن اتجاهه الاول وتبعه بعد ذلك بحمية متزايدة وضراوة وهو يغيب في الارض الموحلة حتى بطنه . شوهد بعد ذلك يتعثر ويتدحرج مع الارنب في الطين اللزج . وحينئذ انتظم الكلاب حولهما على شكل نجمة ولم يلبث الصيادون ان بلغوا مكان الطريدة . تدجل العم يستخفه الفرح فحرم الارنب . وبينما هو يهزه ليسيل منه الدم ، ثلم عينيه ثم راح ينظر حوله في قلق وهو في حيرة من امره لايدري ماذا يعمل باطراف الحيوان ووفرة الكلاب . اخذ يدمدم بكلمات متلاحقة غير واضحة : « آه ! ... انه واضح ... سر !... ياله من كلب ! لقد تفوق عليهم جميعاً ، على الاصيل وعلى الكديش معاً ! ... انه واضح ، الى الامام سر ! » كان يعض بالانفعال ويدير حوله عينين وحشيتين ويطلق كلماته اشبه بالسباب حتى ليقال ان الآخرين كانوا جميعاً اعداء له وانهم اهانوه مجتمعين فاتيحت له الفرصة ليثأر منهم . « ان كلابك جميلة ، تلك التي يساوي كل منها الف روبل ! ... انه واضح ، الى الامام سر ! »

نادى كلبه وهو يلقي اليه باحدى ارجل الارنب الملطخة بالطين :

ـ الى الطعام ياتاجور ! انك تستحقه عن جدارة ... انه واضح الى الامام سر !

وقال نيكولا الذي كان هو الآخر لايصغي الى احد ولا يهمه أأنصت اليه احداً او لم ينصت :

ـ إنها على آخر رمق ، لقد قامت بثلاث مطاردات .

ومن جانبه قال تابع إيلاجين .

– لقد امسكت به خلافاً لما ينبغي . ياللمسألة الجميلة !

بينما كان ايلاجين نفسه ، الذي بهرت انفاسه المطاردة وصير الاضطراب وجهه قرمزيا ، يقول بنفس الوقت :

– طالما اخطأته ، فان اي كلب يأتي بعدها يستطيع ان يجعل منه كسباً هيناً .

كانت ناتاشا خلال تلك الفترة تطلق صرخات ثاقبة اشبه بالنباح تكاد تصم الآذان . تلك كانت طريقها للافصاح عما كان يلهج به الآخرون معاً . وكانت تلك الصرخات من الغرابة بمكان حتى انها لو استمعت اليها او اطلقت مثلها في غير تلك المناسبة ، لما صدق السامعون آذانهم ولذابت هي من الخجل .

علق العم بنفسه الارنب الى سرج جواده بحركات حاذقة عنيفة والقاه بشكل مشبع بالتحدي على ردف الحصان ثم امتطى جواده الأشعل وابتعد وكأنه يأنف التحدث مع الآخرين . اما هؤلاء ، فقد تفرقوا مكتئبين وفي كرامة كل منهم وخزة وظلوا فترة طويلة قبل ان يستعيدوا مرحهم او على الاقل قبل ان يستطعيوا التظاهر باللا مبالاة . لبثوا وقتاً طويلا يتابعون بابصارهم تاباجور الاصهب الذي كان ملطخ الظهر بالطين يرنن مقوده متظاهراً بهدوء المنتصر يواكب حصان سيده . خيل الى نيكولا ان في مظهر الكلب مامعناه : « هه ، صحيح ان مظهري لايدل على شيء ... ولكن عندما يكون الامر متعلقاً بالصيد . اما في غير ذلك ، فحذار ! » .

ولما اقترب العم من نيكولا بعد فترة طويلة ووجه اليه الحديث ، شعر نيكولا بتيه وفخار لان العم تنازل وتقرب منه بعد كل الذي حصل .

الفصل السابع

دعوة لطيفة

عندما استأذن ايلاجين من نيكولا عند المساء ، وجد هذا نفسه بعيداً جداً عن مسكنه حتى انه تقبل عرض العم القاضي بترك الخدم والكلاب يعودون وحدهم الى المنزل بينما يقضي هو واخته واخوه الليل في ميخائيلوفكا ، وهو اسم المزرعة الصغيرة التي يملكها العم .

– حتى ولو جئتم جميعاً عندي ، انه واضح ، الى الامـام سر ! فان ذلك سيكون افضل . انظر ، ان الوقت رطب ، وسوف تستريحون ونعيـد بعد ذلك الآنسة بالزحافة .

قُبل العرض وارسل خـــادم الى اوترادنواي للاتيان بزحافة ، بينما رافق نيكولا وناتاشا وبيتيا العم الى مسكنه .

هرع خمسة أو ستة من الخدم الذكور بين كبار وصغار ، الى باب المدخل الكبير لاستقبال السيد . واجتمعت عشرات من النسوة بين هرمـات فانيات وشابات واطفال عند باب الخدم للتفرج على الضيوف وقد اثار وجود ناتاشا ، بوصفها امرأة وسيدة رفيعه الشأن ممتطية جواداً ، فضولهن لدرجة كبيرة حتى انهن اقترين منها دون رهبة ورحن يتصفحن وجهها ويتبادلن الملاحظات وكأن

الامر متعلق بمنظر نادر في معرض ، لايستطيع ان يفهم أو يسمع مايقلن عنه:
آربنكا ، انظري ، انها تجثم فوق برميل !.. « وتنورتها » التي تنسدل !..
وبوقها كذلك !...

- آه ، رباه ! ان معها سكيناً !

وسألت احداهن ناتاشا وقد استجمعت شجاعتها فكانت أشجع كل زميلاتها:

- وكيف لم تسقطي عن ظهر الجواد ؟

ترجل العم امام مرقاة بيته الصغير الخشبي الغارق وسط الخضرة ، ثم سرح طرفه في خدمه وصرخ فيها آمراً من كان منهم لايقتضي الموقت وجوده بالانصراف وان يعملوا لاستقبال الضيوف في البيت وصيدهم ورجالهم .

هرعوا جميعاً يركضون في كل اتجاه ، بينما ساعد العم ناتاشا على النزول وقدم لها ذراعه لترتقي درجات المرقاة الخشبية المتهززة . كان البيت ذو الجدران الخشبية السميكة غير المدهونة ، لايعطي فكرة عن العناية . ولعل سكانه لم يراعوا اخفاء اللطخات المنتشرة فوق الاخشاب جرياً مع الاهمال والترك السائدين في ارجائه . انبعثت من الدهليز رائحة تفاح ناضج وشوهدت جلود الذئاب والثعالب معلقة على جدرانه .

قاد العم ضيوفه من الردهة الى غرفة صغيرة مؤثثة قابلة للثني وكراس من خشب الكابلي ومنها الى بهو تجثم في وسطه مائدة مستديرة من خشب السرو وبقربها اريكة واخيراً الى غرفة مكتبه حيث شاهد الضيوف فيها اريكة بالية وسجادة خلقة . اما على الجدار فكانت صورة سوفوروف معلقة الى جانب صورة ابوي صاحب البيت ثم صورته نفسه وهو في ثوب عسكري. كانت رائحة عنيفة ،رائحة التبغ والكلاب تملأ الغرفة التي ترك فيها العم ضيوفه راجياً منهم ان يتصرفوا كما لو كانوا في مسكنهم الخاص . ظهر تاباجور بدوره وظهره لازال ملطخاً بالوحل وراح الى الاريكة فجلس عليها وشرع يعمل لسانه واسنانه في زينه جديةلنفسه .

فكانت غرفة المكتب تطل على ممشى يشاهد فيه حاجز من قماش ممزق . ومن وراء ذلك الحاجز ، ارتفعت ضحكات وهمسات نسائية . اتخذ نيكولا وناتاشا وبيتيا التدابير الممكنة لراحتهم فجلسوا على الاريكة . نام بيتيا على الفور بعد ان اتخذ ذراعه وسادة اتكأ عليها برأسه بينما ظل نيكولا وأخيه صامتين . كان وجه كل منهما ملتهباً ومعدته خاوية كما كانا جذلين مسرورين يتبادلان النظر . لم يعد همّ نيكولا بعد ان انتهى الصيد ، ان يحافظ امام اخته على تفوقه كرجل وامتيازه . وهكذا ما كادت تغمز له بعينيها حتى انفجرا ضاحكين ضحكة مجلجلة غريزية .

لم يلبث العمم ان عاد مرتدياً عباءة وسراويلا زرقاء واحذية قصيرة. فلاحظت ناتاشا ان ذلك الثوب الذي ليس فيه ما يضحك اكثر مما في « الرودنجوت » او غيره . كان العم كذلك مسروراً منبسط الاسارير . ولما كان لايرتاب في ان يكون طراز حياته باعثاً على الضحك فإن انشراح الاخوين لم يسيء اليه بل على العكس دعاه الى الاشتراك معهما فيه .

قال وهو يقدم لروستوف غليوناً طريلًا بينما راحت اصابعه تداعب بحركة اليفة غليوناً قصيراً استبقاه لنفسه :

ـ انظر اذن الى الكونتيس الشابة ، انه واضح الى الامام سر ، لن يجد المرء مثيلاً لها . ان قضاء يوم كامل على صهوة الجواد لايكاد يحتمله الرجل . اما هي فلا يظهر عليها شيء من الاعياء .

لم تمض فترة طويلة على عودة العم الى الغرفة حتى شوهدت خادم ، اذا حكم المرء على خطاها غير المسموعة قدر انها حافية القدمين ، تحمل طبقاً محملاً . كانت جميلة قوية في الاربعين من عمرها نضرة الوجنتين ذات ذقن مزدوجة وشفتين ممتلئتين . شملت المدعوين بنظرة وانحنت تحييهم باحترام بابتسامة أنيسة فكانت

امارات وجهها وكل حركة من حركاتها مطبوعة بالأنس واللطف واللباقة . وعلى الرغم من ان ضخامة جسمها كانت ترغمها على ابراز صدرها ورفع رأسها الى الوراء ، فان تلك المرأة التي كانت مدبرة شؤون العم، كانت رشيقة الحركات. وضعت الطبق على المائدة وراحت بيديها البضتين السمينتين ترفع عنه الزجاجات والصحاف التي كان محملاً بها . فلما انتهت من عملها ، تنحت ووقفت على عتبة الباب وعلى شفتيها ابتسامة خيل لروستوف انها تقول : «ها أنذا ! هل تفهم عمك الآن ؟ » والواقع انه بدأ يفهم العم . بل ان ناتاشا نفسها حزرت معنى الحاجبين المقطبين والابتسامة السعيدة الراضية التي ثنت شفتي العم عندما دخلت آنيسيا فيدوروفنا . كان الطعام الخفيف الذي اتت به يحوي على كحول وبصل مشطور وكعك من القمح الاسود بالحليب وعسل بشهده ثم عسل ممزوج بالزبد وتفاح وثمار الجوز الطازجة مشوية ومربي الجوز الى جانب العرق بالاعشاب . اضافت المدبرة الى ذلك انواعاً من المربى المعقود بالعسل او السكر ولحم خنزير ودجاجة مطهية سحبت للتو من الفرن .

كان كل هذا ثمار عناية آنيسيا فيدوروفنا . كل هذا يحمل رائحة آنيسيا فيدوروفنا ويتسم بطابعها كان كل هذا ينطق بدقتها ونظافتها ونصعها وابتسامتها المستحبة .

قالت وهي تقدم لناتاشا صحفة إثر اخرى :

– كلي بشهية يا آنستي الكونتيس الصغيرة .

تذوقت ناتاشا كل الاطعمة وخيل اليها انها لم تر من قبل قط ولم تأكل ابداً افضل من لحم هذا الدجاج واطيب من هذا الكعك وألذ من تلك الانواع المعطرة من المربى والجوز المعقود .

خرجت آنيسيا فيدورفنا فراح العم ونيكولا يشربان كحول الكرز مع الطعام ويتحدثان عن صيد ذلك النهار وعما يتوقع لكلبه تاباجور ولكلاب

ايلاجين . اما ناتاشا فكانت تصغي اليهما وهي منتصبة في جلستها على الاريكة وفي عينيها لهيب مشتعل. همت مراراً ان توقظ بيتيا لتطعمه شيئاً. لكن هذا كان يغمغم في نومه بكلمات غير مفهومة ويستغرق في سباته . شعرت ناتاشا بسعادة غامرة في ذلك البيت الجديد عليها حتى انها باتت تخشى سرعة وصول العربة التي ستحملها الى البيت . وبعد فترة صمت غير منتظرة كتلك التي تحـــدث دائماً للاشخاص اللذين يستقبلون الاصدقاء للمرة الاولى ، قال العم وكأنه يجيب على افكار ضيوفه الشخصية :

ــ نعم ، ها إنني انهي وجودي ... وعندما يموت المرء ، انه واضح ، الى الامام سر ! لا يبقى شيء ... واذن ، ما فائدة الحرمان ؟ ...

كان وجه العم وهو يتحدث على هذا النحو معبراً بل ومتسماً ببعض الجمال . تذكر روستوف المديح الذي يكيله ابوه والآخرون لهذا العم والذي يعتبر استناداً اليه ، أفضل وأنبل السادة واكثرهم كرماً . كانوا يستدعون لتحكيمه في المشاكل العائلية وينتخبونه منفذاً لوصايا الموتى ويأتمنونه على الاسرار . ولقد عين مرة قاضياً ثم عين في وظائف اخرى. لكنه كان ابداً يرفض بعناد الاعمال العامة ويمضي الربيع والخريف متنقلاً في الريف على صهوة ادهمه العقيم ويقضي الشتاء قرب النار والصيف في ظلال اشجارة الباسقة .

ــ لم لاتقبل وظيفة يا عماه ؟

ــ لقد شغلت وظيفة لكنني سرعان ما تخليت عنها . ان هذا اللون من المهن لايلائمني ، انه واضح ، الى الامام سر ! انها وظائف تستهوي الآخرين . أما أنا فلا ... آه ! الصيد مسألة اخرى مختلفة كل الاختلاف . انني في الصيد أشعر بأنني اعيش مع نفسي ، انه واضح الى الامام سر ! ...

ثم صرخ :

ــ افتحوا الباب ، لماذا أغلقتموه ؟

كان الباب الذي في نهاية الممشى والذي يسمية العم « منش » يؤدى الى مسكن قواد الكلاب . هرعت اقدام عارية الى ذلك الباب وفتحته يـــد غير منظورة . وحينئذ سمعت الحان « البالالايكا » تؤديها يد خبيرة . خرجت ناتاشا الى الممشى ليتسنى لها الاصغاء الى تلك الموسيقى التي كانت منصتة اليها من قبل . فقال العم .

– انه ميتكا حوذيّ . لقد اشتريت له آلة ممتازة ... انني احب ذلك .

كان العم يحب اذا ما عاد من الصيد ان يصغي الى ميتكا وهو يعزف قليلاً مَن الموسيقى . فدخلت هذه التسلية في عداد اطباعه .

قال نيكولا بصوت منطلق وكأنه يخشى الاعراب عن متعته :

– انه جيد ، في الحقيقة انه جيد جداً .

فقالت ناتاشا وقد نكدتها لهجة اخيها المصطنعة :

– كيف ، اهو جيد فحسب ؟ بل انه رائع نعم !

وكما ان البصل والعسل والكحول التي قدمها العم بدت لهـــا افضل ما في الوجود كذلك وجدت في الاغنية اللطيفة ارفع فن موسيقي . فلما فرغ المغني من اغنيته هتف :

اعد ، ارجوك اعد !

ضبط ميتكا آلته وعاد يعزف مقطوعة « بارينيا »

– اي السيدة ، وهى اغنية شعبية عظيمة الشيوع في ذلك الحين متصرفـاً فيها تصرفاً بديعاً . وكان العم يصغي وهو مائل الرأس وعلى شفتيه ابتسامـة خفيفة . اعيد عزف البالالايكا مراراً دون تعب ولا ملل ودون ان يظهر على المستمعين شبح السآمة . دخلت انيسيا فيدوروفنا واسندت جسمها الثقيل الى حافة الباب وقالت لناتاشا وعلى شفتيها ابتسامة شبيهة بتلك التي تشرق على وجه سيدها :

ـ اصغي يا آنسة ، انه يعزف عزفاً جميلا أليس كذلك ؟ صرخ العم فجأة وهو يلوح بيده دلالة على نفاذ الصبر :

ـ آه ! هذه قطعة سيئةالعزف . كان يجب اظهارها اكثر من ذلك ...نعم انه واضح ، الامام سر ! كان يجب ابرازها اكثر من ذلك ،..

سألت ناتاشا :

ـ هل تجيد العزف ؟

فابتسم العم دون ان يجيب ثم قال الآنيسيا :

ـ اذهبي يا آنيسيا وتأكدي من تمام اوتار قيثارتي لقد مضى وقت طويل لم استعملها خلالها . انه واضح ، الى الامام سر :

مضت انيسيا فيدور وفنا بخطواتها الخفيفة لتنفذ امر سيدها .

لم يعبأ العم بأحد وهو ينفخ على آلاته ليزيل عنها الغبار . وبعدئذ قرع باصابعه العظمية على صندوقها وشد بعض أوتارها ثم جلس جلسة مريحة . امسك القيثارة بحركة مسرحية تقريباً وباعد مرفقة الايسر عن جسمه وغمز لآنيسيابعينه وبعد اختبار رائق مدو ، شرع يعزف على ايقاع بطيء وبيد ثابتة مدربةأغنية : « على طول الشارع ، الشارع المعبد ... » وهي اغنية شهيرة شائعة جداً .

لم يلبث نيكولا وناتاشا ان استجابا لذلك اللحن الذي وجد صداه فيٍنفسيهما وخدَّف فيهما ذلك الجذل الوديع الذي نشرته شخصية انيسيا فيدوروفنا .تضرج وجه هذه بالحمرة فأخفت وجهها في شالها وخرجت من الغرفة ضاحكة . اما العم فقد استمر يعزف اللحن ببراعة . كان عزفه جميلًا واضحاً نشيطاً . وكان يحدق في المكان الذي بارحته انيسيا فيدوروفنا منذ حين بنظرة متبدلة . وتاهت ابتسامة غامضة على شاربين الاشهبين واخذت تزداد اتساعاً كلما اخذ اللحن في الاسراع فظهرت عند المقاطع المختلفة اشبه بالابتسامة المنكرة النادمة .

وعندما فرغ من الاغنية ، قفزت ناتاشا من مكانها وجرت الية تقبله وقالت :

- رائع فتان ياعماه . اعد ، اعد !

والتفتت الى نيكولا و كأنها تقول : - ولكن ماذا دهانا ؟ وهتفت به :

- نيكولا ، يانيكولاي الصغير !

كان نيكولا مفتونا كذلك . كرر العم الاغنية . فظهر وجه انيسيا فيدوروفنا البسام ومن ورائه وجوه جديدة ظهرت عند المقطع :

انتظري ، انتظري ياجميلتي
ولنهرع معاً الى الجب
لنأتي بالماء المنعش .

وهنا اجرى العم تبديلاً بارعاً وحطم قراراً وعاد يضبط الايقاع بحركة دائرية من كتفيه .قالت ناتاشا بصوت ضارع و كأن الامر بالنسبة اليها امرحياة او موت :

- عجل ، ياعماه ، ياعزيزي ، عجل !

نهض العم فبدا كأن فيه انسانين : الاول يبسم بخطورة مستخفياً بجنون الثاني الذي شرع يتأهب للرقص بنغم بسيط بارع . هتف بها وهو يشيد بيده محطماً قراراً :

- هل انت مستعدة ؟ ... الى الامام ياابنة اخي .

القت ناتاشا بمنديلها واندفعت قبالة العم ثم اتخذت وضعيتها بعد ان قامت بحركة دائرية من كتفيها ووضعت قبضتيها فوق وركيها .

ولكن أين وكيف استطاعت هذه الكونتيس الصغيرة التي انشأتها مهاجرة فرنسية ، ان تتشبع بمجرد استنشاقها هواء البلاد ، بالروح القومية الى هذا

الحد ، فتقوم باجراء الحركات البارعة التي تتفق مع « رقصة الشال » رغم انها لم تعد تظهر في هذه منذ زمن ؟ ذلك انها في مظهرها وحركاتها التي لاتجارى كانت مجبولة غريزياً بالطبع الروسي الصميم الذي كان العم يتوقعه فيها . وما ان اتخذت الوضع المناسب وابتسمت ابتسامتها الماكرة المتغطرسة معاً حتى اطمأن نيكولا والمتفرجون الذين كانوا يتوقعون ان يظهر في حركات الفتاة هفوات مخجلة وشرعوا يحيطونها باعجابهم سلفاً .

أدت رقصتها ببراعة حتى ان انيسيا فيدوروفنا التي ناولتها على الفور المنديل الملائم للرقصة ، اخذت تذرف دموع الفرح لرؤيتها تلك الكونتيس الشابة الرشيقة البديعة التي نشأت بين الحرير والمخمل ، البعيدة كل البعد عن نفسها ، تحتل مكانة في روحها هي انيسيا ، وتنفذ الى اعماقها واعماق أبيها وأمها وعمتها واي روسي يراها صدفة في تلك اللحظة .

ولما انتهت الرقصة ، قال العم ضاحكا :

– حسناً ايتها الكونتيس الصغيرة ، انه واضح ، الى الامام سر ! . مرحى يابنة اخي ! لم يبق عليك الآن الا انتقاء الفتى الجميل الذي سيكون زوجك . انه واضح ، الى الامام سر ! .

قال نيكولا باسماً :

– لقد انتقت فتاها بالفعل .

دهش العم وراح يسأل الفتاة بنظرة مستطلعة فأومأت ناتاشا برأسها أن نعم وهي سعيدة جداً . وقالت :

– وياله من زوج ايضاً !

لكنها لم تكد تنطق بهذه الكلمات حتى داهمتها موجة من الافكار والعواطف : « مامعنى ابتسامة نيكولا عندماقال : « لقد انتقت فتاهابالفعل »؟ هل كان يوافق على هذا الزواج ام يشجبه ؟ يخيل الي ان اميري بولكونسكي

لايمكنه تفهم الحبور الذي يتلظى في نفوسنا في هذه اللحظة . ولكن بلى ، انه يستطيع فهمه ... ولكن اين هو الآن ؟ ... هيا لنكف الان عن التفكير في هذه الامور ... » وعاد وجهها الذي اكتأب فترة الى اشراقه . جلست قرب العم وسألته ان يعزف لها قطعة موسيقية جديدة .

عزف العم اغنية ثم رقصة فالس ثم صمت وسعل وانطلق بصوته المدوي يغني اغنية الصيد المفضلة عنده :

عندما راح الثلج امس
يتساقط فوق الصباب ...

كان العم يغني على طريقة ابناء الشعب مقتنعاً بسذاجة ان الكلمات وحدها هي المهمة في اللحن وان النغم يبرز من تلقاء نفسه اذا أحسن الايقاع . وعلى ذلك فقد كانت اغنيته البسيطة كشدو الطير ، على حظ قصي من الجمال . وانجذبت ناتاشا يهدهدها اللحن وقررت ترك العود لترافق العم على القيثارة .

تجاوزت الساعة التاسعة عندما وصلت زحافة كبيرة واخرى صغيرة يواكبها ثلاثة فرسان لحمل ناتاشا وبيتيا . قال القادمون ان الكونت والكونتيس شديدا القلق لجهلهما مكان ابنائهما .

حملوا بيتيا دون ان يوقظوه وأسجوه برفق في الزحافة الصغيرة بينما ركب نيكولا وناتاشا في الثانية . دثر العم ناتاشا وودعها بحنان غير منتظر ورافقهم حتى الجسر الذي يجب عليهم ان يدوروا حوله ليتسنى لهم المرور عبر المفازة وهناك أمر خدمه ان يتقدموا الموكب حاملين المصابيح .

صاح في الظلام بصوت لم يكن مألوفاً لديه ، يشبه ذلك الذي غنى به : « عندما راح الثلج امس ... » :

ـ وداعاً يابنة اخي العزيزه .

كانت اضواء حمراء تشع في القرية التي مر الموكب فيها وامتزج الهواء برائحة

دخان متصاعد . ولما بلغوا الطريق العمومية قالت ناتاشا :

– ياله من رجل رائع هذا العم !

قال نيكولا :

– نعم . هل تشعرين بالبرد ؟

فأجابت وهي مدهوشة للانشراح الذي تحس به :

– كلا انني على مايرام ، على خير مايرام ... آه ا كم اشعر بالغبطة !

اخلدا الى الصمت فترة طويلة . كان الليل معتماً رطيباً لايرى الراكب الخيل ولكنه يشعر بها وهي تخوض بالوحل غير المنظور .

ماذا كان يحدث في تلك الروح الصغيرة السهلة الانطباع بالعواطف على اختلاف انواعها ؟ كيف كانت كل هذه الامور تنتظم في نفس ناتاشا ؟ لقد كانت سعيدة على كل حال . ولما كادا ان يصلا الى البيت جلجل صوتها مردداً اغنية : « عندما راح الثلج امس ... » التي أمضت وقتاً طويلاً تبحث عن نغمها حتى ذكرته فجأة اذطاف بخيالها . قال لها نيكولا :

– لقد وجدتيه اخيراً !

سألت ناتاشا :

– فيما كنت تفكر منذ حين يانيكولا ؟

كان هذا السؤال هو الذي درج الاخوان على توجيهه لبعضهما في كل حين .

اجاب نيكولا :

– انا ؟ حسناً ! اليك ماكنت افكر فيه : كنت افكر في ان تاباجور الكلب الاشقر يشبه العم . وكنت اقول لنفسي انه لوكان هو الانسان وكان العم هو الكلب لاحتفظ به عنده لا لأجل الصيد ، بل لمجرد التفاهم القائم بينهما ياله من رجل تسهل الحياة معه هذا العم ، اليس كذلك ؟ وانت ، فيم كنت تفكرين ؟

ـ انا ؟ انتظر قليلاً . فكرت اولاً في اننا نتصور خطأ اننا في طريقنا الى البيت ، بينما نحن في الحقيقة نسير في اتجاه لايعرفه الا الله ، في هـذه الظلمات المدلهمة ، واننا لانصل اخيراً الى اوترادنواي ، بل الى بلاد الجان ... ثم ... ثم ... ، كلا ، لم افكر في شيء مطلقاً .

قال نيكولا :

- بل انك فكرت فيه ، انني واثق .

أجابت ناتاشا رغم انها فكرت جدياً في الامير وتساءلت عما اذا كان العم سيروق في عينيه :

ـ كلا ، آه نعم ! اليك ما كنت احـدث نفسي به خلال الطريق : « كم ان موقف آنيسيا رائع ! »

تبين نيكولا من صوت اخته انها تبتسم . لو تبين في ذلك الظلام ضحكتها الفطرية الرنانة القوية . وفجأة استأنفت تقول :

ـ اتدري ، انني احسّ ان السعادة والهدوء اللذين تذوقتهما اليوم ، لايمكن ان أحظى بمثلها كل حياتي .

اعترض نيكولا على قولها :

ـ لاتتفوهي بالحماقات .

بينما راح يفكر في نفسه « ياللفتنة في ناتاشا هذه ! ليس لدي ولن يكون في المستقبل صديق افضل منها . يحـــدو بها الى الزواج ؟ لولاه لظللنا نتسلى كما تسلينا اليوم . »

ومن جانبها كانت ناتاشا تفكر : « ياله من لطيف نيكولا هـذا ! ! » ثم قالت وهي تشير الى النوافذ التي كانت تشع وسط ظلام الليل الندي :

ـ آه ! لايزال النور مضاءً في البهو .

الفصل الثامن

خطة الكونتيس

اعفى الكونت ايليا آندريئيتش نفسه من مهام مركزه المتعبة كنقيب للنبلاء . لكن احواله المادية لم تتحسن بفضل هذا التدبير . وكثيراً ماداهم نيكولا وناتاشا ابويهما في مناجيات سرية مقلقة . كانا يتحدثان عن بيع قصرهم في موسكو ومزرعتهم الكبيرة في الضاحية . لم يعد الكونت في حاجة الى احياء حفلات سخية بعد اعتزاله مهام منصبه ، فكانت الحياة في اوترادنواي اذن اكثر هدوءاً من الاعوام السابقة . مع ذلك ، فان البيت الضخم وجناحيه ما كانا اقل ازدحاماً من سابق عهدهما. كانت مائدة الطعام تضم اكثر من عشرين نوعاً من الأكل دائماً . انهم اعضاء اسر حطت مرساتها في هذا البيت منذ أمد طويل وآخرون وجدوا على ما يبدو ، ان الحياة في غير ذلك البيت مستحيلة . وهؤلاء هم الموسيقي ديملر وزوجته ومعلم الرقص فوجل واسرته والعانس العجوز بييلوفا وكثيرون آخرون: كمدرسي بيتيا ومديرة سابقة لفتيات البيت أو غيرهم ممن وجدوا ان الحياة عند الكونت افضل مما هي عليه في بيوتهم . وعلى الرغم من تقلص عدد الزوار البيت فان سياق الحياة ظل كعهده السابق لان الكونت والكونتيس ما كانا يحسنان نمطاً آخر يتبعانه في منزلهما . ظلت استعدادات الصيد قائمة وقد

زاد فيها فريق نيكولا ، وبقيت الخيول الخمسون في الاصطبل يرعاها الخمسة عشر حوذي المعهودين ، واستمرت الهدايا الثمينة تقدم في المناسبات والحفلات الكبيرة تقام في الاعياد وكذلك حفلات لعب الورق على اختلاف انواعه ، التي كان الكونت خلالها يكشف اوراقه لخصومة سامحاً لهم بذلك أن يخففوا بضع مئات من الروبلات عن كيس نقوده . لذلك فقد كان الكونت دائماً موضع تنازع اللاعبين للحصول على دخل محترم من لعبة واحدة معه .

كان الكونت اذن يسير على غير هدى في شبكة متاعبه المالية المتشعبة ، يريد بجدع الانف أن يخدع نفسه باقناعها بانه على الطريق السوي ، بينما يزداد ابتعاداً وهياما ، اصبح لايجد في نفسه القدرة لا على تحطيم تلك الشبكة الهائلة ولا على اتخاذ الاجراءات الحكيمة الكفيلة بتحطيمها . وباتت الكونتيس تشعر في أعماق نفسها انها واسرتها يسيرون الى الدمار . كانت تحدث نفسها بان الكونت غير مذنب لأنه لايستطيع أن يكون غير ما هو كائن ، وانه يتألم — رغم اخفائه ذلك الالم — من ذلك المركز المالي المزعزع الصعب الذي يهدده وذويه . راحت تبعث عن علاج لهذا الداء . ولأنها امرأة ، لم تجد علاجاً افضل من تزويج ابنها نيكولا بوارثة مجدودة غنية ، وقدرت ان ذاك هو الأمل الأخير . فاذا رفض نيكولا الزواج الذي تدبره له ، فان الحالة المالية في الاسرة لن تنجو من الانهيار المحتوم . اما الوارثة الغنية التي شخصت اليها الكونتيس في افكارها ، فكانت الآنسة جولي كاراجين وهي الفتاة التي تنحدر من ابوين ممتازين ورعين ويعرفها آل روستوف منذ طفولتها وقد جعلها موت اخيها الأخير الوريثة الوحيدة لثروة محترمة .

كتبت الكونتيس مباشرة الى السيدة كاراجين تعرض عليها فكرتها ، فتلقت منها جواباً مناسباً : لقد وافقت الام على زواج ابنتها ، من نيكولا

ولكنها تركت الكلمة النهائية لابنتها . مــع ذلك فقد دعت نيكولا الى زيارتها في موسكو .

قالت الكونتيس لابنها مراراً والدموع تترقرق في عينيها انه بعد ان اصبحت ابنتاها في حرز مع زوجيهما ، فان رغبتها الوحيدة اصبحت محصورة في ان تراه متزوجاً وبذلك تموت هانئة . وبعد ان سبرت غوره على هــذا النحو . ألحت الى انها تشخص بابصارها الى فتاة فتــانة جميلة . وفي مناسبات اخرى ، امتدحت جولي ونصحت لابنها ان يسافر الى موسكو بمناسبة أعياد الميلاد ليرفه عن نفسه هناك . حدس نيكولا فوراً الغاية التي تغذيها امه والوجهة التي تتجهها افكارها ، فاستدرجها ذات يوم الى الافضاء بمكنونات نفسها اليه . فاعترفت دون لف ولا دوران ان زواج ابنها من جولي كاراجين كفيل وحده ان ينقذ مركز الاسرة المالي .

سأل الفتى امه دون ان يلحظ القسوة التي في سؤاله لان همه كان منصرفاً الى اظهار نبل روحه فحسب :

ـ إه ماذا ! هل اذا كنت أحب فتاة غير ذات بائنة ، الحفت علي بالسؤال ان اضحي غرامي وشرفي في سبيل المال ياماه ؟

اجابت الام وهي لاتدري كيف تبرر موقفها :

ـ انك لم تفهمني ياصغيري نيكولا . انني ابحث عن سعادتك .

لكنها كانت تعرف انها لم تنطق بالصدق في قولهــا . ذاك اشتد اضطرابها فأجهشت باكية :

ـ اماه لاتبكي . قولي فقط انك ترغبين في ذلك وسترين انني اقدم حياتي وكل شيء لــكي تكوني راضيــة . نعم ، ساضحي بكل شيء من أجلك حتى شعوري .

لم تتوقع الكونتيس من ابنها ذلك : انها كانت ابعد الناس عن مطالبة ابنها بتضحية نفسه من اجلها . بل كانت علـى العكس ، مستعدة هي نفسها لتضحية نفسها من أجله . قالت وهي تمسح دموعها :

- كلا ، انك لم تفهمني . لنقف عند هذا الحد في الحديث .

حدث نيكولا نفسه : « ولكن الست أحب فتاة فقيرة في واقع الحال ؟ اذن يجب ان اضحي بعواطفي وشرفي ! انني دهش لرؤية امي وهي تقول لي مثل هذا الامر . ألأن سونيا فقيرة لايحق لي ان احبها وان اجيب على غرامها المخلص الامين ؟ مع انني سأكون معها اسعد مني مع جولي التي تشبه الدمية . انني استطيع التضحية بعواطفي من اجـــل ابوي اما ان آمرهم ، فذلك مستحيل . واذا كنت احب سونيا ، فان هذا الحب سيبقى عندي اقوي من كل شيء وأوفع شأنا » .

لم يذهب نيكولا الى موسكو ، ولم تعد الكونتيس تتحدث معه في الزواج لكنها لاحظت بحزن بل وبغضب احيانا ان الفة قوية كانت تقوم بين ابنها وتلك الفتاة المحرومة من البائنة سونيا . وعلى الرغم من اللوم الذي كانت تصبه على نفسها ، فانها ماكانت تستطيع الامساك عن الزجرة ومحـــاولة مشاكسة سونيا كلما خاطبتها بصيغة الجمع او قالت لها : ياعزيزتي . وكان مايزيد في نقمة الكونتيس الطيبة ضد سونيا سلوك ابنة الأخت تلك ذات العينين السوداوين التي كانت تظهر مزيداً من الدماثة والتفاني والعرفـان نحو المحسنين اليها ومن الاخلاص العميق المجرد المكين في حبها لنيكولا حتى يتعذر ايجـــاد مأخذ على سلوكها .

كان نيكولا ينهي عطلته عند ذويه الذين تلقوا رسالة رابعه من الأمير آندريه مرسلة من روما يقول فيها انه لولا ان نكأ جرحه فجأة بسبب الطقس ، الامر الذي يجعل عودته تتأجل حتى مطلع العام المقبل ، لكان الآن في طريق

عودته . كانت ناتاشا لاتزال مفتونة بخطيبها بذلك الهدوء الذي عرف عنها ، وظلت متفتحة القلب لكل مباهج الحياة . مع ذلك ، فانها حوالي نهاية الشهر الرابع الذي انقضى على رحيل آندريه ، اخذت تشعر بسحابات من الحزن كان يستحيل عليها مقاومتها . اخـــذت تنظر الى نفسها باشفاق وتأسف على هذا الوقت الذي يذهب ضياعاً بينما تشعر في قرارة نفسها بانها مازالت قادرة على ان تحب وتُحب .

وعلى ذلك فان الحياة كما يُرى لم تعد هانئة تماماً عند آل روستوف .



الفصل التاسع

آلام ناتاشا

أقبلت اعياد الميلاد دون ان يكون فيها مايميزها باستثناء الصلاة المهيبة وتهانيء الجوار والخدم المضجرة والثياب الجديدة التي يرتديها كل الناس . مع ذلك فان العشرين درجة من البرد غير المشفوع بالريح والنهارات المشرقة المشمسة وتلك الليالي ذات النجوم كانت تحفز المرء على احياء تلك الفترة من السنة والاحتفاء بها على لون آخر .

في اليوم الثالث بعد الغداء ، انسحب كل الى حجرته وبلغ الضجر منتهاه . نام نيكولا في المخدع بعد ان قام في صبيحة ذلك اليوم بعدد من الزيارات الى الجيران واستلقى الكونت العجوز في مكتبه . اما في البهو ، فقد راحت سونيا تنقل رسماً فوق مائدة مستديرة بينما كانت الكونتيس تتلهى بلعب الورق وحدها مهملة المهرج نستاسيا ايفانوفا الذي كان قرب النافذة في رفقة عجوزين طيبتين . دخلت ناتاشا وفحصت شغل سونيا ثم اقتربت من أمها وانتصبت واقفة امامها لاتريم .

سألتها امها :

— لماذا تتيهين هكذا كروح معذبة ؟ ماذا ينبغي لك ؟

قالت ناتاشا بعينين متوهجتين ووجه خطير :

– انه « هو » ماأبغيه ... على الفور ... في هذه اللحظة بالذات .

رفعت الكونتيس رأسها ونظرت في عيني ابنتهانظرة عميقة . فقالت هذه :

– لاتنظري اليّ هكذا ياماه . لاتنظري اليّ او ابكي لفورى .

– اجلسي واقتربي مني هنا .

– اماه ، انه هو ماأريد ... رباه ، لمَ تفرض عليّ مثل هذا العذاب !

تحطم صوتها وترقرقت الدموع في مآقيها ، فاستدارت لتخفيها ولم تجد غير الفرار سبيلا .

توقفت في المخدع وبعد ان ترددت هنيهة ، مضت الى غرفـة الخادمات . وهناك وجدت امرأة عجوز مهمتها العناية بالثياب والفضيـات ، توبخ وصيفة شابة كانت تلهث من البرد وهي قادمة جريا من ناحية المياه :

– كفى تسلية . لكل شيء حينه .

فتدخلت ناتاشا قائلة :

– دعيها . اذهبي يامافروشا ، اذهبي .

وبعد ان انعمت عليها بتلك العطلة ، اخترقت ناتاشا قاعـة الرقص لتدخل الى الردهة . وهناك وجدت ثلاثة خـدم ، عجوزاً وشابين يلعبون الورق . كفوا عن لعبهم عندما دخلت ونهضوا عند مقدمها . حدثت ناتاشا نفسها : « في اي شيء استطيع اشغالهم ؟ آه ! لقد وجدت » .

– ، يتكا ، اذهب وآتني بديك . وانت ياميشا ائتني بقليل من الخرطال .

قال ميشا بلهجة جذله متواضعة :

– من الخرطال ؟ قليلا جداً أليس كذلك ؟

– وانت يافيدور ، ابحث لي عن بعض الحكك .

ومرت بالقرب من المقلاد فقالت لفوكا خادم المائدة ان يهيء السماور رغم ان الوقت لم يكن قد حان لمثل ذلك .

كان فوكا اكثر الرجال صمتاً في البيت فكانت ناتاشا تجد متعة خاصة في ممارسة سلطتها عليه . لم يصدق اذنيه ويعتبر الامر جديا الا عندما كررته وأيدته وحينئذ قال يعرب عن امتعاضه لناتاشا :

ـ اوه ! يالهذه الآنسة !

لم يكن في البيت احد يزعج الاشخاص ويقلق راحتهم بتشغيلهم مثل ناتاشا . فاذا وجدت احداً وجب ان ترسله الى مكان ما . ومهما كان من قول انها انما تحاول التأكد من عدم استياء الخدم منها وتسكعهم في تنفيذ اوامرها ، فانهم جميعاً كانوا يتهافتون بحماس لارضائها .

تساءلت وهي تذرع الممشى حائرة : « ماذا استطيع ان اصنع ؟ اين يمكنني ان اذهب ؟ » جاء المهرج العجوز للقائها وهو في ثياب داخلية نسائية :

ـ يانستاسيا ايفانوفنا ، ماذا سألد ؟

ـ براغيث وصراصير وذباب المستنقعات ...

ـ رباه ، رباه ، انه نفس الشيء دائمـــاً ! ... اين احشر نفسي ؟ في اى شيء اتشاغل ؟...

ارتقت السلم الذي يؤدي الى جناح فوجل وزوجته بضجة كبيرة . وجدت المدبرتان هناك امام مائدة محملة باطباق الزبيب واللوز والخروب وهما تقارنان غلاء المعيشة في موسكو بمثله في اوديسا . جلست ناتاشا وكأنها تعلق اهتماماً على الحديث ، ثم نهضت فجأة وقالت :

ـ جزيرة مدغسكر ، ما ... دا ... غاس ... كر .

اخذت تكرر هذه الكلمة وهي تقطعها وانسحبت دون ان تعنى بالرد على السيدة شوص التي كانت تستوضحها ماتقول .

شاهدت بيتيا يهيء بمساعدة مدربه العجوز سهاماً نارية ليطلقها عندما يحل المساء . هتفت به :

ــ بيتيا ! احملني الى الاسفل .

فهرع بيتيا ومكنها من ظهره فقفزت عليه وطوقت عنقه بذراعيها بينما راح بيتيا يقوم ببعض القفزات على طريقة الحصان . قالت وهي تقفز الى الارض وتنحدر على السلالم :

ــ يكفي هكذا ... جزيرة مدغسكر ...

وبعد ان تفقدت مرافق دولتها ــ على حـــد تعبيرها ــ واختبرت نفوذها وعرفت ان كل من في البيت متضجر سئم رغم الخضوع العـام ، انسحبت ناتاشا الى بهو الموسيقى وجلست في ركن مظلم وراء خزانــة صغيرة ثم شرعت تداعب اوتار قيثارتها محاولة تذكر مقطع من احدى « الاوبيرات » التي سمعتها في بيتر سبورج عندما كانت في صحبة الامير آندريه . ما كان للمستمع العادي ان يجد اي معنى في عزفهـــا ، اما هي ، فان تلك الاصوات كانت توقظ في نفسها عالماً من المشاعر . قبعت وراء خزانتها وشخصت بابصارها الى اشعاع ضوئي كان يخترق باب المقلاد وراحت تصغي الى نفسها وتستلم الى نشوة الذكـرى .

مرت سونيا بالقاعة حاملة قدحاً في يدها هتجهة نحو المقلاد . فألقت ناتاشا نظرة عليها ثم حولتها الى الباب الموارب وتصورت ان هذا المشهد كذلك يشكل جزءاً من ذكرياتها . قالت تقنع نفسها : « نعم ، لقد رأيت هذا من قبل خطاً فخطاً . » هتفت تخاطب سونيا وهي تضرب على حبل قيثارتها الخفيض :

ــ سونيا ، ماذا اعزف هنا ؟

اقتربت هذه منها لتصغي بانتباه اكثر وقالت :

ــ آه ! انت هنا ... لست أدري تماماً .

ثم اعقبت بخجل وكأنها تخشى ان تكون مخطئة :

ـ أليست هذه موسيقى « الاعصار » ؟

لكن ناتاشا كانت تحدث نفسها : « أي نعم ، انها دائماً هكذا ، دائماً هذه الانتفاضة والابتسامة الوجلة . لقد قلت دائماً ما اقوله الآن : لاشك انه ينقصها شيء ما . » ثم تنبهت وقالت :

ـ كلا انها لازمة « حامل المـاء » ـ وهي اوبرا لشيرو بيني ـ اصغي الى جيداً ...

ولكي تقنع سونيا ، انبرت تغني اللحن حتي نهايته وقالت :

ـ الى اين تذهبين ؟

ـ لابدال ماء القدح . انني فرغت لتوي من الرسم .

ـ انك تعرفين دائماً كيف تشغلين وقتك وليس مثلي ... ونيكولا اين هو ؟

انه نائم على ما أظن .

ـ اذهبي وأوقظيه ... قولى له ان يأتي ليغني معي .

عادت تنكمش في زاويتها وهي تتساءل كيف امكن لكل هذا ان يحصل دون ان يستطيع ايجاد جواب هذا السؤال الذي لم تكن على اية حال تأسف على عدم ايجابه . حلقت من جـديد في سماء الخيال وعادت الى السويعات التي قضياها معاً والتي كان خلالها يتأملها بنظرة والهة .

« آه ! ليعد باسرع وقت . انني شديدة الخوف من ان لايتم زواجنا ! ... ثم لامجال للقول ، انني اهرم ! لن اكون بعد قايل كما أنا الآن ... ولكن من يدري ، لعله سيصل اليوم ، واخذ ينتظرني في البهو ... لعله وصل البارحة ونسيت انا ذلك ... »

نهضت من مكانها ونبذت القيثارة ثم مضت الى البهو . كان كل الناس فيه بين

معلمين ومديرات وأقرباء وزوار يشربون الشاي والخدم في ذهاب وإياب حول المائدة . كان كل شيء يجري على مألوف العادة ، لكن الامير آندريه لم يكن هناك . ولما رأى الكونت ابنته داخلة قال :

ــ آه ! ها هي ذي . تعالي واجلسي بقربي .

لكن ناتاشا جاءت تنتصب امام امها وتنظر حولها وكأنها تبحث عن شيء ما . قالت مستعطفة :

ومن جديد ، وجدت صعوبة في ايقاف عبراتها . جلست الى المائدة واصغت الى احاديث المسنين واقوال نيكولا الذي ظهر في تلك اللحظة وانضم اليهم ، « آه ياربي ، ياربي ! الوجوه نفسها دائما والاحاديث نفسها دائماً ، بل ودائماً اسلوب ابي اياه في الامساك بقدح الشاي والنفخ عليه ! » احست برعب عنيف وبكره شديد عميق لكل ساكني البيت يعتلج فجأة في نفسها ، لانهم كانوا هم هم لا يتبدلون .

وبعد الشاي ، احتمى نيكولا وسونيا وناتاشا بالمخدع العتيد ، مكانهم المفضل للافصاح عن مكنونات نفوسهم لبعضهم .

★ ★ ★

الفَصْلُ العَاشِرُ

المقنعون

قالت ناتاشا لأخيها عندما استقر بهم المقام :

– الا يحدث لك ان تتصور انـــه لم يعد ينتظرك شيء وان كل السعادة الممكنة قد حصلت عليها ؟ وعندئذ لاتشعر بالحزن ؟

قال :

– بكل تأكيد ! . احيانا ، عندما يكون كل ما حولي جيداً والعالم من حولي جـذل ، يعتريني فجأة اشمئزاز بكل شيء فافكر في اننا يجب ان نموت كلنا ... ذات مرة في الفيلق ، لم اذهب الى النزهـــة رغم ان الموسيقى كانت تصدح حيث كنت ساذهب ، لكثرة ما كنت اشعر بالضجر ...

– آه انني اعرف هذا ، انني اعرف هذا ... كنت لا ازال صغيرة جداً عندما وقع لي هذا . أتذكر يوم ان عوقبت من اجل قضية خوخ بينما كنتم ترقصون ، لقد تركوني في قاعة الصف وحيدة وكنت اذرف دموعاً حرى ... لن انسى ذلك ابداً ! كنت ارثي لنفسي ولكم جميعاً ... وكان اكثر مايحزنني انني لم افعل شيئاً سيئاً . هل تذكر ؟

– نعم . بل اذكر كذلك انني ذهبت اليك اعزيك وانني ما كنت اعرف

كيف اتصرف معك ... لقد كنا كلانا على جانب مخيف من الشذوذ ... كنت املك مهرجاً صغيراً من الورق المقوى فاردت ان اهديكه . هل تذكرين ؟

استأنفت ناتاشا بابتسامة حالمة :

– وهل تذكر قبل الحادث وكنا لانزال صغارا ، عندما دعانا عمنا ذات مرة الى مكتبه ، وكنا حينذاك في المنزل القديم وكان الظلام حالكاً ، فلم نكد ندخل حتى رأينا فجأة ...

فأكمل نيقولا قولها بانشراح :

– عبداً اسود . كيف انساه ؟ لازلت حتى الآن لااعرف هل كان عبداً حقيقياً ام كنا رأيناه في حلم ام حدثنا بعضهم بأمره .

– كان بلون الرماد ذا اسنان بيضاء ... كان واقفاً وهو يحدق فينا ...

سأل نيكولا :

– هل تذكرين ياسونيا ؟

– فاجابت سونيا بخجل :

– نعم ، نعم ، بابهام .

قالت ناتاشا :

– لقد تحدثت عن هذا العبد الى امي وابي فأكد الي انه لم يكن في بيتنا قط عبد . مع ذلك فانك تذكره !

– طبعاً كما لو وقع ذلك بالأمس .

– انه يشبه الحلم ، وهذا ما يروق لي في هذه القصة !

– وذات يوم آخر ، بينما كنا نـــدحرج بيضاً في صالة الرقص ، انبعثت عجوزتان فجأة وراحتا تبرمان دائرياً . هل وقع هذا بالفعل ؟ هل تذكرين كم كان ذلك رائعاً ؟

- نعم ، وانت ، هل تذكر عندما كان « بابا » يطلق النار من بندقيه وهو فوق المرقاة مرتدياً فروته الزرقاء ؟

وراحت تلك الذكريات الزاهية الصبوية تمر امامهم الواحدة تلو الاخرى ، تتناقض بشدة مع عودة الشيخوخة الحزين الى الوراء ، تلك الاحساسات عن الماضي التي تختلط فيها الحقيقة بالخيال ، وراحوا يضحكون برقة وهم يشعرون بالسعادة .

كانت سونيا - كعادتها - منتحية جانبا مع ان تلك الذكريات كانت تجمعهم معاً ، لكنها كانت اكثر تشويشاً في ذاكرتها . اما تلك التي لازالت حية منها ، فانها ما كانت توقظ في نفسها مثل تلك الاحساسات الشاعرية . لم تتدخل في نداء الماضي ذاك ، الا عندما استعادا ذكر وصولها الى البيت . وكان ذلك ليقصوا انها خافت من نيكولا خوفاً كبيراً وهو في سترته التي تزينها بالخرج . لقد روعتها خادمتها عندما اوهمتها بانهم سوف يوثقونها بذلك الخرج .

قالت ناتاشا :

- وقد رووا لي انا انك ولدت تحت ملفوفة . كنت اعرف ان ذلك غير صحيح ، لكنني ما كنت اجرأ على عدم التصديق وكنت شديدة الارتباك .

وفي تلك اللحظة ، برز رأس احدى الوصيفات خلال باب المقلاد الموارب . قالت الوصيفة بصوت خافت :

- يا آنسة ، لقد جاءوا بالديك .

- لم تعد من حاجة اليه يابوليا . قولي لهم ان يعيدوه .

وفي تلك الاثناء ، دخل ديملر الى المخدع ومضى قدماً الى المعزف القائم في ركن منه ، فنزع منه غطاءه وانبعث منـــه صوت متنافر . وارتفع صوت الكونتيس من البهو قائلاً :

ـ يا ادوار كارليتس ، اعزف ارجوك لحن « نوكتورن » ـ الليليات ـ لجون[1] فيلد ، الذي يلذ لي كثيراً .

امسك ديملر اللحن والتفت نحو ناتاشا ونيكولا وسونيا وقال لهم :

ـ ما انعم بال الشبيبة !

اجابت ناتاشا وهي ترمقه بنظرة :

ـ نعم اننا نتفلسف .

وعادت الى الحديث الذي اصبح يدور حول الاحلام .

شرع ديملر في العزف فاقتربت ناتاشا على اطراف قدمها من المائدة حيث اخذت الشمعة وعادت دون جلبة الى مكانها . بدأ الظلام يخيم الآن على الحجرة وخصوصاً في الركن الذي جلسوا فيه . لكن البدر كان يلقي على الارضية اشعاعاً فضياً خلال النوافـــذ المرتفعة . قالت ناتاشا وهي تقترب من نيكولا وسونيا ، بينما كان ديملر الذي فرغ من عزف المقطوعة ، مترددا في الشروع في غيرها ، يداعب اوتار معزفه بحركة ضعيفة :

ـ هل تعرفان فيمَ افكر ? يخيل الي انه لكثرة ما يُحرك رماد الماضي ، يستطيع المرء ان يعيد الى ذاكرته اشياء وقعت قبل ولادته في هذه الدنيا ...

قالت سونيا التي كانت مجتهدة دائماً وتتمتع بذاكرة طيبة :

ـ انه علم التناسخ . لقد كان المصريون يعتقدون ان ارواحنا عاشت بادىء الامر في الحيوانات وانها ستعود اليها بعد وفاتنا .

ردت ناتاشا وبصوت خافت دائماً رغم توقف الموسيقى :

---

(١) جاء في النص الفرنسي تعريف جون فيلد : مؤلف موسيقي انجليزي ولد في دبلن عام ١٧٨٢ وتوفي في موسكو عام ١٨٣٧ ، خلقت مقطوعاته « نوكتورن » لوناً جديداً من الموسيقى الفردية .

– حسناً ! انا – لو تعلمين – لا اعتقد اننا كنا من قبل في الحيوانات . اما ما انا واثقة منه ، فهو اننا كنا ملائكة هنـاك في كل مكان ، ولهذا السبب نتذكر كل هذا القدر من الاشياء ...

سأل ديملر الذي اقترب منهم بخطوات متلصصة واتخـــذ لنفسه مكاناً باقرب منهم :

– هل استطيع الانضمام اليكم :

قال نيكولا :

– لو اننا كنا ملائكة ، فلماذا اذن سقطنا الى هذا الدرك ؟ ان هـــذا لايمكن ان يكون .

قالت ناتاشا بحرارة :

– ولمَ الى هذا الدرك ؟ من قال لك اننا ادنى من مقامنا ؟ ان الروح خالدة ، أليس كذلك ؟ واذن ، اذا كان لابد ان اعيش سرمدياً ، فلا شك انني عشت من قبل دهراً كاملاً .

تدخل ديملر الذي عندما انضم الى الشبيبة لم يستطع اخفاء ابتسامة على شيء من السخرية والذي راح الآن يتبنى لهجتهم الخطيرة المسارّة :

– بلا شك ، لكنه من الصعوبة ان يتصور المرء تلك الابدية .

قالت ناتاشا :

– صعوبة ؟ لماذا ؟ بعد اليوم سيكون الغد . ودائماً هكذا . والأمس ، وأمس الاول ، كان نفس الشيء .

تناهى صوت الكونتيس الى الاسماع :

– ناتاشا ، لقد حان دورك . غنّي لي شيئاً ... ماذا تعملون هناك ؟ لكأنكم متآمرون .

قالت ناتاشا :

ــ آه ياأماه ! انني لست منسجمة .

مامن أحد ، حتى ولا ديملر الذي لم يعد شابا ، كان يميل الى ترك ركن التسارّ مع ذلك فقد نهضت ناتاشا ، ومضى نيكولا الى المعزف ، وبعد أن تمركزت وسط قاعة الرقص كعادتها ، وهو المكان الذي كانت تقدر انه أفضل للشروط السمعية ، غنت ناتاشا المقطوعة المفضلة عند امها . قالت قبل ذلك أنها لاتشعر بالانسجام . لكنها لم تغن مثل ذلك المساء منذ زمن طويل وما كانت من قبل لتغني أفضل من ذلك . سمعها الكونت من مكتبه حيث كان في مقابلة مع ميتانكا . وكالطفل الذي لايفكر عند انتهاء الدرس الا بالفرصة المنتظرة، ارتبك الكونت في الاوامر التي أصدرها وانتهى به الامر الى الصمت . أما ميتانكا الذي كان يصغي بدوره ، فقد ظل منتصباً أمام سيده لايريم والابتسامة على شفتيه . لم يغفل نيكولا عن النظر الى اخته ونظم تنفسه الشخصي على غرار تنفسها ، بينما كانت سونيا تقيس البون الشاسع الذي يفصلهــا عن ابنة عمها وتحدث نفسها بانها لن تستطيع قط أن تكتسب ولا جزء واحد من فتنه ناتاشا. وكانت الدموع تترقرق في عيني الكونتيس ، تبتسم في غبطة وحزن معاً وتهز رأسها من حين الى آخر . تصورت شبابها . وفكرت في ابنتهــا التي بدا ارتباطها مع الامير آندريه غير طبيعي ومثقل بالخطر .

كان ديملر جالساً بقرب الكونتيس يصغي مغمض العينين وأخيراً خلص الى القول :

ــ حقيقة ياكونتيس ، ان لها منقبة أوربية ، لم يعد أمامها ماتتعلمه ، هــذه النعومة ، هذه القوة ، هذه العذوبة ...

قالت الكونتيس دون أن تلقى بالاً الى من تحدثة :

ــ آه ! كم اخاف من اجلها ، كم أخاف !

كانت غريزة الامومة فيها تنبئها ان في ناتاشا شيئاً مفرطاً يمنعها من أن تكون سعيدة .

لم تكن ناتاشا قد انتهت بعد من الغناء حينما دخل بيتيا الى الحجرة واعلن بحماس ابن أربعة عشر عاماً ، وصول المقنعين . فتوقفت ناتاشا فجأة وصرخت في اخيهـــا :

— سخيف !

واندفعت نحو كرسي حيث انهارت عليه وانفجرت منشجة وظلت فترة طويلة قبل أن تسيطر على أعصابها . قالت وهي تجهد في الابتسام :

— لابأس عليّ ياأماه لابأس . أؤكد لك ان بيتيا اخافني .

لكن دموعها ظلت تنهمر وعبراتها تخنقها .

جاء الخدم وهم متنكرون على اشكال الدببة والاتراك والخمارين وسيدات المجتمع ، بين مضحك ومخيف ، يحملون معهم برد الخـارج وبشاشته . اجتمعوا بخجل في الردهة ثم اختبأ كل منهم وراء الآخر ودخلوا الى قاعة الرقص مغامرين وهناك ، انتقلوا من حالة الخوف التي اعترتهم الى الحيوية والانسجام ، فراحوا يغنون ويرقصون ويدورون ويقومون بكل تسليات عيد الميلاد . وبعـد ان كشفت الكونتيس حقيقة كل المقنّعين وضحكت من تنكرهم ، انسحبت الى البهو ، بينما ظل الكونت في القـاعة مشرق الوجه يشجعهم . أمـا الشبيبة فقد اختفت .

وبعد نصف ساعة ، جاء متنكرون آخرون يختلطون بالأولين . جاءت عجوز تحمل سلالا ـ نيكولا ـ ووراءها تركي ـ بيتيا ـ ثم مهرج ـ ديلر ـ . اما ناتاشا وسونيا فقـــد تنكرت الاولى على شكل فارس والثانية على غرار الشراكسة وقد رسمتا على وجهيها الشوارب والحواجب اللازمة بالفحم .

وبعد ان استقبلهم غير المتنكرين بدهشة مصطنعة وتهانيء حـارة ، شعر

الشبان الذين وجدوا ان أزياءهم كانت موفقة جداً ، بالرغبة في عرضها على آخرين . ولما كانت الطرق سالكة جيـدة ، ونيكولا يتحرق شوقاً على نقل الجميع في زحافة كبيرة ، فقدعرض أن يحملهم الى مسكن العم وبصحبتهم حوالي عشرة من الخدم المتنكرين .

قالت الكونتيس :

– ولكن لا ، لافائدة من ازعاج العجوز المسكين . اذهبوا على الارجح الى آل ميليوكوف .

وكانت السيدة ميليوكوف ، وهي ارملة ، تقطن على مقربة من آل روستوف مع اولادها الكثيرين المختلفي الاعمار ومعلميهم ومربياتهم .

قال الكونت العجوز بصوت نشيط منشرح :

- تلك ياعزيزتي فكرة بديعة التصوير . سأتنكر انا الآخر وسأرافقكم سأعرف جيـــداً كيف أنفس عن باشيت الباسلة . (تصغير باشا على الطريقة الفرنسية) .

لكن الكونتيس ماكانت تصغى الى الموضوع بتلك الاذن : لقد كان ايليا اندريئيتش يشكو ألماً في ساقه في الايام الاخيرة فما كان يستطيع السماح لنفسه بمثل تلك الفعلة . وبالمقابل ، اذا كانت لويز ايفانوفنا اي السيدة شوص ، تريد مرافقتهم فان الفتيات سيسافرن . ابتُهل الى السيدةشوص ان توافق وكان إلحاح سونيا التي عرفت بالتحفظ اكثرها إلحافاً في هذه المرة . والواقع ان زيها كان اكثر الازياء التنكرية نجاحاً وشاربها وحاجبها تلائم وجهها ملاءمة خارقة . راح كلٌ يهنئها غابطا فكانت تشعر ، على خلاف عادتها انها ممتلئة بالثقة والاستعداديهيب بها صوت داخلي ان مصيرها اذا لم يتقرر اليوم لن يتقرر ابداً . وقد كانت في ثياب الرجال تختلف كل الاختلاف عن حقيقتها .

اعطت السيدة شوص موافقتها ، فلم تنقض نصف ساعة حتى كانت أربع زحافات كبيرة وعليها الاجراس والجلاجل تشق مزالقها الثلج المتجلد ، تنتظم أمام المرقاة .

اطلقت ناتاشا الدلالة الاولى التي تتفق وسهرة عيد الميلاد الجنونية تلك وسرى مرحها الى الآخرين فرداً فرداً وتعاظم فبلغ أقصاه عندما ظهر المقنعون كلهم في الهـــواء الطلق يضحكون ويصرخون ويتنادون . ثم انتظموا في فرق مختلفة .

كانت اثنتان من الزحافات الاربعة معدتين للجري السريع ، والثالثة ذات الجواد المفرد والنقالة كانت خاصة بالكونت العجوز . اما الرابعة ، وهي زحافة نيكولا ، فكان يقطرها حصان صغير ادهم طـــويل الشعر . اخذ نيكولا في تنكره على شكل ارملة مرحة يجمع اعنة الحصان وهو واقف وسط زحافته متدثر بمعطف الفرسان فوق ثوبه التنكري . وكان القمر يرسل ضياء عنيفاً قوياً حتى انه كان يرى صفائح عدة الفرس النحاسية تلتمع وعيون الخيل التي كانت تدير رأسها بوجل نحو الطنف المعتم الذي كان الجمع الهائج يتحرك تحته .

اتخذت ناتاشا وسونيا والسيدة شوص وخادمتـــان مكاناً لهن في زحافة نيكولا وديملر وزوجه وبيتيا فيزحافة الكونت ، بينما نوزع الخدم المتنكرون في العربتين الاخيرتين .

صاح نيكولا بسائق عربة ابيه لتتاح له فرصة اجتيازه اثناء الطريق :

— سر في المقدمه يازاخار !

اهتزت زحافة الكونت ورافقه صرير مزالقها فترة ، دندنة الجرس الرصينة وراح حصانا الطرفين يترصان على الحاملين ويغوصان في ثلج جـــامد لامع كالسكر حتى لكأن الصقيع قد الصقها على الثلج وسار نيكولا وراءهـا ثم تبعه الآخرون في هرج ومرج عظيم .

انزلقت الزحافات الهوينا اولاً على الطريق الضيق ، وظلت ظلال الاشجار العارية تتطاول على عرض الطريق طيلة الوقت الذي قضاه الراحلون في محاذاة البستان ، حاجبة ضوء القمر العنيف . ولكن ما ان اجتـــازوا الحاجز حتى عرضت للانظار فسحة لايحدها البصر من الثلج الجامد المتلألىء كالماس ذي الاشعاعات الزرقاء . قفزت زحافة المقدمة مرة او مرتين فوق حجرة ، فحذت الاخريات حذوها معكر سلام ذلك السهل العميق المسحور في غير ندم ، ثم استوت كلها على خط واحد مباعدة بينها .

دوى صوت ناتاشا فجأة في الفضاء المتجمد :

– موطأ أرانب ، مواطىء كثيرة !

وقالت سونيا بدورها :

– كم يري المرء بوضوح يا نيكولا !

التفت نيكولا نحو سونيا واضطر الى الانحناء ليميز وجهها . انبعث أمام ناظريه وجه وسيم لطيف بشاربين وحاجبين مرسومة بالفحم ، قريب وبعيد معاً من اللياقه المصنوعة من السمور .

تساءل نيكولا وهو يتفحصها بالحاح باسم : « أين اذن سونيا الزمن الاول؟»

– ماذا ترغب يا نيكولا ؟

أجاب وهو يستدير نحو الخيول :

– لاشيء .

ولما وصلوا الى الطريق الكبيرة التى سوتها مزالق الزحافات ووسمتها المشابك الحديدية التي كانت آثارها واضحة في ضياء القمر ، اندفعت الخيول من تلقاء نفسها على الأثر وضاعفت سرعتها . كان الحصان الأيسر ، يجذب سيور اعنتـه بحركات متهزهزة ورأسه مائل الى الخارج . أما حصان المقدمة ، فكان يتأرجح وهو ناصب اذنيه وكأنه يتساءل : « هل حان الوقت أم لازال في الوقت

متسع ؟ » وكانت زحافة زاخار السوداء المتقدمة مسافة طيبة ، تنساب فوق غور الثلج الابيض بظلها القاتم ، تختلط الصيحات والضحكات وهتافات المقنعين فيها بصدى جرسها المكتوم الممعن في الابتعاد .

صاح نيكولا وهو يجذب الاعنة باحدى يديه ويلوح بالسوط في الثانية :

– هيا يا فتاي الصغار !

كان يمكن تقدير سرعة الزحافة الهائلة اعتماداً على الريح التي راحت تسوط الوجوه بعنف متزايد أو توتر الجهد الواضح على خيول الجانبين التي كانت تضاعف ابداً انطلاقها . نظر نيكولا وراءه ، فاذا بالفرق الاخرى تسرع في زحافاتها وسط التهليل وقرقعة الاسواط . وكان حصان الوسط ، يندفع ببسالة تحت قوس العريش دون ان يفكر قط في ابدال سرعته ويبشر بانطلاقه اذا طلب اليه ذلك .

لحق نيكولا بالزحافة الاولى . كانوا يهبطون فوق منحدر ليلجوا طريقاً عريضاً فُتح وسط الحقول على طول أحد الانهار .

تساءل نيكولا : « ولكن أين نحن؟ في « الحقول الطويلة » ولا شك ... ولكن لا ، انني لاأتعرف على الارض ... انها ليست « الحقول الطويلة » ولا « شاطيء داميان » ... كل شيء جديد هنا ، لكأنه مكان مسحور . ولكن ماذا يهم ! » وراح يحرض خيوله عازماً على تخطي الزحافة الاولى .

عاق زاخار خيوله فترة ليدير وجهه الذي بيضه الصقيع حتى حاجبيه نحو سيده الشاب ، فارخى نيكولا العنان لخيوله وعندئذ مد زاخار ذراعيه وصفق بلسانه ودفع خيوله كذلك وهو يقول :

– انتبه يا سيدنا !

طارت الزحافتان جنبا الى جنب وازداد جري الخيول وطال قماصها . تقدم

نيكولا نحو زاخاز الذي ما فتىء ماداً ذراعيه على المقودين . فرفع هذا احدهما باتجاه سيده وصاح :

- كلا يا سيدنا ، لن تنالني !

دفع نيكولا خيوله بأقصى سرعتها فسبق زحافة زاخار . وكانت الخيول تعفر وجوه المسافرين بثلج دقيق جاف بينما راحت ظلال الزحافة المنافسة تمر وسط انغام الزئاط والتحدي . وكان صرير المزالق يختلط مع صيحات النساء الحادة .

عدّل نيكولا للمرة الثانية سرعة خيوله وادار حوله نظرة فاحصة . كان المشهد يمثل ابداً ذلك السهل السحري الذي يغمره ضوء القمر وتلتمع فيه هنا وهناك نجوم فضية .

حدث نفسه : « أن زاخار يهيب بي ان آخذ اليسار فلماذا يا ترى ؟ هل سنذهب حتماً عند آل ميليوكوف ؟ هل هنا ميليوكوف ؟ الله يدري الى أين نذهب . الله يعرف ماذا سيقع لنا . على كل حال فان المغامرة على جانب من الفتنة والغرابة » استدار نحو شاغلي الزحافة . قال واحد من هذه المخلوقات الغريبة المجهولة التي تعطيهم شواربهم وحواجبهم المرسومه بدقة فتنة خاصة .

انظروا الى اهدابه وشاربية ، أنها بيضاء كلها .

فكر نيكولا : « أظن ان هذا هو ناتاشا . وهاهي السيدة شوص ... كلا، يجوز أن لاتكون هي . وهذا الشركسي ذو الشاربين . لست أدري من يكون ولكني أحبه . »

سألهن :

ألا تشعرن بالبرد ؟

فلم يجبنه ، لكن رحن يضحكن . ومن الزحافة التالية ، هتف ديملر بشيء،

شيء مضحك جداً ولا شك ولكن لم يتوصلوا الى تبيانه . اجابت اصوات مضحكة :

- نعم ، نعم .

طلعوا في تلك اللحظة على غابة مسحورة ذات ظلال سوداء متداخلة وبريق مامي ثم سياق درجات رخامية وسقوف فضية تأوي منزلاً سحريا . وسمع نباح حيوانات . فقال نيكولا لنفسه : « اذا كانت هذه هي ميليوكوفكا ، فان من الغرابة المتناهية حقاً أن تقودنا رحلتنا هذه التي قمنا بهاالى المجهول ، الى ميناء جيدة رغم ذلك .

كانت تلك ميليوكوفا بالفعل . هرع الخدم والوصيفات الى المرقاة بوجوه مستبشرة يحملون المصابيح . وسأل صوت من اعلى المرقاة :

– من القادمون هنا ؟

فأجابت اصوات اخرى :

– مقنعوا الكونت ، انني اعرف الخيول .

* * *

الفصل الحادي عشر

المتحابان

بيلاجي داينلوفنا ميليوكوف ، سيدة قوية تضع نظارتين على عينيها وترتدي معطفاً رماديا ، كانت في البهو مع بناتها اللواتي كانت تحاول تسليتهن وهن يذبن الشمع ويتأملن الصور التي تتكون منه ، عندما ترددت في الدهليز اصوات القادمين وخطواتهم .

دخل الفرسان والارامل المرحات والساحرات والمهرجون والدببة يسعلون ويمسحون وجوههم المغطاة بالصقيع الى القاعة الكبيرة حيث كان المستقبلون يضيئون الانوار مسرعين . افتتح المهرج - ديملر الحفل الراقص مع الارملة الطروب نيكولا . مضى المقنعون بين صيحات الاولاد الفرحة يخفون وجوههم ويسلمون على سيدة البيت مبدلين اصواتهم ، ثم انتظموا في القاعة .

- آه ! يستحيل معرفتهم ... آه ، هذه « الناتاشا » ! من تشبه بالله ؟ حقاً انها تذكرني ببعضهم ... ادوار كارليتش ، كم هو جيد ! ما كنت لاعرفه ! وكم يرقص ببراعة ! ... آه يا للآلهة ، شركسي ! آه ، لكن هذه سونيا ! كم ينسجم معها هذا الزي ! ... وهذا من هو ؟ ... نيكيتا ، فانيا ، ارفعوا الموائد ... يا للترفيه الجميل الذي جئتمونا به ... نحن الذين كنا على غاية من الهدوء ...

وقالت بعض الاصوات :

– آه ! آه ! آه ! . . . الفارس ، انظر الى الفارس . . فتى حقيقي ... وقدماه ! ... لااستطيع ان ارى ...

اختفت ناتاشا – صفية الشابات من آل ميليوكوف – مع الفتيات في المخادع الداخلية المختلفة التي كانت تتلقفها اذرع عارية خلال الباب الموارب من ايدي الخـــدم . وبعد عشر دقائق ، لحق كل شباب المسكن بالمقنعين الآخرين واختلطوا بهم .

كانت بيلاجي دانيلوفنا ، التي هيأت امكنة للضيوف وطعاماً خفيفاً للسادة وللخدم على السواء ، تروح وتجيء ونظارتاها فوق انفها ، والابتسامة الرصينة على شفتيها ، بين المقنعين متصفحة وجوههم دون ان تميز منهم احداً . لم تعد تعرف لا آل روستوف ولا ديملر حتى ولا بناتها انفسهن وسط هذا الحشد من الاثواب المنزلية والألبسة المختلفة . اخذت تستعلم من المربية وهي تنظر من تحت نظارتيها الى واحدة من بناتها متنكرة في زي تترية من قازان :

– وهذه من تكون ؟ يجب ان تكون واحداً من آل روستوف . وانت ياسيدي الفارس ، الى أي فيلق تنتمي ؟

وبعد ان طرحت السؤال الاخير على ناتاشا قالت لرئيس الخدم الذي كان يطوف على الضيوف حاملاً طبقاً من المربيات :

– قدم للتركية كعكة بالفاكهة . ان دينها لايحرمه عليها .

ولما شاهدت الخطوات المضحكة الغريبة التي اخذ الراقصون يخطونها يساعدهم تنكرهم الذي سلب منهم كل ارتباك ، اخفت بيلاجي دانيلوفنا وجهها في منديلها وراحت شخصيتها الضخمة تهتز كلها بمفعول ضحكة طيبة لاتحمد حدتها . هتفت :

– شينيت ، انظروا الى ابنتي شينيت : تصغير ساشا على الطريقة الفرنسية –

وبعد الرقصات والدبكات الروسية ، شكلت بيلاجي دانيلوفنا حلقة كبيرة قوامها الخدم وسادتهم وجاءت بخاتم وخيط وقطعة نقدية من ذات الروبل ، فبدأت الالعاب المشتركة .

خلال ساعة من الزمن ، تهدلت الازياء كلها وذابت الشوارب والحواجب المصنوعة من الفحم على الوجوه المرحة المبللة بالعرق. فاستطاعت بيلاجي دانيلوفنا ان تتعرف اخيراً على الاشخاص وراحت تهلل معجبة بنجاح الازياء التنكرية وبصورة خاصة ازياء الفتيات ، وتشكر الجميع على المتعة الطيبة التي قدموها لها . دُعى السادة الى تناول العشاء في البهو بينما قُدم العشاء للخدم في القاعة الكبيرة.

وبينما هم يتحدثون على مائدة العشاء عن استطلاع البخت في الحمام قالت عانس عجوز من نديمات آل ميليوكوف :

— كلا ، انه مريع جداً !

استفسرت البنت البكر :

— ولِمَ ذلك ?

آه ! لن تذهبن . ان ذلك يستلزم شجاعة فائقة ! ...

اعلنت سونيا :

- انا ، سأذهب .

قالت صغرى الاخوات ميليكوف :

— قصي علينا ما وقع لاحدى الآنسات .

قالت العانس العجوز :

— حسنا ، اليكن ما وقع . ذات مرة ، ذهبت آنسة الى الحمام . اخذت معها ديكاً وصحفتين وكل ما ينبغي . اخذت مكانها وظلت فترة طويلة مصيخة السمع تنتظر . وفجأة سمعت جلبة جلاجل واجراس : كانت الزحافة تقترب . ارهفت اذنها : كان بعضهم قادماً . دخل بعضهم ذاك ، وجهه يشبه وجوه الرجال

حتى ليقال انه ضابط ، وجاء يجلس بجانبها ، امام الصفحة الثانية .

هتفت ناتاشا وهي تدير عينين مذعورتين :

– أوه ! أوه ...

– وبعدئذ شرع يتحدث ؟

– بالطبع ، كالانسان العادي تماماً ... وعندئذ راح يتوسل اليها ... كان عليها ان تتابع الحديث معه حتى صياح الديك . لكن الخوف استحوز عليها ، فاخفت وجهها بين يديها . وعندئذ امسك بها الآخر ... ولحسن الحظ ، هرعت وصيفات اليها في تلك اللحظة .

تدخلت بيلاجي دانيلوفنا :

– يالها من فكرة لاخافتهن !

قالت احدى بناتها :

– ولكن ياماه ، ألم تستطلعي المستقبل بنفسك مرة ؟

سألت سونيا :

– هل يستطلعون الحظ في المكدس كذلك ؟

– بلا شك . ليس عليك الا ان تذهبي الى هناك على النور اذا كانت شجاعتك تساعدك . يصغي المرء : فاذا سمع طرق مطرقة أو قرع ما فانه فأل سيء اما اذا نُثر القمح فهو فأل حسن . وكل شيء يقع وكأنه نبوءة .

– اماه قصي علينا ماوقع لك يوماً في المكدس .

قالت :

– أوه ! انكن تعرفن انني نسيت كل شيء . ثم ان ما من واحدة منكن تفكر في الذهاب الى هناك .

استأنفت سونيا :

– ولكن بلى يا بيلاجي دانيلوفنا ، سأذهب الا اذا اعترضت على ذلك .

– حسناً ! اذهبي اذا لم تكوني خائفة .

سألت سونيا :

– يا لويز ايفانوفنا ، هل تسمحين لي ؟

وسواء لعبوا بالتخفية أو تحدثوا شأنهم في تلك اللحظة ، فأن نيكولا لم يبتعد عن سونيا قيد أنملة ، وراح ينظر اليها بعينين مختلفتين جديدتين . ظهرت له الفتاة اخيراً بفضل تنكرها وشاربيها الاصطناعيين ، على حقيقتها . بل أن هذا ما كان يظنه على الاقل ، ثم ان ناتاشا نفسها ما كانت تتذكر يوماً انها رأت ابنة عمها على مثل هذا الجمال والاندفاع والوداعة ، يملأها الفرح .

فكر وهو يراقب عيني سونيا الملتمعتين وابتسامتها المتحمسة التي كانت تحفر غمازتين تحت شاربها المستعار ، وهو الامر الذي لم يلاحظه من قبل :

« هذه هي اذن حقيقتها ! كم كنت غبياً اذ لم الاحظ هذا من قبل ! »

قالت وهي تنهض :

– لست أخاف شيئاً . سأذهب من فوري اذا اردت .

فسروا لها اين يوجد المكدس : كان عليها ان تمكث صامتة وأن تصيخ السمع . قدموا لها فروة القتها على رأسها وهي تصوب نظرة نحو نيكولا .

فكر هذا : « يالها من طفلة رائعة ! بأي شيء كنت افكر حتى الآن ؟»

لم تكد سونيا تلج الممشى حتى اختفى نيكولا عن طريق الباب الكبير بحجة ان الطقس شديد الحرارة . والحقيقة ان الجماعة المحتشدة في الغرف ، جعلت جوها خانقاً .

وفي الخارج ، لبثت تلك الاشراقة المتجمدة على حالها وذلك القمر المنير بدا اكثر ضياء ؟ كان الضياء عنيفاً وتلألؤ الثلج من الشدة بحيث لا يشعر المرء

بوغبة في النظر الى السماء ، وتفقد النجوم الحقيقية لمعانها . كانت السماء تبدو قاتمة مربدة بيننا الارض على العكس ، كلها بهجة .

ظل نيكولا لايفكر : « ياللأحمق الذي كنته اذا انتظرت حتى الآن. » وهبط درجة المرقاة ودار حول البيت من الممشى الذي يقود الى مدخل الخدم كان يعرف ان سونيا ستمر ولا شك من هناك . وفي منتصف الطريق ، كانت انضاد من الخشب المكسو بالثلج تشكل ظلالاً تنضم اليها ظلال اشجار الزيزفون العارية الزوراء ، وحواجز المكدس المصنوعة من هياكل الخشب وسقفه الابيض من الثلج الذي يجعل الناظر اليه يظن انه منحوت في حجر كريم ، تلتمع في ضوء القمر . فرقع غصن في الحديقة ثم ساد السكون ، حتى كأن المرء لايستنشق الهواء الطلق نفسه ، بل قوة فتيةً ما أبدية ، والحبور نفسه .

علا وقع اقدام على مرقاة الخدم ، فكان لها وقع أشد على الدرجات الاخيرة المغطاة بقشرة من الثلج . وقال صوت العانس العجوز :

الى الامام باستقامة عن طريق هذا الممشى يا آنسة . ولكن لاتلتفتي .

أجاب صوت سونيا التي أخذت خطواتها تصر فوق الطريق الذي وقف نيكولا ينتظرها عليه ، وقدماها في حذائين دقيقين :

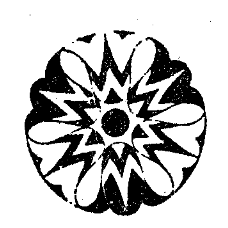
— لست خائفة .

اخذت تتقدم متدثرة بالفروة . لم تكن على أكثر من خطوتين منه ، حينما رأته . رأته هي الاخرى بعينين تختلفان عن ذي قبل . لم يعد وهو في ثوبه النسوي وشعره الاشعث وابتسامة شفتيه السعيدة . ذلك الرجل الذي كانت سونيا تخشاه دائماً . جرت نحوه .

حدث نيكولا نفسه وهو يعاين وجه الفتاة الذي كان ضياء القمر يغمره : « انها مختلفة تماماً مع ذلك لم تتبدل . » ادخل يديه تحت الفروة التي تتدثر بها

فطوقها وجذبها اليه ثم قبل شفتيها حيث كان الشارب الاصطناعي مرسوماً تنبعث منة رائحة الفحم المحروق. قبلته سونيا هي الاخرى ملء شفتية ثم مررت يديها وامسكت بوجهه من الصدغين .

- سونيا ! ... نيكولا ... ولم يزيدا . جريا الى المكدس ثم عادا بعد ذلك الى البيت كلٌ من مرقاة مختلفة .



الفصل الثاني عشر

اوهام العاشقة

عندما غادروا بيت ميلاجى دانيلوفنا ، سوّت ناتاشا أمرها ، وهي التي ترى وتلاحظ دائماً كل شيء ، حيث ركبت لويز إيفانوفنا برفقتها في زحافة ديملر بينما ظلت سونيا وحدها مع الخادمات في زحافة نيكولا .

قاد نيكولا زحافته بسرعة عادية على طريق العودة دون أن يحاول تجاوز أحد . كان ينظر الى ابنة عمه تحت ضياء القمر الغريب محاولاً ان يكتشف في ذلك الضوء المبدل ، سونيا الامس وسونيا اليوم التي اعتزم نهائياً ان لايفترق عنها قط . كان ينظر اليها ، فاذا ماعرفها ، كما هي دائمـــاً ومختلفة مع ذلك ، وتذكر طعم الفحم المحترق على شفتيها المختلط باحساس القبلة ، ثم ألقى نظره الى المنظر المحيط به ، ظن من جديد أنه في مملكة ما مسحورة . أخذ يسألها من حين الى آخر ويخاطبها بصيغة المفرد :

– سونيا ، هل « انت » على مايرام ؟

فتجيبه بالمثل :

– نعم ، و « انت » ؟

وفي منتصف الطريق ، اعطى نيكولا المقود الى الحوذي ونزل من

زحافته وجرى نحو زحافة ناتاشا واعتلى طرف المزلقين . قال لها بالفرنسية وبصوت خافت :

ـ ناتاشا ، أتعرفين ، لقد اتخذت قراراً بصدد سونيا .

سألت ناتاشا وقد اشرق وجهها بالسرور فجأه :

ـ هل كلمتها ؟

ـ آه كم انت مضحكة بهذين الشاربين وهذين الحاجبين !... هل انت مسرورة ؟

ـ نعم ، مسرورة جداً . اتدري انني كنت حـــانقة عليك ؟ ما كنت احدثك بالامر ولكنك كنت تتصرف حيالها تصرفـاً سيئاً . ان لها قلباً آية في الطيبة يانيكولا . كم انا مسرورة ! انني خبيثة احياناً . لكنني كنت اخجل من ان اكون سعيدة وحدي بدونها . اما الآن ، ها انا سعيدة . هيـا ، عد بسرعة الى جانبها .

كرر نيكولا وهو ينظر اليها دائماً ويكتشف في ملامحهـا كذلك شيئاً خارقاً للعادة فاتناً لم يلحظ مثله من قبل :

ـ لحظة ... آه ! كم انت مضحكة ! ناتاشا ، انه لون من السحر أليس كذلك ؟

اجابت :

ـ نعم ، ولقد احسنت التصرف جيداً .

حدث نيكولا نفسه : « لو انني رأيتها من قبل كما هي اليوم لسألتها النصح منذ زمن طويل ولعلمت كل ماتشير بـه عليّ ولسار كل شيء على افضل مايمكن » .

ـ اذن ، انت مسرورة وقد احسنتُ صنعاً ؟

ـ آه ! نعم ، كم احسنت الصنع ! لقد تناقشت مؤخراً مع « ماما » حول

هذا الموضوع . كانت « ماما » تزعم ان سونيا تغريك وتلاحقك . كيف يمكن ان يقال مثل هذا القول ؟ كدت اتنازع مع ماما . ولن اسمح لكائن من كان ان يسيء بالقول الى سونيا ولا ان يفكر بها بسوء لان كل شيء كامل فيها .

سأل نيكولا مرة اخرى وهو يتفحص في تقاسيم وجه أخته ليتأكد من انها تنطق بالصدق :

– اذن ، لقد أحسنت الصنع ؟

ثم صفق بحذائيه العاليين وقفز من زحافة ناتاشا ليلحق بزحافته . وجد فيها ذلك الشركسي السعيد الباسم نفسه ، ذا الشاربين ، والعينين اللامعتين الذي ينظر اليه من تحت قلنسوة السمور . وكان ذلك الشركسي هو سونيا ، وسونيا تلك ، ستكون ذات يوم زوجته السعيدة المحبة حتما .

عندما بلغوا المنزل ، قصت الفتاتان على الكونتيس كيف امضتا الوقت عند آل ميليوكوف ، ثم انسحبتا الى جناحيها . وبعد ان خلعتا ازياءهما وتركتا الشوارب ، لبثتا فترة طويلة تتحدثان عن السعادة الزوجيـــة المقبلة : سوف يتفاهم زوجاهما معاً تفاهماً كلياً وستكونان سعيدتين تماماً . وعلى المائدة ، كانت بعض المرايا التي هيأتها دونياشا خلال السهرة . قالت ناتاشا وهي تقترب منها :

– متى سيقع كل هذا ؟.. لعله لن يقع ابداً ، انني شديد الخوف من ذلك .. سوف يكون منتهى الروعة !

قالت لها سونيا :

– اجلسي ياناتاشا ، لعلك ترينه فعلا .

اضاءت ناتاشا الشموع وجلست . قالت وهي ترى وجه نفسها :

– انني ارى بعضهم بشاربين .

قالت دونياشا منبهة :

– لايجب ان تضحكي يا آنسة .

وجدت ناتاشا بمساعدة سونيا والوصيفة ، الوضعية الملائمة للمرآة الاولى ، فاتخذت سحنة جدية واستغرقت في صمت حازم ، لبثت زمناً على تلك الحال تنظر الى صف الشموع التي كانت تنآى متباعدة في المرايا ، وتتصور – استناداً الى الاقاصيص التي رويت لها – انها سترى تابوتاً حيناً و « هو » الأمير آندريه حيناً آخر في المربع الاخير حيث يختلط كل شيء فيه بشكل غريب . لكنها مهما بلغ استعدادها لاعتبار أصغر بقعة فوق المرآة تابوتاً او وجهاً بشرياً ، لم تر شيئاً مطلقاً . اخذ جفناها يضطرباب فنهضت وقالت :

– كيف يحدث ان الآخرين يرون بينما لا ارى انا شيئاً مطلقاً ؟ هيا يا سونيا ، اجلسي مكاني . اليوم يومك . والا فلا . لكن انظري من اجلي .. انني شديد الخوف .

جلست سونيا الى المرآة وراحت تحدق فيها بعد ان أعطتهـا الزاوية الملائمه

قالت دونياشا بصوت خافت :

– سترى صوفي الكسندروفنا حتما شيئاً ما . واذا كنت لاترين شيئاً فما ذلك الا لانك ضاحكة ابداً .

سمعت سونيا تلك الكلمات وجواب ناتاشا المدمدم :

– نعم ، انني اعرف تماماً انها سترى شيئاً . لقد رأت شيئاً ما في العام الفائت ايضاً .

استأنفت ناتاشا بصوت خافت بعد دقائق من الصمت :

بلا شك !

لكنها لم تجد الوقت الكافي للاسترسال لان سونيا دفعت المرآة التي كانت تحملها فجأة وغطت عينيها بيدها . هتفت :

ـ آه ! ناتاشا !

هتفت ناتاشا وهي تسند المرآة :

ـ هل رأيت ؟ هل رأيت ؟ ماذا رأيت ؟

لم تر سونيا شيئاً ، فكانت تريد ان تريح نظرها فقط . بل انها همت بالنهوض حينما تمتمت ناتاشا بكلمتها « بلا شك » ... ما كانت تريد ان تخدع ناتاشا ولا دونياشا و كانت تحس بالتعب لطول جلوسها . بل انها كانت تجهل سبب صيحتها تلك وحجبها عينيها بيدها .

سألتها ناتاشا وهي تمسك بيديها .

ـ أهو « هو » الذي رأيته ؟

اجابت سونيا مغامرة وهي لاتدري تماماً من كانت تعنيه ناتاشا بكلمة « هو » ، أكان آندريه ام نيكولا :

ـ نعم ... انتظري ... انه هو الذي رايته .

فكرت في نفسها : « ثم ، لمَ لااقول انني رأيت شيئاً ؟ ان ذلك يحدث لكثير من الآخرين . ثم من الذي يستطيع اقناعي بغشي ؟ » .

قالت :

ـ نعم ، لقد رأيته .

ـ وكيف رأيتيه ؟ واقفاً ام مستلقياً ؟

ـ انتظري ... بادىء الامر لم يكن هناك شيء ، ثم رأيته مستلقيا فجأة .

سألت ناتاشا وهي تحدق في ابنة عمها بعينين مذعورتين :

ـ آندريه مستلقياً ؟ أهو مريض ؟

اجابت سونيا التي اصبحت الآن تعتقد انها رأت بالفعل ماتتحدث عنه :

ـ كلا ، على العكس . لقد كان بادي السرور . وقد التفت نحوي .

- آه ! وبعد ؟

- وبعد ، لم أميز كل شيء ... لقد كان هناك شيء احمر وازرق .

- سونيا ، متى يعود ؟ متى اراه من جديد ؟ رباه ، كم اخشى من اجل نفسي ... ان كل شيء ، كل شيء يخيفني ...

ودون ان تجيب على كلمات صديقتها المطمئنة ، استلقت ناتاشا على سريرها ظلت فترة طويلة بعد اطفاء الشموع ، جامدة في مكانها ، مفتوحة العينين ، تتأمل ضوء القمر البارد خلال النوافذ المغطاة بالصقيع .



الفصل الثالث عشر

اعتراف نيكولا

بعد انقضاء اعياد الميلاد بوقت قصير ، اعلن نيكولا لامه حبه لسونيا وعزمه الاكيد على الاقتران بها . اصغت اليه الكونتيس التي كانت تلاحظ حركاتهما منذ مدة طويلة وتتوقع تلك المسارّة ، بصمت حتى فرغ من حديثه ثم صرحت له بانه يستطيع الزواج ممن يشاء ، لكنها لا هي ولا زوجها ، لن يؤيدا مثل هذا الزواج . ولاول مرة في حياته ، راى نيكولا ان أمه غير راضية عنه وانها رغم كل الحب الذي تكنه له في صدرها ، ما كانت توافق أو تلين . ارسلت تستدعي الكونت بلهجة باردة ودون ان تمنح ابنها نظرة . فلما وصل هذا ، حاولت ان تفسر له الأمر بايجاز متصنعة الهدوء . لكنها لم تستطع تمالك نفسها ، فذرفت الدمع من الغضب وانسحبت . راح الكونت يؤنب نيكولا بلهجة بلهجة مترددة ويضرع اليه ان يعزف عن مشروعه . فلما رفض هذا التنكر لوعده الذي قطعه ، امسك الاب عن الالحاح ، ومضى يلحق بالكونتيس وهو يزفر خجلا . بات الكونت عند اتفه نزاع يقع بينهما ، يشعر بانه جنى على ولده بتبديده ثروته . فما كان يستطيع أذن ان يحقد عليه لانه فضل فتاة دون بائنة

على وارثة غنية • وكان يرى في تلك المناسبة بوضوح أكثر ، ان ثروته لو لم تبذر ، كان يجد لابنه زوجة افضل من سونيا ، وان المذنب الحقيقي بالتالي ، هو نفسه ومينانكا وكيل خرجه وعاداته التي لايرجى لها تبديل •

لا الأب ولا الام ماعادا منذ ذلك اليوم يلمحان بكلمة الى موضوع الزواج امام ابنهما • لكن الكونتيس استدعت سونيا بعد بضعة أيام وراحت تأخذ عليها بقسوة ما كانت هذه او تلك تنتظرها ، انها اغرت ابنها وعقت بذلك بذلك محسنيها • كانت سونيا تصغي صامتة مطرقة الرأس الى توبيخ الكونتيس القاسي دون ان تفهم قصدها منه • كانت على استعداد للتضحية بكل شيء في سبيل المحسنين اليها ، لان فكرة التضحية كانت حاضرة ابداً في رأسها ، لكنها في الوقت الحاضر ، ما كانت تدري من اجل من تضحي بنفسها • كانت تحب نيكولا كذلك ولا يجهل ان سعادته تتوقف على هذا الحب • لذلك فقد حبست نفسها في صمت يائس ولقد قدر نيكولا ان الموقف لايحتمل لذلك قرر التفاهم مع امه حول هذا الموضوع • توسل اليها بادىء الامر ان تصفح عنها ـ عنه وسونيا ـ وان تمنحها رضاءها ، ثم مددها بانه سيتزوج سونيا على الفور وبالسر اذا عمدوا الى تعذيبها •

اجابته الكونتيس ببرود لم يعهد مثله فيها من قبل ، بانه بالغ رشده وان يستطيع كالامير آندريه ان يتزوج دون موافقة ابيه ، لكنها لن تعتبر ابداً « هذه العاقة » ابنة لها •

اغضبته كلمة « العاقة » فرفع نيكولا صوته وقال لامه انه ما كان ليظن قط بانها تحرضها على بيع نفسها ، ولما كان الامر كذلك ، فانه يخطرها لآخر مرة انه ...

لكنه لم يجد الوقت الكافي للنطق بالكلمة الحاسمة التي كانت الام اذا حكم على تعبيرات وجهه ، تنتظرها بهول ، والتي كان يمكن ان تترك ذكرى مريعة

في النفوس . ذلك ان ناتاشا ظهرت على عتبة الباب شاحبه الوجـــه صارمة الاسارير ، وقد سمعت من مكانها كل شيء . هتفت :

– نيكولا ، انك تنطق بالحماقات ، صه ، صه ! اكرر القول : صه ! ...

ثم استرسلت بصوت اقرب الى الصراخ لتخنق صوت اخيها :

اماه ، يا امي الصغيرة ، امي العزيزة ، ان الأمر لايتعلق ابداً بـ ...

كانت الام تنظر برعب الى ابنها وتشعر بقرب وقوع انفصال نهائي بينهما . لكن عنادها واستعدادها للفصال ما كانا يسمحان لها بالاستسلام . قالت ناتاشا لأخيها :

– انسحب يانيكولا ، سافسر لك كل شيء ، وانت ياامي الصغيرة العزيزة اصغي الي ...

وعلى الرغم من ان كلماتها لم تكن تحمل أي معنى ، فانها مع ذلك اصابت الهدف : اخفت الكونتيس رأسها في صدر ابنها وهي تجهش في البكاء بينما نهض نيكولا منسحباً وهو ممسك برأسه بين يديه .

وجهت ناتاشا مشروع الصلح توجيهاً حسناً : وعدت الكونتيس ابنها ان لاتضطهد سونيا فوعد بالمقابل ان لايعمل شيئاً في السردون ان يطلع ابويه عليـه .

وفي اوائل كانون الثاني ، التحق نيكولا وهو شديد الندم على النزاع الذي بينه وبين اسرته ، بفيلقه وهو عازم عزماً اكيداً على ان يصفي كل مشاكله ثم يستقيل ويتزوج سونيا التي كان مدنفاً بحبها فور عودته .

اغرق رحيل نيكولا بيت روستوف في حزن اشد كآبة ومرضت الكونتيس على اثر انفعالها . كانت سونيا تتألم لفراقهـا عن نيكولا وكذلك للهجة الكونتيس العدائية التي ماكانت هذه تستطيع كتمانها حيالها . اما الكونت

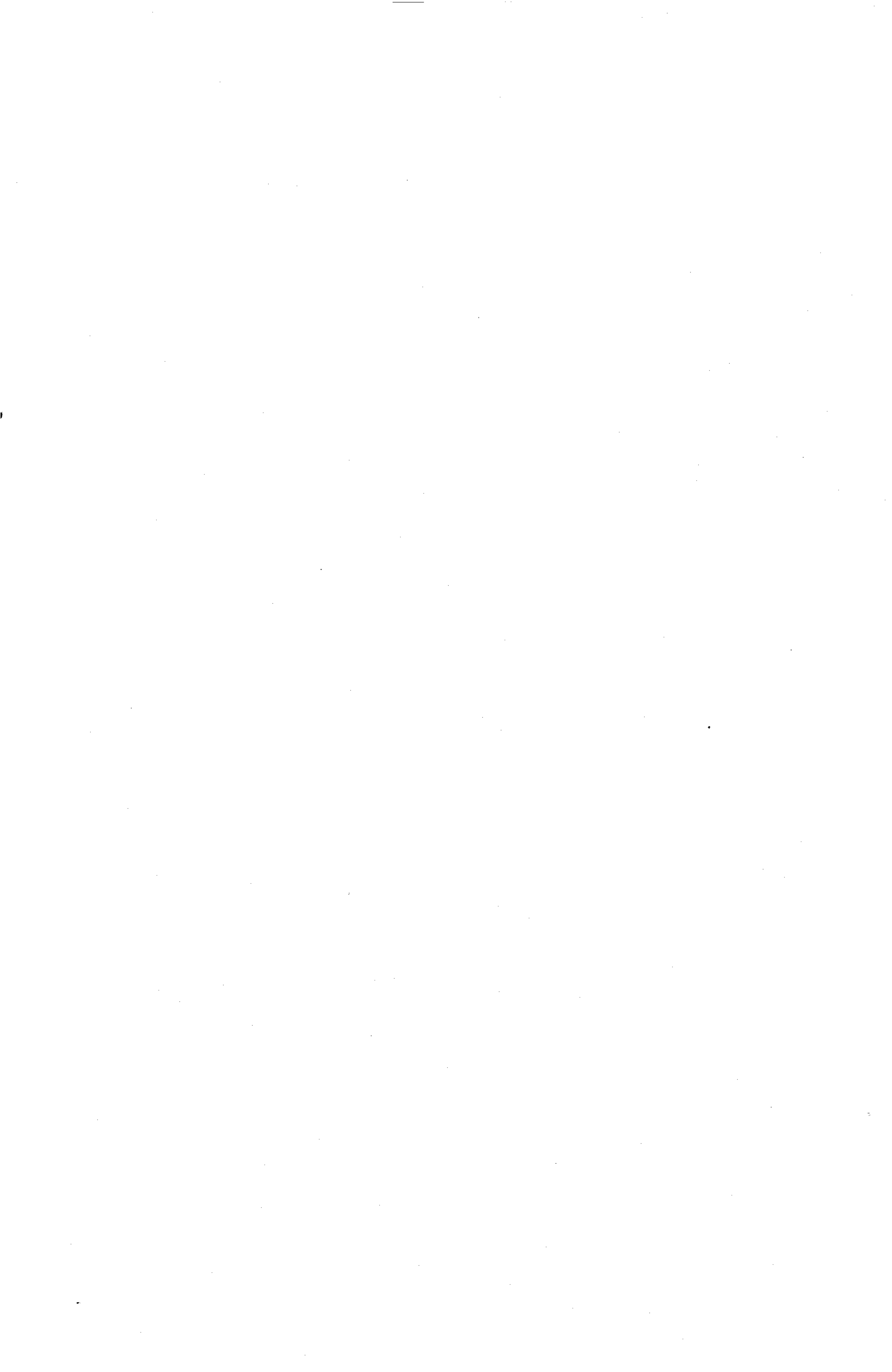
فأصبح اشد قلقاً لسوء احوالها المادية التي كانت تتلطب مزيداً من التدابير الحازمة . فبيع قصر في موسكو او الاراضي الزراعية المجاورة لهذه المدينة يقتضي السفر الى مكان العقار نفسه . لكن صحة زوجه الرديئة كانت تلجئه الى تأجيل السفر يوماً بعد يوم .

اصبحت ناتاشا التي احتملت الأشهر الاولى لغياب خطيبها بسهولة بل وبمرح ، تزداد انفعالاً ساعة بعد ساعة ونفاذ صبر . كانت فكرة انقضاء اجمل ايامها التي يمكنها قضاءها في حبه بنجاح ، هباءً ودون جدوى ، لاتني تعذبها . وكانت رسائل آندريه يزيد معظمها في ثورتها . كانت تحدث نفسها بمرارة بأنها في حين لاتعيش الا في ذكره والتفكير فيه ، يحيا هو ، حياة كل الناس ، فيرى بلداناً جديدة ويرتبط بمعارف جدد ، ويتسلى بصحبتهم ومخالطتهم . وكلما ازدادت رسائله في بيان اهتمامه ، سببت لها سخطاً زائداً . ما كانت تحب كذلك ان تكتب الى خطيبها ، لأنها لاترى في ذلك الا عملاً مبتذلاً مملاً : اذ كيف يمكن التعبير كتابة عما يمكن لفهما ان يقوله بكل يسر واجادة وان تنبيء به ابتسامتها ونظرتها ؟ لذلك فقد كانت تكتب له رسائل مملة جافة ، رسائل « كلا سيكية » ما كانت تعلق عليها شخصياً أية أهمية ، تصحح امها اخطاء الاملاء الواردة فيها على المسودة .

لم تسترد الكونتيس صحتها رغم الوقت ، بينما بات يستحيل ارجاء السفر الى موسكو اكثر من ذلك . كان يجب تهييء لوازم العرس ، وبيع البيت . وكان يُتوقع ان يذهب الأمير آندريه الى موسكو مباشرة ، حيث يقضي ابوه العجوز الشتاء . بل ان ناتاشا كانت تعتقد جازمة بأنه وصل الى موسكو بالفعل .

وهكذا ، ظلت الكونتيس في الريف ، بينما سافر زوجها ترافقه سونيا وناتاشا الى موسكو في اواخر كانون الثاني .

الجزء الخامس



الفَصْلُ الأوّل

متاعب بيير

بعد خطوبة الأمير آندريه على ناتاشا ، شعر بيير فجأة دون سبب واضح، باستحالة متابعة حياته كالسابق . على الرغم من تعلقه المتين بالحقائق التي أطلعه عليها المحسن اليه ورغم المسرات العميقة التي سببها له بحثه المحموم عن الكمال الداخلي، فان اعلان تلك الخطوبة وعلى الاخص موت جوزيف الكسيبيفيتش الذي بلغه في ذات الوقت تقريباً سلبا كل بهجة الحياة التي كان يحياها . لم يعد يرى فيها الا القشور : قصره وزوجته دائمة الشهرة ، المالكة لالتفاتات شخصية سامية ، وعلاقاته في كل بيتر سبورج ثم منصبه في البلاط بكل اجراءاته المسئمة. استبد به اشمئزاز مفاجيء فكف عن التدوين في مذكراته وتحاش صحبة الاخوان وعاد يرتاد النادي ويفرط في الشراب ويعاشر العزاب وبالاختصار ، اخذ يتصرف بشكل جعل الكونتيس ليكلين تعتقد بضرورة توجيه لوم عنيف اليه . اعترف بيير انها على صواب وانسحب الى موسكو تفادياً لتعريضها للوم.

عندما وجد نفسه من جديد في قصره الرحب الآهل بعدد وفير من الخدم الذي تقطنه الأميرات اللواتي ازددن شبهاً بالمومياء على الزمن ، وعندما رأى من جديد وهو يخترق المدينة كنيسة « عذراء ايبيريا » ذات الاضواء التي لاتحصى

والشموع التي تشع امام التماثيل المقدسة المكسوة بالألبسة المذهبة ، وساحة الكرملن بثلجها الناصع،وشارع « رافان سيفتسوف » بعرباته واطلاله،وعندما جدد اتصالاته بأولئك الشيوخ الذين كانوا ينهون حيواتهم الطويلة بتمهل واطمئنان ، وبسيدات موسكو الطيبات ، وبالحفلات الراقصة وبالنادي الانجليزي ، شعر انه عاد اخيراً الى قاعدته . كانت موسكو بالنسبة اليه المعطف المنزلي العتيق المريح الناعم القذر بعض الشيء الذي اصبح ارتداؤه عادة أليفة لصاحبه غالية عليه .

استقبل مجتمع موسكو في بيير ابتداء من العجائز وحتى الاطفال، استقبال الضيف المنتظر منذ امد طويل الذي لا يزال مكانه محفوظاً . كان بيير في نظرهم أحن وأكرم وأكمل شخصية اصيلة واكثرها فتنة وذكاء ومرحاً ، ومثالاً لشخصية الشريف الروسي عريق النسب الكاملة الساهم الطيب . كان كيس نقوده خاوياً دائماً لأنه مفتوح لكل الناس .

فإذا كان الامر متعلقاً بتمثيليات ذات ريع أو بلوحات او بتماثيل مكروهة او بمدارس اوحفلات لجمع التبرعات او بخلاعات او بتبرعات للمحافل الماسونية والكنائس أو نشر مؤلفات ، فإنه ماكان ابداً يجفوا حداً . ولولا ثلاثة أصدقاء كانوا يقترضون منه مبالغ كبير فارضين وصايتهم عليه ، لوزع بيير كل شيء . ففي النادي ماكانت تقام حفلات ولا ولائم بدونه . فماان يبتلع زجاجتين من خمرة « شاتو ماجو » حتى ينهار على اريكته المفضلة ، فتعقد حوله حلقة ويشرع في القصص والمناقشات والاحاديث المسلية . واذا ماقامت منازعة هدأها بابتسامته الطيبة او بدعابة مستملحة . اما المحافل الماسونية فكانت تفقد كل حيوية واهتمام اذا لم يكن حاضراً فيها .

وعندما كان ينصاع لالحاح الجماعة المرحة في أعقاب عشاء خاص بالشباب

فينهض بابتسامته القلبية لمرافقتهم كانت صيحات البهجة تدوي بين الشباب . وفي الحفلات الراقصة ماكان قط يرفض الرقص اذا كان هناك راقصة دون مراقص : كان يروق للفتيات وللسيدات الشابات لأنه كان يظهر حيالهن جميعا ودوداً بشوشاً دون ان يغازل احداهن وخصوصاً بعد العشاء . فكن يقلن عنه : « انه فتان لايميل الى الجنس . »

وبالاختصار كان بيير صورة حية لحجاب البلاط العاطلين الذين ينهون ايامهم بالمئات هانئين في موسكو .

لكم كان يرتعد سخطاً لو ان بعضهم قال له قبل سبع ستين عندما عاد من الخارج ، انه لايرى شيئاً يبحث فيه او يتخيله وان طريقة قد سطر منذ الأزل وانه مهما عمل سيظل حتماً مايمكن لغيره ان يكون عليه لوكان في مثل مركزه ! لوقالوا له مثل ذلك لما صدق اذنيه ! أوَليس هو الذي رغب تارة من صميم قلبه ان يقيم الجمهورية في روسيا ورغب تارة اخرى أن يكون نابوليوناً أو فيلسوفاً او المفكر المدبر الذي سيهزم الامبراطور ؟ . الم يكن هوالذي اعتقد بإمكانية تجديد الجنس البشري الفاسد وتمنى ذلك بكل شغف وعمل على اكتساب الكمال التام لنفسه ؟ اليس هو الذي انشأ المدارس والمستشفيات واعطى الحرية لفلاحيه ؟

الى أي شيء انتهى به كل هذا ؟ لقد أفضى به الامر بكل بساطة الى ان يكون زوجاً موثراً لامرأة غير مخلصة وحاجب شرف وهاو للأطعمة الفاخرة يسخر عن طيب خاطر بعد الشراب بالدولة ، وعضواً متنفذاً في النادي الانجليزي وعضواً ملقاً في المجتمع الموسكوفي وبالاختصار ، واحداً من أولئك الرجال الذين ما كان يجد في نفسه مزيداً من الاحتقار لهم منذ سبع سنين . ظل مدة طويلة لايستطيع استساغة هذه الفكرة . كان احياناً يعزي نفسه بقوله ان هذا اللون من الحياة ليس الا مؤقتاً . لكنه بعدئذ يفكر بارتياع في

عدد الناس الذين سلكوا مؤقتاً في هذا المسلك مثله وهووا في هذا النادي بكل شعورهم واسنانهم ليخرجوا منه فيما بعد وقد فقدوا شعرهم واسنانهم معاً .

في ساعات الكبرياء كان يظن نفسه مختلفاً كل الاختلاف عن أولئك الحجاب الذين كان يحتقرهم في الماضي ، أولئك المخلوقات الحمقى المبتذلة الراضية عن نفسها بغباء . فيفكر حينئذ : « انا ، على العكس ، لازلت غير راض عن شيء ، أرغب دائماً في صنع شيء ما لخير الانسانية . » لكنه في ساعات التواضع كان يقول لنفسه : « لكن من يدري ؟ انهم هم ايضاً ، زملائي ، قد ناضلوا مثلي بلا شك وحاولوا ان يشقوا في الحياة طريقاً خاصة بهم ثم بلغوا الى النقطة التي وصلت اليها انا تحت ضغط الظروف والبيئة والمنشأ ، وهي تلك القوة البدائية التي لايستطيع الانسان لها دفعا . » وبعد زمن ما من اقامته في موسكو ، اصبح يحب رفاقه في المحنة ويقدرهم ويرثي لهم دون ان يفكر قط في احتقارهم .

صحيح ان بيير تحرر من نوبات اليأس العنيفة والسويداء واحتقار الحياة . لكن اضطرابه وبلباله المكبوتين في داخله كانا يعذبانه بشدة . كان يتساءل مرات عديدة في اليوم وهو يُضطر بالرغم منه الى تمحيص احداث الحياة : « ما هو هدف كل هذا ؟ أية مأساة تمثل على مسرح الحياة؟ » ولما كان يعرف بالتجربة ان اسئلة كهذه تظل دون جواب ، فقد كان يحول فكرته فوراً سواء بأخذ كتاب أو بالنفور الى النادي او باللجوء الى جو من الثرثرة عند آبولون نيكولا ئيفتش .

كان يحدث نفسه : « ان هيلين فاسيليفنا التي ما أحبت قط إلا جسمها والتي هي حمقاء تماماً ، تظهر في نظر الناس على صورة معجزة الفكر والخداعة . وان نابوليون بونابارت رأى نفسه محتقراً من كل الناس ، طوال الوقت الذي كان فيه رجلاً عظيماً . لكنه ما ان اصبح مشعبذاً يثير الرثاء ، حتى سعى الامبراطور

فرانسوا وراء شرف منحه أخته على شكل سرّية . والاسبانيون ، بواسطة رجال الكهنوت الكاثوليك ، يشكرون الله الذي منحهم النصر على الفرنسيين في الرابع عشر من حزيران ، بينما الفرنسيون من جانبهم ، يعملون مثل هذا العمل وبواسطة رجال الكهنوت انفسهم ، لأنهم هزموا الاسبانيين بالمثل في الرابع عشر من حزيران ، واخواني الماسونيون يقسمون على الدم انهم على استعداد لتضحية كل شيء في سبيل أخيهم الانسان ، بينما لايدفعون روبلاً واحداً عند التبرعات . وبالمقابل يساهمون في دسائس « آستره » ضد « الباحثين عن المن » ويبذلون اقصى طاقتهم للحصول على البساط الايكوسي الحقيقي الذي لايعرف احد عن معناه شيئاً حتى ولا واضعه . اننا جميعاً بنشر القانون المسيحي بالصفح عن الاساءات وحب الغير ، وتنفيذاً لهذا القانون ، اقمنا في موسكو وحدها اربعين كنيسة . مع ذلك ، فإننا بالامس فقط ، حكمنا على جندي تعس فار بالجلد بالسياط حتى تعقب الوفاة . فجاء القس ، وزير هذا القانون القاضي بالحب والصفح ، وقدم الصليب لهذا الرجل ليقبله قبل نُكلة الموت . »

وكلما فكر بيير على هذا النحو ، اذهلته تلك المداهنة العامة المقبولة من كل الناس رغم الاعتياد عليها وكأنه يكتشفها للمرة الأولى . كان يحدث نفسه : «انني احس بهذا الرياء ، هذه المضلة الخلقية التي نضيع فيها . ولكن كيف افسر للآخرين كل ما أحس به ؟ لقد حاولت ولاحظت دائماً انهم في اعماق نفوسهم يشاركونني الرأي . لكنهم يرفضون رؤية هذه الاكذوبة . لاشك انه يجب ان يكون الامر كذلك ؟ ولكن أنا اين اجد لنفسي ملجأ ؟ » .

وكما هو مألوف عند كثير من الناس ، وبصورة خاصة الروسيين ، كان يمتاز بالايمان بالحق والخير . لكنه بنفس الوقت يمتاز كذلك بنفاذ البصيرة لرؤية الشر والكذب منتشرين حوله . وهذه الميزة كانت تحول دونه والاندفاع جدياً

في غمار الحياة . كان كل لون من الوان النشاط ملطخاً في نظره بالشر والكذب. وأي عمل شرع به ، لايلبث الشر والكذب ان يرداه عن اتمامه، وهكذا كانت السبل كلها مغلقة امامه على هذا الشكل. مع ذلك ،كان يجب ان يعيش عيشاً طيباً وان يشغل نفسه في شيء . لقد كانت تلك الاسئلة متعذرة الحل شديدة التضيق على نفسه حتى انه عاد الى مزاولة اعماله السابقة لا لشيء الا لنسيانها . اخذ يرتاد المحـــافل العقائدية والانديه ويشرب بكثرة ويجمع اللوحات وينصرف الى القراءة غالباً .

كان يقرأ كل ما يقع تحت يده . فاذا عاد الى منزله ، لايكاد خادمـه يفرغ من نزع ثيابه حتى تكون يده قـد حملت كتابا . ومن القراءة كان ينتقل الى النوم ومن النوم الى هذر الابهاء والاندية ومن الثرثرات الى الافراط في الأكل ومن هذا الى الثرثرات فالقراءة فالخمر . اصبحت الخمرة ضرورة جسدية وفكرية تزداد قيمتها يوماً بعديوم . ظل يفرط في الشراب رغم ان الاطباء نصحوا له مراراً باجتنابه لأنه خطر عليه بسبب متانة بنيانه. وما كان يشعر بالراحة الحقيقية الا بعد ان يُغيب في فمه الرحيب عدة اقداح من الخمر بصورة اقرب الى اللاشعور. وحينئذ يحسّ بدفء لذيذ يعم كل جسمه وبشعور من الحنان حيال امثاله من بني الانسان واستعداد للمس كل المسائل دون ان يتعمق في واحدة منها .وعندما يرتشف زجاجة او زجاجتين ، يرى بابهام ان تلك العقدة شديدة التعقيد التي هي الحياة ، التي تملأه رعباً عادة ليست من الهول بالقدر الذي يتصوره . لأن تلك العقدة الرهيبة كانت تراود افكاره اثناء الثرثرة كما تراودها خـلال القراءة بعد الطعام ، وتدوي في رأسه باستمرار . فما كان غير تأثير الخمر يجعله يقول لنفسه : « انه تافه، ساتدبره. بل ان عندي تفسيراً قائماً، لكن اللحظة غير مناسبة ،سافكر في الامر فيما بعد . » لكن « فيما بعد » هذا ، ما كان يصل ابداً .

وفي اليوم التالي ، بعد ان تتبدد ابخرة الخمر ، تعود الاسئلة الى ذاكرته من جديد اشد ما تكون تعقيداً واستحالة على الحل ، مخيفة كعادتها . فيبادر من فوره الى أخذ كتاب ويظهر غبطة كبيرة اذا تلقى زيارة بعضهم .

احيانا ، يخطر بباله انه سمع بعضهم يقول ان الجنود في الخطوط الامامية تحت النار يدأبون في ايجاد مشاغل لهم ليتسنى لهم نسيان الخطر بسهولة . وحينئذ يخيل اليه ان كل الناس يتصرفون تصرف اولئك الجنود : أنهم ينجون من الحياة بانصرافهم الى حب الرفعة ام المقامرة ام النساء ام التسلية ام الخيول ام الصيد ام الخمر ، هؤلاء بوضع القوانين وهؤلاء بالاهتمام بالشؤون العامة . فيفكر: « وبالنتيجة ، لاشيء يهمل ولا شيء يستحق الاهتمام كذلك وكل شيء تافه ، لو انني استطعت فقط ان أنآى عن كذب الحياة واتجنب هذه الرؤية الكريهة !»

★ ★ ★

الفصل الثاني

متاعب ماري

في بداية الشتاء جاء الامير نيكولا آندريئفيتش بولكونسكي وابنته للاقامة في موسكو . وبفضل ماضيه وعقليته ومحتده وبصورة خاصة بفضل هبوط الحماس الذي سببه جلوس الكسندر والشعور العدائي للفرنسيين الذي كان سائداً في المدينة حينذاك ، لم يلبث ان اصبح موضع احترام خاص من الموسكوفيين ومركز المعارضة ضد الدولة .

هرم الامير كثيراً تلك السنة . فالغفوات المفاجئة ونسيان حوادث حديثة العهد مع تذكر وقائع عريقة في القدم والزهو الصبياني حقاً الذي تقبل به دور رئيس المعارضة الموسكوفية ، كانت كلها دلائل واضحة تشير الى ضعف الشيخوخة . مع ذلك فقد كان العجوز اذا ماظهر مساء - وبصورة خاصة في وقت الشاي - ، مرتدياً فروته وشعره المستعار المذرور ،واثير من قبل احدهم فإنه كان يحاضر بصوته الحازم عن وقائع العصر الماضي ويخلص منها الى الحكم على العهد الحاضر بأحكام اشد حزماً ، الامر الذي كان يوحي الى كل المدعوين بشعور مماثل من الاحترام . وهذا النزل القديم بمراياه الهائلة وأثاثه الذي يعود الى ما قبل « الثورة » وخدمة ذوى الشعر المستعار ، وهذا الكهل من القرن

الماضي الخشن ولكن محتدم الفكر الذي تمالقه ابنته الوادعة و « فرنسيته » الجميلة كل هذا كان يتيح للزائرين مشهداً جذاباً في جلاله . لكن الزوار ماكانوا يفكرون قط في ان هناك اثنتين وعشرين ساعة من الحياة الخاصة المكتومة الى جانب الساعتين اللتين يقضونها في المنزل .

اصبحت تلك الحياة الخاصة في الآونة الاخيرة شديدة النصب على الاميرة ماري . ففي موسكو ، ماكانت في الحقيقة تنعم بالامتيازات الكثيرة والمسرات التي تتيحها المدينة الكبيرة بعد ان حُرمت من افضل مباهجها التي تقوم على علاقاتها مع « رجال الله » وجمع حواسها في الوحدة وهي المتع التي كانت تزكي شجاعتها في ليسييا جوري . مـا كانت تختلط قط بالمجتمع : كانوا يعرفون ان اباها لا يسمح لها بالخروج وحيدة وانه بسبب سوء حالته الصحية لايستطيع مرافقتها ، لذلك سرعان ما كفوا عن دعوتهـا . وقد اضطرت الى العزوف عن كل امل في الزواج ، بعد ان لاحظت البرود والعبوس اللذين كان ابوها يستقبل ويصرف بهما الشبان الذين يتوقع ان يطلبوا يدها والذين كانوا أحيانا يغامرون بدخول المنزل . كذلك لم يعد لها صديقـات لان في موسكو نزعت منها ما كانت تتوهمه بصدد شخصين كانت تعتبرهما حتى ذلك الحين مثالاً للصداقة . فالآنسة بوريين التي لم تكن ماري تثق بهـا كل الثقة على اية حال ، اصبحت الآن تثير نفورها ، فراحت لاسباب معينة تقصيهـا اكثر فأكثر . وجولي التي كانت تقطن في موسكو والتي ظلت تتراسل معها طيلة خمسة اعوام ، اصبحت الآن غريبة عنها تماماً منذ ان تقابلتا كلتاهما مقابلة مباشرة . لان جولي التي جعلها موت اخوتها تصبح من اغـنى وارثات موسكو ، استسلمت بكليتها لاعصار المناهج العصرية . كانت محاطة دائمـاً بزمرة من الشبان الذين فتحوا عيونهم فجأة على مختلف مواهبها كما كانت تظن . لقـد كانت في تلك السن التي تشعر الاوانس الناضجات فيها ان الوقت قد حان ليجربن آخر سهم في جعبتهن

وان مصيرهن يجب ان يُقرر الآن او تفوت الفرصة الى الابد . وفي كل يوم خميس من الاسبوع ، كانت الاميرة ماري تتذكر بابتسامة كئيبة انه لم يعد اليها الآن من تكتب اليه لان جولي ، جولي هذه التي اصبح وجودها لايسبب لها اي فرح ، كانت هنا ، وانهما تلتقيان كل اسبوع . كذلك المهاجر العجوز الذي رفض الزواج بالسيدة التى امضى كل امسياته عندها طيلة سنوات كاملة ، لذلك اصبحت ماري الآن تأسف ان تكون جولي قريبة منها ، الامر الذي بات يحرمها كل تسارّ . مــــع من تستطيع الآن ان تتناجى ، ومن تشاطره احزانها التي طلب اليها ان تنجزها بتهيي. ابيه لتقبل زواجه كانت ابعد من ان تنجز : لقد كان اسم الكونتيس روستوف وحده كفيلاً بان يخرج الأمير العجوز عن طوره وهو الذي كـان على اية حال على مزاج قاتل بصورة مستمرة تقريباً .

اضف الى ذلك ان الدروس التي كانت تلقنها لابن اخيها الذي بلغ السادسة من عمره ، أخذت هي الاخري تسبب لها همـاً جديداً . اخذت تلاحظ بهول انها باتت سريعة الغضب على غرار ابيها . وكلما كانت تمسك بالحكك والالفبائية الفرنسية لتلقين ابن اخيها الدرس ، كانت تقسم في سرهـــا على ان لاتنفعل ، خصوصاً وان الطفل كان يخاف سلفاً ان يغضب عمته . لكنها في تعجلها المحموم في تعليم نيكولا وتلقينه كل ماتعرفه هي نفسها ، كانت تثور لاتفه تغافل من الطفل فتفقد الصبر وترفع الصوت ، واحياناً تجذبه من ذراعه وتضعه في الركن لكنها ماتكاد تنجز تلك العقوبة حتى تغرق في دموعها حزينة على خبهثـــا . وحينئذ ينشج نيكولا بدوره لمجرد المحاكاة ويترك الركن دون اذن ويأتي الى جوار عمته فيزيح عن وجهها يديها المبللتين بالدموع ويعزيها .

واخيراً ، وهنا اشد احزانها ، وطأه ، كان الامير العجوز يصب عليهـا

جام غضبه دائماً . اصبحت قسوته المألوفة لوناً من الوحشية . فلو انه ارغمها على السجود كل الليل امام الصور المقدسة وان تنقل الخشب والماء ، فانها ما كانت تجد ذلك عسيراً عليها . لكن ذلك الجلاد المحب ، اشد الجلادين قسوة لانه يحبها ويؤلم نفسه بالمثل في تعذيبها ، ما كان يكتفي باغاظتها واذلالهـا ، بل راح يقنعها بانها مخطئة دائماً وفي كل شيء . ومنذ وقت ما ، اخذ حادث جديد ، وهو اهتمام ابيها المتزايد بالآنسة بورين ، يزيد في عذاب ماري وايلامها . أعلن الامير مازحاً بعد ان اطلع على نوايا ولده ، انه سيتزوج بالآنسة بورين ، فبات الآن يتلذذ بذلك الاحتداد لمجرد ازعاج ماري وتجريحها ، أو ان هذا على الاقل ما كانت تظنه وهي تراه يظهر نحوها مزيداً من الانفعال لقاء المزيد من التودد الظريف الى الفرنسية .

وذات يوم في موسكو ، وبحضور مـاري التي فهمت ان اباها انما يتعمد مافعل ، قبل الامير العجوز يد الآنسة بورين وجذبها اليه ثم طوقها وراح يطرها بملقه . تضرج وجه ماري ونفرت الى غرفتهـا . وبعد برهة وجيزه ، جاءت الآنسة بورين اليها مشرقة الاسارير باسمة الوجه وظنّت انهـا ستشغلها بثرثرتها المتدخلة . لكن ماري سارعت تمسح دموعهـا ومشت اليها بخطوة حازمة ودون ان تدرك ما تصنع ، صاحت في وجهها وهي ترتجف من الغضب : « انها بشاعة ، صاحت في وجهها انها دناءة ، انها مخزية ان يُنتهز ضعف ... » لكنها لم تكمل جملتها بل صاحت آمرة خلال دموعها : « اخرجي من هنا ، اخرجي !... »

وفي اليوم التالي ، لم يحدثها الامير بكلمة . لكنها لاحظت انه أعطى الامر على المائدة بان تقدم الاطعمة الى الآنسة بورين قبل غيرهـا . وعند انتهاء الطعام ، صب خادم المـائدة القهوة بادئاً بسيدته الشابة تماشياً مع مألوف

عادته . وعندئذ دخل الامير غاضباً والقى بعكازه على رأس فيليب واعطى لساعته أمراً بادخاله في الجندية . صاح وهو كا أعنف الغضب :

- ألم تسمع ؟... لقد قلت ذلك مرتين !... آه ! انك لم تسمع ؟... ان الآنسة هنا تأتي في المقام الاول . انها خير صديقه لي

واضاف يخاطب ابنته التي وجه اليها الحديث لاول مرة منذ الامس :

- اما انت ، اذا سمحت لنفسك مرة اخرى ان تفقدي اتزانك امامها ، سأريك من هوالسيد هنا . اخرجي من هنا ،واعملي على ان لااراك بعد الآن. واسأليها الصفح !

قدمت ماري اعتذارها للآنسة بورين ولابيها ثم حصلت منه على صفحه عن الخادم فيليب الذي توسل اليها ان تتوسط من أجله .

ففي حالات كهذه ، كانت ماري تشعر باحساس يعتلج في نفسها يمكن تسميته بكبرياءالتضحية ... ذلكالأب الذي سمحت لنفسها بذمه ، كان يبحث الان عن نظارتيه مستعيناً باللمس دون ان يراهما الى جانبه وينسى ما وقع منذ لحظة قصيرة ، ويخطو خطوة متعثرة ثم يستفسر بنظرة قلقة عما اذا كانوا قد لاحظوا بوادر ضعفه . بل واكثر من ذلك - وهو الاكثر سوءاً - ، لقد كان يغفو فجأة على المائدة عندما لايكون هناك مدعوون يثيرونه ويحثونه ، أو يسقط منشفته ويحني فوق المائدة رأسه المرتجة ... وعندئذ تقول ماري لنفسها : « انه عجوزا وضعيف ، مع ذلك أجد القحة لذمة ! » فتروعها هذه الفكرة وتخيفها .

الفصل العاشر

اصفياء الامير

في عام ١٨١٠ كان الطبيب العصري في موسكو ، فرنسياً اسمه الدكتور ميتيفيه . كان ذا قامة هائلة ودوداً ككل مواطنيه وبارعاً براعة خارقة اذا آمن المرء بأقوال الناس ، يستقبل من قبل العظماء وفي المجتمع الراقي استقبال الند اكثر مما يحتفون به كطبيب .

بناء على توصيات الآنسة بوريين ، وافق الامير نيكولا أيفيتش الذي كان يسخر عادة من الطب ، على ان ينهل من معلومات هذا الشخص فألفه لدرجة انه بات يستقبله مرتين كل اسبوع .

في عيد القديس نيكولا ، جاءت موسكو باسرها الى باب الامير لزيارته لكنه ماكان يريد استقبال احد باستثناء بعض خلصائه الذين اعطى ابنته قائمة باسمائهم مع امر يقضي بأن تستبقيهم لتناول الطعام .

ظن ميتيفيه الذي جاء في الصباح يقدم تهانيه ، ان من المتناسب أن « يخرق الأمر » بوصفة طبيباً كما قال للأميرة ماري . وكأنه كان أمراً متعمداً ، كان الامير في يوم من اسوأ ايامه ، دأبه الذهاب والمجيء في النزل ، موبخاً كل الاشخاص ، متصنعاً عدم فهم مايقال له وعدم فهم الآخرين مايقول . وكانت

ماري ادرى الناس بذلك المزاج المتبرم المشاكس الذى ينتهي عـــادة بانفجار غاضب . لذلك فقد شعرت طيلة ذلك الصباح و كأنها امام بندقية محشوة مرفوعة الزناد ، تنتظر الضربة التي لا مفر منهـا . مع ذلك فأن اي انفجار لم يحدث قبل وصول الطبيب . وبعد ان ادخلته ، ذهبت تجلس في البهو قرب الباب حامـلة كتاباً في يدها ، تستطيع من مكانها ان تسمع كل مايحدث في المكتب .

لم تسمع بادىء الامر إلا صوت ميتيفيه ثم صوت ابيها ثم الصوتين يتكلمان معاً . وعندئذ فتح الباب على مصراعه وظهر جسم الطبيب الضخم بناصيتـه السوداء مروع الاسارير ثم الامير وعلى رأسـه قلنسوة من القطن مرتديا ثوباً منزلياً وقد شوه الغضب وجهه وجحظت عيناه خارج محجريهما . كان يزمجر :

الا تفهم؟ لكنني أنا افهم جيداً . جاسوس فرنسي، خادم بونابارت!... اخرج من هنا ياجاسوس ، اخرج من هنا أقول لك !...

ثم صفق الباب وراءه .

هزّ ميتيفيه كتفيه واقترب من الآنسة بورين التي استنفرتها الصيحـات واتت بها الى هناك من الغرفة المجاورة . قال لها وهو يشير اليها أن تصمت :

– ان الامير في حالة غير جيدة . « انها الصفراء والانتقال الى المخ . هدئي روعك » .

ثم أسرع خارجاً .

وفي تلك الاثناء ، كانت تسمع من وراء الباب اصوات خطوات في خفين مصحوبة بهتافات : « جواسيس ! خونة ! خونة في كل مكان ! لا وسيلة لهدوء المرء في منزله ! »

استدعى الأمير ابنتة بعد رحيل ميتيفيه وصب جام غضبه كله عليها . أخذ عليها سماحها لجاسوس بالدخول عليه . مع ذلك فقد اوعز اليها ، اليها شخصياً ، بان تغلق الباب في وجه كل من لم يسجل اسمه في القائمة . لمَ اذن ادخلت ذلك

الحقير ? لقد كانت هي سبب كل شيء. ماكان يستطيع ايجاد لحظة راحة معها، ماكان يستطيع ان يموت بهدوء . اعلن وهو يتجه نحو الباب :

- نعم ياعزيزتي ، يجب ان نفترق ، اعلمي ذلك ، نعم ، اعلمي ذلك . انني في اقصى درجات الانهاك .

وخشي بلا شك ان لاتعتبر الامر جديا ، فعاد ادراجه واضاف وهو يجهد في تمالك هدوئه :

- لاتظني انني اقول لك هذا في فترة غضب ، انني هادىء كل الهدوء . لقد فكرت طويلاً واتخذت قراري : لنفترق . ابحثي لك عن مأوى !

لم يتمالك نفسه اكثر من ذلك ، فرفع قبضتيه باتجاه ابنته بحركة غاضبة قد لاتتوفر الا في الرجل الذي يحب في اعماق نفسه وصاح وهو نفسه فريسة ألم عميق :

- لو أن بعض الحمقى يتزوجها فيريحني منها !

ثم صفق الباب واختلى مع الآنسة بورين في مكتبه حيث عاد تدريجياً الى هدوئه .

وفي الساعة الثانية ، وصل الاشخاص الذين دعاهم الى مائدته وهم ستة .

كانوا الكونت روستوبتشين الشهير والأمير لوبوخين وابن اخيه الجنرال تشاتروف وهو صديق سلاح قديم للأمير ، وبيير بيزوخوف وبوريس دروبيتسكوي ممثلين عن الشباب . وكانوا جميعاً ينتظرونه في البهو .

وكان بوريس خلال عطلته في موسكو قد نجح في تقديم نفسه مؤخراً للامير نيكولا آندريئيفيتش وحصل على رضاه بحذاقة حتى ان هذا استثناه فدعاه خلافاً لعادته باستبعاد الشباب غير المتزوجين .

لم يكن بيت الامير يدخل في عداد ما يسمونه « بالمجتمع العصري » تماماً، اذ لم يكن احد يتحدث عن هذه الدائرة الصغيرة . مع ذلك فان ما من شيء

أكان اكثر فتنة من ن يُقبل المرء فيه . وقد فهم بوريس هذه الحقيقة تمام الفهم عندما سمع الكونت روستوبتشين منذ ثمانية أيام مضت يرفض دعوة الجنرال ـ الحاكم ـ بمناسبة عيد القديس نيكولا بالعبارة التالية :

- انني في مثل هذا اليوم ، اذهب دائماً لتكريم بقايا الامير آندريئيفيتش.

فأجابه الجنرال :

- آه ! نعم ، هذا صحيح وكيف حاله ؟ ...

كان المدعوون المجتمعون قبل الغداء في البهو الاعلى على الطريقة القديمة ، ذي الاثاث الأثري ، تذكر الناظر بمقام محكمة جليلة . كان الجميع صامتين ، واذا خرق بعضهم حجاب الصمت ، فانما كان يتحدث بصوت منخفض . ظهر الامير نيكولا آندريئيفيتش رزيناً رصيناً وبدت الاميرة ماري اكثر خجلاً واكثر شروداً من عادتها . ولم يكن المدعوون ليوجهون اليها الحديث لانهم كانوا يعرفون انها ليست على مستوى ما يتحدثون به . كان الكونت روستوبتشين يمسك وحده بدفة الحديث شابكاً الثرثرات المحلية بالاخبار السياسية الاخيرة . اما لوبوخين والجنرال العجوز فكانا يدليان بعبارة بين حين وآخر .

كان الامير نيكولا آندريئيفيتش يصغي كما يصغي الحاكم الاعلى لتقرير ما ، دون ان يظهر استيعابه لما يعرض عليه الا بصمته او بتفوهه ببضع كلمات مقتضبة . كانت لهجة المحادثة توحي بسخط وتبرم عامين . كانوا يستشهدون ببعض الوقائع الخاصة ولاشك بتأييد النظرية القائلة ان كل شيء يسير من سيء الى أسوأ ، ولكن ـ وهذا ما يدهش ويذهل ـ كان المتحدث يتوقف او يجد نفسه متوقفا عند الحد الذي اذا تجاوزه ، دخلت شخصية الامبراطور في مجرى البحث .

دار الحديث خلال الطعام حول الحادثة التي كانت حديث اليوم ، وهي

احتلال نابوليون لدوقيه اولدنبورج[1] الكبيرة والمذكرة العدائية للامبراطور، التي طوفتها الحكومة الروسية في تلك المناسبة على كل بلاطات اوربا .

قال الكونت روستوبتشين الذي كان منذ بعض الوقت ينقّل جملته تلك في كل مكان :

- ان بونابارت يعامل اوربا كما يعامل القرصان سفينة كسبها . ان مايذهل هو طول الاناة والتعامي من جانب رؤساء الدول . ها ان الباب مهدد : يزعم بونابارت الذي لم يعد يرتبك بشيء انه خلع رئيس الكثلكة عن كرسيه . مع ذلك ، فان كل الناس صامتين ! ان الامبراطور وحده احتج على اغتصاب دوقية اولدنبورج الكبرى ، وهذا ايضاً ...

ما كان روستوبتشين ليوغل في الحديث اكثر من ذلك : لقد بلغ الحد الأقصى الذي لايجوز تخطيه .

وقال الأمير العجوز :

- لقد عرضوا على الغراندوق املاك اخرى لقاء اولدنبورج . انه يتصرف مع الدوقات كما اتصرف مع فـــلاحيّ حينما انقلهم من ليسّيبيا جوري الى بورتشارفو او الى املاكي في ريازان .

سمح بوريس لنفسه ان يقول بالفرنسية بلهجة محترمة :

- ان الدوق اولدنبورج يحتمل مصابه بقوة شخصية وامتثال يستحقان الاعجاب .

---

(١) مقاطعة في المانيا تتبع الرايخ ، مقسمة الى ثلاثة اقسام . القسم الرئيسي في وسط هانوفر ، عاصمته اولدنبورج والثاني لوبيك الى الشرق من هولستن على البلطيك وعاصمته اوتن والثالث بيركانفيلد وعاصمته بنفس الاسم . كانت حتى عام ١٩١٩ ، غراندوقية ثم اصبحت جمهورية . ان سكان اولدنبورج العاصمة وحدها ٣٢٠٠٠ الف نسمة .

وفي الواقع انه تشرف بتقديمه الى الدوق خلال سفره من بيترسبورج الى موسكو . نظر اليه نيكولا آندريئيفيتش وكأنه يريد الاجابة عليه . لكنه امسك وقد قدر ولا شك انه لازال يافعاً .

قال روستوبتشين بلهجة منطلقة شأن الرجل الذي يحيط تماماً بالمسألة التي يتحدث عنها :

– لقد قرأت اعتراضنا بصدد هذه القضية . وانني ارثي للترجمة الهزيلة التي سطرت بها المذكرة .

امعن بيير النظر فيه بدهشة ساذجة : بأي شيء يمكن ان تقلق الترجمة الهزيلة نفس الكونت ؟ قال :

– ما اهمية الاسلوب يا كونت اذا كان الاساس حازماً ؟

فقال روستوبتشين بالفرنسية :

– يا عزيزي ، انه من السهل ان يكون لنا اسلوب جميل بالخمسمائة الف رجل الذين يشكلون جيشنا .

وحينئذ فقط فهم بيير لماذا كانت تلك الترجمة تثقل على الكونت . قال الأمير العجوز :

– يخيل اليّ مع ذلك ان الكتبة متوفرون . انهم لا يعملون شيئاً في بيترسبورج اكثر من الكتابة . ليس كتابة المذكرات فحسب ، بل والمجلدات كذلك والقوانين الجديدة . ان « آندريوشاي » – يقصد ابنه آندريه – الف منها مجلداً كاملاً .

وكرر وهو يضحك ضحكة مغتصبة :

– نعم ، انهم الآن لا هم لهم الا الكتابة .

اعقب ذلك فترات صمت ثم اجتذب الجنرال العجوز الانظار اليه بسعال خفيف :

- هل اطلعتم على الحادث الأخير الذي وقع في بيترسبورج خلال الاستعراض الأخير ؟ لقد اظهر سفير فرنسا الجديد نفسه على شكل بديع ! ..

- موضوع المسألة على الضبط ؟ لقد حدثوني عنها بابهام ...يقال انه ارتكب هفوة في حضرة جلالته ...

- بينما كان جلالته يلفت انتباهه الى فيلق قاذفي القنابل الذي كان يمر في العرض بخطوات الاحتفالات ، ظل السفير على مايبدو جامداً تماماً حيال هذا المشهد . بل وسمح لنفسه كذلك بان يقول انهم في فرانسا ، لا يهتمون بهذه التفاهات . فلم يعقب الامبراطور بشيء . لكنه في الاستعراض التالي، امسك عن توجيه الحديث اليه.

عم السكون : بما ان الأمر يتعلق بالامبراطور ، فانه لم يكن ممكناً ان يعلق احد بحكم عليه . واخيراً صخب الأمير العجوز :

- انهم سفهاء وقحون ! هل تعرفون ميتيفييه ؟ لقد طردته من منزلي هذا الصباح ....

ثم اضاف وهو يلقي نظرة غاضبة الى ابنته :

- لقد سمحوا له بالدخول رغم انني اعطيت الأمر بالا يستقبل احد .

روى كل مادار بينه وبين ميتيفيه وبيّن الاسباب التي من اجلها يرى فيه انه جاسوس . وعلى الرغم من ان حججه لم تكن على جانب كبير من الاقناع، فان مامن احد ابدى اعتراضاً .

قُدمت الشامبانيا بعد الشواء ونهض المدعوون لتهنئة الأمير ، فاقتربت ماري كذلك . القى عليها الامير نظرة باردة زوراء ومدّ لها خده المغضن الحليق . كانت اساريره تنطق بانه لم ينس محاورتها الصباحية وان قراره لازال لايقبل الالغاء ، لكنه اذا كان لم يتحدث في الموضوع قط ، فما ذلك الا على سبيل المجاملة في حضرة ضيوفه .

وعندما انتقل المدعوون الى البهو لتناول القهوة ، عقد الشيوخ حلقة . احتد

الأمير فيها قليلاً وانداقع في ملاحظاته عن الحرب المتوقعة .

كانت حملاتنا ضد بونابارت لا يمكن الا ان تكون فاشلة ـ على زعمه ـ طالما كنا نبحث عن الاتحاد مع الخارج ونشرك انفسنا في مشاكل اوربا ، وهي السياسة التي جرت علينا معاهدة الصلح في تيلسيت . ما كان يجب علينا ان نحارب لا مع النمسا ولا ضدها . لقد كانت مصالحنا كلها مركزة في الشرق . وان موقفنا الوحيد المحتمل حيال بونابارت ، كان في تسليح حدودنا ودعمها واظهار حزمنا : بهذه الطريقة ، ما كان يجرأ ابداً على الدخول في اراضينا كما سمح لنفسه بذلك عام ١٨٠٧

حينئذ قال الكونت روستوبتشين :

- وكيف ياأميري نحارب الفرنسيين ؟ هل نستطيع حقاً ان تثور على اسيادنا وآلهتنا ؟ انظر الى شبيبتنا . انظر الى نسائنا . ان الهاتنا هم الفرنسيون وجنتنا هي باريس .

رفع صوته قاصداً ولا شك ان يبلغ قوله كل المسامع :

الازياء فرنسية والافكار فرنسية والعواطف فرنسية ، كل شيء فرنسي! لقد طردت منذ حين ميتيفيه لأنه فرنسي ولأنه حقير . لكن سيداتنا يفكرون على غير هذا النحو ؟ انهن يتهافتن على ركبتيه . كنت البارحة في سهرة ، وكان ثلاثة من السيدات الخمسة الموجودات في السهرة كاثوليكيات يطرزن في يوم الاحد باذن خاص من البابا . اضف الى ذلك انهن عاريات تماماً تقريباً ويصلحن ـ حاشا احترامكم ـ اعلاناً لحانات عامة . آه ! ياأميري ، انني عندما ارى شبيبتنا ، تستبد بي رغبة انتزاع هراوة بطرس الاكبر من المتحف وتحطيم اضلاعهم جميعاً بها على الطريقة الروسية القديمة . كان ذلك سيشفيهم من جنونهم .

لم يجبه احد . كان الامير ينظر الى روستوبتشين باسماً ويؤيده بهز رأسه .

اردف روستوبتشين وهو ينهض ويمد يده الى العجوز بخشونة طبائعه المألوفة التي كان يمتاز بها :

ــ هيا ، وداعاً يا أميري . حافظ على صحتك .

فقال الأمير وهو يستبقي يد روستوبتشين بين يديه :

ــ الوداع ياعزيزي الأعز . انني لا اتعب من سماع اغنياتك .

ثم مد له خده ليقبله .

وحذا كل المدعوين حذو روستوبتشين فانصرفوا جميعاً .



الفَصلُ الرابعُ

حيرة ماري

اصاخت ماري السمع الى ثرثرة الكهول دون ان تفقه منها كلمة واحدة . كان شيء واحد يشغل بالها ، وهو ان المدعوين لم يلاحظوا الموجدة التي كان ابوها يظهرها حيالها . بل انها لم تنتبه قط الى العناية التي احاطها دروبيتسكوي بها خلال فترة الطعام وهو الذي كان يزورهم للمرة الثالثة .

نظرت بابهام الى بيير نظرة استفهام ، وكان هـــذا يحمل قبعته في يده والابتسامة على شفتيه . اقترب منها بعد ان انسحب الامير وظلا وحيدين في البهو وقال وهو يهوي بكل ثقله على اريكة هناك :

– هل يستطاع البقاء فترة اخرى ؟

اجابت :

– ولكن بلى . بينما كانت نظرتها تقول : « ألم تلاحظ شيئاً ؟ »

وكعادته بعد كل طعام جيد ، احسّ بيير ان مزاجه على خـير مايرام . اخذ يبتسم وهو شارد البصر ثم سأل :

– هل مضى على معرفتك لهذا الشاب وقت طويل ياأميرة ؟.

– أي شاب ؟

- دروبتسكوي •
- كلا ، انني اعرفه منذ حين •
- وهل يروق لك ؟
قالت وهي مشغولة البال دائماً بالحوار الذي دار بينها وبين ابيهـــا صباح ذلك اليوم :
- نعم ، انه فتى جذاب ••• ولكن لمَ هذا السؤال ؟
- لأنني لاحظت شيئاً : اقد جرت العادة على ان الفتى اذا جـــاء في عطلة من بيتر سبورج الى موسكو ، فبا ذلك الابنية الزواج بوارثة غنية •
- حقاً ؟
استرسل بيير باسماً :
- نعم . وهذا الفتى لايرود الا الأمكنة التي ينتظر ان يجد فيها فتيات من هذا النوع . انني اقرأ افكاره كما اقرأ في كتـــاب •• انه الآن لايعرف بمن يبدأ هجومه • متردد بينك وبين الآنسة جولي كاراجين • انه شديد الدأب على زيارتها •
- هل يرتاد هذا البيت ؟
فقال آندريه بوداعة مستسلماً لطبعه الساخر في دماثة الذي يأخذه على نفسه في اكثر الأحيان في مذكراته :
- لكن بلى • وهل تعرفين الطريقة الجديدة المتبعة في مغازلة الفتيات ؟
قالت ماري :
- كلا •
- لكي يروق المرء في عيون فتيات موسكو ، يجب ان يكون الآن سوداويا وهو سوداوي مع الآنسة كاراجين •
قالت ماري :

- حقاً ؟

وراحت تتأمل وجـه بيير الطيب وهي مستغرقة في حزنها . فكرت :
« انه لما يروح عن نفسي ان استطيع الركون الى احد . وانني بالتأكيد اميل الى ان اصارح بيير بكل شيء . سيعرف هذا القلب النبيل كيف يمدني بالنصح نعم ، ان ذلك يحسن الي . »

سأل بيير :

- هل تقبلين الزواج به ؟

هتفت ماري بالرغم عنها تقريباً ، وبصوت تنديه الدموع :

- رباه ياكونت ، هناك اوقات اراني فيهـا على استعداد للاقتران بأي كان . آه ! ياله من عذاب ان تحب احداً يمت أليك بصلة قريبة وان تشعر .. انه لايمكن ان تسبب له الا الحزن .

استرسلت تقول بصوت مرتعد :

- كم هي تعاسة مستعصية العلاج ... في مثل هذه الحالات ، ليس على المرء الا ان يذهب . ولكن انا ، الى أين امضي ؟

- ماذا تقولين هنا ياأميرة ؟

انخرطت ماري في البكاء دون ان تتابع حديثها . استأنفت :

- لست ادري مابي اليوم . لاتلق بالاً الى قولي . انسى ماقلته لك .

تبخر سرور بيير . راح يلح على الاميرة بحجة ان تبوح له باتراحها . لكنها توسلت اليه من جديد ان ينسى ماقالته : انها ماعادت تذكر هي نفسها ما كانت تريد قوله ، وليس في نفسها من المتاعب الا مايعرفه من قبل : الا يهدد زواج آندريه بتعكير الصفو بين الاب والابن ؟

سألت لتدير دفة الحديث :

- هل لديك اخبار عن آل روستوف ؟ لقد بلغني انهم سينزلون موسكو

قريبا . ثم انني انتظر عودة آندريه بين يوم وآخر . كم اود من صميم قلبي ان يُرى بعضهم هنا .

سأل آندريه مشيراً الى الأمير العجوز بصيغة الغائب :

– وكيف ينظر الى الأمر الان ؟

هزت ماري رأسها .

– ماذا يمكننا ان نصنع ؟ لم تبق الا أشهر قليلة على انتهاء المهلة المحدودة مع ذلك لاتفاءل بوقوع شيء جيد . كل ماأرغب فيه هو ان اخفف عن اخي اللحظات الاولى لعودته . وددت لو رأيتهم يصلون قبل ذلك . آمل ان انسجم معها ، انت الذي تعرفهم منذ زمن بعيد ، قل لي بكل اخلاص الحقيقة الصحيحة : اية فتاة هي وكيف تجدها ؟ ولكن قل لي كل الحقيقة ، لانك تعرف ان آندريه يتعرض للشيء الكثير بزواجه بها ضد مشيئة ابيه ، ولذلك أريد ان اعرف ...

نبهت حاسة غامضة بيير ان وراء تلك الدورات في الكلام وتلك التنويهات المتكررة بان يقول لها « كل الحقيقة » ، تختفي تدبير سيء القصد تعده الأميرة ماري ضد زوجة اخيها المقبلة وانها تتمنى ولا شك ان يسفه بيير انتقاء آندريه . لكن بيير عبر عما يشعر به اكثر مما يفكر فيه . قال وقد تضرج وجهه دون ان يدرك السبب :

– لست ادري بم اجيبك على سؤالك . انني لااعرف ابداً ايه فتاة هي ، لااقدر على تحليل عقليتها . انها بلا شك فاتنة جداً ولكن لماذا ؟ لست ادري ، هذا كل مااستطيع ان اقوله عنها .

اطلقت ماري زفرة . كانت امارات وجهها تنطق بوضوح : « هذا ماكنت اتوقعه تماماً ، ماكنت اخشاه » سألت :

أهي ذكية ؟

فكر بيير هنيهة :

– لاأظن ... مع ذلك نعم . على كل حال انها لاتفكر في ان تكون حاذقة ذكية الا قليلا . ان تكون فاتنة ساحرة .

هزت ماري رأسها من جديد .

– آه ! كم اود ان احبها حباً جماً ! قل ذلك لها اذا رأيتها قبلي .

– قيل لي انهم سيصلون خلال الايام القريبة القادمة .

شرحت ماري نياتها لبيير : « انها تتوقع ان تتحد مع زوجة اخيها المقبلة لتتصرفا معاً بشكل يجعل الامير العجوز يألف هذا الوجه الجديد .

★ ★ ★

الفَصلُ الخَامِسُ

خطوبة بوريس

لم يستطع بوريس ان يعقد صفقة زواج مربحة في بيترسبورج فجاء يجرب حظه في موسكو. كان متردداً بين اغنى جانبين في هذه المدينة : جولي كاراجين والأميرة ماري . وعلى الرغم من قلة جمالها فان ماري كانت تجتذبه اكثر من الاخرى. لكنه كان يشعر بلون من الارتباك في مغازلتها .خلال مقابلتها الأخيرة يوم عيد الأمير العجوز ، اضفى عبثا على احاديثه صبغة عاطفية . «لكن محاولاته كلها اخفقت امام اجوبة ماري المساهمة التي كان ذهنها متجهاً دون شك وجهة اخرى . اما جولي فعلى العكس ، لقد تقبلت تكريمه باسلوب شاذ حقاً ولكن مألوف لديها وحدها .

كانت جولي في السابعة والعشرين اصبحت واسعة الغنى بموت اخويها وفقدت كذلك كل جمالها . لكنها ماكانت ترى ذلك قط بل تظن انها اكثر فتنة من ذي قبل . كانت ثروتها تقيمها في ذلك الخطأ وكذلك واقع كونها كلما تقدمت بها السن ضعف خطرها على الرجال الذين كانوا استناداً الى ذلك ينعمون بحريات اوسع معها وينتفعون بولائمها وسهراتها ويختلطون بالبيئة اللطيفة التي تشكلت حولها دون ان يرتبط احـد منهم بوعد معها . فذلك الذي منذ عشر سنوات

مضت ، كان يخشى التردد بانتظام على بيت تقطنه فتاة في السابعة عشرة من عمرها خشية تعريض سمعتها للخطر والسقوط بالتالي في الشرك ، اصبح اليوم يقوم بزيارات يومية لها ويتصرف معها تصرفه حيال صديقة لطيفة لا اثر للجنس في علاقتها بعيداً عن المعاملة التي تقتضيها ظروف فتاة في سن الزواج .

كان نزل آل كاراجين ذلك الشتاء أبهج واكثر ترحيباً من كل نزل في موسكو . فالى جانب السهرات والولائم الخاصة ، كانت صحبة عديدة يغلب فيها الرجال ، تجتمع فيه كل يوم فيتناول المجتمعون طعام العشاء حوالي منتصف الليل ليتفرقوا بعد ذلك في الثالثة صباحاً . ما كانت جولي تغفل حفلة راقصة او نزهة أو عرضاً الا وتحضره وكانت تظهر أبداً في ملابس على احدث طراز. مع ذلك ، فقد كانت تتظاهر باللامبالاة وتقول لكل قادم انها لم تعد تؤمن بالصداقة أو بالحب ولا بأية بهجة من مباهج الحياة : انها لا تتوفع ان تكون هادئة الا « هناك » . تبنت لهجة الفتاة التي اصيبت بصدمة عنيفة او اضاعت اعز مخلوق لديها او خدعت بقسوة وحشية . وعلى الرغم من ان شيئاً من هذا القبيل لم يقع بعد في حياتها ، فانهم كانوا يتظاهرون بتصديقها حتى انتهى بها الامر شخصياً الى الاعتقاد بأنها اجتازت محناً كبيرة بالفعل . بيد ان ذلك الطبع الضجر ما كان يمنعها قط من البحث عن التسلية ، كما لم يكن يمنع الشبان الذين يترددون عليها من قضاء وقت جميل عندها . فبعد ان يقدم كل مدعو نصيبه لسويداء مضيفته ، ينصرف بكليته الى الاحاديث الاجتماعية والرقص والالعاب الفكرية والمساجلات والقوافي التي كانت شائعة جداً في ذلك البيت . لكن فئة قليلة من اولئك الشبان ، ومن بينهم بوريس ، كانوا يشاطرون جولي حظاً وافياً من طبيعتها القاتمة . كانت تدخل معهم في محاورات طويلة منعزلة حول بطلان مباهج هذا العالم ، فتريهم مجموعاتها المليئة بالصور والافكار والقصائد التي تنعكس منها راشد الاحزان وطأة .

كانت جولي تتظاهر بمودة خاصة حيال بوريس : كان ترثيت ليأسه الفتي وتقدم له العزاء الذي لايستطيع تقديمه الا من تألم بشدة في الحياة . ولما قدمت له مجموعتها ، رسم فيها شجرتين كتب تحتها : ايتها الاشجار الجافية ، ان اغصانك القاتمة تساقط علي الظلمات والسويداء . وعلى صفحة اخرى رسم قبراً و كتب :

الموت نصير والموت هادىء .

آه ! ليس من ملجأ آخر ضد الآلام .

وجدت جولي كل هذا لذيذاً . قالت له :

- هناك شيء عميق السحر في ابتسامة السويداء . انه اشعاع نور في الظل ، نقطة وسط بين الألم واليأس تظهر العزاء الممكن .

وكانت قد اقتطفت تلك الكلمة المأثورة من كتاب . فاجابها بوريس بالابيات التالية :

ايتها الغذاء المسموم لروح شديدة الحساسية ،
انت التي بدونك لاتصبح السعادة ممكنة ،
ايتها السويداء الحانية ، آه ! تعالى لتعزيني ،
تعالي هدئي آلام أعتكافي المظلم ،
وامزجي حلاوة سرية ،
الى هذه الدموع التي اشعر بانهمارها .

كانت جولي تعزف لبوريس على العود اكثر « الليليات » توجعاً . وكان بوريس يقرأ لجولي « ليز المسكينة » - وهي قصة عاطفية لكارامزين ظهرت عام ١٧٩٢ - فيغص بالانفعال والتأثر ويضطر الى التوقف عن القراءة . واذا وجدا بين جماعة كبيرة العدد ، كانت نظراتهما تتحدث الى بعضها بأنهما الوحيدان اللذان يفهم احدهما الآخر وان روحيهما توأمين .

كانت آنّا ميخائيلوفنا تزور آل كاراجين بكثرة وتحاول وهي تتظاهر

بولائها للام ، ان تحصل على معلومات وثيقة عن بائنة جولي : كانت تلك البائنة تتألف من اقطاعيتين في مقاطعة بانزا وغابات في مقاطعة نيجني ـ نوفجورود . كانت آنئذ ميخائيلوفنا تراقب بحنو وهي مفعمة النفس بالاستسلام لمشيئة القدر ، الحزن الكاذب الذي يقوم مقام همزة الوصل بين ابنها وجولي الثرية .

كانت تقول للفتاة :

ـ دائماً فتانة وسويداوية جولي العزيزة هذه ! ان بوريس يؤكد لي بأنه لايجد راحة القلب الا عندك .

ثم تضيف مخاطبة ام جولي :

ـ لقد لقي كثيراً من الصدمات وهو ذو روح شديدة التأثر .

ـ آه يا صديقي ! كم اصبحت متعلقة بجولي،هذه الايام الاخيرة ! لا استطيع التعبير عن تعلقي ! ثم من ذا الذي لايحبها ؟ انها مخلوقة سماوية حقاً . آه ! بوريس ، بوريس !

ثم تتابع بعد سكتة قصيرة :

ـ وكم ارثي لامها . لقد اطلعتني مؤخراً على رسائل وحسابات ارسلت من بانزا . ان لهم هناك اقطاعية كبيرة . ان المرأة المسكينة مضطرة الى انجاز كل هذه الامور بنفسها ، وهم يخدعونها خداعاً كبيراً !

كان بوريس يبتسم ابتسامات غير ملحوظة لأن حيل امه البسيطة كانت تثير في نفسه جذلاً لذيذاً . لكنه كان يصغي اليها بل ويسألها احياناً بعض التفاصيل عن اقطاعيات بانزا ونيجني ـ نوفجورود .

كانت جولي تنتظر منذ أمد طويل ان يعلن سويداويها العاشق عن نفسه مقررة ان لا ترفض طلبه . لكن دافعاً غامضاً سببه التصنع عند الفتاة ورغبتها العنيفة في ايجاد زوج ؛ الى جانب الخوف من ان يضطر بعد الآن الى التخلي عن كل حب حقيقي ، كان يجعل بوريس يمسك عن القيام بالخطوة الاخيرة . كانت

نهاية عطلته تقترب وهو لايني يمضي ايامه كلها عند آل كاراجين . لكنه كان دائماً يرجىء عزمه الى الغد بعد تفكير عميق . كان بوريس ، كلما رأى وجه جولي الزاجي وذقنها المدهونة ابداً بطبقة من الذرور وعينها المبللتين واساريرها القادرة على ابدال قناع السوداوية بالحماس الاصطناعي كذلك ، الذي لن يعدم مشهد السعادة الزوجية ان يبعثه فيها ، يشعر بعجزه عن النطق بالكلمات الحاسمة رغم انه كان يرى نفسه بعين الخيال مالكاً منذ زمن طويل لاقطاعيات بانزا ونيجني - نوفجورود ، التي كان يصرف - في خياله كذلك - الموارد التي تأتيه منها . وكانت جولي تلاحظ تردد بوريس وتخشى احيانا ان تكون ابعد من ان تروق له ، لكن زهوها النسوي الذي يسارع لنجدتها في مثل تلك الحالات ، كان يوهمها بان الحب هو الذي يجعله خجلاً متردداً . رغم كل ذلك ، كانت سويداؤها تبلغ بها مبلغ السخط . ولما كان رحيل بوريس قد بات قريباً ، فانها اعتزمت ان تتصرف بحزم . ولكن في تلك الاثناء بالذات ، وصل آناتول كوراجين الى موسكو ، وجاء يتردد بالطبع على منزل آل كاراجين . فلم تلبث جولي ان ابدلت سويداءها ومزاجها القاتم ببشاشة مجنونة واعربت للقادم الجديد عن أقصى درجات حسن الالتفات .

قالت آنا ميخائيلوفنا لابنها :

- يا عزيزي ، انني اعرف من مصدر موثوق ان الامير بازيل ما ارسل ابنه الى موسكو الا ليزوجه جولي . وانني احب جولي حباً جماً وزواجها بأناتول يؤلمني كثيراً فما رأيك يا صديقي ؟

ارتعد بوريس خشية ان يصبح اعتماده على موارده وحدها وان يكون الشهر الذي قضاه بالقرب من جولي يمثل دور السويداوي الجميل الشاق قد ضاع هباء ، وان يرى موارد الاقطاعيات العتيدة التي كم أحسن توزيعها في خياله والتصرف بها ، تنتقل الى ايد اخرى ، وخصوصاً ايدي ذلك السخيف آناتول .

هرع الى منزل آل كاراجين وفي نيته الاعلان عن رغبته دون تردد. استقبلته جولي بوجه باسم وروت له بلهجة جذلة مبلغ التسلية التي حصلت عليها في حفلة الامس الراقصة ثم سألته عن موعد رحيله . ولما كان بوريس عازماً عزماً اكيداً على اعلان حبه لها ، فقد قرر ان يكون عطوفاً رقيقاً . لكنه استسلم لانفعال معين فراح يعيب على النساء تلونهن والسهولة التي يتنقلن بها من الحزن الى الفرح : ان طباعهن –على حد قوله– تتوقف على طبيعة ذلك الذي يغازلهن . ردت عليه جولي وقد انكشف امرها ان كل مايقوله صحيح وان النساء يحببن التقلب وان مامن شيء أشد ملاله من السويداء .

شرع بوريس يقول وهو ينوي وخز كرامتها :

- في هذه الحالة لااستطيع الا ان اوصيك ...

لكنه في تلك اللحظة تمثل المشهد المهين الذي قد يصبح فيه اذا ماضطر الى مغادرة موسكو دون ان يبلغ غـــايته وهو الذي لم يضيع قط من قبل لاجهوده ولا وقته .

لذلك توقف في منتصف جملته واطرق بعينيه ليتفادي الشعور الكريه الذي كان يثيره في نفسه وجه جولي النكد المتردد . استأنف قائلاً –

– انني ماجئت لأتشاجر معك . بل على العكس ...

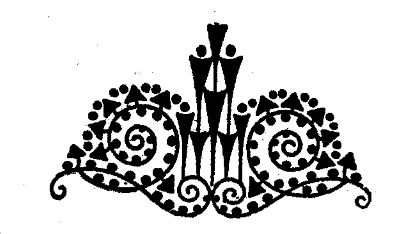
واختلس نظرة نحو جولي ليرى ماذا كان يجب عليه ان يسترسل . اختفى انفعال الفتاة فوراً وراحت تشخص اليه « سوف اتدبر الأمر دائماً بحيث اوها اقل وقت ممكن . لقد شرعت في الامر فيجب انهاؤه .» احمر وجهه ونظر في عينيها هذه المرة وقال لها :

– انك تعرفين عواطفي نحوك .

ما كانت هناك حاجة ليقول اكثر من ذلـك . كان سرور الظفر مشرقاً

على وجه جولي . لكنها مع ذلك ارغمت بوريس على ان يقول كل مايقال في مثل تلك المناسبات ، بما في ذلك انه يحبها وانه لم يشعر قط نحو امرأة من قبل بمثل الشغف الذي يحسه نحوها . لقد كانت اقطاعيات بانزا ونيجني تسمح لجولي ان تتطلب هذا القول على اقل تقدير . كانت تعرف ذلك وها هي ذي قد بلغت ما كانت تريد .

ودون ان يعاود المخطوبة التفكير في « الاشجار التي تساقط عليهما الظلمات السويداء » ، شرعا يضعان المخططات لاقامة نزل فخم في بيترسبورج ، وراحا يبادلان معارفهما الزيارات وانصرفا الى الاستعدادات اللازمة لعرسهما اللامع .



الفَصلُ السَّادِسُ

ماري دميتريفنا آخروسيموف

وصل الكونت ايليا آندريئيفتش الى موسكو تصحبه ناتاشا وسونيا في اواخر كانون الثاني بعد ان حال رجوع الأمير آندريه المرتقب دون انتظار ابلال الكونتيس ، اذ كان يجب شراء الجهاز وبيع الحقل الذي في الضواحي وانتهاز فرصة وجود الامير العجوز لتقديم كنته المقبلة اليه . ولما كان نزل آل روستوف غير مدفأ وكانت اقامتها قصيرة في موسكو لان الكونتيس لم تكن معهم ، فقد قرر ايليا آندريئيفيتش قبول ضيافة ماري دميتريفنا اخروسيموف التي كانت منذ امد طويل تعرب عن استعدادها لاضافته .

دخلت العربات الاربع باحة المنزل الذي تشغله ماري دميتريفنا في شارع فيّي ايكوري « الاسطبلات القديمة » ، في ساعة متأخرة من الليل . وكانت هذه السيدة التي زوجت ابنتها ودخل ابناؤها الاربعة في خدمات حكومية مختلفة ، تعيش بمفردها فيه.

كانت دائماً منتصبة القامة تقول لكل الناس رأيها بلهجة حازمة حاسمة ، دائماً وتبدو اشبه باحتجاج حي على الضعف والاهواء ومباذل بني الانسان الآخرين ، الأمر الذي ما كانت تقره من جانبها . كانت تنهض مبكرة فترتدي

عباءتها وتقوم باعباء بيتها ثم تنجز مهامها الخارجية . وفي كل يوم احد ، تذهب الى الكنيسة بادىء الأمر ثم تزور مختلف السجون حيث كانت لهـــا اعمال لم تطلع انسانا عليها قط . اما بقية ايام الاسبوع ، فكانت بعد ان تصلح زينتها تستقبل مراجعين عديدين بعروض مختلفة كانوا يحاصرون ردهتها دائماً . ويعقب ذلك طعام الغذاء ـ وهو دائماً طعام فاخر دسم ـ فتتناوله عـادة مع ثلاثة او اربعة من المدعوين ، فاذا مافرغوا منه ، انتظموا حول مائدة لعب الورق وفي السهرة كانت تكلف بعضهم بقراءة الصحف والكتب الحديثة على مسامعها بينما تنشغل هي في اشغال الابرة . ما كانت تخرج من بيتها ابداً واذا خرقت هذه القاعدة فعلى شرف اكثر الشخصيات سمواً ورفعة .

لم تكن قد اوت الى فراشها بعد حينما اعلن لها صوت باب المدخل الذي كان ثقله المعدل يصر تحت دفع آل روستوف وخدمهم ، وصول الضيوف . ذهبت تنتصب على عتبة البهو الكبير ورأسها مائل الى الوراء ، ونظارتاها فوق انفها ، فكانت النظرة الغاضبة التي شرعت تتأمل القادمين بها تنبيء بانها ساخطة لوجودهم هناك ، تكاد أن تطردهم . لكنها على العكس ، اخذت تعطي الاوامر لاحلال المسافرين وامتعتهم في الامكنة المناسبة . قالت وهي تشير الى الحقائب دون ان تلقي السلام على احد :

ـ هل هذه للكونت ؟ من هنا . وهذه للأوانس ؟ هنا ، الى اليسار ...

ثم صرخت بالخادمات :

ـ وانتن ، ماذا تصنعن هنـــا عاقدات اذرعكن ؟ هيا ، لتهيئن السماور ! . . .

وهتفت وهي تمسك ناتاشا المقرورة من معطفها :

ـ كم تطور جسمك وكم ازددت جمالا ! بر ... ر ... ، ياللصقيع !...

ثم قالت للكونت وهو يهم بتقبيل يديها :

– ولكن انزع فروتك ، لاشك انك متجمد الاطراف !

واخيراً قالت بالفرنسية معربة عن ودها المطاوع قليلاً الذي تكنه للفتاة :

– آه ! مرحبا ياسونيتي الصغيرة .

ولما تخلص المسافرون من فرواتهم الثقيلة واستراحوا قليلامن وعثاء السفر ، جاؤوا يحتسون الشاي فقامت ماري دميتريبفنا تقبلهم كلاً بدوره . قالت لهم :

– انني ابتهج من صميم قلبي لرؤيتكم في موسكو وفي منزلي .

واضافت بعد ان القت نظرة معبرة على ناتاشا :

– لقد حان وقت مجيئكم فعلاً . ان العجوز هنا وهم ينتظرون وصول ابنه بين لحظة واخرى يجب ان تتعرفوا عليه حتماً .

ثم اضافت وهي تنظر الى سونيا نظرة معبرة تدل على انها لاتريد طرق هذا الموضوع في حضورها :

– بيد اننا سنتحدث بذلك فيما بعد .

استأنفت وهي تلتفت نحو الكونت :

– والآن ، اصغ الي قليلا ، من تريد لقاءه غداً ؟ من ستستدعي ؟ شينشين ؟ واحد . تلك المتباكية آنا ميخائيلوفنا ؟ اثنان . انها هنا مع ابنها . انه يتزوج ، الغلام ! من ايضاً ؟ بيزوخوف ؟ انه هو الاخر هنا مع زوجته . لقد فر منها ، لكنها جاءت تطارده . لقد تغدى عندي يوم الاربعاء الفائت .

واختتمت قولها مشيرة الى الفتاتين :

– اما هاتان ، فسأقودهما غداً لتقدما نسكهما في « نوتردام ديبيري » ثم نمر بعد ذلك عند السيدة اوبير[1] – شالميه انكما تريدان آخر الابتكارات

(١) جاء في النص الفرنسي نقلاً عن كتاب (تارغ المستوطنة الفرنسية في موسكو ، الذي ظهر في باريز عام ١٩٠٨ لمؤلفه ف . تاستفان) ان مدام اوبير – شالمية كانت تدير متجراً في شارع دهجازيت تبيع فيه الطيوب لتعطير الحجرات ومعاطف من الراء واقمشة التافتا المبطنة للرجال والسيدات وقبعات من القش الناعم الابيض الخ ... وفي عام ١٨١٢ طرأ على نابوليون فكرة غريبة بسؤال تلك البائعة عن الازياء وعن النتائج الطيبة التي قد يتيحها مرسوم تحرير الفلا . وقد تبعت هذه السيدة انسحاب الجيش الكبير وماتت في فيلنا .

ولا شك ؟ على كل حال لاتقيسا عليّ ، انهم الآن يلبسون اكماما فضفاضة هكذا ... جاءت امس الاميرة ايرين فاسيليفنا الشابة لتراني وفي كل ذراع بوميلان ، انه شيء مخيف ! على اية حال ، ان الازياء كل يوم في هذا الوقت ...

ثم سألت الكونت بلهجة قاسية بعض الشيء :

ـ وانت شخصياً ، اية اعمال اتت بك ؟

اجاب الكونت :

ان كل شيء حلّ دفعة واحدة . يجب شراء الحرق ثم هناك مشترٍ لحقلي وللبيت في موسكو . اذا تفضلت بالموافقة ، سأنتهز الفرصة للذهاب الى مازينسكواي لقضاء يوم فيها وساعهد اليك ببنتيّ .

قالت ماري دميتريفنا وهي تداعب بيدها الضخمة وجنة ناتاشا ، «فليونتها» وصفيتها :

ـ حسناً ، حسناً جداً . ستكونان هنا في أمان افضل من وجودهما في مجلس الوصاية . سآخذهما الى كل الامكنة التي يجب ان ترتادانها ، وسازجرهما وادللهما كذلك .

وفي صبيحة اليوم التالي ، قادت ماري دميتريفنا الفتاتين الى نورتردام ديبيري ثم الى مخزن السيدة اوبير ـ شالمين ، التي كانت تخافها كثيراً جداً وتقدم لها لوازمها دائماً بخسارة في الاثمان ليتخلص منها بأسرع ما يمكن . وهناك اوصت ماري دميتريفنا على جانب كبير من الجهاز . وعندما عاد الجميع الى البيت ، استبقت ناتاشا وحدها واجلستها على اريكة بجانبها بعد ان صرفت الآخرين .

ـ هيا ، ولنتحدث الآن قليلاً معاً . كل تهانئي : ها انت ذي مخطوبة ، ولقد حصلت على شاب طيب . انني مبتهجة من اجلك . انني اعرفه منذ ان كان بهذا القد ـ ومدت يدها على ارتفاع نصف متر من الارض بينما كانت ناتاشا يستخفها

الفرح ـ وانني احبه كثيراً و كذلك كل اسرته . اصغي لي جيداً . انك تعرفين ان الامير نيكولا لايرغب كثيراً ان يتزوج ابنه . انه من القدماء ، عجوز عنيد . بالطبع ان الامير آندريه ليس طفلاً ولسوف يستغني عن موافقته ! ولكن لايليق الدخول الى اسرة ضد رغبة الاب . من الافضل معالجة هـذا الامر برفق وهدوء . انك لست حمقاء وستعرفين كيف تتصرفين لضمان شرفك. قليل من الحذق والنعومة وسينتهي كل شيء على ما يرام .

كانت ناتاشا صامتة لابفعل الخجل كما كانت ماري دميتريفنا تعتقد ، بل من السخط لرؤيتها بعضهم يتدخل في شؤون غرامها بالامير آندريه : لقد كان ذلك الحب امراً خاصاً جداً عن كل ما يشغل الآخرين حتى ان ما من احد ـ على زعمها ـ يستطيع فهمه . انها لاتحب ولم تعد تعرف الا الامير آندريه . وهو يحبها بالمثل ، وسوف يقترن بها حال عودته التي اصبحت قريبة ، فما كانت ترغب في اكثر من ذلك .

ـ كما ترين ، انني اعرفه منذ مدة طويلة و كذلك اخته ماري التي احبها كثيراً . يزعم المثل ان الكنائن والسلايف خشونة وحقد لكن ماري لاتسيء الى ذبابة . انها ترغب ان تتحد معك ، لقد قالت لي ذلك . غداً ستذهبان الى هناك ـ ابوك وانت ـ فكوني بشوشة معهما وابدأيها الاكرام فانت الاصغر سنا . وعندما يصل خطيبك ، تكونين انت قد تعرفت على الاب والاخت ، وستتبادلون المودة حتى ذلك الحين . ألن يكون هذا افضل ؟

فاجابت ناتاشا مكرهة :

ـ بلا شك .

الفصل السابع

مقابلة الأمير العجوز

في ذلك الغد ، عملاً بنصيحة ماري دميتريفنا ، ذهب الكونت روستوف مع ناتاشا الى منزل الامير نيكولا آندريئيفتش . لم تكن تلك الخطوة تروق له لأنه كان في اعماق نفسه يخاف تلك المقابلة . كانت ذكرى مقابلتهما الاخيرة ابان تشكيل فرق المتطوعين ماثلة في ذاكرته، عندما احتمل من الامير جواباً على دعوته اياه لتناول الغداء ، تعنيفاً قاسياً لأنـــه لم يقدم العدد المطلوب . وبالمقابل ، كانت ناتاشا على افضل مزاج وهي في اجمـــل ثوب عندها . كانت تخاطب نفسها : « لايمكن ان لايحبانى على الفور ، كل الناس يحبونني . على اتم استعداد لصنع كل ما يريدان وعلى اتم استعـداد لمحبتهما ، هو لانـه ابوه وهي لأنها اخته ، حتى انني لااوى سبباً يحدوهما الى عدم محبتي ! » .

توقفت العربة في شارع « ايكزالتاسيون » امام نزل قديم ذي منظر محزن ودخلا في دهليز . قال الامير نصف مازح نصف جاد :

لاحظت ناتاشا ان اباها شديد الارتباك وان صوته مضطرب عندما سأل عما اذا كان الامير وابنتة يقبلان الزيارة .

ما ان اعلن قدومهما حتى اعترى الحجاب والخدم لون من التشوش .اوقف

الذي كلف بالمهمة في الهو الكبير من قبل احد زملائه وراحا يتهامسان معا .
وهرعت وصيفة اليها واسرت لهما ببضع كلمات متعجلة ورد فيها ذكر سيدتها .
واخيراً جاء خادم عجوز صارم القسمات يعلن لآل روستوف ان الامير لايستطيع استقبالهما ولكن الاميرة الآنسة ترجوهما التفضل بزيارتها. ظهرت الآنسة بوريين فاستقبلت القادمين بأدب جم ورافقتهما الى الاميرة التي هرعت بدورها للقائهما بخطوات ثقيلة ووجهها قلق تعلوه لطخات حمراء . كانت تجهد عبثاً في اعطاء قسماتها مسحة الاشراق . لم تقع ناتاشا في نفسها موقع الاستحسان منذ الوهلة الاولى . لقد وجدتها مفرطة في التأنق مزهوة طائشة . ولم تكن ماري تدرك انها قبل ان ترى زوجة اخيها المقبلة ، كانت مجهزة بغيرة لاشعورية من جمالهـــا وشباب تلك الطفلة وسعادتها والحب الذي يكنه لها اخوها، الامر الذي جعلها أميل الى كرهها . لقد انضم الى ذلك النفور الذي لايضاهي اضطراب عميق: ذلك ان الأمير حال اعلان حضور آل روستوف ، راح يصرخ قائلاً انه لا يأبه بلقائهم وان ماري تستطيع مقابلتهم اذا حلا لها ذلك ولكن ليحاذروا جميعاً من الاتيان بهم اليه . فاعتزمت ماري استقبالهم لكنها كانت تخاف في كل لحظة سخط ابيها الذي اخرجته تلك الزيارة على ما يبدو عن طوره .

قال الكونت وهو ينحني احتراماً ويلقى نظرة قلقة حوله وكأنه يخشى ظهور الامير فجأة :

– كما ترين ياعزيزتي الاميرة ، لقد جئتك بمغنيتي الصغيرة . كم انا مسرور اذ تتعارفان ... انه مؤسف جداً ان يكون الامير في صحة سيئة ...

وبعد بضع عبارات من هذا النوع نهض وقال :

ـ اذا سمحت لي ياأميرة ، تركت لك ناتاشا لربع ساعه قصيرة ريثما اقوم بزيارة قريبة من هنا ، الى آناسيميونوفنا . وساعود لأخذها .

ابتكر ايليا آندريئيفيتش تلك الخدعة اللبقة ليسمح للكنة المقبلة وابنة حميها

ان تتعارفا وتتناجيا باخلاص . وقد اعترف بذلك لابنته فيما بعد ، لكنه لم يصرح لها بأنه وفر على نفسه كذلك عناء مقابلة - ربما هائجة - مع الامير . لكن ناتاشا ضمنت قلق ابيها وبلباله فاغتمت للأمر . تضرج وجهها بالحمرة من اجله وازداد سخطها على خجلها : شخصت الى الاميرة بنظرة جريئة ومثيرة كانت تعني انها لاتخاف من احد . واجابت ماري الكونت بانها سعيدة بذلك وانها ترجو الكونت ان يتأخر الى اقصى وقت ممكن . وانسحب ايليا آندريئيفيتش .

على الرغم من النظرات الجزعة التي كانت ماري تسوقها الى الآنسة بوريين رغبة منها في البقاء منفردة مع ناتاشا ، فان هذه لم تتحرك قط بل ظلت تدير دفة الحديث باصرار حول المسرات وحفلات موسكو . وكان حادث الدهليز والخوف الذي اظهره ابوها ، ولهجة الأميرة القسرية ، التي تظن انها انما تنعم عليها باستقبالها كل ذلك جعل ناتاشا في حالة نفسانية سيئة . انطوت على نفسها اذن واتخذت برغمها لهجة لامبالية جعلتها تزداد كراهة في نظر الأميرة . وبعد خمس دقائق من حديث عسير قسري ، سُمعت خطوات سريعة لرجل يحتذي خفين . ارتسم الرعب على اسارير ماري ، بينما فتح الباب عن الامير في معطفه المنزلي وقلنسوته القطنية . قال :

- آه ! يا آنسة ، يا آنسة ... الكونتيس روستوف اذا لم اكن مخطئاً . تفضلي بمعذرتي ... كنت اجهل يا آنسة . الله شهيد على قولي ، انني اجهل انك شرفتنا بزيارتك ... ما كنت اتوقع رؤية احد غير ابنتي ... تفضلي بمعذرتي على ثوبي ... الله شهيد على قولي ، كنت اجهل ...

وقد كرر قوله وهو يبرز كلمة « الله » بلهجة غير طبيعية وشديدة الكراهية حتي ان ماري ظلت جامدة لاتجرأ على رفع عينيها الى ابيها او تحويلهما الى ناتاشا .

وكانت هذه ، بعد ان وقفت ثم جلست ، لاتعرف كذلك أي سلوك تتبع بينما كانت الآنسة بوريين وحدها تبتسم ببشاشة .

غمغم العجوز مرة اخرى :

– تفضلي بمعذرتي ، الله شهيد علي انني كنت اجهل .

وبعد ان صعق ناتاشا بنظره من رأسها الى قدميها ، انصرف .

كانت الآنسة بوريين اول من ثاب الى رشده بعدهذاالمشهد . وبينمااندفعت في حديث حول صحة الأمير السيئة ، ظلت ناتاشا وماري تتبادلان النظر . وكلما طال ذلك التفحص المتبادل دون ان تعتزم احداهما التفوه بما يناسب المقام ازداد نفورهما وكرههما لبعضهما .

ولما عاد الكونت ، لم تخف ناتاشا سرورها بعودته وبادرت الى الاستئذان، بلغ بها الحد مبلغ الحقد على تلك المخلوقة الهرمة الجافة . كانت تحقد عليها حقداً هائلًا لأنها وضعتها في مثل ذلك الموقف المغلوط وقضت معها نصف ساعة دون ان تهمس بكلمة واحدة عن الامير آندريه راحت تحدث نفسها : « هل كان بمقدوري حقاً ان ابدأها الحديث عنه وامام هذه الفرنسية ايضاً ! » وبنفس الوقت كانت افكار مشابهة لهذه تعذب ماري . كانت تعرف تماماً ماذا يجب عليها قوله لناتاشا ، مع ذلك فقد صمتت ، اولاً لأن وجود الآنسة بوريين كان يروعها ومن ثم ، لأنها كانت تحس بارتباك عزيزي في التحدث عن هذا الزواج . وفي اللحظة التي غادر الكونت الحجرة فيها ، لحقت ماري بناتاشا بخطوات واسعة وامسكت بيديها ثم قالت لها وهي تزفر زفرة عميقة :

– انتظري ، كنت اريد ...

نظرت اليها ناتاشا نظرة ساخرة غير متعمدة . استأنفت ماري :

– ياعزيزتي ناتالي ، دعوني اقول لك كم انا سعيدة اذ يجد اخي السعادة...

توقفت لأنها شعرت بأنها لاتقول الصدق . ولاحظت ناتاشـــا ذلك التردد وخمنت السبب . قالت بوقار وبرود ظاهريين بينما كانت الزفرات تخنقها :

– يخيل الي ياأميرة ان الوقت غير مناسب للتحدث في هذا .

وما كادت تخرج حتى فكرت : « ماذا فعلت ، ماذا قلت ؟ »

تأخر ظهور ناتاشا على مائدة الطعام ظهر ذلك اليوم . حبست نفسهـا في غرفتها يخنقها الحزن وراحت تنشج بصوت مرتفع كالطفلة الصغيرة ، بينما كانت سونيا منحنية فوقها تقبل شعرها وتقول لها :

– ناتاشا ، لمَ البكاء ؟ ماذا يهمك هؤلاء ؟ سوف ينتظم كل شيء ، هيا ...

– آه ! لو كنت تعلمين كم هو لاذع هذا الأمر ... لقد استقبلوني كما تستقبل ...

– كفي عن التفكير في ذلك ياناتاشا ... انها ليست خطيئتك اليس كذلك؟ اذن ، لمَ تشغلين نفسك بذلك ؟ ... قبليني ، خذي ...

رفعت ناتاشا رأسها وقبلت صديقتها في شفتيها ثم اسندت وجههـــا المبلل بالدموع الى كتفها .

– لااستطيع القول ، لست ادري . انها ليست خطيئة احد ... بلى ، انها على الارجح خطيئتي ... ولكن كم هو مخيف كل هذا ! ... آه ! لم لا يأتي ؟

وعندما نزلت لتناول طعام الغداء كانت عيناها حمراوين . تظاهرت ماري دميتريفنا ـ التي كانت تعرف كيف استقبل الامير الكونت ـ بانها لاترى وجه الفتاة المنكر وظلت طيلة فترة الغدا ، تمزح بصوتها القوي الضخم مـــع الكونت والمدعوين الآخرين .

الفَصْلُ الثّامِنْ

حفلة الاوبرا

ذلك المساء ، ذهب آل روستوف الى الاوبرا حيث حصلت لهم ماري دميتريفنا على مقصورة . ما كانت ناتاشا ترغب في الذهاب لكنها لم تستطع رفض دعوة موجهة بصورة خاصة اليها . وعندما ولجت البهو وهي في ابهى زينة لانتظار ابيها ، والقت نظرت على المرآة الكبيرة اقنعتها بأنها جميلة وجميلة جداً ، شعرت بحزن متزايد ، لكنه كان حزناً حانياً ضعيفاً .

فكرت : « رباه ، لو انه كان هنا ، فانني لن اكون خجولة بغباء كالسابق ساضمه بين ذراعي بكل بساطة ولاشد نفسي الى صدره ، فينظر الي بتينك العينين المستطلعتين المستفسرتين اللتين طالما صوبهما الي . ثم ساضحك حينذاك وعيناه . آه ، عيناه ! كم اراهما الآن ! .. وماذا يهمني بعد ذلك ابوه واخته ! انه هو الذي احبه ، هو وحده . وجهه وعينيه وابتسامته التي تجمع بين الرجولة والصبوية بآن واحد ... لكن الافضل على اية حال ان لا افكر فيه ابداً ، ان لا افكر في شيء ، ان انسى على الاقل لوقت ما ، ان هذا الغياب سيقتلني ، ها انا ذا من جديد ، على استعداد للانتخاب . » ادبرت للمرآة وهي تصد دموعها بصعوبة شديدة . حدثت نفسها وهي تنظر الى سونيا التي دخلت في تلك اللحظة مرتدية ثياب الخروج هي الاخرى وفي يدها مروحة : « كيف

تعمل سونيا لتحب نيكولا بمثل هذا الهدوء ولتنتظره كل هذا الوقت وبمثل هذه الأناه ! لاشك انها تختلف عني كل الاختلاف . انني لن استطيع انا صبرا ! »

اخذت حاجة ملحة الى الحنان تعذب في تلك اللحظة ناتاشا التي لم تكن تكتفي أن تحب وترى نفسها محبوبة : كانت تحس بالرغبة المهيمنة في طريق المحبوب بذراعيها على الفور ، وفي ان تقول له وتسمعه يهمس في اذنها كلمات الحب التي يمتلىء قلبها بها . احست خلال الطريق ، وهي جالسة جنباً الى جنب مع ابيها تنظر بعين متطيرة الى انعكاسات اضواء المصابيح السريعة على زجاج باب العربة المغطي بالصقيع ، بان كلالها العاشق ينمو مضطرداً . لم تعــد تعرف مع من هي الآن والى أي مكان تؤخذ . تبعت العربة اخيراً العربات الاخرى وعجلاتها تئن شاكية فوق الثلج ، حتى بلغت مدخل المسرح . فقفزت ناتاشا وسونيا برشاقة منها ثم نزل الكونت يساعده الخدم واختلطوا جميعاً بالمتفرجين الوافدين وببائعي البرامج حتى بلغ ثلاثتهم مدخل المقاصير في الوقت الذي كانت اصوات الآلات الموسيقية وهي تُضبط ، تتناهى الى اسماعهم خلال الابواب نصف المغلقة . همست سونيا :

ناتالي ، شعرك . . .

هرع فاتح المقاصير باحترام وتقدم السيدتين ثم فتح المقصورة ، فاصبحت الالحان المرسيقية اكثر وضوحاً وظهرت للناظرين خلال اطار الباب ، مجموعة المقاصير المضاءة بسخاء ، تحتلها سيدات في اثوابهن الحاسرة عن اعناقهن ، ثم القاعة الكبرى الصاخبة المزخرفة بمختلف ازياء الالبسة . احاطت سيدة كانت تدخل مقصورة مجاورة ، ناتاشا بنظرة غير نسوية . لم يكن الستار قد رفع بعد ؛ والموسيقى تعزف لحن الافتتاح . سوّت ناتاشا ثوبها وتقدمت مع سونيا الى مقدمة المقصورة وسرحت ناظريها في المقاصير المقابلة . استبدبها شعور فجائي

لم تشعر بمثله منذ زمن طويل ،شعور تركز مئات من العيـن على جيدها وكتفيها العاريين ، فايقظ في نفسها ثول من الذكريات والرغائب والانفعالات ،واحدث تأثيراً لذيذاً واليماً معاً .

اجتذبت هاتان الفتاتان الجميلتان جمالاً ملحوظاً الانتباه العام وكذلك الكونت ايليا آندر يئيفيتش الذي احتجب زمنا طويلا عن الظهور في موسكو. ثم ان كل الناس كانوا يعرفون خبر خطوبة الأمير آندريه وناتاشا على شكل ما ، ويعلمون ان آل روستوف يقطنون في الريف منذ ذلك الوقت ، فراحوا يتفحصون تلك التي ستتزوج واحداً من افضل المرموقين في روسيا :

زادت الاقامة في الريف ناتاشا جمالاً، وكل الناس كانوا يعلمون ذلك .لكن الانفعال الذي كان يضيق عليها ذلك المساء زادها فتنه . كان مايلفت النظر فيها ذلك الجمال والحيوية الكاملين المجتمعين الى لامبالاة واضحة بكل مايحيط بها . فعيناها السوداوان تنظران الى الجموع دون ان تبحثا عن شخص معين . اسندت ذراعها العاريه حتى مافوق المفرق الى حاجز المقصورة المخملي وراحت يدها الدقيقة تتقلص وتنشر بصورة لاشعورية وبايقاع اثناء الافتتاحية وهي تدعك البرنامج . قالت سونيا :

انظري ، هذه الآنسة آلينين مع امها على ماأظن.

وقال الكونت من جانبه :

يالهي ، لقد ازداد ميخائيل كيريليتش سمنه .

انظري الى آنا ميخائيلوفنا اياها ، ياللقلنسوة التي على رأسها!

ان آل كاراجين وجولي وبوريس معهن، انهما مخطوبان وهذا يُرى على الفور. لقد قدم دروبتسكوي طلبه اذن ? وقال شينشين الذي دخل مقصورة آل روستوف :

بلى ، لقد بلغني ذلك منذ حين .

تبعت ناتاشا اتجاه نظرة ابيها فرأت جولي جالسة الى جانب امها مشرقة الوجه يثقل عنقها الضخم الاحمر الذي كان ناتاشا تعرف انه مغطى بطبقة من الذرور ، عقد ثقيل من اللآلئ . ومن ورائها برز رأس بوريس الجميل ذو الشعر المصفف بعناية وهو يبتسم وينحني لسماع ماتقوله جولي . اختلس نظرة الى آل روستوف وهمس في اذن مخطوبته ببضع كلمات .

«انهما يتحدثان عنا وعن العلاقات التي كانت لي معه . انه يطمئن غيرة مخطوبته حتما مني . انهما مخطئان ولا شك بقلقهما! ليتهما يعرفان الى اي حد لا يشغلان تفكيري!»

والى ورائها تربعت آنا ميخائيلوفنا بقلنسوتها الخضراء واساريرها المنتصرة ولكن الخاضعة لمشيئة الله على عادتها . كان ذلك الجو الخاص بالمخطوبين الذي تعرفه ناتاشا حق المعرفة وتجله كل الاجلال ، يخفق في مقصورتهم . اشاحت ناتاشا البصر وفجأة عادت الى ذاكرتها مذلة زيارة بعد الظهر كلها .

حدثت نفسها : « بأي حق لا يريدني في اسرته ؟ . . . آه ! من الافضل ان لا أفكر في الموضوع حتى عودته! » وراحت تتصفح الوجوه المعروفة والمجهولة التي تقع عيناها عليها في القاعة . كان دولوخوف جالساً في منتصف الصف الاول مسنداً ظهره الى الحاجز ، وهو في ثياب فارسية وشعره الاجعد مرفوع الى الاعلى . كان يعرف انه محط انظار القاعة كلها فيظهر من الارتياح كما لو كان في منزله . والتفت حوله شبيبة موسكو الذهبية فأصبحت تشكل حرس شرف له .

لكز ايليا اندريئيفيتش سونيا بمرفقه واشار الى المتيم السابق بهواها وهو يضحك وقال لها :

ـ هل عرفته ؟

ثم سأل شينشين :

ـ من اين انبعث الآن ؟ لقد افتُقد تماماً منذ زمن طويل .

فأجاب شينشين :

– صحيح لقد كان في القوقاز ومن هناك فر الى ايران . يقال انه اصبح هناك وزيراً لست أدري لأي امير مالك . بل ويزعمون ايضاً انه قتل أخ الشاه . وها ان نساء موسكو كلهن مجنونات به ! دولوخوف الفارسي ! انهن لا يتحدثن الا عنه ولا يقسمن الا به ويتنادين لرؤيته و كأنهن بصدد تذوق افخر انواع السمك ! ..

واضاف :

– نعم ، ان دولوخوف واناتول كوراجين قد فتنا كل سيداتنا .

وفي تلك اللحظة ، دخلت سيدة طويلة القامة جميلة ذات ضفيرة ضخمة و كتفين عاريين رائعين ، تحيط عنقها بصفين من اللآلىء الكبيرة ، وجلست في المقصورة المجاورة ببطء يدل على نبالتها وسط حفيف ثوبها الحريري .

القت ناتاشا بالرغم منها نظرة اعجاب الى ذلك الجيد وذينك الكتفين وتلك اللآلىء وتلك الزينة . وبينما هي تتأملها للمرة الثانية ، التفتت السيدة فتلاقت نظرتها بنظرة الكونت . وحينئذ أومأت له ايماءة خفيفة برأسها وهي تبتسم . تلك كانت الكونتيس بيزوخوف . مال الكونت نحوها ، وهو الذي يعرف كل الناس ، ودخل معها في الحديث .

– لقد مضى زمن طويل لم ارك خلاله يا كونتيس ؟ نعم ، نعم ، سأحضر لأقبل يدك . انني في موسكو لاعمال وقد اصطحبت معي بنياتي ، يقال ان السيمينوفا تمثل بشكل يدعو الى الاعجاب . لقد كان الكونت بيير كيريلوفيتش دائماً من خلصائنا . هل هو هنا ؟

قالت هيلين وهي تنظر الى ناتاشا بعناية ملحوظة :

- نعم وكان يزمع المجيء .

عاد الكونت الى مكانه وقال لابنته بصوت خافت :

ـ انها جميلة اليس كذلك ؟

ـ رائعة ! ... انني افهم عشق الناس لها !

وفي تلك الاثناء انتهى عزف الافتتاحية ،فقرع رئيس الجوقة قمطره بعصاته الدقيقة . هرع المتفرجون المتأخرون الى احتلال أماكنهم في القاعة ورفع الستار.

ران سكون عميق في القاعة كلها وادار المتفرجون الشيوخ والشبان على السواء في البستهم الرسمية او العادية والسيدات ، كاشفات النحور والصدور ، المتزينات بالحلي ، عيونهم بتطلع نحو المسرح . فحذت ناتاشا حذوهم .

* * *

الفَصلُ التّاسِعُ

كوراجين الفاتن

أقيمت في وسط المسرح « ارضية » وزينت جنباته بمشاهد اشجار اماالافق فكانت تشكاله قطعة قماش مدهونة اجتمعت في الوسط فتيات شابات بأحزمة حمراء « وتنورات » بيضاء . جلست احداهن منتحية جانباً على موطيء تعلوه قطعة من الورق المقوى الأخضر ملصقة من الوراء وهي في ثوب حريري ابيض . راحت الفتيات ينشدن معاً . فلما فرغن ، تقدمت ذات الثوب الابيض نحو الفتحة التي يختفي فيها الملقن . وعندئذ اقترب منها رجل كانت سراويله الحريرية الملتصقة بجسده تبرز ضخامة ساقيه وراح يغني وهو يحرك يديه وقد رشقت ريشة في قبعته وتمنطق بخنجر .

غنى ذو السراويل الملتصقة منفرداً بادىء الامر ثم حان دور زميلته . وبعدئذ صمتا كلاهما واستأنفت الجوقة العزف بينما راح الرجل يربت على يد زميلته ضابطاً الايقاع منتظراً اللحظة الفنية للشروع في غناء ثنائي . وبعد ان غنيا صفق كل من في القاعة لهما واستزادوهما ، بينما راح الممثلان اللذان كانا في في دور زوج من العشاق ينحنيان باسمين ذات اليمين وذات الشمال .

ولما كانت ناتاشا قادمة من الريف وفي حالة فكرية جدية ، فان ذلك المشهد

بدا لها بلا شك غريبا بل ومضحكاً . كان يستحيل عليها ان تتتبع سير الحوادث بل وان تصغي الى الموسيقى . ما كانت ترى غير قماش مصبوغ ورجال ونساء مرقشين بشكل سخري يتحركون ويتكلمون ويغنون تحت ضوء عنيف . وبالطبع لم تكن تجهل معنى التمثيلية، لكن المجموع كان يبدو لها شديد التصنع والارتجال حتى انها راحت تشعر بخجل للممثلين حيناً وبرغبة قوية في الضحك حيناً آخر. أجالت عينيها حولها محاولة ان تكتشف على اسارير المتفرجين آثار حالة نفسية مماثلة. لكن الوجوه المنتبهة كلها الى مايدور على المسرح كانت تعبّر عن حماس مشكوك في اخلاصه على مابدا لها . حدثت نفسها : «ينبغي أن يكون الامر كذلك بلاريب . » راحت تفحص دورياً الرؤوس المضمخة في القاعة والنساء الحاسرات في المقاصير وبصورة خاصة جارتها هيلين التي كانت شبه عارية تنظر الى المسرح بابتسامة هادئة دون ان تخفض عينيها متمتعة بالنور العنيف وجو القاعة الدافيء .
استلمت ناتاشا رويداً رويدا الى لون من الثمل لم تحسه منذ امد طويل. لم تعد تدرك ماتفعل وتعرف اين هي ولا مايدور تحت ابصارها . كانت تنظر دون ان ترى بينما كانت الافكار الاكثر رعونة تمر في رأسها . استبدت بها رغبة بتسلق الحاجز وغناء المقطوعة التي غنتها الممثلة تارة وبمضايقة كهل قصير جالس على مقربة منها بمروحتها او الانحناء نحو هيلين ودغدغتها حيناً آخر .
خلال فترة توقف بين قطعتين غنائيتين ، صر باب القاعة المجاور لمقصورة آل روستوف ، وارتفعت خطوات متفرج متأخر . همس شينشين : « آه ! هو ذا كوراجين ! » التفتت الكونتيس بيزوخوف وابتسمت للقادم الجديد. تبعت ناتاشا نظرتها فشاهدت مساعداً عسكرياً ذا جمال خارق يتجه نحو مقصورتهم وعلى وجه أمارات الترفع والبشاشة . ذاك كان اناتول كوراجين الذي لمحته من قبل في الحفلة الراقصة في بيتر سبورج . كان يرتدي الآن ثوب المساعد العسكري تتدلى الشارات على « كتافته » الوحيدة . أخذ يقترب بمهابة واتزان

كان يمكن ان يكونا مضحكين لو لم يكن على جانب كبير من الجمال ولم يعرب وجهه المتناسق عن قناعة وجودة كاملة . وعلى الرغم من ان الفصل كان في سياقه ، فانه اخذ يمشي فوق سجادة الممشى وهو يدق بمهازيه وحسامه دقاً خفيفاً ويسير متمهلا شامخاً برأسه الجميل المعطر . ولما وقع بصره على ناتاشا اقترب من اخته واسند يده المغيبة في قفاز الى حافة المقصورة ثم أومأ لها برأسه ومال على اذنها واخذ يهمس فيها وهو يشير الى جارتها ، قال :

– ولكن فتانة ! .

خمنت ناتاشا تلك الكلمات من حركة شفتيه اكثر مما سمعتها وعرفت بما لايقبل الشك انها قيلت عنها . مضى بعدئذ الى الصف الاول من المقاعد وجلس بجانب دولوخوف بعد أن وكز ذلك الشخص الذي يحاول كل الناس الحصول على رضاه وكزة تدل على الالفة ، خصه بغمزة مرحة من عينه ثم اسند ساقه الى الحاجز .

قال الكونت :

– كم يتشابه الاخ والاخت ! وكم هما جميلان !

قص عليه شينشين بصوت خافت فضيحة جديدة لكوراجين في موسكو ، فاصغت ناتاشا الى تلك القصة لمجرد انه قال عنها انها فاتنه .

انتهى الفصل الاول فنهض كل من القاعة واختلط الحابل بالنابل بين خارج وداخل .

جاء بوريس يحيي آل روستوف في مقصورتهم فتلقى منهم تهانيهم باقصي مافي الطاقة من بساطة ثم دعى ناتاشا وسونيا نيابة بدلاً عن مخطوبته لحضور زواجهما وهو رافع حاجبيه قليلاً تطوف على شفتيه ابتسامة ساهمة ثم أنسحب . أستقبلت ناتاشا بوريس ذاك الذي كانت مفتونة به في الماضي ، وهنأته

بزواجه بجذل باسمة وبشيء من التظرف . كان كل شيء في نظرها بسيط وطبيعي بفضل حالة الثمل التي كانت عليها .

كانت هيلين نصف العارية الجالسة بالقرب منها تبتسم لكل الناس بطريقة موحدة فمنحت ناتاشا بوريس ابتسامه من ذلك النوع .

لم تلبث مقصورة هيلين ان امتلأت وحوصرت بلفيف من الرجال المرموقين الذين بدا من تصرفهم أنهم يفاخرون باطلاع كل الناس على معرفتهم بها .

ظل كوراجين مع دولوخوف طيلة الوقت الذي أستغرقته الاستراحة وظهره الى الحاجز وعيناه شاخصتان الى مقصورة آل روستوف ، فهمت ناتاشا بسرور انه يتحدث عنها ، فجلست بشكل يسمح له برؤيتها من الجانب ، وهي وضعية كانت ـ على ماتعتقد ـ تزيد في ابراز مفاتنها ، وقبل بدء الفصل الثاني بقليل ، ظهر في القاعة بيير بيزوخوف الذي لم يره آل روستوف منذ أن وصلوا موسكو . بدا حزيناً أكثر سمنة مما رأته عليه ناتاشا في المرة الأخيرة مضى الى الصفوف الاولى دون أن يلاحظ احداً ، أستوقفه أناتول وقال له شيئاً وهو يسير الى مقصورة آل روستوف . ولما وقع بصره على ناتاشا ، انبسطت اساريره وسارع الخطو خلال صفوف المقاعد متجهاً نحوها . اتكأ بمرفقيه الى المقصورة ودخل في حديث طويل مع ناتاشا . وفي تلك الاثناء ، بلغ مسامع الفتاة صوت رجل في مقصورة الكونتيس وعرفت بغريزتها انه صوت كراجين . ادارت رأسها وقابلت نظرته . تصفحها وهو يبتسم بعينين غاية في الاعجاب والملق حتى انها شعرت بمزيد من الخجل لوجودها على هذا القرب منه ولاحتمالها نظرته وثقتها من انها اعجبته دون ان تكون قد تعرفت به حتى تلك اللحظة .

مثلت مناظر الفصل الثاني أبنية مقبضة مأتمية وصوّر القمر بواسطة ثغرة في

في الشاشة ورفعت عاكسات الضوء عن الحاجز وشرعت الطبول والكمانات الضخمة (كونترباس) تردد اصواتاً خافتة مكتومة ، بينما تقدمت من يمين المسرح ويساره فئة من الاشخاص في ملابس سوداء. راح هؤلاء يكثرون من الحركات ويهزون في ايديهم اشياء تشبه الخناجر ، ثم هرعت فرقة اخرى تنوي اخذ الفتاة التي شوهدت في الفصل الاول في ثياب بيضاء والتي كانت الآن ترتدي ثوباً ازرق لكنهم لم يأخذوها لفورهم على اية حال بل غنوا طويلا معها . وعندما اصطحبوها اخيراً ، ارتفع صوت معدني ثلاث مرات في الكواليس ، وحينئذ سقط الممثلون جميعاً على ركبهم ودوت اصواتهم بصلاة . ولقد قوطعت هذه المشاهد المختلفة مراراً بصيحات الاعجاب من جانب المتفرجين .

اثناء العرض ، كلما سرحت ناتاشا بصرها في القاعة ، كانت تجد آناتول كوراجين مستنداً بذراعه الى مسند مقعده ، يلتهمها بنظره. كانت تشعر بلذة في رؤيته صريع فتنتها دون ان ترتاب في ان ينطوي ذلك على اي سوء .

عندما انتهى الفصل الثاني ، نهضت الكونتيس بيزوخوف واستدارت نحو آل روستوف - وجيدها عار تماما - فاستدعت الكونت العجوز باشارة من اصبعها الصغير المستتر في القفاز . ودون ان تعير الاشخاص الذين كانوا يدخلون مقصورتها التفاتا ، دخلت معه في حديث جملته باعذب ابتساماتها قالت له :

-قدم اليّ فتاتيك الفاتنتين . كل المدنية تتحدث عنهما وانا وحدي لا اعرفهما

نهضت ناتاشا وانحنت احتراماً للكونتيس الجليلة . كانت اطراءات ذلك الجمال الشهير يلذ له لدرجة ان الدماء تصعدت الى وجهها من الاغتباط . استأنفت هيلين :

- انني اعتزم كذلك ان اصبح موسكوفية حقيقية . الا تخجل من دفن مثل هذه الآلي في الريف ؟

كانت في الحقيقة تستحق لقب ساحرة . لقد كانت تنعم بمزية قول ما لا تفكر فيه واطراء الناس دون ان تتظاهر بذلك .

- يجب ان تسمع لي ياعزيزي الكونت بالاهتمام بابنتيك . رغم انني لست هنا لمدة طويلة ، كما هو شأنك كذلك ، فانني سأعمل جاهدة على تسليتهما .

واضافت تخاطب ناتاشا وابتسامتها ثابتة على شفتيها :

- لقد سمعتهم يتحدثون عنك كثيراً في بيترسبورج وكنت في شوق كبير الى التعرف عليك . نعم ، لقد سمعت بك اولا عن طريق وصيفي ، دروبتسكوي - هل تعرفين انه سيتزوج ؟ - ثم عن طريق صديق لزوجي ، بولكونسكي ، الامير آندريه بولكونسكي .

ابرزت هذا الاسم بشكل يفهم معه أنها لاتجهل الرباط الذي يجمع بينهما . ثم طلبت الى الكونت ان يسمح لواحدة من الفتاتين بقضاء الوقت حتى نهاية العرض في مقصورتها لتزداد تعمقاً في معرفتها ، فانتقلت ناتاشا الى مقصورتها .

صور المشهد الثالث قصراً ساجاً في النور تزينه لوحات تمثل فرساناً ملتحين وفي الوسط ، وقف شخصان ، ملك وملكه بلاشك ، قام الملك بحركة بيده اليمنى غنى لحناً أميل الى الرداءة والرعب ظاهر عليه ، ثم اعتلى عرشاً من القطيفة ، اما الفتاة التي شوهدت اول مرة في ثوب ابيض ثم في ثوب ازرق ، لم تكن الآن مرتديه الا قميصاً ، وهي واقفة قرب العرش مشعثة الشعر . شرعت تغني قصيدة كئيبة وهي مستديرة نحو الملكة . لكن الملك استوقفها باشـــارة صارمة . واندفعت زمرة من الرجال والنساء عاريي السيقان من الكواليس وشرعوا يرقصون معاً . ثم عزفت «الكمانات» لحناً هادئاً خفيفاً فانفصلت احدى النساء التي كان ذراعاها النحيلان يتنافيان مع ساقيها الضخمين عن الآخرين ، وبعد ان اختفت فـــترة وراء الكوليس لتسوي حزامها اقتربت الى منتصف المسرح

وراحت تقفز في الهواء وهي تضرب قدميها ببعضهما . وعندئذ انفجر كل من في القاعة مصفقين هاتفين مرحى ! ثم استقر رجل في ثوب سباحة في احد اركان المسرح وراح يقوم بقفزات ودورات كثيرة على دوي الطبول والصنوج . كان ذلك الرجل هو دوبور ، الذي كانت تلك الحركات تعود عليه بستين الف روبل في العام ، صفق المتفرجون جميعاً ، اولئك الذين في القاعة وفي المقاصير وفي الاورقة العليا وهتفوا له وحيوه بكل قواهم . توقف الرجل لتحيتهم وتوزيع الابتسامات كل صوب . اعقبه راقصون وراقصات اخرون ثم صاح احد العاهلين بكلمات على ايقاع الموسيقي ،فدوت اصوات الممثلين جميعا في غناء جماعي . وفجأة هبت عاصفة وراح الموسيقيون يقرعون أعلى الطبقات على مختلف الاتهم ، واندفع الممثلون يجرون ومن جديد سحب احد الممثلين الى الكواليس ، ثم اسدل الستار . عاد الصخب الى اشده في القاعة وفاض الحماس وراح كل متفرج يهتف : « دوبور ! دوبور ! دوبور ! » ولم تعد ناتاشا ترى شيئا غريباً في كل هذا ، بل انها احست بلذة في التفرج وهي باسمة على ماحولها . سألتها هيلين :

– انه مدهش دوبور هذا اليس كذلك ؟

فأجابت :

– اوه ! نعم .

★ ★ ★

الفصل العاشر

في طريق الانهيار

سرى الى المقصورة تيار هواء بارد خلال الاستراحه .كان آناتول وهو منحن محاذراً ان يصطدم بأحد .

قالت هيلين وهي تنقل طرفا قلقا من واحد الى الآخر :

- اسمحي لي ان اقدم لك اخي .

ادارت ناتاشا رأسها البديع نحو ذلك الشاب الجميل وابتسمت له من فوق منكبها العاري . جلس آناتول ، الذي كان عن قرب على مثل جماله عن بعد ، بجانب الفتاة وقال انه ظل يرغب في ان يقدم اليها منذ ذلك اليوم الذي لن ينساه يوم ان اسعده الحظ برؤيتها في حفلة ناريشكين الراقصة . كان آناتول يتظاهر امام النساء اكثر بساطة واحد ذكاء مما يظهر به امام الرجال . تحدث اذن باندفاع واسترسال فاحست ناتاشا بدهشة لطيفة حين لم تجد في هذا الرجل شيئا مرعبا رغم مايرى عنه من اشياء ، وان ترى له على العكس . ابتسامة ساذجة هادئة وقلبية .

سألها عما تظن بصدد الرواية «قص عليها ان «السيمينوفا » سقطت خلال

العرض الفائت على الارض اثناء قيامها بحركاتها وفجأة قال بصوت منطلق وكأنه يعرفها منذ امد طويل :

– اتعرفين ماذا ياكونتيس ؟ اننا ننظم حفلاً تنكريا ، يجب ان تشتركي فيه ، سيكون مسلياً جداً . الاجتماع العام لدى آل كارجين . ستحضرين أليس كذلك ؟

لم يشح بعينيه عن وجهها طيلة الحديث ولم يفتأ يتأمل جيد ناتاشا وذراعيها العاريين . كانت واثقة من انه يتأملها باعجاب ، لكن ارتباكاً متزايداً اخذ يمتزج بالبهجة التي كانت تحس بها . وعندما تحول ابصارها ، كانت تشعر بثقل نظرة اناتول على كتفيها وحينئذ تعود دون شعور الى البحث عن نظرته لتحول تأمله الى وجهها . لكنها وهي تنظر اليه على ذلك النحو ، كانت تشعر بهول ان الحواجز التي اقامتها العفة بينها وبين الرجال الآخرين ، تنهار . ما كانت تستطيع ان تفسر لنفسها كيف غدت في غضون خمس دقائق على مثل هذا التقرب من هذا الرجل فاذا ادارت رأسها ، ارتعدت خوفاً من ان يمسك بيدها او يطبع قبلة على قذالها . ومهما بلغ حديثهما من الابتذال ، فانها كانت تفهم انهما اضحيا اليفين الفة لم تسمح لنفسها بمثلها مع اي رجل آخر . اخذت تستفسر هيلين والكونت بعينيها ، تسألهما عن معنى كل هذا . لكن هيلين التي كانت تتحدث مع جنرال ، لم تلحظ ذلك النداء اما نظرة ابيها فكانت تقول لها : « انك تتسلين ، وانا راض ومغتبط جداً . »

في احدى تلك اللحظات من الصمت المرتبك التي ما كان آناتول خلالها يكف عن التحديق في ناتاشا بعناد بعينيه البارزتين ، سألته هذه – لتحطم الصمت – عما اذا كانت موسكو تروق له . لكن هذا السؤال ما كاد يفلت من بين شفتيها حتى تضرج وجهها لطرحه . كان يخيل اليها انها بالتحدث الى هذا الرجل انما ترتكب مخالفة وعيباً . ابتسم آناتول وكأنها يشجعها :

ـ لم تكن موسكو تعجبني حتى اليوم ، لأن النساء الجميلات هن اللواتي يجعلن المدينة جميلة أليس كذلك ؟ اما الآن ، فعلى العكس . انني مغتبط جداً
ونظر اليها نظرة معبرة .
ـ ستأتين لحضور الحفل اليس كذلك يا كونتيس ؟ تعالي .
ومد يده نحو باقة ناتاشا وأردف وهو يخفت صوته :
ـ ستكونين اجمل الموجودات . تعالي ياعزيزتي الكونتيس ، واعطني هذه الزهرة عربونا على مجيئك .
شعرت ناتاشا بخجل معيب دون ان تفهم تماماً الغاية المستترة وراء كلماته . لما لم تدر بمَ تجيب ، اشاحت عنه متصنعة عدم سماع قوله . ولكن لم تلبث فكرة وجوده هنا ، شديد القرب منها ، ان اضجرتها من جديد .
تساءلت : « ماذا يعمل ؟ هل هو غاضب ساخط علي ؟ يجب تسوية هذا الامر . » لم تستطع الامساك عن ادارة رأسها ونظرت مباشرة في عينيه . تسلط عليها وجود آناتول القريب واطمئنانه وجودة نفسه الحكيمة . ابتسمت ابتسامة شبيهة بابتسامته وفكرت انه لم يعد من حاجز يقوم بينهما .
ارتفع الستار من جديد ، فخرج اناتول من المقصورة هادئاً مبتهجاً . عادت ناتاشا الى مقصورة ابيها وهي خاضعة تماماً لهذا العالم الجديد الدي ولجته . اصبح كل مايدور حولها منذ ذلك الحين طبيعياً . لم تعد مقابل ذلك تفكر قط في قلقها وبلبالها من اجل خطيبها والاميرة ماري والحياة الريفية التي امضتها . بدا ان كل هذا ملك للماضي ، لماض عريق في القدم .
في الفصل الرابع ، انبعث شخص يشبه الشيطان وراح يفرط في الحركات ويغني حتى فتحت فتحة اختفى فيها . بل لعل هذا كان ما استطاعت ناتاشا ان تراه لشد ما كانت مضطربة . اما سبب هذا الانفعال فكان اناتول كوراجين

الذي ما انفكت رغماً عنها تلاحقه بعينيها . وعندما خرجوا من المسرح ،جاء واستقدم عربتهم وساعدهم على الركوب . وبينما هو يساعد ناتاشا على الصعود ، ضغط على ذراعها فوق المرفق . خجلت وتضرج وجهها ، وغامرت بالنظر اليه : كان آناتول يتأملها بعينيه البراقتين وهو يبتسم ابتسامة حانية .

عندما وصلت ناتاشا الى البيت فقط ، شعرت بما حدث في اعماقها . وفجأة روعت عندما تذكرت الأمير آندريه . وبينما هم يتناولون الشاي بعد العرض ، اطلقت صرخه ونفرت الى غرفتها ووجها قان .

حدثت نفسها: «رباه ، لقد ضعت ! كيف امكنني ان اسمح له بذلك ؟ »

ظلت فترة طويلة جالسة في مكانها ، تخفي وجهها القرمزي بين يديها ،محاولة عبثاً تنظيم مشاعرها الثائرة . بدا لها كل شيء معتماً مريعاً. هناك ، في تلك القاعة الكبيرة المضاءة ، حيث كان دوبور يقفز فوق الواح ندية من الخشب على الحان الجوقة ، وهو في ثياب السباحة وفوقها سترة خفيفة ، تلاحقه «المرحات» المتحمسة من افواه الفتيات والشيوخ ومن هيلين الجليلة ذات الابتسامة الهادئة ؛ هناك في ظل هيلين تلك ، كان كل شيء واضحاً وبسيطاً . اما الآن ،فعلى العكس ، عندما اصبحت وحيدة منفردة مع نفسها ، لم تعد تفقه شيئاً. تساءلت : « مامعنى كل هذا ؟ مامعنى ذلك الرعب الذي الهمنيه ؟ مامعنى هذا التقريع والتبكيت الذى انا فريسة له ؟ »

ماكانت تستطيع الافضاء بمكنونات قلبها الاالكونتيس العجوز خلال احدى زياراتها الليلية الى غرفتها وفي سريرها . ماكانت تستطيع الافصاح عن شعورها الى سونيا التي لايمكنها ان تفهم شيئاً من هذا الاعتراف ، وهي التي لها اسلوبها الزاهد الشامل في النظر الى الامور . بل ان مثل هذا الاعتراف كفيل بترويعها . وعلى هذا ، ماكان على ناتاشا الا ان تعتمد على نفسها لتتعرف على حقائق الامور في اعماقها .

تساءلت قلقة : « هل فقدت الاحساس بغرام آندريه ام لا ؟ » لكنها سرعان ماتطمئن نفسها بابتسامة وتفكر : «كم انا حمقاء بطرح مثل هذا السؤال على نفسى ! ماذا حدث بالفعل ؟ لاشىء البتة . انني لم ارتكب اثماً ولست مسؤولة قط عماوقع . لن يعرف احد بشىء ، لن آراه بعداليوم ابداً .. نعم، انـــه واضح ، لم يحدث شىء . انني لا احس بوجوب الندم على خطأ ارتكبه يمكن للامير آندريه ان يحبني كما انا ، ولكن مـاذا اصبحت انا ؟ آه يارب ! لمَ لايكون هنا ؟ » استعادت ناتاشا السكينة برهة ، ولكن لم يلبث شعور غامض ان قال لها أن طهر غرامها السابق لآندريه ونقاءه قـد تكدر طالما ان الامر وقع على هذا النحو . وعندئذ عادت الى ذاكرتهـا قسراً كل تفاصيل مداولاتها مع كوراجين . عادت ترىوجهه ذلك الفتى الجميل وحركاته وابتسامته الحانية عندما ضغط على ذراعها .

★ ★ ★

الفَصلُ الحَادي عَشَرْ

نوايا كوراجين

استقام آناتول كوراجين في موسكو نزولاً عند امر والده الذي ارهقه ان يراه ينفق في بيترسبورج اكثر من عشرين الف روبل في العام ويستدين مثلها من دائنين كانوا يطالبون الامير العجوز بسداد دين ابنه .

وافق هذا للمرة الاخيرة على تسديد نصف ديون ولده بشرط واحد : ان يذهب اناتول من فوره الى موسكو ، حيث جعل الجنرال الاعلى يقبله برتبة مساعد ، وان يسعى جهده للزواج من وارثة غنية ، الاميرة ماري مثلا او على الاقل جولي كاراجين .

قبل آناتول وسافر الى موسكو . اقام عند بيير الذي استقبله بادىء الامر في غير ترحاب ثم لم يلبث ان الفه وساهم معه في بعض مباذله بل واعطاه بعض المال بصفة قرض .

لقد نطق شينشين بالحقيقه : منذ ان وصل اناتول الى موسكو ، شده النساء فيها وبصورة خاصة ، لانه كان يهملهن ويلتفت الى البوهيميات والممثلات الفرنسيات التي كانت مقدمتهم ، الآنسة جورج ، عشيقة له . ما كان يتغيب عن حفلة من حفلات دانيلو وغيره من المرحين الصاخبين في موسكو ، ويبارز

خلال ليال طويلة اصلب السكيرين عوداً ، يحضر الحفلات الراقصة وكل السهرات التي تحييها الطبقة الراقية . وكان يغازل النساء اثناءها ـ وهم يسردون عدداً من مغامراته الناجحة ـ ، لكنه ما كان يقرب الفتيات وخصوصاً الوارثات الغنيات اللاتي يمتاز معظمهن بالبشاعة . وكان الدافع الى هـــذا التحفظ ، سبب حازم لايعرفه الا خلصاؤه : لقد كان متزوجاً منذ عامين .

وفي الواقع انه حينذاك ، عندما كان في الفيلق المعسكر في بولونيا ، اقنعه احد اثرياء الريف ان يتزوج ابنتـه . ولم تمض فترة وجيزة ، حتي هجر اناتول زوجته لقاء دخل تعهد بتقديمه لحميه ، فحصل بذلك على امتياز بالتظاهر بمظهر العزب .

كان آناتول دائم الرضى عن مصيره وعن نفسه وعن الآخرين ، مقتنعاً بغريزته بانه انما يعيش الحياة الوحيدة التي تـلائم طبيعته وانه لم يسيء قط الى أحد . كان عاجزاً تماماً عن ادراك ماينجم من اسواء عن كـذا او كـذا من تصرفاته ، وما قد يسبب بعضها من انطباعات في نفوس الآخرين ، كان يؤمن بقوة بانه خلق في هذه الدنيا لينفق ثلاثين الف روبل في العام ويشغل مركزاً مرموقاً في المجتمع كما خُلق البط ليعيش عائماً على المـــاء . ولقد كان شديد القناعة بذلك ، حتى ان الاخرين اذا مارأوه ، اقنعوا أنفسهم بصحة رأيه ، فلا يرفضون منحه الرتبه او المنزلة التي يطلب ولا يبخلون علية بالقروض التي كان يجريها مع كل من تسنح له الفرصه بالاقتراض منه دون ان يفكر طبعاً باعادة مايقترض .

لم يكن مقامراً ، او على الاقـل ، ما كان يبحث عن الربح . ولم يكن مزهواً ولا يأبه ابداً لما يقال عنه . كذلك كان نصيب اتهامه بالطمع أقل نجاحاً لقد أسخط أباه أكثر من مرة معرضاً مركزه للخطر ، مستهتراً بكل القيم . ولم يكن بخيلا ، بل كان يفتح كيس نقوده لكل مقترض . كان همه منصرفاً

الى النساء والمسرات . ولما كان لايجد شيئا دنيئاً في اذواقه تلك ، ولا يتصور قط ان يسبب تصرفه ارضاء لرغباته تلك اضراراً لسواه ، فانه كان يقدر نفسه بكل اخلاص وايمان ويحتقر الصعاليك والانزال . والخلاصة انه كان يشمخ برأسه وهو قانع الوجدان .

يعتقد انصار المسرات في الحياة دائماً بانهم غير مذنبين . وهـــذه القناعة الساذجة عند مثل هؤلاء ، تركز على الصفح شأنها عند النساء العابثات . « لسوف يصفح عنه كثيراً لانه كان احب كثيراً ، سوف يصفح عنه كثيراً لانه كان تسلى كثيراً . »

عاد دولوخوف ، الذي ظهر في موسكو بعد نفيه ومغـامراته في العجم وراح يعيش عن سعة ، يجدد علاقاته مع كوراجين صديقه القديم في بيترسبورج ويستخدمه في اغراضه . وكان اناتول يعجب بعقلية صديقه واستهتاره . وكان دولوخوف ، وهو في مسيس الحاجه الى اسم كوراجين وعـــلاقاته ليجتذب الشبان الى شباكه كمقامر ، يفيد من اناتول فائدة كبيرة ويسخر منه في اعماق نفسه . ثم انه ما كان يخضع لغايه واحدة . لقد كان مجرد تسخير مشيئة آخر وارادته وفق هواه ، متعة قائمة بذاتها وعادة بل وحاجة .

احدثت ناتاشا على اناتول تأثيراً قوياً . وبينما هو يتناول العشاء بعد العرض راح يصف لدولوخوف وصف الخبير ، محاسن ناتاشا ويطري ذراعيها وكتفيها وقدميها وشعرها واعلن له عن عزمه على ملاحقتها ملاحقة عنيده . أما الى أي غاية تقوده تلك الملاحقة ؟ هذا مالم يكن آناتول يفكر فيه . لم تكن نتـائج تصرفاته المرتقبة تقلق باله قط .

قال له دولوخوف :

– انها جميلة ياعزيزي ، لكنه جمال ليس لنا .

– سأقول لاختي ان تدعوها لتناول الغداء . ماذا تقول ؟

ـ بل أنتظر ريثما تصبح متزوجة .

ـ انك تعلم انني اعبد الفتيات الصغيرات . انهن يفقدن احساسهن فوراً .

اجاب دولوخوف الذي كان يعرف زواج اناتول القسري :

ـ لقد سقطت من قبل في حفرة حفرتها فتاة صغيرة ، فحذار .

أستأنف كوراجين بضحكة مرحة :

ـ لايدع المرء نفسه يهزم مرتين .



الفصل الثاني عشر

الخطوة الاولى

في اليوم التالي للعرض ، لم يخرج آل روستوف ولم يأت أحـد لزيارتهم . تداولت ماري دميتريفنا سراً مع ايليـــا اندريئيفيتش ، فخمنت ناتاشا انهما تحدثا عن الأمير العجوز ودبرا معاً مشروعاً معينا ، الامر الذي اقلقها واسخطها معاً . كانت تنتظر الامير اندريه في كل لحظة ، وقدارسلت البواب استجابة لنفاذ صبرها ، الى شارع ايكزالتاسيون مرتين للاستطلاع . وفي كل مرة ، كان ذلك الرجل يعود ليقول لها ان الامير اندريه لم يصل بعـد . ابهظت ناتاشا شدة متزايدة . جاءت ذكرى مقابلتها مع ماري والامير العجوز تنضم الى نفاذ صبرها واكتئابها بسبب غيابه « هو » الى جـانب قلق آخر ما كانت توفق في تبيان سببه . كانت تتصور دون انقطاع انه امـا ان لايعود وأما أن يحدث شيء ما قبل عودته . لم تعد تستطيع كسابق عهدهـا أن تفكر فيه بهدوء خلال فترات تأملاتها الطويلة في وحدتها . فـــلا تـكاد صورة اندريه تنبعث في خيالها الا وترافقها صورة الامير العجوز وماري ، وكوراجين والعرض . ومن جديد تتساءل عما اذا لم تكن مذنبة ، وهـل لم تخن الموثوقة التي قطعتها للامير اندريه ، ومن جـديد تعود الى تصور ادق التفاصيل واتفة

الـكلمات والحركات وتبدل قسمات ذلك الرجل الذي عرف كيف يوقظ في نفسها شعوراً غامضاً مخيفاً . كانت تبدو لعيون المقربين اليها اكثر حيوية من عادتها ، لكنها كانت أبعد ماتكون عن الهدوء والسعادة السابقين .

عرضت ماري دميتريفنا على ضيوفها صباح الاحد ، سماع القداس في كنيسة « دورميسيون او تومبو » قالت لهم وهي بادية الزهو لاستقلالها :

ـ انني لا احب الكنائس العصرية . ان الله هو هو في كل مكان . لدينا قس ممتاز يقوم بالطقوس بشكل لائق . وكـذلك الشماس ، انه قدوة . اما تلك الحفلات الموسيقية التي تقام في الاماكن المقدسة ، فأنني امقتها انها تدنيس ...

كانت ماري دميتريفنا تحب يوم الرب حباً كبيراً وتتهيأ للاحتفاء به ، كان خدمها يغسلون الدار وينظفونها منذ يوم السبت تنظيفاً تاماً . فاذا جاء الاحد ، مضت هي وخدمها الى الصلاة راضين فلا يعملون عملا ذلك النهار . وكانت تضيف الواناً جـديدة من الاطعمة للسادة وتسمح للخدم بشرب العرق الى جانب الطعام المؤلف من اوزة مشوية وخنزير صغير . لكن مامن شيء في البيت ينبيء بالعيد اكثر من وجه ماري دميتريفنا العريض الصارم الذي تعلوه في مثل ذلك اليوم امارات الجلال الراسخ .

بعد ان شربوا القهوة بعد القداس في البهو الـذي نزعت منه اللبد ، جاء خادم يعلن لماري دميتريفنا ان عربتها قد قُربت . فنهضت السيدة الطيبة التي كانت مرتدية شالها الفاخر واعلنت بلهجة صارمة انهـا ذاهبة عند الامير نيكولا آندريئيفتش بولكونسكي لتتفاهم معه حول موضوع ناتاشا .

وجاءت حائكة ثياب من قبل مدام شالميه بعد ذهابها فمضت ناتاشا معهـا الى الحجرة المجاورة وهي سعيدة بهذه التسلية . اغلقت الباب وراحت تستعد لتجربة اثوابها الجديدة . بدأت بحزام داخلي مشرّج دون اكمام . وبينما كانت

ناتاشا مائلة الرأس الى الوراء تنظر في المرآة الكبيرة معاينة ظهر الحزام ، تناهي الى سمعها صوت محاورة محتدمة في البهو بين ابيها وشخص آخر مالبث صوته ان صعَّد الدماء الى خديها . كان ذلك الصوت هو صوت هيلين ، لم تكن ناتاشا قد خلعت حزامها بعد ، عندما فتح الباب وظهرت الكونتيس بيزوخوف مشرقة الوجه بابتسامتها البريئة الانيسة ، في ثوب من المخمل البنفسجي مرتفع الياقة .

قالت لناتاشا التي غدت ارجوانية اللون :

– آه ! يالذيذتي ! فتانة !

ثم اضافت وهي تلتفت الى الكونت ايليا آندريئيفيتش الذي كان داخلاً في اعقابها :

– حقاً ياعزيزي الكونت ، ان هذا لااسم له . ان تكونوا في موسكو ثم لاتذهبوا الى اي مكان ! كلا ، لااريد اعذاراً . انني استقبل هذا المساء بعض الاصدقاء . وستروي الآنسة جورج بعض الاشعار . ـ فاذا لم تأتني بفتيك اللتين هما ولا شك أجمل من الآنسة جورج ، فانني لاارغب بعد اليوم في معرفتك . ان زوجي غائب . لقد ذهب الى تفير [1] ولولا ذلك لارسلته ليصحبكم . تعالوا حتماً ، هل تسمعون : حتماً ، اعتباراً من الساعة الثامنة .

حيت الحائكة التي كانت تعرفها باشارة من رأسها ، والتي انحنت امامها باحترام كبير ثم جلست في مقعد قرب المراة الكبيرة وهي تنشر ثنيات ثوبها المخملي بحركة كيسة ، استمرت تثرثر بطيبة نفس عميقة وتكثر من تمجيد جمال ناتاشا وفتنتها . فحصت اثواب الفتاة فوجدتها مناسبة ذوقها وراحت تطري بهذه المناسبة ثوبها الذي تلقته من باريز انه على احدث طراز ومن افخر الاقمشة ، ونصحت ناتاشا بان تستقدم لنفسها واحداً مثله . واختتمت قولها :

تفير ، مدينة روسية على نهر الفولغا في الشمال الغربي من موسكو . سكانها «١١٠٠٠٠» نسمة تدعى اليوم كالينين .

ـ على اية حال ، ان كل شيء ينسجم معك يا فاتنتي .

استخف الفرح ناتاشا فاشرق وجهها وانبسطت اساريرها بتأثير اطراء تلك الكونتيس بيزوخوف الفاتنة التي بدت لها لأول وهلة عظيمة الجلال منيعة الجانب، والتي راحت الآن تعرب لها عن كل هذه الطيبة . كانت على استعداد للافتتان بهذه المرأة المستحبة بقدر ماهي جميلة . اما هيلين ، فقد كانت من جانبها كلفة بناتاشا ، ومن اجل ذلك ، جاءت ذلك اليوم الى حيث ينزل آل روستوف . بدت لها فكرة التقريب بين هذين الشابين مستحبة مستملحة .

وعلى الرغم من السخط الذي أحست به مرة من قبل حينما انتزعت ناتاشا في بيتر سبورج بوريس منها ، فانها لم تعد تفكر في ذلك قط ، بل راحت من صميم قلبها تتمنى لها الخير على طريقتها . وقبل ان تنصرف ، نأت « بحميمتها » جانباً :

ـ لقد تغدى اخي بالامس في البيت فأماتنا من الضحك . انه لايأكل شيئاً في الآونة الاخيرة ويتنهد دون انقطاع حسرة عليك ، يافاتنتي . انه مجنون بك ياعزيزتي .

اصطبغ وجه ناتاشا بلون قرمزي .

ـ آه ! كيف يتضرج وجهها ، كيف يتضرج وجهها ، يالذيذتي ! اذن ، لقد اتفقنا ، ستأتين اليس كذلك ؟ اذا كنت تحبين احداً يالذيذتي فليس ذلك مبرراً لتحبسي نفسك . حتى ولو كنت مخطوبة ، فانني واثقة من ان خطيبك سيسره ان تندفعي في المجتمع في غيابه بدلاً من ان تذوي هكذا من الضجر .

حدثت ناتاشا نفسها : « وهكذا ، انها تعرف انني مخطوبة . لاشك انهم تحدثوا في الامر ، هي وزوجها بيير هذا الذي هو الاستقامة نفسها ، وضحكوا للمغامرة . واذن ، لايوجد في الامر أي سوء . » ومن جديد ، اصبح كل ما كان

يبدو لها رهيباً ، شديد البساطة طبيعياً تماماً بتأثير هيلين . فكرت وهي تحدق في هيلين بعينيها البريئتين المتسعتين : « كم هي مستحبة هذه السيدةالرفيعة ! انها تحبني من كل قلبها ، بالتأكيد ! ... ثم ، لماذا لاارفه عن نفسي ؟ »

عادت ماري دميتريفنا في وقت الغداء . كانت اماراتها الكئيبة العابسة تدل على انها منيت بهزيمة على يدي الامير العجوز . لم يسمح لها انفعالها بأن تروي بهدوء تفاصيل الواقعة . اجابت على سؤال من اسئلة الكونت ان كل شيء على مايرام وانها ستروي له كل شيء غداً . ولما اطلعت على دعوة هيلين اعلنت :

– انني لااحب هذه الـ : بيزوخوف ولا انصحكم بمخالطتها .

واضافت تخاطب ناتاشا :

– الآن وقد وعدت ، اذهبي ؟ سوف يرفه عنك ذلك .

* * *

الفصل الثالث عشر

حفلة هيلين

رافق الكونت ايليا آندريئيفيتش الفتاتين الى منزل الكونتيس بيزوخوف.
كان المدعوون، وهم كثرة، مجهولين كلهم تقريباً من ناتاشا. لاحظ ابوها باستياء ان الجانب الاكبر منهم، كانوا ممن اشتهروا باستهتارهم. كان الشبان يشكلون حلقة في احد الاركان حول الآنسة جورج، كان هناك بعض الفرنسيين، ومن بينهم ميتيفيه، الذي منذ مجيء هيلين الى موسكو اصبح من المترددين على بيتها. قرر الكونت البقاء مع فتاتيه مستغنياً عن اللعب وأن ينصرف منذ أن ينتهي التمثيل.

كان اناتول واقفاً قرب الباب مترقباً ولاشك وصولهم. وبعد ان حيا الكونت، اقترب من ناتاشا وتبعها. فما كادت تراه حتى احست بذلك الاحساس الغريب، كما وقع لها في المسرح، الذي يناضل فية الزهو القانع ضد الرعب الذي يحدثه في نفسها انهيار كل الحواجز الاخلاقية بين هذا الرجل وبينها.

استقبلت هيلين ناتاشا بمبادرة جذلة واكبرت جمالها وزينتها بصوت مرتفع وبعد حين، خرجت الآنسة جورج لارتداء ثيابها، فرصفت المقاعد لجلوس المدعوين وشغل كل مكانه. قدم آناتول كرسياً الى ناتاشا واراد ان يجلس بقربها لكن الكونت الذي لم يكن يبتعد عن ابنته. احتل المقعد المجاور. فجلس اناتول وراءها.

وقفت الآنسة جورج بذراعيها الضخمين العاريين ذوي « الغمازات » وعلى احد كتفيها شال احمر ، في الفراغ المخصص لها وسط المقـــاعد وقفة متأهبة . فاستقبلتها همهمة اعجاب . وبعد ان تصفحت الوجوه بنظرة قاتمة محزنة ، راحت تستظهر اشعاراً،موضوعها حبها المجرم لابنها . كانت ترفع صوتهافي بعض المقاطع وتخفضه في مقاطع اخرى وهي تشمخ برأسها باعتداد . واحيانا كانت تتوقف وترسل حشرجات وهي تدير في الموجودين عينين كبيرتين . هتف المدعون من كل جانب :

– معبودة ، سماوية ، لذيذة !

لم تكن ناتاشا تسمع شيئاً او ترى شيئاً وهي شاخصة بابصارها الى جورج الضخمة . شعرت من جديد انها محولة نهائياً في ذلك العالم السحري ، المختلف كلياً عن الذي عاشت فيه من قبل ، عالم لايمكن تمييز الخير من الشرفيةولاالعقل من الجنون . كان آناتول جالساً وراءها ولما كانت تشعر به قريباً منها ، فقد ظلت متشنجة في ترقب مغموم .

وبعد رواية الشعر ، احاط كل المتفرجين بالآنسة جورج مطلقين الاعنة لحماسهم . قالت ناتاشا لأبيها الذي نهض كالآخرين ومضى نحو الممثلة مع الجماعة :

– كم هي جميلة !

وقال اناتول الذي تبع ناتاشا :

– عندما اراك ، اكون على رأي آخر .

ثم انتهز فرصة وجد أنها ستسمعه وحدها وقال :

– انك لذيذة ... منذ اللحظة التي ظهرت فيها لي ، لم اكف ...

قال الكونت وهو يعود نحو ابنته :

– تعالي ياناتاشا ،كم هي جميلة !

لحقت ناتاشا بابيها صامتة وهي تتفحصه بنظرة ذاهلة .

وبعد ان مثلت مشاهد اخرى ، انسحبت الآنسة جورج فدعت الكونتيس بيزوخوف ضيوفها الى قاعة الرقص .

اراد الكونت ان ينصرف . لكن هيلين توسلت اليه ان لا يفسد روعة الحفلة غير المنتظرة . وبقي آل روستوف . راقص آناتول ناتاشا على انغام الفالس واعلن لها وهو يضغط على يديها وقدها ، انه يحبها وانها رائعة . وخلال رقصة الايكوسيز التي رقصاها معاً كذلك اكتفى اناتول خلال اللحظات التي كانا فيها وحيدين ، بالنظر الى وجهها دون ان يتفوه بكلمة . تساءلت ناتاشا حينئذ عما اذا لم تكن حلمت انها سمعت ماقاله خلال رقصة الفالس . وعند انتهاء الحركة التصويرية الاولى ، عاد يضغط يدها من جديد . رفعت ناتاشا اليه عينين مروعتين . لكن نظرة اناتول وابتسامته كانا مطبوعين بحنان شديد الثقة حتى انها ما استطاعت ان تقول له كل ماارادت قوله . اطرقت بعينيها وتمتمت :

- لاتقل لي مثل هذه الاشياء انني مخطوبة واحب شخصاً آخراً .

وبينما هي تغامر بنظرة اخرى اليه ، رأت ان اعترافها لم يحزن اناتول ولم يزعجه . قال لها همساً :

- لاتحدثيني عن هذا . ماذا يهمني ؟ اقول لك انني مجنون ، عاشق مدنف بحبك . هل هي خطيئتي اذا كنت على مثل هذا السحر ؟.. حان دورنا .

اخذت ناتاشا تنظر دون ان ترى بعينيها الجاحظتين الوحشيتين مرتبكة ساخطة فبدت اكثر جذلاً من مألوف عادتها ما كانت تحس بما يدور حولها الا لماما بعد رقصة الايكوسيز ، شرع في رقصة « الجَدّ » - وهي رقصة تصويرية المانية المنشأ ، كانوا ينهون بها حفلات العرس الراقصة ، كانت شائعة في روسيا . اراد ابوها ان يعود بها لكنها طلبت اليه البقاء . تنقلت كثيراً وابدلت مكانها وتحدثت الى هذا وذاك ، لكنها ظلت تشعر بنظرة اناتول تلاحقها . تذكرت فيما بعد انها

طلبت الى ابيها ان يسمح لها بالذهاب الى غرفة الزينة لتسوية ثوبها وان هيلين تبعتها الى هناك وحدثتها وهي ضاحكة عن حب اخيها . وفجأة رأت نفسها في مخدع صغير مع اناتول . لقد تركتها هيلين منفردين : اناتول وهي ، فامسك هذا بيديها وقال لها بصوت ملق :

لااستطع المجيء اليك ، ولكن هل يمكن ان لااراك بعد اليوم ؟ انني احبك كالمجنون ... هل ابداً ... ؟

وسد عليها السبيل وامال وجهه عليها :

كانت عيناه اللامعتان شديدتي القرب من عينيها حتى انها لم تعد ترى سواهما همس صوت ملح :

– ناتالي ؟

وامسك بعضهم بيديها حتى كاد يسحقهما . ناتالي ؟

وبدت نظرتها التائهـــة وكأنها تقول : « لست افهم ؛ ليس عندي مااقوله لك . »

اطبقت شفاه ملتهبة على شفتيها . لكنها بنفس الوقت شعرت انها انقذت : ارتفع صوت خطوات واقترب حفيف ثوب عرفت ناتاشاهيلين . القت على الشاب نظرة مروعة واتجهت نحو الباب مرتعدة قرمزية الوجه .

قال لها اناتول :

– كلمة ، كلمة واحدة بحق الله

توقفت . كانت في لهفة الى سماعة ينطق بتلك الكلمة التي تفسر لها كل ماوقع تلك الكلمة التي تستطيع اخيراً ان تجيب عليها .

غمغم وهو لايدري ماذا يقول ولاشك :

– ناتالي ، كلمة ، كلمة واحدة .

وراح يكرر هذه العبارة حتى اللحظة التي بلغت هيلين مكانهما .

عادت هيلين وناتاشا الى البهو ومضي آل روستوف عائدين قبل تناول العشاء

لم تنم ناتاشا قط تلك الليلة . كانت مسألة مستعصية الحل تعذبها بالحاح : ايهما تحب ، اناتول أو الأمير آندريه ؟ كانت تحب الامير آندريه . تذكرت شدة حبها له . لكنها كانت تحب اناتول ايضاً . حدثت نفسها : « والا ، هل كان يمكن ان يحدث كل هذا ؟ اذا كنت استطعت بعد كل ماحدث ان اجيب بابتسامة على ابتسامته ، اذا كنت بلغت هذة المرحلة ، فان معنى ذلك انني احببته منذ اللحظة الاولى معني ذلك انه طيب ونبيل وكامل ، يتعذر علي ان لا احبه . فماذا اعمل اذا كنت احب هذا وذاك ؟ » تلك كانت المسألة المقلقة التي لم تجد لها جواباً .

★ ★ ★

الفَصْلُ الرابعُ عَشَرْ

رسالة آناتول

اقبل الغد بهرجه واشغاله العادية . نهضوا جميعاً وسعوا وثرثروا وعادت الحائكات ثم اقبلت ماري دميتريفنا والتأم الشمل حول مائدة الشاي . كانت ناتاشا تطالع من حولها بهيئة كئيبة محاولة الظهور كمألوف عادتها وعيناها متسعتان وكأنها تريد الاحاطة بأتفه نظرة توجه اليها .

وبعد الافطار ، وهو الوقت المفضل عندها ، جلست ماري دميتريفنا على مقعدها واستدعت ناتاشا واباها الكونت العجوز الى جانبها وشرعت تقول :

ـ حسنا يا اصدقائي . لقد فكرت في المسألة تفكيراً جدياً واليكما نصيحتي . لقد كنت البارحة ـ كما تعلمان ـ في منزل الأمير نيكولا وتحدثت اليه ... صحيح انه رفع صوته متوهما ! ولكن لا يمكن ان يُغلق فمي انا . لقد حدثته بكل صراحة عن وجهة نظري .

سأل الكونت :

ـ وماذا قرر ؟

ـ هو ؟ انه مأفون ... انه لا يريد الاصغاء الى حرف واحد . ثم ما فائدة كل هذه المفاوضات . لقد تعذبت تلك البنية الصغيرة حتى الآن بما فيه الكفاية .

نصيحتي ان تنهيا اعمالكما هنا وان تعودا الى مسكنكم في اوترادنواي وان ينتظروا جميعاً بصبر ...

هتفت ناتاشا :

– آه ، كلا !

– بلى ، بلى . يجب العودة والانتظار بصبر . ان الخطيب اذا جاء الى هنا ، فإن الامر لن ينتهي دون خصام . اما اذا كان وحيداً مع العجوز ، فانه قادر على الانتصار عليه باقناعه ثم يلحق بكم بعد ذلك .

اقتنع ايليا آندريئيفيتش بحكمة تلك النظرية على الفور فأيدها . ذلك ان العجوز اذا ابدل رأيه فان من السهولة الذهاب لرؤيته سواء في موسكو او في ليسيّياجوري . وفي الحالة العكسية ، فان زواجاً خارجاً عن رغبته لا يمكن ان يحتفل به الا في اوترادنواي . قال :

– انك على حق تماماً . انني آسف لذهابي الى منزله واصطحابي ناتاشا الى هناك .

– ليس هناك مايستوجب الاسف . ما كان يمكنكم وانتم في موسكو الا ان تقوموا نحوه بتلك المجاملة مرغمين .

واضافت ماري دميتريفنا وهي تبحث في حقيبة يدها :

– اذا امعن في رفضه ، فذلك شأنه . وبما ان الجهاز حاضر ، فمن العبث الانتظار اكثر من ذلك . اما ما ينقص بعد ، فانني على استعداد لتأمينه لكم . انني آسف لرؤيتكم تغادرونني ، لكن ذلك افضل . فاذهبوا يا اصدقائي اتمنى لكم سفراً سعيداً .

ولما عثرت اخيراً على ما كانت تبحث عنه في حقيبة يدها ، قدمته الى ناتاشا . كانت رسالة من الأميرة ماري .

– انها كتبت اليك . المسكينة ! انها تزعج نفسها كثيراً . انها تخاف من ان تتوهمي انها لاتحبك .

اجابت ناتاشا بجرأة وهي تأخذ الرسالة .

– مهما قيل ، فانني اعرف انها لاتحبني .

كان وجهها يعبر عن عناد بالغ في القسوة حتى ان ماري دميتريفنا لم تتمالك ان قطبت حاجبيها وشخصت اليها بعينيها تتفحصها . قالت لها ناصحة :

– لاتخاطبيني بمثل هذه اللهجة ياصغيرتي . ان ما اقوله هو الحق . اذهبي واجيبي على رسالتها .

مضت ناتاشا الى غرفتها دون ان ترد لتقرأ الرسالة .

كانت الاميرة ماري تنبئها بأنها في حالة يائسة لسوء التفاهم الذي حدث بينهما. ومهما كانت عواطف ابيها ، فانها كانت تتوسل الى ناتاشا ان تصدق انها لاتستطيع الا ان تخص بمودتها تلك التي اختارها اخوها . انها مستعدة للتضحية بكل شيء في سبيل سعادة آندريه .

استرسلت : « على كل حال ، لاتظني ان ابي يبيت لك العداء . انه شيخ عجوز مريض يجب معذرته . انه طيب وكريم وسينتهي به الامر الى محبة تلك التي ستبني سعادة ابنه .

ثم كانت ماري تسألها ان تتفضل بتحديد الوقت الذي يمكنها ان تراها فيه مرة اخرى .

وبعد ان قرأت هذه الرسالة ، انصرفت ناتاشا الى كتابة الجواب . سطرت بصورة آلية « عزيزتي الأميرة » ثم توقفت . حـــدثت نفسها امام الرسالة التي شرعت في كتابتها : « ماذا يمكنها ان تكتب بعد ما حدث بالامس ؟ كلا ، كلا ، ان الامر لم يعد يتعلق بهذا الآن . لقد اتخذت الامور شكلاً آخرا . يجب علي

حتماً ان احرره « هو » من وعده . بلاشك ؟ هل هذا أكيد ؟ انه مريع!..»
ولكي تفلت من تلك الافكار المخيفة ، دخلت الى غرفة سونيا حيث راحتا معاً
تفحصان رسوما للوشي .

انسحبت ناتاشا الى غرفتها بعد الغداء وعادت تمسك برسالة ماري . تساءلت :
« هل حقيقة انتهى كل شيء ؟ كيف وقع كل هذا بمثل هذه السرعة ودمر كل
الماضي ؟ » اخذ غرامها بالامير آندريه ينبعث في مخيلتها بكل قوته الماضية .
لكنها ما كانت تستطيع الان تعترف بنفس الوقت بأنها تحب كذلك كوراجين .
راحت ترى نفسها زوجـــة للامير آندريه وشرع خيالها يرسم لها السعادة التي
تنتظرها معه . لكنها بنفس الوقت ، كان كل كيانها يلتهب لذكرى خلوتها
مع اناتول .

حدثت نفسها في بعض اللحظات التي يهجرها خلالها تفكيرها المتزن : « لمَ
لا استطيع محبتهما كليهما معاً ؟ حينئذ ، وحينئذ فقط اكون سعيدة جداً . اما
الآن ، فعلى العكس ، يجب ان اختار ولن اجد السعادة اذا حرمت احدهما .
على كل حال ، يستحيل علي ان اعترف للامير آندريه بكل ما وقع ولا ان
اخفيه عليه . بينما « الآخر » لا يوجد شيء يخشى فساده . لكن هل يمكن ان
اتخلى الى الابـــد عن غرام الامير آندريه وعن السعادة التي عشت فيها كل
هذا الوقت ؟ » .

قالت لها احدى الوصيفات بصوت خافت ولهجة غامضة وهي تدخل عليها :
— يا آنسة ، هذا ما اوصاني رجل بأن احمله اليك .
ومدت اليها يدها برسالة . ارادت الوصيفة ان تقول :
— ولكن بحق السماء . . .
لكن ناتاشا فضت الخاتم بحركة آلية واستغرقت في قراءة تلك الورقـــة
اللذيذة التي لم تكن تفهم منها كلمة واحدة ، الا انها مرسلة من قبله ، من قبل

الرجل الذي تحبه . « نعم انها تحبه . والا ، كيف كان يمكن ان يحدث كل هذا؟ كيف كان يمكن لهذه الرسالة الغرامية ان تكون في حوزتها ؟ » .

كانت ناتاشا تمسك بين يديها المرتعدتين بتلك الرسالة التي تتحرك بالشوق والتي دبجها دولوخوف لآناتول ، فجاءت عباراتها صدى للعواطف التي ظنت انها تحس بها .

« منذ امس مساء تقرر مصيري : اما ان اكون محبوباً منك واما ان اموت وليس لدي مخرج آخر . » وبعد هذه المقدمة ، قال اناتول انه يعرف ان ذوي ناتالي لن يوافقوا على تزويجه بها ، ولديه اسباب سرية تؤيد هــــذا المذهب لايستطيع الكشف عنها إلا لها وحدها . فاذا كانت تحبه ، يكفي ان تقول له كلمة نعم . وحينئذ لن تستطيع قوة بشرية ان تعترض سبيل سعادتهما . ان الحب ينتصر على كل شيء . سوف يختطفها ويفر بها الى اقصى العالم .

حدثت ناتاشا نفسها وهي تعيد قراءة تلك الرسالة للمرة العشرين : « نعم ، نعم ، انني احبه ! » باتت تظن انها تكتشف وراء كل كلمة منها معنى عميقاً .

كانت ماري ميتريفنا معتزمة زيارة آل ارخاروف ذلك المساء . فعرضت على الفتاتين مرافقتها . لكن ناتاشا ظلت في البيت بحجة صداع في رأسها .

★ ★ ★

الفصل الخامس عشر

على شفا الهاوية

عندما عادت سونيا في ساعة متأخرة ، ذهبت الى غرفـــة ناتاشا فوجدتها ـ لمزيد دهشتها ـ نائمة في كامل ثيابها على اريكة ، وعلى نضد بجانبها ، رسالة ملقاة هناك . كانت تلك رسالة آناتول ، فاخذتها سونيا وراحت تقرأها .

وفي تلك الاثناء ، كانت تنظر الى ناتاشا النائمة محاولة ايجاد تفسير لما تقرأ على قسماتها : لم تكتشف الا الهدوء والسرور والاشراق . سقطت سونيا فوق مقعده شاحبة ترتعد من الانفعال وهي ممسكة بصدرهـــا المثقل بيديها وانخرطت في البكاء .

تساءلت : « كيف لم ار شيئاً ؟ كيف ذهبت الامور الى هـذا الحد ؟ ألم تعد تحب الامير آندريه اذن ؟ ثم كيف استطاعت ان تسمع لكوراجين هذا . بمثل هذا الشيء ؟ انه بلا شك ماكر خائن . وماذا سيقول نيكولا الرائع ، نيكولا النبيل عندما يعلم بكل هـذا ؟ هذا اذن معنى ذلك الوجـه الغريب المنقلب المعتزم كل شيء الذي ظهرت به خـلال الأيام الأخيرة ! ... ولكن لا ، انها لاتحبه مستحيل ! لاشك انها فضت هـذه الرسالة دون ان تعرف

مصدرها . لاشك انها شعرت باهانة بسببها . انها لاتستطيع التصرف على هذا النحو ! » .

مسحت سونيا دموعها وعادت الى ناتاشا وراحت تتفحص وجهها من جديد .
نادت بنعومة زائدة :

ناتاشا !

استيقظت ناتاشا فرأت سونيا .

– ها انت قد عدت ؟

وفي واحدة من حالات الحنان تلك ، التي يشعر بها المرء عند الاستيقاظ ، اندفعت ناتاشا تعانق صديقتها . لكنها ماان رأت اضطراب سونيا حتى احست بدورها بالقلق والتحفظ يتابانها . سألتها ؟

– سونيا ، هل قرأت الرسالة ؟

تمتمت سونيا :

– نعم .

طافت على شفتي ناتاشا ابتسامة ذاهلة .

– اه ! سونيا ، لااستطيع ، كلا ، لااستطيع ان استمر في اخفاء الأمر عنك . اننا نحب بعضنا ! . . . سونيا ياعزيزتي ، انه يكتب الي . . . سونيا . .

لم تصدق سونيا اذنيها فراحت تنظر اليها جاحظة العينين قالت :

– وبولكونسكي ؟

آه ! سونيا ، ليتك تعرفين مبلغ سعادتي ! . . . لكنك تجهلين معنى الحب . . .

– والثاني يا ناتاشا ؟ لقد انتهى كل شيء اذن بينكما ؟

نظرت اليها ناتاشا بعينين متسعتين وكأنها لاتفهمها .

استرسلت سونيا :

– اذن ، انك تقطعين علاقتك بالأمير آندريه ؟

ردت ناتاشا بنفاد صبر :

ـ آه ! انك لاتفهمين شيئاً . لاتنطقي بحماقات . اصغي الي جيداً .

استأنفت سونيا :

ـ ذلك انني لااستطيع تصديق مارأى . اعترف بأنني لاافقه شيئاً . كيف ! احببت رجلاً طيلة عام كامل ثم فجأة ... وهذا ، انك لم تره الا مرتين او ثلاث مرات . ناتاشا لااصدق ، هل تمزحين . في ثلاثة ايام تنسين كل شيء و..

قالت ناتاشا :

ـ ثلاثة ايام فقط ؟ وانا التي اعتقد انني احبه منذ مائة عام ! يخيل الي انني لم احبب قط احداً قبله . انك لاتقدرين على فهم هذا . هيا ياسونيا ، تعالي اليّ هنا ، اجلسي بالقرب مني – وعانقتها وجذبتها نحوها – لقد قيل لي ان ذلك يحدث ولاشك انهم قالوا لك مثل ذلك ايضاً . ولكن هذه هي المرة الاولى التي احس بها بمثل هذا الشيء . انها ليست كالسابق . ماكدت اراه حتى عرفت سيدي ، لقد شعرت انني عبد رقيق له . فهمت انه يستحيل علي ان لا احبه . نعم ، انني عبد رقيق له . انني على استعداد لاطاعة امره اياً كان نوعه . انك لاتفهمين هذا ولكن ماذا استطيع ياسونيا ماذا اقدر ؟

اختتمت قولها بهذه العبارة وعلى سيمائها مزيج من السعادة والرعب . هتفت سونيا بسخط وهي تجد صعوبة في اخفاء اشمئزازها :

ـ فكري قليلاً فيما تعملين ... لايمكنني ان ادع هذا الامر يمر هكذا . هذه الرسائل السرية ... كيف استطعت السماح له بها ؟

ـ لقد قلت لك انني كنت مسلوبة الارادة . كيف لاتفقهين ذلك ؟ انني احبه :

صرخت سونيا خلال نشيجها :

ـ حسنا ، لن ادعك تفعلين ذلك ، سوف أقص كل شيء !

ـ ماذا تقولين ، رباه ! ؟.. اذا نطقت بكلمة كنت عدوتي . معنى ذلك انك تريدين تعاستي ، وانك تريدين ان يفصلوا بيننا ...

ولما رأت رعب ناتاشا ، سكبت سونيا دموع الخجل والاشفاق على صديقتها . سألت :

ـ ولكن ، ماذا بينكما ؟ ماذا قال لك ؟ لمَ لايأتي الى هنا ؟

توسلت ناتاشا دون ان تجيب على اسئلة سونيا :

ـ بحق السماء ياسونيا ، لاتتحدثي الى احد عن الموضوع . لاتعذبيني . تذكري انه لايجب ان يتدخل احد في هذه المواضيع . لقد صرحت لك ...

ـ لمَ كل هذه الاسرار ؟ لمَ لايأتي الى البيت ؟ لماذا لايطلب يدك بكل بساطه ؟ اعطاك الامير آندريه كل الحرية في ان تتصرفي وفق رأيك . فاذا كانت الامور حقيقة قد توقفت عند هذا الحد . . . ولكن لا ، انني ارفض تصديق هذا . . . ناتاشا ، هل فكرت في ما يمكن ان تكونة تلك « الاسباب السرية » ؟

ساءلتها ناتاشا بنظرة ذاهلة : لاشك ان السؤال قد اربكها لأنها لم تطرحه بعد على نفسها .

ـ هذه الاسباب ، اجهلها . لكن يجب التصديق بأن لديه اسبابا !

زفرت سونيا وهزت رأسها . همت ان تقول :

ـ اذا كانت لديه اسباب ...

لكن ناتاشا روعت للشكوك التي ظهرت على صديقتها فلم تتركها تتم قولها صرخت :

ـ سونيا ، لايجب الاسترابة به ! لايجب ، . لايجب ، هل تفهمين ؟

ـ هل يحبك ؟

ردت ناتاشا التي انتزع غباء صديقتها منها ابتسامة اشفاق :

- اذا كان يحبني ؟ لكنك قرأت رسالته !

- ولكن ماذا اذا لم يكن رجلاً نبيلاً ؟

- هو ! ... ليتك تعرفينه !

استأنفت سونيا بعزم :

- اذا كان رجلاً نبيلاً ، يجب عليه ان يعلن عن نواياه أو يكف عن رؤيتك . واذا كنت لاتريدين القيام بذلك بنفسك ، كتبت له نيابة عنك وابلغت « بابا » بالأمر .

هتفت ناتاشا :

- لكنني لااستطيع ان اعيش بدونه !

- ناتاشا ، لست افهمك . ماذا تقولين ؟ فكري في ابيك ، في نيكولا .

- لست في حاجة الى احد ، لست احب احداً سواه . كيف يمكنك القول بأنه ليس رجلاً نبيلاً ؟ الا تعرفين انني احبه ؟ ... اذهبي ياسونيا ! لا اريد ان اخاصمك . اذهبي اتوسل اليك ، اذهبي . انك ترين كم أتألم .

القت ناتاشا بتلك العبارات بلهجة شديدة العنف وبغضب غير مكظوم حتى ان سونيا ذرفت دمعاً سخياً وفرت .

جلست ناتاشا الى منضدتها ، ودون ان تفكر لحظة واحدة ، كتبت للأميرة ماري الجواب الذي لم تستطع انجازه طيلة يومها . انبأتها ببضع كلمات ان سوء التفاهم الذي قام بينهما قد انتهى : انتهازاً منها لكرم الامير آندريه الذي سمح لها قبل رحيله بالتمتع بكل حريتها ، فانها تحله من وعده الآن . وبالتالي ، لتتفضل ماري بنسيان مقابلاتها والصفح عن كل ما يمكن ان تكون

قد اظهرته من اساءات حيالها . بدا كل ذلك في تلك اللحظة آية في السهولة والبساطة والوضوح .

كان على آل روستوف ان يعودوا الى بيتهم يوم الجمعة ، وفي يوم الاربعاء، ذهب الكونت مع المشتري الى حقله في الضاحية .

ذلك اليوم بالذات ، كانت سونيا وناتاشا مدعوتين الى حفلة غداء كبرى في دار آل كاراجين ، فصحبتهما ماري دميتريفنا . قابلت ناتاشا اناتول من جديد هناك . لاحظت سونيا انهما تحدثا معاً بطريقة لاتجعل سواهما ينصت الى اقوالهما وانها ظهرت اكثر اضطراباً اثناء الطعام من ذي قبل . وعندما عاد الى البيت ، توقعت ناتاشا اسئلة صديقتها . شرعت تقول بتلك اللهجة الماكرة التي يعمد اليها الاطفال الطامعين في الاطراء :

- ارأيت يا سونيا ، لقد حدثتني بحماقات بصدده . ان كل ذلك خطأ . لقد تفاهمنا حول هذا الموضوع منذ حين .

- آه ! وماذا قال لك ! كم انا سعيدة يا ناتاشا لأنك لم تحنقي علي . قولي لي كل شيء وبصراحة تامة . ماذا قال لك ؟

فكرت ناتاشا برهة .

- آه ! سونيا ، ليتك تعرفينه كما اعرفه ! لقد قال لي ... سألني عن طبيعة وعدي لبولكونسكي وقد ابتهج حينما عرف ان الامر يتوقف علي في فصم الخطوبة مع الأمير آندرية .

اطلقت سونيا زفرة عميقة . قالت :

- لكنك على ما اعلم لم تقطعي علاقتك ببولكونسكي ؟

- بل يجوز ان اكون قد قطعتها ! يجوز تماماً ان يكون كل شيء قد انقطع ! ... لمَ تحملين مثل هذه الفكرة السيئة عني ؟

-- ليست لدي اية فكرة سيئة . لكنني لا افهم ...

ـ انتظري يا سونيا . ستفهمين كل شيء سترين أي رجل هو . لاتكوني فكرة سيئة لا عني ولا عنه .

ـ انني لاافكر بسوء في احد . انني احب واعطف اكل الناس . ولكن ماذا استطيع ان اعمل ؟

لم تستسلم سونيا للهجة الحاذقة التي كانت تصفها ناتاشا . اخذت تقابلها بوجه يزدادصرامة كلما امعنت هذه في دلالها . قالت لها :

ـ ناتاشا ، لقد سألتني ان لااحدثك عن هذا ولقد صمت . وانك انت التي بادرتني بالكلام الآن ... انني لااثق فيه ياناتاشا : مامعنى هذه الاسرار ؟

ـ عدنا الى هذه النغمة !

ـ انني خائفة من اجلك ياناتاشا .

ـ ومن اى شي تخافين ؟

اعلنت سونيا بصراحة ندمت عليها لفورها :

ـ انني اخاف ان تذهبي بنفسك الى دمارك .

اتخذ وجه ناتاشا من جديد طابعاً خبيثاً .

ـ حسنا ! نعم ، سأخسر نفسي وبأسرع مايمكن ايضاً ! ان هذا ليس شأنك انني اسيء الى نفسي ، الينا نحن .. دعيني ، دعيني ، امقتك .

هتفت سونيا مروعة :

ـ ناتاشا !

ـ نعم ، امقتك ، امقتك ! انك عدوتي الى الابد !

وفرت ناتاشا .

لم تتحدث بعد ذلك الى سوينا بكلمة واحدة بل كانت تتجنب لقاءها . ظلت

تروح وتجيء في البيت بنفس تلك المسحة المذنبة المشدوهة ، تشغل نفسها بمشاغل كثيرة توقفت عن الاهتمام بها منذ حين .

لم تترك سونيا ناتاشا تغيب عن عينيها رغم العناء الذي كانت تحس به . لاحظت في امسية اليوم الذي سبق عودة الكونت ان ناتاشا تطيل الوقوف امام نافذة البهو وكأنها تترقب حادثاً معيناً . ثم رأتها تشير الى عسكري كان ماراً هناك خيل لسونيا انها عرفت فيه اناتول .

ضاعفت انتباهها ولاحظت ان ناتاشا كانت دريبة التصرف غير طبيعية خلال فترة الغداء والسهرة : كانت تجيب خطأ على الاسئلة ، لاتتم جملها وتضحك لكل مناسبة .

وبعد الشاي ، رأت سوينا عند عودتها الى غرفتها ، ان وصيفة شـــديدة الارتباك كانت تترقب مرورها عند باب غرفة ناتاشا . مرت ، لكنها عادت على اعقابها والصقت اذنها على الباب ، فاقتنعت ان رسالة جديدة قد سلمت اليها .

وفجأة رأت سونيا بوضوح ان ناتاشا تدبر خطة مريعة لتلك الليلة بالذات. قرعت باب صديقتها عبثاً .

حدثت سونيا نفسها : « سوف تفر معه . انها قادرة على مثل ذلك . لقد بدت اليوم شديدة الحزن ولكن اكثر حزماً من اي يوم . لقد بكت وهي تودع عمى . نعم ، لاشك انها ستفر معه ، ماذا يجب علي ان اصنع ؟ »

تذكرت في تلك اللحظة بعض الوقائع التي تؤيد شكوكها الخطيرة . : «ان الكونت ليس هنا ، ماذا يجب ان اصنع ؟ هل اكتب لكوراجين مطالبة اياه بتفسير عن كل هذا ؟ لكن من يرغمه على الاجابة علي رسالتي ؟ أأكتب لبيير كما طلب الامير آندريه ان نعمل في حالات الشؤم ؟ لكن ألم تقطع رباطها

ببولكونسكي ؟ لقد رأيتها ترسل امس مساء جوابها الى الاميرة ماري ... ثم ان عمي ليس هنا !

اما ان تقول كل شيء لماري دميتريفنا التي كانت لها ثقة كبيرة بناتاشا ، فان سونيا ما كانت تقر هذا التصرف . فكرت وهي في الممشى المعتم : « على كل حال لقد ازف الوقت لابرهن عن عرفاني لهم جزاء احسانهم ولقاء حبي لنيكولا . لن اتزحزح من هـذا الممشى ولو امضيت ثلاث ليال ساهرة ، وسأمنعها من الخروج ولو اضطررت الى استعمال القوة . كلا لن اترك وصمة العار تدخل الى اسرتهم . »



الفصل السادس عشر

خطة الاختطاف

منذ بضعة ايام ، اقام اناتول عند دولوخوف . وكان هذا قد وضع خطة اختطاف وجب تنفيذها في ذلك المساء بالذات الذي قررت سونيا التي تراقب باب ناتاشا ان تقاوم فرارها . كانت ناتاشا قد وعدت بموافاة كوراجين في الساعة العاشرة عن طريق سلم الخدم ، حيث سيضعها في زحافة سريعة جاهزة ليحملها الى خمس عشر مرحلة بعيداً عن موسكو ، حيث ضاحية كامانكا . وهناك سيعقد قسيس مطرود قرانهما ، وستحملها خيول المراحل على طريق فارسوفيا ومن هناك الى الخارج عن طريق عربة البريد .

كان اناتول قد تدبر جواز سفر واذن بالركوب في عربة البريد ، وكانت اخته قد اعطته عشرة الاف روبل واقترض مبلغاً مماثلاً عن طريق دولوخوف وكان الشاهدان ، خفوستيكوف - وهو احد موظفي المستشارية السابقين ، الذي كان دولوخوف يستخدمه باعماله المتعلقة بالمقامرة - وماكارين ، -وهو من الفرسان المتقاعدين طيب ضعيف الارادة ، يؤمن بكوراجين ايماناً حقيقياً يشربان الشاي في الحجرة الاولى من الشقة .

وفي مكتبه الكبير المزين كله بالسجاد العجمي وجلود الدببة ومجموعـــات

الاسلحة. جلس دولوخوف قرب مكتبه المفتوح وهو في سترة السفر ينقل حذائين عاليين ، وامامه عداد ورزم من الاوراق النقدية. اما اناتول فكان ينتقل محلول ازرار الثوب بين حجرة الشهود مخترقاً المكتب والغرفة التي يشرف خادمه الفرنسي فيها على معـــدات السفر الاخيرة . كان دولوخوف يقوم باحصاء النقود . قال :

– اتدرين يجب اعطاء الفي روبل لخفوستيكوف .

– ليكن اعطها له .

قال دولوخوف وهو يريه قائمته :

– ان هذا الباسل ماكارين لايريد شيئاً . انه على استعداد لالقاء نفسه في النار ارضاء لك ... هيا ، لقد انتهت الحسابات ، هل ترضيك ؟

اجاب اناتول الذي لم يسمع شيئاً بل كان يحدق امامه تائهاً وعلى شفتيه ابتسامته الخالدة :

– بالطبع بكل تأكيد .

اغلق دولوخوف مكتبه بجلبة وخاطب صديقه بلهجة ساخرة قائلاً :

– اسمع . دع عنك كل هذه المسألة لايزال في الوقت متسع .

هتف الاخر :

– ياسخيف ! لاتنطق بالحماقات . لو كنت تعلم ... هل يظن ...

الح دولوخوف :

– حقاً ، دع عنك هذا . انني اكلمك جدياً . ان القضية غير مضمونة ، اتدري ..

قال اناتول وهو يعبس :

– هيا ، ها انك تعاود الكرة ! انك تزعجني اخر الامر . اذهب الى كل الشياطين ، هه ! انني لست في حالة تساعدني على الاصغاء الى هذرك .

اتجه نحو الباب ، فشيعه دولوخوف بابتسامة مطاوعة ساخرة . هتف به :
– انتظر قليلاً ! لست امزح ، انني جاد كل الجد . تعال ، هيا .
عاد اناتول على اعقابه واستجمع كل انتباهه وراح يتأمل دولوخوف الذي كان يخضع رغماً عنه لنفوذه :
– لآخر مرة ارجوك ان تصغي الي . لم امزح ؟ هل وضعت لك مرة العصي في العجلات ؟ من الذي رتب كل شيء من الذي اكتشف القس ، من الذي حصل على جواز السفر ، من الذي عرف كيف يتدبر المال ؟ انه انا .
اجاب اناتول :
– صحيح ، وانني اشكرك من أجل كل هذا . هل تتصور مرة انني لست لك شكوراً ؟
– لقد ساعدتك ، وهذا معترف به . لكن من واجبي ان اقول لك الحق : ان المغامرة خطيرة بل وحمقاء اذا امعنا فيها النظر . حسنا ، انك تخطفها ، حسناً جداً . هل تظن ان الامر سيقف عند هذا الحد ؟ اذا عرفوا انك متزوج قبل هذه المرة ، سوف يرفعون امرك الى القضاء ...
قال آناتول وقد عاد مكتئباً :
– حماقات كل هذه ! لكنني فسرت لك من قبل .
وراح آناتول ، بعناد الاشخاص المحدودين الذين حشو رؤوسهم بشيء اقنعهم ، يكرر على دولوخوف الحجة التي كررها مائة مرة عداً :
– لقد شرحت لك من قبل وجهة نظري في الموضوع – وراح يعد على على اصابعه : اذا كان هذا الزواج غير رسمي فانني لا احتمل اية مسؤولية ، واذا كان رسمياً ، ماذا يهمني ؟ لن يعرف احد بأمره في الخارج . اثنان هذا صحيح أليس كذلك ؟ اذن ، ولا كلمة بعد ، ولا كلمة !

ـ صدقني ، اصرف النظر عن كل هذا ! سوف يسوء المنقلب ...
قال اناتول :
ـ اذهب الى الشيطان !
وامسك برأسه بين يديه وخرج ، ثم عاد بعد قليل وتربع على مقعد بجانب دولوخوف تماماً . امسك بيده ووضعها على قلبه وقال :
ـ ألف رعد ، مامعنى هذا ؟ خذ ، انظر كم يخفق . آه ياله من قدم ياعزيزي يالها من نظرة ! آلهة ! رهن ؟
راح دولوخوف يتمعن في آناتول وعلى شفتيه ابتسامة باردة وفي عينيه لهيب مشتعل ، وهو يجد لذة كبيرة في مشاكسته دون ريب :
ـ وعندما تنفق المال كله ، ماذا تعمل ؟
هدت هذه النظرية التي لم يفكر فيها اناتول قط قواه . كرر :
ـ ماذا ساعمل ؟... ماذا سأعمل ؟ لعمري لست ادري... الى الشيطان كل هذه الخزعبلات !
واختتم قوله وهو ينظر الى ساعته :
ـ لقد حان وقت الذهاب .
ومضى الى الحجرة الخلفية وصاح بالخدم :
ـ هولا ، يازمرة المتوانين ، ألم تنتهوا بعد ؟
حزم دولوخوف المال وامر خادمه ان يهيء شيئاً يأكلونه قبل الرحيل ثم ذهب الى الغرفة التي كان خفوستيكوف وماكارين فيها .
كان آناتول مستلقياً على اريكة المكتب يبسم بشرود وحنان ويغمغم ببضع كلمات بين شفتيه الجميلتين .. هتف به دولوخوف من الحجرة المجاورة :
ـ تعال كل شيئاً ، اشرب قدحاً على الأقل .
فأجاب آناتول دون ان يكف عن الابتسام :

- كلا، شكراً .

- تعال ، ان بلاجا هنا .

نهض اناتول ومضى الى غرفة الطعام . كان بلاجا ، وهو مؤجر زحافات مشهور ، يعرف الصديقين الذين كثيراً ما احتاجوا الى خدماته ، منذ خمس اوست سنين . لقد حمل اناتول اكثر من مرة من « تفير » مساءً عندما كان فيلقه مخيماً هناك ، ليصل به الى موسكو عند الفجر ويعيده في الليلة التالية الى مركزه . وهو الذي افلت دولوخوف أكثر من مرة من مطاردات مزعجة ، ونقل الصديقين اكثر من مرة عبر المدينة بصحبة بوهيميين و«سيدات صغيرات » كما كان يقول . وكثيراً ما دعس بعض المارة او قلب عربات خلال تلك الجولات الهوجاء فكان اولئك « السادة » كما كان يسميهما ، ينقذانه من محنته . كم من مرة ضرباه وكثيراً ما اسقياه شامبانيا ونبيذ ماديرِ ، نبيذه المفضل . انه يعرف عن كل منهما اكثر من مغامرة تقضي اقلها بهما الى منافي سيبيريا. كانا يدعوان بلاجا غالباً الى مائدتهما الحافلة ويرغماه على الشراب والرقص مع البوهيميين ، وينقلان بواسطة ورقة من ذات الالف روبل اكثر من مرة . لقد غامر بحياته في خدمتهما عشرين مرة للخطر كل عام او غامر بجلد ظهره على الاقل واضاع عدداً من الخيول اكبر من ان تفي الاموال التي تقاضاها منهما بثمنها . مع ذلك فقد كان يحبهما . كان يحب تلك الرحلات المجنونه بسرعة خمسة فراسخ في الساعه ، يحب ان يخرق شوارع موسكو ويدهس المشاة ويقلب العربات . يحب ان يسمع وراءه اصواتاً سكري تزجر به : بسرعة اكثر ! بسرعة اكثر ! بينما يكون مستحيلاً عليه ان يزيد في اندفاع خيوله . كان يحب ان يضرب بسوطه قذال عاشق يبتعد بسرعة عن طريق ذلك الاعصار وهو ميت اكثر منه حي .

«انهم سادة حقيقيون . » ذلك كان رأي بلاجا عن اناتول ودولوخوف

الذين من جانبهما احلاه محلاً في مودتهما لأنه كان أمهر سائق ولأن له اذواقاً متجانسة مع اذواقهما . كان مع غيرهما من الزبائن ، يساوم ويطلب خمسة وعشرين روبلاً اجراً لرحلة مدتها ساعتان ويحل احد غلمانه محله غالباً . ولكن مع هؤلاء « السادة » ، كان يقود العربة بنفسه ولا يسألهما قط دانقاً . وعندما يبلغه عن طريق وصيفيها انهما يملكان مالاً ، مرة كل ثلاثة او اربعة شهور ، كان يزورهما صباحاً قبل ان يشرب شيئاً ، ويسألهما بعد ان يحييهما بصوت خافت ، ان ينقذاه من محنة مالية . فكان «سادته» يجلسانه دائماً . كان يقول :

يافيدور ايفانيتش ، ياسيدي الطبيب ، او ياصاحب السعادة ، لاتبخل علي بكتفك : لم يبق عندي حصان واحد ، ويجب مع ذلك ان امضي الى سوق العرض . اقرضني ماتستطيع .

وحينئذ يعطيه اناتول ودولوخوف — اذا كانا موسرين — ورقة أو ورقتين من ذات الالف روبل .

كان باجا فتى اشقراً في السابعة والعشرين من عمره تقريباً مربوع القامة ، ملون الوجه ، غليظ العنق اشد احمراراً من وجهه ، قصير اللحية لامع العينين صغيرهما كان يرتدي فوق فروته القصيرة جلباباً أزرقاً من قماش ناعم مبطن بالحرير . رسم اشارة الصليب امام الصور المقدسة وتقدم نحو دولوخوف ومد له يده الصغيرة الداكنة وقال وهو ينحني :

احتراماتي لفيدور ايفانوفيتش !

مرحباً ياعزيزي ... آه ! هاهو ! ...

وقال لأناتول الذي دخل في تلك اللحظة وهو يمد له يده :

احتراماتي لسعادتك !

قال آناتول وهو يضع يده على كتفه :

اسمع يابلاجا . هل تحبني حقيقة . هن ؟الأمر يتعلق بخدمة تؤديها لي ... أية خيل جئت بها ؟ هن ؟

تلك التي امرتني بقطرها ... الحيوانات المتوحشة ...

اذن ، انتبه يابلاجا ! اقتل خيولك اذا وجب الأمر ، ولكن اقطع الطريق في ثلاث ساعات . هن !

اعترض بلاجا وهو يغمز بعينيه بمكر :

اذا تركتها تنفق ، كيف نصل ؟

زجر اناتول فجأة وهو يدير عينيه الكبيرتين :

— لاتمزح او احطم « بوزك » .

قال الحوذي ضاحكاً :

— المزاح لايسيء ابداً . هل ارفض شيئاً لسادتي ؟ سنمضي باقصى سرعة بالطبع .

قال اناتول :

— حسنا ! والآن اجلس .

والح دولوخوف :

— اجلس ، هيا !

— انني مستريح هكذا يافيدور ايفانوفيتش .

قال آناتول وهو يصب له قدحاً كبيراً من خمرة ماديرا :

— لاحاجة الى الرسميات ، هن ! اجلس وابلع .

التمعت عينا الحوذي لدى رؤية النبيذ . وبعد ان رفض تأدباً ، تجرع القدح ومسح شفتيه بوشاح احمر كان يخفيه في قلنسوته .

— اذن ، متى تذهب ياصاحب السعادة ؟

قال اناتول بعد ان نظر الى ساعته :

– ولكن فوراً . ولكن اعلم يابلاجا ، انتبه هِن ! يجب ان نصل في الوقت المناسب .

قال بلاجا :

- هذا يتوقف على الرحيل ، فاذا تم على مايرام ... وبعد ، لم لا نصل في الوقت المعين ؟ لقد ذهبنا مرة في سبع ساعات الى تفير ، انك تتذكر ولا شك ياصاحب السعادة ؟

قال آناتول وهو يبتسم لهذه الذكرى ويلتفت نحو ماكارين الذي كان يلتهمه بنظراته بغباء :

– نعم . اتعلم ، ذات مرة في عيد الميلاد ، جئت من تغير . نعم ، تصور ياعزيزي ان السرعة كانت تقطع انفاسنا . وبلحظة واحدة ، بينما كانت قافلة تقطع علينا الطريق ، قفزنا فوق عربتين . هِن ! ماذا تقول ؟

فاعقب بلاجا محدثاً دولوخوف :

– ولكن يالها من خيول تلك ! لقد وضعت الى جانبي ادهمين ، مهرين جميلين ليكونا حصاني الجانبين . هل تصدق يافيدور ايفانوفيتش ، لقد قطعت هذه الحيوانات الصغيرة خمس عشرة مرحلة دون توقف . كان الصقيع شديداً وكانت ايدينا مخدرة ، لا يمكننا امساك الاعنة بها وتركت اعنة قلت : امسكها ياصاحب السعادة . وسقطت كتلة واحدة داخل الزحافة . آه ! لقد اثرت تلك الحيوانات تماما ! لكنني لم استطع الامساك بالأعنة حتى النهاية ... لقد قطعوا المسافة في ثلاث ساعات ، الشياطين . لكن الحصان الأيسر نفق عقب ذلك .

الفصل السابع عشر

فشل الخطة

خرج آناتول وعاد بعد قليل مرتدياً فروة تلف جسمه ، ربطها بنطاق مزين بالفضة عندوسطه ، وقلنسوة من السمور مائلة على اذنه تتفق تماماً مع وجهه الجميل وبعد ان درس وضعيته امام المرآة ، انتصب امام دولوخوف وقال وهو يمسك قدحاً في يده :

-- هيا ، الوداع يافيديا . اشكرك لكل خدماتك ، الوداع .

واضاف بعد ان بحث فترة طيبة عن الكلمة المناسبة :

- هيا يازملائي ، اصدقاء ال ... اصدقاء صباي ، الوداع !

كانت تلك الجملة الأخيرة موجهة الى ماكارين والآخرين . وعلى الرغم من انهم جميعاً كانوا سيرافقونه ، فان اناتول كان يتعمد اعطاء وداعه لهجة مؤثرة . كان يحدث بصوت مرتفع متناسق ، مبرزاً صدره متأرجحاً على ساقيه .

- تعالوا جميعاً واقرعوا اقداحكم ، وانت يابلاجا . يازملائي واصدقاء صباي لقد مضينا زمناً جميلاً . لقد قمنا بكثير من الجنون معاً . والآن ، متى نلتقي من جديد ؟ انني ماض الى الخارج . وداعاً ايها السرور . وداعاً ياصدقائي البواسل نخب صحتكم . هورا !

افرغ كأسه دفعه واحدة وحطمها . قال بلاجا الذي تجرع كأسه كذلك ومسح يديه بوشاحة :

ضم ماكارين اناتو ل الى صدره وعيناه سابحتان في الدموع .

- آه ! ياأمير ، انني عظيم الألم لافتراقي عنك !

هتك اناتول :

- هيا ! الى المسير !

استعد بلاجا للخروج فقال اناتول :

- لحظة واحدة ! اوصد الباب ولنجلس . هكذا ، هنا .

اغلقوا الباب وجلسوا جميعاً . (من عادة الروسيين قبل سفر ، وخصوصاً في المناسبات الجليلة ، ان يجلسوا ويستجمعوا انفسهم فترة .)

استأنف اناتول وهو ينهض :

والآن ، الى الامام سر ايها البواسل !

قدم له جوزيف ، الوصيف ، سيفه وجعبته الجلدية .

استفسر دولوخوف :

- ولكن اين الفروة ؟ هولا ! إينياس ! امض فوراً الى ماترون ماتفيئيفنا واطلب منها معطفاً من الفراء ، المعطف المصنوع من فراء السمور ؟ هل سمعت ؟ ...

واضاف وهو يغمز بعينه :

- انني اعرف كيف تجري الاختطافات ، سوف تلقي بنفسها الى الخارج ميتة اكثر منها حية ، دون ان تكون متدثرة بشيء . واذا وقع ادنى تأخير سالت الدموع على الفور ، فتنادي « بابا و ماما » وسترتعدوتطلب العودة ... اما اذا كانت معك فروة ، فستزملها بها وتقودها حتى الزحافة .

جاء الخادم بفروة من جلد الثعلب .

– معطف السمور أيها الحيوان ! ألم اقل لك ، نعم أو لا ؟

وصرخ بصوت دوى حتى بلغ اقصى الشقة :

– إه ! ماترون ، معطفك السمور !

هرعت بوهيمية جميلة ، نحيلة وشاحبة ، تلبس شالا احمراً ، حاملة معطف السمور . كانت عيناها السوداوان تلتمعان وخصلات شعرها الاسود تعكس لوناً ازرقاً . قالت وهي تخاف ولا شك غضبة سيدها ومالكها وتأسف بنفس الوقت على فروتها :

– خذ ، خذها ، سيان عندي .

ودون ان يجيبها ، القى دولوخوف بالفروة على كتفيها ولفها حول قدها وقال وهو يرفع الياقه بشكل لايترك معه الا فتحة صغيرة للوجه :

– اترى ، هكذا ... ثم هكذا ، واخيراً هكذا ، أرأيت ؟

واجبر آناتول على ان يميل فوق الفتحة التي كانت ابتسامة البوهيمية تلتمع خلالها . قال اناتول و هو يقبلها :

– هيا ، الوداع الوداع ياماترون . انتهت الحياةالطيبة! تهانئي الى ستيفاني ! هيا ، الوداع الوداع ياماترون . تمني لي حظاً سعيداً .

قالت ماترون بلكنة بوهيمية :

– ليمنحك الله كل السعادات الممكنة ياأميري .

وقفت زحافتان قرب المرقاة يقودهما فتيان متينا البنيان . صعد بلاجا الى الاولى ورفع مرفقيه الى الاعلى وراح يجمع السيور بتؤدة في يـديه . جلس ماكارين وخفو ستيكوف والوصيف في الزحافة الثانية . سأل بلاجا :

– هل نحن على استعداد ؟

وصرخ وهو يلف الاعنة حول ذراعه :

ـ اذن ، الى الأمام سر !

وانحدر الموكب باقصي سرعة جادة القديس نيكولا . اخذ بلاجا وغلاميه الجالسين على المقعد يصيحون :

ـ هو ! آواه ! !... هو !... اوه !...

افتحموا عربة في ساحة « اربات » . ، فارتفعت فرقعة ثم صيحة ، لكن الزحافة كانت تطوي في تلك اللحظة شارع « اربات » .

وبعد ان صعدوا ثم هبطوا جادة بودنوفيتسكي على كل طولها ، استمهل بلاجا خيوله ثم عاد الى الوراء واوقفهـــا في زاوية شارع « فيي ايكوري » الاسطبلات القديمة . قفز الغلام من المقعد ليمسك بالخيول من اعنتها ، وصعد اناتول ودولوخوف الرصيف . وعندما اقتربا من البوابة ، صفر دولوخوف . اجابه صفير آخر على صفيره وظهرت وصيفة هرعت اليه تقول :

ـ ادخلو الفناء والا رأوكما . انها قادمة على الفور .

ظل دولوخوف قرب البوابة بينما تبع آناتول الوصيفة ودارا حول ركن الفناء ثم تسلق درجات المرقاة ليجد نفسه وجهاً لوجه مع جـافريل ، الخادم المرافق العملاق لماري دميتريفنا . قال له الخـادم بصوت خفيض وهو يقطع عليه طريقه :

ـ ان سيدتي تطلبك . تفضل واتبعني .

غمغم آناتول بصوت متقطع :

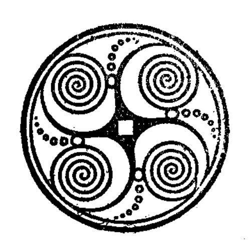
ـ اية سيدة ؟ من انت ؟

ـ تفضل واتبعني . ان لدي امراً باصطحابك .

صرخ دولوخوف :

– كوراجين ، عد ! لقد خانونا ! لنفر !

كان دولوخوف يتعارك مع البواب الذي حاول اغـــلاق البوابة وراء اناتول . استطاع ان يتخلص من ذلك المضايق بمجهود جبار ثم أمسك بذراع اناتول الذي كان قادماً بسرعة وجذبه بقوة حتى تخطيا المدخل ثم جريا بكل قوة حتى وصلا الى زحافتهما .



الفصل الثامن عشر

رد الفعل

فأجابت ماري دميتريفنا في الممشى سونيا غارقة في دموعها فلم تدعها الا بعد ان انتزعت منها اعترافاً كاملا . احتجزت رسالة ناتاشا وقرأتها ثم دخلت على « فليونتها » والورقة في يدها . قالت لها :

– ايتها الخائنة ! ياخالعة العذار ! لااريد ان اسمع شيئاً .

دفعت ناتاشا التي كانت تحدق فيها بعينين ذاهلتين ولكن حادتين واغلقت الباب بالمفتاح . وبعد ان اوعزت للبواب ان يسمح بالدخول لكل من يحضر ويمنع خروج أي كان ، ولخادمها المرافق ان يأتيها بالقـادمين ، جلست في البهو تنتظر المغررين .

وعندما جاء جافزيل ينبئها ان الاشخاص لاذوا بالفرار ، زوت حاجبيهـا ونهضت وراحت تذرع البهو طويلا ويداها وراء ظهرهـا ، تفكر في ما يجب عليها صنعه . عادت الى غرفة سونيا حوالي منتصف الليل بعد ان لمست المفتاح في جيبها . كانت سونيا لاتزال تنشج في الممشى . توسلت اليها :

– ياماري دميتريفنا ، دعيني ادخل معك .

فتحت ماري دميتريفنا الباب دون ان تجيبها ، حدثت نفسها وهي تحاول

السيطرة على غضبها : « انه مخجل ، انـه مرذول ... تحت سقفي ... باللفتاة الرديئة الفاجرة !... لكنني اشفق على ابيها ، وعلى الرغم من صعوبة الامتثال للامر ، فسآمر كل الناس ان يصمتوا وساخفي الامر عن الكونت .» دخلت الحجرة بخطوة ثابتة . كانت ناتاشا ممسكة رأسها بين يديهـا مسترخية الجسد ، ممددة على الاريكة في مثل الوضع الذي تركتها عرابتها عليه . قالت هذه :

– حسنا ! ان هذا شريف ! اعطاء المواعيد للعشاق تحت سقف بيتي ! لاتتصنعي الطهر والسذاجة . اصغي عندما يحدثونك .

كررت وهي تلمس ذراعها :

– الا تسمعين ، لقد جللت نفسك بالعار كأسوأ الفتيات . انني أعرف تماماً مايجب ان اصنعه ، لكنني اشفق على ابيك . لن اقول له شيئاً .

ظلت ناتاشا ساكتة . لكن نشيجاً خافتاً كان يخنقها ولم يلبث جسمها كله، ان تقلص متشنجاً . تبادلت ماري دميتريفنا نظرة مع سونيا ثم جاءت تجلس على الاريكة بجانب « فليونتها » .

قالت بصوتها القاسي ؟

– لقد استطاع الافلات مني !... لكنني سأجده . حسنا ! هـل تسمعين مااقوله لك ؟

ادخلت يدها الضخمة تحت رأس ناتاشا وادارته نحوهـا . روعت ماري دميتريفنا وسونيا لمرآى ذلك الوجه ذي العينين اللامعتين الجـافتين والشفتين المضمونتين والخدين الهضيمين .

قالت :

– دعوني ... ماذا يهمني ؟ ... اريد ان اموت ...

انتزعت نفسها بغضب من يدي ماري دميتريفنا وعادت تستغرق في وهنها.

قالت ماري دميتريفنا :

– ناتالي ! ... انني لااريد الا صالحك . امكثي هكذا اذا كنت تفضلين لن امسك . ولكن اصغي الي ... لاأريد ان اقول الى ايه درجة بلغت في ذنبك . انك تعرفين ذلك مثلما اعرفه .. نعم ، تماماً ... لكن اباك يعود غداً ، فماذا اقول له ؟ هن ؟

لم تجب ناتاشا الا بالنحيب .

– واذا علم بالامر من آخرين ؟ واذا اطلع اخوك اوخطيبك على الامر ؟

صرخت ناتاشا فجأة :

– لم يعد لي خطيب ، لقد قطعت صلتي به .

استتلت ماري دميتريفنا تقول :

– هذا لايهم . لنفرض انهم عرفوا خطيئتك ، هل تظنين انهم يتركون الامور هكذا ؟ ... انا اعرف اباك ، انه قادر على الدخول في مبارزة ... سيكون الامر جميلا ، هن ؟

هتفت ناتاشا وهي تنهض وتلقي على ماري دميتريفنا نظرة حقد :

– آه ! دعيني ... لمَ شوشت كل شيء ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ من الذي رجاك ؟

صرخت هذه وقد استبد بها الغضب :

– وماذا كنت تريدين ان تعملي ؟ هل كنا نحبك من قبل عرضاً ؟ ماذا كان يمنعه من المجيء الى البيت ؟ لمَ يخطفك كالبوهيمية ؟.. واذا كان نجح في خطفك ، هل تعتقدين انهم ما كانوا ليقبضوا عليه ؟ سواء أكان ابوك ام اخوك ام خطيبك . انه حقير صعلوك ، هذا كل شيء !

صرخت ناتاشا وهي تنهض من جديد :

– انه خير منكم جميعاً ! لو انك لم تمنعوني ... آه ياربي ! لماذا ؟ لماذا ؟. سونيا ، ماذا عملت ؟... دعوني .

واستسلمت لذلك اليأس الذي لايحس بــه الا كل من يعرف انه نفسة سبب تعاسة نفسه ، وانفجرت تبكي بكاء عنيفاً . همت ماري دميترييفنا ان تسترسل ، لكن ناتاشا عادت الى الصراخ .

– اذهبوا عني ،اذهبوا عني ! انكم تكرهونني . جميعاً ، انكم تحقدون عليّ !

وانهارت من جديد على الاريكة .

استمرت ماري دميترييفنا تقرعها بعض الوقت ايضاً : كان يجب قبل كل شيء اخفاء المغامرة عن الكونت . ما كان احد ليعرف شيئاً شريطة ان احد ليعرف ريثاً شريطة ان تتعهد ناتاشا بنسيانه وان تتحاشى اظهار اضطرابها امام اي مخلوق كان . لم تجب ناتاشا . كفت عن النشيج لكن قشعريرات محمومة كانت تجتاح كل كيانها . وضعت ماري دميترييفنا وسادة تحت رأسها برفق وغطتها بغطائين وجاءتها بنفسها بنقيع الزيزفون، لكن ناتاشا ظلت محتفظة بسكون وحشي .

قالت ماري دميترييفنا وقد ظنت ان النوم استولى عليها :

-- هيا ، لندعها تنام .

وانسحبت . لكن ناتاشا لم تنم قط . ظلت هكذا خـــائرة القوى وهنه طول الليل لاتنام ولا تبكي ولا تخاطب سونيا بكلمة وهي التي نهضت مرات خلال الليل وجاءت تطمئن عليها .

وفي اليوم التالي ، وقت الغداء ، عاد الكونت ايليـــا اندريئيفيتش من حقله كما كان متفقاً . كان جدلا فرحاً لأن المسألة قد نجحت فلم يعد هنــاك مايبقيه في موسكو . بات يستطيع العودة الى كونتيسته العزيزة . لكن ماري دميتريفنا شرحت له على الفور ان ناتاشا سقطت مريضة مرضاً جدياً

امس ، وان الطبيب قد استدعي ، لكنها الآن احسن حـالاً . لبثت ناتاشا ذلك الصباح في حجرتها تعض شفتيها المنسلعتين وعينـاها شاخصتان جافتان : ظلت جالسة قرب النافذة تراقب المـارة في غدوهم ورواحهم وتلتفت منتفضة كلما دخل بعضهم الى غرفتها . كانت ولا شك تنتظر اخباراً « عنه » ظناً منها انه سيأتي او أنه سيكتب اليها على الاقل .

وعندما دخل الكونت ، انتفضت لدى سمعهـا خطوات رجل . لكنهـا عندما رأت أبيها ، عاد وجهها جامداً خبيثاً حتى انها لم تنهض لمقدمه . سألها :

— مابالك ياملكي ؟ أأنت مريضة ؟

اجابت بعد سكوت طويل :

— نعم .

قلق الكونت أشد القلق لحالة الوهن التي رآها عليها . فسألها عما اذا لم يقع شيء في علاقاتها مع خطيبها . أكدت له عكس ذلك ورجتـه ان لايعذب نفسه . أكدت له ماري دميترييفنا صدق توكيداتها ، لكن اضطراب ناتاشا ومرضها المصطنع ، وامارات سونيا وماري دميترييفنا الدالة على الارتباك ، جعلت الكونت يشك بوقوع حدث خطير . لكن مجرد الفكرة في مس شرف ابنته العزيزة كانـ يجفله . ثم انه كان شديد الحرص على هـــدوئه البسام حتى انه تحاش طرح الاسئلة مفضلا الاعتقاد بان ريبه لاتستند على اساس . لكنه كان يأسف لان ذلك المرض سبب تأخيره عن السفر الى الريف .

الفَصْلُ التّاسِعُ عَشَرَ

تدخل بيير

منذ ان وصلت زوجته الى موسكو ، فكر بيير في الرحيل الى اي مكان بقصد الخلاص من وجودها معه ، وبعد وصول آل روستوف بقليل ، عجّل الأثر العنيف الذي خلفته ناتاشا في نفسه في رحيله . فذهب الى تفير عند ارملة جوزيف الكسيئيفيتش التي وعدت منذ زمن طويل ان تعهد اليه باوراق المرحوم .

ما ان وصل عائداً الى موسكو حتى سُلمت اليه رسالة من ماري دميتريفنا ترجوه فيها ان يعرج على مسكنها قليلاً لتبحث معه في مسألة صغيرة هامة تتعلق بآندريه بولكونسكي وبخطوبته . كان بيير يتجنب ناتاشا لأنها توحي اليه على مايبدو ، شعوراً اعنف مما يجب ان يحس به رجل متزوج ازاء مخطوبة صديقه . مع ذلك فقد بدا كأن القدر يتصرف بمكر لذيذ فيتعمد الجمع بينهما .

فكر وهو يرتدي ثيابه ليذهب الى مسكن ماري دميتريفنا : « مـــاذا حدث اذن ؟ كيف يمكنني ان اكون نافعاً لهم ؟

وبينما هو في الطريق حدث نفسه : « ليعد آندريه بسرعة وليتزوجهـــا بأسرع مايمكن ! »

وفي جادة تفير ، استوقفه بعضهم . هتف به صوت معروف :

– بيير ! هل عدت منذ زمن طويل ؟

ومر « رهوانان » اشهبان يعدوان وهما يثيران في عدوهما زوبعة من الثلج على مقدمة الزحافة الانيقة التي يقطرانها . كان اناتول قابعاً في تلك الزحافة مع ماكارين الخالد . جلس اناتول فيها جلسة العسكريين المرحين الكلاسيكية وهو منصب الظهر يخفي اسفل وجهه في ياقته المصنوعة من فراء كاب الماء ورأسه ، مائل قليلاً ، كان نضير الوجه وردي اللون تتيح قبعته ذات الريشة البيضاء المائلة الى الجانب ، لجانب من شعره الأجعد المضمخ الذي انتثرت عليه طبقة خفيفة من الثلج بالظهور .

حدث بيير نفسه : « إه ! هوذا عاقل حقيقي ! انه لاينظر الى ابعد من بهجته الآنيه . ولما كان لايعرف الغم والهم ، فانه جذل ابداً سعيد وهادىء . انني اتخلى عن الشيء الكثير لا صبح مثله ! » وكان في اعترافه هذا لون من الغبطة .

في دهليز مسكن السيده اخروسيموف ، قال الخادم الذي نزع عن بيير فروته ان ماري دميترييفنا ترجوه ان يتفضل الى حجرة نومها .

وبينما هو يفتح باب البهو الكبير ، شاهد ناتاشا جالسة الى نافذة ووجهها ممتقع مهزول شرس . قطبت حاجبيها لدى رؤيته وانسحبت وهي تتصنع تحفظاً بارداً .

سأل بيير وهو يدخل حجرة ماري دميترييفنا :

– ماذا حدث ؟

– اشياء مريعه ! انني في الحياة منذ ثمانية وخمسين عاماً ولم ار مثل هذا الشيء الفاضح .

وبعد ان استحلفته كتمان السر ، اخبرت بيير ان ناتاشا قطعت علاقتها بخطيبها دون موافقة ابويها وان ذلك من جراء خطأ اناتول كوراجين الذي قدمته اليها زوجة بيير والذي تواطأت معه على الفرار اثناء غياب ابيها لتتزوج به سراً .

ظل بيير محدودب الظهر فاغر الفم لايصدق اذنيه . كيف ! ناتاشا مخطوبة الامير آندريه التي يحبها اعمق الحب ، روستوف اللذيذة تفضل عليه ذلك السفيه اناتول المتزوج من قبل - لأن بيير كان يعرف قصة زواجه السري - وتتدله بذاك الاحمق لدرجة موافقتها على ان يختطفها ! كلا ، ما كان بيير يطيق فهم ذلك حتى ولا تقبله .

ما كان يمكن للدناءة والغباء والقسوة ان تجتمع في عقله مع ذكرى تلك المخلوقة الرائعة التي يعرفها منذ طفولتها . فكر حينئذ بزوجته بالذات وحدث نفسه وهو يفكر في انه ليس الوحيد الذي يمتاز بالزواج من امرأة رديئة : « كلهن سواء ! » خلال ذلك ، شعر بغصص الدمع في حلقة لفرط انفعاله واضطرابه على مصير الأمير آندريه : كم سيجرح كبرياؤه ويتألم ! وبقدر ما كان اشفاقه على صديقه يتزايد ، كان شعور الاحتقار بل والحقد على ناتاشا هذه التي مرت منذ حين امامه متصنعة الكبرياء والترفع ، لكنه كان يجهل ان روح ناتاشا كانت غارقة في تلك اللحظة في اعماق الخجل واليأس وان تلك البرودة القاسية ما كانت الا قناعاً يختفي وجهها وراءه دون ان يكون لارادتها دخل في الموضوع .

هتف عندما بلغت ماري دميتريفنا هذا الحد :

- يتزوجها ! لكن هذا مستحيل ، انه متزوج من قبل .

- خير ! انه كامل ، الفتى ! انه سافل كامل ! وهي تنتظره ، منذ يومين

وهي تنتظره . على الاقل ، سوف تكف عن الانتظار ، ينبغي اخطارها .

وبعد ان اطلعت على تفاصيل زواج آناتول وفتأت غضبها بسباب عنيفة قالت ماري دميتريفنا لبيير السبب الذي دعته من اجله . انها تخشى ان يطلع الكونت او بولكونسكي الذي باتت عودته قريبة منتظرة ، على المغامرة التي قررت اخفاء امرها ، فيدعوان اناتول الى المبارزة . لذلك ترجو بييران يطلب باسمه الى كوراجين هذا ان يغادر موسكو وان لايعود الى الظهور امامها .

وبعد ان وعى بيير الخطر الذي يهدد الكونت العجوز ونيكولا والاميرآندريه معاً ، وعدها بأن يعمل وفق ارشادلتها . وبعد ان شرحت له ماري دميتريفنا بكلمات موجزة مختصرة ماتنتظره منه ، ارسلته الى البهو . قالت له :

ـ ولكن انتبه جيداً . ان الكونت لايعلم شيئاً . تظاهر بالجهل . خلال ذلك ساخطرها انه ليس لديها ماتنتظره ...

وبعد ان انصرف ، هتفت في اعقابه متممة :

ـ وابق لتناول الغداء اذا راق لك ذلك .

رأي بيير في البهو ، الكونت العجوز منقلب السحنة . لقد اطلعته ناتاشا منذ حين على انها فصمت خطوبتها الى بولكونسكي . قال له :

ـ آه ياعزيزي ! انها مصيبة حقيقية عندما تكون البنية بعيدة عن امها ! كم انا نادم على رحلتي هذه ! ساكون صريحاً معك . هل تصدق ؟ لقد قطعت علاقتها ببولكونسكي دون ان تستشير احداً . والحقيقة ان هذا الزواج لم يفتني قط : انه بكل تأكيد شاب مستقيم . لكنه لايمكن ان يكون سعيداً اذا تجاوز مشيئة ابيه : ثم ان ناتاشا لاتشكو قلة الراغبين في زواجها . لكن هذا طال منذ أمد بعيد ثم كيف استطاعت ان تتصرف مثل هذا التصرف دون ان تتفوه بكلمة لابيها او لامها ! وهاهي الآن مريضة ، والله يعلم مابها !.. . آه ! يالالتعاسة ياكونت ، عندما تكون الفتيات بعيدات عن امهن ،

ولما لاحظ بيير اضطراب الكونت ، حاول عبثاً ان يديردفة الحديث . كان العجوز يرجع ابداً الى مشاغله .

ظهرت سونيا على عتبة البهو مغتمة . قالت :

— ان ناتاشا في صحة سيئة وهي في غرفتها تريدرؤيتك. ان ماري دميتريفنا هناك معها وهي ترجوك كذلك ان تحضر .

قال الكونت :

— صحيح ، انك صديق حميم لبولكونسكي ، لعلها تريدان تحملك رسالة ما اليه ... آه ايا الهي ! ياالهي ، لقد كان كل شيء على مايرام !

وانسحب الكونت وهو يجذب شعيراته الشهباء النادرة .

كانت ماري دميتريفنا قد اطلعت ناتاشا على قصة زواج انا تول ، فلم تصدق ناتاشا وسألت الكونت ان يؤكد لها ذلك هذا ما اطلعت سونيا بيير عليه اثناء مرافقتها له عبر المماشي .

كانت ناتاشا جالسة بجانب ماري دميتريفنا وهي دائمة الامتقاع والشراسة : وما ان ظهر بيير على عتبة الباب حتى سألته بنظرة محمومة . لم تبتسم له ولم تومىء برأسها . لم تبد نحوه الا تلك النظرة ، وتلك النظرة كانت تعني : هل هو صديق لآ ناتول ام عدوله كالآخرين ؟ اما بيير نفسه ، فلاشك انه ما كان يشغل حيزاً في تفكيرها .

قالت ماري دميتريفنا لناتاشا وهي تشير الى بيير :

— انه يعرف كل شيء .

اجالت ناتاشا الطرف من وجه الى آخر اشبه بالحيوان الحبيس الذى يرى الكلاب والصيادين محيقين به يقتربون .

شرع بيير يقول وهو مطرق برأسه لانه كان يحس بحنان عميق نحوها وباشمئزاز عنيف للعمل التي قامت به :

ـ ناتالي ايلينيتشنا ، ناتالي ايلينيتشنا ، لا يهمك ان يكون ذلك صحيح ام لا طالما ان ...

ـ اذن ، انه ليس صحيحاً انه متزوج ؟

ـ بل انه متزوج .

ـ انه متزوج ، ومنذ متى ؟ اتقسم بشرفك ؟

اقسم لها بيير بشرفه . سألته بعنف ؟

ـ الا يزال هنا ؟

ـ نعم ، لقد رأيته منذ حين .

لم تقو على متابعة الحديث فأشارت لهم بيدها ان يخرجوا .

* * *

الفصل العشرون

تصرف بيير

انسحب بيير لفوره دون ان يوافق على البقاء لتناول طعام الغداء . مضى يبحث عن اناتول كوراجين الذي بات اسمه وحده يكفي لرد الدماء الى قلبه وبهر انفاسه . وبعد ان بحث عنه عبثا في « الجبـال » وعند البوهيميين وعنـد جومونينو ، ذهب الى النادي . وهناك كان كل شيء يسير وفق مألوف العادة . والاعضاء الذين توافدوا لتناول الغداء كانوا جالسين جماعات جماعات يتحدثون فيما بينهم ، فتبادلوا مع بيير التحياة المناسبة . جاء خادم عليم بطبائعه ، يعلمه وهو ينحني امامه ، ان مكانه محجوز في قاعة الطعـــام الصغرى وان الامير « ن . ن . » موجود في المكتبة وان « ت . ت » لم يصل بعد : سألته احدى معارفه اثناء حديثها عن المطر والطقس الجميل ، عما اذا كان بلغه شيء عـــن اختطاف الآنسه روستوف من قبل كوراجين وهل هـذه الشائعـة التي باتت تسري في المدينة حقيقية ام لا ؟ اجابها بيير وهو يضحك انها محض اختلاق لأنه خرج لتوه من لدن آل روستوف . ولما راح يستفسر عن اناتول من زملائه ، اخبره احدهم بأنه لم يحضر بعد وأكد له آخر انه سيأتي لتناول الغداء . اخذ بيير يتأمل هذه الجماعة من الاشخاص الهادئين اللامبالين الذين ما كانوا يخمنون مايدور

في خلده بشعور غريب . تنزه بعض الوقت في الأبهاء . لكنه لما رأى ان كل المواظبين على النادي قد حضروا ماعدا اناتول ، امسك عن تناول الطعام وعاد الى مسكنه .

اما آناتول الذي كان بيير يبحث عنه ، فقد كان يتناول طعامه ذلك اليوم عند دولوخوف ويستشيره عن الوسائل الكفيلة بمعالجة الأمر الفاشل . خيل اليه ان مقابلة جديدة مع الآنسة روستوف ، ضرورية لازمة . وعلى ذلك فقد مضى ذلك المساء الى نزل اخته ليسألها تدخلها : ولما عاد بيير الى مسكنه بعدان جاب نواحي موسكو عبثاً ، اعلمه الخادم انالأمير آناتولفاسيليفيتش عند الكونتيس . وكان بهو هذه غاصاً بالناس .

ودون ان يحيي زوجته التي لم يرها منذ عودته ، لأنها اصبحت في تلك اللحظة مكروهة منه اكثر من اي وقت مضى ، دخل بييرالى البهو فلمحاناتول ومضى اليه مباشرة .

قالت الكونتيس وهي تقترب :

– آه ! بيير ، انك لاتدري في اي موقف القى اناتولنا بنفسه فيه ..

قطعت جملتها وهي ترى في رأس زوجها المطرق وعينيه الملتمعتين ومشيته الحازمة اشارات مخيفة تدل على الغضب الذي خبرت نتائجه بعد المبارزة مع دولوخوف .

قال بيير لزوجته :

– اينما تكونين ، لاتكون الا الجرائم والعجوز .

واضاف بالفرنسية محدثاً اناتول :

– اناتول ، تعال ، يجب ان اكلمك .

وبعد ان القى اناتول نظرة الى اخته نهض بوداعه وتبع بيير . امسكه هذا بذراعه وجره خارج البهو . همت هيلين ان تدخل . غمغمت :

– اذا سمحت لنفسك في بهو مسكني ...

لكن بيير خرج دون ان يدعها تتم كلامها .

تبعه اناتول بخطواته المتينة لكن تقاسيم وجهه اكتست بالقلق .

اغلق بيير باب مكتبه وراءه وقال له فجأة دون ان ينظر اليه :

– لقد وعدت الكونتيس روستوف ان تتزوجها وكنت تريد اختطافها ؟

اجاب اناتول بالفرنسية وهي اللغة التي دار كل هذا الحديث بها .

– ياعزيزي ، لااظنني مضطراً على الاجابة على اسئلة تطرح علي بهذه اللهجة .

شوه الغضب وجه بيير المتقع من قبل فأمسك بيده العريضة اناتول من ياقته وهزه في كل اتجاهات حتى اكتسى وجهه برعب كاف . كرر بيير :

– اقول لك انه « يجب » ان اكلمك .

قال آناتول وهو يتلمس على ياقته زراً اقتلعه بيير مع قطعة من القماش :

– ولكن ، ان هذا مخالف للصواب !

هتف بيير بلهجة تعظيم اضطره اليها استعمال اللغة الفرنسية :

– انك احط الصعاليك . لست ادري ماذا يوقفني عن تحطيم رأسك بهذه !

وامسك بالثقل الذي يضعه على اوراق فوق المكتب ورفعه مهدداً ثم عاد فوضعه .

– هل وعدتها بالزواج ؟

– كلا على ما اعلم . ثم كيف يمكنني صرف مثل هذا الوعد طالما ...

كرر بيير وهو يسير اليه :

– ألديك رسائل منها ؟ هل لديك رسائل ؟

نظر اليه آناتول ثم بحث على الفور في جيبه واخرج حافظة اوراقه .

اخذ بيير الرسالة التي قدمها اناتول اليه ودفع مائدة كانت تعوق طريقه ثم انهار على الاريكة .

قال جواباً على حركة جزعة من اناتول :

ــ لن اكون قاسياً ، لاتخش شيئاً .

وتابع وكأنه يتذكر درساً حفظه :

ــ الرسائل و ... ــ وبعد سكتة قصيرة استأنف وهو يذرع الحجرة ــ والشيء الآخر ، يجب ان تغادر موسكو منذ الغد .

ــ ولكن كيف استطيع ؟ ...

اردف بيير دون ان يصغي اليه :

ــ وفي المقام الثالث ، يجب ان لاتنبس بكلمة واحدة الى كائن من كان عما وقع بين الكونتيس وبينك . ان هذا لااستطيع ان امنعك عنه ، وانا اعرف ذلك . لكنه اذا بقي لديك بصيص من الوجدان .

توقف عن الحديث واستمر في تجواله صامتاً ، بينماجلس اناتول الى المائدة وقطب حاجبيه وراح يعض شفتيه .

ــ لقد آن الوقت لتعرف ان خارج حدود لذائذك المفضلة يقوم شرف الآخرين وراحتهم وانك تدمر وجوداً بكامله في غمار تسليتك. تسلَّ ماشئت مع النساء اللواتي من نوع زوجتي : انهن يعرفن ما تريده منهن وهن مسلحات ضدك بتجارب العجوز نفسها التي انت متسلح بها . اما ان تعد فتاةبالزواج ... ان تخدعها ... ان تغرر بها ... الا تفهم انها نذالة ان يضرب المرء كهلاً اوطفلاً ؟

توقف بيير وراح يسأل اناتول بنظرة اختفى منها الغضب . قال اناتول وهو يستعيد جرأته كلما استعاد بيير هدوءه ؟

ــ هذا ما لا اعرفه . هذا ما لااعرفه ولا اريد معرفته .

ثم الح وهو يتصفحه وقد صدرت عن ذقنه حركة عصبية :

ــ لكنك قلت لي اشياء مهينة واستعملت كلمة « نذل » وكلمات اخرى، تجعلني بوصفي رجلاً شريفاً لا اسمح لأحد بقولها .

لم يفقه بيير الى اي هـــدف يرمي اخو زوجته ، فراح يتأمله بدهشة .
استرسل اناتول :

– وعلى الرغم من ان هذا قيل في خلوة ، فانني لااستطيع مع ذلك ...

قال بيير بلهجة ساخرة :

-- اظن انك تطلب ترضية مني ؟

– يمكنك على الاقل ان تصحح عباراتك على ما اظن اذا شئت ان اتصرف وفق رغباتك ، هِنْ ؟

قال بيير وهو ينظر بالرغم عنه الى الزر المنزوع :

– ليكن . انني اسحب اقوالي وارجوك ان تعذرني . بل حتى اذا كنت في حاجة الى المال للسفر ...

علت شفتي اناتول ابتسامة أسخط تعبيرها الوضيع الوجل بيير . لقدشاهد مثلها على شفتي زوجته . هتف :

– يا للعنصر الدنيء عديم القلب !

وترك آناتول الذي سافر في اليوم التالي الى بيترسبوج مشدوها في مكانه .

الفصل الحادي والعشرون

عودة الامير آندريه

عاد بيير عند ماري دميتريفينا ليبلغها ان رغبتها قد نفذت : لقد ترك كوراجين موسكو . وجد في البيت حركة غير طبيعية : كانت ناتاشا مريضة جداً . اطلعته ماري دميتريفنا – بشرط ان يكتم السر – على ان ناتاشا شربت « الارسنيك » الذي حصلت عليه بالسر في ذات اليوم الذي احيطت فيه علماً بنبأ زواج اناتول . مع ذلك ، فانها ، لم تكد تبتلع السم بكمية قليلة حتى ايقظت سونيا واعترفت لها بفعلتها اتخذت اجراء حاسمة في حينها فانقذت حياتها . لكنها لاتزال في حالة من الضعف لايمكن معها ان تنقل الى الريف لذلك فقد ارسلوا يطلبون الكونتيس . قدم بيير واجباته للكونت الذي كان في منتهى الوهن ولسونيا التي كانت غارقة في دموعها . لكنه لم يستطع رؤية ناتاشا .

تغدى ذلك اليوم في النادي . ولما كان اختطاف الآنسة روستوف الذي لم يتم ، موضوع كل الاحاديث ، فقد اعلن تكذيب النبأ بشدة مؤكداً ان هذه الاشاعات مبعثها طلب زواج سخيف تقدم به اخو زوجته . قدر بيير ان من واجبه ان ينقذ سمعة الآنسة روستوف بهذه الاكذوبة .

انتظر بهول وصول الأمير آندريه ، فكان يمضي كل يوم يتزود بالاخبار عنه

من الأمير العجوز . وكانت الآنسة بورين قد اطلعت هـذا على كل الشائعات التي راجت مؤخراً في المدينة وكذلك كان قـد اطلع على الـكلمة التي كتبتها ناتاشا الى ماري تحل الامير آندريه من وعده ، فكان اكثر ابتهاجاً من عادته يتلهف الى عودة ابنه بنفاذ صبر .

وبعد ايام قليلة على رحيل اناتول تلقى بيير كلمة من الامير آندريه يعلمه فيها بنبأ عودته ويرجوه ان يزوره في منزله .

سرقت الانسه بورين رسالة ناتاشا الى ماري من هذه الاخيرة واعطتها للأمير العجوز . فبادر هذا الى اطلاع ابنه عليها وهو لما يصل بعد ، وقص عليه بالتفصيل كل الشائعات الرائجة حول اختطاف ناتاشا .

هرع بيير منذ صباح اليوم التالي الى منزل صديقه . كان يتوقع ان يجده في حال قريب من حـال ناتاشا لكنه - لدهشته - سمع من البهو صوت آندريه المجلجل ينبعث من مكتب ابيه وهو يقص بحماس دسيسة بيترسبورجية . كان الامير العجوز وشخص آخر يقاطعانه من حين الى آخر . جاءت الأميرة ماري تستقبل بيير . اطلقت زفرة وهي تشير بنظرها الى باب المكتب ولاشك انها ارادة بتلك النظرة ان تعبر عن مدى رثائها لأخيها . لكن بيير لاحظ بوضوح انها راضية تماماً عن خيانة ناتاشا وعن الطريقة التي استقبل بها اخوها النبأ أكدت

– لقد قال انه كان يتوقع ذلك . لاشك ان كبرياءه لايسمح له ان يطلق العنان لعواطفه . لكنه على كل حال يحتمل الأمر افضل ، افضل بكثير مما كنت اظن ...

قال بيير :

– ولكن ، هل الانفصام حقيقي كامل حقاً ؟

نظرت اليه ماري بذهول : ما كانت تعتقد ان مثل هذا السؤال جدير بان يطرح .

دخل بيير الى المكتب . رآى الامير آندريه جالساً امام ابيه والأمير ميشتشيرسكي في ثياب مدنية ، يناقش بحرارة ويحرك ذراعيه بنشاط. تبدل تبدلاً كبيراً ، وبدا في صحة افضل . لكن غضناً جديداً جاء يقطع جبينه بين حاجبيه . كانوا يتحدثون عن خبر الساعة : نفي سبيرانسكي وخيانته المزعومة كان آندريه يقول :

– ان كل ما كان منذ شهر يرفعه فوق السحب ، رجمه اليوم بالحجر الأول انهم الآن ينضمون الى اولئك الذين كانوا عاجزين عن فهم خططه ومراميه ان من السهل جداً الحكم على رجل مغضوب عليه وتحميله اخطاء الآخرين كلها. حسناً ! انني ازعم اذا حصل شيء نافع في هذا العهد فان الفضل فيه يعود اليه ...

توقف لدي رؤية بيير وانتفض وجهه ثم اتخذ على الفور سمة خبيثة. اعقب :

– ولسوف تنصفه الاجيال القادمة .

ثم التفت الى بيير وقال بحماس بينما ازداد غضن جبينه بروزاً :

– حسناً كيف حالك ؟ انك تسمن باضطراد

واجاب على سؤال لبيير حول صحته بابتسامة مريرة :

- نعم ان صحتي جيدة .

فسر بيير تلك الابتسامة بما يلي : « نعم ، ان صحتي جيدة ، ولكن ما من احد يشغل باله بصحتي . »

وبعد ان تبادل مع صديقه بضع كلمات عن حالة الطرق المريعة اعتباراً من الحدود البولونية ، وعن معارف بيير الذين التقى بهم في سويسرا ، وعن المدعو السيد ديسّال الذي جاء به من الخارج ليشرف على تثقيف ولده ، عاد آندريه يتدخل بحماس جديد في المحادثة المستمرة بين الشيخين .

قال بحمية عميقة :

ـ اذا كانت هناك خيانة أو كانت هناك ادلة على تواطؤ سبيرانسكي مع نابوليون ، فانها كانت ستعلن رسمياً . انني لاأحب سبيرانسكي ولم احببه قط. ولكن يجب ان يكون المرء عادلا .

تعرف بيير على بادرة لم يرها تظهر على صديقه غالبا من قبل ، الا وهي الحاجة الى الحركة والاندفاع في مناقشات شائكة بقصد نسيان افكار شخصية شديدة الايلام .

بعد ذهاب الأمير ميشتشيرسكي ، اخذ آندريه صديقه بيير من ذراعه وقاده الى الحجرة التي خصصت له . كان هناك سرير قائم وحقائب وصناديق مفتوحة تضيق بها الغرفة . انحنى آندريه على احدها وامسك بصندوق صغيرة اخرج منها حزمة ملفوفة بالورق . قام بذلك بسرعة كلية ودون ان ينطق بكلمة ، ثم استوى وهو يسعل سعالاً خفيفاً ووجهه كالح وشفتاه مضمومتان بعنف

ـ اعذرني لازعاجي لك ...

فهم آندريه انه يريد ان يحدثه عن ناتاشا فازداد انفعاله خصوصاً عندما رآى وجهه مطبوعاً بالتحنن . قال بصوت قاس ومنفر :

ـ ان الكونتيس روستوف قد سحبت كلمتها . بل انني سمعت ان اخازوجك طلب يدها او شيئاً من هذا القبيل ...

هم بيير ان يقول مفسراً :

ـ هذا صحيح دون ان يكونه ...

لكن آندريه قاطعه قائلًا :

ـ هاهي رسائلها وصورتها .

واخذ عن المائدة الحزمة الملفوفة ومدها الى بيير وقال :

ـ اعد هذه الى الكونتيس عندما تقابلها .

ـ انها مريضة جداً .

فقال آندريه بحدة :

- آه ! انها لاتزال هنا ؟ والأمير كوراجين ؟

ـ لقد رحل منذ زمن ... لقد كانت مشرفة على الموت ...

قال آندريه بابتسامة باردة خبيثة تذكر بابتسامة ابيه :

ـ ان مرضها يؤلمني أشد الألم . ولا شك ان السيد كوراجين لم يجدها جديرة بالزواج منه ؟

قال بيير :

ـ ما كان يستطيع الزواج منها لأنة متزوج من قبل :

تهانف آ ندريه كأبيه تماماً :

ـ وهل استطيع ان اعرف اين هو الآن السيد اخو زوجتك ؟

ـ لقد ذهب الى بيتر ... في الحقيقة لست ادري شيئاً عن مكانه .

استأنف آ ندريه :

ـ ذلك غير مهم على كل حال . قل عن لساني للكونتيس روستوف انها كانت من قبل وستظل دائماً . اتمنى لها كل السعادة الممكنة .

اخذ بيير حزمة الرسائل فسأله آندريه بنظره وكأنه تذكر ان لديه شيئاً لم يقله بعد او كأنه كان ينتظر ان يقول بيير شيئاً . قال هذا :

اصغ الي ، انك ولا شك لم تنس نقاشنا في بيترسبورج . تذكر ...

فبادر آ ندريه يجيب :

ـ انني اذكر . قلت لك حينذاك انه يجب ان يُغفر للمرأة التي سقطت . لكنني لم اقل لك انني استطيع ان اغفر لها . انني لا استطيع الصفح .

قال بيير :

ـ هل يمكننا المقارنة ؟

لكن آ ندريه قاطعه صائحاً بلهجة حادة :

ـ نعم ، أليس ان اطلب يدها من جديد وان ابرهن عن مروءتي وشهامتي واشياء اخرى من هذا القبيل ... لاشك انذلك اية في النبل . لكنني لااشعر بقدرتي على السير فوق بقايا حطام السيد... اذا كنت تريد الابقاء على صداقتي، فلا تحدثني بعد اليوم ابداً عن هذه ... ، عن كل هذا . والآن ، الوداع . اقد اتفقنا ، ، سوف تعيد اليها ...

عاد بيير ليقابل الأمير العجوز وابنته .

بدا العجوز اكثر تيقظاً من عادته ، لكن ماري كانت على حالها . بيد ان بيير لاحظ انها رغم رثائها لحال اخيها ، كانت مغتبطة لاخفاق الزواج . فهم وهو يراقبها ، مبلغ الاشمئزاز الذي يعمر به قلبها حيال آل روستوف وأحس انه لايمكن بعد الآن ان يُنطق باسمهم في حضرتها، اسم تلك التي استطاعت ، لأي دافع كان ، ان تخون الأمير آندريه .

تحدثوا عن الحرب خـــلال تناول الطعام ، الحرب التي بدت وشيكة الاندلاع . امسك آندريه بدفة الحديث وراح يتناقش سواء كان مع ابيه او ديسال مثقف ابنه السويسري . بدا اكثر نشاطاً من عادته ، وكان بيير يعرف اكثر من سواه سبب ذلك الحماس .

★ ★ ★

الفَصْلُ الثّاني وَالعُشْرون

غفران وحب

في ذلك المساء بالذات ، مضى بيير الى منزل آل روستوف لينفذ مهمته .
كانت ناتاشا في السرير والكونت في النادي . اعطى بيير الرسائل الى سونيا وذهب الى غرفه ماري دميترييفنا التي كانت تريد ان تعرف كيف استقبل الامير آندريه النبأ . وبعد عشر دقائق ، جاءت سونيا تلحق به . قالت :

ـ ان ناتاشا تريد رؤية الكونت بيير دون تأخير .

اعترضت ماري دميتريفنا قائلة :

ـ هل يمكن حقاً اخذه الى غرفتها ؟ ان كل شيء فوضى مخيفة .

قالت سونيا :

ـ انها مرتدية ثيابها تنتظر في البهو .

هزت ماري دميتريفنا بكتفيها باستسلام . قالت توصي بيير :

ـ متى ستصل الكونتيس أخيراً ؟ انني ما عدت احتمل ... حاذر ان تقول لها كلمة . لايجد المرء الشجاعة على توبيخها ، انها تستدر الشفقة .

وقفت ناتاشا وسط البهو جامدة وهي شاحبة الوجه مهزولة كئيبة ولكن ـ ولدهشة بيير الكبيرة ـ في غير خجل : فلما ظهر على العتبة ، انتابها اضطراب معين : ترددت بين ان تتقدم نحوه وبين ان تنتظره .

اسرع بيير الخطى . ظن انها ستمد اليه يدها كعادتها . لكنها بعد ان تقدمت نحوه ، توقفت مقهورة متدلية الذراعين واتخذت مثل تلك الوقفة التي اعتادت عليها من قبل ، حينما كانت تتوسط قاعة الرقص لتغني . لم يتغير فيها الا امارات وجهها .

شرعت تقول بصوت لاهث :

بيير كريلوفيتش ، ان الأمير بولكونسكي صديقك .

ثم صححت قولها وقد بدا لها ان كل شيء يخص الماضي وحده :

انه لايزال صديقك . لقد قال لي من قبل ان اتصل بك ...

كان بيير يصغي اليها مبهور الانفاس . لقد اثقلها حتى تلك اللحظة باللوم والتعنيف في سره ، بل انه قرر ان يحتقرها . اما الآن ، فعلى العكس ، لقد اخذت الشفقة تتسرب الى قلبه طاردة كل فكرة ذم .

انه هنا . قل له ... ان يـ ... يصفح عني .

توقفت لاهثة ولكن جافة العينين . قال بيير :

نعم ، ساقول له . لكن ...

ولم يدر ماذا يضيف .

قالت ناتاشا بحدة وقد روعتها الفكرة التي قد تكون مرت برأس بيير :

اوه ! انني اعرف ان كل شيء قد انتهى .. انتهى الى الابد .. ان ما يعذبني هو الألم الذي سببته له . قل له فقط انني اتوسل اليه ان يغفر لي ، ان يغفر لي كل شيء ...

واكتسحت كيانها كله رعدة عصبية ، فمضت تتهالك على كرسي .

اجتاحت الشفقة قلب بيير بكل تأكيد . لم يشعر قط من قبل بشيء من هذا القبيل .

- ساقول له ذلك ، سأقول له كل شيء ذات مرة ... لكنني ... وددت ان

اعرف شيئا...

سألته نظرة سونيا : «ان تعرف ماذا ؟ »

- وددت ان اعرف ماذا كنت احببت - وارتج عليه فلم يعد يعرف كيف يصف اناتول بل ان وجهه احمر لمجرد التفكير فيه - ... اذا كنت احببت ذلك الرجل المنحط ؟

قالت ناتاشا :

لاتسمه هكذا . لست ادري شيئاً ، لم اعد ادري شيئاً ...

وانخرطت في البكاء . اعتلج شعور بالاشفاق والحنو والحب في نفس بيير واحسّ بالدموع تنبسق تحت نظارتيه فراح يوحي ان لا تلاحظها . قال :

لنكف عن البحث في هذا ياصديقتي .

اثر ذلك الصوت الرقيق الحاني المضطرب في نفس ناتاشا فجأة .

لنكف عن البحث ياصديقتي . سوف اقول له شيئاً اطلب اليك فقط ان تعتبريني بعد الآن صديقك . فاذا احتجت الى مساعدة او نصح او اذا اردت تنفثي عما في نفسك - ليس الآن ، ولكن عندما تجدين ان كل شيء قد عاد واضحاً في سريرتك - تذكريني .

وامسك بيدها وقبلها ثم قال :

انني سعيد لأنني استطيع ...

واضطرب بيير . هتفت ناتاشا :

لاتحدثني هكذا . انني لااستحق ذلك .

وارادت ان تنصرف . لكن بيير استوقفها . كان يعرف ان في نفسه شيئاً آخر يقوله . لكنه ماكاد ينطق بما اراد حتى ادهشته كلماته . قال لها :

- لاتقولي هذا . ان امامك عمراً كاملاً .

اجابت وهي تحاول ان تنقص من قيمة نفسها :

– ؟ انا كلا . لقد ضاع كل شيء .

ضاع كل شيء ؟ اتظنين ؟ حسنا ! لو انني كنت ما انا ، لو كنت اجمل واذكى وافضل الرجال ، لو كنت مالكاً حريتي ، لما ترددت لحظة عن الركوع امامك طالباً يدك وحبك .

ذرفت ناتاشا لأول مرة منذ أيام طويلة ، دموع التحنان والشكران . شكرته بنظرة وخرجت .

خرج بيير كذلك ، او على الاحرى فرّ حتى بلغ الدهليز وهو يمسك دموع السعادة التي كانت تخنقه . ارتدى فروته كيفما اتفق وصعد الى زحافته . سأله الحوذي :

اين يجب الذهاب الآن ؟

تساءل بيير : « اين يمكنني ان اذهب؟ الى النادي؟عند اصدقاء؟مستحيل . »

بدا له كل شيء شديد الحقارة والتفاهة بالنسبة الى ذلك الشعور بالحنان والحب الذي استسلم له ، بالنسبة لنظرة العرفان تلك التي منحتها له خلال دموعها! قال :

الى البيت .

وعلى الرغم من درجات البرد العشر ، فقد ازاح فروته المصنوعة من جلد الدب عن صدره العريض وراح يتنفس بجذل .

كان وقت صقيع جميل والسماء الداكنة المزروعة بالنجوم ، تنبسط فوق الشوارع القذرة نصف المعتمة وفوق السقوف المظلمة . ماكان غير تأمل هذا السماء الرائق ، ينسي بيير دناءة الاشياء البشرية اذا قورنت بالسمو الذي بلغته روحه . وعندما وصل الى ساحة «آربات » انحسر امام عينيه فراغ كبير من القبة المنجمة . وفي كبد السماء ، فوق جادة بريتشيستنكي تماماً ، وسط موكب من النجوم امتاز عنها بضيائه الابيض وتجاوره الاكبر وذيله الطويل المرتفع عند

طرفه ، ظهر المذنب الكبير اللامع ، مذنب عام ١٨١٢ ، الذي زعموا انه ينبىء بالاهوال الكثيرة بل وبانتهاء العالم . لكن تلك النجمة الهائلة المشعة ذات الذنب المضيء ، لم توقظ في نفس بيير أي رعب . بل على العكس ، راح يتأملها فرحاً بعينيه المخضلتين بالدموع : بدت كأنها بعد ان قطعت مسافة يستحيل قياسها بسرعة لا حد لها حسب خط المجاز ، انغرست فجأة في المكان الذي انتقته في تلك السماء المعتمة كما يغرز السهم في الارض ، وظلت هناك تنفش ذنبها وتذبذبت اضواء نورها الابيض بين نجوم متألقة لاتحصي . فكان بيير يجد علاقة غامضة بين بهاء هذا الكوكب وبعث روحه المتعطفة المتفتحة لحياة جديدة .

انتهى المجلد الثاني ويليه المجلد الثالث

من منشورات

سلسلة عيون الأدب العالمي

1 ـ الأم .. مكسيم جوركي
2 ـ المؤلفات الكاملة .. أنطون تشيخوف
3 ـ تولستوي .. ستيفان زفايج
4 ـ روائع من الأدب الالماني
5 ـ نيتوتشكا .. فيدور دستويفسكي
6 ـ قوي كالموت .. جي دهموباسان
7 ـ الاخوة كرامازوف .. فيدوردستويفسكي
8 ـ الساقطون .. مكسيم جوركي
9 ـ عقل وعاطفه .. جين أوستن
10 ـ بين جوركي وتشيخوف .. مراسلات
11 ـ إبنة الضابط .. ألكسندربوشكين
12 ـ حياة صاخبة .. جي دهموباسان
13 ـ حب وحرب .. رومان رولان
14 ـ الجريمة والعقاب . فيدوردستويفسكي
15 ـ بين الناس .. مكسيم جوركي
16 ـ الساعة الخامسة والعشرون .. كونستانتان جيورجيو
17 ـ النفوس الميتة .. نيقولاس جوجول
18 ـ مرتفعات ويذرنج .. أميلي برونتي
19 ـ روائع من الأدب السوفييتي
20 ـ الحرب والسلم .. ليوتولستوي
21 ـ سقوط باريس .. إيليا إهرنبورغ
22 ـ العاصفه .. إيليا إهنبورغ

مفكرو الثورة الالمانية . . .
إدمون فرمي

القادة السوفييت يتحدثون . . .
سيريل كالينوف

أثر التسلح . . . . . . الجنرال فوللر

تاريخ الثورة الروسية

* * *

ديوان إيليا أبو ماضي

مشاكل العالم العربي .. محمد عزة دروزة

* * *

ستة وعشرون رجلاً وفتاة . . .
مكسيم جوركي

بتهوفن . . رومان رولان

في سبيل السلام

في أميركا . . مكسيم جوركي

المركيزة . . جورج صاند

ليرمنتوف . . . الدكتور فؤاد أيوب

أوسكار وايلد . . قصص

تحت الطبع

رأس المال . . . . . كارل ماركس

أنتي دوهرنج . . . . فريدريك إنجلز

الدعوة الاسماعيلية . . مصطفى غالب

المادية والمذهب النقدي التجربي
لينين

الماركسية أم الوجودية ؟
جورج دوكاس

بؤس الفلسفة . . . . . كارل ماركس

مبادىء أساسية في الأقتصاد السياسي . .
جان بابي

الملهاة الالهية . . . . دانتي

عالم الأمس . . . . ستيفان زفايج

جدلية الطبيعة . . . . . فريدريك إنجلز

مبادىء اساسية في الفلسفة . . . .
جورج بوليتزر

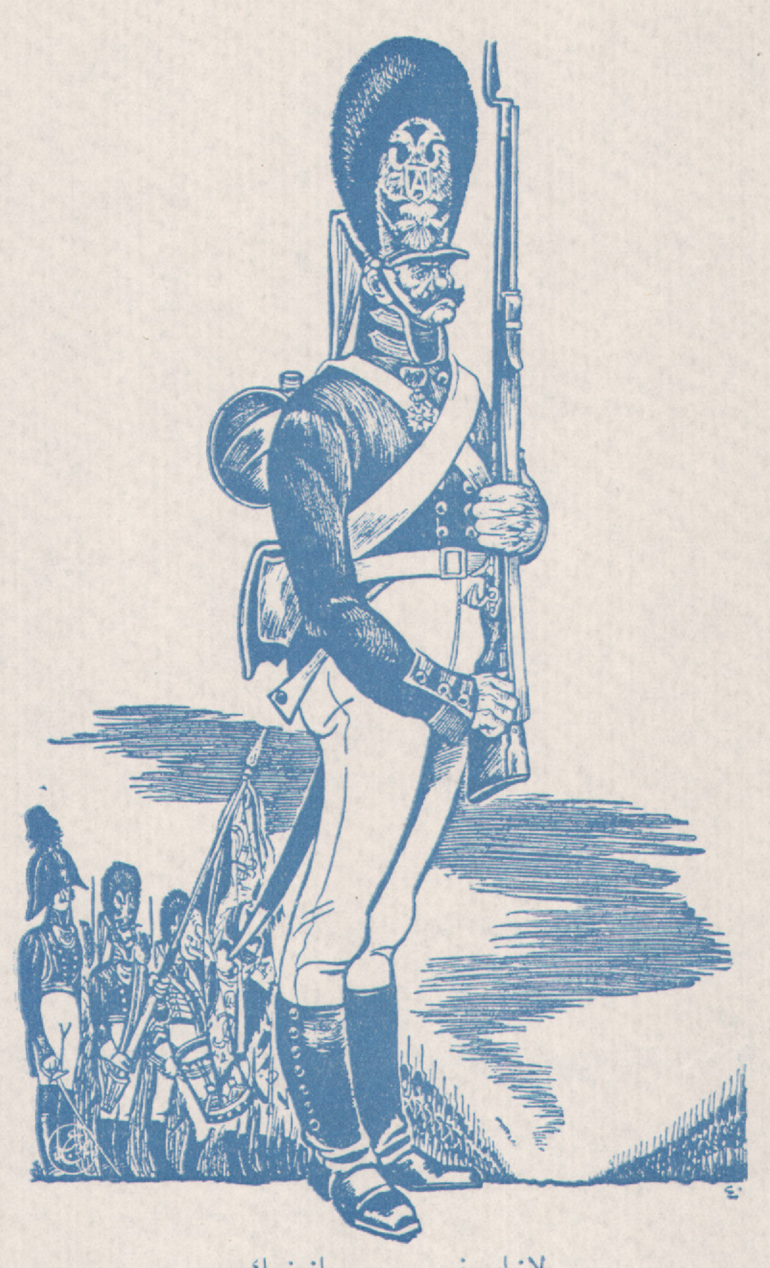




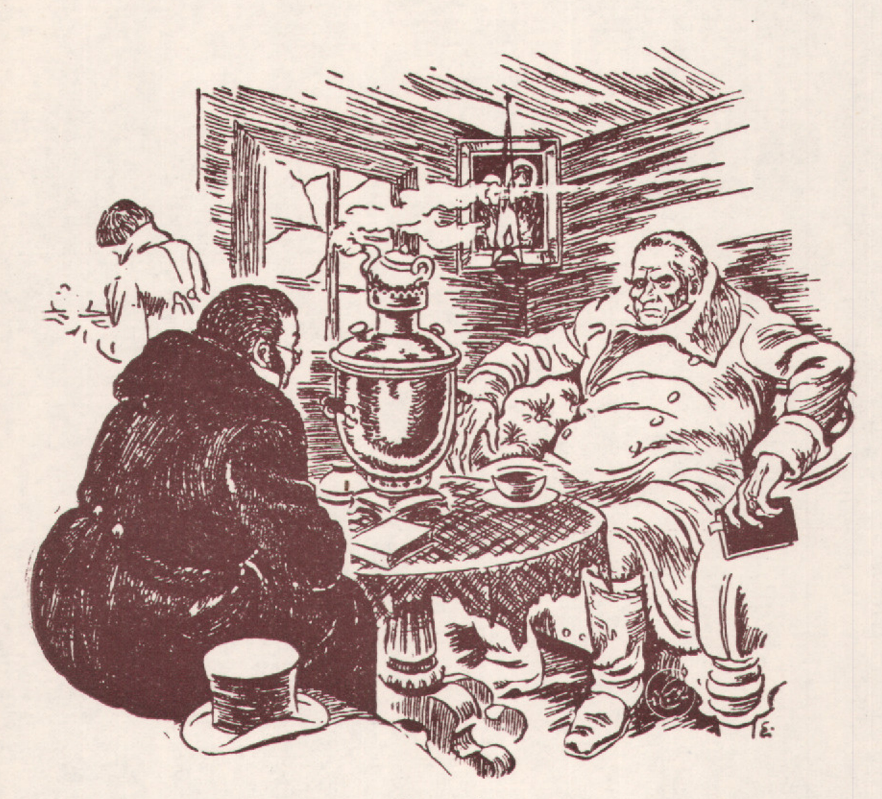
الأمير بطرس



نيقولا في بيته



لازاروف من بريوبرازينسك



بيير يلتقي ببازديف

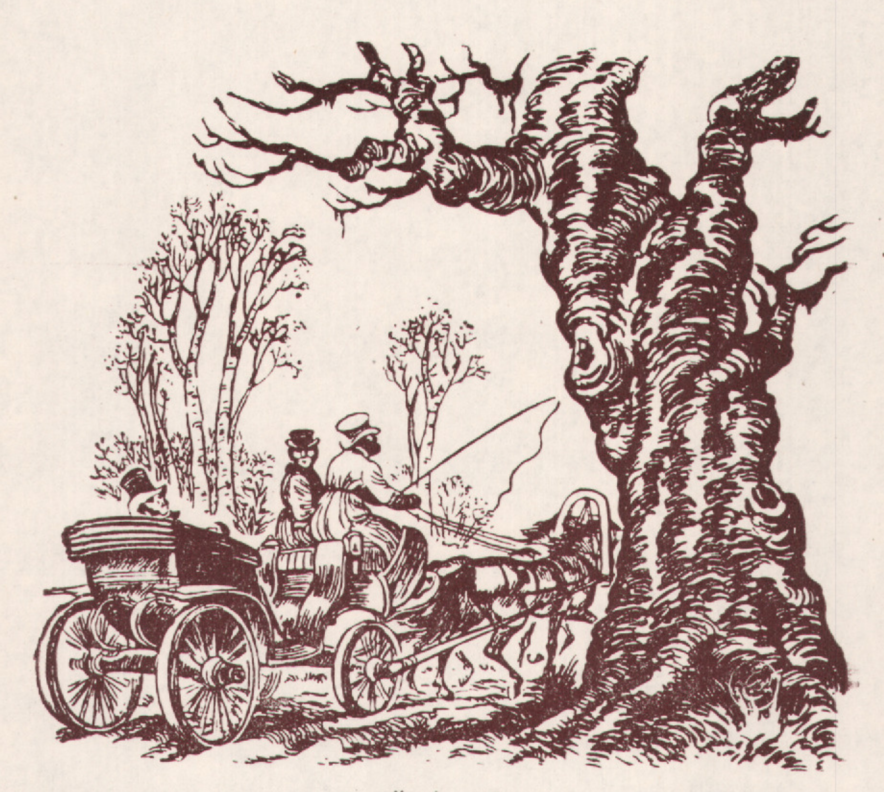

حملة عام ١٨٠٧
بحر البلطيق
خليج دونزيغ
كونغسبرغ
النيمن
نهر
تلسيت
دانتزيغ
بروسيش
ايلو
فريدلاند
برتنستن
نهر الفستولا
ثورن
اوستروليتكا
بولتوسك
الفستولا
نهر
فرصوفيا
ش



نيقولا يزور المستشفى



سبيرانسكي سكرتير الدولة



السنديانة العجوز



اول حفلة لناتاشا



الكونت نيقولا روستوف



صيد الذئاب